الفصل الثاني

الدروس والعبر المستفادة من المرحلة الثانية من غزوة الأحزاب «المعركة»

المبحث الأول

الدروس العقائدية

١ ـ ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ۝٧﴾ [الطلاق]، ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾ [الشرح]:

يقول د/ الوكيل: «وجاء الذين ذهبوا يستطلعون الخبر في بني قريظة، فألحنوا لرسول الله ﷺ لحنًا فَهِمَ منه أن قريظة قد نقضت عهدها، فرفع ﷺ صوته قائلًا: «**اللهُ أَكْبَرُ! أَبْشِرُوا يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ بِنَصْرِ اللهِ وَعَوْنِهِ**».

إن الرسول ﷺ أحس بعد نقض قريظة العهد بأنه لم يعد للمسلمين نصير إلا الله ﷻ، وحينئذ سيتجه المسلمون إليه وحده، فقد انقطعت الآمال إلا منه، وخاب الرجاء إلا فيه، وهو ﷻ أجل وأكرم من أن يدع عباده لأعدائهم، فلابد أنه ينصرهم، وكذلك أدرك الرسول ﷺ بعد نقض قريظة عقدها بأن الأمر قد اشتد شدة ليس بعدها إلا الفرج؛ لأن الأمور إذا وصلت هذا الحد من الضيق فلابد أن يعقبه الفرج القريب؛ لهذا كبَّر ﷺ وبشر المسلمين بالنصر». [تأملات في سيرة الرسول ﷺ للوكيل ١٨٢].

٢ ـ الثقة بنصر الله ﷻ:

يقول أ/ رضوان: «وحينما أقبل السعدان ومن معهما وأخبروا رسول الله ﷺ بغدر اليهود من بني قريظة لم يتزلزل كما تزلزل المسلمون، ولم يضطرب كما يضطرب أعظم القادة عند مثل هذا النبأ، بل نطق بما يدل خير دلالة على أنه رسول الله رب العالمين حقًّا وصدقًا. فصاح عند سماعه الخبر الرهيب: «**اللهُ أَكْبَرُ! أَبْشِرُوا يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ بِنَصْرِ اللهِ وَعَوْنِهِ**».

حقًّا، الله أكبر من كل قوة، ومن كان الله معه، فالنصر يسير في ركابه حتمًا، مهما تضافرت القوى، وتكالب الأعداء.

لقد بشَّر الرسول القائد ﷺ أمته عند حفر الخندق، بأن الله سيفتح على أمته اليمن والشام والمغرب والمشرق، وسوف ينصرهم الله على جيوش كسرى وقيصر كبيري ملوك الأرض، وزعيمي أعظم قوتين في ذلك الزمان، ووعدُ الله ﷻ حق، وبشارة الرسول ﷺ واقعة لا محالة.

وثقة الرسول ﷺ في النصر في هذا الموقف الرهيب، تدل خير دلالة على صدقه، وإيمانه الكامل بنصر الله له ولأمته.

وثباتُه ورباطة جأشه ﷺ في تلك المحنة، تدل على عظمة قيادته، وأنه حقًّا أعظم قـواد العـالم في جميـع العصور، فأي قائد في التاريخ نزلت به مثل تلك الكارثة، ثم صاح في جنوده بأن النصر حليفهم بكـل ثقـة وإيمان وتأكيد؟!... كلا. لم يعرف العالم مثل هذا القائد مطلقًا». [محمد ﷺ القائد الأعظم لرضوان ٩٢-٩٣].

ويقول د/ زين السيد: «مِنْ نَهْج الإسلام أنه يُعوِّد المسلم على القوة في مواجهة الأحداث والمفاجآت التي تؤثر في عامة الناس تأثيرًا سيئًا قد يؤدي إلى اليأس والقنوط، والقرآن يربي في المؤمنين الثقة بأن الله ﷻ جاعل للشدة فرجًا وللضيق سعة ومخرجًا، لا يستسلم المؤمن للآلام النفسية التي تصيبه وتضايقه، بل يتحول شعوره من اليأس والألم إلى التفاؤل والأمل، فالله تعالى يقول في محكم القرآن: ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ۝٧﴾[الطلاق].

والإسلام يوطن المؤمنين دائمًا على الاعتزاز بالله والثقة به حتى لا يقع في نفوسهم خوف مما سوى الله تعالى، إن قوى الأرض كلها لا تخيف لأنها قوى مسخَّرة لا تستمد من نفسها ولا تملك لنفسها ضرًا ولا نفعًا، والقوة التي ينبغي أن تُخاف هي القوة التي بيدها كل شيء هي المانحة حقًّا، والمانعة حقًّا، فخوفها إذن هو الخوف الواجب وخشيتها هي السبيل، فالخوف لا يكون إلا من الله ومما يخوف به الله: ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ۝٢٨﴾[الرعد].

وأمر الله لا يغلبه من المادة والدنيا أمور». [دور الحرب النفسية في غزوتي أُحد والأحزاب للسيد ١٥٣-١٥٤].

٣ ـ سمة الجدية لهذا الدين:

يقول د/ أبو فارس: «من عبارة علي ﷺ لعمرو بن عبد ود: **(لَكِنِّي وَاللهِ أُحِبُّ أَنْ أَقْتُلَكَ)** ومبارزته له بعد حواره تعطينا بصورة واضحة بارزة سِمَة من سمات هذا الدين، هذه السمة هي سمة الجدية، نعم إن عليًّا ﷺ علَّمه الإسلامُ أن يقابل الحجة بالحجة والفكرة بالفكرة، وعلَّمه كذلك أن يواجه الذين يغلقون عقولهم عن التفكير ويغمضون عيونهم عن الحق ويَصمون آذانهم عن سماع صوت الحق وتدبره واتباعه، ويتعجرفون بعد ذلك مغترين بقوتهم، لقد علَّمه أن يواجه هؤلاء بالوسيلة التي تؤدبهم، ألا وهي القوة، لقد استخدم أسلوب المنطق والعقل والحكمة فلم يُجْدِ فاستخدم بعد ذلك أسلوب القوة فأجدى وتخلص من هذه العقبة». [غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٧٣-١٧٤].

٤ ـ إثبات الكرامة للأولياء:

يقول د/ أبو فارس: «إن ما حدث لحذيفة بن اليمان ﵄ عندما سار للأحزاب في جو بارد ماطر شديد الريح وإذا به لا يشعر بهذا الجو البارد، ويمشي وكأنما يمشي في حمام، وتلازمه هذه الحالة مدة بقائه بين الأحزاب وحتى عاد إلى رسول الله ﷺ، هو معجزة لرسول الله ﷺ، ومحض كرامة من الله ﷻ لحذيفة ﷺ.

ونحن المسلمين نؤمن بالكرامات، ونعتقد بحصولها لأولياء الله الصالحين».

[غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٩٤].

٥ ـ تجريد الوحدانية لله:

يقول أ/ رضوان: «كانت الطبيعة بأمر الله خالق القوى والقدر، القاهر الجبار، تحارب مع المسلمين، حيث كان الوقت شتاء، اشتد برده بأمر خالق السموات والأرض، حتى كاد يحوِّل الأجساد إلى قطع ثلجية بيضاء لامعة، واشتدت العواصف بأمر الواحد القهار، حتى كادت تقلع الجبال من قبضة الأرض الحديدية، وأوشكت أن تجعل الأشجار كالريش تعلو به الرياح، ويتلاعب به الهواء، وكست السحب القاتمة السواد، الثقيلة الحركة، المتنفخة البطن كامرأة حامل في أيامها الأخيرة، وجه السماء، وأطفأت أنوار الشمس، وأوحت بقرب ولادتها، سيولًا من الماء المكتسح لكل ما أمامه، ونزلت جحافل من الملائكة لتكون مع المسلمين، ولحماية المسلمين من أعدائهم، والمَلَك الواحد فيه من القوة ما يستطيع به دمار الكرة الأرضية بنفخة واحدة، أو ضربة منفردة.

وهذه عوامل قاهرة، كاسحة، لم تضعها قريش وحلفاؤها في حسبانها؛ لأن خيامهم الواهية كخيط العنكبوت، لا تستطيع حمايتهم من سهام الشتاء المذيبة للعظام، وعواصفه الرملية المغلقة للعيون، المختلطة بالطعام والشراب، وكذلك لا تستطيع تلك الخيام وقايتهم من سياط الأمطار الهاطلة بقوة، وعنفوان وغزارة، فكانوا ينتفضون من جنود الشتاء المتسللة إلى أجسادهم في خفة كطيور ضعيفة فوق الأشجار، اخترقت قطرات المياه المتدفقة من بحار السماء ريشها الضعيف، ووصلت إلى لحمها الأحمر الطري.

أما جنود الإسلام العظام، فكانوا بالقرب من ديارهم ومساكنهم في وضع إستراتيجي أفضل كثيرًا من أعدائهم.

لا يبالون بطول أيام المعركة، تدفئهم رحمة الله وعنايته، ويرسل إيمانهم أشعة الدفء الممتعة إلى أجسادهم، وتحنو الطبيعة الباسمة بأمر الله عليهم حنو النسوة المرضعات على الأطفال الصغار، الذين يستكنون في أحضانهم، ويتناولون في وداعة أثداءهن المترعة باللبن الأبيض، الدافئ المنساب في شرايينهم ببذور الحياة، والنمو.

وانساب رحيق اليأس المر إلى قلوب الأعداء، فقد كانوا يتوقعون القضاء على المسلمين في يوم واحد مثل يوم أُحُد، فإذا بهم يرون ذلك حلمًا بعيدًا يتلاشى بين ضباب اليأس وسحاب العجز والإحباط».

[محمد ﷺ القائد الأعظم لرضوان ٨٩-٩٠].

ويقول د/ الغضبان: «إن الريح من جنود الله تنطلق إعصارًا عاتيًا تدمر كل شيء بأمر ربها، وتتحرق شوقًا لنصرة الله ورسوله، وتعرض على أختها الدبور أن تمضي معها، فتتعلل، ويغضب الله عليها فيجعلها عقيمًا؛ لأنها لم تسارع إلى نصرة الله ورسوله، وتنزل ملائكة السماء بدور مهم هو بث الرعب في قلوب العدو، فقد استغاث عبد الله ورسوله محمد ﷺ بجبار السموات والأرض على جبابرة الأرض.

فالله تعالى شأنه هو الذي أنهى المعركة بجنوده وريحه، وكانت المعركة كما لخصها القرآن الكريم بآية واحدة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ ﴾ [الأحزاب].

ولخص ختامها بكلمة واحدة: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرٗاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزٗا ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأحزاب].

وعاد رسول الله ﷺ يعلن هذا التجرد لله من الأحزاب بقوله: «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ، أَعَزَّ جُنْدَهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ، وَغَلَبَ الأَحْزَابَ وَحْدَهُ، فَلَا شَيْءَ بَعْدَهُ**». [البخاري في المغازي (٤١١٤)].

ثم جعلها كلمة لازمة له طيلة حياته ذاكرًا نعمة الله عليه، فعَنْ عَبْدِ الله بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ كَانَ إِذَا قَفَلَ مِنْ غَزْوٍ أَوْ حَجٍّ أَوْ عُمْرَةٍ يُكَبِّرُ عَلَى كُلِّ شَرَفٍ مِنَ الأَرْضِ ثَلَاثَ تَكْبِيرَاتٍ، ثُمَّ يَقُولُ: «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، آيِبُونَ، تَائِبُونَ، عَابِدُونَ، سَاجِدُونَ، لِرَبِّنَا حَامِدُونَ، صَدَقَ اللهُ وَعْدَهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ، وَهَزَمَ الأَحْزَابَ وَحْدَهُ**».

[البخاري في العمرة (١٧٩٧)].

وبهذا التجريد الخالص لله ـ الواحد الأحد ـ الذي نزَّل النصر من عنده بملائكته وريحه، آب المسلمون في الأرض بعدها وإلى يوم القيامة بالقائد الأعظم والقيادة الفذة في الوجود يصفها الله تعالى بقوله: ﴿ لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ﴿٢١﴾ ﴾ [الأحزاب]، فهو قدوة المؤمنين في الأرض بكل طبقاتهم إلى يوم الدين». [التربية القيادية للغضبان ٤/ ٣٧-٣٩].

٦ ـ صدق الالتجاء إلى الله تعالى وإخلاص العبودية له:

يقول د/ البوطي: «كيف وبأي وسيلة انتصر المسلمون وانهزم المشركون في هذه الغزوة؟!

لقد رأينا الوسيلة التي التجأ إليها الرسول ﷺ وأصحابه في غزوة بدر، هي نفس الوسيلة التي التجأ إليها في الخندق، إنها وسيلة التضرع إلى الله تعالى والإكثار من الإقبال عليه بالدعاء والاستغاثة، بل لقد كان هو العمل المتكرر الدائم الذي ظل الرسول ﷺ يفزع إليه كلما لقي عدوًّا، أو سار إلى جهاد، وهي الوسيلة التي تعلو في تأثيرها على كل الأسباب والتهييآت المادية الأخرى، وهي الوسيلة التي لا تصلح حالُ المسلمين إلا إذا قامت على أساسها بعناية كاملة.

أما كيف انهزم المشركون على كثرتهم، بعد ثبات المؤمنين وصبرهم وصدق التجائهم إلى الله تعالى، فقد وصف الله الكيفية في كتابه المبين إذ قال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرٗاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزٗا ﴿٢٥﴾﴾ [الأحزاب].

إن هذا المعنى الذي يتكرر في غزوات الرسول ﷺ، ليس يعني إغراء المسلمين بالمغامرة والجهاد دون استعداد وتأهب، وإنما هو لإيضاح أن على المسلم أن يعلم أن في مقدمة أسباب النصر المختلفة صدق الالتجاء إلى الله تعالى وإخلاص العبودية له، فلن تُجْدي وسائل القوة كلها إذا لم تتوفر هذه الوسيلة بعينها، وإذا تحققت في أعمال المسلمين هذه الوسيلة فحدِّث عن معجزات النصر ولا حرج.

وإلا فمن أين جاءت هذه الريح العاصفة تعصف بمعسكر المشركين وحدهم، دون أن يشعر بها المسلمون إلى جانبهم؟!..هي هناك تقلب قدورهم وتطير خيامهم وتقلع أوتادها، وتزلزل أفئدتهم بالرعب، وهي هنا ريح باردة رخاء، تنعش ولا تؤذي أحدًا!...». [فقه السيرة للبوطي ٢٣٤-٢٣٥].

٧- الريح التي سلطها الله ﷻ على الأحزاب:

يقول د/ المدخلي: «في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري ومسلم وأحمد وغيرهم أن الريح التي نُصر بها رسول الله ﷺ هي (الصبا).

والصبا كما قال الحافظ: «هي بفتح المهملة وتخفيف الموحدة الريح الشرقية، وضدها الدبور وهي الريح الغربية؛ ذلك لأنه حصل خلاف حول الريح التي نصرت رسول الله ﷺ، فمع كون الأحاديث صرحت بأنها هي الصبا جاءت بعض الأحاديث بأن الحوار حصل بين الشمال والجنوب، وحصل اختلاف حول التي أبت من نصر رسول الله ﷺ فقيل: إن التي أبت هي الشمال وقيل إنها الجنوب».

لكن الحافظ بين أن هذا الخلاف ليس له معنى وأن الصبا والدبور متعاكسان يقابلان الشمال والجنوب وهذا كلامه: الصبا: يقال لها القبول بفتح القاف لأنها تقابل باب الكعبة إذ مهبها من مشرق الشمس، وضدها الدبور وهي التي أهلكت بها قوم عاد».

قال الحافظ ومن لطيف المناسبة: «كون القبول نصرت أهل القبول وكون الدبور أهلكت أهل الأدبار، وأن الدبور أشد من الصبا.

قال: «ولما علم الله رأفة نبيه ﷺ بقومه رجاء أن يسلموا سلط عليهم الصبا؛ فكانت سبب رحيلهم عن المسلمين لما أصابهم بسببها من الشدة، ومع ذلك فلم تهلك منهم أحدًا ولم تستأصلهم».

ومن الرياح أيضًا: «الجنوب والشمال فهذه الأربع تهب من الجهات الأربع، وأي ريح هبت من بين جهتين منها يقال لها النكباء بفتح النون وسكون الكاف بعدها موحدة ومد». [فتح الباري ٢/ ٥٢١].

وقال الحافظ في موضع آخر: «وقيل: إن الصبا هي التي حملت قميص يوسف عليه السلام إلى يعقوب عليه السلام قبل أن يصل إليه وإنها هي التي تؤلف السحاب وتجمعه». [فتح الباري ٦/ ٣٠١].

وقال الهمداني: «رياح المشرق القبول وهي الصبا، ويقابلها من المغرب الدبور، والجنوب تهب من اليمن، ويقابلها الشمال، وما هب بين الجنوب والقبول يسمى النكباء، وما بين الجنوب والدبور الداجن، وما بين الشمال والدبور وهي مقابلة النكباء: «أزيب... وساق الكلام إلى أن قال: اثنتا عشرة ريحًا لاثني عشر برجًا». [صفة جزيرة العرب ٣٠٠]، وتبعه في هذا المسعودي». [التنبيه والأشراف ص ١٦].

وهكذا يتبين أن الله ﷻ جنودًا أقوياء: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾﴾ [المدثر]، فقد سلط الله ﷻ هذا النوع من جنده فزلزلت الأعداء، وأزعجهم هذا الوضع وخاصة بعد أن حصل ما حصل من التخذيل بينهم وبين حلفائهم اليهود، وظن بعضهم ببعض سوءًا، ووصل الخلاف والتنافر بين الفريقين إلى درجة أصبح الحلف العسكري المعقود بينهما في حكم المنتهي، وصار كل فريق يحمل الآخر مسؤولية انفصام عرى هذا الحلف.

عندئذ سلط الله عليهم القوة الإلهية، وقد فكرت عندئذ القيادة المشتركة للأحزاب في إنهاء الحصار المضروب على المدينة، والرجوع بجيوشها كلٌّ إلى بلاده، وترك اليهود وشأنهم ليلقوا مصيرهم الرهيب، وفي النهاية وعندما أذن الله وأراد نصر أوليائه هبت على المنطقة التي يعسكر فيها الأحزاب رياح قوية كانت لقوتها تقتلع الخيام وتهد الأبنية وتكفأ القدور، ولا تترك نارًا تشتعل».

[مرويات غزوة الخندق للمدخلي ٤١٢-٤١٥].

٨ ـ بيان العذاب الدنيوي الذي لحق بجيوش الأحزاب:

يقول د/ الفنيسان: «بما أرسل الله عليهم من الريح العاصفة الشديدة التي نسفت عليهم التراب ورمتهم بالحجارة، فأطفأت نيرانهم، وكفأت قدورهم، وقطعت أطناب خيامهم، وما سمعوا في جنبات المعسكر من التكبير وقعقعة السلاح، علاوة على ما بثه الله من الرعب في قلوبهم».

[غزوة الأحزاب للفنيسان ٢٢٩].

٩ ـ الأخذ بالأسباب من تمام العقيدة:

يقول د/ الصلابي: «ودعاء رسول الله ﷺ ربه، واعتماده عليه وحده، لا يتناقض أبدًا مع التماس الأسباب البشرية للنصر، فقد تعامل ﷺ في هذه الغزوة مع سنة الأخذ بالأسباب، فبذل جهده لتفريق الأحزاب، وفك الحصار، وغير ذلك من الأمور التي ذكرناها. [ينظر: فقه السيرة النبوية للغضبان ص٥٠٣].

إن رسول الله ﷺ يعلمنا سنة الأخذ بالأسباب، وضرورة الالتجاء إلى الله وإخلاص العبودية له؛ لأنه لا تجدي وسائل القوة كلها إذا لم تتوافر وسيلة التضرع إلى الله والإكثار من الإقبال عليه بالدعاء

والاستغاثة، فقد كان الدعاء والتضرع إلى الله من الأعمال المتكررة الدائمة التي فزع إليها رسول الله ﷺ في حياته كلها». [ينظر: فقه السيرة للبوطي ص٢٢٢]. [السيرة النبوية للصلابي ٢/ ٢٧٤].

ويقول د/ المجذوب: «تتابعت الأيام والحصار مستمر، الكفار من الأمام واليهود من الخلف، والأحوال تزداد سوءًا، وأخذ الرسول العظيم ﷺ يفكر ويدبر ويدعو الله أن يُفرج الكرب، ويُذهب الخوف والفزع من نفوس المسلمين، وفي نفس الوقت يحاول أن يأخذ بالأسباب ليُعَلِّم المسلمين أن النصر والنجاح والفلاح لا تكون إلا بالعمل والبذل والتضحية وإعمال الفكر، وأن الإسلام ليس تصريحًا أبديًّا للمسلمين باحتكار النصر والرفعة والثروة والجاه دون جهد أو عناء». [المستوطنات اليهودية للمجذوب٩٥].

ويقول الشيخ أبو خوات: «كدرس عام نستطيع الانتفاع به من الغزوات كلها: «علينا أن نعمل جهدنا في سبيل تحقيق أغراضنا الحقة، ثم نطلب النصر والتأييد من الله»، هذا الدرس قدر مشترك بين الغزوات كلها بل بين الأعمال التي يناط بنا جماعيًّا أو فرديًّا تحقيقها.

فالإنسان لم يعط قابلية التعلم والقدرة على التفكير عبثًا، وإنما ليستعمل كل القدرات الممنوحة له فيما تصلح له، فالمسلمون هنا علموا بأن حييًّا وزملاءه قد ضربوا في كل أرض العرب يجمعون لرسول الله ﷺ حتى اجتمع على حربه عدد لم يحدث مثيله في معركة من قبل، فاستعملوا العلم والتجربة فحفروا الخندق بينهم وبين الأعداء المشركين، ولما علموا بنقض اليهود عهدهم، ولما انفض المنافقون، ولم يبق منهم إلا المخلصون لم يهنوا ولم يستسلموا، وإنما وقفوا يدافعون عن وطنهم وعن مبادئهم وعن شرفهم وكرامتهم، وكانوا متفرغين للمعركة لم يشغلهم عنها شاغل، حتى إن الصلاة قد فاتتهم في بعض الأيام الخمسة عشر، وصلاهم النبي ﷺ قضاء بعد.

وإلى هنا أدوا واجبهم الدفاعي كأحسن ما يؤدى، ولقد أمدهم الله بسببين للنصر: بشري لم يدبروه، وطبيعي من عند الله لم يصنعوه له...

فأما الأول: فقد هدى الله نعيم بن مسعود ﷺ للإيمان، وتمكن من مقابلة النبي ﷺ فعرض عليه إسلامه الذي لم يعلم به أحد من قومه، وطلب أن يكلفه أي عمل يسهم به في النصر، فجاءه الأمر: «**إِنَّمَا أَنْتَ فِينَا رَجُلٌ وَاحِدٌ، فَخَذِّلْ عَنَّا إِنِ اسْتَطَعْتَ، فَإِنَّ الْحَرْبَ خَدْعَةٌ**»، وصدع نعيم ﷺ بالأمر وتصرف من ذات نفسه حتى أوقع بين اليهود والمشركين، وشكك كلًّا منهما في وفاء الآخر بما تعاهدا عليه، وتمكن من جعل اليهود ينفضون أيديهم من العهد بعد أن طلبوا من المشركين رهائن فأبى المشركون وصدَّقوا ما قاله لهم نعيم ﷺ.

وبذلك تفرق أمرهم بعد أن كان مجتمعًا، وصارت كل قبيلة تفكر لنفسها وتتساءل: ما مقامنا هنا بعد غدر يهود ورجوعهم عن العهد، ثم ترحل.

والسبب الثاني: الإلهي، وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [الأحزاب: ٩] اشتدت الريح حتى هدمت بناءهم وكفأت قدورهم وشعر كل منهم أن مكانه ليس بدار مقام.

يقول حذيفة الذي دخل متخفيًا في صفوفهم: «فَدَخَلتُ فِي القَوْمِ وَالرِّيحُ وَجُنُودُ اللهِ تَفْعَلُ مَا تَفْعَلُ: لَا تَقِرُّ لَـهُمْ قِدْرٌ وَلَا نَارٌ وَلَا بِنَاءٌ».

وهكذا أيها المسلم عليك ألا تترك ثغرة ينفذ منها عدوك مع شدة الحذر وحسن التدبير بما وهبك الله من علم وعقل، ثم توكل على الله يجعل لك مع العسر يسرًا ومن الضيق فرجًا... رحل الجيش كله، ودخل حيي بن أخطب في حصن سيد قريظة كعب بن أسد، وبقي الأمر بين المسلمين من جانب، وبين اليهود من جانب آخر». [دروس من غزوات الرسول ﷺ لأبي خوات ٩٠-٩٢، وينظر للتفصيل: المسائل العقدية المستنبطة من غزوة الخندق لطيب ٥٨-٨٨].

١٠ ـ العُصبة المؤمنة حول القائد الأعظم ﷺ:

يقول د/ الغضبان: «القائد الأعظم بلا عصبة مؤمنة عاجز عن أن يفعل شيئًا، ولا أدل على هذه الفكرة من قصة بني إسرائيل مع موسى عليه السلام، فموسى عليه السلام أحد خمسة هم أعظم أهل الأرض، وهم أولو العزم من الرسل، وها هو يبلغ قومه أمر الله تعالى لهم: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾﴾ [المائدة].

فهم قد اختارهم الله تعالى كما اختار هذه العصبة المسلمة، وجعل فيهم من المميزات والخصائص ما يؤهلهم لهذه المسؤولية، فجعل فيهم الأنبياء، وجعلهم ملوكًا، فهم قادة إذن وشخصيات قيادية، وصدر لهم الأمر من قائدهم الأعلى: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ وحذرهم من مغبة التراجع أو التباطؤ؛ إذ تكون عاقبته الخسارة ﴿وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾﴾ وهو أعظم قادة الأرض وسادتها بعد المصطفى ﷺ، غير أن العصبة المؤمنة حوله تخاذلت وجبنت، فلم يعفها هذا الموقف من العزيمة أولًا، ثم العقوبة الربانية بعد ذلك، وحيل بينها وبين النصر أربعين عامًا، وشردت في التيه، وعلى رأسها كليم الله موسى عليه السلام: ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [المائدة].

لقد تخلت القاعدة الصلبة كلها، وخذلت قائدها الأعظم، فلم يعفها شرفها وماضيها، وعبقريتها من العقوبة بطلب قائدها ﷺ: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِيۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْۛ أَرْبَعِينَ سَنَةًۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [المائدة].

هذه هي القاعدة الصلبة التي كانت حول موسى ﷺ، فكيف كانت القاعدة الصلبة والعصبة المؤمنة حول رسول الله ﷺ وقد صدر لها الأمر بالمواجهة؟!

لقد صدرت الأوامر النبوية بحفر الخندق وتوزيعه بين المهاجرين والأنصار، على قوم لم يسبق لهم أن قاموا بمثل هذه المهمة، فهم يكلفون بها لأول مرة حتى أن آلات الحفر لا يملكونها، والجوع قد خيم عليهم فلا طعام ولا زاد، والبرد القارس ينهش منهم ولا مأوى لهم منه إلا بيوتهم. فكيف تم التنفيذ؟

(أ) لم يتعللوا بعدم وجود آلات الحفر، ليتخلصوا من هذه المهمة الشاقة، ويطالبوا قيادتهم بعقد مصالحة مع العدو قبل أن يستبيح بيضتهم، فتغلبوا على هذه المهمة (واستعاروا من بني قريظة آلة كثيرة من مساحٍ وكرازين ومكاتل يحفرون به الخندق، وهم يومئذ سلم للنبي ﷺ، أي بنو قريظة).

(ب) ولم يقوموا بعصيان مدني ليسقطوا به الحكومة نتيجة الأزمة الاقتصادية الخانقة، وإجبارهم على العمل وهم هلكى من الجوع، كما فعل قوم موسى ﷺ يوم أعلنوا عصيانهم: ﴿إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَاۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ فقد خرج رسول الله ﷺ إلى الخندق، فإذا المهاجرون والأنصار يحفرون في غداة باردة، وفي الرواية الثانية: جعل المهاجرون والأنصار يحفرون الخندق حول المدينة، وينقلون التراب على متونهم وهم يقولون:

نَحْنُ الَّذِينَ بَايَعُوا مُحَمَّدَا　　　عَلَى الجِهَادِ مَا بَقِينَا أَبَدَا

إنها ليست مظاهرة لإسقاط الحكومة، بل مبايعة على الموت والفداء والجهاد.

قال: يقول النبي ﷺ وهو يجيبهم:

اللَّهُمَّ إِنَّه لَا خَيْرَ إِلَّا خَيْرُ الآخِرَهْ　　　فَبَارِكْ فِي الأَنْصَارِ وَالمُهَاجِرَهْ

وما أسعدهم في دعوة نبيهم لهم.

أما طعامهم قال أنس ﷺ: يُؤْتَوْنَ بِمِلءِ كَفِّي مِنَ الشَّعِيرِ فَيُصْنَعُ لَـهُمْ بِإِهَالَةٍ سَنِخَةٍ تُوضَعُ بَيْنَ يَدَيْ القَوْمِ، وَالقَوْمُ جِيَاعٌ، وَهِيَ بَشِعَةٌ فِي الحَلقِ، وَلَهَا رِيحٌ مُنْتِنٌ.

ولعل هذا الطعام إنما تقدمه السجون في أيامنا للمجرمين، بينما نقدم المآدم الضخمة والولائم الضخمة لصنعاء الحكومة والعاملين فيها.

وعلى المؤمنين الصادقين أن يحفروا الخندق وبالسرعة المطلوبة، وبالمدة المقررة بهذا الطعام البشع في الحلق، ذي الريح المنتنة، ومع ذلك كانوا أشد ما يكونون التزامًا بأمر حبيبهم المصطفى ﷺ.

(ج) ولم يثيروا حربًا شعواء على تشغيلهم الأشغال الشاقة، دون خبرة مسبقة، فلم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم، فلما رأى ما بهم من النصب والجوع قال:

اللَّهُمَّ إِنَّ العَيْشَ عَيْشُ الآخِرَهْ ... فَاغْفِرْ لِلأَنْصَارِ وَالمُهَاجِرَهْ

فقالوا مجيبين له:

نَحْنُ الَّذِينَ بَايَعُوا مُحَمَّدَا ... عَلَى الجِهَادِ مَا بَقِينَا أَبَدَا

إنه المجتمع الذي يقوم على الحب، والذي لم تشهد البشرية له مثيلًا، ويقوم على الإيمان، ومن الإيمان يستمد الحاكم فيه سلطته.

وأمام هذا الصبر على التعب، والصبر على الجوع، والصبر على البرد، كانت الاستضافة الربانية الأولى والثانية التي تحدثنا عنها فيما سبق، ورفعت وتيرة الإيمان إلى القمة ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ [التوبة].

وأدى المؤمنون مهمتهم بنجاح فائق وحُفر الخندق خلال المدة المقررة، ونفذت الخطة الحربية خلال ستة أيام، ومن اللحظات الأولى لوصول الخبر إلى المدينة، كان بدء العمل بها، فلم تضع لحظة واحدة.

واستمر الحصار خمسة عشر يومًا وجاؤوهم من فوقهم ومن أسفل منهم، وكانت المحنة الرهيبة أن نقض بنو قريظة العهد، وفُتحت جبهة داخلية، فأصبح المسلمون وذراريهم ونساؤهم تحت رحمة اليهود، فكيف كان موقف العصبة المؤمنة؟!

﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾ [الأحزاب].

هذا هو الوصف الرباني لهم، وهذا هو الثناء الإلهي عليهم.

أخرج ابن جرير وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ﴾ إلى آخر الآية قال: إن الله تعالى قال لهم في سورة البقرة: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ [البقرة]. [الدر المنثور للسيوطي ٦/ ٥٨٥].

فقد وصلوا إلى ذروة المحنة، وجاءهم مثل الذين خلوا من قبلهم: ﴿وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾ [الأحزاب]، وقال النبي ﷺ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾.

فقد استبشر المؤمنون بأن وصولهم إلى ذروة المحنة والزلزلة يعني اقتراب نصر الله، وهو وعد الله ورسوله، ويفسر القول الثاني في التفسير القول الأول، فوعد الله هو في آية البقرة، ووعد رسوله هو في قلب الخندق وأثناء الحفر.

فقد روى كثير بن عبد الله بن عمرو المزني عن أبيه عن جده قال: خطب رسول الله ﷺ عام ذكرت الأحزاب فقال: «**أخبرني جبريل عليه السلام أن أمتي ظاهرة عليها ـ يعني على قصور الحيرة ومدائن كسرى ـ فأبشروا بالنصر**»، فاستبشر المسلمون وقالوا: الحمد لله موعد صادق، إذ وُعدنا بالنصر بعد الحصر، فطلعت الأحزاب فقال المؤمنون: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ ذكره الماوردي، ﴿وَمَا زَادَهُمۡ إِلَّآ إِيمَٰنٗا وَتَسۡلِيمٗا ٢٢﴾ قال الفراء: وما زادهم النظر إلى الأحزاب إلا إيمانًا وتسليمًا،... والمعنى: ما زادتهم الرؤية إلا إيمانًا بالرب وتسليمًا للقضاء، قاله الحسن... ولما اشتد الأمر على المسلمين وطال المقام في الخندق قام ﷺ على التل الذي عليه مسجد الفتح في بعض الليالي، وتوقع ما وعده الله من النصر... ورفع رسول الله ﷺ يده يقول: «**يَا صَرِيخَ الْمَكْرُوبِينَ، وَيَا مُجِيبَ الْمُضْطَرِّينَ، اكْشِفْ هَمِّي وَغَمِّي وَكَرْبِي، فَقَدْ تَرَى حَالِي وَحَالَ أَصْحَابِي**»، فنزل جبريل عليه السلام وقال: «**إن الله قد سمع دعوتك وكفاك هول عدوك**»، فخر رسول الله ﷺ على ركبتيه وبسط يديه، وأرخى عينيه وهو يقول: «**شكرًا شكرًا كما رحمتني ورحمت أصحابي**»، وأخبره جبريل عليه السلام أن الله تعالى مرسل عليهم ريحًا فبشر أصحابه بذلك.

[الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي ٧/ ١٥٧ الآية ٢٢ من سورة الأحزاب].

وقد مر ـ في عرض الغزوة ـ الكثير مما مر بالمسلمين، فلقد مستهم البأساء والضراء وصبروا حين البأس صبر الأبطال العظام.

لقد حفروا بسواعدهم وعرق جبينهم الخندق، وحموه بسيوفهم ورماحهم، وذادوا عنه وعن المدينة بدمائهم وأموالهم حتى رد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرًا.

وصبروا في البأساء والضراء وحين البأس، وجاءهم نصر الله، واستحقوا ثناء الله ﷻ: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمۡ إِلَّآ إِيمَٰنٗا وَتَسۡلِيمٗا ٢٢﴾ [الأحزاب].

ووعى المؤمنون درس أُحُد، فلم يستطع معسكر النفاق وحزبه أن ينزل رجلًا واحدًا من الصف المؤمن إلى جواره، بينما استطاع معسكر الإيمان، أن ينتزع الكثير من معسكر النفاق ويضمهم تائبين، مخلصين، معتصمين بالله ويصبحوا أعضاء في الصف المؤمن، وتم حصار حزب النفاق حتى ليكاد يختنق من المؤمنين، وإنما انتشى وانتفش، وعربد يوم رأى أحبابه من اليهود، والمشركين قد جاؤوا لمدده.

لقد نجح الصف المؤمن في توحيد كلمته وخلاصه من حب الدنيا وإرادتها التي أدين بها في أُحُد، ونجح في معركة العقيدة التي خاضها، فتبرأ من حوله وقوته، وما زادته المحنة إلا إيمانًا وتسليمًا، وقد خلص من حظ نفسه كلها، وهو يرى قائده يضرع قبل النصر بقوله: «**اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الكِتَابِ، سَرِيعَ الحِسَابِ، اهْزِمْ الأَحْزَابَ، اللَّهُمَّ اهْزِمْهُمْ وَزَلْزِلْهُمْ**».

وبعد إجابة الدعاء والاحتفال بالنصر يقول: «لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، آيِبُونَ، تَائِبُونَ، عَابِدُونَ، سَاجِدُونَ، لِرَبِّنَا حَامِدُونَ، صَدَقَ اللهُ وَعْدَهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ، وَهَزَمَ الأَحْزَابَ وَحْدَهُ». [البخاري في العمرة (١٧٩٧)].

وجعلها ملازمة له في حياته كلها، كلما قفل من الغزو أو الحج أو العمرة، لتبقى دائمًا حية يقظة في قلوب المؤمنين». [التربية القيادية للغضبان ٤/ ٤٠-٤٥، ٨٧].

ويقول د/ زين السيد: «ما أجمل هؤلاء الأبطال الذين تربوا على يدي أستاذ الإنسانية نبيه الأكبر ﷺ.

والذي كان لهم شرف التخرج في مدرسة المعلم الأول فيها، لقد علموا أن العزة في الجهاد فجاهدوا، وأن الذل في الركون إلى الدنيا فلم يمكنوها أن تغزو قلوبهم ولبوا نداء الحق عندما دعاهم قائلًا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾ ﴾ [آل عمران].

فكانوا جديرين بهذه الأوسمة الربانية الرفيعة حقيقة بتلك الدرجات العالية التي جمعها القرآن الكريم في قوله تبارك وتعالى: ﴿ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [التوبة].

ولعل المحن هي البوتقة التي تنصهر فيها النفوس لينفي خبيثها ويصنع طيبها: ﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ ﴾ [الرعد: ١٧] فما التقى الحق في ميدان من الميادين إلا زهق الباطل وولى الأدبار؛ لأن الباطل لم يستيقظ إلا في غفلة أهل الحق: ﴿ بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞۚ ﴾ [الأنبياء: ١٨] لقد أنزل الله السكينة وثبّت الأقدام وربط على القلوب فانهزم أعداء الله وانتصرت جيوش الحق وكان للانتصار الباهر الذي حققه البطل المسلم في غزوة الخندق وغيرها آثار كبيرة، وأهداف عليا؛ لأن يثرب كانت أول المدن الإسلامية تكوينًا وامتدادًا وأكبر من هذا كله أن النصر في هذه الغزوة جاء عقيب ليل شديد الظلمة، قارس البرودة عندما أوشك اليأس أن ينسج خيوطه على النفوس، حينما جاء الأحزاب من كل جانب وحاصروا المدينة واشتد الخوف بالمسلمين حتى بلغت القلوب الحناجر كما صور لنا ذلك القرآن الكريم: ﴿ إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ ﴾ [الأحزاب] جاء النصر ليبدد ظلمة هذا الليل البهيم ويقيم في نفوس المؤمنين الأمل بمستقبل إسلامي مشرق ويبني في القلوب صروح الفوز والنصر باذخة عالية لا يعرف اليأس إليها سبيلًا». [دور الحرب النفسية في غزوتي أُحد والأحزاب للسيد ١٤٣-١٤٤].

١١ - خطورة النفاق على الصف المسلم:

يقول الشيخ المسند: «للمنافقين دور كبير في الحرب كما لهم دور في السلم وهدفهم دائمًا التخريب والانضواء في صفوف المسلمين مُبطنين ما لا يُظهرون، إن أصاب المسلمين خير قالوا نحن معكم، وإن أصابهم بلاء قالوا لم نكن معكم، وفرحوا به، وهم أعين سوء تنقل أخبار المسلمين السيئة إلى أعدائهم.

وقد دفعهم النفاق والخوف والخور إلى سلوك هذا المسلك فهم يقولون: نريد أن نجعل لنا يدًا مع هؤلاء وهؤلاء فصاروا مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، بل أدركوا غضب الله ومقته ولم يدركوا رضاء أحد من الفريقين.

والنفاق مرض خبيث يكمن في النفوس ولا يظهر إلا عند الحاجة؛ ولذلك لم ينته من المجتمع الإسلامي ولم يتمكن المسلمون من القضاء عليه.

وفي هذه المعركة اتفق منافقو المدينة مع قريش أن يكونوا معهم وأن ينقضوا على المسلمين من الخلف عندما تنشب المعارك واستعدوا لذلك وساروا على التخطيط الذي وضعه المشركون وهو هجوم المشركين من المقدمة وانبعاث المنافقين من الوسط ومدد اليهود من الخلف، ولكن باءت كل هذه الأفكار بالفشل، وكُبت أعداء الله ولم يحققوا ما اتفقوا عليه ما عدا التخذيل وإثارة الشكوك والظنون، وقد أثبت الله تعالى في ذكر أخبار هذه المعركة صفات يتحلى بها المنافقون نلخصها هنا ليستفيد منها المسلمون ويحذروا مَنْ يتصف بها فمنها: تكذيب الله ورسوله وإنكار ما وعد به: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ ﴾[الأحزاب].

ومنها: الإرجاف بمن حولهم ومحاولة التأثير على المسلمين: ﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ﴾[الأحزاب: ١٣].

ومنها: الفرار والهرب من المعركة والبعد عن مواقع الخطر وانتحال الأعذار: ﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ ﴾[الأحزاب].

ومنها: عدم ثبات الإيمان في قلوبهم واستعدادهم للتحول والنفير والنكوص عن الأيمان وعما عاهدوا عليه: ﴿ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ ﴾[الأحزاب].

ومنها: نكث العهد وإخلاف الاتفاق: ﴿ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ ﴾[الأحزاب].

ومنها: أنهم أصحاب وجهين يصبحون بوجه ويمسون بآخر، ويتلونون كما تتلون الحرباء، ويلينون إلى أشد أنواع اللين ويقسون في الظاهر إلى أشد القسوة، إذا لمحوا طريقًا يدركون به عرَضًا من الدنيا فهم

أبخل الناس وأشدهم حبًّا للمال لأنه هو هدفهم: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۚ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ﴾[الأحزاب: ١٩].

ومنها: عدم الانتفاع بهم ولو كانوا كثرة، فهم مع المسلمين بأبدانهم لكن قلوبهم ليست معهم حتى إنهم يسألون عن أخبار المؤمنين وهم بين أظهرهم ولا يدرون ما يجري إذا لم يكن لهم مصلحة مالية: ﴿أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا ۖ وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾﴾[الأحزاب]».

[متى ينتصر المسلمون؟ للمسند ٧٣-٧٦].

١٢ ـ حزب النفاق والتربية القرآنية:

يقول د/ الغضبان: «سنتان فقط من الجهد الدؤوب في التربية، نلاحظ من خلالها كيف خفت حزب النفاق، وانكمش على نفسه بعد أن انتشى في أُحُد، وعاد بثلث الجيش جهارًا نهارًا، وانتفش بسلامته، وسلامة أعضائه حيث أصاب الضر والبلاء المسلمين. فما هو حجم هذا الحزب اليوم؟

لو تتبعنا كتب السيرة والتراجم لنبحث عن دور حزب النفاق، في هذه المعركة لأعيانا البحث حتى نجد ثلاث روايات، ولولا أن القرآن أثبت هذا الأمر، لشككنا في وجود الحزب كله، لضعف الروايات من الناحية الحديثية.

لو طبقنا المعايير الحديثية، في الروايات السابقة جميعًا، لوجدنا أنها تفتقر إلى السند الصحيح، والذي يثبتها ولو وضعنا في تبني هذا الخط، لكان علينا ألا نذكر هذا الموضوع إطلاقًا، لعدم ثبوته في نصوص السيرة، ولكن القرآن الكريم لم يثبته فقط، وإنما تحدث عنه في ثماني آيات طوال، استغرقت نصف الحديث عن غزوة الأحزاب، وبني قريظة مجتمعين، ومن هنا نرى خطورة الإصرار على ألا نقبل في السيرة، إلا النصوص الصحيحة القطعية، كما نفعل في الحديث الذي نستنبط منه الأحكام الشرعية؛ ولهذا رأينا أن علماء الحديث الكبار، الذين كتبوا في السيرة، لم يطبقوا منهجهم المعتمد في الحديث فيها، وإنما نقلوا كثيرًا من الروايات لمن لا يروون لهم إطلاقًا في الحديث، وهذا ما ذكره الدكتور العمري ـ حفظه الله ـ الذي تبنى هذا الخط فقال: وقد وردت روايات ضعيفة تحكي أقوالهم، في السخرية، والإرجاف والتخذيل، ولكن القرآن الكريم يتكفل بتصوير ذلك أدق تصوير[السيرة النبوية الصحيحة لأكرم العمري ٢/ ٤٢٤]، وفقه المحدثين الكبار في هذا المجال جعلهم يتعدون عن الروايات الضعيفة أو الموضوعة، ويختارون الروايات الأخرى، التي تمثل الخط العام لكتاب السير، وفي الوقت الذي لا يأخذون للواقدي رواياته شيئًا في مجال الحديث النبوي، نراهم يأخذون عنه في كل أحداث السيرة، ولا يكاد يخلو موضوع لا يروى له فيه.

وبالأخذ بروايتي المفسرين، نجد أكبر رقم ذُكر للمنافقين هو ثمانون وهم الذين رجعوا إلى المدينة دون

إذن رسول الله، وقد توعدهم القرآن الكريم لموقفهم هذا بقوله ﷻ: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [النور].

وهدد الذين يمضون بدون إذن، بخروجهم من الإيمان، حيث ربط الاستئذان بالإيمان حصرًا: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾ [النور].

والرواية الثانية التي تذكر أن عدد الذين قالوا: ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورًا سبعون، ومع الأخذ بهذه الرواية وسابقتها يمكن القول: إن النسبة انخفضت كثيرًا عما كانت عليه في أُحُد فنسبة سبعين إلى ثلاثة آلاف تختلف كثيرًا عن نسبة ثلاثمائة إلى تسعمائة. ففي أُحُد تكاد تُجمع الروايات على انسحاب ثلث الجيش الإسلامي مع عبد الله بن أبي، وهذا العدد هو غير المنافقين الذين بقوا في الجيش، وأظهروا نفاقهم بعد هجوم خالد ومحنة الجيش الإسلامي، وهذا يؤكد عظمة التربية التي تمت من خلال القرآن الكريم، وعلى يدي رسول الله ﷺ حتى ليبقى أمرًا نشازًا ومستنكرًا وجود النفاق والمنافقين، وفي قلب هذه المحنة التي اشتد فيها الخوف إلى أقصاه، كُشفت هذه النفوس الخبيثة التي وصفها القرآن الكريم بأن فيها مرضًا، وكان هذا المرض هو الشك في الله ورسوله وصدق موعوده.

[نقلًا عن المنهج التربوي للسيرة النبوية ـ التربية الجهادية ١/ ٢٣٠ للمؤلف [د/ الغضبان].

ونتساءل بعد هذا كله: لم أخذ الحديث عن المنافقين هذا الحجم الضخم رغم ضآلة وجودهم وقلتهم، بعد أن تقلص عددهم في الصف الإسلامي من ثلاثين في المائة إلى اثنين في المائة؟

والجواب واضح، إنها التربية القرآنية التي تريد أن تنهي هذا الحزب كله، ومن أجل ذلك، لم يقف القرآن عند حجمهم وعددهم، وإنما راح يتابع مواقفهم النفسية من وراء هذه المقولات التي يقولونها، والتي لا يدع القرآن الكريم منها شاردة ولا واردة إلا ويسجلها، ويحصي عليهم أنفاسهم، ويسجل حركاتهم وقناعاتهم ومشاعرهم.

«فقد وجد هؤلاء في الكرب المزلزل، والشدة الآخذة بالخناق فرصة للكشف عن خبيئة نفوسهم وهم آمنون من أن يلومهم أحد، وفرصة للتوهين والتخذيل وبث الشك والريبة في وعد الله ووعد رسوله، وهم مطمئنون أن يأخذهم أحد بما يقولون، فالواقع بظاهره يصدقهم في التوهين والتشكيك، وهم مع هذا منطقيون مع أنفسهم ومشاعرهم، فالهول قد أزاح عنهم ذلك الستار الرقيق من التجمُّل، وروَّع نفوسهم ترويعًا لا يثبت له إيمانهم المهلهل! فجهروا بحقيقة ما يشعرون غير مبقين ولا متجملين!

ومثل هؤلاء المنافقين والمرجفين قائمون في كل جماعة، وموقفهم في الشدة هو موقف إخوانهم هؤلاء، فهم نموذج مكرر في الأجيال والجماعات على مدار الزمان!». [في ظلال القرآن ٥/ ٢٨٣٨].

ونمضي مع القرآن الكريم في تربيته لهذا الحزب المتفكك الذي لم يصل إلى مستوى الولاية التنظيمية في صفة ﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ﴾ [التوبة: ٦٧]، بينما ذكر المؤمنين بقوله: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ [التوبة: ٧١]، ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ ﴾ [الأحزاب].

أما ظروف هذا القول فهي كما رواها البيهقي في الدلائل والطبري في تفسيره، وابن حجر في الفتح في ظروف حفر الخندق التي سبق تفصيلها في عرض الغزوة.

فالمنافقون يعملون مرغمين كارهين في الخندق، وهم كالون من التعب والإعياء، وقلوبهم تفح سمًا على محمد ﷺ، الذي جاءهم بهذا البلاء، فقد كانوا آمنين من أي اعتداء خارجي، وها هم الآن تعصف بهم الأهوال، فقريش، وحلفاؤها على وشك الوصول لإبادتهم والمسلمين، ولكن ما يفعلون وقومهم قد تفانوا جميعًا بحب محمد ﷺ، واعتنقوا هذا الدين الذي نسوا به حياتهم، وأهلهم، وبلدهم، وليس من العقلاء الكبار من بقي على وعيه ـ حسب ظنهم السيء ـ إلا عبد الله بن أبي، وقد تحطم منذ قليل، وافتضح بعد غزوة بني المصطلق، وحديث الإفك.

وها هم يسمعون محمدًا ﷺ يتحدث عن كنوز كسرى وقيصر، في الوقت الذي يحفرون الخندق، خوفًا من مداهمة عدوهم لهم، وها هم الأحزاب قد جاؤوا من الحجاز ونجد، ويجرون فرسان العرب وشجعانهم لاستئصال محمد وحزبه، وانتشر الرعب والفزع لدى الجميع حتى ما يأمن أحد أن يخرج إلى حاجته.

ولعل المنافقين بقوا يكظمون غيظهم، عند وصول الأحزاب من قريش وغطفان، وأسد، وسليم، فقد لا يتمكن هؤلاء من تجاوز الخندق، وبقي الحديث همسًا وغمزًا ولمزًا في صفوفهم، فلم تبدو البيئة المناسبة بعد لهذا الحديث، وقد يُقضى عليهم لو وقفوا وحدهم يرجفون ويشككون.

لكن متى انتقل هذا الحديث إلى العلن، وأصبح تحديًا سافرًا بعد أن كان صوتًا مخنوقًا؟!

نقدر أن ذلك تم بعد نقض قريظة العهد، كما في رواية موسى بن عقبة. فقال سعد بن عبادة ﷺ: عضل والقارة ـ يعني كغدر عضل والقارة ـ بأصحاب الرجيع.

فالمنافقون إذن عندما استحكمت حلقات المحنة، ورأوا أنهم قد حصروا من كل جانب، كما ذكر القرآن الكريم: ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ ﴾ [الأحزاب].

في قلب هذا الزلزال، وفي قلب هذا الخوف الذي أصبح سمة عامة في الجيش كله، جاءت بشارة رسول الله ﷺ بالنصر بعد الحصر، وتفتح البيت العتيق، وأخذ مفتاحه، وهلاك كسرى وقيصر، وإنفاق كنوزهما في سبيل الله.

فأما المؤمنون فقالوا: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾.

أما المنافقون فقد أصبح لهم أرض خصبة يعيشون فيها، وهم يتوقعون أن نهاية محمد قد أزفت، فمن الذي ينقذه من قريظة والأحزاب، وقد أحاطوا به من فوقه ومن أسفل منه، عندما انتقل الهمس إلى الذيوع والعلن، وقالوا: ألا تعجبون من محمد يعدنا أن نطوف بالبيت العتيق، وأن نقسم كنوز فارس والروم، ونحن ها هنا لا يأمن أحدنا أن يذهب إلى حاجته. والله لما يعدنا إلا غرورًا.

وحيث جاء التعبير القرآني بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [الأحزاب: ١٢]، فهذا يعني أنه لسان حالهم جميعًا، سيان كان القائل معتب بن قشير أو غيره، وحده أو كان معه آخرون، لكن هذه القناعة قناعة المنافقين جميعًا، وقناعة الذين في قلوبهم مرض.

وأن يعير المنافقون بالكفر، فهذا لا يضيرهم كثيرًا فهؤلاء الأحزاب العشرة آلاف جميعهم كفار، غير أن هذا يؤثر عليهم في المجتمع الإسلامي، وحيث ارتفعت معنوياتهم باحتمال انتصار اليهود والأحزاب، فلن يخافوا من سمة الكفر، حين تصبح المدينة محتلة من اليهود، والأحزاب العربية الكبرى.

لكن الذي يندى له الجبين أن يعيروا بالجبن، وهذه هي الحلقة الثانية من ملاحقتهم في أعماق نفوسهم: ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟﴾ [الأحزاب: ١٣]، فهي دعوة صريحة للاستسلام للعدو.

وقال آخرون ممن معه: ائذن لنا فإن بيوتنا عورة ﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾﴾، فهو وصمهم بالكذب، ووصمهم بالجبن، فهم يريدون الفرار من المواجهة مع العدو وحربه، وهم كاذبون حين يزعمون أن هدفهم المحافظة على بيوتهم من غطفان، والله تعالى يقول: إن هدفهم ليس حماية بيوتهم إنما هدفهم الفرار من المعركة، والدليل على ذلك: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾﴾ [الأحزاب].

إنه فضح لهم بالجبن وبالكذب، وبنقض العهد، وواحدة من هذه تسقط الرجل في مجتمعه سواء كان المجتمع جاهليًا ـ بجاهلية تلك الأيام ـ أو مسلمًا، فالنتيجة واحدة، إذ يؤكد القرآن أن الكافرين، لو احتلوا المدينة وأخذوا الأرض والعرض، لارتدوا كفارًا، وأجابوا الأحزاب ليفتنوا عن دينهم فهو الفرار من

المواجهة، والرجولة تقتضي مواجهة العدو في الديار، وعلى الحدود، وفي كل مكان فهم قد فقدوا قيم الرجولة كلها غير فقدانهم الإيمان الأصلي.

وتتم التربية القرآنية الخالدة لهذا الجيب الفارق في الخور والضعف والذل، ليرفعه من وهدته فيقول له: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾ [الأحزاب].

فالأجل محتوم، والنار ولا العار، وأين الهروب من الله؟ ويحرص القرآن الكريم على عدم تعميم صفة الجبن والكذب، والنكث بهم جميعًا، إنما يتحدث عن طائفة منهم قالت هذا الكلام، وكذبها السيد العظيم سعد بن معاذ سيد الأوس قبل أن ينزل تكذيبها من فوق سبع سموات.

إن التجارب السابقة التي خاضها سيد الأوس مع هذا الفريق من بني حارثة، جعله يدرك أبعاد هذا الإذن فقال: يا رسول الله، لا تأذن لهم، إنا والله ما أصابنا وإياهم شدة قط إلا صنعوا هكذا، ثم أقبل عليهم فقال: يا بني حارثة، هذا لنا منكم أبدًا ما أصابنا وإياكم شدة إلا صنعتم هكذا.

وحتى لا تكون القضية اتهامًا من سيد الأوس لهم، وحتى لا يبيعوا بطولات هوائية، وحتى لا تبلغ بهم القحة أن يخدعوا رسول الله ﷺ جاء القرآن ليفضحهم، ويفضح نواياهم، هذا من جهة، ومن جهة ثانية بعدهم بعد هذه الإدانة الكاملة إلى مراجعة مواقفهم. ومراجعة مواقعهم فيقول لهم: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾ [الأحزاب].

إن التعميم الوحيد الذي مس المنافقين جميعًا هو ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾ [الأحزاب]، هو واقع ينضح بنفس كل واحد منهم، لكنه نعى على المدعين كذبًا بحماية دورهم وهم فريق من بني حارثة.

ولبني حارثة موقفان مشينان في الجاهلية والإسلام، عفا الله تعالى عنهم يوم أُحُد في محاولة لرفعهم إلى المستوى الإيماني المطلوب ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [آل عمران]، وكانت إحدى الطائفتين بني حارثة، حيث أخرج الله خبيئة نفوسهم، ولكن الله تعالى عصمهم في اللحظة الأخيرة، وأما الموقف المشين في الجاهلية، وهو الذي تحدث عنه سعد بقوله: يا بني حارثة، هذا لنا منكم أبدًا ما أصابنا وإياكم شدة إلا صنعتم هكذا.

وبالعودة إلى بطون الكتب نجد هذا الموقف في حرب بعاث: (تخلف عن الأوس بنو حارثة، فبعثوا إلى الخزرج: إنا والله لا نريد قتالكم، فبعثوا إليهم أن ابعثوا إلينا برهائن منكم يكونون في أيدينا، فبعثوا إليهم اثني عشر رجلًا). [أيام العرب في الجاهلية، لجاد المولى وزملائه ٧٦ هامش].

فالذين فقدوا الأصالة في الجاهلية بقوا على ضعفهم، وارتفع الإسلام بفريق منهم، وبقي الفريق الآخر ساقطًا، فمعدن الرجولة عنده مهترئ في الجاهلية والإسلام.

و«**النَّاسُ مَعَادِنُ خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الإِسْلَامِ إِذَا فَقُهُوا**».

[البخاري في الأنبياء (٣٣٨٣)، ومواضع أخرى، ومسلم في فضائل الصحابة ﭬ (٦٦١٥) ومواضع أخرى].

وسعد ﭬ الذي ينعى عليهم هذا الخور في الجاهلية هو الذي غيَّر بقومه بني عبد الأشهل، نهاية معركة بعاث، ثم غير بقومه تاريخ الأرض من الجاهلية إلى الإسلام، ويبقى الخوار نزلًا في أي مكان كان، وعظمة التربية القرآنية ألا تعم مواقف الضعف، وتفسح المجال للأفق البعيد كي يمضي نحوه المتثاقلون.

ولا يدع القرآن الكريم أي جيب خبيث دون أن يعرِّيه، ويكشف زيفه، حتى لا يتخيل ذلك الجيب أنه خدع الله ورسوله: ﴿ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ ﴾ [الأحزاب]، هذا الجيب النتن هو الذي قبع في بيته، ورفض الخروج إلى المعركة وحاول أن يثني عزائم إخوانه عن الخروج للمواجهة.

أخرج ابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَن قَتَادَة فِي قَوْله: ﴿ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ ﴾ قَالَ: هَؤُلَاءِ نَاسٌ من الْمُنَافِقين كَانُوا يَقُولُونَ لإِخْوَانِهُمْ: مَا مُحَمَّدٌ وَأَصْحَابُهُ إِلَّا أَكَلَةُ رَأْسٍ، وَلَوْ كَانُوا لَحْمًا لَالْتَهَمَهُمْ أَبُو سُفْيَانَ وَأَصْحَابُهُ، دَعُوا هَذَا الرَّجُلَ فَإِنَّهُ هَالِكٌ {﴿ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ ﴾ أَي: مِنَ الْمُؤمنِينَ ﴿ هَلُمَّ إِلَيْنَا ﴾ أَي: دَعُوا مُحَمَّدًا وَأَصْحَابَهُ فَإِنَّهُ هَالِكٌ وَمَقْتُولٌ ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾﴾ قَالَ: لَا يَحْضُرُون الْقِتَالَ إِلَّا كَارِهِينَ، وَإِنْ حَضَرُوهُ كَانَتْ أَيْدِيهِمْ مَعَ الْمُسْلِمِينَ وَقُلُوبُهُمْ مَعَ الْمُشْرِكِينَ. [الدر المنثور للسيوطي ١١/ ٧٥٦].

وعند القرطبي فيها ثلاثة أقوال:

أحدها: أنهم المنافقون، قالوا للمسلمين: ما محمد وأصحابه إلا أكلة رأس، وهو هالك ومن معه فهلم إلينا.

الثاني: أنهم اليهود من بني قريظة، قالوا لإخوانهم من المنافقين: هلم إلينا، أي تعالوا إلينا، وفارقوا محمدًا فإنه هالك، وإن أبا سفيان إن ظفر لم يبق منكم أحدًا.

والثالث: ما حكاه ابن زيد: أن رجلًا من أصحاب النبي ﷺ بين الرماح والسيوف فقال له أخوه ـ وكان من أمه وأبيه ـ: هلم إليَّ قد تُبع بك وبصاحبك ـ أي قد أُحيط بك وبصاحبك ـ، فقال له: كذبت، والله لأخبرنه بأمرك، وذهب إلى رسول الله ﷺ ليخبره، فوجده قد نزل عليه جبريل ؑ بقوله تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ﴾. [تفسير القرطبي ٧/ ١٥٤].

وأيًّا كان الأمر فهي سمة لفريق من المنافقين تشخِّصهم كأنما هم لمس اليد ورأي العين، كما سيأتي بيانها في العرض القرآني للغزوة.

لقد حشد القرآن الكريم كل هذا الحشد من الوصف، وكل هذه التعرية، حتى لتفوق آياته الحديث عن المعركة كلها، حتى يفتت هذا الحزب، ويذوب ويفقد أي مبرر لوجوده فلهؤلاء السبعين أو الثمانين من الثلاثة آلاف، تتركز الآيات وينزل الوحي، وتفضح الخبايا، وتكشف العورات، وتُفتح طرق مغادرة هذا الحزب النتن، بالإقناع والحجة لا بالسيف والذبح، بينما انصب القصاص على معسكر العدو الذي نكث العهد، وخان الأمانة، وتبجح بالكفر، فقتلت المقاتلة، وسبيت الذرية، وقسمت الأموال، أما هنا فلابد من الحرب الإعلامية العنيفة حينًا والرخية حينًا لتدعوهم إلى التوبة والخلاص من هذا الرجس، وبذلك يخضع المنافقون للتربية كما يخضع المؤمنون، ويحرص الإسلام على ألا يبقى في الصف الإسلامي كله منافق واحد، ويحرص الإسلام على ألا يعمم الخطيئة إلا عندما تكون عامة، وذلك عند قوله ﷻ عنهم: ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾ [الأحزاب]، بينما يدع الحديث بعدها عن الطائفة وعن الفريق منهم، وعن المعوقين المجهولين عن الناس، لا عند الله الذي لا تخفى عليه خافية، وهو في الوقت نفسه تحذير لضعاف الإيمان أن يقعوا في هذه الحمأة، أو يتأثروا بهذه الأجواء النتنة؛ لأن الله يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور». [التربية القيادية للغضبان ٤/ ٨٨-١٠٠ باختصار].

١٣ ـ بين المصادفة والمعجزة:

يقول د/ أبو خليل: «جاء في (تاريخ العرب والإسلام) [(١)]: «وصادف أن هبت في الليلة نفسها رياح شديدة باردة كفأت قدورهم ورمت بآنيتهم على الأرض، فزاد تشتت كلمة الأحزاب، وقويت رغبتهم في الرحيل عن المدينة».

فالأمر مصادفة، وأذكر هنا شرح العبارة كما قدمها لنا مؤلف الكتاب عام ١٩٦٣م، حيث قال: فتدخلت عوامل الطبيعة، فصادف أن هبت رياح شديدة باردة ..

وبعد تجاوز ما في العبارة من تمييع لنصر الله، واستهتار لمعجزة خارقة أيد الله بها نبيه، نقول: عوامل الطبيعة ليست عاقلة مدركة حتى تتصرف هنا ولا تتصرف هناك، فالريح التي هبت على الأحزاب ـ كما مر تفصيله ـ (لم تتجاوز عسكر المشركين)! فلِمَ تُخرِّب الرياح هنا ولا تُخرِّب هناك؟ لِمَ تقلع وتطفئ وتكفئ وتلقي في معسكر الأحزاب ولا تفعل ذلك في جانب المسلمين، ولو عملت الرياح في المنطقة كلها آنذاك وشمل آثارها المسلمين والأحزاب لقبلنا عبارة الكتاب التي ذكرنا، ولكنها لم تجاوز عسكر الأحزاب في شدتها وأذاها، مع أن المسلمين بجوارهم، وعلى بعد مئات الأمتار فقط، يفصل بينهما الخندق وضفتاه!

---

(١) تاريخ العرب والإسلام: ص ٩٧. كتاب في جامعة دمشق لطلاب السنة الثالثة، كلية الآداب ـ قسم التاريخ.

ويغنينا عن التعليق أكثر قوله ﷻ: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَاۚ﴾ [الأنعام: ٢٥]، ﴿وَقَالُواْ مَهۡمَا تَأۡتِنَا بِهِۦ مِنۡ ءَايَةٖ لِّتَسۡحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ١٣٢﴾ [الأعراف]، ﴿وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةٗ يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ ٢ وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَكُلُّ أَمۡرٖ مُّسۡتَقِرّٞ ٣﴾ [القمر]». [غزوة الخندق لأبي خليل ١٣٠-١٣٢].

١٤ ـ اليقظة الإسلامية ترعب أعداء الأمة:

يقول د/ زين السيد: «إن المُنَقِّب في بطون التاريخ إذا عجم عود الأحداث، ونخل مخزونها، وقدح زنادها يعلم أن من أهم الأسباب التي دفعت القرشيين إلى تكوين جيوش الأحزاب بقصد العدوان هي اليقظة الإسلامية؛ لأن الإسلام ذلك العملاق الذي تضاءلت أمامه كل مظاهر الحياة وزخرفها يحمل من عوامل التقدم والعزة ما يجعله كفيلًا بأن ينشر نفسه بنفسه فهو الحق الثابت الذي قال الله في شأنه: ﴿لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ١٤﴾ [الرعد].

إنه الحق لأنه وحي الله وإرشاده وتوجيهه: ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ ٣٢﴾ [يونس].

هذا السبب وغيره مما ذكرناه من قبل هو الذي دعا أهل مكة إلى تكوين هذه الحملة، لقد تحركت الجيوش إلى «يثرب» المدينة المنورة واستقر الرأي على أن يحتلوها ويبيدوا الإسلام والمسلمين، وأراد الله أن يكون هذا القرار الذي استقروا عليه مخيبًا لآمالهم، فلقد تحركت الجيوش فعلًا وحاصرت المدينة، ولكن لم يدم هذا الحصار طويلًا، فقد دب الخلاف بين قادة الأعداء وترامت الأنباء إليهم بأن يهود بني قريظة أرادوا خذلانهم حيث طلبوا رهائن من رجالاتهم، وأن اليوم يوم السبت ولا يجوز لهم المحاربة فيه كما قالوا وكما هي عقيدة اليهود.

ورجعت الحملة التي كانت تريد بالإسلام شرًّا، رجعت تجر وراءها أذيال الخيبة والندامة، رجعت بخُفَّـيْ حُنين: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرٗاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزٗا ٢٥﴾ [الأحزاب].

وناهيك بالآثار الطيبة التي كان لها الدافع القوي في مواصلة الجهاد بالنسبة للمسلمين، فبعد فشل الحملة ورجوع جيوشها خائبة ارتفعت معنويات المسلمين وازدادت نفوسهم حماسًا للجهاد، وقويت أرواحهم لمواصلة الكفاح: ﴿وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قَدَرٗا مَّقۡدُورًا ٣٨﴾ [الأحزاب].

فالجهاد عز، ونصرة الإسلام شرف وسعادة، والغزو في سبيل الله خير دائم وأجر لا ينقطع... عن أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «**مَثَلُ الْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ الله ــ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يُجَاهِدُ فِي**

سَبِيلِهِ ـ كَمَثَلِ الصَّائِمِ القَائِمِ، وَتَوَكَّلَ اللهُ لِلمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِهِ بِأَنْ يَتَوَفَّاهُ: أَنْ يُدْخِلَهُ الجَنَّةَ، أَوْ يَرْجِعَهُ سَالِمًا مَعَ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ». [البخاري في الجهاد (٢٧٨٧) ومواضع أخرى، ومسلم في الإمارة (١٨٧٨) وغيرهما].

ومن المؤكد الذي لا شك فيه أن انتصارات الرسول ﷺ في ميداني الحرب النفسية والحرب السياسية لا يمكن مضارعتها». [دور الحرب النفسية في غزوتي أُحد والأحزاب للسيد ١٤٤-١٤٥].

١٥ ـ النصر الإلهي في قلب المحن:

يقول د/ الغضبان: «بعدما رأينا الجهد البشري في البذل رجالًا ونساءً، والجهد البشري في البناء والتخطيط، ووجدنا أنه المدى الأقصى الذي يملكه البشر في عالمهم، يصبح من المناسب جدًّا أن نتحدث عن سمة النصر الإلهي في قلب المحن، والعون الرباني في خضم المعارك، فالله تعالى لا يفعل بعذاب عباده شيئًا، والله تعالى وعد بنصر جنده وعباده الصالحين.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النور]، ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات]، ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [القصص].

ولنلحظ تحقيق هذه الإرادة الربانية في نصر هذا الدين من خلال نماذج كثيرة، على رأسها نصر الله للمؤمنين في غزوة الأحزاب». [المنهج الحركي للسيرة النبوية للغضبان ٢/ ٤١٦-٤١٧].

١٦ ـ النصر يتنزل للمؤمنين الصادقين:

يقول الشيخ المسند: «النصر للمسلمين مهما طال الزمن أو جال الباطل وظهر أو ران على الحق ضباب فإنه سيزول وينتصر المسلمون.

وقد كانت نتيجة الحرب الجماعية الإبادية التي خطط لها أعداء الإسلام في (الأحزاب) أن انتصر المسلمون وخذل الكافرون وأظهر الله المسلمين وخذل كل أعدائهم، فاندحر المنافقون وانكشفوا أمام المسلمين.

وانهزم المشركون بعد محاولات وعناء واستماتة وباؤوا بالفشل والأسى وعادوا إلى قومهم يجرون ذيل الخيبة والهوان، وذهب كل إرغائهم وإزبادهم وتوعدهم وتكبرهم ووعودهم لمن تحزب معهم، وكانت الدائرة على اليهود الذين نكثوا العهد وقلبوا ظهر المجن لمن أمنوهم ووثقوا بهم، وعدوهم منهم لهم ما لهم وعليهم ما عليهم، يعيشون معهم في بلد واحد، لكنهم جلبوا الشر لأنفسهم ولم يدركوا سوى القتل

والتشريد، بعد أن انهزم المشركون الذين زينوا لهم نكث العهد والخيانة. ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ۚ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾.

وهنا وبعد أن نوقن بأن النتيجة هي النصر للمؤمنين يجب أن نستعرض صفات المؤمنين الذين نُصروا في هذه الغزوة فمنها:

أولًا: أنهم مؤمنون إيمانًا صادقًا يدك الجبال وثابتًا لا يتزعزع أبدًا؛ ولذلك كانت كل الصفات التي يصف الله بها حزبه بصفة المؤمنين لا المسلمين، وهذا شرط في النصر... ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ﴾، ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ﴾، ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾، ﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ﴾، ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ۚ﴾.

ثانيًا: التصديق بما وعد به الله ورسوله مهما قست عليهم البلواء وعدم التغير أو التبدل والثبات على المبدأ: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾، ﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾، ﴿لِّيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾.. وطاعة القائد طاعة مطلقة صادرة من القلب والاعتقاد فيها المبادرة والمبادأة، وشاهد ذلك في عهد رسول الله ﷺ وفي هذه المعركة قصة أمين سر رسول الله ﷺ حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما.

ثالثًا: سمو الهدف والبقاء مع الله تعالى في حال الخوف والرجاء والحرب والسلم: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾.

رابعًا: شكر الله تعالى على نعمته وتذكرها دائمًا؛ لأن تذكر النعمة عنوان الشكر ولأن شكرها استدامة لها؛ ولذلك يؤكد الله تعالى هذا المعنى في نفوسهم بعد انتهاء الحرب فيقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾﴾ وفي ختام هذه الآية ينبه الله تعالى إلى أمر مهم في علاقة العباد به تعالى، وهو أن شكر النعمة وأداء العبادة يجب أن يكون من القلب خالصًا لله تعالى لأنه يعلم ما تكنه الصدور وما تخفيه وما يقصد بالأعمال وسوف يجازى على قدر الحقيقة لا على الظاهر فقط.

وهذا فيه إجابة عن طائفة من الأسئلة التي تتردد على الألسن، ونحاول الإجابة عنها في هذا البحث، وهي لماذا ومتى وكيف ينتصر المسلمون؟

ومن الإجابة أن الله تعالى مطلع على سرائرهم ويعلم حقيقتها، ومطلع على أعمالهم ويعرف الهدف منها، وهو يعلم أن كثيرًا منهم يُظهرون ما لا يسرون، ويَدَّعُون ما لا يعملون، ويقولون ولا يعملون؛ فلذلك يجازيهم على قدر نياتهم وأعمالهم، وينصرهم بمقدار ذلك». [متى ينتصر المسلمون؟ للمسند ٧٨-٨٣].

ويقول د/ المدخلي: «حقيقة إنها نعمة، وأيما نعمة! حيث انقشعت الغمة، وخلص الله المسلمين من براثن المحنة، وقطف المؤمنون الصادقون ثمار صدقهم، وصبرهم، وثباتهم، مع نبيهم الحبيب ﷺ في تلك الليالي الرهيبة، المرعبة، التي زاغت فيها الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر، فقد أخذت جيوش الأحزاب في فك الحصار عن المدينة.

وأخذت كتائبهم تولي الأدبار تجر أذيال الخيبة والخسران لم تجن من غزوها الكبير هذا سوى التعب والنصب، ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾ [الحج]؛ ذلك لأن المسلمين رغم قلتهم وقلة عتادهم فقد نصرهم الله؛ لأنهم كانوا يدافعون عن عقيدة سامية ارتضاها الله لهم، لا كما يدافع المسلمون اليوم عن الحزب والوطن والتراب ويزعمون أنهم ينصرون بسبب إخلاصهم لتلك المبادئ الفانية.

وهذا والله هو من أسباب الخذلان، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ويتبين من مجريات الأمور والأحداث في هذه الغزوة وغيرها من الغزوات «أن النصر في المعارك لا يكون بكثرة العدد ووفرة السلاح، وإنما يكون بقوة الروح المعنوية لدى الجيش.

وقد كان الجيش الإسلامي في هذه المعارك يمثل العقيدة النقية والإيمان الصادق والفرح بالاستشهاد والرغبة في ثواب الله وجنته.

كما يمثل الفرحة من الانعتاق من الضلال والفرقة والفساد، بينما كان جيش المشركين يمثل فساد العقيدة وتفسخ الأخلاق، وتفكك الروابط الاجتماعية، والانغماس في الملذات.

والعصبية العمياء للتقاليد البالية والآباء الماضين والآلهة المزيفة، انظر إلى ما كان يفعله الجيشان قبل بدء القتال.

فقد حرص المشركون قبل بدء معركة بدر مثلًا على أن يقيموا ثلاثة أيام يشربون فيها الخمور، وتغني لهم القيان، وتضرب لهم الدفوف، وتشعل عندهم النيران لتسمع العرب بما فعلوا فتهابهم.

وكانوا يظنون ذلك سبيلًا إلى النصر، بينما كان المسلمون قبل بدء أي معركة يتجهون إلى الله بقلوبهم يسألونه النصر، ويرجونه الشهادة، ويشمون روائح الجنة، ويخر الرسول ﷺ ساجدًا مبتهلًا يسأل ربه أن ينصر عباده المؤمنين، وقد ابتهل كثيرًا في هذه الغزوة ودعا الله حتى نصره، وكانت النتيجة أن انتصر الأتقياء الخاشعون وانهزم اللاهون العابثون». [السيرة النبوية للسباعي ١١٤-١١٥].

والذي يقارن بين أرقام المسلمين في أي معركة وبين أرقام المشركين يجد دائمًا أن المشركين أكثر من المسلمين أضعافًا مضاعفة، ومع ذلك فقد كان النصر حليف المسلمين رغم ذلك كله».

[مرويات غزوة الخندق للمدخلي ٤٠٣، ٤٤٧-٤٤٩].

١٧ ـ إثبات صدق النبي ﷺ فيما أخبر به:

وذلك في حديث الرسول ﷺ: (الآنَ نَغْزُوهُمْ، وَلا يَغْزُونَنَا، نَحْنُ نَسِيرُ إِلَيْهِمْ):

يقول د/ الفنيسان: «قاله بعد منصرف الأحزاب، وقد ظهر ما قاله جليًّا، فما عادت قريش ولا حلفاؤها لغزو المدينة مرة أخرى، فبعد غزوة الخندق انتهى دور الدفاع في حروب الرسول ﷺ ومعاركه، وبدأ دور الهجوم والامتداد لنشر الدعوة والجهاد في سبيل الله.

فلم يمض زمن طويل حتى اعتمر الرسول ﷺ فصدوه عن البيت، ووقعت الهدنة «صلح الحديبية» ثم نقضتها قريش، فغزا المسلمون مكة وفتحوها، ولم تقم لقريش قائمة بعدها».

[غزوة الأحزاب للفنيسان ٢٤٨-٢٤٩].

١٨ ـ الواقع المعاصر في ضوء غزوة الأحزاب:

يقول د/ الفنيسان: «جاءت جيوش الأحزاب من كل حدب وصوب وحاصرت المدينة كما ذكر الله ﷻ: ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ ﴾ [الأحزاب: ١٠] يدفعها الحقد الدفين ويحدوها الأمل في القضاء على دعوة الحق في مهدها، وحفر الرسول ﷺ الخندق حول المدينة في بضعة أيام، وبقي هو وأصحابه مرابطين فيه قرابة شهر من الزمان، وقد نقضت يهود بني قريظة عهدها مع المسلمين وانضموا مع جيوش الأحزاب، وانتهز المنافقون في المدينة هذا الظرف فراحوا يثبطون عن القتال، ويشيعون قالة السوء بين المسلمين، وقد أصابهم من الفزع والرعب والخوف ما ذكره الله في كتابه في سورة الأحزاب المسماة باسم هذا الحدث؛ ليستلهم منها أهلُ كل عصر معاني عصرهم، في كل جيل وفي كل قبيل.

وتلك سمة من سمات القرآن الكريم، تقرأ الآية التي نزلت في حادثة مضت، وكأنها قد نزلت اليوم، وكلما عاودت تلاوة الآيات وتمعنت في أسرار التعبير فيها ظهرت لك معانٍ جديدة لم تخطر على بالك من قبل، وإن كنتَ من ذوي العلم والعرفان، فـ«النص القرآني معد للعمل لا في وسط أولئك الذين عاصروا الحادث وشاهدوه فحسب، ولكن كذلك للعمل في كل وسط بعد ذلك، وفي كل تاريخ، معد للعمل في النفس البشرية إطلاقًا كلما واجهت مثل ذلك الحادث أو شبهه في الآماد الطويلة، والبيئات المنوعة، بنفس القوة التي عمل بها في الجماعة الأولى.

ولا يفهم النصوص القرآنية حق الفهم إلا من يواجه مثل الظروف التي واجهتها أول مرة، هنا تتفتح النصوص عن رصيدها المذخور، وتتفتح القلوب لإدراك مضامينها الكاملة، وهنا تتحول تلك النصوص

من كلمات وسطور إلى قوى وطاقات، وتنتفض الأحداث والوقائع المصورة فيها، تنتفض خلائق حية، موحية، دافعة، دافقة، تعمل في واقع الحياة، وتدفع بها إلى حركة حقيقية، في عالم الواقع وعالم الضمير.

إن القرآن ليس كتابًا للتلاوة ولا للثقافة، وكفى، إنما هو رصيد من الحيوية الدافعة، وإيحاء متجدد في المواقف والحوادث! ونصوصه مهيأة للعمل في كل لحظة، متى وجد القلب الذي يتعاطف معه ويتجاوب، ووجد الظرف الذي يطلق الطاقة المكنونة في تلك النصوص ذات السر العجيب!

وإن الإنسان ليقرأ النص القرآني مئات المرات، ثم يقف الموقف، أو يواجه الحادث، فإذا النص القرآني جديد، يوحي إليه بما لم يوح من قبل قط، ويجيب على السؤال الحائر، ويفتي في المشكلة المعقدة، ويكشف الطريق الخافي، ويرسم الاتجاه القاصد، ويفيء بالقلب إلى اليقين الجازم في الأمر الذي يواجهه، وإلى الاطمئنان العميق». [في ظلال القرآن ٦/ ٥٤].

ويقول أحد الكتاب المعاصرين: «انظر حيث شئت من القرآن الكريم تجد بيانًا قد قدر على حاجة النفس أحسن تقدير، فلا تحس فيه بتخمة الإسراف ولا بخسة التقتير، يؤدي لك من كل معنى صورة نقية وافية: «نقية» لا يشوبها شيء مما هو غريب عنها، «وافية» لا يشذ عنها شيء من عناصرها الأصلية ولواحقها الكمالية، كل ذلك في أوجز لفظ وأنقاه، ففي كل جملة منه جهاز من أجهزة المعنى، وفي كل كلمة منه عضو من أعضائه، وفي كل حرف منه جزء بقدره، وفي أوضاع كلماته من جمله وأوضاع جمله من آياته سر الحياة الذي ينتظم المعنى بأداته.. وبالجملة ترى كما يقول الباقلاني: «محاسن متوالية وبدائع تترى.. وتقرأ القطعة من القرآن فتجد في ألفاظها من التفوق والملامسة والإحكام والخلو من كل غريب عن الغرض ما يتسابق به مغزاها إلى نفسك دون كد خاطر ولا استعادة حديث، كأنك لا تسمع كلامًا ولغات، بل ترى صورًا وحقائق ماثلة، وهكذا يخيل إليك أنك قد أحطت به خبرًا، ووقفت على معناه بإزاء معنى جديد غير الذي سبق إلى فهمك أول مرة، وكذلك حتى ترى للجملة الواحدة أو الكلمة الواحدة وجوهًا عدة كلها صحيح أو محتمل الصحة، كأنما هي فص من الماس يعطيك كل ضلع منه شعاعًا، فإذا نظرت إلى أضلاعه جملة بهرتك بألوان الطيف كلها، فلا تدري ماذا تأخذ عينك وماذا تدع، ولعلك لو وكلت النظر فيها إلى غيرك رأى منها أكثر مما رأيت.

وهكذا نجد كتابًا مفتوحًا مع الزمان يأخذ كل منهم ما يسر له، بل ترى محيطًا مترامي الأطراف لا تحده عقول الأفراد ولا الأجيال.

ألم تر كيف وسع الفرق الإسلامية على اختلاف منازعها في الأصول والفروع؟ وكيف وسع الآراء العلمية على اختلاف وسائلها في القديم والحديث؟ وهو على لينه للعقول والأفهام صلب متين، لا

يتناقض ولا يتبدل، يحتج به كل فريق لرأيه ويدعيه لنفسه، وهو في سموه فوق الجميع يطل على معاركهم حوله وكأن لسان حاله يقول لهؤلاء: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾﴾ [الإسراء] انتهى. [النبأ العظيم لدراز ص ١١١ فما بعدها].

وسنستعرض سمات كل من المؤمنين والمنافقين واليهود في آيات الأحزاب فنقول:

(١) **المؤمنون**: امتنَّ الله ﷻ على المؤمنين بأن رد عنهم جيوش الأحزاب بعد أن كادت تستأصلهم وتقضي على بيضتهم، ويأمرهم أن يتذكروا نعمة الله عليهم سواء من حضر الواقعة أو غاب عنها.

يقول أ/ سيد قطب: «إن النص القرآني يغفل أسماء الأشخاص، وأعيان الذوات؛ ليصور نماذج البشر وأنماط الطباع، ويغفل تفصيلات الحوادث وجزئيات الوقائع؛ ليصور القيم الثابتة والسنن الباقية، هذه التي لا تنتهي بانتهاء الحادث، ولا تنقطع بذهاب الأشخاص، ولا تنقضي بانقضاء الملابسات، ومن ثم تبقى قاعدة ومثلًا لكل جيل ولكل قبيل، ويحفل بربط المواقف والحوادث بقدر الله المسيطر على الأحداث والأشخاص، ويظهر فيها يد الله القادرة وتدبيره اللطيف، ويقف عند كل مرحلة في المعركة للتوجيه والتعقيب والربط بالأصل الكبير.

ومع أنه كان يقص القصة على الذين عاشوها، وشهدوا أحداثها، فإنه كان يزيدهم بها خبرًا، ويكشف لهم من جوانبها ما لم يدركوه وهم أصحابها وأبطالها! ويلقي الأضواء على سراديب النفوس ومنحنيات القلوب ومخبآت الضمائر، ويكشف للنور الأسرار والنوايا والخوالج المستكنة في أعماق الصدور.

ذلك إلى جمال التصوير، وقوته، وحرارته، مع التهكم القاصم، والتصوير الساخر للجبن والخوف والنفاق والتواء الطباع! ومع الجلال الرائع والتصوير الموحي للإيمان والشجاعة والصبر والثقة في نفوس المؤمنين». [في ظلال القرآن ٦/ ٥٤].

ونادى المؤمنين بوصف الإيمان وهو أشرف لقب إليهم؛ ليكون ذلك أدعى إلى ذكر النعمة وتذكرها، وذكر الأمر بعد النداء فيه عناية بالتذكر واهتمام به؛ لأن النداء إنما هو إيقاظ وتنبيه يهيء المأمور لتلقي الأمر وتنفيذه على أحسن وجه، والتصريح بذكر النعمة في الآية لغرض الامتنان ووجوب شكرها لا باللسان، ولكن بالقلب والجوارح.

والله سبحانه الذي رد الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرًا، هو في الوقت نفسه القادر على أن يمد بنصره حملة رسالته والقائمين على دعوته وأن يرد عنهم عدوان الكافرين والمنافقين القريبين منهم والبعيدين ممن يتشدقون بالإصلاح، وهو منهم براء.

وأجملت القصة في الآية أيما إجمال في كلمتين لا ثالث لهما: ﴿إِذْ جَآءَتْكُمْ ... فَأَرْسَلْنَا﴾ فقد أجمل المعركة بدءًا وختامًا، وأشار إلى ثلاثة عناصر حاسمة فيها بإجمال موجز أيضًا هي:

الأول: مجيء جنود الأحزاب مجتمعة.

الثاني: إرسال الله عليهم الريح والجنود التي لم يرها المؤمنون.

الثالث: تنزُّل نصر الله المرتبط بعلمه وتقديره وبسر القلوب وحركات الجوارح.

ثم ذكر الفزع والكرب الذي أطبق المدينة وطرق بيوتها بيتًا بيتًا، وكاد أن ينفذ إلى قلوب أهلها قلبًا قلبًا بعد أن أطبقت جيوش المشركين من جانب، وقبائل يهود من جانب آخر، وجنود الطابور الخامس (اصطلاح حديث يُطلق على كل مَنْ يؤيد في الداخل دولةً أجنبية معادية أو يعمل لحسابها) «المنافقون» من الداخل توهن العزائم، وتنشر الشائعات، وتبث الرعب بين صفوف المؤمنين، وقد أطبق الهول عليهم، فجعل العيون زائغة لا ترى، والقلوب، مضطربة لا تعي، وكثرت الظنون، وانتشرت الهواجس، وصار ذلك حديث الناس بمجالسهم وشغلهم الشاغل، وكان الله يريد بهذا أن يبلي المؤمنين بلاءً حسنًا، وقد كان ما أراده الله وصدق الله العظيم: ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ ﴾ [الأحزاب].

ورغم هذا الهول كله، فإنه لا زالت طائفة من المؤمنين تمثل الصورة الحية المضيئة وسط الظلام الحالك، واثقة بربها راضية بقضائه ومستيقنة بنصره مع هذه المخاوف والزلازل والاضطرابات، فأثنى الله عليها بثباتها والتفافها حول قائدها، وعرَّض بالمتخلفين عن القتال مع الرسول ﷺ، فقال: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ [الأحزاب]، وهذه الآية تمهيد لوصف ما كان من المؤمنين في غزوة الخندق، بعد أن وصف ما كان من المنافقين فيها، ففي الجملة المضافة ﴿فِى رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ تكريم وتنويه بمكانة الرسول ﷺ الداعية إلى التأسي به، والأسوة بالرسول ﷺ لا شك أنها بحد ذاتها حسنة، وإنما نص على وصفها بالحسن ليكون التصريح بالحسن حاثًا وباعثًا على الاقتداء به ﷺ، وقوله: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ فيه وصف المؤمنين الذين يرجونه ويخافونه، وتنويه ببسالتهم وصبرهم على البلاء في سبيله، حيث مَنْ تعلق قلبه بالله استعذب في سبيله كل ما يلقاه من شدائد ومحن يأمن بها يوم الفزع الأكبر، والتصريح بذكر الله ووصفه بالكثرة يدل على أن نفوسهم قد اطمأنت في هذا اليوم الشديد العصيب، وأن أعمالهم ومواقفهم لم تكن إلا لله، فتراهم يعملون وهم يرددون ذكر الله دائمًا لا يفترون، ولما وصف موقفهم مع الرسول ﷺ في قوة وصلابة ويقين في قوله: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ بدأ بذكر أوصافهم مفصلة من اقتدائهم بالقدوة الحسنة والأسوة الفاضلة في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ

إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الأحزاب]، وبين هذه الآية والتي قبلها تقابل بالإجمال والتفصيل، فالآية الأولى ذكرت ثلاث صفات للمؤمنين وهي:

(١) رجاء الله وخوفه.

(٢) الإيمان باليوم الآخر.

(٣) ذكر الله كثيرًا.

والآية الثانية ساقت أمثلة حيةً واقعيةً لتلك الصفات الأساسية، هي:

(١) منهم من ينتظر: مثل واقعي لصفة الرجاء والخوف في الآية الأولى.

(٢) ومنهم من قضى نحبه: مثل حي متجسد للإيمان باليوم الآخر الذي دفعه إلى الموت.

(٣) الثبات وعدم التبديل، ثمرة لذكر الله ومراقبته، وتدل آية: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ﴾ على مدى الصبر والثبات على الحق ومقاومة الباطل، وقد كان منهم بلا تباطؤ أو تسويف نتيجة الإيمان بالله والثقة بنصره القريب، واسم الإشارة «هذا» جاء مذكرًا مع أن حقه أن يؤنث، فكأن القوم أعجلوا أنفسهم بالثناء على الله ورسوله لما رأوا تحقق ما وعدوا به، قال الآلوسي: «وهذا إشارة عند بعض المحققين إلى ما عاهدوه من غير أن يخطر ببالهم لفظ «ربه» أو «عليه»، فضلًا عن تذكيره أو تأنيثه، فإنهما من أحكام اللفظ، نعم يجوز التذكير باعتبار الخبر الذي هو ﴿مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ فإن ذلك العنوان أول ما يخطر ببالهم عند المشاهدة». [روح المعاني ٢١/ ١٦٩].

ويجوز أن يكون اسم الإشارة هذا مرادًا به الخطب والبلاء، وفي هذه الحالة أيضًا تجسيد للهول والبلاء في وجدان المؤمنين، وكأنه شيء شاخص يحس ويلمس ويشار إليه بالبنان، وعبر بلفظ «هذا» القريب بدل «ذلك» الموضوع للبعيد للإشعار بقرب الهول منهم وإحاطته بهم كإحاطة السوار بالمعصم، والوعد المشار إليه بهذه الآية هو قوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ [البقرة]».

فمتى ما زُلزل المؤمنون وضاقت عليهم الأرض بما رحبت تنزَّل نصر الله عليهم، وها هم أمام الأحزاب قد ابتلوا وزلزلوا، فأيقنوا بتنزل نصر الله كما وعد.

وكرر لفظ الجلالة والرسول ﷺ تعظيمًا وتذكيرًا بالألوهية والرسالة، وطمأنينة للقلوب المؤمنة بالله ورسوله، وقد كان الرسول ﷺ وصحابته يرفعون أصواتهم بالتكبير والتهليل أثناء الحروب، وكم زَلزلت تكبيراتهم جنبات معسكر أعدائهم.

وكم قال رسول الله ﷺ: «اللهُ أَكْبَرُ، إِنَّا إِذَا نَزَلْنَا بِسَاحَةِ قَوْمٍ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ».
[حديث صحيح. ينظر: البخاري مع الفتح ٧/ ٤٦٧].

وكم نادى مناديهم: «هُبِّي رِيحَ الجَنَّةِ، إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ الجَنَّةِ دُونَ أُحُدٍ». [المصدر السابق ٦/ ٢١].

وكم هتف هاتفهم: «غَدًا نَلقَى الأَحِبَّهْ مُحَمَّدًا وَحِزْبَهْ». [مسند أحمد ٣/ ١٠٥].

وكم قال قائلهم: «لَئِنْ أَنَا حَيِيتُ حَتَّى آكُلَ تَمَرَاتِي هَذِهِ إِنَّهَا لَحَيَاةٌ طَوِيلَةٌ». [مسلم ٣/ ١٥١١].

وكم أنشدوا:

مَا أُبَالِي حِينَ أُقْتَلُ مُسْلِمًا ... عَلَى أَيِّ شِقٍّ كَانَ للهِ مَصْرَعِي

[صحيح البخاري مع الفتح ٦/ ١٦٦].

﴿وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ مصدر في سياق النفي يفيد العموم، أي فلم يبدلوا أي تبديل حتى في ساعة الكرب والشدة التي هي مظنة ضعف النفس البشرية عادة، بل حفظوا عهدهم وثبتوا على دينهم حتى استشهدوا في سبيله ولقوا ربهم عليه.

ولا شك أننا في مثل هذه المواقف بحاجةٍ إلى أن تستشعر القلوب هيبة الحق وقوة الصدق وبرد اليقين، وتلك صفات لرجال لا يرغبون التعريف بأنفسهم أو التشهير بعملهم فوق منصات الخطابة، أو خلف مكبرات الصوت، أو أمام عدسات التصوير، بل كل منهم جندي مجهول يعمل بلا صخب ولا ضجيج ولا دعاية، بل نراهم يرون أن المفاخرة وحب السمعة، وأن يُمدح المرء بما لم يفعل كذبٌ ورياءٌ يُحبط العمل، وفاعل هذا لا يستحق وصف الرجولة؛ لأن الرجولة الحقة إنما تكون بالصدق والوفاء، ومن لم يدخل في ميادين الصدق، فقد خرج من ميادين الرجولة، وكم من الناس اليوم تنكروا عند البلاء، وقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار، وقد ولوا مدبرين وفروا، ومن الناس من يحرِّف عهده ويتخفف من التزاماته بتعليلات أو تبريرات تتفق مع هواه.

(٢) **المنافقون**: [إن آيات سورة الأحزاب أشارت إلى حالة النفاق وما تولد عنه من القلق في النفوس، والجبن في القلوب، وانعدام الثقة بالله عند تعاظم الخطوب، والجرأة على الله تعالى بدل اللجوء إليه عند الامتحان، ولا يقف الأمر عند الاعتقاد بل يتبعه العمل المخذل المرجف، فهم يستأذنون الرسول ﷺ للانصراف عن ميدان العمل والقتال بحجج واهية؛ زاعمين أن بيوتهم مكشوفة للأعداء، وإنما يقصدون الفرار من الموت لضعف معتقدهم وللخوف المسيطر عليهم، بل ويحثون الآخرين على ترك مواقعهم والرجوع إلى بيوتهم، ولم يراعوا عقد الإيمان وعهود الإسلام].

[السيرة النبوية الصحيحة للعمري ٢/ ٤٢٥].

المنافقون دائمًا في كل جيل وزمان على بُغض الدين وكراهية أهله يتجمعون، وعلى أساس مصالحهم الشخصية يتعارفون، ولو قدر أن خرج في عصرنا اليوم واحد من أولئك المنافقين الذين شهدوا غزوة الأحزاب وتنزلت فيهم هذه الآيات، لو قدر وخرج لعرف إخوانه المعاصرين وطرق عليهم منازلهم بيتًا بيتًا، وأخذ مكانه في صفوفهم، ولعاش معهم حياة تآلف وتعاطف ومحبة وألفة لا ينكرهم ولا ينكرونه، وصدق رسول الله ﷺ: «**الأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ**». [حديث صحيح. ينظر: البخاري مع الفتح ٦/ ٣٦٩].

وجاء في حديث ثَوْبَانَ مَوْلَى رَسُولِ الله ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**يُوشِكُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ الأُمَمُ مِنْ كُلِّ أُفُقٍ كَمَا تَدَاعَى الأَكَلَةُ عَلَى قَصْعَتِهَا**»، قَالَ: قُلْنَا: يَا رَسُولَ الله، أَمِنْ قِلَّةٍ بِنَا يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: «**أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنْ تَكُونُونَ غُثَاءً كَغُثَاءِ السَّيْلِ، يَنْتَزِعُ المَهَابَةَ مِنْ قُلُوبِ عَدُوِّكُمْ، وَيَجْعَلُ فِي قُلُوبِكُمْ الوَهْنَ**»، قَالَ: قُلْنَا: وَمَا الوَهْنُ؟ قَالَ: «**حُبُّ الحَيَاةِ وَكَرَاهِيَةُ المَوْتِ**».

[أبو داود في الملاحم (٤٢٩٧)، وقال الشيخ الألباني: صحيح، ومسند أحمد ٣٧/ ٨٢ رقم ٢٢٣٩٧، وقال الشيخ الأرناؤوط: إسناده حسن. ينظر: صحيح الجامع الصغير رقم ٨١٨٣].

وها هو التاريخ يعيد نفسه اليوم، وصدقت نبوة الرسول ﷺ فتحزبت على المسلمين دول الكفر، فاجتمعت كلمة الشيوعيين في الغرب بزعامة روسيا، وكلمة اليهود والنصارى في الغرب بزعامة أمريكا.

وهناك تشابه بين أحزاب الأمس التي حاصرت المدينة وبين أحزاب اليوم التي أطبقت على العالم الإسلامي.

بالأمس كان تسليح الأحزاب بدائيًّا بسيطًا، واليوم نجد أسلحة أحزاب اليوم معقدة مركبة جهنمية.

بالأمس حاصروا المدينة فحسب، واليوم تحاصر أحزاب الشيطان بكل وسائلها مجتمعة عواصم الدول الإسلامية.

بالأمس كان المنافقون يعيشون في وقت تنزل الوحي، فهم يتحاشون أن ينزل قرآن يفضحهم بأعيانهم، أما اليوم فالمنافقون قد أمنوا أن تُعرف نياتهم أو تُكشف سوءاتهم بأعيانهم، فازدادوا خبثًا على خبثهم.

بالأمس كانت وسائل ترويج دعاوي المنافقين قليلة لا تعدو وسائل شخصية محدودة تُعد على رؤوس الأصابع، أما اليوم فقد ابتكر الأحزاب لأذنابهم المنافقين بيننا وسائل كثيرة ضخمة لترويج النفاق من صحافة وإذاعة وسينما وتلفاز وكتاب.

بالأمس لم يكن لليهود ـ وهم أصدقاء المنافقين وحلفاؤهم ـ دولة تحميهم، أما اليوم فقد قامت لهم أكثر من دولة تناصرهم وتأويهم.

بالأمس كانت جنود المسلمين التي حاربت جيوش الأحزاب قوية بإيمانها واثقة بربها مطبقة لأحكام دينها، أما جيوش المسلمين اليوم فقد عُزل معظمها عن الدين، فلا تكاد تعرف إلا اسمه، ونُفخت فيها دعوى الوطنية، وأُخمدت فيها روح الجهاد في سبيل الله، ورُبِّيت فيها شهوة الجنس والمتاع، وأُميت فيها الحنان للجنة والشوق للقاء الله.

بالأمس كان المنافقون يقابلهم مؤمنون أقوياء بإيمانهم فلم تنطل عليهم حيل المنافقين وأساليبهم، وإن انطلت مرةً على أحدهم سرعان ما يكتشفها بنفسه أو يدله عليها أحد إخوانه المؤمنين، أما اليوم فيكاد لا يقابل النفاق إلا إيمان هزيل ضعيف لا يقوى على مقاومته.

بالأمس كان تنظيم النفاق والمنافقين بدائيًّا في أول نشأته، واليوم قد تعددت أنواعه من نفاقٍ فردي، إلى نفاق اجتماعي، إلى نفاقٍ سياسي، وأصبح النفاق على حد قول الشاعر:

لَقَدْ كَانَ فِينَا الظُّلْمُ فَوْضَى فَهُذِّبَتْ حَوَاشِيهِ حَتَّى صَارَ ظُلْمًا مُنَظَّمَا

تلك بعض سماتهم في القديم والحديث، وصدق الله العظيم: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾﴾ [الأحزاب].

من صفات المنافقين التثبيط عن دعوة الإصلاح وموكب الخير، لا يعرفون إلا السلبيات والتخرصات، فهم أشبه ما يكونون بجبهة الرفض أو المعارضة بدون دليل أو مبرر، انظر إليهم في قول الله عنهم: ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾ نفي ورفض وتخرص وادعاء بدون دليل مقنع يُرى أو يحس، وما زادهم ذلك إلا رجسًا على رجسهم، أما المؤمنون على العكس منهم تمامًا، اسمع قول الله عنهم: ﴿ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾ إيجاب وتصديق ومعهم الدليل على ما يقولون، إنه «هذا» مشيرين إلى الهول والخطب العظيم الذي أحاط بهم، لقد نظروا إلى الغيب من خلال نور الله الذي أعطاهم، فهِمُوا قول الله في غير هذا المقام: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ [البقرة] فمتى ما مستهم البأساء والضراء وخبطتهم الفتنة العمياء وزلزلوا، عرفوا أن نصر الله قريب منهم، وهم في هذه الغزوة قد فُتنوا ومستهم البأساء والضراء وزُلزلوا زلزالًا شديدًا، فحق لهم أن يتنزل نصر الله عليهم، وقد كان.

والمنافقون اليوم ـ أحفاد أولئك الماضين ـ يرددون ما قاله أولئك مع اختلاف اللفظ واتحاد المعنى يقولون: ماذا قدَّم لنا تمسُّكنا بديننا سنين طويلة؟ وأي شيء أضر بالشرق والغرب تنكُّره لدينه وكفره به؟

إن أوروبا لم تتقدم إلا بعد الثورة الصناعية والقضاء على الدين ورجاله، ويقولون: إن الدين أفيون الشعوب، فإذا أردنا التقدم والحضارة فلا بد أن نترك الدين كما تركه أولئك، يقولون مثل هذا ولسان حالهم يردد مع أسلافهم ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾ فهم يرفضون وبشدة كل قديم ولو كان يحيي العباد ويعمر البلاد، ولو حملَتْه الأيدي المتوضئة والقلوب النيرة، ويستقبلون وبشغف كل جديد ولو كان فيه موت وخراب، ولو مدته إليهم الأيدي التي صفعتهم ولا زالت، أما المؤمنون الواعون اليوم - والأصل في المؤمن أن يكون واعيًا - وقد أطبقت عليهم الحضارتان الشرقية والغربية بما فيها من البريق الزائف، فلم تستهوهم مغريات الجنس والمال الحرام فيها، ولم يرفضوا إنتاجها المادي ويروه رجسًا وفسقًا، بل كل ما وصل إليهم من علم أو اكتشاف في ظاهر الحياة زادهم إيمانًا مع إيمانهم، وتذكروا قول أسلافهم البررة، ورددوه معهم: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ مشيرين إلى مثل قول الله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [فصلت: ٥٣]، وقوله: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات]، وقوله: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ [النحل]، وقوله: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء]، فهم لا يعرفون الرفض المطلق لكل علم أو فن، فهم إيجابيون بكل ما تدعو إليه الإيجابية من معنى، فهم ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ [الزمر: ١٨].

والمنافقون بالأمس نادوا المؤمنين المرابطين مع رسول الله ﷺ بالخندق، نادوهم بالشعار الوطني الجاهلي القديم ﴿يَثْرِبَ﴾ بدل اسم المدينة الجديد الذي سماها به رسول الله ﷺ، نادوهم بذلك ليوهنوا رابطة الإخاء الإسلامي التي تربط بين الحبشي والقرشي ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟﴾.

ومنافقو العصر الحاضر، قد رفعوا بيننا **شعار القومية والوطنية**، وأهملوا شعار الإخاء والدين، ونادوا بدلًا منه برابطة التراب والطين، فإذا سألهم سائل: ألستم مسلمين؟ قالوا: بلى، فإذا قيل لهم: أي حضارة قامت للعرب قبل الإسلام، وهل تُخرِّجون من القومية العربية صهيبًا وبلالًا وسلمان؟ إذا قيل لهم ذلك لم يجدوا جوابًا إلا الترضي عن أولئك أمامنا مجاملة ونفاقًا، وإذا قيل لهم: إن أوروبا قد لفظت القومية منذ زمن، والعصر اليوم عصر اتحادات ومنظمات وهيئات، فلم لا تدعون إلى مثل هذه الهيئات والمنظمات؟ راحوا يوصوصون بأذنابهم إلى أسيادهم، ومنهم يستلهمون الجواب.

والمنافقون بالأمس سموا الفرار والتولي من الزحف (رجوعًا) تزيينًا لفعلتهم وتلبيسًا على العامة، حيث إن لفظ الرجوع أخف على النفس الضعيفة وأولى للقبول من لفظ الفرار أو التولي، وها نحن نجد إخوانهم اليوم يغيِّرون الحقائق تلبيسًا على العامة، فيسمون الهزيمة نصرًا، والقتال في سبيل عروبتهم

جهادًا، وتضفي أجهزة الإعلام على الخائن لدينه وأمته ألقاب الفاتح المنتصر، ولئن قال المنافقون ما قالوه بالأمس وقد رأوا المعركة عيانًا وشاهدوها وفروا منها ملتمسين لأنفسهم العذر ـ ولا عذر لهم ـ فإن منافقي عصرنا على اختلاف طبقاتهم يعيشون في حالة أمن وسلام، ويفرون من وهم المخاطر إلى ذل حياة لا يتمتعون فيها إلا قليلًا، يحسبون كل صيحة عليهم فيقدمون ضروبًا من الخضوع والاستسلام، ويعطون الذلة من أنفسهم راضين غير مكرهين ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾.

بالأمس فر المنافقون من القتال بدعوى حفظ البيوت والمحارم، وهم كاذبون، ولو اقتحمت عليهم جيوش الأحزاب بيوتهم من كل جوانبها يسألونهم قتال محمد ﷺ وأصحابه لطاروا معهم مؤيدين، وما انتظروا إلا بقدر ما يأخذون أسلحتهم، أو بقدر ما يسألون الفتنة فيجيبون.

أما منافقو اليوم فهم يتشدقون بأنهم حماة الوطن، وحُرَّاس الفضيلة، وحملة الدعوة، وقادة الأمة، وأنهم أحفاد خالد وسعد، وسيقاتلون العدو الغاصب أو المستعمر حتى آخر رمق، فإذا ما نفحت فيهم نافحة من الروس أو الأمريكان وحلفائهما من شرق أو غرب، راح ساستهم يباركون الخطة الجديدة والمشروع الأمريكي أو الروسي المرسل إليهم صورته، وقام خطباؤهم وكُتَّابهم يؤولون ذلك ويلوون فيه ألسنتهم ليحسبوه من الإسلام وما هو من الإسلام.

فكم سمعنا من الكُتَّاب المتفرنجين من يدعو إلى أخذ الحضارة الغربية بخيرها وشرها وحلوها ومرها وعُجَرِهَا وَبُجَرِهَا؟ وكم سمعنا من زعيم بح صوته وهو ينادي بالفصل بين الصهيونية واليهودية وأننا لا نحارب اليهود ولكننا نحارب الصهيونية؟ فهل بعد هذا الغباء غباء أو بعد هذا التبرير تبرير؟ اللهم غفرًا.

﴿ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾﴾.

بالأمس كان الرجل من المنافقين يقول لصاحبه: اجلس ولا تخرج، ويكاتبون من خرج من عسكر المسلمين أن ائتونا فإنا ننتظركم، وذات يوم انصرف رجل من المؤمنين إلى المدينة فوجد أخًا له شقيقًا في النسب ـ ومن المنافقين في الاعتقاد ـ جالسًا يشوي لحمًا، فقال المؤمن لأخيه: أنت ها هنا ورسول الله ﷺ بين الرماح والسيوف؟! فقال له أخوه المنافق: هلم إليَّ فقد أُحيط بك وبصاحبك، والذي يُحلف به لا يستقبلها محمد ـ يعني لن يرجع إلى المدينة بل سيقتل ويهزم جمعه ـ فقال له: كذبت، والذي يُحلف به لأخبرن رسول الله ﷺ بخبرك، فرجع ليخبره فوجد الوحي قد سبقه بهذه الآية.

أما المعوقون في عصرنا اليوم من المنافقين فهم كثيرون ـ لا كثَّرهم الله ـ يثبطون الهمم، ويوهنون العزائم، ويشككون ناشئة المسلمين في دينهم، يتجمعون على الشر أحزابًا، شعارهم كشعار أسلافهم:

﴿هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾، نحن لسنا بالطائشين ولا المتعجلين، نحن نعرف الأسباب ومسبباتها، وندرك القضايا بكلياتها، ونعلم بواطن السياسة العالمية وظواهرها، فإذا ما قيل لهم لماذا لا تعتمدون على أنفسكم في تدبير شؤون حياتكم السياسية والاجتماعية والاقتصادية على أساس من الدين؟ وعلام تأبون إلا الارتباط بمعسكر شرقي أو غربي؟ قالوا بلسان الحال والمقال على السواء: نحن نسعى إلى هذا ولكن بالتدرج، وسياسة «الخطوة خطوة» والارتباط بأحد المعسكرين العملاقين! ألم يقرأ هؤلاء قول الله تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْۚ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [المائدة].

وفي قوله تعالى: ﴿وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ يقول الزمخشري في معناها: «قربوا أنفسكم إلينا»ا.هـ، فهم دائمًا في كل عصر يكونون عصابة «وطابورًا خامسًا» داخل الجماعة المسلمة يحاربون الحق ويعوقون مسيرة الخير، وهذا العمل منهم أخطر من التثبيط نفسه؛ لأن التثبيط في حد ذاته هو في الأصل ـ فعل فردي، وعادة ما يكون في اللسان، بينما هو هنا كيان جماعي تترابط أفراده، وتتشابه لا في قسمات الوجوه وملامح النفوس فحسب، وإنما في طبيعة الحقد والمكر والالتواء، وفق ما تتطلبه شهوة البطن والفرج وإرادة الشيطان: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُواْ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾﴾ [الأحزاب].

ومن صفات المنافقين الأجداد، أن شبح الحرب وما فيها من الضيق والشدة يتراءى في مخيلتهم حتى بعد أن ذهبت الأحزاب ورجعوا إلى بلادهم، فهم لجبنهم يحسبون الأحزاب لم تذهب بعد، وحتى بعد أن علموا فهم لا يودون ذكر الأحزاب في مجالسهم، ولو كانت عن طريق القصص والذكريات، فيتمنون من قلوبهم ـ لو فُرض أن عادت الأحزاب مرةً أخرى ـ أنهم يعيشون بعيدين عن المدينة يتنقلون في الصحراء بين خيام الأعراب، يسألون الغادي والرائح عن أخباركم سؤال الغريب للغريب، وكأن لم يكن لهم بالمسلمين سابق صلة تُذكر ﴿وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّواْ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْۖ وَلَوْ كَانُواْ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾﴾ [الأحزاب].

ولئن كان المنافقون في الماضي يودون أنهم بادون في الأعراب، فإنهم اليوم لا يقلون عنهم في تنكرهم للمبادئ والقيم والروابط التي ربطتهم بالمسلمين، إن المعاصرين اليوم أكثرهم يتمنون من قلوبهم أن

يتيهوا في عواصم أوروبا وأمريكا وينسوا آلام شعوبهم ومشاكل أمتهم، فإذا ما نزلت بأحدهم نازلة شخصية، أو أراد أن يروي فضوله يومًا ما، راح يسأل عن الإسلام وأحكامه رهبان النصارى ومستشرقي اليهود، فإذا رجع إلى وطنه رجع وهو لا يكاد يعرف من دينه إلا الشكوك والشبهات، يدعو إليها ويدافع عنها ويقررها ما استطاع إلى ذلك حسب مركزه الاجتماعي وقوته الشخصية.

ورغم هذا كله فقد هيأ الله للدعوة إلى كتابه شبابًا عفيفة عن الشر أعينهم، قصيرة عن الباطل أرجلهم، يدعون إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، ولا يخافون في الله لومة لائم، رغم موجة الإلحاد التي اجتاحت ولا زالت تجتاح العالم الإسلامي كله، فقد برزت ظاهرة التدين في الشعوب عامة، وبين صفوف الشباب منهم خاصة، رغم توفر كل المغريات ووسائل الفتنة التي هي في متناول أيديهم لو شاؤوا، وصدق رسول الله ﷺ: «**لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ، ظَاهِرِينَ عَلَى مَنْ نَاوَأَهُمْ، حَتَّى يُقَاتِلَ آخِرُهُمُ الْمَسِيحَ الدَّجَّالَ**». [أبو داود في الجهاد (٢٤٨٤)، ومسند أحمد ٣٣/ ١٤٩ رقم (١٩٩٢٠)، وقال الشيخان الألباني والأرناؤوط: صحيح].

(٣) **من صفات اليهود**: اليهود هم الذين جمَّعوا جيوش الأحزاب وساقوها إلى المدينة لحرب محمد ﷺ وأصحابه، حيث قامت جماعة منهم يطوفون على قبائل الجزيرة قبيلة قبيلة، فجاؤوا إلى قريش ـ وقد وُترت في أعز أبنائها في بدر وأُحُد ـ فسألت قريشٌ وفدَ يهود عنهم وعن محمد ﷺ، قالوا: أفديننا خير أم دينه؟ فقال اليهود ـ وكأنهم لا يعرفون ـ: ما دينكم وما دين محمد؟ فوصفوا لهم دينهم ودين محمد ما شاء لهم أن يصفوا، فقال لهم اليهود: بل أنتم أفضل منه، ودينكم خير من دينه، فأنزل الله في شأنهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ [النساء].

وبينما جيوش الأحزاب تحاصر الخندق، نقضت يهود بني قريظة عهدها مع رسول الله ﷺ، فزاد الخطر والبلاء على المسلمين، فلما هُزمت الأحزاب، حاصر المسلمون بني قريظة في حصونهم عدة ليالٍ، حتى اضطروهم إلى النزول، فنزلوا كما حكى الله عنهم: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾ [الأحزاب].

فمن صفات اليهود في آيات الأحزاب التي نتحدث عنها ما يلي:

(١) **الإفساد في الأرض**: بإشعال الحروب وزرع الفتن والخلافات بين الشعوب والأمم، فما قامت فتنة أو أُشعلت حرب في التاريخ إلا واليهود من ورائها، وما هذه الانقلابات المتوالية في الحكومات

العربية والإسلامية، وما هذا الصراع الذي يثار من حين لآخر بين أفراد الشعب الواحد، إلا ثمرة من ثمرات اليهود وتخطيطهم [ينظر: اليهود في القرآن ٥٢]، ولكن الله متم نوره ولو كره الكافرون قاطبة: ﴿كُلَّمَآ أَوۡقَدُواْ نَارٗا لِّلۡحَرۡبِ أَطۡفَأَهَا ٱللَّهُۚ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادٗاۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [المائدة].

(٢) **الجبن والخوف**: فلا تعرف الشجاعة إليهم سبيلًا، فلا يكاد يسير اليهودي بمفرده إلا وهو يحمل السلاح بيده، ولا يقف أمام خصمه إلا وخلفه ترسانة من السلاح: ﴿لَأَنتُمۡ أَشَدُّ رَهۡبَةٗ فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرٗى مُّحَصَّنَةٍ أَوۡ مِن وَرَآءِ جُدُرِۭ﴾ [الحشر].

فلم تنفع الحصون المنيعة بني قريظة، لم تنفعهم شيئًا لما حاصرهم المسلمون ونزل بهم أمر الله: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمۡ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَ﴾ [الأحزاب: ٢٦].

(٣) **الشح والبخل**: فهم عَبَدَة العجل، وأَكَلة السحت، وأحرص الناس على حياة، يعبدون الدرهم والدينار، قلوبهم قد أُشبعت حب الدنيا، فلا تعرف الرحمة إليها سبيلًا، وأيديهم ممسكة بالدرهم والدينار لا تنفق منه فلسًا أو مليمًا: ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ هُوَ خَيۡرٗا لَّهُمۖ بَلۡ هُوَ شَرّٞ لَّهُمۡۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿١٨٠﴾﴾ [آل عمران].

(٤) **الفُرْقة والخلاف**: جاء حيي بن أخطب اليهودي زعيم بني النضير إلى كعب بن أسد زعيم بني قريظة يطلب منه أن ينقض عهده مع المسلمين، فلم يجبه أول الأمر، ولم يزل به يفتله في الذروة والغارب حتى نقض العهد بعد أن أعطاه من نفسه الأيمان الغلاظ: لئن انتصر محمد ليدخلن مع بني قريظة في حصونهم، فيكون مصيره مصيرهم، وقد قال المنافقون من قبل لإخوانهم يهود بني النضير هذه المقالة نفسها فلم تغن عنهم شيئًا: ﴿۞أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخۡوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَئِنۡ أُخۡرِجۡتُمۡ لَنَخۡرُجَنَّ مَعَكُمۡ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمۡ أَحَدًا أَبَدٗا وَإِن قُوتِلۡتُمۡ لَنَنصُرَنَّكُمۡ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنۡ أُخۡرِجُواْ لَا يَخۡرُجُونَ مَعَهُمۡ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمۡ وَلَئِن نَّصَرُوهُمۡ لَيُوَلُّنَّ ٱلۡأَدۡبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الحشر].

(٥) **الرعب في قلوبهم ولو تحصنوا ببروج مشيدة**: لقد ورد لفظ قذف الله الرعب في قلوب اليهود في موضعين من القرآن الكريم: أحدهما في سورة الأحزاب: ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَ فَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ وَتَأۡسِرُونَ فَرِيقٗا ﴿٢٦﴾﴾.

والموضع الثاني في سورة الحشر عن يهود بني النضير: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمۡ لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِۚ مَا ظَنَنتُمۡ أَن يَخۡرُجُواْۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَۚ يُخۡرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيۡدِيهِمۡ وَأَيۡدِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٢﴾﴾ [الحشر]، فالرعب سلاح يؤيد الله به

المؤمنين على أعدائهم، ففي بني قريظة أعقبه مباشرة القتل والأسر فيهم، وفي بني النضير أعقبه الطرد والنفي والذلة بأن هدموا بيوتهم بأيديهم التي بنوها.

والنصر بالرعب من خصائص هذه الأمة، يقول رسول الله ﷺ: «**نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ**».

[البخاري في التيمم (٣٣٥)، وفي الصلاة (٤٣٨)، وفي الجهاد والسير باب قول النبي ﷺ نُصرت بالرعب، والنسائي في الغسل والتيمم (٤٣٢)].

وفي لفظ لأحمد: «**نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، فَيُرْعَبُ مِنِّي العَدُوُّ عَنْ مَسِيرَةِ شَهْرٍ**».

[مسند أحمد ٣٥/ ٢٢٤ عن أبي ذر الغفاري ﷺ رقم ٢١٢٩٩، وقال الشيخ الأرناؤوط: حديث صحيح وهذا إسناد حسن من أجل محمد بن إسحاق وقد توبع وباقي رجاله ثقات رجال الشيخين].

وفي لفظ لمسلم: «**نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ عَلَى العَدُوِّ**». [مسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٥٢٣)].

وفي رواية: «**نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ عَلَى عَدُوِّي مَسِيرَةَ شَهْرَيْنِ: شَهْرٍ خَلفِي وشَهْرٍ أَمَامِي**».

[سبل السلام ١/ ١٢٦].

﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾ [الأحزاب].

(٦) **أورث الله أرض اليهود وأموالهم المسلمين**: والتوريث تمليك، فلا يجوز للمالك أن يضيع ملكه، ولا الوارث أن يفرط فيما ورث، وها نحن نجد اليهود قد جاسوا خلال الديار، وأفسدوا فيها، بعد أن داسوا قيم أهلها وأخلاقهم أو كادوا، يدفعهم حقد مرير على الإسلام وأهله، وخوف رهيب من يقظته في نفوس أبنائه، لقد حاولوا تدمير الإسلام أكثر من مرة: حاولوا في الحروب الصليبية، ففشلوا، فعادوا يخططون من جديد لينهضوا.. ثم كروا علينا بجيوش حديثةٍ وفكرٍ جديد، بعد أن صنعوا من أبناء المسلمين ـ والعرب منهم خاصة ـ عملاء لهم ينطقون باسمهم، وينفذون مخططهم بسهولة ويسر، فقام هؤلاء العملاء المأجورون يضطهدون أممهم وشعوبهم بكل وسائل الإفساد والتخريب، حتى أماتوا فيهم روح الشهامة والرجولة، وأطفأوا فيهم جذوة الإيمان وشعلة الجهاد في سبيل الله، وداسوا كرامة شعوبهم ودنسوها قبل أن تطأ يهود أرضهم وتدنس مقدساتهم.. وهكذا دائمًا من عميت بصائرهم عن جادة الحق تنعكس كل المعايير في نفوسهم، فيرون الذلة عزةً، والعزة مهانةً، والعدو صديقًا، والصديق عدوًّا، وصدق الله العظيم: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج].

ولا غرابة أن يُرى النفاق كما رُأي بالأمس مثبطًا للهمم، داعيًا إلى الفرار، تاركًا لليهود ومن ساندهم أن يطفؤوا شعلة الإيمان، ويفرقوا جَمْع المسلمين لو استطاعوا.

ولا علاج لما نحن فيه إلا بثبات الفئة المؤمنة، وفرارها إلى الله تعالى واستعانتها به، وتوكلها عليه، متذكرة نعمة الله حين جاءت إلى مدينة رسول الله ﷺ جنود فأرسل عليهم ريحًا وجنودًا، وبلغت الشدة

مبلغها كما وصف الله: ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ ﴾ ولم تزدد الفئة المؤمنة إلا تصديقًا بوعد الله ورسوله ﷺ وإيمانًا وتسليمًا.

ويهود اليوم هم يهود الأمس، جاؤوا بحقدهم على الإسلام وأهله، وألَّبوا قوى الشر على مقدسات الإسلام، ولا علاج لأمرهم إلا بالثبات على دين الله، والتضحية في سبيله، فإن أقوى الأسلحة التي يخافونها ويعملون على إبعادها هي قوة الإسلام.

وقد أعانهم إخوانهم من المنافقين في الديار الإسلامية، فعملوا على إبعاد الإسلام عن ساحة القضية، وأقاموا حروبهم تحت شعارات حققت الهزائم لهم وصنعت النصر لعدوهم.

إن علاج الأمر كله في أن نتأمل خطى رسول الله ﷺ وأصحابه في هذه الغزوة؛ لنأخذ بالأسباب التي أخذوا، ونصدق كما صدقوا، ونثبت كما ثبتوا، ونزداد ـ مع تضافر الأعداء ـ إيمانًا وتسليمًا، وما هي إلا إحدى الحسنيين: النصر أو الشهادة: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأحزاب]». [غزوة الأحزاب للفنيسان ١٩٣-٢١٦].

١٩ ـ معركة الخندق واستنطاق التجربة في الحاضر (١):

نزلت آيات من سورة الأحزاب لتتحدث عن معركة فاصلة حاسمة بين المشركين والمسلمين، وهي معركة الخندق، وتُسمى بمعركة الأحزاب، والتي حدثت في شهر شوال، ونحن إذ نستعرض بشكل سريع هذه المعركة فمن أجل أن نقارن بين واقع المسلمين في الماضي وبين واقعهم في الحاضر، وطبيعة الأوضاع التي كانت تسيطر على تلك المرحلة من حياة المسلمين، سواء لجهة الدور الذي لعبه أعداء الإسلام والجهات المندسَّة في داخل المجتمع الإسلامي من المنافقين والذين في قلوبهم مرض، ممن كانوا يمثلون القوة النفاقية التي تنسق مع المشركين، وتعمل على إثارة الفتنة في داخل الواقع الإسلامي، أو لجهة نصر الله المسلمين بعد أن أُصيبوا بزلزال نفسي وخوف حقيقي، ومن بعد حصار لم يشهدوا له مثيلًا في كل تاريخ صراعهم مع المشركين، لكن الله ﷻ كان معهم وهيَّأ لهم العوامل الطبيعية التي ساهمت في تحقيق الانتصار، في حين كانت مفاجأة للمشركين وصدمة كبيرة لهم.

الإمداد الغيبي: فالله تعالى يبدأ هذه الآيات بعرض الواقعة: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ ﴾ [الأحزاب: ٩]، عندما هاجمتهم جنود المشركين وحلفاؤهم

(١) موقع التاريخ على شبكة المعلومات الدولية (الإنترنت) نقلًا عن موقع بينات، بدون ذكر اسم الكاتب.

من اليهود كانت النتيجة أن أرسل الله عليهم ريحًا قاسية شاتية أثارت الرمال، فأضحى الإنسان معها لا يرى صاحبه، مما أفقدهم التماسك، وجعل أبا سفيان يأمر جنوده بالرحيل.

ويحدِّثنا الله ﷻ أنه أرسل جنودًا لم يروها، وهي كناية عن الملائكة التي عملت على إيجاد نوع من التوازن في الموقف، ولم يبين الله لنا الطريقة؛ لأنه غَيْب من غَيْب الله أخبرنا الله به ولا نملك تفاصيله؛ ولذلك فإن علينا أن نؤمن به وإن لم نعرف كلَّ مفرداته ودقائقه، ويصوِّر القرآن الكريم لنا كيف كانت حالة المسلمين؛ لأنه يريد أن يعطينا الصورة حتى نتمثلها في المستقبل في كل صراعاتنا مع أعداء الله، وهذه هي قيمة القصة القرآنية التي لا تريد أن تُدخلنا في التفاصيل كلها على طريقة القصص التي يلهو بها الناس، ولكنها تريد أن تركز على مفاصل القضايا التي يمكن أن تحدث في أية حالة من الحالات؛ ليتعلم المسلمون على مدى التاريخ كيف يواجهون الحالات المماثلة، وبالطريقة التي لا يسقطون فيها أمام الحصار والضغط، بل يتطلعون إلى غيب الله بالإضافة إلى ما يتحركون فيه.

إنَّ المشكلة التي قد يعيشها المسلمون وغيرهم من الناس أنهم يرتبطون بالجانب الحسي من الأشياء، يعني دائمًا أننا نُدخل في الحسابات ما يملك العدو وما نملك نحن، العدو أقوى منَّا سلاحًا ونحن أضعف منه، العدو يملك امتدادات في الساحة الدولية، ونحن لا نملك مثل هذه الامتدادات، العدو يجتمع على باطله ونحن نتفرق عن حقنا، فالله ﷻ لا يمنعنا من أن ندخل في الحسابات المادية، ولكنه يعرِّفنا أن هنالك حالة غيبية إلهية، يجب أن ننفتح من خلالها على الله، ولكن بعد أن نصبح على أتمِّ حالات الاستعداد لنقول له انصرنا على القوم الكافرين، لنقول له أعطنا من غيبك، كما فعل المسلمون في بدر: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩﴾ [الأنفال].

ومن هنا، علينا كمسلمين، ومن خلال إيماننا بالله ﷻ، في كل تاريخ صراعاتنا، أن لا نغفل الإمداد الغيبي الذي يمد الله به عباده المؤمنين إذا أخلصوا له، ولو فكَّر كل واحد منَّا في كل تاريخ حياته، لرأى أن الله ﷻ كان يرعاه بطريقة لم يحسب لها حسابًا، وكان يرزقه من حيث لا يحتسب، وكان يحرسه من حيث لا يحترس، وكان يخلِّصه من البلاء في الوقت الذي يظن فيه أنه ليس هناك خلاصٌ من البلاء، ليدرس كل واحد منكم تاريخ حياته، وسيجد أن في حياته إمدادًا غيبيًا إلهيًا لا يعرف من أين أتى، وكيف تحرك.

هذا الإمداد الغيبي الإلهي هو أمرٌ يمثل الحقيقة، إنْ على مستوى واقع المسلمين الفردي، أو على مستوى واقعهم الجماعي؛ ولهذا نجد أن الله يقول: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ﴾ [الطلاق]، قد يبتلينا الله، ولكنَّه في الوقت نفسه يخرجنا من مآزق كثيرة ومن مشاكل كبيرة، لا ندري عوامل نشوئها والمؤثرات التي تركتها؟!

لقد أودع الله في الحياة سننًا كونية وقوانين طبيعية، ولكن الله لم يجعل الناس يعيشون تحت ضغط هذه السنن والقوانين بشكل حديدي، بل إنه ﷻ يهيئ لهم سبيل الفرج والرحمة: ﴿سَيَجۡعَلُ ٱللَّهُ بَعۡدَ عُسۡرٖ يُسۡرٗا ٧﴾ [الطلاق]، ﴿إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرٗا ٦﴾ [الشرح]، ﴿لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ﴾ [الزمر: ٥٣]، ﴿وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨٧﴾ [يوسف].

ويركّز ﷻ دائمًا على هذا المعنى، وأن على الإنسان أن يعيش على أساس أن لا تضغط عليه الأشياء المادية؛ ولهذا لا يمكن لمؤمن أن ينتحر؛ لأن مسألة الانتحار إنما تنطلق عندما يختنق الإنسان في ظروفه من كل جهة، والإنسان المؤمن لا يمكن أن يختنق أبدًا: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨٧﴾ [يوسف].

ولهذا أُحب أن أخاطب الشباب قبل الكبار؛ لأن تجارب الكبار في الحياة تجعلهم يحسون بسعتها أكثر من الشباب، خصوصًا من كان منهم في سنِّ المراهقة، ولم يملك تجربة كبيرة في الحياة، فيتصور أنها محصورة في جانب دون غيره من الجوانب، فيما الحياة تتسع لكل المراحل، من الضيق إلى السعة، ومن الفقر إلى الغنى، ومن الشقاء إلى السعادة؛ ولذلك فإن عملية اليأس ليست واقعية من خلال طبيعة الحياة، لكن بعض الناس هو من يسجن نفسه في دائرة لا يسعى للخروج منها إلى دائرة أخرى، على الرغم من توفر الفرص والظروف.

وفي مسألة الإيمان بالله، فإن الكون كله يتسع لك؛ لأن ﴿ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٠﴾ [البقرة]، إذ لا مشكلة إلا ولها حلٌّ، فالله لا يمكن أن يبتلينا دون أن يوجد لنا حلولًا لمشاكلنا، لكنه ﷻ لا يتصرف في الكون على أساس مصلحة الفرد، وإنما يتصرف على أساس المصلحة العامة والحكمة العامة للناس، وقد يرى سبحانه أن من المصلحة العامة أن يبتليك دون أن يحل لك المشكلة، وفي هذا الإطار لا تستطيع أن تقول إن هذه المشكلة لا حلَّ لها؛ لأن ﴿ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٠﴾ [البقرة]، وأن يعمل الله أو لا يعمل فهذا راجع إلى حكمته ﷻ.

الزلزال الشديد: كانت وقعة الخندق تمثل مشكلة من أصعب المشاكل التي مرت على المسلمين؛ ولذلك سنحاول أن نرسم صورة الواقع الذي سبق وقوعها، لنلج بعد ذلك إلى الآيات لنعيش أجواءها، حيث كان مجتمع المدينة يضم في تشكيلته ـ عندما هاجر الرسول ﷺ ـ إلى جانب الأوس والخزرج عددًا من القبائل اليهودية من بني قريظة وبني قينقاع وبني النضير، وكان هؤلاء يمتلكون مواقع إستراتيجية مهمة، كما كان يوجد خارج المدينة اليهود من غطفان وخيبر والمشركون من القبائل، خاصة قريشًا.

ولما كان رسول الله ﷺ يعطي الأولوية في صراعه للمشركين، فإنه عندما دخل المدينة أقام معاهدة بين اليهود وبين المهاجرين ومختلف عوائل المدينة، وكانت بذلك أوّل وثيقة تركز معنى الدولة، وعلى هذا الأساس دخل اليهود في عهد مع النبي ﷺ الذي كان عندما يخرج إلى الغزوات يشعر بالاطمئنان لوجود هذا العهد، بحيث لا ينقضه هؤلاء؛ لأن هناك تعايشًا بينهم وبين المسلمين آنذاك، ولكن بعض اليهود من بني النضير أو من آخرين فكَّر أن بمستطاعه أن يخلق حربًا جديدة بين المشركين وبين النبي ﷺ حسب رواية، أو كما جاء في رواية أخرى، حيث كان المشركون يفكرون بالهجوم على المدينة واقتلاع الإسلام من مواقعه الأساسية، وجاء اليهود ليثيروهم، أو لينسِّقوا معهم، ورحبت قريش باليهود الذين لعبوا دورًا مثيرًا في قضية الصراع، حتى إنه يقال بأن قريشًا عندما سألت اليهود عن الأهدى، فجاء رد اليهود بأنكم الأهدى، وقد قال تعالى عن هذه المسألة: ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ۝٥١﴾ [النساء].

وقد زجَّت قريش كلَّ طاقاتها في المعركة، يعضدها أحلافها في الجزيرة العربية، بعد أن انضمَّت إليها جماعات اليهود، ولم يبق إلا بنو قريظة خارج هذا التحالف؛ لأنها كانت مرتبطة بميثاقٍ مع المسلمين؛ ولذا حاول اليهود من بني النضير دفع قريظة إلى نقض العهد مع النبي ﷺ فامتنعت عن ذلك، ولكن الاستمرار في حالات الإقناع مكَّنهم أخيرًا من إقناعها بنقضه، بعد أن أغروهم بأن محمدًا ﷺ سيسقط جراء الحشد الهائل الذي تقدمت به قريش وأحلافها في المدينة.

سمع النبي ﷺ بالذي حصل، فأرسل شخصًا ليتأكد من صحة القضية التي سرعان ما اكتشف بأنها صحيحة، وهنا أصبح الاحتراز واجبًا: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾، ما جعل المسلمين يعيشون حالةً من الإرباك؛ لأنهم أصبحوا محاصرين من جميع الجهات، وعاشوا الرعب والخوف ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾، حيث كان يشعر الشخص عندما يرتجف قلبه ويخفق خفقات سريعة، كأن قلبه وصل إلى حنجرته من شدة الاهتزاز، وهذا ما أدخل المسلمين في حالة من الظن بالله ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ۝١٠﴾، إذ فقدوا كل أمل لهم بالنصر وهم على هذه الحال من الحصار المستحكم، كما فقدوا الأمل بالبقاء.

حرج المنافقين: كانت هذه محطة ابتلاء ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾، في هذا الواقع الجديد ﴿وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ۝١١﴾ زلزالًا نفسيًّا، ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ الذين وقعوا في حرج شديد، ما جعلهم يستغيثون بهذا وذاك ليركزوا مفاهيمهم ويخربوا الحالة الإيمانية في نفوس المؤمنين إن استطاعوا، ﴿وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا

وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾، فهم عندما وجدوا أنهم لا يستطيعون حراكًا من بيوتهم شككوا بأقوال النبي ﷺ الذي كان يعدهم بأنهم سيصلون إلى مدائن كسرى وقيصر، ﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ ﴾ من هؤلاء المنافقين والذين في قلوبهم مرض، ﴿يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ﴾ وهو اسم المدينة قبل أن تُسمى بالمدينة، ﴿لَا مُقَامَ لَكُمْ﴾ لا مجال لكم، ﴿فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ﴾، تحت ستار أن البيوت مكشوفة؛ لكي يسمح لهم النبي ﷺ بالخروج من المعركة، ﴿يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ﴾.

وقد كانوا يبغون من ذلك الفرار ﴿إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا﴾، يعني جاؤوا من جميع الجوانب، ﴿ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا﴾ أما في حال طُلب منهم أن يخلقوا الفتنة في داخل المجتمع المسلم للتنسيق مع المشركين لجاؤوا مسرعين ﴿وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾﴾، يقول هؤلاء الناس الذين يخافون ويستأذنون النبي ﷺ ﴿ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ﴾ أن يبقوا صامدين في وجه التحديات ﴿وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ﴾، فلو فررتم من الموت أو القتل فإن الموت ملاقيكم ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، ﴿وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾﴾.

الأسوة الحسنة: ويعطينا الله ﷻ صورة الجانب الآخر: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ كيف كان صامدًا وقويًا وصلبًا، فلم يهتز ولم يسقط، مع أنه كان هو المقصود بالدرجة الأولى من كل هذه الأحزاب، وعليكم أن تقتدوا به لتكونوا الأقوياء كما هو قوي، وتكونوا في مواقع الصلابة والشجاعة كما كان هو في مواقع الصلابة والشجاعة ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ﴾، هذه الأحزاب التي اجتمعت من كل البلاد: ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ﴾، بأننا سنجابه كل المشركين وكل أعداء الله؛ لأنه ﷻ كتب علينا الجهاد؛ لذلك قال ستدعون إلى قوم ﴿أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ﴾ [الفتح: ١٦]، وفي مواجهة التحديات ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾، إذ لا يسقط المؤمن أمام كل التحديات، لانفتاحه على الله ﷻ، على طريقة نبي المؤمنين وإمامهم الذي يقول لصاحبه: «**لا تحزن إن الله معنا**».

مواجهة الاختراق بحفر الخندق: قدَّم القرآن الكريم لنا الصورة التي استطاع فيها المشركون أن يخترقوا المسلمين، ومواجهة المسلمين لهذا الاختراق، وهذه حالة موجودة في حياة كل المؤمنين المجاهدين الذين قد يخترق العدو صفوفهم من خلال بعض نقاط الضعف، فيسيطر على مواقعهم، وهنا لا بد أن

يستعدوا ليواجهوا هذا الاختراق بطريقة يجعلون فيها العدو يلاقي الهزيمة، وهذا ما واجهه النبي محمد ﷺ بمشاورة أصحابه، كما كان الله ﷻ يأمر بذلك ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩] فأشار عليهم سلمان الفارسي ﵁ بحفر الخندق لعدم الالتحام مع العدو كما كان متبعًا في بلاد فارس، فأخذ النبي ﷺ بهذه الفكرة، وبدأ المسلمون بحفر الخندق وهو على رأسهم، واستكمل حفر الخندق، وما إن وصل المشركون إلى المدينة حتى فوجؤوا به؛ لأن هذه الطريقة في الحرب لم تكن مألوفة من قبل لدى العرب.

بدأ المشركون يفكرون باقتحامه، خاصة وأن القتال اقتصر على النبل والحجارة التي كان يرميها كل فريق على الآخر، ولكن كان هناك منطقة ضيقة في الخندق سمحت لعمرو بن عبد ود ومعه عدة أشخاص من اجتياز الخندق، ولكن بعضهم سقط في الخندق فرماه المسلمون وقتلوه.

وعمرو هذا كان أحد أبطال العرب، وربما جُرح في بدر، ونذر أنه سينتقم ويقتل محمدًا ﷺ، وقد لبث طوال هذه المدة يداوي جراحاته، أو أن هناك ظروفًا قد حالت دون اشتراكه في الحروب التي سبقت الخندق.

ولعلَّ عمرًا ـ كما كل المشركين ـ كان يتصور أن المسلمين لا يستطيعون مقاومة هذه الحملة، وبذلك يتحقق ما قطعه على نفسه من قتل محمد ﷺ؛ ولذلك ما إن اجتاز الخندق حتى وقف قائلًا للمسلمين بسخرية: إذا كنتم تقولون إن مَنْ يُقْتل منكم يذهب إلى الجنة، فمن يحب أن يذهب إلى الجنة، فأنا مستعد أن أقتله، وهو يصول ويجول ويرتجز ويقول:

وَلَقَدْ بُحِحْتُ مِنَ النِّدَا ... ءِ بِجَمْعِكُمْ: هَل مِنْ مُبَارِزْ؟

معركة الإيمان والشرك: والنبي ﷺ يقول: «**من لعمرٍ وقد ضمنت له على الله الجنة**»، فلا يقوم أحدٌ إلا علي ﵁، فقال له: اجلس، ثم قال: أنا له يا رسول الله، وهكذا كان ينادي رسول الله ﷺ ولا يقوم أحدٌ إلا علي ﵁، والنبي ﷺ يأمره بالجلوس، حتى قال له في المرة الثالثة: «أنت له»....وانطلق علي ﵁، فقال له عمرو: من أنت؟ قال: أنا علي بن أبي طالب، قال: لقد كان أبوك صديقًا لي، وأنا لا أحب أن أقتلك، فليبرز لي غيرك، قال له: ولكني أحب أن أقتلك.

لأن الموقع ليس موقع علاقات شخصية، بل موقع رسالة، واشتدت العصبية بعمرو.

ويقال: إن الإمام عليًا ﵁ قال له: «إن كنتَ تقول ما دعاني أحد من العرب ممن أريد أن أبارزه إلى ثلاث خصال إلا أجبته إلى واحدة، قال له: نعم، فقال علي: أولًا: أن تقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله؛ لأننا لا نريد أن نقاتل أحدًا إلا بعد أن ندعوه إلى الإسلام ونقيم عليه الحجة، قال له: دع هذه، لو أردنا أن نقولها لقلناها بمكة، قال: إذًا أن ترجع بهذا الجيش من حيث أتيت، قال: ماذا تقول عني

نساء قريش، بأني جئت ولم أفِ بنذري، هذا ليس واردًا، ثم قال: أن تنزل للبراز، أنت فارس وأنا راجل، وذلك حتى نكون في وضع متكافئ.

وكانت النتيجة أن صرع علي ﷺ عمرًا وقتله وفرَّ من كان معه من الرجال ووقع بعضهم في الخندق، ثم جاءت الريح العاتية الشاتية القوية العاصفة، وخرَّبت كل تشكيلات قريش والأحزاب ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَۚ﴾.

اكتسب المسلمون قوة بذلك، ما مكَّن النبي ﷺ أن يندفع فيما بعد إلى بني قريظة فيجليهم عن المدينة، وبذلك لم يبقَ فيها أحد من اليهود، أما الذين كانوا في خيبر فقد استطاع النبي ﷺ أن يهزمهم بعد ذلك.

متى يحافظ اليهود على عهودهم؟: أما إيحاءات هذه القضية، فالإيحاء الأول هو أن اليهود لا عهد لهم، وقد تحدث القرآن الكريم عن ذلك: ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُمۚ﴾ [البقرة:١٠٠]، ﴿يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٧]، وإذ خاطبهم الله: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠]، ولكن اليهود لا يعاهدون إلا إذا كانوا في موقع الضعف، وعندما يجدون من أنفسهم القوة ينقضون عهدهم.

[يقول الشيخ الغزالي: «وتبين أن حرص قريظة الأول على التزام العهد كان خوفًا من عواقب الغدر فقط، فلما ظنت أن المسلمين أُحيط بهم من كل جانب وأنها لن تؤاخذ على خيانة، أسفرت عن خيانتها، وانضمت إلى المشركين المهاجمين.

ومسلك بني إسرائيل بإزاء المعاهدات التي أمضوها قديمًا وحديثًا يجعلنا نجزم بأن القوم لا يدعون خستهم أبدًا، وأنهم يرعون المواثيق ما بقيت هذه المواثيق متمشية مع أطماعهم ومكاسبهم وشهواتهم، فإذا وقفت تطلعهم الحرام نبذوها نبذ النواة، ولو تَركت الحمير نهيقها، والأفاعي لدغها، ترك اليهود نقضهم للعهود.

وقد نبه القرآن إلى هذه الخصلة الشنعاء في بني إسرائيل وأشار إلى أنها أحالتهم حيوانًا لا أناسي، فقال: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأنفال]». [فقه السيرة للغزالي ٣١١، ٣١٤].

[ويقول أ/ الشامي: «ولم يكن امتناع كعب ـ أولًا ـ عن نقض العهد، شرفًا ومروءة ووفاء، ولكنه قد رأى بأم عينيه ما آل إليه حال بني النضير وبني قينقاع، فلا يريد أن يصير إلى ما صاروا إليه.. فلما أقنعه حيي بأن الكسب محقق وأن القوة الموجودة على أبواب المدينة لا يمكن جمعها بعد اليوم، وأنها الفرصة

التي لا تعوض، وأن شرف النصر في هذه المعركة سيعود إليه.. فها هي قريش وغطفان ومن معهما لا يستطيعون القيام بأي عمل.. وأن انضمامه إليهم هو الذي سيحرز لهم النصر فيكون له شرفه، وذهب التطبع وعاد الطبع اليهودي إلى أصالته في الخيانة واللؤم». [من معين السيرة للشامي ٢٩٩-٣٠٠].

[ويقول د/ أبو فارس: «إن اليهود لا يحافظون على العهود مع المسلمين إلا إذا كانوا ضعافًا، وهذه المحافظة كما ترى ليست لطيب معدنهم، وحسن طويتهم، وحبهم للوفاء بالعهد والوعد والعقد، بل لعجزهم عن إلحاق الأذى بمن يكرهونه ويعاهدونه.

ومع هذا فإنهم رغم ضعفهم لا يسكتون ولا يتوقفون عن الكيد لكنهم يسلكون أسلوب التشكيك باللسان، وقد عجزوا عن استعمال السنان.

إن اليهود يُظهرون المسالمة عند ضعفهم، وينقلبون وحوشًا كاسرة عندما يستأنسون في أنفسهم القوة والغلبة وعند غيرهم الضعف والقابلية للهزيمة.

فأنت ترى أن كعب بن أسد زعيم بني قريظة قد كان مسالمًا لرسول الله ﷺ ولما شعر بقوته وقوة الأحزاب أعداء المسلمين يمكن أن ترجح على قوة المسلمين قد انقلب شريرًا يمزق الصحيفة، ويؤذي هو وقومه رسول الله ﷺ بالشتم القبيح، ويوجه الإهانة لسيد الأوس وللوفد الذي جاء إليهم وهو في دارهم.

لماذا تردد كعب بن أسد في نقض العهد؟: إن تردد كعب بن أسد زعيمهم في نقض العهد الذي كان بينه وبين الرسول ﷺ لم يكن نابعًا من مروءة الرجال، وخلق الوفاء؛ بل لأنه كان يشك في قدرة الأحزاب على سحق المسلمين وإفنائهم والقضاء عليهم، إذ لا خلاف في الهدف بين اليهودي كعب بن أسد القرظي، وبين أبي سفيان، وسائر قادة الأحزاب، فالجميع يهدفون إلى القضاء على الإسلام والمسلمين، ويتحينون الفرص المواتية لذلك، ولكن الاختلاف كان في تقدير الظروف والإمكانات، فهل الظروف مواتية ومناسبة للانقضاض؟ وهل الإمكانات المتوافرة تحقق الهدف الخبيث المشترك؟

ولما أقنعه حيي بن أخطب بأن الفرصة سانحة، والظروف مواتية، والإمكانات متوافرة كافية سارع إلى نقض العهد، وتمزيق الصحيفة، واتخاذ التدابير العسكرية مع الأحزاب، الكفيلة في ظنه ووهمه لسحق المسلمين والتخلص منهم، تأمل قول حيي لكعب: **(جئتك بما تستريح به من محمد)**، وتأمل قوله أيضًا **(ويحك يا كعب جئتك بعز الدهر)**». [الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢/ ٢٣-٢٥].

فقد نقض اليهود العهد عندما رأوا المشركين جاهزين للهجوم على المدينة لإسقاطها، وأبدوا استعدادهم للتنسيق مع أيٍّ كان؛ لأنهم يعتبرون الإسلام في كل مواقعه يختزن حيوية في فكره وفي سياسته

وفي اقتصاده، الأمر الذي يمنعهم من تحقيق أهدافهم والوصول إلى أطماعهم وتأكيد شخصيتهم، سيما وأنهم يرون أنفسهم شعب الله المختار المؤهَّل للسيطرة على العالم.

وهذا ما يجب أن نعيشه ونتحسَّب له أمام كلِّ دعوات «السلام» مع «إسرائيل» ومع يهود العالم؛ لأنه إذا لم نقل: إن كل يهود العالم ينسِّقون مع «إسرائيل» ويحاربون كل المسلمين اقتصاديًّا وسياسيًّا وثقافيًّا لمصلحة «إسرائيل»، فعلى الأقلِّ فإن أكثرية اليهود كذلك.

ولو سلَّمْنا جدلًا بأن الصلح يُشكل مسألة واقعية على المستوى السياسي، كما يقول بعض الناس الذين يتحدثون عن الواقعية، فإن هذا بخلاف ما ينطق به تاريخنا الإسلامي، وقرآننا الكريم الذي يقول: إنه ليس لليهود عهد؛ لأنهم ﴿يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ [البقرة: ٢٧]، وإذا كانوا يتحدثون الآن عن «السلام» ويزايدون في بعض الحالات، فهم يتحدَّثون عن القوى الإسلامية التي تقف ضدَّ «إسرائيل»؛ لأنها لا تعترف بشرعية وجودها ولا تهادنها بشيء، سواء كان الإسلاميون في فلسطين من أبطال الانتفاضة أو الإسلاميون في لبنان من أبطال المقاومة، أو الإسلاميون في سائر أنحاء العالم؛ لأن مشكلة هؤلاء ـ حسب زعمها ـ أنهم ضد «السلام»، وهي حمامة «السلام»، قاصدة من وراء كل ذلك إثارة الغرب والرأي العام الدولي، بأن هؤلاء هم دعاة حرب لا دعاة «سلام».

لذلك لابد لنا كمسلمين أن نحمل في عقولنا وفي قلوبنا هذه الفكرة القرآنية عن اليهود، وقد بيَّن الله تعالى ذلك: ﴿۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ [المائدة: ٨٢].

بناءً لما تقدم، علينا أن نعي حقيقة التحالف الذي وقع بين المشركين واليهود في وقعة الأحزاب؛ لأن هذه حقيقة قرآنية وسياسية على مستوى الزمن كلِّه؛ ولذا يجب أن نستوحي مفاهيمنا السياسية في علاقاتنا بكل المحاور الموجودة في العالم من الحقائق القرآنية، والقرآن عندما يحدثنا عن اليهود يحدثنا عن تجربة من زمن موسى عليه السلام إلى زمن النبي ﷺ ناهيك عن التجارب الأخرى التي يتحدث عنها التاريخ، ما يجعلنا نرتكز على قاعدة مفادها أن حالة العنصرية والعدوانية متجذِّرة في الشخصية اليهودية.

إزاء هذا الواقع علينا أن نثقف أولادنا على أساس أن اليهود يشكلون خطرًا حقيقيًّا على الإسلام وعلى المسلمين في كل قضاياهم؛ لأنه إذا قُدِّر للعبة الدولية أن تحقق أهدافها من خلال عملية الصلح بين العرب وإسرائيل، فإن أمريكا سوف تُدخل إسرائيل في كل الواقع الاقتصادي والاجتماعي والثقافي والمالي والأمني من خلال المفاوضات المتعددة الجنسيات، أو من خلال المفاوضات الثنائية، وذلك عن طريق فرض الأنظمة، وعندما يدخلون إلى بلادنا تحت عنوان «السلم»، فإنهم سيحققون بذلك ما عجزوا عن تحقيقه بالحرب.

هذه المسألة هي برسم كلِّ المسلمين في العالم، فمثلًا إذا كنت ملتزمًا إسلاميًّا، هل تشتري الخمر لتشربه؟ هل تأكل لحم الخنزير؟ هل تأكل لحم الميتة؟

إنك تقول: لا يمكن ذلك، إن التعامل مع إسرائيل وإيجاد حالة تطبيعية معها هو تمامًا كأكل لحم الخنزير، وكشرب الخمر؛ لذلك نقول حتى للناس الذين يعيشون في المناطق التي تسيطر عليها «إسرائيل»، أو الناس الذين تدفعهم إلى أن يهرِّبوا البضائع «الإسرائيلية»، إن ذلك حرام وإن المال الذي تأكلونه من ذلك سحت.

وبما أن المسألة لا تقتصر على الجانب السياسي فحسب، فإننا نكون بذلك قد عملنا على تقوية «إسرائيل» من الناحية الاقتصادية، وهذا يعني أننا نمدها بالقوة اللازمة لتهزم قوتنا، وبالقوة العسكرية لتقتل أهلنا وأطفالنا ونساءنا وشيوخنا، وهذا ما يقوم به الذين يتجندون «لإسرائيل» عسكريًّا.

والنقطة الثانية التي نستطيع أن نستفيدها من موقعة الخندق، هي أن المشركين كانوا في موقع الكثرة المحاصرة للمسلمين، بينما كان المسلمون أقل عددًا وعُدة ومحاصَرين، ومع ذلك فإن الله هزم الكثرة وأعز القلة، وشرَّد المحاصِرين وأعزَّ المحاصَرين، وهذه هي الحالة التي نقرأ خلاصتها دائمًا في التعقيب: «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ، أَعَزَّ جُنْدَهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ، وَغَلَبَ الأَحْزَابَ وَحْدَهُ، فَلَا شَيْءَ بَعْدَهُ**».

ومن خلال هذه الصورة، علينا أن نفهم أنه ليس من الضروري أن تولد لنا الهزيمة يأسًا؛ لأننا إذا أخذنا بأسباب القوة فيما نريد أن نحقق لأنفسنا القوة، فقد نستطيع أن نهزمهم بطريقة وبأخرى، فإذا استطعنا أن نهزمهم في المواقع الصغيرة، فإن ذلك يعني أننا طوَّرنا قوتنا، ونستطيع أن نهزمهم في المواقع الكبيرة.

ولذلك علينا دائمًا أن نفكر كأمة ولا نفكر كأفراد؛ لأننا إذا فكرنا كأفراد نشعر بالضعف، أما إذا فكرنا كأمة فإننا لا ريب سنشعر بالقوة، وعلينا أن لا نفكر فقط بالجانب المادي من حياتنا، بل أن نفكر بالجانب الروحي أيضًا الذي يربطنا بالله ﷻ.

وعلى هذا الأساس، ينبغي أن نفكر ونمتلك الوعي السياسي الذي نحيط من خلاله بخلفيات الأمور وعمق القضايا والأشخاص، علينا أن لا نفكر لحظة واحدة أن الذين يسيطرون على الواقع العربي وعلى كثير من الواقع الإسلامي يمثلون الضمانة للعرب وللمسلمين في قضايا الحرية والعزة والكرامة والعدالة؛ لأن الكثيرين منهم موظفون لدى الاستكبار العالمي، بحيث لا يعتبرون أن إسرائيل تشكل خطرًا عليهم، إنما يجدون الخطر كل الخطر في الإسلام ـ الذي يحكمون باسمه ـ إذا تحرك من أجل أن يؤكد مفاهيمه وشريعته. ا.هـ.

المبحث الثاني

الدروس التربوية والأخلاقية

١ - حيي بن أخطب يعبث بالقيم:

يقول د/ حبيشي: «علم حيي أن الحلفاء مختلفون في أهدافهم، فمنهم من يقاتل حمية، ومنهم من يقاتل مأجورًا على ما علمتَ.

وعلم حيي والذين معه من أقطاب اليهود، أن العرب الذين قرروا حرب النبي ﷺ لم يجتمعوا على قائد واحد منهم، يسلمون له قيادهم، يأتمرون بأمره، وينتهون حيث نهى، وهذه نقاط ضعف قد تفت في عضد الحلفاء في لحظة واحدة من عشية أو ضحاها.

وحين علم حيي هذه المسألة وتلك، رأى أن يحتاط للمعركة، وأن يسرع بنتائجها، ففكر وقدَّر، وتأمل وتدبر، فلم يجد إلا أن يحاول أن يضغط على النبي ﷺ من الداخل، حتى يُلجئه إلى بعثرة قواته، فيسحب جزءًا منها لحماية ممتلكات المسلمين ونسائهم وذراريهم من وراء ظهورهم، وحينئذ يعطي الحلفاء فرصة لاقتحام الخندق والتمكن من النبي ﷺ ورفاقه.

وانتهى حيي من تفكيره إلى أنه لا يمكن أن يحقق له هذا الهدف إلا يهود بني قريظة، وزعيمهم كعب بن أسد.

غير أن الطريق إلى إقناع اليهود من بني قريظة صعب ووعر، إذ إن العلاقة بين النبي ﷺ وبين هذا الحي من اليهود علاقة ممتازة.

فهم قد دخلوا معه في معاهدات سلام، والتزموا ببنودها، ووفى لهم النبي ﷺ والمسلمون معه بعهودهم أحسن الوفاء وأكمله.

وهم قد دخلوا معه ومع المسلمين في علاقات اجتماعية ومجاملات الجوار، بحيث كانوا يتبادلون المنافع، ويتعاورون أدوات الزراعة يتبادلونها فيما بينهم، وما زال عند النبي ﷺ والمسلمين المساحي والمكاتل التي استعارها المسلمون منهم في حفر الخندق.

وهم قبل ذلك وبعده أصدقاء للأنصار، خاصة هذا الحي من الأوسيين، والذين كانت تربطهم بهم علاقات استمرت إلى هذا التاريخ لا تشوبها شائبة.

وهذه أمور يكفي بعضها لوضع العراقيل أمام حيي ورفاقه، لو أنهم أرادوا أن يقنعوا بني قريظة كي يخرجوا على النبي ﷺ نابذين له العهد، يخلعون عروة السلام من أعناقهم.

ومع ذلك فإن حييًا لم ييأس، ولم يعبأ بمثل هذه العراقيل، حيث رأى من نفسه ومن رفاقه القدرة باصطناع الحيلة على أن يتجاوز كل صعوبة.

ولم يكن أمام حيي من وقت يضيعه، فإن العيبين اللذين لاحظهما في جيوش الحلفاء من تبعثر الأهداف وتعددها، ومن تعدد القادة، لم تُبق له وقتًا يضيعه.

وأسرع حيي إلى آطام بني قريظة وحصونهم متخذًا من الظلام سترًا يستتر به، ومن الليل جملًا يمتطيه، ودار بينهما الحوار الذي رأينا.

ردود فعل موقف حيي: فتل حيي لبني قريظة في الذروة والغارب، وظل يمارس فتله لهم حتى استأنس البعض منهم.

وكان لفعلته هذه ردود فعل مختلفة.

أما زعيم القوم وهو كعب بن أسد، فقد نزل على رأي حيي بعد أن أعنته وأرهقه في الجدال والحوار، ووافقه على كره منه، وأعلن أنه مستعد لنقض عهد رسول الله ﷺ والخروج عليه.

ولم يكن هذا رأي جميع القرظيين، إذ يرى البعض منهم أن في نقض العهد مع النبي ﷺ مجافاة للخلق الرشيد، والسلوك المستقيم، ونقض العهد فوق ذلك مضاد لمصلحتهم، ومناوئ لأمنهم وأمانهم.

وقام البعض منهم يعترض على حيي وكعب، ويرد عليهما رأيهما بسلطان الحجة المقنعة، وسطوة الإقناع الذي يعززه الدليل.

ومن هؤلاء عمرو بن سعدى الذي وعظهم وخوفهم سوء فعالهم، وذكَّرهم ميثاق رسول الله ﷺ وعهده، وقال لهم: إذا لم تنصروه فاتركوه وعدوه، فأبوا.

وهناك طائفة أخرى لم تكن على رأي كعب، ولا هي وقفت عند حدود رأي عمرو بن سعدى، وإنما اتخذت القرار الرشيد الذي يناسبها في مثل هذه الظروف.

وليس هناك رأي أرشد من رأي يسوق الإنسان باختياره إلى أن يأمن على نفسه وماله وذريته، فيعتنق ما اقتنع به من الدين الجديد الذي جاء به النبي ﷺ، وبشَّر بمقدمه التوراة والإنجيل جميعًا مع ذكر صفاته التي يعرفها كل يهودي لا ينكر منها شيئًا.

اتخذت هذه الطائفة قرارها الرشيد، فخرجت إلى النبي ﷺ، وأعلن كل واحد منها إسلامه بين يديه، فعصم بإسلامه دمه وماله وولده، حيث خرج إلى رسول الله ﷺ من بني قريظة بنو سعية: أسد وأُسيد (أُسيد: هكذا بضم الهمزة تصغيرًا، وقيل بفتحها على وزن أمير) وثعلبة فكانوا معه وأسلموا.

ومهما كان هناك من اختلاف ردود الفعل، فإن كعبًا ومن شايعه على رأيه كانوا يتوجسون خيفة من الموقف بتمامه، خاصة ما قد علموه من الحلفاء من اختلاف الهدف وتبعثر القيادة.

وقد حاولوا أن يؤمنوا خوفهم ببعض المواثيق يأخذونها على حيي ومن معه، منها: أن حييًا يبقى معهم في حصنهم له مالهم وعليه ما عليهم، فإن هم واجهوا مصيرًا لا يريدونه، فعلى حيي أن يواجه معهم نفس

المصير، ومنها: أنه يجب على حيي أن يأخذ الرهائن من قريش وغطفان وسائر الحلفاء ويدفع بهم إلى بني قريظة، حتى إذا ما فر الحلفاء من وجه النبي ﷺ، واضطر بنو قريظة إلى أن يعتذروا للنبي ﷺ ويكفروا عن فعلتهم، كان معهم هؤلاء الرهائن من كبراء الحلفاء يدفعون بهم إلى النبي ﷺ تطيب بهم نفسه، ويغفر لهم ما ارتكبوه من الآثام.

ووافق حيي على شروط القوم وأعطاهم على ذلك العهد والميثاق، وأعلن بنو قريظة الخروج على النبي ﷺ، ونبذ عهده إليه». [رسالة من النبي ﷺ إلى الأمة من خلال تعامله مع خيانات اليهود لحبيشي ١٢٢-١٢٧].

٢ ـ الرسول ﷺ والمسلمون أهل عهد ووفاء:

يقول د/ أبو فارس: «هذا ما أقر به اليهود ـ يهود بني قريظة على لسان زعيمهم كعب بن أسد، فهم باعترافه لا ينقضون عهدًا لأن الله ﷺ أمرهم بالوفاء، وحرَّم عليهم الغدر ونقض العهد، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ﴾ [المائدة: ١].

وقال تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا ٣٤﴾ [الإسراء]». [غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٤٧].

ويقول د/ أبو فارس أيضًا: «إن رسول الله ﷺ والذين آمنوا معه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أوفياء بالعهد، لا يخيسون به، ولا ينكثون عقدًا عقدوه، هذا ما شهد به الأعداء قبل الأصدقاء، ونطق به زعيم يهود بني قريظة، فهو يقول لحيي: «**فَإِنِّي لَمْ أَرَ مِنْ مُحَمَّدٍ إِلَّا صِدْقًا وَوَفَاءً**».

ليس هذا الخلق وهذه السجية سجية المسلمين مع اليهود، بل هي صفاتهم الحميدة الملازمة لهم، لا تغادرهم في أحلك الظروف وأقساها، وإنما اتصفوا بهذه الصفات النبيلة، وتخلقوا بهذه الأخلاق الكريمة؛ لأن الإسلام يعلمهم إياها، ويُوجب عليهم أن يتحلوا بها، حتى يستحقوا الأجر الجزيل من الله تبارك وتعالى، وإن هم تخلوا عنها فليسوا أمناء على دعوته ودينه، ومن ثم لا يستحقون الاستخلاف في الأرض.

إن دينهم يحرم عليهم الغدر ويعد ذلك من خصال المنافقين التي لا تليق بالمؤمنين وما ينبغي لهم أن يفعلوها، فقد قال ﷺ: «**أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا، أَوْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْ أَرْبَعَةٍ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ، حَتَّى يَدَعَهَا: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ**».

[البخاري في المظالم (٢٤٥٩)].

ومن الجدير بالذكر أن صفات المنافقين التي ذكرها الحديث النبوي الشريف قد تعلموها من أساتذتهم اليهود، أو بعبارة القرآن من شياطينهم، قال تعالى يتحدث عن المنافقين: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ ١٤ ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ١٥﴾ [البقرة].

قال غير واحد من المفسرين: المراد بشياطينهم اليهود، فهم الذين يعلِّمونهم هذه الأساليب الشيطانية ويُنَظِّرون لهم ويفكرون». [الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢/ ٢٥-٢٦].

٣ ـ الاتعاظ بالغير:

يقول د/ أبو فارس: «بنو قريظة أشقياء لم يتعظوا بغيرهم، بل اتعظوا بأنفسهم، إن ما جرى لبني قينقاع وبني النضير من ثمار مُرَّة لنقضهم العهد كان كافيًا لبني قريظة أن يعتبروا، فلا يسيروا إلى حتفهم بظلفهم كما يقولون.

لقد كان بنو قينقاع وبنو النضير أكثر نفيرًا وأموالًا، فما أغنت عنهم أموالهم، ولا أولادهم شيئًا، فأُخرجوا صاغرين من المدينة، يجرون أذيال الهزيمة والخيبة، فكيف يَقْدُم بنو قريظة على جريمتهم النكراء ولا يكون مصيرهم سيئًا، وزادُهم الصاب والعلقم.

أقول: بأن هذا الدين سينتصر بإذن الله، وستكون له صولة وجولة، وتصونه دولة، لها قوتها الضاربة، وجيوشها الغازية بإذن الله، تنشر دينه، وتبلِّغه للناس كافة، وعلى الذين يقاومون الإسلام ودعاة الإسلام وأتباع الإسلام أن يعتبروا ويتعظوا، فإن جند الله هم الغالبون، والعاقبة للمتقين: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾[الشعراء]». [الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢/ ٢٦].

٤ ـ من طبائع اليهود الخيانة والغدر:

يقول د/ أبو فارس: «لقد كان من بنود الوثيقة الدستورية التي كتبها الرسول ﷺ ينظم فيها أحوال شعب المدينة وفئاته: «**لَا تُجَارُ قُرَيْشٌ وَلَا مَنْ نَصَرَهَا، وَإِنَّ بَيْنَهُمْ النَّصْرَ عَلَى مَنْ دَهَمَ يَثْرِبَ**».

واليهود هم من فئات الشعب في المدينة المعنيين بهذه الوثيقة، والعهد يُلزمهم بمعاداة قريش ومن ناصر قريشًا، ومأمورون بالدفاع عن المدينة إذا دهمها عدو، ولكنهم لم يفوا بالتزاماتهم.

لم يكتف بنو قريظة بعدم الالتزام بوثيقة العهد وبنودها بل تجاوزوا الحد ووقفوا مع الأحزاب التي جاءت تهاجم المدينة، وقد تعهدوا بالدفاع عنها، وقفوا مع قريش التي حرمت الاتفاقية أو الوثيقة التعاون معها ومع من ناصرها، وقفوا بكل إمكاناتهم ضد المسلمين، وضد الدولة الإسلامية، التي ضمنت لهم الحرية الدينية والاعتقادية والتعبدية، وصانت دماءهم وأعراضهم وأموالهم، هل هذا الإحسان يُجزى بالخيانة والغدر؟! وهل هذا الوفاء يُقابَل بالتآمر؟!

لقد صدق رسول الله ﷺ حين قال: «**إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النُّبُوَّةِ الْأُولَى: إِذَا لَمْ تَسْتَحِ فَاصْنَعْ [فَافْعَل] مَا شِئْتَ**». [البخاري في الأدب (٦١٢٠)، وفي أحاديث الأنبياء (٣٤٨٣ و٣٤٨٤)، وأبو داود في الأدب (٤٧٩٩)، وابن ماجه في الزهد (٤١٨٣)، وأحمد في المسند ٢٨/ ٣١٨، ٣٢٥، ٣٣٢ رقم ١٧٠٩١، ١٧٠٩٨، ١٧١٠٧، ٣٧/ ٣٣ رقم ٢٢٣٤٥...].

إنه انعدام الحياء والمروءة والشهامة والرجولة والوفاء». [الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢/ ٢٦-٢٧].

ويقول د/ أبو فارس أيضًا: «إن أطراف العهد حينما يعقدون عهدًا بينهم، يطمئن كل طرف من الآخر، ويأمن كل طرف غدرته وأذاه، وإذا بهذا الذي اطمأن إليه، وأمن جانبه يفاجئه بطعنة من الخلف وهو غير مستعد لها، ولا متوقعًا إياها، أليس هذه خصلة ذميمة وعملًا مشينًا يشين صاحبه، إن أصحاب المروءة من الرجال يرفضون هذا التصرف سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين، فهو مستقبح عند العقلاء، والأتقياء، إذ الخيانة والغدر محرمة عند جميع الشرائع السماوية، والقوانين الوضعية، بل وتضع لها عقوبة زاجرة». [**الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢/ ١٠٠**].

ويقول د/ أبو خليل: «وبنقض بني قريظة لعهودهم مع رسول الله ﷺ، أصبح المسلمون غير مطمئنين على مصير ذراريهم وأولادهم الذين في مؤخرة الجيش في الحصون والآطام.

وعقاب وتأديب بني قريظة أمر أصبح في الحسبان، مع أن رسول الله ﷺ، ليس عاجزًا عن الصفح، ولكن استحق بنو قريظة بجدارة عقابًا مناسبًا؛ لنقضهم العهد وتمزيقهم الصحيفة والنبي ﷺ والمسلمون في أشد الساعات حرجًا.

لقد كان حيي بن أخطب يمثل الحقد الذي اشتعل في قلوب اليهود ووجَّه سياستهم، لعلهم اعتقدوا أنهم يملكون الحقيقة المطلقة فصاروا لا يطيقون التسامح مع من لم يكن على دينهم، ومالوا إلى إبقاء سيطرتهم على المجتمع العربي تحقيقًا لمصالحهم المادية والسياسية، فمالوا إلى إلزام الناس بهذه الزعامة، ولم يتأخروا عن الغدر والقتل والخيانة إذا قدروا عليه.

وبعد الخندق سنرى أن آمالهم ضاعت في أمانيهم». [**غزوة الخندق لأبي خليل ١٠٣-١٠٤**].

٥ - التحذير من الصديق المشؤوم السيئ:

يقول د/ أبو فارس: «لقد ظهر لنا من موقف حيي بن أخطب مع كعب بن أسد وإقناعه بنقض العهد ما أثَّر على مستقبل كعب وقومه بني قريظة، إذ ارتكبوا الخيانة العظمى نتيجة إغرائهم بها حتى نالوا ما نالوا جزاء وفاقًا لما عملوا وما اقترفوا.

إن صديق السوء يضر ولا ينفع، ويؤذي صاحبه، ويتخلى عنه في النهاية في الدنيا والآخرة، قال تعالى يحكي لنا أثر الصديق السيئ: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾ [الفرقان].

فها هو ذا أبو جهل الصديق المشؤوم السيئ يكون سببًا في حرمان عقبة بن أبي معيط نعمة الإيمان وحسن الختام.

أقول: لقد كان بوسع كعب أن يجنب نفسه وقومه العاقبة الوخيمة لو تجنب أقران السوء كحيي وغيره.

والمسلم مطلوب منه شرعًا أن يبتعد عن قرين السوء ويهجره، ومطلوب منه أن يختار القرين الخيِّر ويحرص على مصاحبته والاستفادة منه». [غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٤٧].

٦ـ رد الأخبار إلى أولي الأمر قبل إشاعتها:

يقول د/ أبو فارس: «من موقف عمر بن الخطاب ﷺ في إخباره للرسول ﷺ بما سمع من خبر بني قريظة درس نستنبطه، هذا الدرس: إذا سمع المسلم خبرًا ينبغي ألا يفشيه ويتحدث به بين الناس حتى ولو كانوا مسلمين؛ لأنه قد يؤذيهم ويخدم مخططات العدو من حيث لا يشعر، والواجب أن يرده إلى أولي الأمر للدراسة والتحليل واتخاذ الموقف المناسب.

وهذا الدرس في غاية الأهمية بالنسبة للجماعة المسلمة التي تبلِّغ دين الله للناس، وتصارع الجاهلية وأهل الجاهلية.

ولقد أرشدنا الله ﷻ إلى هذا الدرس في القرآن الكريم بعد أن حذر من إشاعة الخبر الذي يتعلق بأمن الجماعة، وعاب من يفعل ذلك، قال ﷻ: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ﴾[النساء: ٨٣]». [غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٤٨].

٧ـ التأكد من صحة الخبر:

يقول د/ أبو فارس: «نعم إن المسلم إذا سمع خبرًا من الأخبار ينبغي أن يستوثق من صحة الخبر قبل أن يتصرف أي تصريف من التصريفات، فيُعامل الناس بناء على خبر مظنون قد لا يكون دقيقًا أو صحيحًا، وهذا ظلم للآخرين، وبناء الأحكام على الظن كما ترى ظلم يرفضه الشارع الحكيم وينكره: «**يَا عِبَادِي! إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلاَ تَظَالَـمُوا**».

[حديث قدسي رواه الإمام مسلم في صحيحه، مختصر مسلم للمنذري رقم ١٨٢٨].

ولقد نهى الشارع عن اتباع الظن قال سبحانه: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾﴾[النجم]».

[غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٤٨].

٨ـ حُسْنُ الاختيار يدل على المعرفة بمعادن الرجال:

يقول د/ أبو فارس: «لقد اختار رسول الله ﷺ نفرًا يستطلعون الخبر بشأن بني قريظة ونقضهم لعهد رسول الله ﷺ، فكان اختيارًا موفقًا، إذ كان النفر من الأنصار الذين يعرفون بني قريظة، وبعضهم كان حليفًا لهم في الجاهلية، وهم أعرف باليهود من المهاجرين، وكلمتهم ربما تكون مسموعة أكثر من المهاجرين عند اليهود، لا سيما سعد بن معاذ ﷺ زعيم الأوس، وسعد بن عبادة ﷺ زعيم الخزرج.

نعم إن النبي ﷺ يختار الرجل المناسب للعمل المناسب، وهكذا كان في اختياره للنفر من الأنصار، فهم أقدر الناس على التفاهم مع اليهود والتعامل معهم». [غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٤٩].

٩ ـ اليهود قوم بذيؤون:

يقول د/ أبو فارس: «من مقابلة يهود بني قريظة للوفد وكلامهم له، يلاحظ المرء قلة أدبهم، وسوء أخلاقهم، وبذاءة لسانهم مع زعماء الأوس والخزرج واعتدائهم بألسنتهم الفاحشة البذيئة على رسول الله ﷺ الذي بشَّر به أنبياؤهم وأوجب الله عليهم الإيمان به وتصديقه واتباعه وتوقيره واحترامه.

إن هذا الدين يؤدب أصحابه وأتباعه ويربيهم على حسن الخلق، وعفة اللسان، ونظافة اليد والفرج، وعدم الإساءة للناس بالقول الفاحش البذيء، بل وعدم مقابلة هذا الفحش والتفحش الذي يصدر عنهم بمثله.

وها هو ذا سعد بن معاذ ﷺ زعيم الأوس يعطينا الصورة المشرقة لهذا الأدب، ولهذا الخلق، فيواجه اليهود وهم يوجهون إليه العبارة البذيئة: **(أَكَلْتَ أَيْرَ أَبِيك)** بالكلام التالي: **غَيْرَ هَذَا القَوْلِ أَحْسَنَ مِنْهُ**».
[غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٥٠، الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢/ ٣٤].

ويقول د/ أبو فارس أيضًا: «إن لليهودي طبيعة ينفرد بها عن جميع الناس، ولليهودي خلق وسلوك شاذ يتميز به عن غيره، وسرعان ما يكتشفه غيره، ومما يُعرف عن اليهود بذاءة اللسان وسوء الأدب في مخاطبة الناس إذا كانوا أقوياء، أو آنسوا في أنفسهم القوة، تأمل عبارة يهود بني قريظة لسيد الأوس سعد بن معاذ ﷺ وهو حليفهم في الجاهلية، وله عليهم فضل، حينما آنسوا قوة في أنفسهم مع غيرهم يتخلون عنه ويوجهون له كلامًا هو: ... إنه كلام فاحش بذيء لا يصدر إلا عن أناس لا خلاق لهم.

وإن الكاتب ليذكر كلامًا قريبًا من هذا قاله رئيس الوزراء اليهودي (بيغن) في الكنيست عندما تحدث عن علاقة الدولة اليهودية مع دولة عربية مجاورة، وتكلم بحق رئيسها كلامًا لا أقول يشبه ما نطق به اليهودي القرظي، ولكنه كان أفحش وأوقح، ومن المؤسف أن رئيس هذه الدولة قتل نفسه من أجل عمل سلام مع بيغن، وصدق رسول الله ﷺ: «**إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النُّبُوَّةِ الأُولَى إِذَا لَمْ تَسْتَحِ فَاصْنَعْ [فَافْعَل] مَا شِئْتَ**». [الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢/ ٣٣].

١٠ ـ عدم إفشاء أمور السوء:

يقول د/ الزيد: «أوصى الرسول ﷺ الصحابة الذين ذهبوا إلى بني قريظة، ليتأكدوا من الخبر بأن يلحنوا له لحنًا يفهمه الرسول ﷺ ولا يفهمه الصحابة الآخرون إن كانت بنو قريظة نقضت العهد، وإن كانوا لم ينقضوا العهد أعلنوا ذلك للناس، وهكذا أمور السوء لا تُعلن ولا يُتحدث بها ولا تُفشَى بين الناس، فإن هذا من الإرجاف والتخويف للناس وهو أمر يسُرُّ العدوَ، ويَفرح به، ويُحزن المؤمنين، أما لو كان الأمر على عكس ذلك حينما يكون أمر خير، فإنه يُعلن لتقوية نفوس المسلمين؛ ولهذا ينبغي على الشخص أن يحفظ لسانه من الحديث حتى ولو كان الحديث صدقًا، فليس كل ما يُعلم يقال، وليس كل

ما يُقال يُقال على كل حال، فإن المؤمن كيِّسٌ فَطِنٌ يدرك آثار كلامه، فإذا كان يؤدي إلى ضرر كف عن الحديث بل وكتمه ومنع الناس من الحديث فيه». [فقه السيرة للزيد ٥٠٢].

١١ ـ إظهار الجلادة والصبر في أوقات المحن:

يقول د/ أبو فارس: «إن استقبال النبي ﷺ لخبر نقض العهد كان في غاية السلامة والحكمة، إذ لم يظهر عليه تأثر وارتباك، فيؤثِّر هذا في معنويات المسلمين المقاتِلين، بل أشاع الأمل في النفوس، وبشرهم بنصر الله، فقال: **اللهُ أَكْبَرُ! أَبْشِرُوا يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ، أَبْشِرُوا بِنَصْرِ اللهِ وَعَوْنِهِ**.

إن الذي استوقفني وشد أعصابي، وأوقف شعر رأسي، وأصاب جلدي قشعريرة من عبارة الرسول ﷺ: «**اللهُ أَكْبَرُ!**»، نعم عبارة: **اللهُ أَكْبَرُ!** في هذا الموطن، وفي هذا الوقت العصيب، وفي هذا الظرف المضطرب، والبرد الشديد، والتآمر من الأعداء، واجتماع طواغيت الكفر على التصدي لرسول الله ﷺ وأصحابه لتحطيمهم وإبادتهم.

إني أستشعر (**اللهُ أَكْبَرُ!**) بمعناها الذي سرى في أوصال كل مقاتل، وجرى في عروقه، نعم (**اللهُ أَكْبَرُ!**) من الأحزاب، الله أقوى من كل القوى، الله أكبر من قريش، الله أكبر من يهود بني قريظة، الله أكبر من كل شيء على وجه هذه الأرض، ليس لأحد بالله من طاقة، ورسول الله ﷺ والمسلمون يلوذون به، ويلجأون إليه، فلا تستطيع قوة في الأرض أن تهزمهم وهو معهم، يحتمون بحماه، ويلتزمون أمره، ويطيعون رسوله.

إن رسول الله ﷺ كان في كل خطوة يخطوها من خطواته العسكرية يعتقد بأنه سينتصر؛ لأنه صاحب حق يعتز بالانتساب إليه، ويتشرف بحمله، ويبذل كل ما في وسعه للوقوف بجانبه، ولديه استعداد لأن يتحمل المسؤولية كاملة نتيجة حمله لهذا الحق، فهو أكثر ثقة في الله وفي نصره، وفي تأييده، وعونه، مهما علا الباطل وانتفش وارتفع، وأصبح له جنود وأعوان. [المؤتمر العالمي الثالث للسيرة النبوية ٥/ ٥٨].

وإذا كان الله معنا ينصرنا على قوى الكفر، فإنها بشارة النصر والأمل، يزفها رسول الله ﷺ لأصحابه: «**أَبْشِرُوا بِنَصْرِ اللهِ وَعَوْنِهِ**».

ومن هنا كانت البشارة بعد ذلك لهم لأنهم مع الله ويقاتلون في سبيل الله ولن يتخلى الله عنهم.

نعم لقد كان في الجو ما يؤلم ويحزن، ويُقلق النفس ويؤرق العين، ويشغل البال، من تكالب الأحزاب على المسلمين، وحصارهم مدة طويلة، ونقض بني قريظة العهد، لكن الواجب على القائد الشجاع، أن يتجاوز هذا كله، وأكثر منه، ويُظهر تجلده وصبره ويتجمل بها، هذا ما علمنا إياه رسول الله ﷺ من سيرته النبوية العطرة، وغزواته العسكرية المظفرة، وهكذا ينبغي أن يكون كل قائد محارب ينتسب لهذا

الدين، ويعتز به، وهكذا ينبغي أن يكون كل قائد يحمل الراية ويقود المسيرة، وهكذا ينبغي أن يكون كل داعية مصلح، لا تفت في عضده المشاكل، ولا تصده العقبات عن الاستمرار في الطريق حتى النصر أو الشهادة، إنه يحمل الراية ويقود المسيرة، والناس يثبتون بثباته، وينهزمون بانهزامه، فليتعلم من رسول الله ﷺ الثبات أمام الملمات، والمحافظة على المعنويات عند أتباعه وجنوده».

[غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٥١-١٥٢، الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢/ ٣٤-٣٦].

١٢ ـ المؤمن ينظر بنور الله:

يقول د/ أبو فارس: «إن تهديد سعد بن معاذ ﷺ ليهود بني قريظة، بسوء العاقبة، نتيجة نقضهم العهد مع الرسول ﷺ ومع المسلمين، يدل على فراسة سعد ﷺ، واطمئنانه رغم كل الظروف القاسية، إلى نصر الله ﷻ، ومن ثم تأديب هؤلاء الخونة الغادرين الذين تمالأوا مع الأحزاب الكافرة على رسول الله ﷺ.

ولقد تحقق هذا التهديد والوعيد الذي أراد سعد ﷺ أن ينبههم إلى خطورته إن هم استمروا عليه، نعم لقد تحقق كل هذا وعلى لسان سعد بن معاذ ﷺ ويده، وقد طلبوه ليحكم بينهم وبين الرسول ﷺ، طمعًا في مساعدته ومحاباته لأنه كان حليفهم في الجاهلية، فحكم بقتل محاربيهم وسبي نسائهم وذراريهم وأن تكون أموالهم غنيمة للمسلمين». [غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٥٢].

١٣ ـ المحنة الكبرى:

يقول د/ المجدوب: «وكيف لا يعظم البلاء ويشتد الخوف وقد وجد المسلمون أنفسهم فجأة بين عدوين لدودين عقدا العزم على استئصالهم والقضاء على الإسلام؟ إن كل ما واجهوه من أخطار لا يُقارن بهذا الخطر، حتى يوم أُحُد لم يكن الخطر بهذا القدر، فهم لم يحاصروا بعشرة آلاف مقاتل من تحتهم، وبألف أو يزيد من فوقهم، هم مقاتلو بني قريظة والنضير.

ولن يجد الإنسان وصفًا لحالة المسلمين في هذا الموقف العصيب أدق وأعظم من وصف القرآن الكريم لهم: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾ [الأحزاب].

لقد أُصيب المسلمون بالذهول، واختنقت أنفاسهم حتى كادت تزهق أرواحهم لما علموا بما دُبِّر لهم، ليس ذلك وحسب، بل إن هؤلاء الرجال الذين لم يهتز إيمانهم بالله أبدًا في أي موقف مهما كان عصيبًا ساورتهم الظنون بشأن تأييد الله لهم، وغلب على ظنهم أنه قد تخلى عنهم.

ومما زاد الطين بلَّة ذلك النشاط المحموم الذي قام به المنافقون وسط المسلمين لتثبيط عزائمهم وتحطيم معنوياتهم: فمنهم المولول النادب لحظِّه وحظ أولاده، ومنهم الهارب يتعلل بالخوف على بيته وأولاده،

ولقد ندد الله تعالى بهم في قوله: ﴿ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ ﴾ [الأحزاب].

لقد كانت محنة شديدة بكل المقاييس، ولم يكتف يهود بني قريظة بالانضمام إلى الأحزاب وتهديد ظهر جيش المسلمين، بل أطلقوا عملاءهم خلف المسلمين يتجسسون عليهم للتعرف على ترتيباتهم ويخيفون النساء والأطفال وكبار السن من الرجال الذين تركهم المسلمون وراءهم حتى لا يتعرضوا للإصابة في حالة نشوب المعركة». [المستوطنات اليهودية للمجدوب ٩٣-٩٥].

١٤ ـ الأثر النفسي لنقض بني قريظة العهد:

يقول أ/ الشامي: «كان الرسول ﷺ حريصًا ألا يصل خبر نقض العهد من قريظة إلى عامة المسلمين حفاظًا على معنوياتهم، ولكن الخبر وصل فعلًا، ولعل السبب في ذلك هو حرص اليهود على إضعاف المسلمين، وما زال اليهود على صلة وثيقة بالمنافقين وعن طريقهم شاع الخبر وانتشر.

ونستطيع أن نجمل ما ترتب على نقض قريظة العهد بالأمور التالية:

(١) فقد عظم البلاء على المسلمين واشتد الخوف وأتاهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم فكانوا كما وصف القرآن الكريم: ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ ﴾ [الأحزاب].

(٢) قويت عزيمة المشركين بعد فتور، واشتدت هممهم بعد ركود، فشددوا الحصار على المسلمين ودنوا منهم، وكان الترامي بالنبل والحجارة، ولم يستطع المسلمون مغادرة أماكنهم، ففاتتهم صلاة العصر ـ فصلوها بعد المغرب وقال ﷺ: «**مَلَأَ اللهُ قُبُورَهُمْ وَبُيُوتَهُمْ نَارًا كَمَا حَبَسُونَا وَشَغَلُونَا عَنِ الصَّلَاةِ الْوُسْطَى حَتَّى غَابَتْ الشَّمْسُ**».

(٣) وفي هذا الجو القاتم نجم النفاق وظهر أهله، وانطلقت مقالات السوء من أفواههم: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ ﴾ [الأحزاب].

ويتمادى النفاق ببعضهم فيدعو إلى الرجوع للمدينة، ويستأذن بعضهم الآخر مدعين أن بيوتهم في خطر من مداهمة العدو: ﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ ﴾ [الأحزاب].

وبهذا تبرز على مسرح الأحداث فئة في صفوف المسلمين تُظاهر الأعداء بسلوكها وتصرفاتها وتزيد الموقف حراجة.

(٤) وإزاء الوضع الجديد كان لا بد من تعديل في توزيع قوات المسلمين حسب المعطيات الجديدة للمعركة، فأرسل ﷺ دوريات للحراسة في المدينة، يقول ابن سعد: وكان رسول الله ﷺ يبعث سلمة بن أسلم ﷺ في مائتي رجل، وزيد بن حارثة في ثلاثمائة رجل يحرسون المدينة، ويُظهرون التكبير، وذلك أنه كان يخاف على الذراري من بني قريظة». [من معين السيرة للشامي ٣٠١-٣٠٢].

ويقول د/ زين السيد: «المعلوم أن بني قريظة مجرد قبيلة من اليهود وهي أمام المسلمين لا تشكل خطرًا، فهم أقل وأذل من أن يؤبه بهم، ولكن لنقضهم العهد في هذا الوقت بالذات وفتحهم ثغرة خلفية في الجبهة أبلغ الأثر النفسي، وما أصعبه من موقف وما أشده من خطب ذلك الذي واجهه المؤمنون آنئذ، خطر خارجي محدق ومتحفز ماثل فيمن تحزبوا وتمالؤوا من عصابات الكفر الذين رمت بهم جزيرة العرب وقذفتهم كحمم الغضب المتوهج والملتهب، ولا قصد ولا غرض ولا أرب إلا الإجهاز على هذا الدين الجديد، ثم على المستوى الداخلي وضع اقتصادي شائك فقر مدقع وصل إلى حد ربط الحجر والحجرين من شدة الجوع، طاقات بُذلت واستنفدت في حفر الخندق، وجماعات من المنافقين المرجفين في المدينة ينفثون خورهم وضعفهم ويبثون خوفهم وفزعهم، في وسط هذا الجو المدلهم الذي طال ليله وأظلم يأتي نقض بني قريظة للعهد والميثاق، ترى ما عساه أن يبلغ وقع هذا النبأ، وما عساه أن يؤثر في نفوس المؤمنين الذين يرصدون بكل حسم حركة عدوهم الذي يتوقعون انحداره عليهم من أعلاهم، ثم ها هو ذا أسفلهم يدور عليهم ويقلب لهم ظهر المجن، وما أصعبها من محن وما أشد ضراوة الحرب النفسية التي واجهها المسلمون، أمامهم جحافل البغي والعدوان بعدد لا قِبل لهم به، وبينهم معاناة البؤس ومكابدة المغبة ومواجهة تصدع النفاق وتفتت الشقاق.

لم يدر بخلدهم أنهم سيبتلون بمثلها، ها هي ذي ظهورهم مكشوفة، وقلوبهم بالغة حناجرهم، وأبصارهم زائغة، ومواقفهم حائرة، أي ضرب يتقون؟ أم أي عدو يواجهون؟ وله في كل نَفَسٍ مائة ألف فرج قريب.

أما طبيعة البشر فقد غرس فيها انفعالات مختلفة كالخوف والأمان إذا وجد السبب لأيهما، ولكن قد يوجد ما يهز تلك الطبيعة ويقويها حتى بحاسة الإيمان، وهذا ما كان من المؤمنين حين أحسوا بالخوف عند سماعهم لنقض بني قريظة العهد، ولكن ما لبثوا أن اطمأنوا حين سمعوا إشارة النبي ﷺ لهم بالنصر». [دور الحرب النفسية في غزوتي أُحد والأحزاب للسيد ١٦٦].

١٥ ـ سيطرة الروح المعنوية من عوامل كسب المعركة:

يقول الشيخ الغزالي: «وقع ثِقْل المقاومة على أصحاب الإيمان الراسخ والنجدة الرائعة، كان عليهم أن يكبتوا مظاهر القلق التي انبعثت وتكاثرت في النفوس الخوَّارة الهَلُوع، وأن يشيعوا موجة من الإقدام والشجاعة تغلب أو توقف نزعات الجبن والتردد التي بدت هنا وهنالك، وطبائع النفوس تتفاوت تفاوتًا كبيرًا لدى الأزمات العضوض.

منها الهش الذي سرعان ما يذوب ويحمله التيار معه كما تحمل المياه الغثاء والأوحال، ومنها الصلب الذي تمر به العواصف المجتاحة، فتنكسر حدَّتها على متنه وتتحول رغوة خفيفة وزَبَدًا.

أجل من الناس من يهجم على الشدائد ليأخذها قبل أن تأخذه، وعلى لسانه قول الشاعر:

تَأَخَّرْتُ أستبقي الحياةَ فلم أجِدْ لِنفسي حياةً مِثل أن أتقدَّما

ومنهم من إذا مسه الفزع طاش لبه فولَّى الأدبار، وكلما هاجه طلب الحياة وحب البقاء أوغل في الفرار.

وقد نعى القرآن الكريم على هذا الصنف الجزوع موقفه في معركة الأحزاب فقال: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾ [الأحزاب].

وعندما حاولت قريش اقتحام الخندق، وعندما حاولت احتلال بيت النبي ﷺ، وعندما عجمت عود المرابطين تبحث عن نقطة رخوة؛ لتثب منها إلى قلب المدينة، كان أولئك المؤمنون الراسخون سراعًا إلى داعي الفداء، يجيؤون من كل صوب ليستيقن العدو أن دون مرامه الأهوال».

[فقه السيرة للغزالي ٣١٢-٣١٣].

ويقول د/ الفنيسان: «إن الروح القتالية العالية التي يتمتع بها جيش المسلمين كان لها الأثر البالغ في كسب المعركة لصالحهم، ويدل على هذا أنه قد أُصيب سعد بن معاذ رضي الله عنه في الخندق بجروح خطيرة، لكنه وإن ـ منعته حسًّا عن مواصلة القتال ـ فإنها لم تمنعه شعورًا ورغبةً في مواصلة الجهاد في سبيل الله، حيث يقول: «**اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ أَبْقَيْتَ مِنْ حَرْبِ قُرَيْشٍ شَيْئًا فَأَبْقِنِي لَهَا، فَإِنَّهُ لا قَوْمَ أَحَبَّ إِلَيَّ أَنْ أُجَاهِدَهُمْ مِنْ قَوْمٍ آذَوْا رَسُولَكَ وَكَذَّبُوهُ وَأَخْرَجُوهُ، اللَّهُمَّ وَإِنْ كُنْتَ قَدْ وَضَعْتَ الْحَرْبَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ فَاجْعَلْهُ لِي شَهَادَةً، وَلَا تُمِتْنِي حَتَّى تُقِرَّ عَيْنَيَّ مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ**». [غزوة الأحزاب للفنيسان ٢٤١-٢٤٢].

١٦ ـ قوة الرباط الاجتماعي بين المسلمين:

يقول أ/ وجدي: «إن ثبات جماعة المسلمين إزاء هذه الكارثة الفادحة، وهم من بيئات مختلفة، ومتأثرون بأحقاد قديمة لا تزال صورها حية في نفوسهم، يدل على مبلغ قوة الرباط الاجتماعي الذي كان

يجمعهم، فأهل يثرب كانوا من الأوس والخزرج، وهما قبيلتان كانتا في حالة تناحر منذ عشرات من السنين، وفي حالة نزاع مع القبائل اليهودية التي كانت قريبة منهم، ومعهم بضع عشرات من أهل مكة آمنوا بالنبي ﷺ، وهاجروا معه فرارًا بدينهم وحياتهم، ولم يتوقع أهل يثرب ولا أحد ممن كانوا معهم أن يصبحوا في يوم من الأيام هدفًا لمجموعة من القبائل يُرى ببداهة العقل أنهم لا يقوون عليها، أفلا يكون ثباتهم على ترابطهم حيال هذه النازلة دالًّا دلالة لا تقبل النقض على قوة الرابطة التي كانت تجمع بينهم، قوة لا توجد وسيلة في الأرض تستطيع أن تحلها، أو أن تُضعف من استحكامها، وأية وسيلة أفعل من هذه الوسيلة، وهي أن تتألب أقوى القبائل العربية عليها، يقودها قواد مشهورون بسعة الحيلة في إدارة المعارك، وفرسان معروفون بشدة البأس في مجالدة الأبطال، والصبر على الأهوال؟».

[السيرة المحمدية لوجدي ٢٢٢].

١٧ ـ المعنوية العالية للصحابة ﭫ في المفاوضات:

يقول د/ أبو فارس: «موقف سعد بن معاذ ﭬ ومن معه أمام وفد غطفان يدل على المعنوية العالية التي كان يتمتع بها، تأمل قول سعد: **يَا رَسُولَ اللهِ! قَدْ كُنَّا نَحْنُ وَهَؤُلَاءِ الْقَوْمُ عَلَى الشِّرْكِ بِاللهِ وَعِبَادَةِ الْأَوْثَانِ، لَا نَعْبُدُ اللهَ وَلَا نَعْرِفُهُ، وَهُمْ لَا يَطْمَعُونَ أَنْ يَأْكُلُوا مِنْهَا تَمْرَةً إِلَّا قِرَىً** (ما يُصنع للضيف من الطعام) **أَوْ بَيْعًا، أَفَحِينَ أَكْرَمَنَا اللهُ بِالإِسْلَامِ وَهَدَانَا لَهُ، وَأَعَزَّنَا بِكَ وَبِهِ نُعْطِيهِمْ أَمْوَالَنَا، وَاللهِ مَا لَنَا بِهَذَا مِنْ حَاجَةٍ، وَاللهِ لَا نُعْطِيهِمْ إِلَّا السَّيْفَ، حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ.**

ولقد كان لهذه المعنوية العالية أثر قوي في نفوس قادة غطفان حين رأوا إصرارًا عجيبًا على القتال من الأنصار، وأن غطفان لن تأكل حبة تمر إلا على أجساد أهل المدينة الذين عُرفوا بقوة البأس وشدة الشكيمة (صبر عند الحرب صدق عند اللقاء)، وهذا ما لا قوة لغطفان به.

نعم كان هذا الموقف حربًا نفسية آتت أكلها، جعلت وفد غطفان يعود يائسًا من إحراز أي كسب مادي أو معنوي.

أقول: إن هذه المعنوية العالية التي كان الوفد يتمتع بها كانت نتيجة طبيعية للعقيدة التي اعتنقوها التي رَبَّت فيهم العزة والرجولة والشهامة والشجاعة.

إن هذا الدين يأبى الضيم والخنوع ولا يرضى لأهله الاستكانة والخضوع لأهل الخنوع.

إن هذا الدين يُرضع معتنقيه لبان العزة والكرامة من أول يوم، إنهم وُلدوا أحرارًا وليس لواحد أن يستعبدهم، إنهم شجعان وليس لواحد أن يستضعفهم.

إن هذا الدين يقول لكل واحد من أتباعه:

إن الله يريدك أسدًا فلا تكن هِرًّا.

إن دينك رجولة وحرية فكن رجلًا حرًّا.

إن معك إسلامًا هو البحر فدع السراب.

إن بين يديك شمسًا فلا يصرفك عنها قناديل». [غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٥٦-١٥٧].

ويقول أ/ الشامي: «وهكذا انتهت هذه المفاوضة، ولا شك أن الرسول ﷺ كان مسرورًا بموقف السعدين، فهو إنما يصنع ما يصنع من أجلهم ـ وقد رأى العرب قد رمتهم عن قوس واحدة ـ أما إن كانت المعنويات بهذا المستوى الذي يحمله السعدان فلا حاجة، فما يزال في النفوس الرصيد الكبير للصبر على الشدة.

كانت المفاوضة اختبارًا غير مباشر لمعنويات القوم ومدى مقاومتها.. فكانت صلبة قاسية رغم كل تلك الظروف.. وهذا ما طمأن الرسول ﷺ إلى سلامة الموقف، موقف المؤمنين الصابرين».

[من معين السيرة للشامي ٣٠٣].

١٨ ـ رغبة المسلمين في قتال الأحزاب:

يقول د/ أبو فارس: «لقد تبين من موقف السعدين أن المسلمين راغبون في قتال الأحزاب، ومتحمسون لذلك، ومصرون على ذلك رغم قسوة الظروف، وهذا الأمر يشجع القائد على الاستمرار في القتال، والاطمئنان إلى جنده وثباتهم عند التخطيط والتنفيذ.

ولعل الرسول ﷺ كان يبغي من استشارة السعدين في أمر ثمار المدينة وإعطاء ثلثها إلى غطفان إلى معرفة مدى رغبة الأنصار في القتال، فكان الجواب: والله لا نعطيهم إلا السيف، فسُرَّ الرسول ﷺ لهذه الإجابة، ووافقه عليها قائلًا: أنت وذاك». [غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٥٨].

«وهذا يوضح ما للإيمان من سلطان على النفوس، وماله من عزة وقوة في المواقف الحاسمة، فموقف سعد ﷺ يدل على اليقين التام بالله، والثقة الكاملة به، مع التصديق التام الكامل بنبوة محمد ابن عبد الله ﷺ». [غزوة الخندق لأبي خليل ١١١].

١٩ ـ الدفاع عن الحق:

يقول د/ أبو فارس: «ويؤخذ من قصة السعدين أن المسلم ينبغي ألا يتنازل عن شيء من حقه لعدو من أعداء الله تبارك وتعالى، وعليه أن يقف مدافعًا عن هذا الحق، وأن دفاعه عن هذا الحق يُعد جهادًا ويؤجر عليه، وإن قُتل من دونه يُعد شهيدًا في الشهداء.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! أَرَأَيْتَ إِنْ جَاءَ رَجُلٌ يُرِيدُ أَخْذَ مَالِي، قَالَ: «**فَلَا تُعْطِهِ مَالَكَ**»، قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ قَاتَلَنِي؟ قَالَ: «**قَاتِلْهُ**»، قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ قَتَلَنِي؟ قَالَ:

«**فَأَنْتَ شَهِيدٌ**»، قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ قَتَلْتُهُ؟ قَالَ: «**هُوَ فِي النَّارِ**». [مسلم في الإيمان (١٤٠)].

[غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٥٨].

ويقول أ/ وجدي: «إن عدم تخاذلهم حيال هذه الجموع الزاخرة التي خفَّت لقتالهم، وقلة اكتراثهم لإجماع قبائل العرب واليهود على استنكار ما هم عليه، يبين عن إيمانهم الراسخ بأن ما هم عليه هو الحق، وأن ما عليه خصومهم هو الباطل، وهو أمر يلفت نظر البسيكولوجيين ويحيرهم، فإن الخمس السنين التي قضوها في الإسلام، وهم من شعب معروف بضعف العاطفة الدينية، وبعدم التعصب لأي مذهب من المذاهب الفلسفية، يعتبر من الانقلابات الأدبية التي لم يُعهد ما يشبهها في تاريخ النفسية الإنسانية، فإن هذه المدة القصيرة لا تكفي لأن تحمل نفوس جماعة قليلة العدد للاستماتة في الدفاع عن عقيدة، والاستشهاد في سبيلها، لا سيما الغارة ظهرت فيها الحمية الجاهلية كاشرة عن أنيابها، معتزمة أن تخوض غمرة حرب ماحقة لا رحمة فيها ولا هوادة، فالوقوف حيال هذا التوثب الجنوني لا يُشعر بالشجاعة البالغة أقصى حدودها فحسب، ولكن يُشعر بنزعة من التضحية لا توجد إلا في أدوار الانتقالات الذريعة في تاريخ الاجتماع البشري، فكل متأمل في موقفي هاتين الطائفتين، وفي الروحين اللتين تقودهما إلى التناحر، كان يحكم لأول وهلة أن هذه الطائفة القليلة تضحي بنفسها في سبيل عقيدتها، فإن قُدِّر لها النصر بورك لها في وجودها، وثبتت عقيدتها، وآلت إليها الدولة في نهاية الأمر». [السيرة المحمدية لوجدي ٢٢١].

٢٠ ـ الاستسلام لله ﷻ والأدب مع رسوله ﷺ:

يقول د/ الحميدي: «وفي خبر المفاوضات مواقف منها:

قول سعد بن معاذ وسعد بن عبادة ﭭ: «**يَا رَسُولَ الله، أَمْرًا تُحِبُّهُ فَنَصْنَعُهُ، أَمْ شَيْئًا أَمَرَكَ اللهُ بِهِ لَا بُدَّ لَنَا مِنَ العَمَلِ بِهِ، أَمْ شَيْئًا تَصْنَعُهُ لَنَا؟**»، يعتبر غاية في الاستسلام لله تعالى، والأدب مع النبي ﷺ وطاعته، فقد جعلوا أمر المفاوضة مع غطفان ثلاثة أقسام:

الأول: أن يكون هذا الأمر من عند الله ـ تعالى ـ فلا مجال لإبداء الرأي بل لابد من التسليم والرضا.

والثاني: أن يكون شيئًا يحبه رسول الله ﷺ باعتباره رأيه الخاص، فرأيه مقدم وله الطاعة في ذلك.

والثالث: أن يكون شيئًا عمله الرسول ﷺ لمصلحة المسلمين من باب الإرفاق بهم، فهذا هو الذي يكون مجالًا للرأي.

ولما تبين للسعدين من جواب لرسول الله ﷺ أنه أراد القسم الثالث أجاب سعد بن معاذ ﷺ بجواب قوي كبت به زعيمي غطفان حيث بين أن الأنصار لم يُذلُّوا لأولئك المعتدين في الجاهلية فكيف وقد أعزهم الله ـ تعالى ـ بالإسلام.

وقد أُعجب النبي ﷺ بجواب سعد ﷺ وتبين له منه ارتفاع معنوية الأنصار واحتفاظهم بالروح الجهادية القوية، فألغى بذلك ما بدأ به من الصلح من غطفان.

وفي المحاورة التي ذكرها الواقدي في روايته بين زعيمي غطفان يتبين لنا انخفاض مستوى الروح القتالية لديهم وأنهم في تردد من أمرهم وندم على ما أقدموا عليه من موافقة قريش واليهود على غزو المدينة، وكان هذا التردد وضآلة أملهم في الحصول على تمر المدينة مما جعل مجهودهم في القتال ضعيفًا».

[التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ١٢٤-١٢٥].

٢١ ـ الاستهانة بصغائر الأمور يفتح أبواب عظائمها من العواقب الوخيمة:

يقول الشيخ عرجون: «تيمَّم المشركون مكانًا ضيقًا من الخندق، وأكرهوا خيولهم على اقتحامه فاقتحمت بهم فأجالوها فيه، فخرج إليهم علي بن أبي طالب ﷺ في نفر من أبطال المسلمين حتى أخذوا عليهم الثغرة التي أقحموا منها خيولهم، وأقبلت الفرسان تُعْنق نحوهم.

وهنا ننبه على العواقب الوخيمة التي تخلفها الغفلة أو الاستهانة بصغائر الأمور فيما يجب فيه الاحتياط، وليس في مواقف الحياة موقف يتأكد فيه الاحتياط مثل مواقف الحروب ومواقفة الأعداء.

وهذه الثغرة ـ كما يقول ابن سعد في طبقاته ـ أغفلها المسلمون، فلم يُحكموا أمرها كما أحكموا سائر مواضع الخندق، فكانت مقحمًا لخيول الأعداء، ولو أحكموها وتيقظوا لها ما كان هناك منفذ للاقتحام، وهذا الإهمال أو الغفلة مما يأباه منهج الرسالة، هذا المنهج الذي يوجب على كل مسلم أن يكون حذرًا متيقظًا في عمله غير مستهين بصغائر الأمور ولا نؤوم عن كبارها، فإن معظم النار من مستصغر الشرر».

[محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ١٧١].

٢٢ ـ موازنة بين شجاعة متثبتة بعواصم الإيمان وأخرى متهورة فاجرة:

يقول الشيخ عرجون: «وقصة مبارزة علي ﷺ عمرو بن عبد ود العامري قصة من روائع البطولة الإسلامية؛ لأنها تمثل الشجاعة البطولية في نموذجيها.

النموذج الأول: الشجاعة البطولية المتثبتة بثوابت الإيمان، المستعصمة بعواصمه، وهي شجاعة تعتمد على روح الفدائية المحفوفة بالرجاء في فضل الله، وإمداده بقوة روحية إيمانية تتضاءل أمامها أضخم القوى المادية الجاهلية التي تتجلى مظاهرها في صراع عضلي وسلاح مشحوذ.

النموذج الثاني: شجاعة بطولية متهورة حمقاء، لا تستند إلى مدد داخلي سوى الغرور المسعور والشهرة الطنانة، والسوابق المتوازية مع أقرانها في اندفاع أهوج، لا يقدِّر العواقب قدرها وصراع أحمق معتوه، يتفزز في توثب طائش.

والنموذج الأول كان يمثله في هذه القصة علي ﷺ، فإنه لم يكد يسمع نداء عمرو: هل من مبارز؟ حتى نهض يعرض نفسه على رسول الله ﷺ أن يكون هو المبارز لهذا البطل المغرور بقوته وسوابقه في ميادين المعارك الجاهلية التي لا ترتكز إلا على عضل مفتول وساعد مجدول.

وكان يمثل هذا النموذج عمرو بن عبد ود العامري بصلفه وحمقه وجاهليته، وكان علي بن أبي طالب ﷺ متحفزًا لمنازلة هذا الطاغية الذي تحدى كتائب المسلمين أن يُخرجوا إليه رجلًا لمبارزته، فكان علي ﷺ كلما سمع صرخته يطلب المبارزة ينهض ليأذن له رسول الله ﷺ في مبارزته، ويقول: أنا له يا رسول الله! فيستجلسه رسول الله ﷺ». [**محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ١٧٢**].

ويقول أ/ كولن: «إن اختيار علي بن أبي طالب ﷺ لمقاتلة الفرسان الذين عبروا الخندق اختيار موفق يدل على الفطنة - كان هذا الاختيار تطوعًا وليس جبرًا - ويدل على أنه كان يعرف من يختار وأين يختاره».
[**النور الخالد محمد ﷺ لكولن ٢/ ١٠٣**].

٢٣ - الفدائية العالية من الإمام علي ﷺ:

يقول د/ الحميدي: «هذا الخبر يبين شجاعة علي بن أبي طالب ﷺ وإقدامه الجريء على المهالك، فلقد كان عمرو بن عبد ود من المشهورين بالشجاعة والخبرة الحربية، فالإقدام على مبارزته مغامرة لا يقدم عليها من له في الحياة رغبة.

وإذا نظرنا إلى المتبارزين من ناحية الكفاءة الحربية نجد أن بينهما فرقًا كبيرًا، فعمرو بن عبد ود يمتاز بعدة عوامل ترجح كفته، منها شهرته المستفيضة بالشجاعة والقوة، وهذه الشهرة تمنحه قوة معنوية بينما تُضعف من قوة خصمه وتصيبه بالرعب والهلع، ومنها خبرته الحربية فهو متقدم في السن، وكلما كان الإنسان أكثر ممارسة للحرب كان أكثر خبرة وأقدر على اتقاء ضربات الخصم واغتنام فرص الهجوم.

ولكن مع صغر سن علي ﷺ وقلة خبرته الحربية فإنه أقدم على مبارزة ذلك الرجل العنيف الشجاع، فنصره الله - تعالى - عليه فأرداه قتيلًا، وكان ذلك كافيًا لإرهاب أصحابه الذين فروا وتركوا الميدان.

وهكذا حدث ما يشبه الخوارق حيث أقدم شاب حديث السن والخبرة على مبارزة فارس عظيم من أشهر فرسان العرب، كما يفيد ذلك ما جاء في رواية أخرى لابن إسحاق ذكرها السهيلي، وفيها أن عمرو بن عبد ود حينما دعا إلى المبارزة برز له علي بن أبي طالب ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: **إِنَّهُ عَمْرٌو اجْلِسْ**، قالها مرتين، وفي الثالثة قال علي: **وَإِنْ كَانَ عَمْرًا**، فأذن له رسول الله ﷺ.

وإنه لمشهد عظيم وامتحان رهيب يظهر فيه الإيمان الراسخ والشجاعة الفذة حيث تتم المبارزة على ملأ من الطرفين ويكون لنتائجها الأثر البالغ في رفع المعنويات أو تحطيمها، ولقد ضرب المسلمون أروع

الأمثال في ذلك حيث كان الأبطال وأقوياء الإيمان يتسابقون إلى ساحة الميدان وتكون لهم الغلبة في أكثر الأحوال، بل إنه من النادر جدًّا أن يتفوق عليهم الأعداء في هذا المجال؛ لأنه يستحيل أن يوجد من يبذل طاقته كاملة ويتمنى الموت غيرُ المسلمين حيث إن ما يقصده المسلمون هو رضوان الله تعالى والسعادةُ الأخروية، وإن مما يوقن به المؤمن أن مما يعجل بحصوله على ذلك أن يزجَّ بنفسه في المخاطر من أجل إعزاز دين الله تعالى، أما غير المسلم فإن الذين يقصدهم بتضحيته لا يستفيد منهم إلا في هذه الحياة الدنيا، ومن الطبيعي أن يحرص على استبقاء نفسه ليفوز بثمرات نصره، وهذا يعوقه عن بذل القدر الكافي من الطاقة فيتفوق عليه المسلم المخلص بإذن الله تعالى». [التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ١٢٧-١٢٩].

ويقول د/ أبو فارس: «وتتبين لنا قوة الروح المعنوية التي كان يتمتع بها علي بن أبي طالب ﷺ، إذ وقف يتحدى بطل الأحزاب الذي لا يجاريه أحد في القوة والتجربة وقد بلغ تسعين عامًا يجندل الأبطال، وتتجنب لقاءه الأبطال، وإذا بعلي ﷺ الفتى يتصدى له ويتحداه ويذيقه طعم الردى مجندلًا على الأرض». [غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٧٣].

ويقول د/ الغضبان: «إن ابن السادسة والعشرين ربيعًا أشفق عليه بطل قريش عمرو بن عبد ود من الموت، وطلب إليه أن يعود أدراجه وليأت لمقابلة ومبارزة أعمامه أو شيخي قريش: أبي بكر وعمر.

لكن عليًّا ﷺ الفارس الأول في مدرسة النبوة لم يكن بطلًا مجربًا فحسب، بل كان داعية عظيمًا قبل البطولة، فها هو يعرض الإسلام على عمرو على أمل أن يضم هذا الفارس الضخم للإسلام، وحين أعجزه ذلك انطلق معه من فكرة تحييده بحيث يدخره للمستقبل لكن عمرًا أبى عليه هذا وذاك، وحين كان لابد من المواجهة فقد أشعل نار غضبه وتحداه لقتله، وكما تقول بعض الروايات: إن رسول الله ﷺ أعطاه سيفه ذا الفقار، وألبسه درعه الحديدي، وعممه بعمامته، وقال: **«اللَّهُمَّ أَعِنْهُ عَلَيْهِ»**، وفي لفظ: **«اللَّهُمَّ هَذَا أَخِي وَابْنُ عَمِّي فَلاَ تذَرْنِي فرداً، وأنت خير الوارثين»**. [السيرة النبوية لابن هشام ـ مقتطفات ٣/ ٣١١- ٣١٤].

وزاد في رواية أنه ﷺ رفع عمامته إلى السماء وقال: **«إِلَهِي! أَخَذْتَ عُبَيْدَةَ مِنِّي يَوْمَ بَدْرٍ، وَحَمْزَةَ يَوْمَ أُحُدٍ**، وهَذَا **أَخِي وَابنُ عَمِّي، فَلاَ تذَرْنِي فرداً، وأنت خير الوارثين»**.

[كنز العمال للمتقي الهندي ١٠/ ٤٥٦-٤٥٧ وعزاه للديلمي].

إنهم الثلاثة أبطال بدر الذين جندلوا أئمة الكفر يوم بدر، عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وقد مضى عبيدة ﷺ شهيدًا يوم بدر، ومضى حمزة ﷺ شهيدًا يوم أُحُد، وها هو علي ﷺ خاتمة العقد، إنهم أعز أهله وذويه عليه، وأخص خاصته، فلا غرو أن يدعو الله بنصر علي ﷺ على العدو الألد الأشد عمرو بن عبد ود.

هؤلاء الأطفال في أيام البعثة، هم الأبطال في أيام الخندق، وهم ثمرة التربية النبوية العظيمة».

[التربية القيادية للغضبان ٤/ ٤٨-٤٩].

ويقول أ/ فرج: «وفي هذا اللقاء تتضح أهمية الإيمان وفضل الشجاعة الأدبية، فلا العدد ولا السلاح تغني عن الإيمان والشجاعة والقوى المعنوية للأفراد وللجماعات وللجيوش وللشعوب.

أين إذن تكمن القوة الحقيقية؟

لم يختلف القادة والمراقبون والمؤرخون في الماضي والحاضر في أن القوة الحقيقية تكمن في النفوس، وأن أهم أسلحة الحرب، الرجال ذوو البسالة.

وكيف تكسب المعارك بغير شجاعة الرجال وتصميمهم على الفوز.

بل كيف لا تكسب المعارك إذ خاض غمارها الرجال وهم في ثقة ورضا وتصميم على النصر أو الشهادة». [انتصارات عربية خالدة لفرج ٤٣-٤٤].

٢٤ ـ حكمة تأني رسول الله ﷺ بالإذن لعلي ﷺ في مبارزة عمرو بن عبد ود:

يقول الشيخ عرجون: «ولعل الحكمة في ذلك كانت هي التفاوت الكبير بينهما في السن وطرائق الحياة وتجارب الحروب، فقد كان علي ﷺ إذ ذاك في مَيْعة الشبوبية الصاعدة التي استحوذ عليها الإسلام بعقيدته وشرائعه وآدابه، فشغلها به منذ إنشائها بين أحضانه في تربية إنسانية جادة صارمة لا تعرف الفراغ العابث ولا العبث الفارغ الذي تستغرقه الفتوة المتصعلكة في أسواق الجاهلية ومحافلها وحروبها للسلب والنهب وسفك الدماء والتباهي بالقوة العضلية ومصارعة الفتيان، استجابة لموروث التراث الجاهلي الذي لا يشغله في حياة الناس شيء، ولا يشغل من حياة الناس شيئًا.

ولكن حياة علي ﷺ الإسلامية الخالصة المخلصة لم تكن تسمح له في تقاربها من الرجولية المكتملة بجولات المصارعات الجاهلية التي اتخذها الفارغون من أضراب عمرو بن عبد ود العامري ديدنهم لترضي صلفهم وغرورهم وبطرهم واستكبارهم في الأرض.

وظل بطل الإسلام علي ﷺ مستوفزًا متحفزًا وهو يسمع صرخات عمرو الداعية إلى المبارزة وقد خلطها بتأنيب المسلمين وتعييرهم بالجبن، وعندئذ وقف علي وهو يقول: أنا له يا رسول الله، فيقول رسول الله ﷺ: «**إِنَّهُ عَمْرُو، اجْلِسْ**».

ولم يقصد رسول الله ﷺ ـ فيما يظهر لنا ـ إخافة علي ﷺ وإرعابه، وهو ﷺ أعرف الناس به وبشجاعته وبطولته، وقوة بأسه؛ لأنه ربيبه وراضع ثدي نبوته وبطل أبطال دعوته وحامي حمى رسالته، ومجندل صناديد المشركين في (بدر)، وإنما قصد ﷺ إثارة حمية البطولة ونخوتها في نفس علي ﷺ، لينازل قرنه وهو يرى آمال رسول الله ﷺ متعلقة به فيستحضر أقصى غايات بأسه وشجاعته.

ومن ثَمَّ أجاب رسولَ الله ﷺ بكل ما في نفسه من ثقة وقوة بأس، ليزيد من طمأنة رسول الله ﷺ في تحقيق آماله من هذه المبارزة الفريدة فقال: **وَإِنْ كَانَ عَمْرًا**.

ويأذن له النبي ﷺ، ويدعو له ويعممه ويعطيه سيفه، ويمشي بطل الإسلام علي رضي الله عنه إلى قرنه بطل الجاهلية مقنَّعًا بالحديد، فيحاوره محاورة يُحفظه بها ويستثير غيظه وغضبه استثارة يغلي منها دماغه، وينزل عن فرسه مُحْنقًا ويسل سيفه من غمده كأنه شعلة نار، ويتجاولان، ويضرب عمرو عليًّا ضربة يتقيها علي بدرقته، فيقدها سيف عمرو ويثبت فيها، ويضربه علي على عاتقه فيصرعه، ويعلن التكبير، ثم يُقبل على رسول الله ﷺ متهللًا، ويشرق وجه رسول الله ﷺ، ويحمد الله تعالى بما يليق بجلاله.

وفي هذه القصة من معالم منهج الرسالة الخالدة ما يجب أن يتعلمه شباب الإسلام، في معاهده ومدارسه ليستخلصوا من وقائعها وأحداثها ما فيها من آيات بطولية باهرة، لا تتقيد بما عُرف في الزمن الغابر، ولكنها تتكيف على حساب زمانها وأطوار الحياة». [محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ١٧٣-١٧٤].

٢٥ ـ رباطة جأش الصحابة رضي الله عنهم:

يقول د/ الحميدي: «خبر خوات بن جبير رضي الله عنه وذلك اليهودي يعتبر مثلًا من الأمثلة العالية في رباطة الجأش والمقدرة على التفكير السليم مع رهبة مواجهة الموت، بل مواجهة ما هو أفظع من ذلك بالنسبة للمسلمين وهو ذل الأسر وما يتبع ذلك بالنسبة للصحابة رضي الله عنهم من مساومة النبي ﷺ في الأسرى، وقد كان اليهود حريصين على أخذ المسلمين أسرى ليساوموا فيهم فيما لو حاصرهم المسلمون، ولكنهم لم يتمكنوا من شيء من ذلك.

ولقد كان ذلك اليهودي في غاية الفرح حينما رأى صحابيًّا نائمًا فاحتمله أسيرًا بعد ما جرده من سلاحه، ولقد كان أخذ المسلمين أسرى وهم محاربون من الأمور البعيدة المنال في عهد الصحابة، ولو أن ذلك اليهودي نبَّه خوات بن جبير لوجده أسدًا مرعبًا.

ولقد كان ذلك السلاح الخفي الذي يحمله اليهود في أوساطهم سببًا في نجاة خوات بن جبير رضي الله عنه ووقوع ذلك اليهودي صريعًا.

وهكذا تحول سلاح النجاة هلاكًا، وتحول سلاح الهلاك نجاة بقدرة الله ـ تعالى ـ الذي ثبَّت قلب خوات بن جبير رضي الله عنه وألهمه تذكر ذلك السلاح الخفي.

وقول اليهودي حينما طعنه خوات بن جبير رضي الله عنه: «السَّبُع» يفيد بأن ذلك اليهودي قد اعتقد بأن سبعًا قد هجم عليه فبقر بطنه ولم يكن يتوقع بأن أسيره قد اختلس مغْوَلَه بتلك الخفَّة والخفية وأنه هو الذي قضى عليه». [التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ١٢٠].

٢٦ ـ تأملات في دعاء الرسول ﷺ:

يقول الشيخ الغزالي: «والله ـ تبارك وتعالى ـ لا يقبل الدعاء من متواكل كسول، وما يستمع لشيء استماعه لهتاف مجتهد أن يبارك له سعيه، أو دعاء صابر أن يجمِّل له العاقبة.

وقد أفرغ المسلمون جهدهم في الدفاع عن رسالتهم ومدينتهم حتى لم يبق في طوق البشر مُدَّخر، فبقي أن تتدخل العناية العليا لتقمع صَعَر الظالم وتقيم جانب المظلوم». [فقه السيرة للغزالي ٣١٥].

ويقول د/ الغضبان: «وحين تقصر قادة الأرض جميعًا وتصغر بين يدي إمام القادة في الوجود، يبقى أنقى قلب خلق الله الذي يتصل بالله تعالى، صلة الرجاء والتضرع أن يزيل الكرب، ويرفع البلاء، وينزل النصر بعد بذل كل الجهد البشري الممكن.

وهذا الدعاء وهذا التضرع لرب العالمين من سيد الخلق وأعبد الخلق وأتقى الخلق، استجاب الله تعالى له، وتجاوبت الريح مع هذا النداء». [التربية القيادية للغضبان ٤/ ٣٦-٣٧].

ويقول د/ أبو فارس: «والذي يتأمل أدعية الرسول ﷺ السابقة والظروف التي كانت تلابسها وتحيط بها يلاحظ أمورًا منها:

(١) شدة الكرب التي حلت بالمسلمين في هذه الغزوة، ولقد أسهبت كتب السير والتاريخ في هذا كثيرًا فلا داعي لذكره هنا مفصلًا.

(٢) إذا فُقدت الأسباب المادية للنصر، فإن الإنسان الجاهلي يفقد الأمل فيه، يستسلم لليأس، وتنهار قواه ومعنوياته، أما المسلم وإن كانت الأسباب المادية التي يملكها ضعيفة، فإنه لا يستسلم لليأس، ولا يعرف القنوط إلى قلبه سبيلًا، ويبقى مؤملًا بالنصر؛ لأنه يعتقد أن النصر من عند الله بعد أن يبذل الأسباب المادية التي يستطيعها، قال تعالى: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ١٢٦﴾ [آل عمران]، فهو والحالة هذه يلجأ إلى الله متخشعًا متذللًا، منكسرًا إلى واهب النصر وباذله الله رب العالمين، فهو منزل الكتاب، سريع الحساب، هازم الأحزاب ومزلزلهم.

(٣) أن النصر لا يكون إلا بعد الصبر والابتلاء والكرب، وهكذا كان الأمر في هذه الغزوة، وليعلم الدعاة أن الله سيجعل بعد عسر يسرًا، وبعد الضيق مخرجًا، وبعد الصبر على الشدة فرجًا، وصدق الله سبحانه: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ٦﴾ [الشرح].

(٤) نلاحظ من أدعية الرسول ﷺ في هذه الغزوة أهمية هذه الغزوة، وخطورتها بالنسبة للحركة الإسلامية في عهد النبوة وما بعدها، إذ هي معركة فاصلة، وتقرير مصير الحركة الإسلامية، يدلك على هذا قول الرسول ﷺ: **اللهم إنك إن تشأ لا تعبد**، أي إن تهلك هذه العصابة في هذه الغزوة ينعدم الخير وينعدم أنصاره ويسود الشر ويكثر أهله.

(٥) يعلِّمنا الرسول ﷺ حسن الأدب مع الله في الدعاء، إذ ربط كل ما يتوقعه وكل ما يجري وسوف يجري من أحداث ونتائج بمشيئة الله ﷻ، جلت قدرته، وعزت عظمته، وتباركت أسماؤه.

وهكذا ينبغي على المؤمن ألا يفارقه هذا الشعور لحظة واحدة، خاصة وهو يُقبل على الله بالرجاء ويلح على الله بخالص الدعاء».

[غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٨٢-١٨٣، وقد سبق تفصيله في الدروس المستفادة من غزوتي بدر الكبرى وأحد].

٢٧ - التضرع والدعاء من أهم الأسباب الموجبة للنصر:

يقول د/ الفنيسان: «وجه ذلك أنه لما اشتد الأمر على المسلمين دعا رسول الله ﷺ على الأحزاب فقال: «**اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الكِتَابِ، سَرِيعَ الحِسَابِ، [مُجْرِيَ السَّحَابِ]، اللَّهُمَّ اهْزِمْ الأَحْزَابَ، اللَّهُمَّ اهْزِمْهُمْ وَزَلْزِلْهُمْ**»، وقام في الناس فقال: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ! لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ العَدُوِّ، وَاسْأَلُوا اللهَ العَافِيَةَ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّ الجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ**».

وكان من دعائه ﷺ: «**يَا صَرِيخَ المَكْرُوبِينَ، وَيَا مُجِيبَ المُضْطَرِّينَ، اكْشِفْ هَمِّي وَغَمِّي وَكَرْبِي، فَإِنَّكَ تَرَى مَا نَزَلَ بِي وَبِأَصْحَابِي**».

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ ﷺ قَالَ: قُلْنَا يَوْمَ الخَنْدَقِ: يَا رَسُولَ اللهِ! هَل مِنْ شَيْءٍ نَقُولُهُ، فَقَدْ بَلَغَتْ القُلُوبُ الحَنَاجِرَ، قَالَ ﷺ: «**نَعَمْ، اللَّهُمَّ اسْتُرْ عَوْرَاتِنَا وَآمِنْ رَوْعَاتِنَا**»، قَالَ: فَضَرَبَ اللهُ ﷻ وُجُوهَ أَعْدَائِهِ بِالرِّيحِ، فَهَزَمَهُمْ اللهُ ﷻ بِالرِّيحِ. [مسند أحمد ١٧/ ٢٧ رقم ١٠٩٩٦، وقال الشيخ الأرناؤوط: إسناده ضعيف].

وما إن لبث حتى نزل جبريل ﵇ يبشره أن الله سيرسل عليهم ريحًا وجندًا من جنده فتزلزلهم».

[غزوة الأحزاب للفنيسان ٢٢٦-٢٢٧].

٢٨ - الاستعانة بالصلاة:

يقول د/ الحميدي: «في قول حذيفة ﷺ عن رسول الله ﷺ: «**كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ صَلَّى**» [أبو داود في التطوع (١٣١٩)، وقال الشيخ الألباني: حسن، وأحمد ٣٨/ ٣٣٠ رقم ٢٣٢٩٩، وقال الشيخ الأرناؤوط: إسناده ضعيف]، بيان لسنة من سنن رسول الله ﷺ في مواجهة الشدائد حيث يلجأ إلى الصلاة ودعاء الله سبحانه أن يفرج ذلك الكرب الذي نزل.

وهذه هي سنة الأنبياء - عليهم السلام - كما جاء في حديث أخرجه الإمام أحمد وفيه: «**وَكَانُوا يَفْزَعُونَ إِذَا فَزِعُوا إِلَى الصَّلَاةِ**». [مسند أحمد ٣١/ ٢٦٨ عن صهيب بن سنان ﷺ رقم ١٨٩٣٧، وقال الشيخ الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم]». [التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ١٥٠].

٢٩ - ينبغي على المسلم أن يضع نفسه وإمكانياته وقدراته تحت تصرف قيادته:

يقول د/ أبو فارس: «وذلك حتى تستفيد من طاقاته وطاقات غيره وتوظفها لتحقيق المصلحة العامة للجماعة الإسلامية، والأمة المسلمة.

هذا ما نفهمه من كلام نعيم بن مسعود ﷺ لرسول الله ﷺ: **يَا رَسُولَ اللهِ! إِنِّي قَدْ أَسْلَمْتُ، وَإِنَّ قَوْمِي لَمْ يَعْلَمُوا بِإِسْلَامِي، فَمُرْنِي بِمَا شِئْتَ**». [غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٨٠].

٣٠ ـ النصح للمسلمين بما لدى الفرد من إمكانات:

يقول أ/ الشامي: «جاء نعيم بن مسعود ﷺ ليعلن إسلامه بكلمات: **يَا رَسُولَ اللهِ! إِنِّي قَدْ أَسْلَمْتُ، وَإِنَّ قَوْمِي لَمْ يَعْلَمُوا بِإِسْلَامِي، فَمُرْنِي بِمَا شِئْتَ**، ويدرك ﷺ مرمى قوله: «**وَإِنَّ قَوْمِي لَمْ يَعْلَمُوا بِإِسْلَامِي**»، فهذا جانب يُستفاد منه في هذه الأوقات العصيبة، ويقول ﷺ: «**إِنَّمَا أَنْتَ فِينَا رَجُلٌ وَاحِدٌ، فَخَذِّلْ عَنَّا إِنْ اسْتَطَعْتَ، فَإِنَّ الْحَرْبَ خَدْعَةٌ**».

وبهذا يوجهه إلى السبيل الذي يمكن أن يؤدي دوره فيه، ذلك أن انضمامه إلى رسول الله ﷺ لن يكون له جدوى أكثر من أن يزيد في عدد أصحابه رجلًا واحدًا، أما ما قام به مستفيدًا من التوجيه الكريم فإنه يعدل عمل فرقة بكاملها.

وهكذا تكون الاستفادة من الطاقات، حيث يوضع كل فرد في مكانه الملائم.

وقد استفاد الصحابة الكرام ﷺ فيما بعد من هذا الدرس القيم ووضع كل رجل في المكان المناسب له، وقدر الرجال أقدارهم (ونذكر على سبيل المثال قول أبي بكر ﷺ في القعقاع ﷺ: «**لصوت القعقاع في الجيش خير من ألف رجل**» عن الإصابة)، وبهذا سادت دولة الإسلام في تلك الفترة الوجيزة».

[من معين السيرة للشامي ٣١٣].

ويقول د/ الحميدي: «ذلك التوجيه العظيم من رسول الله ﷺ لنعيم بن مسعود ﷺ قد هداه النبي ﷺ فيه إلى الطريق الذي يسلكه في حرب الكفار ونصر المسلمين، وأعطاه المفاتيح اللازمة لذلك حيث وجهه إلى بذل جهده في تخذيل الأحزاب، وأبان له أن الكذب في هذه الحال عمل صالح لأنه في الحرب، وقد يكون كسب الحرب في خدعة يدبرها فرد واحد لأعدائه.

وهذا مثال على حسن تصرف النبي ﷺ واغتنامه الفرص المناسبة لكسب المواقف لصالح المسلمين وتوجيه الرجال بما يتناسب مع كفاءاتهم، فقد كان نعيم ﷺ معروفًا قبل ذلك بالمقدرة الفائقة على المخادعة والرأي الحصيف الذي يؤثر به على الناس.

إنها كلمات معدودات صدرت من النبي ﷺ في إجابة هذا الرجل ولكنها كلمات خالدات، كلمات لها أثر بالغ في توجيه هذا الجندي المحنك الذي تبوأ منزلة عالية من الثقة بين العرب، والنبي ﷺ يعلم بثاقب بصره وعظيم خبرته بالرجال أن هذا الجندي الذي كسبه الصف الإسلامي ولم يعلم الكفار بإسلامه بإمكانه أن يقوم بجهد كبير من التخذيل عن المسلمين والإيقاع بين الكفار، ففتح له الطريق الذي يمكن بولوجه منه أن يقدِّم للمسلمين خدمة عالية تغير من موازين المعركة.

لقد وعى نعيم بن مسعود ﷺ هذا التوجيه النبوي وطبَّقه على أوسع نطاق، فقام من تَوِّه يفكر بالخطة الحكيمة التي يستطيع بها أن يوغر صدور يهود بني قريظة على الأحزاب من قريش وغطفان، وأن يوغر

صدور الأحزاب على بني قريظة؛ وذلك لانتزاع الثقة فيما بينهم وجعل كل فريق يتهم الآخر ويشك في نواياه، فقام بخطة التخذيل بين الأعداء التي جاءت في هذا الخبر.

إن هذا الخبر يعتبر مثلًا عاليًا في السياسة الحربية، حيث توصل نعيم بن مسعود ﷺ إلى تدبير مُحكَم فرَّق به بين الأحزاب، وكان عاملًا مساعدًا في التأثير عليهم ودفعهم إلى الرحيل بعد العامل الأول المهم الذي كان بتسليط الله تعالى عليهم جنوده من الملائكة ـ عليهم السلام ـ والريح الشديد».

[التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ١٤٢-١٤٤].

ويقول د/ أبو فارس: «وهذا الذي قام به نعيم بن مسعود ﷺ إذ استطاع أن يوجد الفُرقة بين الأحزاب، ومن ثم فقد انعدمت الثقة بينهم، ورحلوا دون تنفيذ ما اتفقوا عليه.

ويؤخذ من هذا الاستفادة من أصحاب الطاقات الفعالة كنعيم بن مسعود ﷺ، بعد مسح شامل لهذه الطاقات وتصنيفها وتوظيفها في الجانب المناسب الذي تُنتج فيه.

وهكذا كان الرسول ﷺ يعرف أصحابه واحدًا واحدًا وميزات كل صحابي ومناقبه وخصائصه، ويختار للعمل من الصحابة ما يُنتج فيه، فإذا اختلف العمل اختار أناسًا آخرين حسب الطاقات والمناقب والخصائص التي تُطلب في المنفذ لهذا العمل أو ذاك». [غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٧٩].

ويقول أ/ كولن: «لم يكن قد مضى على إسلام نعيم بن مسعود ﷺ سوى بضعة أيام، فانظروا إلى فطنة الرسول ﷺ إذ عرف أن نعيمًا ﷺ سيستطيع القيام بهذه المهمة الكبيرة وأنه أهل لها، وفعلًا قام نعيم ﷺ بأداء تلك المهمة أفضل أداء». [النور الخالد محمد ﷺ لكولن ٢/ ١٠٥].

ويقول د/ المدخلي: «إن دور نعيم ﷺ في هذه الغزوة عظيم، خاصة إذا عرفنا أنه في أول أيام دخوله في الإسلام، وقد اشتهر هذا الدور عند المؤرخين، بيد أني رغم ذلك لم أجد سندًا يؤكده ويؤيده، ولكنه مستفيض عند المؤرخين، وقد كان دوره حاسمًا في القضية حيث شتت الله شملهم، وفرَّق جمعهم، وأرسل الله عليهم الريح، وجنودًا من عنده، وكان السبب في زعزعة الأحزاب هو نعيم ﷺ بعد الله ﷻ».

[مرويات غزوة الخندق للمدخلي ٣٧١].

٣١ ـ استخدام المعلومات السابقة والاستفادة منها:

يقول د/ أبو فارس: «لقد استطاع نعيم بن مسعود ﷺ، أن يستخدم المعلومات السابقة الموجودة عند الأعداء ويستفيد منها، فقد كان نديمًا لبني قريظة وهو من غطفان، فهم أهله يحبهم ويريد لهم الخير، وقريش تعرفه وتحبه ويحبها وهي مقتنعة أنه يريد لها الخير، ويعمل لتحقيق مصلحتها وينصح لها.

كل هذه المعلومات استخدمها كمقدمة لتتولد الثقة بين هذه القبائل وبين نعيم؛ لأن تولد الثقة بين نعيم وقبائل الأحزاب تعني تصديقه في كل ما يقول والأخذ عنه بما يشير انطلاقًا من حرصه على مصلحتهم وحبهم وودهم والعمل لجلب الخير لهم». [غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٧٩-١٨٠].

٣٢ـ التربية النبوية العظيمة لنعيم بن مسعود ﷺ:

يقول د/ الغضبان: «دخل نُعيم بن مسعود ﷺ التاريخ في غزوة الأحزاب، وحقق بعبقريته ما تعجز الجيوش عن تحقيقه.

وانضمت الطاقات والكفاءات العربية إلى الصف الإسلامي، ولا شك أن دور نُعيم بن مسعود ﷺ في تخذيل الأحزاب، وأثر هذه العبقريات الضخمة في تغيير مسار المعركة، لم يكن ليبرز لولا التربية النبوية العظيمة.

وذلك نُعيم بن مسعود، كان يمكن أن يحفظ عنه التاريخ أنه لا يكتم سرًّا، وأنه كان يصانع الناس ويداريهم كما قال عن نفسه: كنا قومًا عربًا لا نخل لنا ولا كرم وإنما نحن أهل شاء وبعير، فكنت أقدم على كعب بن أسد فأقيم عندهم الأيام أشرب من شرابهم، وآكل من طعامهم، ثم يحملونني تمرًا على ركابي ما كانت، فأرجع إلى أهلي.

هذا رجل كان همه من الدنيا أن يستضاف عند بني قريظة، ويحافظ على صداقاته مع محمد ﷺ، وقريش وقريظة، ويحقق ثروة وصيتًا وشهرة، فإذا بالإسلام ينقله من هذا السفح ليغدو عبقريًّا من عباقرة الحرب، يضع طاقاته في سبيل الله ويفتت جيش الأحزاب.

يقول عنه الحافظ ابن حجر في الإصابة: (نعيم بن مسعود.. ابن أشجع يكنى أبا سلمة الأشجعي.. صحابي مشهور له ذكر في البخاري، أسلم ليالي الخندق وهو الذي أوقع الخلف بين الحيين قريظة وغطفان في وقعة الخندق، فخالف بعضهم بعضًا وجلوا عن المدينة... قُتل نعيم في أول خلافة علي ﷺ قبل قدومه البصرة في وقعة الجمل، وقيل: مات في خلافة عثمان. والله أعلم).

[الإصابة للحافظ ابن حجر ٣/ ٦/ ٢٤٩].

ونشير من طرف آخر إلى عظمة التربية والتوجيه النبوي لنعيم بن مسعود ﷺ وقد أعلن إسلامه.

إن من الممكن أن يكون إسلام نُعيم ﷺ خدعة من العدو، ليجد ثغرة داخل الصف الإسلامي، والقائد العسكري لابد أن يضع في حسبانه مثل هذا الاحتمال في قلب المعركة وهو على رأس أشجع من غطفان، هذا من جهة ومن جهة ثانية على افتراض أن الأصل صدق نعيم في إسلامه كما يقول لرسول الله ﷺ: **إِنِّي جِئْتُ أُصَدِّقُكَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مَا جِئْتَ بِهِ حَقٌّ، فَمُرْنِي بِمَا شِئْتَ يَا رَسُولَ الله، فَوَالله لا تَأْمُرُنِي بِأَمْرٍ إِلَّا مَضَيْتُ لَهُ.**

هل يقول له القائد الأعظم والمربي الأعظم: أشهر إسلامك لعله يفت في عضد الناس، أم يقول له: قم باغتيال أحد القيادات الكبرى في جيش العدو، أم يقول له: حاول أن تجر قومك إلى الانضمام إلينا أو

من تستطيع ذلك منهم وعدد أشجع أربعمائة في الجيش، أم يقول له: اذهب فقم على ثغرة من ثغور الخندق، وانضم إلى المقاتلين.

كل هذه الاحتمالات واردة، لكن ما هو جدواها بالنسبة للمعركة؟ بالتأكيد لا تغني شيئًا ولا تعني شيئًا في ميزان المعركة أمام التحام الأحزاب كلها من قريش وغطفان وبني قريظة في خطة الإبادة المعتمدة عند المشركين، لقد أدرك ﷺ بعظمته الخالدة كل هذه الحسابات، واحتمالات الخديعة من نُعيم ﷺ، ثم رسم له الخطة التي يتحرك من خلالها، والهدف الأساسي فيها، تاركًا له التفاصيل كاملة، ومدخلًا في حسابه احتمالات عدم صدقه في الإسلام وقال ﷺ له بعد قوله: وقومي لا يعلمون بإسلامي ولا غيرهم، قال: «**مَا اسْتَطَعْتَ أَنْ تُخَذِّلَ النَّاسَ فَخَذِّلْ**»، قُلت: **أَفْعَلُ، وَلَكِنْ يَا رَسُولَ اللهِ! أَقُولُ فَأْذَنْ لِي**، قَالَ: «**قُلْ مَا بَدَا لَكَ فَأَنْتَ فِي حِلٍّ**».

وعند ابن إسحاق في روايته: «**إِنَّمَا أَنْتَ فِينَا رَجُلٌ وَاحِدٌ، فَخَذِّلْ عَنَّا إِنْ اسْتَطَعْتَ، فَإِنَّ الْحَرْبَ خَدْعَةٌ**».

فأن يكون فردًا مقاتلًا في الصف، فهو رجل واحد، أما عمله فهو في قلب صفوف العدو، والحرب ليست في الضرب والطعن فقط، بمقدار ما هي خطط حربية، وإيقاع في العدو، ولأهمية التخطيط والدهاء والعبقرية في القيادة لخصها ﷺ بأهم عنصر فيها «**فَإِنَّ الْحَرْبَ خَدْعَةٌ**»[1]، كقوله ﷺ: «**الْحَجُّ عَرَفَةُ**».

وضمن الخطة النبوية، والتوجيه العظيم تحرك نعيم ﷺ وحقق هدفه بذكاء بارع، ومزق صف الأحزاب وأفسد صفهم.

إننا إذا ذكرنا أن أعظم انتصار حققته قريش وزعماء بني النضير هو هذا الحلف الضخم الذي شاركت به غطفان وأسد وقريش وكنانة وبنو قريظة، فسيكون أعظم إنجاز ولا شك هو تدمير هذا الحلف، ويكفي أن نذكر أن رسول الله ﷺ قد راوض بني غطفان سرًّا على أن يعطيهم ثلث ثمار المدينة مقابل تخليهم عن الحرب.

ونشير أخيرًا إلى أهمية الكتمان ودوره في تنفيذ هذه المخططات وكيف أن الرجل المزروع في قلب العدو هو القادر على أن يفتت هذا العدو، أو يقي الحركة الإسلامية من مخططاته.

ونقول: إن شخصية نُعيم بن مسعود ﷺ التي عُرفت بأنه لا يكتم الحديث، وما رواه عروة عن عائشة في تقييم هذه الشخصية، وأن نعيمًا كان رجلًا نمومًا، هو نفسه بهذه المواصفات حقق هذا الإنجاز الضخم عندما أصبح جنديًّا مسلمًا يأتمر بأمر نبيه محمد ﷺ، وكيف كان يحرص خلال تنفيذ الخطة على السرية التامة، على توصية أطراف الحلف كلها بكتمان المعلومات التي يقدمها له».

[التربية القيادية للغضبان ٤/ ٥٤، ٥٦-٥٧].

---

(١) من الملاحظ أن النص: «الحرب خدعة» هو حديث صحيح رواه أحمد والبخاري ومسلم، وهو عند مسلم برقم (١٧٣٩، ١٧٤٠).

ويقول د/ زين السيد: «كان هذا النصر من أَجَلِّ ما حققه ذلك البطل المسلم نعيم بن مسعود الأشجعي ﷺ، وظل هذا الصحابي الجليل يواصل الإصلاح ويقيم آيات الجهاد، ويرفع رايات الشرف في ساحة الحق، سلام عليك في دار الخلد: ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾﴾ [النبأ] لما حققته من جمع الشمل وإقامة وحدة إسلامية، ولما أجراه الله على يديك من النصر الباهر بعد ما ابتُلي الناس وزُلزلوا زلزالًا شديدًا». [دور الحرب النفسية في غزوتي أُحد والأحزاب للسيد ١٤٤].

٣٣ ـ خدعة نعيم ﷺ وما أحدثته في ميزان الحرب آنذاك:

يقول د/ زين السيد: «لقد وقف الجيش المسلم خلف الخندق، يحمل ذهولًا ضخمًا، ويعيش آلامًا نفسية لم يعشها بشر من قبل، ودخل سباقًا رهيبًا مع الزمن، ومع العدو الموعود داخل المدينة من اليهود بعد نقضهم للعهد، وخارجها من الأحزاب، واستطاعت زحمة الحرب النفسية والدعائية أن تصنع في نفوس بعض المسلمين الإحساس بالعجز تجاه قواتهم والشعور بالقلق والانهيار من قدراتهم وهم كثيرو العدد والعُدة، وحرمان العدو من المفاجأة يتطلب وجود استطلاع قوي مستمر لخداعه وبعثرة قواته وتفتيتها، وذلك يحرم العدو من تحقيق الحشد والإخلال، وإرباك التعاون يصيب تنفيذ أعمال القطع والعزل، وبذلك ترتبك قواته بالتأثير على عقل القادة، وتحقيق ذلك يحرم العدو من الإحساس بالأمن، وتحقيق النصر يجب أن يتم من خلال الانهيار النفسي وليس المعركة، فالنصر شيء كسبه نفسي أولًا وقبل كل شيء، وكما قيل: فإن القوى المادية لا تمثل في حقيقة الأمر سوى قبضة السيف الخشبية بينما تمثل القوى المعنوية الحد اللامع والقاطع لهذا السيف، وإفقاد العدو لتوازنه المادي والمعنوي يعتبر عملًا أوليًّا ضروريًّا بالإمكان القضاء عليه نهائيًّا.

وفي هذا الجو الرهيب يظهر صمود النبي ﷺ وأصحابه وضاء مشرقًا يستثير الدهشة والإعجاب والتقدير.

ولذا قام النبي ﷺ على الفور بكل ما تمكنه من جهد وعمل هو وأصحابه، وابتكر أسلوبًا جديدًا بمواجهة العدوان الزاحف ليكون عونًا لهم على مواصلة الصمود إلى نهاية الشوط، وجعل رسول الله ﷺ يفكر في الوسيلة إلى الخلاص، وبطبيعة الحال لم تكن الوسيلة مواجهة العدو، فماذا تكون يا ترى؟

إن الله ﷻ ناصر نبيه، فجاء الفرج بعد الشدة والسعة بعد الضيق، وبالرغم من أن الإنسان هو سيد مصيره وقدره في بعض الأحيان، فإن قدر الله يقع عليه في أحيان أخرى، وإذا أراد الله نفاذ أمر هيأ له الأسباب، فساقت الأقدار نعيم بن مسعود ﷺ ليتم على يديه عمل فردي، ولكنه ذو تأثير قوي؛ لأنه أمر يتعلق بالخدعة في الحرب، وهذا الأمر يتوقف كثيرًا على الذكاء والشخصية والفطنة القوية.

وبهذه الخطة البارعة في خداع الأعداء استطاع نعيم بن مسعود رضي الله عنه أن يخلِّص الجيش الإسلامي من فناء محقق، وكان هذا درسًا قاسيًا للطغاة حطم ما تبقى في نفوسهم من عنجهية وطغيان وصلف وغرور، كما كان تعبيرًا صادقًا عن أن الله عز وجل لن يتخلى عن دعوته، ولن يدعها نهبًا لأعدائها، وأوقع الله الرعب في قلوب العدو الذي ولى هاربًا ولم يعقب، وتم النصر الذي قَلَب موازين العالم الذي خدع طويلًا بالدعايات المسمومة، فهب مبهورًا يعيد تقدير حساباته على ضوء الحقيقة الناصعة الجديدة وصدق الله: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الروم].

والمهم في هذا الاتصال هو مدى ثقة يهود بني قريظة داخل المدينة والأحزاب خارجها في مصدر الأخبار التي ينقلها إليهم نعيم بن مسعود رضي الله عنه؛ لأن هذه الثقة هي الأساس التي يبني عليها الناس تصديق المخبر وعدم تصديقه للرسالة التي قام بها، خاصة إذا كان موضوع الحديث غير معروف لديهم سلفًا، ومن هنا كان التأثير فيهم أكبر في عرض وجهات النظر.

والحق أن اعتماد الرسول ﷺ على هذه الشخصية بعد الله عز وجل كان اعتمادًا كبيرًا يدل على حسن سياسته ﷺ، وعلى عظيم حكمته في معالجة المواقف الحرجة التي كانت تمر به في حياته، وما ذلك إلا بتوفيق الله عز وجل وحسن توجيهه ﷺ». [دور الحرب النفسية في غزوتي أُحد والأحزاب للسيد ١٦٧، ١٧٠].

٣٤ـ معاناة الليالي الأخيرة في الخندق:

يقول د/ الحميدي: «في الأخبار التي وردت في هذه الأيام الأخيرة تبينت لنا جهود كبيرة في ليالي ذلك الحصار من رسول الله ﷺ وأصحابه، وذلك في حراسة الخندق والمرابطة حوله حتى لا يتجاوزه المشركون، وكان ﷺ لا ينام الليل إلا قليلًا وبشكل متقطع للهمِّ الكبير الذي يحمله لأصحابه ودولته الصغيرة المحاربة من كل جانب.

وكان الأعداء يوجهون كتائبهم الكثيرة على طول الخندق ليشغلوا المسلمين جميعًا ويَحولوا بينهم وبين الراحة مؤمِّلين أن يحصلوا من بعضهم على غفلة أو استسلام لنوم؛ ليستطيعوا القيام بردم الخندق والإغارة بخيلهم على جيش المسلمين المفرَّق للحراسة والحماية في مقابل الخندق داخل المدينة، ولكنهم فشلوا في كل محاولاتهم بالرغم من قلة عدد المسلمين وقلة إمكاناتهم المادية وسعة المنطقة التي كان عليهم أن يحموها من الأعداء، وهذا دليل على قوة شعور الصحابة بالمسؤولية وتجردهم من الأنانية، واليقظة التامة من قائدهم الأعلى ﷺ وقادتهم الذين ينوبون عنه في إدارة العمل الجهادي.

وخبر أم سلمة رضي الله عنها يبين شدة ضغط المشركين في هجومهم الليلي، فقد فزع النبي ﷺ من نومه مرتين في ليلة واحدة ـ على قلة نومه ـ ولبس سلاحه وذهب هو ومن معه من الصحابة إلى موضع الخطر حتى اطمأن على وضع المسلمين، ورأى اندحار المشركين.

وإن في رسول الله ﷺ قدوة حسنة للقادة حيث لم يلزم مكان قيادته ويكتفي بإصدار الأوامر، بل كان يذهب بنفسه إلى مواضع الخطر ـ بالرغم من كفاءة قادته ـ ليطمئن طمأنينة كاملة، وليَسُنَّ للقادة من بعده المنهج الحكيم في إدارة المعارك الحربية.

هذا ولم تقتصر جهود المسلمين على الجهاد الدفاعي، بل كان لهم هجوم بالرماية، كما رأينا في موقف سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، وهذا مثل من أمثلة مهارة سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه في الرماية حيث أصاب أحد رماة المشركين من بُعْد لوجود الخندق والمسافة بينه وبين المسلمين وبينه وبين المشركين، بالرغم من كون ذلك الرامي مترسًا بترسين». [التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ١٣٥-١٣٧].

٣٥ ـ الخوف أمر فطري للنفس البشرية:

يقول د/ الغضبان: «فهل يوجد إغراء للمسلم الملتزم بدينه أعظم من هذا الإغراء، الرفقة لرسول الله ﷺ في الجنة والعودة سالمًا من المهمة، هذا الخوف والبرد، الذي بلغ هذا المدى، يعطينا صورة أمينة عن النفس البشرية، فكثيرًا ما يتحدث الواعظون والدعاة عن الإيمان، وأثره على المسلم، وعن العقيدة، وأثرها في تكوين النفس، فيقولون في ذروة المد الشعوري: إن المؤمن الحقيقي لا يخاف، ولا يمكن أن يخاف، فهو لا يخاف أحدًا إلا الله، ويشككون بالمؤمن لو اعتراه الخوف، أو اعتراه الضعف، وهذه صورة تخالف النصوص الثابتة الصحيحة، فقد أكد القرآن في أكثر من موضع أن المؤمن الصادق يخاف، والمؤمنون الصادقون يخافون ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ﴾ [الأنفال: ٢٦]، ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾ [الأحزاب].

وهذه النصوص الصحيحة في الخندق تؤكد هذا المعنى، إنما الفرق هو كيف يتصرف المؤمن إذا خاف، وما هي دوافع خوفه، وقصة حذيفة رضي الله عنه تعطينا الصورة الصحيحة للموقف.

فهو وإخوانه المؤمنون لم يستجيبوا لدواعي التنافس، وغلب الخوف من العدو دواعي الإغراء بالسلامة، والجنة في هذه اللحظات الرعيبة، لكن الأمر عندما تحدد، وطلب من حذيفة ـ رضوان الله عليه ـ بشخصه أن يمضي إلى العدو انتهى كل تفكير لديه بالتردد ولم يعد مخيرًا باتخاذ الموقف.

لقد تربى هذا الجيل، على ألا يقول حين يصدر إليه الأمر، لكننا نذكر بالمقابل أنها المرة الوحيدة في تاريخ السيرة أن ينتدب رسول الله ﷺ المسلمين لأمر، ولا يوجد من يستجيب له، وهذا يعني أننا الآن في ذروة المحنة، التي وصل إليها المسلمون في تاريخهم كله.

ولابد أن نذكر مع ذلك صعوبة المهمة وخطورتها، وهي أن يدخل في العدو وحده، العدو المتربص، المتوثب للقتل، وليس العدو الغافي الذي لا يدري بتسلله ودخوله، وكان صريحًا ـ رضوان الله عليه ـ بين يدي سيده، فيما يخاف منه فيقول له: والله ما بي أن أقتل، ولكن أخشى أن أؤسر، فقال: «**إِنَّكَ لَنْ تُؤْسَرَ**».

وحين استجاب الجندي العظيم لأمر قائده ونبيه ﷺ التزامًا بأمره رغم كل هذه المخاوف الرهيبة تولاه الله تعالى بعنايته ورعايته». [التربية القيادية للغضبان ٤/ ٨١-٨٢].

٣٦ـ بين التصور والواقع:

يقول أ/ الشامي: «عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ الْقُرَظِيِّ قَالَ: قَالَ فَتًى مِنَّا مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ لِحُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ رضي الله عنهما: يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ! رَأَيْتُمْ رَسُولَ اللهِ ﷺ، وَصَحِبْتُمُوهُ؟ قَالَ: نَعَمْ، يَا ابْنَ أَخِي، قَالَ: فَكَيْفَ كُنْتُمْ تَصْنَعُونَ؟ قَالَ: وَاللهِ لَقَدْ كُنَّا نَجْهَدُ، قَالَ: وَاللهِ لَوْ أَدْرَكْنَاهُ مَا تَرَكْنَاهُ يَمْشِي عَلَى الأَرْضِ، وَلَجَعَلْنَاهُ عَلَى أَعْنَاقِنَا، قَالَ: فَقَالَ حُذَيْفَةُ رضي الله عنه: يَا ابْنَ أَخِي، وَاللهِ لَقَدْ رَأَيْتُنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِالْخَنْدَقِ ... ثم ذكر حديث تكليفه بمهمة الذهاب إلى معسكر المشركين.

هذا تابعي يلتقي بالصحابي حذيفة رضي الله عنه ويتخيل أنه لو وُجد مع رسول الله ﷺ لاستطاع أن يفعل ما لم يفعله الصحابة الكرام رضي الله عنهم، والخيال شيء والواقع شيء آخر، والصحابة رضي الله عنهم بشر، لهم طاقات البشر، وقدراتهم، وقد قدموا كل ما يستطيعون، فلم يبخلوا بالأنفس فضلًا عن المال والجهد، وقد وضع ﷺ الأمور في نصابها بقوله: «**خَيْرُ الْقُرُونِ قَرْنِي**» [إتحاف الخيرة المهرة للبوصيري ٧/ ٣٣٧ في المناقب (٦٩٩٤)، ونسبه لابن حبان في صحيحه]، فبيَّن أن عملهم لا يعدله عمل.

إن الذين جاؤوا من بعدُ، فوجدوا سلطان الإسلام ممتدًا، وعاشوا في ظل الأمن والرخاء والعدل، بعيدين عن الفتنة والابتلاء، هم بحاجة إلى نقلة بعيدة، يستشعرون من خلالها أجواء الماضي بكل ما فيه من جهالات وضلالات وكفر، وبعد ذلك يمكنهم تقدير الجهد المبذول من الصحابة رضي الله عنهم حتى قام الإسلام في الأرض.

روى الإمام أحمد بسنده عن عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنُ جُبَيْرِ بْنِ نُفَيْرٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: جَلَسْنَا إِلَى الْمِقْدَادِ بْنِ الأَسْوَدِ رضي الله عنه يَوْمًا، فَمَرَّ بِهِ رَجُلٌ فَقَالَ: طُوبَى لِهَاتَيْنِ الْعَيْنَيْنِ اللَّتَيْنِ رَأَتَا رَسُولَ اللهِ ﷺ، وَاللهِ لَوَدِدْنَا أَنَّا رَأَيْنَا مَا رَأَيْتَ، وَشَهِدْنَا مَا شَهِدْتَ، فَاسْتُغْضِبَ، فَجَعَلْتُ أَعْجَبُ، مَا قَالَ إِلَّا خَيْرًا! ثُمَّ أَقْبَلَ إِلَيْهِ فَقَالَ: **مَا يَحْمِلُ الرَّجُلُ عَلَى أَنْ يَتَمَنَّى مَحْضَرًا غَيَّبَهُ اللهُ عَنْهُ، لا يَدْرِي لَوْ شَهِدَهُ كَيْفَ كَانَ يَكُونُ فِيهِ، وَاللهِ! لَقَدْ حَضَرَ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَقْوَامٌ أَكَبَّهُمُ اللهُ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ فِي جَهَنَّمَ، لَمْ يُجِيبُوهُ وَلَمْ يُصَدِّقُوهُ، أَوَلا تَحْمَدُونَ اللهَ إِذْ أَخْرَجَكُمْ لا تَعْرِفُونَ إِلَّا رَبَّكُمْ مُصَدِّقِينَ لِمَا جَاءَ بِهِ نَبِيُّكُمْ، قَدْ كُفِيتُمْ الْبَلَاءَ بِغَيْرِكُمْ، وَاللهِ! لَقَدْ بَعَثَ اللهُ النَّبِيَّ ﷺ عَلَى أَشَدِّ حَالٍ بُعِثَ عَلَيْهَا نَبِيٌّ مِنَ الأَنْبِيَاءِ، فِي فَتْرَةٍ وَجَاهِلِيَّةٍ، مَا يَرَوْنَ أَنَّ دِينًا أَفْضَلُ مِنْ عِبَادَةِ الأَوْثَانِ، فَجَاءَ بِفُرْقَانٍ فَرَقَ بِهِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَفَرَّقَ بَيْنَ الْوَالِدِ وَوَلَدِهِ، حَتَّى إِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيَرَى وَالِدَهُ وَوَلَدَهُ أَوْ أَخَاهُ كَافِرًا، وَقَدْ فَتَحَ اللهُ قُفْلَ قَلْبِهِ لِلإِيمَانِ، يَعْلَمُ أَنَّهُ إِنْ هَلَكَ دَخَلَ النَّارَ، فَلا تَقَرُّ عَيْنُهُ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ حَبِيبَهُ فِي النَّارِ، وَإِنَّهَا لَلَّتِي قَالَ** عز وجل: ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ [الفرقان: ٧٤].

[مسند أحمد ٣٩/ ٢٣١ عن المقداد بن الأسود رضي الله عنه رقم ٢٣٨١٠، وقال الشيخ الأرناؤوط: إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الصحيح غير يعمر بن بشر وهو ثقة، وصححه الحافظ ابن كثير في التفسير ٦/ ١٤٢].

إن كلا الرجلين الذي تحدث إلى حذيفة ﷺ، والذي تحدث إلى المقداد بن الأسود ﷺ لم يدفعهما إلى الحديث إلا التعبير عن الحب لرسول الله ﷺ، وكلاهما لم يفهما ذلك فلسفة بل عملًا، فالأول قال: **مَا تَرَكْنَاهُ يَمْشِي عَلَى الأَرْضِ**، وقال الثاني: **وَشَهِدْنَا مَا شَهِدْتَ**..

ليت الذين يدَّعون محبة الرسول ﷺ يترجمون ذلك في أعمالهم فتكون متساوقة مع ما أمر به ﷺ وحينئذ يبرهنون على الصدق في قولهم». [من معين السيرة للشامي ٣١٥-٣١٧].

٣٧ ـ كان حذيفة ﷺ أجمع لصفات الفدائي المغامر العليم بمهمته:

يقول الشيخ عرجون: «وذهب حذيفة ﷺ إلى جموع الأحزاب ودخل بينهم ـ والظلام الشديد يستره ـ دخول الفدائي الذي يكتنفه الموت من جميع أكنافه ويحتويه من سائر جوانبه وهو لا يبالي، ولكن حذيفة ﷺ كان حاذق الرأي، خبيرًا بتصرف الأمور إذا تأزمت، سريع البادرة، ثابت اليقين، راسخ الإيمان، فَطِن الفطرة، ذكي الفؤاد، متماسك الشخصية.

وهذه هي الصفات التي يجب أن تتوافر في الأفراد والجماعات الذين يكونون موضع الثقة الخاصة للقيادة عند اشتداد الأزمات واستحكام الأخطار.

وقد عَرَف حذيفة ﷺ عن جموع الأحزاب كل أمرهم، ظاهره وخفيه؛ لأنه داخلهم مداخلة لم تترك لهم سرًّا إلا كشفته ولا خبيئًا إلا أعلنته.

وقد وقعت له فيهم عجائب دلت على أن اختياره لهذه المهمة الخطيرة كان من متنزل التوفيق، فقد عَرف ما هم فيه من الاضطراب والضياع، والرعب والفزع واستغلاق الأمور أمامهم استغلاقًا شل تفكيرهم، ولم يجدوا للخلاص من حالهم إلا الاستعداد للهرب.

ورجع حذيفة ﷺ للنبي ﷺ فأخبره خبر القوم، فكان ذلك مما أنعش نفوس المؤمنين ورفع ثقل ما نزل بهم من البلاء والمحن، ولو لم يكن لحذيفة ﷺ إلا موقفه من أبي سفيان وهو يُصْلي خاصرته بالنار من شدة البرد وتمكنه من قتله لولا تذكره قول النبي ﷺ: «**لَا تُحْدِثَنَّ فِي الْقَوْمِ شَيْئًا حَتَّى تَأْتِيَنِي**»، وفي رواية: «**لَا تَذْعَرْهُمْ عَلَيَّ**» لكفاه في مفاخر الإيمان واليقين، وليس موقفه وهو يسمع أبا سفيان وقد أحس بعنصر غريب بين جموع الأحزاب: **ليعرف كل امرئ مَنْ جليسه**، وإذا بحذيفة مبادرًا إلى مَنْ إلى جانبه الأيمن، فيقول له: من أنت؟ فيقول: معاوية بن أبي سفيان، ويضرب بيده على من على شماله ويقول له: من أنت؟ فيقول: عمرو بن العاص، وهما أدهى العرب وأحضرهم بديهة، فيسبقهما حذيفة ﷺ ببادرته ويسكتهما عنه، ويخرج عنهما دون أن يعرفا عنه شيئًا ـ بأقل منزلة في منازل الرسوخ واليقين من موقفه مع أبي سفيان». [محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ١٩٧-١٩٨].

٣٨ ـ ما يؤخذ من قصة حذيفة ﷺ:

يقول د/ أبو فارس:

(١) إن الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ بشر من البشر، ليسوا بملائكة يخيفون ويرعبون ولا يخافون، بل تعتريهم حالات الضعف البشري أحيانًا، فربما خافوا، وأبطأوا في الإقدام أحيانًا، وهذا ما حدث لهم حينما تأخروا عن إجابة الرسول ﷺ وطلبه.

(٢) حديث حذيفة بن اليمان ﷺ هذا يدل على تواضعه إذ أخبر عن ضعفٍ اعتراه، والإنسان العادي يحب أن تُستر نقاط ضعفه وتظهر نقاط القوة فيه؛ حتى يُمدح عليها، ويشبع غروره بنفسه.

(٣) في قول الرسول ﷺ: «**أَلَا رَجُلٌ يَأْتِينِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللهُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ**» فائدة هي: ينبغي على القائد أن يسلك أسلوب الحض والتشجيع والتحبيب في النواحي العسكرية، فيكون التنفيذ عن رضا وطواعية، فهو الأجدى والأهدى وفي هذه الحالة الناس مخيرون غير ملزمين، فإن تقاعسوا فلا يُلام واحد منهم، ولا يُعد جانيًا أو مرتكبًا لمخالفة شرعية، فإذا لم يجد القائد من يقوم بالعمل طوعًا، لتقاعس الهمم، يأتي هنا دور إصدار الأمر العسكري، والتكليف به لأي فرد أو مجموعة من الأفراد، وليس للمكلف بهذا الأمر أن يتردد أو أن يستنكف، بل عليه واجب السمع والطاعة والالتزام وتنفيذ ما طُلب منه مهما كانت النتائج.

(٤) نرى في أمر النبي ﷺ حوافز تشجع النفس على القيام به، تأمل معي قوله ﷺ: «**أَلَا رَجُلٌ يَأْتِينِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللهُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ**» هي منزلة عظيمة أن يكون هذا الذي يستجيب لهذا الحض مع الرسول ﷺ يوم القيامة؛ ذلك لأن دعاء الرسول ﷺ مستجاب.

ويستفاد من هذا أن لا بأس بوجود الحوافز التي تشجع المقاتل على القتال، حتى وإن كانت مادية، كيف لا؟ والرسول ﷺ يقول: «**مَنْ قَتَلَ قَتِيلًا لَهُ عَلَيْهِ بَيِّنَةٌ فَلَهُ سَلَبُهُ**».

[البخاري في فرض الخُمس (٣١٤٢)، وفي المغازي (٤٣٢٢)، وفي الأحكام (٧١٧٠)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٥١)، وأبو داود في الجهاد(٢٧١٧)، والترمذي في السير(١٥٦٦٢)، ومالك في الموطأ كتاب الجهاد (٩٩٠)].

(٥) اختيار النبي ﷺ لحذيفة بن اليمان ﷺ ليقوم بمهمة التجسس على الأحزاب يدل على معرفته الدقيقة بمعادن الرجال، واختيار المعدن الذي يثبت ويصلح لهذه الأعمال الخطيرة.

فهذا العمل يُكلِّف حذيفة ﷺ حياته، إذ لو اكتشفه الأعداء ـ وهذا محتمل ـ لكانت عقوبته الموت صبرًا، ومع هذا أقدم على تنفيذ ما أُمر به.

وهو بالإضافة إلى ذلك لبق ذكي خفيف الحركة، سريع التخلص من المآزق الحرجة.

(٦) إن الأمر العسكري الذي وجهه رسول الله ﷺ إلى حذيفة ﷺ كان واضحًا ومحددًا، فنفذه حذيفة ﷺ وعاد سالمًا، وهذا ينبغي أن يُلاحظ في أي أمر عسكري، فلا يكون فيه عدة مطالب متناقضة، ينسخ آخرها أولها، فلا يتحقق شيء منها». [غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٩١-١٩٣].

٣٩ ـ جوانب من مهمة حذيفة ﷺ:

يقول أ/ الشامي: «ولابد لنا من وقفة عند مهمة حذيفة ﷺ والتي سبق ذكرها في حديثه المتقدم، وأكتفي بالإشارة إلى ثلاثة جوانب منها:

(أ) عُرضت المهمة على الصحابة، وكان الجزاء لها رفقة النبي ﷺ في الجنة، ومع ذلك لم يستجب أحد، ثم أُمر حذيفة ﷺ بها، فقام مستجيبًا رغم كل الصعوبات التي منعته من الإسراع إليها مع ما عرض لها من جزاء.

وكان عليه أن يؤدي المهمة تنفيذًا للأمر، وهنا تتغير حاله النفسية فيذهب الخوف، والبرد، حتى قال: فَوَالله مَا خَلَقَ اللهُ فَزَعًا وَلَا قُرًّا فِي جَوْفِي إِلَّا خَرَجَ مِنْ جَوْفِي، فَمَا أَجِدُ مِنْهُ شَيْئًا، وفي رواية مسلم: فَلَمَّا وَلَّيْتُ مِنْ عِنْدِهِ جَعَلْتُ كَأَنَّمَا أَمْشِي فِي حَمَّامٍ حَتَّى أَتَيْتُهُمْ.

إن الحرص على تنفيذ الأمر وأداء المهمة جعله وكأنه لا خوف من حوله، ولا برد، ولا ريح.

(ب) ووضع السهم في كبد القوس، وأراد أن يرمي أبا سفيان بعد أن تعرف عليه، ولكنه ذكر قول الرسول ﷺ في وصيته له: «**لَا تُحْدِثَنَّ فِي الْقَوْمِ شَيْئًا حَتَّى تَأْتِيَنِي**» فيمسك امتثالًا للأمر وانضباطًا مع الوصية، رغم ما في نفسه تجاه أبي سفيان حامل لواء الكفر يومئذ.

(ج) وتستوقفنا سرعة البديهة لدى الصحابي الكريم، وقد دخل في القوم، وقال أبو سفيان: **ليأخذ كل رجل منكم بيد جليسه، قال حذيفة: فضربت بيدي على يد الذي عن يميني فقلت: من أنت؟ قال: معاوية بن أبي سفيان، ثم ضربت بيدي على يد الذي عن شمالي، فقلت: من أنت؟ قال: عمرو بن العاص** ... [شرح الزرقاني ٢/ ١٢٠].

وهكذا بَدَرهم بالمسألة حتى لا يتيح لهم فرصة ليسألوه، وبهذا تخلص من هذا المأزق الحرج، الذي ربما كان أودى بحياته..». [من معين السيرة للشامي ٣١٧-٣١٨].

٤٠ ـ أهمية تلطف القيادة وجنودها بأفراد الصف:

يقول د/ فيض الله: «روت كتب السنة أن حذيفة ﷺ لما قفل راجعًا من مهمته التي كلفه بها رسول الله ﷺ في تلك الليلة الشديدة البرد، العاصفة الريح، الحالكة الظلمة، وجد النبي ﷺ قائمًا يصلي في مِرطٍ ـ كساء فضفاض ـ لبعض نسائه، فلما بصر به أشار إليه بالاقتراب، وطرح عليه طرف المرط الذي كان يصلي فيه؛ ليقيه عادية البرد، ثم أتم صلاته وهو فيه، حتى إذا تحلل من صلاته أخبره بالذي كان.

فيروى أنه أبقاه مشتملًا بها حتى أصبح، فناداه الرسول ﷺ مداعبًا قائلًا: «قُمْ يَا نَوْمَانُ».
[مسلم في الجهاد والسير (١٧٨٨)].

أرأيت إلى لطف هذا النبي العظيم ﷺ وترفقه بأصحابه؟ إن صلاة الليل، وحلاوة المناجاة، لم تمنعه من التلطف بهذا الشاب الكشاف، الذي جاء بأحسن الأنباء، وأصدق الأخبار، وأهمها، فشمله بكسائه الذي يصلي فيه، ليدفئه، وتركه ملفوفًا به حتى أتم صلاته، بل حتى بعد أن أفضى إليه بالمهمة، وأشرق الصبح الجميل؛ فلما وجبت المكتوبة أيقظه بلطف وخفة ودعابة، قائلًا: هيا يا نومان، دعابة تَقْطُرُ حلاوةً، وتَفِيضُ بالحنان، وتسيل رقة.

إنها صورة نموذجية للرأفة والرحمة، اللتين تحلى بها فؤاد الرسول ﷺ وتطبيق فريد رفيع لهما في أصحابه الكرام، وصدق الله العظيم في قوله: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة].

إنها درس كبير للمعلمين الذين يتصدرون لتعليم الناس العامة منهم والخاصة، في الجامع والجامعة، في المعهد والمدرسة، يرشدهم إلى التحلي بالرأفة والحلم، في مجالس العلم؛ لينمو الغرس، ويثمر الدرس، ويُؤْتِي التعليمُ أُكُلَه». [صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة لفيض الله ٢٤٦-٢٤٧].

٤١ ـ اختيار الرجل المناسب في المكان المناسب:

يقول د/ زين السيد: «إن تصرف القيادة الرشيدة لا يظهر في شيء قدر ما يظهر في معرفة الرجال وسبر أغوارهم ووضع كل شيء في محله، ولقد كان رسول الله ﷺ الأسوة العليا للبشر وخير من يعرف أن لكل مقام مقالًا ولكل موقف رجالًا، ولقد كان رسول الله ﷺ أكثر الخلق فراسة في اختيار الرجل المناسب للمقام المناسب، والإنسان هو الكائن الحي الوحيد الذي لابد أن يتعرض للصراع النفسي، وثقة الناس بالقائد الرسول ﷺ كانت متناهية في جميع الأحوال، وأراد النبي ﷺ أن يتعرف على أخبار القوم والأمر خطير جدًّا ولا يقوم به إلا من يبيع نفسه لله تعالى، وكان اختيار الرسول ﷺ لحذيفة بن اليمان رضي الله عنه عن علم ويقين بما يفعل، وحدَّث بعد ذلك بما رأى في تلك الليلة.

لقد اختار الرسول ﷺ الرجل المناسب للمقام المناسب، وكان بحق أهلًا لهذا الاختيار، ويظهر ذلك واضحًا أثناء تأديته لمهمته.

الموقف الأول: حين قال أبو سفيان: يا معشر قريش لينظر امرؤ مَنْ جليسه، فكان حذيفة أول من أجاب لهذا النداء، وسأل من بجواره؛ لأنه بذكائه، وقوه حفيظته علم أنه لو لم يسأل من بجانبه لَبُدئ هو بالسؤال عن اسمه، فإن صدق علم أمره، وإن احتال للأمر وذكر اسمًا غير اسمه، وهذا كذب، والكذب جائز في هذا الموقف فلربما لا يكن لهذا الاسم الذي ذكر وجود في القوم فيقع ما لا تحمد عقباه، ومن هنا كان مسارعًا في سؤال من بجواره للخروج من هذا المأزق الحرج.

وأما الموقف الثاني: فحين قال له الرسول ﷺ: «وَلَا تُحْدِثَنَّ شَيْئًا حَتَّى تَأْتِيَنَا» وكان في إمكان حذيفة ﷺ أن يقتل أبا سفيان بسهم، ولكنه لم يفعل ذلك حرصًا على تنفيذ أمر الرسول ﷺ له ألا يحدث شيئًا حتى يرجع، وهو يعلم يقينًا أن الرسول ﷺ لا ينطق عن الهوى، لقد سبق في علم الله تعالى أن أبا سفيان سيكون من المؤمنين وتحقق ذلك في فتح مكة، وتنفيذًا لمراد الله تعالى، كان الأمر من رسول الله ﷺ لحذيفة ﷺ ألا يحدثن في معسكر العدو شيئًا؛ لذا امتنع حذيفة ﷺ من إطلاق السهم إلى أبي سفيان ليتحقق المراد الإلهي، وهناك غير أبي سفيان من كان مع الأحزاب من أسلم بعد وحسن إسلامه؛ ولذا ظل حتى سعد بالإسلام.

نعم إنه الأسلوب التربوي الصحيح من الرسول القائد ﷺ علم بثاقب فكره ميزة كل منهم فوضعه في مكانه اللائق به لتحقيق التوازن نحو أهداف عليا لا يمكن بأي حال من أن يصل إليها فكر البشر العادي». [دور الحرب النفسية في غزوتي أُحد والأحزاب للسيد ١٧١-١٧٣].

٤٢ ـ حرص الأفراد على الجهاد والشوق للشهادة:

يقول د/ الحميدي: «في خبر إصابة سعد بن معاذ ﷺ يظهر لنا مثل من رغبة الصحابة ﷺ الشديدة في الجهاد في سبيل الله تعالى، وشوقهم البالغ للشهادة، ويتبين لنا من دعاء سعد بن معاذ ﷺ أنه كان يعيش تلك الساعات التي تَلَت إصابته بين أملين كبيرين، أحدهما جهاد القوم الذين آذوا رسول الله ﷺ وأخرجوه وحاربوه، والآخر أن تحصل له الشهادة من جُرحه ذلك، فربما لا يُصاب بعد ذلك فلا تحصل له الشهادة.

إن هذه الأماني السامية والأهداف العالية تُظهر لنا تفوق الصحابة ﷺ في الإيمان الراسخ والعلم بالآخرة علم اليقين الذي يكاد أن يشبه علم المشاهدة.

وقد استجاب الله تعالى دعاء سعد الثاني، فنال الشهادة من جرحه ذلك بعدما أقر عينه من بني قريظة كما سيأتي، ولم يُبْقه تعالى لحرب قريش؛ لأنه في علمه سبحانه أن الحرب بين المسلمين وقريش قد انتهت».

[التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ١٣٩].

إن الجهاد الحق هو الذي يكون في سبيل الله، وإعلاء كلمة الحق، وليس لمغنم من مغانم الدنيا أو لطلب سمعة أو رياسة أو جاه أو سلطان، وهذا ما تدل عليه عبارة سعد ﷺ **(فأجاهدهم فيك)**».

[غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٦٦].

٤٣ ـ مكانة سعد ﷺ العالية في قلب رسول الله ﷺ:

يقول د/ أبو فارس: «لقد كان رسول الله ﷺ يحب سعد بن معاذ ﷺ حبًّا شديدًا، وقد كان يقربه إليه، فقد كان يحرس عريش رسول الله ﷺ في بدر، وكان صاحب رأي وحكمة يأخذ الرسول ﷺ برأيه، فلم يعجبه أن ينشغل المسلمون في بدر في أخذ الأسرى، بل كان يرى الإثخان في القتل، وفي هذه الغزوة يأمر

الرسول ﷺ بأن تُضرب خيمة في المسجد لسعد ﷺ حتى يكون قريبًا من رسول الله ﷺ، فيزوره الرسول ﷺ ويعوده دبر كل صلاة، ألا يدل هذا على حب رسول الله ﷺ لسعد ﷺ.

إن سعدًا ﷺ كان يصر على حرب قريش، ويسأل الله ﷻ أن يبقيه لحربها إن بقيت حرب بينهم ليس لأنه بين الأوس وهو زعيمهم وبين قريش ثارات وذحول وأحقاد ويريد أن ينتقم لنفسه أو لعشيرته، إنما لأن قريشًا طردت رسول الله ﷺ وكذبته». [غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٦٦].

ويقول د/ أبو فارس: «حب رسول الله ﷺ له وعنايته به، وحرصه على أن يكون قريبًا منه دليل على منزلة سعد بن معاذ ﷺ عند رسول الله ﷺ، ومكانته ﷺ في نفس رسول الله ﷺ، وهذه الأمور كلها شهادات تزكية من رسول الله ﷺ لسعد بن معاذ ﷺ، وإذا كان المرء يحشر مع من أحب يوم القيامة، فإن سعد بن معاذ ﷺ يحب رسول الله ﷺ، ورسول الله ﷺ يحب سعد بن معاذ ﷺ.

ونحن نحب رسول الله ﷺ ونرجو من الله أن يحشرنا في زمرة نبينا محمد ﷺ، مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء، وحسن أولئك رفيقًا». [الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢/ ١٢٦].

٤٤ ـ أهمية تمتع الأفراد بقوة الإيمان وثبات العزائم:

يقول الشيخ عرجون: «وقد تجلت في غزوة الأحزاب قوة الإيمان وثبات العزائم في مواقف أصحاب رسول الله ﷺ، وتحملهم قسوة الحوادث، وصبرهم على شدة الجوع والبرد، ودأبهم على العمل الشاق، وتيقظهم لحركات أعدائهم ومواجهة هذه الحركات بما يوائمها من ثبات الإيمان وإخلاص اليقين، متخذين من مواقف رسول الله ﷺ أسوة يتأسون بها، حتى كان لهم من ذلك دروس عملية في تربية المجتمع المسلم ليتخذها نبراسًا في كل جيل من أجياله المتعاقبة، ولتعلم هذه الأجيال القادمة أن طلائع الإسلام أقامت شوامخ صروح هذا الدين على دعائم المحن والكفاح المناضل وصرامة العزائم ووزن الدنيا في واقعها بميزانها الحقيقي، فلا يركنون إليها ولا إلى أهلها؛ لأنها سريعة التقضي والزوال، ووزن الآخرة بميزانها الإلهي في خلودها وثوابها وعقابها، وما أعد فيها للصابرين على البلايا في سبيل إعلاء كلمة الله، ليجعلوا من هذا الصبر قوة تقف في وجه الباطل والشر والفساد، فتهون عليهم أنفسهم في سبيل إقامة معالم الحق، ونشر رسالته في آفاق الأرض، إنقاذًا للبشرية من أوضار الشرك ورجس الوثنية، وضلال العقول والأفكار التي تنبت على أرض الإلحاد والتزندق والانحراف بالفطرة الأصيلة عن سننها من الصفاء والنقاء، حتى ترتد بهذا الانحراف على أعقابها لتعيش على مواريث الجاهلية وتراثها المرذول المترسب في حنايا تفكيرها التقليدي الذي لا يقيم وزنًا للحق والعدل، ولكنه عاش ويعيش محكومًا بالتعبد للمادة المظلمة الظالمة التي لا يعنيها من الحياة إلا تحقيق رغائب الشهوات مدفوعة إليها ببطون كظيظة، وأبدان مترهّلة، وأفكار مهلهلة وعقول مستعبدة». [محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ١٦٩-١٧٠].

٤٥ ـ القصور الاجتماعي والديني عند العرب المشركين:

يقول أ/ وجدي: «إن قريشًا وسائر العرب كانوا بسبب ما هم عليه من القصور الاجتماعي والديني قليلي الاكتراث لما يحدث بعيدًا عنهم من التطورات لطائفة أخرى، حتى ما كان منه عائدًا بالضرر على معاشهم، وهذا الضعف في الشعور نتج من حالة التفكك التي كانوا عليها، والمجتمع كالفرد إن يتم تألفه، ويكمل تشكله، لا تظهر فيه خصائص الاجتماع ولا حوافظه، ولولا أن رجالًا من اليهود انتدبوا لإهاجة قريش وبعض القبائل المحالفة لهم على الغارة على المسلمين، لما فعلوا، ولما كانوا دُفعوا إليها دفعًا بإغراء غيرهم، فإن ما حدث من ثورة الريح في تلك المنطقة كان كافيًا في إرجاعهم عن قصدهم، نعم إن العواصف التي ثارت في سنة ١٥٨٨م على أسطول فيليب الثاني ملك إسبانيا، أمام شواطئ إنجلترا، كفت هذه المملكة شره، وكان أقوى أسطول في العالم، وقد دُعي (أرمادا)، ومعناها الذي لا يُقهر، ولكن كان لخيبته سبب مادي، وهو أن تلك العواصف حطمت أكثره على صخور الجزر البريطانية فلم يعد يصلح لعمل، فعاد ما سلم منه على أسوأ حال.

ولكن الريح الباردة التي ثارت على الجيوش المتحالفة لم تُحدث من الخسائر المادية ما يقتضي أن يُرجعها أدراجها، وقد دل الكتاب الكريم على ذلك بقوله: ﴿وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [الأحزاب: ٩]، وهذه الجنود هي العوامل الروحانية التي نفثت الرعب في قلوبهم، وسولت لهم النكوص على أعقابهم، فلو كانت تلك الريح تكفي وحدها في خَذْلهم لما عززها الله بهذه العوامل.

والذي يدل على أن العرب كانوا في قصور بعيد المدى من الناحيتين الاجتماعية والدينية، أن بني غطفان قَبِلوا أن يأخذوا ثلث تمر المدينة ثمنًا لخيانة حلفائهم، مستهينين بالغرض الكبير الذي دعا إلى تآلفهم، وليس هذا بعجيب في حياة القبائل». [السيرة المحمدية لوجدي ٢٢٠-٢٢١].

٤٦ ـ المرأة المسلمة في المعركة:

يقول الشيخ المسند: «للمرأة المسلمة دور كبير في الحرب تحضر فيه طعامهم وشرابهم وتضمد الجرحى منهم، وتجمع عليهم الشارد من أسلحتهم الخفيفة وتناولهم بعضها وهي في سترها واحترامها... وقد شهدت النساء مواقع حربية مع المسلمين أما في هذه المعركة فقد عملن كثيرًا واختلف ترتيب موقعهن إذ قسمن إلى قسمين:

الأول: النشط الذي يساعد بنقل الماء وسقى العاملين في الخندق والتحضير للمحاربين.

الثاني: المعذورات وكبيرات السن والأطفال فلم يتركن هذه المرة في بيوتهن بل وزعن إلى فرقتين: الأولى تقف في سطوح المنازل معها الحجارة تستعد لرمي أي مار من الأعداء، ومعها بعض الصبيان، والثانية جُمعت في مكان كبير وجعل عليها حارسات من النساء؛ وذلك لأن العدو هذه المرة قد يخرج من

بيوت المدينة من المنافقين أو اليهود، وفعلًا حدث ما توقع المسلمون فإن يهوديًا دار حول الحصن الذي فيه الفرقة ويسمى (حصن فارع) فخافت النساء فقامت إليه (صفية بنت عبد المطلب) ومعها عمود فلطمته به من قفاه فأردته قتيلًا، ثم سحبته مع نسوة معها إلى مكان بعيد عن الحصن.

وهكذا يكون دور المرأة المسلمة نافعًا ومتخصصًا يُبقي لها احترامها وحياءها وعفتها وهو لا يمنعها من المشاركة فيما ينفع المسلمين، ويوم كانت المرأة مدركة لواجبها ووظيفتها وحدود اختصاصها كانت أكثر نفعًا وأعظم سعادة وأهنأ بالًا.. أما اليوم فقد حاول بعض الرجال إقلاقها والتشويش عليها وصرفها عن الأفضل إلى الارتباك والحيرة وخوض ميادين تتعبها ولا تنفعها ولا تنفع المسلمين ...».

[متى ينتصر المسلمون؟ للمسند ٧٢-٧٣].

ويقول د/ أبو خليل: «وكان للمرأة العربية المسلمة دورها الطيب الفعال في غزوة الخندق، لقد حملت تربية عالية، وخلقًا رفيعًا، وطهرًا وعفافًا، وخاضت أحداث الخندق بهذه الصفات بكل جدارة وفعالية:

(١) **المرأة المسلمة الممرضة: رفيدة الأنصارية**(وقيل رفيدة الأسلمية، أي أنصارية من أسلم): وكان رسول الله ﷺ حين أصاب سعدًا ﷺ السهم بالخندق، قال لقومه: «**اجْعَلُوهُ فِي خَيْمَةِ رُفَيْدَةَ حَتَّى أَعُودَهُ مِنْ قَرِيبٍ**»، وكانت خيمة رفيدة في مسجده ﷺ، حيث داوت رفيدة الجرحى، محتسبة نفسها على خدمة جرحى المسلمين، وكان رسول الله ﷺ يمر بسعد ﷺ وهو في خيمة رفيدة فيقول: «**كيف أمسيت؟ وكيف أصبحت؟**»، فيخبره.

(٢) **المرأة المسلمة المقاتلة**: صفية بنت عبد المطلب التي أحبطت تطويقًا مخططًا له، وقصمت ظهر بني قريظة عندما قتلت العين المرسل لاستطلاع الآطام التي حلت بها النساء المسلمات وأولادهن، وكما مر معنا، أيقنت بنو قريظة عندها أن المسلمين قد خصصوا جزءًا من قواتهم لحماية الظعن والمؤخرة، فعدلوا عن القيام بأي عمل حربي في مؤخرة الجيش الإسلامي، فقمعوا في حصونهم لا يفكرون بالخروج خوفًا ورعبًا وتحسبًا.

(٣) **المرأة المسلمة مُطْعمة الجند**: كما قدمت المرأة المسلمة الطعام للمجاهدين وهي على يقين أن ما تقوم به واجب عليها تبتغي منه الأجر والثواب، والعون لجند الله:

- ابنة بشير بن سعد أخت النعمان بن بشير، جاءت بما تملك من التمر.
- زوجة جابر بن عبد الله ﷺ، صنعت الطعام لرسول الله ﷺ، فأكل منه جند الخندق كلهم.
- أم عامر الأشهلية صنعت حيسًا أكل منه رسول الله ﷺ، ثم أكل منه أهل الخندق عن آخرهم».

[غزوة الخندق لأبي خليل ١٥٦-١٥٨].

كما يظهر دور المرأة المسلمة في مشاركة المسلمين في جهادهم، فعندما اشتغل المسلمون بحفر الخندق تركوا أعمالهم، وبعدت عنهم أرزاقهم، وقل عنهم القوت، وأصاب الناس جوع وحرمان حتى كان

رسول الله ﷺ والمسلمون معه يشدون على بطونهم الحجارة من شدة الجوع، فكانت المرأة المسلمة تعين المسلمين بإعداد ما قدرت عليه من الطعام. [السيرة النبوية للصلابي ٢/ ٢٨٢ نقلًا عن: المرأة في العهد النبوي - د/ عصمة الدين كركر - دار الغرب الإسلامي - بيروت ١٩٩٣م - ص ١٧٥].

٤٧ - تصويب الخبر عن جبن حسان ﷺ:

يقول د/ أبو فارس: «تذكر بعض كتب السيرة كالسيرة النبوية لابن هشام أن حسان بن ثابت ﷺ جَبُنَ عن المشاركة في غزوة الأحزاب، وأنه كان ينام مع النساء والصبيان في الآطام، بل لم يجرؤ على ملاقاة يهودي قد اقترب من الحصن الذي يأوي إليه صبيان المسلمين ونساؤهم، وقد استغاثت صفية بنت عبد المطلب به فخاف ولم يخرج، فقامت صفية إلى اليهودي فقتلته.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَحَدَّثَنِي يَحْيَى بْنُ عَبَّادِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ الزُّبَيْرِ، عَنْ أَبِيهِ عَبَّادٍ قَالَ: كَانَتْ صَفِيَّةُ بِنْتُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فِي فَارِعٍ، حِصْنِ حَسَّانَ بْنِ ثَابِتٍ؛ قَالَتْ: وَكَانَ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ ﷺ مَعَنَا فِيهِ مَعَ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ، قَالَتْ صَفِيَّةُ: فَمَرَّ بِنَا رَجُلٌ مِنْ يَهُودَ، فَجَعَلَ يُطِيفُ بِالْحِصْنِ، وَقَدْ حَارَبَتْ بَنُو قُرَيْظَةَ، وَقَطَعَتْ مَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَلَيْسَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ أَحَدٌ يَدْفَعُ عَنَّا، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ وَالْمُسْلِمُونَ فِي نُحُورِ عَدُوِّهِمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَنْصَرِفُوا عَنْهُمْ إِلَيْنَا إِنْ أَتَانَا آتٍ، قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا حَسَّانُ! إِنَّ هَذَا الْيَهُودِيَّ كَمَا تَرَى يُطِيفُ بِالْحِصْنِ، وَإِنِّي وَاللهِ مَا آمَنُهُ أَنْ يَدُلَّ عَلَى عَوْرَتِنَا مَنْ وَرَاءَنَا مِنْ يَهُودَ، وَقَدْ شُغِلَ عَنَّا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ، فَانْزِلْ إِلَيْهِ فَاقْتُلْهُ، قَالَ: يَغْفِرُ اللهُ لَكِ يَا ابْنَةَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَاللهِ لَقَدْ عَرَفْتِ مَا أَنَا بِصَاحِبِ هَذَا، قَالَتْ: فَلَمَّا قَالَ لِي ذَلِكَ، وَلَمْ أَرَ عِنْدَهُ شَيْئًا، احْتَجَزْتُ، ثُمَّ أَخَذْتُ عَمُودًا، ثُمَّ نَزَلْتُ مِنَ الْحِصْنِ إِلَيْهِ فَضَرَبْته بِالْعَمُودِ حَتَّى قَتَلْتُهُ، قَالَتْ: فَلَمَّا فَرَغْتُ مِنْهُ رَجَعْتُ إِلَى الْحِصْنِ، فَقُلْتُ: يَا حَسَّانُ، انْزِلْ إِلَيْهِ فَاسْلُبْهُ، فَإِنَّهُ لَمْ يَمْنَعْنِي مِنْ سَلَبِهِ إِلَّا أَنَّهُ رَجُلٌ، قَالَ: مَا لِي بِسَلَبِهِ مِنْ حَاجَةٍ يَا ابْنَةَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ.

[السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٢٨].

وهذا لا يصح لأمرين:

الأول: من حيث الإسناد: فالخبر ليس مسندًا، وقد علَّمنا علماؤنا الأوائل في المنهاج العلمي الذي اتبعوه في الأخبار أنه لا يؤخذ بالخبر إلا إذا كان له إسناد، ولا يؤخذ المسند إلا إذا كان إسناده صحيحًا.

وهذا الخبر ليس مسندًا إسنادًا صحيحًا، ومن ثم فهو ساقط لا يصح ولا يجوز أن يروى فيُساء إلى صحابي من صحابة رسول الله ﷺ، وشاعر كان ينافح عن الدعوة الإسلامية وعن رسول الله ﷺ عمره كله.

الثاني: لو كان حسان بن ثابت ﷺ معروفًا بالجبن الذي ذُكر عنه، لهجاه أعداؤه ومبغضوه بهذه الخصلة الذميمة، لا سيما الذين كان يهاجيهم، فلم يسلم من هجائه أحد من زعماء الجاهلية.

[ينظر: الروض الأنف للسهيلي ٣/ ٢٨، والدرر في اختصار المغازي والسير لابن عبد البر ١٨٦].

والرسول ﷺ كان يؤيده ويدعو له، ويشجعه على هجاء زعماء المشركين».

[غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٩٧-١٩٨].

وقد جاء هذا الخبر مسندًا عَنِ الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، خَرَجَ إِلَى الْخَنْدَقِ فَجَعَلَ نِسَاءَهُ وَعَمَّتَهُ صَفِيَّةَ بِنْتَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فِي أُطُمٍ يُقَالُ لَهُ فَارِعٌ وَجَعَلَ مَعَهُمْ حَسَّانَ بْنَ ثَابِتٍ ﷺ، وَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى الْخَنْدَقِ، فَيَرْقَى يَهُودِيٌّ حَتَّى أَشْرَفَ عَلَى نِسَاءِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَعَلَى عَمَّتِهِ، فَقَالَتْ صَفِيَّةُ: **يَا حَسَّانُ قُمْ إِلَيْهِ حَتَّى تَقْتُلَهُ**، قَالَ: **لا وَاللهِ، مَا ذَاكَ فِيَّ، وَلَوْ كَانَ ذَاكَ فِيَّ لَخَرَجْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ**، قَالَتْ صَفِيَّةُ: **فَارْبُطِ السَّيْفَ عَلَى ذِرَاعِي**، قَالَ: ثُمَّ تَقَدَّمَتْ إِلَيْهِ حَتَّى قَتَلَتْهُ وَقَطَعَتْ رَأْسَهُ، فَقَالَتْ لَهُ: **خُذِ الرَّأْسَ فَارْمِ بِهِ عَلَى الْيَهُودِ**، قَالَ: مَا ذَاكَ فِيَّ، فَأَخَذَتْ هِيَ الرَّأْسَ فَرَمَتْ بِهِ عَلَى الْيَهُودِ، فَقَالَتِ الْيَهُودُ: **قَدْ عَلِمْنَا أَنَّ مُحَمَّدًا لَمْ يَكُنْ يَتْرُكُ أَهْلَهُ خُلُوفًا، لَيْسَ مَعَهُمْ أَحَدٌ**، فَتَفَرَّقُوا وَذَهَبُوا.

قَالَتْ عَائِشَةُ: فَمَرَّ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ ﷺ، وَهُوَ يَقُولُ:

مَهْلا قَلِيلا يُدْرِكُ الْهَيْجَا حَمَلْ لا بَأْسَ بِالْمَوْتِ إِذَا حَانَ الأَجَلْ

قَالَتْ: وَمَا رَأَيْتُ أَحَدًا كَانَ أَجْمَلَ مِنْهُ ذَلِكَ الْيَوْمَ، وَكَانَ عَلَيْهِ أَثَرُ صُفْرَةٍ، وَكَانَتْ عَلَيْهِ دِرْعٌ مُقَلَّصَةٌ، وَقَدْ تَزَوَّجَ فَبَنَى بِأَهْلِهِ قَبْلَ ذَلِكَ بِأَيَّامٍ، فَعَلَيْهِ أَثَرُ زَعْفَرَانَ.

قَالَ: وَكَانَ حَسَّانُ ﷺ إِذَا شَدَّ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الْكُفَّارِ يَفْتَحُ الأُطُمَ، وَإِذَا كَرُّوا رَجَعَ مَعَهُمْ.

[مجمع الزوائد ٦/ ١٩٣-١٩٤ في المغازي والسير (١٠١٤٥)، وقال الهيثمي: رواه البزار [مسند البزار ٣/ ١٩١ رقم ٩٧٨ وفيه «أُحُد»] وأبو يعلى باختصار وقال: فأخبر بذلك رسول الله ﷺ فضرب لصفية بسهم كما كان يضرب للرجال، وإسنادهما ضعيف، وقد تقدم الحديث من رواية صفية في وقعة أحد. إتحاف الخيرة المهرة للبوصيري ٥/ ٢٣٢ في سيرة سيدنا رسول الله ﷺ (٤٥٨٨)، وقال محققه: قال في المختصر (٧/ ٢٩-٣٠ رقم ٥٢٣٨): رواه البزار، وإسناده حسن].

وعَنْ هِشَامِ بن عُرْوَةَ، عَنْ أَبِيهِ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَدْخَلَ النِّسَاءَ يَوْمَ الأَحْزَابِ أُطُمًا مِنْ آطَامِ الْمَدِينَةِ، وَكَانَ حَسَّانُ بن ثَابِتٍ ﷺ رَجُلا جَبَانًا، فَأَدْخَلَهُ مَعَ النِّسَاءِ، وَأَغْلَقَ الْبَابَ فَجَاءَ يَهُودِيٌّ، فَقَعَدَ عَلَى بَابِ الأُطُمِ، فَقَالَتْ صَفِيَّةُ بنتُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ: انْزِلْ يَا حَسَّانُ إِلَى هَذَا الْعِلْجِ فَاقْتُلْهُ، فَقَالَ: مَا كُنْتُ لأَجْعَلَ نَفْسِي خَطَرًا لِهَذَا الْعِلْجِ، فَاتَّزَرْتُ بِكِسَاءٍ وَأَخَذْتُ فِهْرًا، فَنَزَلْتُ إِلَيْهِ فَقَطَعْتُ رَأْسَهُ.

[مجمع الزوائد ٦/ ١٩٤ في المغازي والسير (١٠١٤٦)، وقال الهيثمي: رواه الطبراني [المعجم الكبير ٢٤/ ٣١٩ رقم ٨٠٤] ورجاله إلى عروة رجال الصحيح ولكنه مرسل. وقال الشيخ العلي: الحديث ضعيف. صحيح السيرة ٢٧٦].

ولكنها أيضًا روايات ضعيفة.

وقال السهيلي: وَذَكَرَ حَدِيثَ حَسَّانَ ﷺ حِينَ جُعِلَ فِي الآطَامِ مَعَ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ وَمَا قَالَتْ لَهُ صَفِيَّةُ فِي أَمْرِ الْيَهُودِيِّ حِينَ قَتَلَتْهُ وَمَا قَالَ لَهَا، وَيَحْمِلُ هَذَا الْحَدِيثِ عِنْدَ النَّاسِ عَلَى أَنَّ حَسَّانَ كَانَ جَبَانًا شَدِيدَ الْجُبْنِ،

وَقَدْ دَفَعَ هَذَا بَعْضُ الْعُلَمَاءِ، وَأَنْكَرَهُ، وَذَلِكَ أَنَّهُ حَدِيثٌ مُنْقَطِعُ الإِسْنَادِ، وَقَالَ: لَوْ صَحَّ هَذَا لَهُجِيَ بِهِ حَسَّانُ، فَإِنَّهُ كَانَ يُهَاجِي الشُّعَرَاءَ كَضِرَارٍ وَابْنِ الزِّبَعْرَى، وَغَيْرِهِمَا، وَكَانَ يُنَاقِضُونَهُ وَيَرُدُّونَ عَلَيْهِ، فَمَا عَيَّرَهُ أَحَدٌ مِنْهُمْ بِجُبْنٍ، وَلَا وَسَمَهُ بِهِ، فَدَلَّ هَذَا عَلَى ضَعْفِ حَدِيثِ ابْنِ إِسْحَاقَ، وَإِنْ صَحَّ فَلَعَلَّ حَسَّانَ أَنْ يَكُونَ مُعْتَلًّا فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ بِعِلَّةٍ مِنْ شُهُودِ الْقِتَالِ، [وخاصة وأنه طاعن متقدم بالسن]، وَهَذَا أَوْلَى مَا تَأَوَّلَ عَلَيْهِ، وَمِمَّنْ أَنْكَرَ أَنْ يَكُونَ هَذَا صَحِيحًا أَبُو عُمَرَ رضي الله عنه فِي كِتَابِ الدُّرَرِ لَهُ. [الروض الأنف للسهيلي ٦/ ٣٢٤].

وروى ابن عساكر بسنده عن ابن الكلبي: أن حسان بن ثابت رضي الله عنه كان لسنًا شجاعًا، فأصابته علة أحدثت فيه الجبن، فكان بعد ذلك لا يقدر أن ينظر إلى قتال ولا يشهده. [تاريخ دمشق ١٢/ ٤٣٣].

وقال ابن سراج: إن سكون الشعراء عن تعييره بذلك من علامة نبوة رسول الله ﷺ، لكون حسان شاعره ﷺ. [سبل الهدى والرشاد للصالحي ٤/ ٥٦٤، وينظر للتفصيل: غزوتا الأحزاب وبني قريظة في ضوء الآيات القرآنية والروايات الحديثية للجبوري ١٥٦-١٥٩، والمسائل العقدية المستنبطة من غزوة الخندق لطيب ٢١٠-٢١٢].

٤٨ ـ أول مستشفى إسلامي حربي:

أنشأ المسلمون أول مستشفى إسلامي حربي في غزوة الأحزاب، فقد ضرب الرسول ﷺ خيمة في مسجده الشريف في المدينة، عندما دارت رحى غزوة الأحزاب، فأمر ﷺ أن تكون رفيدة الأسلمية الأنصارية رئيسة ذلك المستشفى النبوي الحربي، وبذلك أصبحت أول ممرضة عسكرية في الإسلام.

[ينظر: المستشفيات الإسلامية ـ د/ عبد الله السعيد ص ٤٣]. [السيرة النبوية للصلابي ٢/ ٢٨٦].

٤٩ ـ مَنْ به ضيعة من المسلمين:

«وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَدْ جَعَلَ سَعْدَ بْنَ مُعَاذٍ رضي الله عنه فِي خَيْمَةٍ لِامْرَأَةٍ مِنْ أَسْلَمَ (وقيل إنها أنصارية. ينظر: الإصابة وشرح المواهب)، يُقَالُ لَهَا: رُفَيْدَةُ، فِي مَسْجِدِهِ، كَانَتْ تُدَاوِي الْجَرْحَى، وَتَحْتَسِبُ بِنَفْسِهَا عَلَى خِدْمَةِ مَنْ كَانَتْ بِهِ ضَيْعَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَدْ قَالَ لِقَوْمِهِ حِينَ أَصَابَهُ السَّهْمُ بِالْخَنْدَقِ: «**اجْعَلُوهُ فِي خَيْمَةِ رُفَيْدَةَ حَتَّى أَعُودَهُ مِنْ قَرِيبٍ**»».

[السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٣٩، وأصل الحديث في الصحيحين (خ ٤١٢٢، م ١٧٦٩)].

يقول أ/ الشامي: «ويفهم من النص السابق أن من أُصيب من المسلمين، إن كان له أهل اعتنى به أهله، وإن لم يكن له أهل، جيء به إلى المسجد حيث ضُربت خيمة فيه لمن كانت به ضيعة من المسلمين.

وسعد بن معاذ الأوسي رضي الله عنه ليس به ضيعة، ولكن لما أراد الرسول ﷺ الاطمئنان عليه باستمرار، جعله في تلك الخيمة التي أُعدت لمن به ضيعة وليس له أهل؛ ذلك أن هؤلاء هم في رعاية رسول الله ﷺ، وإلا فلمَ ضُربت الخيمة في المسجد، وكان بالإمكان ضربها في أي مكان آخر؟

إن سعد بن معاذ ﷺ يكرم لمآثره وما بذله في سبيل الله تعالى، فيكون هذا التكريم أن يجعل في خيمة أعدت لمن به ضيعة، وهكذا حينما يرتفع السادة يجعلون مع المغمورين الذين أخلصوا أعمالهم لله تعالى فاستحقوا أن يكونوا في رعاية رسول الله ﷺ.

وهذا منهج نبوي كريم أصبح دستورًا للمسلمين على مدى الزمن.

وهذه تعاليم الإسلام يتنزل بها القرآن الكريم، وتؤكدها السنة واقعًا عمليًا ثم قولًا يكون منهجًا ودستورًا.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَا مِنْ مُؤْمِنٍ إِلَّا وَأَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِهِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، اقْرَؤُوا إِنْ شِئْتُمْ:** ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ﴾ [الأحزاب: ٦]، **فَأَيُّمَا مُؤْمِنٍ تَرَكَ مَالًا فَلْيَرِثْهُ عَصَبَتُهُ مَنْ كَانُوا، فَإِنْ تَرَكَ دَيْنًا أَوْ ضَيَاعًا فَلْيَأْتِنِي، فَأَنَا مَوْلَاهُ**». [البخاري في التفسير (٤٧٨١)].

وهكذا تلتقي هذه المعاني في سورة الأحزاب، التي كانت مقدمتها موضوع هذه الغزوة، فيكون المسلمون بين درس «الأسوة» وبين الرعاية النبوية قد عاشوا الحياة الإيمانية التي تنزلت الآيات بتسجيلها؛ لتكون منهجًا للمسلمين مدى الزمن». [من معين السيرة للشامي ٣١٨-٣١٩].

٥٠ ـ الأثر الاقتصادي في المعركة:

يقول أ/ الشامي: «لا شك أن الجانب الاقتصادي له الأثر الكبير في المعركة، أي معركة، وكثيرًا ما كان عاملًا مهمًّا في النصر، أو الفشل والهزيمة.

وإن غزوة الخندق فُرضت على المسلمين من وقت شدة، ولم يكن لهم إمكانية في تغيير موعدها، وكان عليهم أن يواجهوا الموقف بكل ما فيه من أوضاع لم تكن في صالحهم، وكلها كانت كذلك:

(أ) فالغذاء: لم يكن متوفرًا، ولعل حديث جابر ﷺ المتقدم، يعطينا الصورة التي كان عليها المسلمون من الجوع، ونضيف إليه ما رواه البخاري عن أنس ﷺ قال ـ وهو يبين طعام الناس يومئذ: «**يُؤْتَوْنَ بِمِلْءِ كَفِّي مِنَ الشَّعِيرِ فَيُصْنَعُ لَهُمْ بِإِهَالَةٍ سَنِخَةٍ تُوضَعُ بَيْنَ يَدَيِ الْقَوْمِ، وَالْقَوْمُ جِيَاعٌ، وَهِيَ بَشِعَةٌ فِي الحَلقِ، وَلَهَا رِيحٌ مُنْتِنٌ**».

إنه غذاء غير مناسب في كميته، وغير مناسب في طعمه، وكذا في رائحته.

(ب) اللباس: ولم يكن وضعهم، من حيث اللباس، أحسن حالًا من الطعام، فقد كانوا في قلة منه، حتى كان الكثير منهم يلبس الواحد منهم ثوب امرأته، قال حذيفة ﷺ يصف نفسه حينما أمره ﷺ أن يأتي بخبر القوم:... وَمَا عَلَيَّ جُنَّةٌ (أي ما يقيني من العدو والبرد) مِنَ العَدُوِّ، وَلَا مِنَ البَرْدِ، إِلَّا مِرْطٌ لِامْرَأَتِي مَا يُجَاوِزُ رُكْبَتَيَّ. [البداية ٤/ ١١٤ من رواية الحاكم والبيهقي، والمرط: الكساء].

بل إن رسول الله ﷺ نفسه كان كذلك، ففي حديث حذيفة ﷺ المتقدم:.. ثُمَّ رَجَعْتُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي مِرْطٍ لِبَعْضِ نِسَائِهِ مَرَاجِلَ [قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: المَرَاجِلُ ضَرْبٌ مِنْ وَشْيِ اليَمَنِ]، فَلَمَّا رَآنِي أَدْخَلَنِي إِلَى رَحْلِهِ [رِجْلَيْهِ] وَطَرَحَ عَلَيَّ طَرَفَ المِرْطِ ...

وهكذا كان وضع أكثر المسلمين.

(ج) **العتاد:** والأمر الثالث: السلاح والعتاد وهو عامل أساسي في أي معركة، ولم يكن وضعه ووجوده لدى المسلمين إلا كما هي الحال في الطعام واللباس، ولنأخذ على سبيل المثال: سيد الأوس سعد بن معاذ ﷺ، ونترك الكلام لعائشة أم المؤمنين ﷺ وكانت يوم الخندق فِي حِصْنِ بَنِي حَارِثَةَ يَوْمَ الخَنْدَقِ، وَكَانَ مِنْ أَحْرَزِ حُصُونِ المَدِينَةِ، وَكَانَتْ أُمُّ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ ﷺ مَعَهَا فِي الحِصْنِ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ ﷺ: وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يُضْرَبَ عَلَيْنَا الحِجَابُ، فَمَرَّ سَعْدٌ وَعَلَيْهِ دِرْعٌ لَهُ مُقَلَّصَةٌ (قصيرة)، قَدْ خَرَجَتْ مِنْهَا ذِرَاعُهُ كُلُّهَا... قَالَتْ عَائِشَةُ: فَقُلْتُ لَهَا: يَا أُمَّ سَعْدٍ وَاللهِ لَوَدِدْتُ أَنَّ دِرْعَ سَعْدٍ كَانَتْ أَسْبَغَ (أكمل وأطول) مِمَّا هِيَ، قَالَتْ: وَخِفْتُ عَلَيْهِ حَيْثُ أَصَابَ السَّهْمُ مِنْهُ، فَرُمِيَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ بِسَهْمٍ فَقَطَعَ مِنْهُ الأَكْحَلَ.

وصبر المسلمون على هذا كله، وواجهوا به قوة هي أضعافهم، وثبتوا وانتصروا، وذلك بفضل الإيمان الذي وقر في صدورهم.

وأثبت المسلمون في الميدان العملي في هذه المعركة أن العامل الاقتصادي ليس هو كل شيء، وأن هناك من العوامل الأخرى، ما يغطي النقص في هذا الجانب حال وجوده، إن وجود الرسول ﷺ مع أصحابه في كل شيء، يتحمل معهم ما يتحمله كل فرد منهم، من جوع وبرد ونقص في الثياب والعتاد.. خفف عنهم الكثير، وأكد في نفوسهم إمكانية الصبر، كيف لا وهو الأسوة لهم، أفلا يصبرون كما يصبر؟ ويتحملون كما يتحمل؟

إنه ليس من قبيل المصادفات أن يرد قوله تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ [الأحزاب: ٢١] ضمن الآيات التي وردت في سورة الأحزاب، والتي نزلت بمناسبة هذه الغزوة، فهي تلفت النظر إلى الأسوة فيه بالصبر على المشاق وتحمل المآسي وهذا لا يمنع عموم الآية، ولكنه يوجه إلى جانب مهم في فهم الآية الكريمة.

وبهذا تجاوز المسلمون الأزمة الاقتصادية في هذه المعركة كما تجاوزوها في غيرها، فأثبتوا فعالية البديل منها عند الضرورة». [من معين السيرة للشامي ٣١٣-٣١٥].

٥١ ـ حرص القيادة على هداية الأعداء:

يقول د/ الغضبان: «لقد فقد أبو سفيان ـ القائد البطل المحنك ـ أعصابه في اللحظات الأخيرة، وتصرَّف في توتر ظاهر حين ركب جمله وهو معقول، فما أطلقه إلا بعد أن قام، ولولا مواجهة عكرمة له لكان انسحابًا فوضويًّا لا يليق بالقادة الكبار أمثاله.

وعاد فسيطر على الموقف، وكتب رسالة لرسول الله ﷺ، أودعها كل ما عنده من دهاء وعبقرية، ولكنها مع ذلك لم تُخف أبدًا وضعه النفسي المتزلزل.

ورغم الحرب النفسية التي حاول أبو سفيان أن يشنها على رسول الله ﷺ بالتهديد بالعودة ثانية، وإيقاع مجزرة كمجزرة أُحُد، ومحاولة النَّيل من المسلمين في خوفهم من المواجهة، لكن من الواضح في الرسالة كذلك، أن الحسرة تنهش قلبه لعجزه عن تحقيق شيء من أهدافه، ومن جهة ثانية اعترافه غير المباشر بعظمة الخطة النبوية في الخندق، والتي أجهضت الهجوم الشرس من الأحزاب على المدينة.

ويأتي جواب سيد القادة محمد ﷺ بحيث يسد الأفق أمام خصمه أبي سفيان.

ولا نبالغ إذا قلنا: إن هذه الرسالة هي أول الدفقات الإيمانية في قلب أبي سفيان فهي رسالة إلى كيانه كله، وليست رسالة تحد وإذلال، ففي الوقت الذي يكشف فيه أبو سفيان عن خبيئة نفسه وأنه ما جاء إلا مستأصلًا قاصدًا إفناء محمد وصحبه، كان الرد النبوي العظيم أنه سيستأصل الشرك من عند أبي سفيان ولا يستأصله هو، «**وليأتين عليك يوم أكسر فيه اللات والعزى وإساف ونائلة وهبل، حتى أذكرك ذلك**» فهو نصر العقيدة وليس نصر الزعامة والجبروت والقوة، وأبو سفيان غير مستأصل، فرسول الله ﷺ يذكِّره بذلك، ومن بديع عظمة الله أن يمر الزمن، ويكون أبو سفيان هو رسول محمد ﷺ إلى كسر اللات في الطائف مع المغيرة بن شعبة رضي الله عنهما.

وفي الوقت الذي يصر فيه أبو سفيان على التهديد، بيوم كيوم أحد تبقر فيه النساء، ويصر فيه على الذبح، والقتل، والسحل، يتحدث سيد الخلق ﷺ عن دخوله مكة فاتحًا، لا ذابحًا، وأبو سفيان يدافعه بالأيدي والأكف؛ لأنه عاجز عن استعمال سلاحه، وجبروته، وقوته، دون تهديد بقتله، وذبحه وسحله.

وفي الوقت الذي يتأجج أبو سفيان غضبًا لنفسه وقومه وعشيرته يرتفع به ﷺ هازًّا أوتار قلبه، ومزلزلًا كيانه؛ ليتنبه إلى جبار السماوات والأرض خالق الخلق، ومالك الملك، فلم يحدثه ﷺ عن عبقريته الفذة في الخندق، أو عبقرية سلمان الفارسي رضي الله عنه الذي انضم إليه، أو عظمة جنده الذين نفذوا الخندق بهذه السرعة العجيبة المذهلة، وكلها أمور تستأهل الذكر، وتستأهل الفخر، لكن الأهم عند سيد القادة والدعاة في الوجود ﷺ أن يدخل أبو سفيان في الإسلام فقال له: «**وَأَمَّا قَوْلُكَ: مَنْ عَلَّمَكَ الَّذِي صَنَعْنَا مِنَ الخَنْدَقِ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى أَلْهَمَنِي ذَلِكَ لِمَا أَرَادَ مِنْ غَيْظِكَ بِهِ وَغَيْظِ أَصْحَابِكَ**» فهو نصر رباني خالص من الله تعالى الذي يدفع الضر ويجيب المضطر.

وفي الوتيرة العالية نفسها، وحين يتحدث أبو سفيان برسالته عن الاستئصال والإبادة: «**وَأَنَّكَ لا تُرِيدُ أَنْ تَعُودَ حَتَّى تَسْتَأْصِلَنَا**»، ويقتضي جواب هذا الكلام ما يناسبه، بأن النبي ﷺ سوف يستأصله، وأهله، وعشيرته، ويزيلهم من الوجود، عاد بهذا القلب الحاقد ليمسح عنه الران الذي غلفه، وحال بينه وبين

الإيمان، عاد به إلى الله تعالى مالك الملك، وخالق الخلق: «وَأَنَّكَ لا تُرِيدُ أَنْ تَعُودَ حَتَّى تَسْتَأْصِلَنَا، فَذَلِكَ أَمْرٌ اللهُ يَحُولُ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ، وَيَجْعَلُ لَنَا العَاقِبَةَ حَتَّى لا تَذْكُرَ اللاَّتِ وَالعُزَّى» فالله تعالى ينجي، والله تعالى ينصر، والله تعالى يفرِّج الكرب، والله تعالى مع المؤمنين وليس مع أبي سفيان ولاته وعزاه التي افتخر بها في أُحُد فقال: لنا العزى ولا عزى لكم، فقال ابن الخطاب ﷺ بلسان رسول الله ﷺ: «اللهُ مَوْلانَا وَلا مَوْلَى لَكُمْ»، وحين اعتبر معركة الشرك قد انتصرت فقال: اعل هبل، فجاء الجواب: «اللهُ أَعْلَى وَأَجَلُّ».

ولننظر إلى آثار هذه الرسالة في نفسه بعد ذلك.

انتهى أبو سفيان عسكريًّا على أثر هذه الرسالة، وأيس من النصر، وراح يعيد إصلاح أوضاعه الاقتصادية فمضى في تجارة إلى الشام، غير عابئ بنتائج غيابه الذي قد يكلفه خسارة قيادته، وعندما كان صلح الحديبية وأصبحت مكة في خطر داهم كان قائدها ماض في تجارته إلى الشام، وصالحت محمدًا ﷺ على دخوله مكة في العام القادم، وعلى إيقاف الحرب بينه وبينها عشر سنين.

وبدأ أبو سفيان بعد عودته في الخط التنازلي نحو المصالحة من آثار تلك الرسالة التي زلزلت كيانه، وعندما بلغه أن محمدًا ﷺ قادم لغزو مكة بدأ يدافعه بالراح مصداقًا لما في الرسالة، وهو الذي بلَّغ قومه: يا معشر قريش قد جاءكم محمد بما لا قبل لكم به ولا طاقة، فمن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل الكعبة فهو آمن، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، وهو الذي وقَّع صك الاستسلام مع محمد ﷺ دون قيد ولا شرط.

وحين نقف عند روايات إسلامه نجد ظل الرسالة حيًّا بين أيدينا، وأن معركة العقيدة قد حسمت في النهاية لصالح الإسلام (فَانْطَلَقَ عَبَّاسٌ بِأَبِي سُفْيَانَ، حَتَّى أَدْخَلَهُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ عَبَّاسٌ ﷺ: يَا رَسُولَ اللهِ، هَذَا أَبُو سُفْيَانَ فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنِّي قَدِ اسْتَنْصَرْتُ إِلَهِي، وَاسْتَنْصَرْتُ إِلَهَكَ فَوَاللهِ، مَا لَقِيتُكَ مِنْ مَرَّةٍ إِلَّا ظَهَرْتَ عَلَيَّ، فَلَوْ كَانَ إِلَهِي مُحِقًّا، وإِلَهُكَ مُبْطِلًا لَظَهَرْتُ عَلَيْكَ، فَشَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ ...).

[مجمع الزوائد ٦/ ٢٥٠ رقم ١٠٢٤١، وقال الهيثمي : رواه الطبراني [المعجم الكبير ٨/ ٦ رقم ٧٢٦٣] مرسلًا، وفيه ابن لهيعة، وحديثه حسن وفيه ضعف، ومغازي رسول الله ﷺ لعروة بن الزبير برواية أبي الأسود عنه ص ٢١٠].

لقد انتهى أبو سفيان بعد الخندق، وهُزم نفسيًّا، وكان مرور الزمن هو الذي أخَّر إيمانه حتى الفتح، ولم يكن من السهل عليه أن ينتقل من القائد العام للمشركين إلى جندي عام في الصف الإسلامي، لولا النهاية الحتمية لأفول قوته، والتي شهدها على أعتاب الخندق». [التربية القيادية للغضبان ٤/ ١٠٢-١٠٥].

٥٢ـ نكبة الأحزاب وما ترتب عليها في الأوساط المختلفة:

يقول د/ زين السيد: «إن قوى الشر والظلم والطغيان المتمثلة في الأحزاب آنذاك عددًا وعدة، جاؤوا وكلهم بطر وخيلاء، وليست لهم قيادة موحدة ولا هدف يعملون من أجله إلا محو الإسلام والمسلمين من أرض الجزيرة العربية، محو الإسلام الذي يرونه يعلو ويزداد يومًا بعد يوم، ولكنهم فوجؤوا بأسلوب جديد في الخطة القتالية، إذ وجدوا أمامهم خندقًا حول المدينة، وهذه مكيدة جديدة لم تكن العرب تكيدها من قبل، ولكن هذا من صنع الله الذي أتقن كل شيء فأنار العقول وزكاها وجعل الأرض للصالحين من عباده.

وأرسل الله ريحًا شديدة كفأت القدور وأطفأت النيران، واقتلعت الخيام، كل هذا كان له أثره في إحداث الارتباك في صفوف الأحزاب وارتدوا على أعقابهم خاسرين، وانتصر المسلمون انتصارًا حاسمًا، ووقى الله بهذا النصر الإسلام والمسلمين خطر هذا السيل المدمر، وثبّت الله به أولياءه المؤمنين: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾ [الأحزاب].

وترتب على هذه النكبة التي مني بها الأحزاب أمور كثيرة هي في الحقيقة خدمة للإسلام والمسلمين، بينما عادت بالبوار على العاتين المتجبرين.

إن هذه النكبة كان لها الأثر النفسي العصيب على نفوس الأحزاب، لقد جاؤوا بكل قواهم المختلفة بعد تعاون وتضافر من أجل أن ينتهوا من القضاء على الإسلام وأهله في ساعة من نهار، لكنهم الآن يرون أنفسهم وقد عادوا خائبين بل مهزومين، وهنا يعمل الأثر النفسي عمله في نفوسهم، كيف استطاعت القوة الضعيفة الضئيلة في نظرهم التي كان في اعتبارهم أن يقضوا عليها بعد انقضاضة بسيطة، كيف استطاعت أن تهزمهم الهزيمة المنكرة؟ والإنسان المنهزم من نده أو ممن هو أقوى منه ربما لا يحس بالحسرة كثيرة، وإنما يحس بها قاتلة حينما يُهزم ممن يراه أضعف منه، فلا تعجب أن يصورهم القرآن أثناء رجوعهم في أبلغ تصوير قائلًا: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا﴾، ولفظة ﴿بِغَيْظِهِمْ﴾ أي مغيظين وقد أكل الغيظ قلوبهم حينما رأوا أنفسهم منهزمين أمام الضعفاء في نظرهم، وقوله: ﴿لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا﴾ أي ما كانوا يظنونه في نظرهم، إذ الخير الذي كانوا يودونه هزيمة المسلمين والقضاء عليهم، وسماه القرآن ذلك باعتبار ظنهم ثم يسخر منهم.

أما في الأوساط العامية فقد انتشر على أسماع العالم آنذاك أن تلك القوة الضعيفة التي تتقوقع في المدينة استطاعت أن تهزم أهل مكة ومن حولهم، وترتب على ذلك أن تداعت سمعة هؤلاء في نظر العالم، وأصبحوا لا يحسب لهم حساب.

أما محمد ﷺ وأصحابه ﷺ فبانتصارهم على من هم أقوى منهم أصبحوا في نظر العالم ذوي بأس وسلطان، وينظر إليهم بعين الاعتبار، مما كان له أثر عظيم بعد ذلك في الفتوحات الإسلامية المختلفة».

[دور الحرب النفسية في غزوتي أُحد والأحزاب للسيد ١٧٣-١٧٥].

٥٣ ـ نتائج غزوة الخندق:

يقول الشيخ أبو زهرة: «كانت لهذه الغزوة نتائج طيبة:

(أ) إذ رد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرًا، وقد بذلوا أقصى ما يستطيعون فيها، جمعوا العرب ليغزوا المدينة فما رجعوا إلا بستة من القتلى، يقابلهم ثلاثة فيهم فارسهم وقد قتله فارس المسلمين علي كرم الله وجهه.

وإن أثر هذا أن ألقى اليأس في قلوبهم من أن ينالوا من النبي ﷺ، وما كانوا ليستطيعوا أن يقوموا بمثل ما قاموا به، فكان لسان حالهم يقول: لا نستطيع لمحمد سبيلًا، ولقد قال النبي ﷺ: «**لَنْ تَغْزُوكُمْ قُرَيْشٌ بَعْدَ عَامِكُمْ هَذَا، وَلَكِنَّكُمْ تَغْزُوهُمْ**»، ولقد أشار القرآن الكريم بذلك، فقال تعالى وهو أصدق القائلين: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ [الأحزاب: ٢٥].

(ب) وأن العرب الذين كانوا قد طمعوا في المؤمنين بعد غزوة أُحُد التي أشاع المشركون فيها أن محمدًا ﷺ وصحبه قد هُزموا، قد استكانوا ولم يعودوا طامعين في نصر، بل نأى بهم الخوف عن أن ينالوا منالًا، أو يدبروا أمرًا، فلا يفكروا في اعتداء أو غدر، أو ممالأة، وأن ذلك اليأس قد يدفعهم إلى التفكير فيما يدعو إليه محمد ﷺ؛ ولذلك كثر الذين يجيؤون إلى النبي ﷺ داخلين في الإسلام أفواجًا وفرادى، إذ إن الغواشي قد زالت، ومن ذلك كانت وفود القبائل العربية يجيؤون يتعرفون الإسلام.

(ج) وأن الآيات المادية قد تؤثر في أولئك الماديين الحسيين، وخصوصًا إذا كانت في موطن الفزع، فإنها إذا جاءت من غير سبب يألفونه ويعرفونه، فإنها قد تأخذ عقولهم إلى التفكير السليم وتخلعها من الوثنية، إذ يدخل إليها نور الحق شيئًا فشيئًا، والنور كلما دخل أشرق، وإذا أشرق اتجهوا إلى الحق وطلبوه، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

(د) وأن اليهود قد ظهرت نياتهم لمرأى العين، وانكشفت وصار ما تخفيه صدورهم أمرًا معروفًا، فقد كانت هذه الشديدة، التي ادلهمت مبينة ما يبيته اليهود للمؤمنين، بل تكشفت الوجوه ولم تسترها همزة النفاق، وصاروا وجهًا لوجه أمام النبي ﷺ.

(هـ) وقد بينت واقعة الخندق أن أهل الباطل جمعهم متفرق، فقد اجتمعوا، ولكن سرعان ما اختلفت نوازعهم بين المشركين أنفسهم، بما أبداه غطفان من الميل للصلح والعودة، وبما كان بين المغيرين والقرظيين». [خاتم النبيين ﷺ لأبي زهرة ٢/ ٧٩٧-٧٩٨].

ويقول د/ آل عابد: «كانت غزوة الأحزاب من الغزوات الهامة التي خاضها المسلمون ضد أعدائهم، وقد وجد فيها المسلمون شدة وخوفًا، ومن أهم النتائج لهذه الغزوة:

(أ) انتصار المسلمين، وانهزام أعدائهم وتفرقهم، ورجوعهم مدحورين بغيظهم قد خابت أمانيهم وآمالهم.

(ب) تغير الموقف لصالح المسلمين، فانتقلوا من موقف الدفاع إلى الهجوم، وقد أشار إلى ذلك النبي ﷺ حيث قال: «**الآنَ نَغْزُوهُمْ، وَلَا يَغْزُونَنَا، نَحْنُ نَسِيرُ إِلَيْهِمْ**». [البخاري في المغازي (٤١١٠)].

(ج) كشفت هذه الغزوة يهود بني قريظة وحقدهم على المسلمين وتربص الدوائر بهم، فقد نقضوا عهدهم مع النبي ﷺ في أحلك الظروف وأصعبها.

(د) كشفت غزوة الأحزاب حقيقة صدق إيمان المسلمين وحقيقة المنافقين وحقيقة يهود بني قريظة، فكان الابتلاء بغزوة الأحزاب تمحيصًا للمسلمين وإظهار حقيقة المنافقين واليهود.

(هـ) كانت غزوة بني قريظة نتيجة من نتائج غزوة الأحزاب، حيث تم فيها محاسبة يهود بني قريظة الذين نقضوا العهد مع النبي ﷺ في أحلك الظروف وأقساها».

[حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول ﷺ لآل عابد ٢/ ٤٤١-٤٤٢].

ويقول د/ أبو خليل: «سيكون انتصار الخندق وانتصار بني قريظة، وغيرهما من انتصارات لاحقة سببًا لإقبال أفراد من القبائل المحيطة بالمدينة المنورة إلى الإسلام، وكان واحدهم بعد إسلامه يعود إلى قومه داعيًا بالحكمة والموعظة الحسنة إلى الدين الجديد، لا سيما وأن القبائل شعرت بعد الخندق أن المبادأة أضحت بيد المسلمين. وهذه حقيقة.. فسينتقل المسلمون من انتصار إلى انتصار حتى يضم الإسلام تحت جناحيه أرجاء الجزيرة العربية، ضم توحيد وعدالة وألفة». [غزوة الخندق لأبي خليل ١٥٨].

ويقول أ/ شقرة: «لكل غزوة من غزوات الرسول ﷺ نتيجة تنتهي إليها، ومن مجموع نتائج هذه الغزوات يكون الهدف الكلي لها، الذي وضعه الرسول ﷺ بأمر من ربه ﷻ، وليس يملك أحد من البشر مهما بلغ من قوة النفاذ في الرأي والحكمة، وقوة البدن والجماعة أن يصوغ هدفًا أسمى وأقدر على توحيد جماعة المجاهدين، وشحن قلوبهم بالحماسة من هذا الهدف، بل إنه ليس من حقه ذلك، وهو: «**أن يكون الدين كله في الأرض لله وحده**».

ونتيجة غزوة الأحزاب أوجزها ربنا سبحانه بقوله: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾ [الأحزاب].

وبإمعان قليل للنظر نرى أن هذه الآية إلى جانب ذكرها النتيجة قد أشارت بكل جزء منها إلى جانب من جوانب أحداث الغزوة، وقد أسلفنا تفصيلها فلا نعيده.

أما الآية فقد أوجزت نتيجة الغزوة في أمور أربعة وهي:

أولًا: رجوع الذين كفروا عن المدينة: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾.

ثانيًا: فشلهم الذريع في تحقيق أي نجاح: ﴿لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا﴾.

ثالثًا: وضع إصر القتال عن المؤمنين: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾.

رابعًا: أن يكونوا على ذكر دائم بفضل الله عليهم: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾.

ومن خلال الآيات التي عرضت للحديث عن غزوة الأحزاب تبدو لنا المعجزة الإلهية التي تصدت للأحزاب وهم في أوج كبريائهم وخيلائهم، فردتهم على أعقابهم خاسرين، وحفظ الله للنبي ﷺ الجُهد الضخم الذي كان سيُبذل في هذه الغزوة؛ ليظل مذخورًا لغزوات أخرى مسطورة في صفحة الغيب، شاهدًا للإيمان على مضائه وقوته، ولأهل الإيمان على تمكّنهم واستخلافهم في الأرض، عنوان عدالة وعزة وسؤدد». [السيرة النبوية العطرة في الآيات القرآنية المسطرة لشقرة ٣٩٨-٣٩٩].

ويقول الشيخ عبيد: «بعد هذه الرحلة في تلك الحقبة التاريخية وهذه الأحداث التي سيطرت على الجزيرة العربية، استتب الأمر للمسلمين، وبدأ المشركون في مكة يحاولون استرجاع اللحظات التي مرت بهم، عندما حضر إليهم وفد اليهود، وأثار في قلوبهم الحمية، وأغراهم بالنصر لأنهم كما زعم اليهود أن دين الوثنية خير من دين محمد ﷺ، ولقد تورط المشركون بسبب هذه الفتوى وجمعوا جموعهم وحزبوا معهم الأحزاب، وبسبب الكبر الذي في نفوسهم والغطرسة التي في قلوبهم ظنوا أنهم ذاهبون إلى رحلة يعودون بعدها بصيد ثمين (والصيد هو القضاء على الإسلام واقتلاع جذوره)، ولكن شاءت مشيئة الله وهو العلي الأعلى أن ينتصر الحق لأن الله ﷻ بيده الأمر وهو سبحانه القائل: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾ [غافر].

ولقد انتصر المسلمون نصرًا لم يكن في حسبان أحد؛ لأن موازين الناس تحكم بأن النصر للكثرة في العَدد والعتاد، وغاب عن الناس أن عوامل النصر قد تكون بأسباب إلهية، وأسلحة ربانية مثل النوم، فالنوم يلقيه الله على الإنسان فتهدأ نفسه وتقوى عزيمته ويزداد تصميمًا في قضاء ما يهدف إليه يقول ربنا في هذا: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ [الأنفال: ١١]، كما أن المطر من السماء قد يكون من الأسلحة فينزل على الأرض فتتماسك به ثم يستعمله المسلمون في شربهم وطهارتهم ليقوموا بأداء الصلاة، يقول ربنا: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾﴾ [الأنفال].

إن ركب السماء دائمًا ينزل على المؤمنين يُكثِّر جمعهم ويقوي عزيمتهم لأن من وصل نفسه بالله، حماه الله وقوّاه، وإلى هذا أشار الحق سبحانه: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الأنفال:١٢]، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [فصلت].

تلك بعض عوامل النصر، ولا ننسى أن الأسلحة الإلهية التي كانت في غزوة الأحزاب أسلحة جديدة، والحق سبحانه يذكِّر بها الناس فيقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾﴾ [الأحزاب].

إن المسلمين يثقون في الله ومع هذه الثقة المطلقة فهم يخططون وبكل الوسائل الممكنة لأن الله أمرهم بذلك، فالإنسان منا عليه أن يعمل على قدر طاقته الممكنة، ولا يتكاسل، ولا يجبن، ولا يتخاذل، وهو في أثناء تخطيطه يستعمل قواه العقلية كما يستعمل قواه البدنية ليصل إلى ما يريد، فإن احتاج إلى مساعدة فالله عونه ومعينه؛ لأنه سبحانه لا يتخلى عن المؤمنين إذا صدقت نياتهم واستعملوا كل الوسائل الممكنة والمتاحة أمامهم، وصدق الله العظيم: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [غافر: ٥١]، ويقول الحق سبحانه: ﴿۞ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾﴾ [الحج].

كما أن المؤمن الذي يثق في الله يدرك تمامًا ما قاله الحق سبحانه: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ ۗ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ [آل عمران]، ولقد أكدت الأحداث التاريخية أن المسلمين في الصدر الأول بقيادة النبي ﷺ عندما التزموا بالأوامر الإلهية وتمسكوا بالقيم الأخلاقية العالية والآداب النبيلة الرفيعة نزل عليهم الخير كله وحل في ركابهم، انتصروا في بدر وهم قلة، وكما يقول الحق سبحانه: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [آل عمران].

وأكد الحق سبحانه للمؤمنين أن الموقف لا يحسب بالكثرة في العدد أو العُدة وإنما يحسب بالرجال، الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فالرجل ينظر إلى قلبه ومدى علاقته بربه إن كان طاهر النفس حسن الصلة بالله يحب للناس ما يحب لنفسه عنده إيثار وكرم وسماحة، فمثل هذا الرجل يزن عشرة من الرجال الآخرين واقرأ في ذلك: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [الأنفال].

إن المشركين في مكة بدأوا يعيدون حساباتهم ولقد تناقلت الأخبار بأن محمدًا ﷺ سيطر على الجزيرة العربية؛ لأن الأنباء تطايرت تحكي أن الأحزاب رجعوا بُخُفَّيْ حُنين، وأن الخونة من اليهود نالوا جزاءهم

وبدأوا يدرسون غزوة الأحزاب ويحللون ما فيها؛ لأنها بكل المقاييس تعطي دلالة قوية على فراسة الرسول ﷺ وبُعد نظره، وأنه قائد يتسم ببُعد النظر وصدق الفراسة والتنبؤ، وأن خبرته السياسية وكفاءته في ذلك جعلته يؤدي دورًا في كل موقف صعب يحتاج إلى خبرة وكياسة وفطنة، وهنا كانت تظهر هذه العبقرية الفذة في مثل:

(١) عندما أرسل إلى غطفان يعرض عليهم ثلث ثمار المدينة؛ لأنه عرف أن الطمع في نفوسهم وأنهم جاؤوا محاربين من أجل المال، ودائمًا الرجل المستأجر أو الأجير، ليست عنده همة صاحب الحق.

(٢) توجيه النبي ﷺ لنعيم بن مسعود ﷺ بأن يقوم بأداء دور غير مسبوق.

(٣) حفر الخندق في أول الأمر، وهو سلاح مبتكر لم تعرفه العرب ولم ينزل في أي معركة من قبل؛ لذلك كان ظهور هذا السلاح من العوامل التي غيرت سير المعركة.

(٤) إرساله ﷺ وفدًا بزعامة سعد بن معاذ ﷺ إلى يهود بني قريظة يستحثهم للدفاع عن الوطن ويطالبهم بتنفيذ بنود المعاهدة المعقودة بينه وبينهم، أمر له دلالته في بُعد النظر.

(٥) ما حدث عند حفر الخندق من إرهاصات؛ لإعطاء الثقة في نفوس المسلمين وإدخال الأمن عليهم وتهيئتهم لتحقيق الأمل أمر له دلالته في تنشيط النفوس ودفع الروح المعنوية في الجند.

(٦) ما حدث من معجزات رآها الجميع، من تكثير طعام جابر ﷺ، وماء الشرب، وغير ذلك من الأمور التي جاءت في بطون الكتب الكبرى، كل ذلك له دلالته على صدق النبي ﷺ وأنه مؤيَّد من الله الذي أمره أن يأخذ في الوسائل، أما النتائج فهي من عند الله وهو سبحانه لا يضيع أجر من أحسن عملًا.

إن غزوة الأحزاب تحتاج منا كمسلمين أن نحلل تفاصيلها وأحداثها وما جرى فيها ليكون المسلم على بينة بأن نبي الإسلام سيدنا محمدًا ﷺ لم يكن يحب الحرب، وإنما كان يضطر لخوضها، دفاعًا عن نفسه وعن الكيان الإسلامي، وعن الوطن، إنه كان يحمل راية السلام بيمينه وينادي على الناس في كل زمان ومكان أن يدخلوا تحت راية السلام؛ لأنه وسيلة التقدم والازدهار، في حالة السلم يعيش الناس في سعادة وأمن، وينتجون، ويزرعون، ويعمرون، ويتاجرون، وهذا هو الهدف الأساسي من استخلاف الله الإنسان في الأرض؛ لذلك جاء في القرآن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٢٠٨﴾ [البقرة].

والذي يقرأ تاريخ هذا النبي العظيم يعرف عنه ﷺ أنه عاش في حياته مسالمًا يكره الحرب ويبغضها، ولا يحب إراقة الدماء؛ لأنه الرحمة المهداة، لكن إذا أُجبر عليها خاضها بذمة وشرف وأمانة والتزام بالمثل الإنسانية العالية، يحرِّم قتل الأطفال والنساء والشيوخ وينهى عن تقطيع الشجر ومنع الماء عن الخصوم، وينهى أصحابه عن التبول أو التغوط في الماء الجاري أو الراكد أو في الطريق العام أو في الظل.

فالحرب عنده وسيلة؛ لهذا فهو يحاول أن يحافظ على القيم الإنسانية والأخلاق الكريمة.

إن غزوة الأحزاب فيها دروس متعددة تبين أن الإسلام دين بقوانينه سبق كل القوانين، ولعلنا إذا قمنا بعمل دراسة عن وثيقة حقوق الإنسان التي تفتخر بعض الدول وتتباهى بأنها صاغت بنودًا تسمو بالكيان الإنساني وترفع قدر الإنسان وتعلي شأنه نرى أن هذه الدول هي التي تقتل الأطفال والنساء والشيوخ والعُزَّل وتُسهم في إشعال الحرب هنا وهناك، فإن ذكرتهم بها قالوا، قالوا لك: هناك محكمة العدل الدولية ومجلس الأمن الدولي، فإن ذهبت إلى هناك وجدت البطء في الإجراءات، وإن كان ميزان الحق إلى جانبك ظهر «الفيتو» كَسَيْفٍ مسلَّط على رقاب الضعفاء، وإن سألتهم: أين الحق والعدل؟ قالوا لك: حسبما تكون المصلحة فهذا هو قانون العدل، هذا ما حدث في القرن العشرين، عصر السماء المفتوحة، ومئات القنوات الفضائية التي تبث برامج التليفزيون ليكون هناك غسيل مخ لملايين البشر؛ لأن المعارك الآن، انتقلت من ساحات الحرب إلى شاشات التليفزيون، وشبكات الإنترنت، وموجات الإذاعات، هذا ما حدث في القرن العشرين، ونحن الآن دخلنا في القرن الواحد والعشرين ولا ندري ما هو مخبأ لنا في عقول العلماء والمبتكرين والمنتجين؛ لأن الزمن لن يتوقف، وهنا يتأتى السؤال: أين دور المسلمين؟

التاريخ يؤكد أنهم الذين تفوقوا في كل ميدان، فالساحة الآن أمامهم، خاصة وأن المجتمع الدولي يشيد الآن بكفاءة المسلمين، وفي مقدمتهم العالم النابغة أحمد زويل، فهل آن لنا أن ندرس التاريخ المضيء حتى لا نكون ممن قال الله فيهم: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنعام].

فليحذر الذين يخالفون أمر الله؛ لأننا نؤمن بأن السماء لا تعطي بركتها إلا للجادين العاملين، وتجود الأرض بخيراتها لهم؛ لأن الله سبحانه وعد في الزبور من بعد الذكر أن الأرض والسماء له سبحانه وأن من يرثها من الناس هم الصالحون.

ونأمل أن يفهم المسلمون هذا وأن يثقوا في ربهم وهو القائل: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [الأنبياء].

صدق الله العظيم ... وبلغ رسوله الكريم». [غزوة الأحزاب لعبيد ٨٨-٩٤].

ويقول أ/ حوى: «لقد انتهت غزوة الأحزاب في الظاهر بسلامة الفريقين وتكافئهما، ولكن الأمر في حقيقته كان غير ذلك، فلقد سجل رسول الله ﷺ في هذه الغزوة انتصارًا من أعظم انتصاراته، لقد كان هو المنتصر الأكبر على الساحة جميعها سياسيًّا وعسكريًّا وإعلاميًّا ونفسيًّا، فعندما يرجع جيش مقداره

عشرة آلاف وهو أضخم جيش عرفته الجزيرة العربية حتى يومها، دون أن يحقق شيئًا ضد جيش قوامه ثلاثة آلاف فذلك وحده خسارة لهذا الجيش، فإذا ما أضيف إلى ذلك أن هذه أول تجربة لتجميع العرب المشركين ضد محمد ﷺ، وكانت تجربة فاشلة فهذا يعني أنها لن تتكرر وذلك ربح آخر، ولئن ترتب على هذه الغزوة استئصال قريظة بسبب غدرها فذلك يعني أن المسلمين لن يؤتوا مرة أخرى من داخلهم وذلك ربح، فإذا ما اجتمع مع ذلك أن قريشًا رجعت يائسة لأنها مع غيرها لن تستطيع أن تفعل شيئًا فكيف بها وحدها؟ وإذن فقريش لن تعيد الكرة وذلك كذلك ربح، وهكذا نجد رسول الله ﷺ وهو يدلف إلى السنة السادسة في أفضل وضع سياسيًّا وعسكريًّا، وسنرى كيف أنه استفاد من هذه الظروف كلها أيما استفادة فحقق في السنة السادسة أعظم انتصار في تاريخ الدولة الإسلامية الناشئة».

[الأساس في السنة ـ السيرة لحوى ٢/ ٧١٤-٧١٥].

ويقول د/ المدخلي: «بالنظر في وقائع هذه الغزوة، وبالرجوع والتفكير في مقدماتها، وعندما ترى أو تسمع اجتماع تلك الجيوش الجرارة يحدوها الحقد والكراهية وترفرف عليها فكرة استئصال شوكة الإسلام والمسلمين، تلك الفكرة التي كان اليهود سببًا في رواجها وانتشارها بين جيوش الأحزاب، عندما تنعم النظر في ذلك كله وترجع إلى المقاييس المادية ـ الأكثر يغلب الأقل ـ وتنسى قدرة الله ﷻ.

تعلم علم اليقين أن عشرة آلاف أو أكثر تستطيع أن تهزم عدوها والذي كان يبلغ عدده على الأكثر وفي أغلب الأقوال ثلاثة آلاف.

لكن الله سبحانه قوي عزيز، فقد أمد هذه القلة بنصر من عنده، وأعانهم بجند من جنده، وزودهم بثبات وطمأنينة فهوّن أمامهم المصائب والمحن، فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ ﴾.

إذن فالمقاييس عنده تختلف، إذ إنها ليست على حسب الكثرة أو القوة، ولكن القلوب التي ملئت بتوحيده ﷻ، وملئت بالتقوى التي تهون أمامها الدنيا وزخارفها أصبح الواحد منهم يتصور الجنة وكأنه ينظر إليها، ومنهم من بُشِّر بها وهو على قيد الحياة؛ فرخصت أنفسهم في سبيل الله لما أعد لهم ﷻ من نعيم مقيم، وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين، فكانوا يخرجون سراعًا مع النبي ﷺ ولا تهمهم قلتهم وكثرة عدوهم؛ لأن الله سبحانه كان يشد من أزرهم، فيرسل معهم جندًا من جنوده الكثيرة، فقد أرسل معهم في بدر كما هو معلوم ملائكته فحاربت مع المسلمين.

وفي هذه الغزوة يخبر الله ﷻ أنه رد الكافرين بغيظهم لم ينالوا ما أرادوا مما اجتمعوا عليه، وذلك أنهم أرادوا في الواقع استئصال تلك القلة المباركة، فقال تعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرٗاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزٗا ﴿٢٥﴾ ﴾.

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبرًا عن الأحزاب لما أجلاهم عن المدينة بما أرسل عليهم من الريح والجنود الإلهية، ولولا أن الله جعل رسوله رحمة للعالمين لكانت هذه الريح أشد من الريح العقيم التي أرسلها على عاد، لكنه قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ ﴾ [الأنفال: ٣٣]، فسلَّط عليهم هواء فرَّق شملهم كما كان سبب اجتماعهم من الهوى وهم أخلاط من قبائل شتى أحزابًا وآراء.

فناسب أن يرسل عليهم الهواء الذي فرق جماعتهم وردهم خائبين خاسرين بغيظهم وحنقهم لم ينالوا خيرًا لا في الدنيا مما كان في أنفسهم من الظفر والمغنم، ولا في الآخرة بما تحملوه من الآثام في مبارزة الرسول ﷺ بالعداوة وهمهم بقتله واستئصال جيشه، فقال تعالى: ﴿ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَۚ ﴾ [الأحزاب: ٢٥]. [تفسير القرآن العظيم ٣/ ٤٧٦ - ٤٧٧].

كان ذلك نتيجة واستجابة من الله لدعاء نبيه ﷺ على الأحزاب، فقد دعا عليهم كما مر في عرض الغزوة بقوله: «**اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الكِتَابِ، سَرِيعَ الحِسَابِ، [مُجْرِيَ السَّحَابِ]، اللَّهُمَّ اهْزِمْ الأَحْزَابَ، اللَّهُمَّ اهْزِمْهُمْ وَزَلْزِلْهُمْ**».

وقد قال الحافظ أثناء شرحه لهذا الحديث: قوله: «**اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الكِتَابِ**... إِلَخْ».

أَشَارَ بِهَذَا الدُّعَاءِ إِلَى وُجُوهِ النَّصْرِ عَلَيْهِمْ، فَبِالكِتَابِ إِلَى قَوْله تَعَالَى: ﴿ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [التوبة]، وَبِمُجْرِي السَّحَابِ إِلَى القُدْرَةِ الظَّاهِرَةِ فِي تَسْخِيرِ السَّحَابِ حَيْثُ يُحَرِّكُ الرِّيحَ بِمَشِيئَةِ الله تَعَالَى، وَحَيْثُ يَسْتَمِرُّ فِي مَكَانه مَعَ هُبُوبِ الرِّيحِ، وَحَيْثُ تُمْطِرُ تَارَةً وَأُخْرَى لَا تُمْطِر، فَأَشَارَ بِحَرَكَتِهِ إِلَى إِعَانَةِ المُجَاهِدِينَ فِي حَرَكَتِهِمْ فِي القِتَالِ، وَبِوُقُوفِهِ إِلَى إِمْسَاكِ أَيْدِي الكُفَّارِ عَنْهُمْ، وَبِإِنْزَالِ المَطَرِ إِلَى غَنِيمَة مَا مَعَهُمْ حَيْثُ يَتَّفِقُ قَتْلُهُمْ، وَبِعَدَمِهِ إِلَى هَزِيمَتهمْ حَيْثُ لَا يَحْصُلُ الظَّفَرُ بِشَيْء مِنْهُمْ، وَكُلّهَا أَحْوَال صَالِحَة لِلْمُسْلِمِينَ.

وَأَشَارَ بِهَازِمِ الأَحْزَابِ إِلَى التَّوَسُّلِ بِالنِّعْمَةِ السَّابِقَةِ، وَإِلَى تَجْرِيدِ التَّوَكُّلِ، وَاعْتِقَادِ أَنَّ اللهَ هُوَ المُنْفَرِد بِالفِعْلِ، وَفِيهِ التَّنْبِيهُ عَلَى عِظَمِ هَذِهِ النِّعَمِ الثَّلَاثِ، فَإِنَّ بِإِنْزَالِ الكِتَاب حَصَلَتْ النِّعْمَةُ الأُخْرَوِيَّة وَهِيَ الإِسْلَام، وَبِإِجْرَاءِ السَّحَابِ حَصَلَتْ النِّعْمَةُ الدُّنْيَوِيَّة وَهِيَ الرِّزْق، وَبِهَزِيمَةِ الأَحْزَاب حَصَلَ حِفْظ النِّعْمَتَيْنِ، وَكَأَنَّهُ قَالَ: اللَّهُمَّ كَمَا أَنْعَمْت بِعَظِيمِ النِّعْمَتَيْنِ الأُخْرَوِيَّة وَالدُّنْيَوِيَّة وَحَفِظْتهمَا فَأَبْقِهِمَا.

وَرَوَى الإِسْمَاعِيلِيُّ فِي هَذَا الحَدِيث مِنْ وَجه آخر أَنَّهُ ﷺ دَعَا أَيْضًا فَقَالَ: «**اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبُّنَا وَرَبُّهُمْ، وَنَحْنُ عَبِيدُكَ، وَهُمْ عَبِيدُكَ، نَوَاصِينَا وَنَوَاصِيهِمْ بِيَدِكَ، فَاهْزِمْهُمْ وَانْصُرْنَا عَلَيْهِمْ**»، وَلِسَعِيدِ بْن مَنْصُور مِنْ طَرِيق أَبِي عَبْد الرَّحْمَن الحُبُلِيِّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ نَحْوه لَكِنْ بِصِيغَةِ الأَمْر عَطْفًا عَلَى قَوْله: «**وَسَلُوا اللهَ العَافِيَةَ: فَإِنْ بُلِيتُمْ بِهِمْ فَقُولُوا اللَّهُمَّ**»، فَذَكَرَهُ وَزَادَ: «**وَغُضُّوا أَبْصَاركُمْ وَاحْمِلُوا عَلَيْهِمْ عَلَى بَرَكَة الله**».

[فتح الباري ٦/ ١٥٧].

ثم كفى الله المؤمنين القتال، ونصر عبده، وأعز جنده؛ ولهذا كان رسول الله ﷺ يقول: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ، أَعَزَّ جُنْدَهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ، وَغَلَبَ الأَحْزَابَ وَحْدَهُ، فَلَا شَيْءَ بَعْدَهُ».

وقال ابن كثير عند قوله تعالى: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ [الأحزاب: ٢٥] إشارة إلى وضع الحرب بينهم وبين قريش. [تفسير القرآن العظيم ٣/ ٤٧٧].

وهكذا حصل حيث إن المشركين لم يغزوا المسلمين بعدها، بل غزاهم المسلمون في بلادهم، أشار إلى ذلك الحديث الصحيح: «الآنَ نَغْزُوهُمْ، وَلَا يَغْزُونَنَا، نَحْنُ نَسِيرُ إِلَيْهِمْ».

مما تقدم نرى أن هذه الغزوة كانت نتيجتها هي انتصار المسلمين، وانهزام أعدائهم، وتفرقهم، ورضاهم من الغنيمة بالإياب.(١)

وقد أخبر الرسول ﷺ بأنهم - أي الأحزاب - أو كفار قريش لن يغزوا المسلمين بعد هذه الغزوة، وهذا عَلَمٌ من أعلام نبوته ﷺ حيث حصل ذلك حتى فتح مكة تلك التي أخرجه كفارها في بداية ظهور الإسلام، وخرج منها خائفًا يترقب، ولكنه بقوة الله وتأييده رجع إليها فاتحًا رافعًا راية التوحيد، حامدًا ربه شاكرًا له». [مرويات غزوة الخندق للمدخلي ٤١٧-٤٢٥].

لقد انتهت غزوة الأحزاب التي أشعل نارها اليهود لتقدم للمسلمين خيرًا ما كانوا يتوقعونه، وعلموا أنه لن يجرؤ أحد من المشركين على مهاجمة المدينة مرة أخرى؛ لأنهم لن يستطيعوا أن يأتوا بجمع أقوى مما أتوا به في الأحزاب، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «الآنَ نَغْزُوهُمْ، وَلَا يَغْزُونَنَا، نَحْنُ نَسِيرُ إِلَيْهِمْ».

ولتقدم لمن بعدهم دليلًا على أن نصر الله قريب، وإن يئسوا من مجيئه.

وقد سجل الله ﷻ ذلك في قوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ [البقرة].

ولتُعلم المسلمين أيضًا أن أي خطر ينزل بهم يمكن مواجهته، والتغلب عليه، لو جدوا في الأمر كما جد رسول الله ﷺ والمؤمنون معه.

وليعلموا أيضًا أن النصر ينتظر منهم فقط استنفاد الأسباب وبعدها لن يتأخر عليهم لحظة واحدة.

٥٤ - أثر الحرب النفسية في غزوة الأحزاب في صفوف المسلمين والمشركين:

يقول د/ زين السيد: «إن اليهود كعادتهم لا عهد لهم ولا ذمة، ولا يلتزمون بمواثيق، ولقد أعلنوا عداوة لا هوادة فيها، وكراهية لا حب معها، وهم كما نعلم أهل مكر وخداع وتدبير وحيل، ومناورات ومجادلات

---

(١) قال في مجمع الأمثال ١/ ٢٩٥، وأول من قاله امرؤ القيس بن حجر في قوله:

ولقد طوفت في الآفاق حتى … رضيت من الغنيمة بالإياب

ويقال عند القناعة بالسلامة.

على مر السنين والأزمان في القديم وفي الحديث، لقد جندوا أنفسهم لعداوة هذا الدين وأهلـه، والكيـد لكـل من اعتنقه، والعالم في مختلف العصور يعاني من هؤلاء معاناة شديدة، وقد اجتمع لـديهم سـلاح بـه يقـاتلون، هو سلاح التدبير والمكر والخداع، وقاموا بأعمال لها خطورتها ضد المسلمين في غزوة الأحزاب، وسأتناول بعضًا من مواقفهم كحرب نفسية للمسلمين في هذا الموضع، هذا أولًا، وأما ثانيًا فأتحدث عما قام به النبي ﷺ وصحبه من حرب نفسية إيجابيه مضادة، وأثر ذلك في صفوف المسلمين والمشركين.

أولًا: إن الحرب النفسية والدعاية المضادة كانت ولا تزال سلاح اليهـود في وجـه الحـق في كـل زمـان يحاورون به ويحورونه، ويغيرون أوضاعه شأن الباطل لا يعدم سلاحًا يسله ولو ناقض نفسه.

وقد ينتصر أهل الباطل على أهل الحق عندما يأنسون منهم ضعفًا أو يلمسون فيهم انحرافًا، ويحـاولون بانتصارهم أن يطمسوا الكثير من معالمه، ويبـدلوا نظمـه، وقـد يفلحـون في ذلـك شيئًا مـا، ولكـن هـذا الانتصار كما هو هزيمة لأهل الحق، هو في الوقت نفسه هزيمة لأهل الباطل، فإن هذا الكون الذي نعيش فيه قد قام على الحق وحده: ﴿مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الروم: ٨]، وتَغَلُّبُ أهل الباطل ضياع لأهل الحق وأهل الباطل معًا، فإن تغلبهم إنما هو تغلب الهوى، والهـوى فسـاد وإفسـاد لهذا الكون: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: ٧١].

وعندئذ تكون بداية النهاية كما يُقال.

كان للحديث الذي دار بين اليهود ومشركي مكة والقبائل المجاورة أثره في نفسياتهم، فتجمعوا بقيـادة أبي سفيان بن حرب، وعيينة بن حصن الفزاري، وتقدموا تجاه المدينة لاستئصـال الإسـلام وأهلـه ومحـوه من الوجود كما يرون، وعلم الرسول ﷺ بالخبر، ووضـع مخططـه النـاجح الـذي اتخـذه سـلاحًا بتـارًا إلى أقصى حد ضد الأحزاب، وبذلت المحاولات الناجحة لزعزعة ثقة قريش وغطفان في إمكان النصر عـلى المسلمين، فقام ﷺ بحفر الخندق حول المدينة، وبدأ فعلًا في التنفيذ، وقد حقق تخطيط الرسول ﷺ أهدافـه بلا قتال بمعونة الله ﷻ.

ثانيًا: قَدِمَ الأحزاب بعددهم وعدتهم، ونزلوا شرقي المدينة قريبًـا مـن أُحُـد، ونزلـت طائفـة مـنهم في أعالي المدينـة، كـما قـال الله تعـالى: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾﴾ [الأحزاب].

ولما يئسوا من طول الحصار احتالوا للأمر لينفذوا مخططهم الأثيم، وكان بالمدينة طائفة من اليهود «يهود بني قريظة» لهم عهد من رسول الله ﷺ وذمة، فذهب إليهم حيي بن أخطب النضري، ولم يزل بهم حتى نقضوا العهد، ومالأوا الأحزاب على رسول الله ﷺ، فعظم الخطب واشتد الأمر وضاق الحال،

وكان كما قال الله تعالى: ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾ [الأحزاب] لأن مؤخرة الجيش المسلم صارت مكشوفة للعدو، ولما علم الرسول ﷺ بهذا الخبر قال مُطَمْئِنًا الجند المؤمن: أبشروا بنصر الله ووعده يا معشر الصحابة، وقال المؤمنون: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾ [الأحزاب].

وفي تلك الساعات الحرجة أرسل بنو قريظة أحدهم ليستطلع الأخبار بالمدينة، ولكنه لم يرجع إليهم بشيء، يقول ابن الأثير في تاريخه الكامل: «وكانت صفية عمة النبي ﷺ في فارع حصن حسان بن ثابت ﷺ، وكان حسان فيه مع النساء ... قالت: فأتانا أناس من اليهود، فقلت لحسان: هذا اليهودي يطوف بنا ولا نأمنه أن يدل على عوراتنا، فانزل إليه فاقتله، فقال: والله ما أنا بصاحب هذا، قالت: فأخذت عمودًا ونزلت إليه فقتلته، ثم رجعت فقلت لحسان: انزل إليه فخذ سلبه فإنني يمنعني منه أنه رجل، فقال: والله ما لي بسلبه حاجة».

وروى القصة ابن هشام مع اختلاف في الألفاظ.

يقول ل/ خطاب معلقًا على هذه الحادثة: «إن قتل هذا اليهودي أنقذ المسلمين من خطر داهم، إذ جعل اليهود يفكرون أن في داخل المدينة حرَّاسًا أشداء من المسلمين، وليس من السهل التغلب على هذه الحراسة الشديدة؛ لذلك قبع يهود في حصونهم لا يفكرون في الخروج». [الرسول القائد ﷺ لخطاب ٢٣١].

أقول: إن هذا الموقف البطولي من صفية عمة الرسول ﷺ حسم الأمر وقطع التردد والاضطراب حيث لا مجال فيه لاستشارة أحد، ولا تصلح فيه منافسة، وارتفعت روحهم المعنوية، وبدت تباشير النصر واضحة لكل ذي عينين.

يقول ابن سعد: «وكان رسول الله ﷺ يبعث سلمة بن أسلم في مائتي رجل وزيد بن حارثة في ثلاثمائة رجل يحرسون المدينة ويُظهرون التكبير؛ وذلك أنه كان يخاف على النساء والذرية من بني قريظة بعد نقضهم للعهد».

فحيثما قام لهم سلطان فهم خطر، والإسلام كما هو دين رحمة فهو كذلك دين القوة والعزة، لا يقبل الضيم ولا يرضى المهانة ولا ينام على الظلم.

ثالثًا: إن أهم ما يحرص عليه الإنسان في هذه الحياة عدم تعرض نفسه للخطر أو الغدر، فهو يحافظ عليها ويرعاها، ويبذل كل ما يستطيع من أجل حمايتها والدفاع عنها، هذه طبيعة الإنسان وفطرته، ولكن أصحاب المبادئ الحقة والدعوات الصادقة يقدمون أنفسهم فداء لدعوتهم، فالذين شرح الله قلوبهم للإيمان، وخالط شغافها، وسرت فيه لا تزعزعهم الأحزاب مهما عظمت، ولا تزلزل العواصف أقدامهم

مهما قويت، فالنفس هينة رخيصة ما دامت تُبذل في سبيل العقيدة، والموت ليس بالخطر الذي يُهاب ما دام ذلك دفاعًا عن الرسول ﷺ ودعوته.

فبعد نقض بني قريظة لعهدها مع رسول الله ﷺ قويت نفسية الأحزاب وألَّفوا كتائبهم لمهاجمة المدينة، ووجهوا إلى رسول الله ﷺ كتيبة غليظة فيها خالد بن الوليد، فقاتلوهم يومهم ذلك إلى هوي من الليل، ما يقدرون أن يزولوا من موضعهم، ولا صلى رسول الله ﷺ ولا أصحابه ظهرًا، ولا عصرًا، ولا مغربًا ولا عشاء حتى كشفهم الله، فرجعوا متفرقين إلى منازلهم وعسكرهم، وانصرف المسلمون إلى قبة رسول الله ﷺ، فأمر بلالًا رضي الله عنه فأذّن وأقام الظهر فصلوا، ثم أقام بعدُ كل صلاة إقامة إقامة، وصلى هو وأصحابه ما فاتهم من الصلوات، وقال: «**شَغَلُونَا عَنْ صَلَاةِ العَصْرِ، مَلَأَ اللهُ بُطُونَهُمْ وَقُبُورَهُمْ نَارًا**».

حيث زُلزلت القلوب وفزع الناس أشد الفزع، لقد رأوا الموت بعيونهم قادمًا من سيوف الأحزاب خارج المدينة، ومن منازل بني قريظة داخل المدينة، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

فجعل رسول الله ﷺ يدعو ربه قائلًا: **اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك، الله إنك إن تشأ لا تعبد، اللهم ادفع عنا شرهم وانصرنا عليهم ولا يغلبهم غيرك**».

[الطبقات الكبرى لابن سعد ٢/ ٧٣، وصور من حياة الرسول ﷺ لدويدار ص ٤٢٧ مع زيادة في الألفاظ].

ومن الوجهة النفسية أؤكد أهمية الدافع، فعندما يتوفر الدافع تظهر الطاقة الخلاقة فداء في سبيل الله عز وجل، وقد وعد الله جنوده المخلصين أن يكون لهم في الشدة سندًا ونصيرًا، فزودهم بالقوى المادية الطبيعية كالريح والمطر، كما زودهم بقوى باطنية خفية وهي القوى المعنوية التي لا يمكن أن توجد أبدًا إلا في جند الإسلام، ومنها إرسال الملائكة تثبيتًا ومددًا، واطمئنان القلوب إلى نصر الله في الدنيا والثواب الجزيل في الآخرة، والسكينة التي يملأ الله بها قلوب المؤمنين، والرعب الذي يملأ الله به قلوب الكافرين، نرى ذلك واضحًا جليًّا في حديث رسول الله ﷺ: «**نُصِرْتُ بِالصَّبَا، وَأُهْلِكَتْ عَادٌ بِالدَّبُورِ**».

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: الصبا: وهي الريح الشرقية، والدبور: وهي الريح الغربية.

إن قال قائل: تهب الريح الشرقية فلا تأتي بالنصر، وتهب الرياح الغربية فلا تحمل الدمار ولا الوباء، قلنا: إن ذلك مرهون بتعلق قدرة الله به وجاء وفق مقتضيات الحكمة البالغة، فساعة أن يثبت صاحب المبدأ بمبدئه ويثبت بالحق الذي هو عليه ينصره الله بما شاء وكيف شاء، ومن ذا عساه أن ينكر سرعة الرياح وقوة الأعاصير ومدى فداحة ما تجلّيه من تدبير، فسبحان من بيده مقاليد السموات والأرض.

رابعًا: وأراد الرسول ﷺ أن ينهي هذه الحرب فقام بعمل مضاد للتأثير على آراء وعواطف ومواقف الجماعات العدائية من غطفان والتخذيل بينهم، فبعث ﷺ إلى عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر وإلى

الحارث بن عوف، وهما قائدا غطفان، فصالحهما على ثلث ثمار المدينة على أن يرجعا بمن معهما عنه وعن أصحابه، فجرى بينه وبينهما الصلح حتى كتبوا الكتاب ولم تقع الشهادة ولا عزيمة الصلح إلا المراوضة في ذلك... إلخ.

هذا ما قام به الرسول ﷺ من محاولات لتخفيف الأمر على المسلمين شفقة عليهم لفرط رحمته بهم، ومع ذلك لا يُمضي هذا العمل حتى يستشيرهم ثم ينزل على رأيهم فيما أشاروا به، ومن هذا الموقف يتبين لنا صدق إيمان الصحابة رضوان الله تعالى عليهم، ومحبتهم لرسولهم ﷺ، مع ارتفاع روحهم المعنوية وثقة بما عند الله تعالى، وهذا هو الإيمان الرفيع الذي لم تشهد الدنيا له مثيلًا في غير صحابة رسول الله ﷺ.

ويأتي دور الحرب النفسية بأوسع معانيها في خدعة نعيم بن مسعود الأشجعي ﷺ، حيث جاء إلى رسول الله ﷺ مسلمًا بدون علم أهله وعشيرته قائلًا: مرني بما شئت يا رسول الله، فقال له الرسول ﷺ: «**إِنَّمَا أَنْتَ فِينَا رَجُلٌ وَاحِدٌ، فَخَذِّلْ عَنَّا إِنْ اسْتَطَعْتَ، فَإِنَّ الْحَرْبَ خَدْعَةٌ**»، وقام نعيم بن مسعود ﷺ بدوره كاملًا في التخذيل بين اليهود والأحزاب، وفي إزالة الثقة فيما بينهم كما سبق ذكره.

وعندئذ وصل هؤلاء إلى درجة من الحيرة والقلق، وأصبحوا لا يستطيعون أن يميزوا بين ما هو صادق، وما هو كاذب، وبهذا الأسلوب نشر نعيم ﷺ إشاعته لإيجاد جو من عدم الثقة بين بني قريظة والمشركين، وأصبح من السهل تحطيم التعاون اللازم؛ وذلك نتيجة مباشرة لازدياد الشك، فإن الشائعة لا تثبت أي شيء بل تؤدي عملها فقط ولو استطاعت أن تخلق جوًّا من عدم الثقة.

وفعلًا تحقق هذا وتفرقت قلوب الأحزاب وزالت الثقة بينهم، فقال أبو سفيان بن حرب: ألا أراني أستعين بإخوة القردة والخنازير. [**الطبقات الكبرى لابن سعد ٢/ ٦٩**].

وهكذا كانت دعوة نعيم ﷺ البارعة سببًا في تفرق جمع الأعداء، وكان من صنع الله لرسوله ﷺ وللمؤمنين أن بعث ريحًا شديدة وأمطارًا غزيرة في ليلة قارسة البرد فتوترت أعصاب الأحزاب وجن جنونهم، وألقى الله الرعب والفزع في قلوبهم، فرجعوا إلى بلادهم خاسرين: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾﴾ [المدثر].

وكان هذا بمثابة تمهيد للقضاء على يهود بني قريظة كما سأتحدث عنه الآن.

خامسًا: ذكرتُ فيما مضى أن الرسول ﷺ أرسل حذيفة بن اليمان ﷺ ليستطلع خبر القوم، ثم رجع وأخبر الرسول ﷺ برحيلهم، ففرح الرسول ﷺ بهذا الخبر وسجد لله شكرًا، ثم هتف وهتفت وراءه أصحابه: «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ، أَعَزَّ جُنْدَهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ، وَغَلَبَ الأَحْزَابَ وَحْدَهُ، فَلَا شَيْءَ بَعْدَهُ**».

وكان غدر يهود بني قريظة ونقضهم للعهد المبرم بينهم وبين الرسول ﷺ سببًا في إعادة الأمل قويًا في نفوس المشركين فَعَلَتْ روحهم المعنوية، وكان هو السبب الأوحد في زلزلة المسلمين وخوفهم، وكان لابد أن يُكال لهم بنفس الكيل الذي اكتالوا به.

من هذا نرى أن رسول الله ﷺ سارع إلى تصفية الأحياء اليهودية بالقضاء على بني قريظة في غزوة الأحزاب، ثم القضاء على أحيائهم في خيبر وغيرها على الطريق إلى الشام.

إن تحقيق النصر الحاسم والغلبة على الأعداء يتم من خلال الانهيار النفسي قبل المعركة وبعدها لا أثناءها فحسب.

لقد اختار بنو قريظة بأنفسهم سعد بن معاذ رضي الله عنه، وكان قبل إسلامه حليفًا لهم لكي يحدد العقوبة التي يستحقونها على خيانتهم ونقض ميثاق الرسول ﷺ أكثر من مرة، فاختار سعد رضي الله عنه العقوبة التي قدرها الله تعالى عليهم، فقد حكم سعد رضي الله عنه بقتل ذكور بني قريظة وسبي نسائهم وذراريهم.

سادسًا: وقبل أن أنتهي من هذا الفصل لا يفوتني أن أذكر جانبًا من الحرب النفسية في غزوة الأحزاب وهو هام، وذلك أن المنافقين الذين يضمرون العداوة للإسلام والمسلمين ويدبرون ما يستطيعون تدبيره بأساليب المكر والخداع أملًا في أن يقضوا على الإسلام وأهله، ومواقفهم في غزوة الأحزاب بالذات تنبع عن سوء نيتهم وهم يثبطون الهمم ويضعفون العزائم، لقد جاء على ألسنتهم ما ينبئ عن سوء معتقداتهم حين شككوا في وحي الله إلى رسوله ﷺ قائلين: ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ۝١٢﴾ [الأحزاب].

وخطوة ثانية هي انتحالهم الأعذار الكاذبة لترك المسلمين في ساحة القتال وحدهم أمام العدو الغاشم، وهم بذلك يحاولون أن يُضعفوا المؤمنين معنويًا وأن يؤثروا عليهم نفسيًّا، فقد ذكَّرهم الحق بالمواثيق التي أخذوها على أنفسهم، ولكن ظلام قلوبهم حال بينهم وبين أن يستمعوا إلى الحق، ولكن من فضل الله على المؤمنين أن نصرهم بفضله، وباءت كل تدبيرات المنافقين بالفشل الذريع.

وبعد: فإن العالم الآن قد طغت عليه سحب المادية واحتواه ضباب الشك ونكَّد عليه حياته وهمُّ الباطل، فهو يخاف من كل شيء يترقبه، فهو مضطرب يتهدده القلق النفسي ويود أن يشفى منه، وليس هناك شفاء إلا الإيمان بالله تعالى، والمؤمنون وحدهم هم الذين لا يُصابون بمرض القلق النفسي، إن المؤمن قد وثق بربه إذ يقول: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًاۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔاۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۝٥٥﴾ [النور].

والمؤمن الحق هو الذي يأنس بالله ويشتغل بذكره، ويطمئن له قلبه، ويجد فيه سعادة حياته وراحة نفسه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الرعد].

إن المؤمنين يأتون بإيمانهم في أوقات المحن ويرجون رحمة الله في ساعات لا يثبت فيها غيرهم، ثم إن الله تعالى يعطي المؤمنين به من المدد الواسع ما لا تدركه البصائر ولا الأبصار، ويمنحهم من العون في أقصى الظروف ما يفرج به كربهم ويهون به عليهم، وما ذلك إلا بفضل الإيمان، وليس هذا مجرد كلام نظري، وإنما هو واقع عملي جسده وعبر عنه أصدق تعبير تسلسل الأحداث في غزوة الأحزاب، بل جسده ويجسده ما يتعرض له أهل الحق في مواجهتهم للباطل وأهله».

[دور الحرب النفسية في غزوتي أُحد والأحزاب للسيد ١٧٧-١٨٦].

المبحث الثالث

الدروس الفقهية

١ ـ ينبغي للإمام إذا خرج للغزو أن يقيم في البلد نائبًا عنه:

يقول د/ الفنيسان: «وهذه سُنَّة الرسول ﷺ في كل غزوة من غزواته، وفي هذه الغزوة استخلف على المدينة ابن أم مكتوم ﷺ». [غزوة الأحزاب للفنيسان ٢٢١].

ويقول د/ المدخلي: «وهذا مبدأ إسلامي مشروع شرعه النبي ﷺ في عهده، فالاقتداء به في ذلك مشروع.

وقد كان ﷺ في كل غزوة، وفي كل سفر يعزم عليه يعين نائبًا على المدينة يقوم بالصلاة بأهلها ممن تخلفوا عن القتال لعجز، أو إعالة ضعفاء، أو تمريض مرضى، وغير ذلك من رعاية شؤون أهل المدينة.

وفي هذه الغزوة عين ﷺ ابن أم مكتوم ﷺ، وقد استخلفه النبي ﷺ على المدينة ثلاث عشرة مرة، وكان يستخلفه على المدينة يصلي بالناس في عامة غزواته». [مرويات غزوة الخندق للمدخلي ٤٣٢].

ويقول د/ بربر : «إن من أهم واجبات الإمام إذا خرج بنفسه إلى المعركة، أن يؤمن الجبهة الداخلية للدولة عند خروجه، وأن يستخلف بعده القوي الأمين الذي يحافظ عليها، ويقوم بالواجبات نيابة عن الإمام حتى يعود، يكون مددًا لهم ويحافظ على مصالح البلد، فلا تحدث اضطرابات سياسية، أو اقتصادية، أو أمنية، تؤثر على نفوس الجنود في المعركة فيصابوا بالهزيمة والانكسار.

[فقه الجهاد للقرضاوي ١/ ٦٦١].

لكن الوضع قد تغير اليوم، فلم يعد الإمام أو ما يسمى برئيس الدولة هو من يقود المعركة، فقد أصبح للجيش قائدًا هو من يدير المعركة، والإمام ومساعدوه من الوزراء وأصحاب الولايات يديرون شؤون البلد، لكن قد يسافر الإمام خارج البلد أو يُصاب بعجز، أو مرض، عندها يفوض صلاحياته لنائبه، أو أحد نوابه إن كان له أكثر من نائب، أو حتى رئيس وزرائه بحسب ما ينص عليه دستور بلده».

[الأحكام الفقهية المستفادة من غزوتي الأحزاب وبني قريظة لبربر ١٧٣].

٢ ـ استعراض الإمام للجيش قبل وقوع القتال:

يقول د/ المدخلي: «كما في حديث ابن عمر ﷺ أن النبي ﷺ عرضه يوم أحد وهو ابن أربع عشرة سنة فلم يجزه وعرضه يوم الخندق وهو ابن خمس عشرة سنة فأجازه الحديث.

وقد وقع هذا من النبي ﷺ في بدر، وأُحُد وغيرهما.

وخروج صغيري السن لم يحدث إلا عند أولئك الذين يستشعرون قيمة الشهادة وتهون أنفسهم في سبيل الله طمعًا فيما عنده من مغفرة ورضوان.

أما في هذه العصور المتأخرة التي طغى فيها حب الحياة وحب متاعها الفاني فلربما لا يخرج كبار السن إلا بالقوة ويدفعون إلى الخير دفعًا.

قال الحافظ: «وَعِنْدَ الْمَالِكِيَّةِ وَالحَنَفِيَّةِ لَا تَتَوَقَّفُ الإِجَازَةُ لِلْقِتَالِ عَلَى الْبُلُوغِ، بَل لِلإِمَامِ أَنْ يُجِيزَ مِنَ الصِّبْيَانِ مَنْ فِيهِ قُوَّةٌ وَنَجْدَةٌ، فَرُبَّ مُرَاهِقٍ أَقْوَى مِنْ بَالِغٍ.

وَحَدِيثُ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما حُجَّةٌ عَلَيْهِمْ، وَلَا سِيَّمَا الزِّيَادَة الَّتِي جَاءَتْ عَنْ ابْن جُرَيْجٍ «عُرِضْتُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ يَوْم الخَنْدَقِ فَلَمْ يُجِزْنِي، وَلَمْ يَرَنِي بَلَغْتُ». [فتح الباري ٥/ ٢٧٩].

وفي الحديث أيضًا من العبر: حسن أخلاقه ﷺ ومعرفته التامة بأحوال أصحابه واحترامه لهم ولأبنائهم رغم عظم الرسالة والأعباء التي حملها، ولا غَرْوَ فقد قال ﷺ: «**لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا، وَيُوَقِّرْ كَبِيرَنَا [وَيَعْرِفْ شَرَفَ كَبِيرِنَا]**». [الترمذي في البر والصلة (١٩١٩-١٩٢١)، ومسند أحمد ١١/ ٥٢٧، ٥٢٩ رقم ٦٩٣٥، ٦٩٣٧، ٣٧/ ٤١٦ رقم ٢٢٧٥٥ وقال الشيخان الألباني والأرناؤوط: صحيح].

[مرويات غزوة الخندق للمدخلي ٤٣٩-٤٤٠].

٣ ـ حكم اشتراك الأولاد في الجيش، ودورهم فيه:

عَنْ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: **عَرَضَنِي رَسُولُ الله ﷺ يَوْمَ (أُحُدٍ) فِي القِتَالِ، وَأَنَا ابْنُ أَرْبَعَ عَشْرَةَ سَنَةً، فَلَمْ يُجِزْنِي، وَعَرَضَنِي يَوْمَ (الخَنْدَقِ) وَأَنَا ابْنُ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً فَأَجَازَنِي**.

قَالَ نَافِعٌ: فَقَدِمْتُ عَلَى عُمَرَ بْنِ عَبْدِ العَزِيزِ وَهُوَ يَوْمَئِذٍ خَلِيفَةٌ فَحَدَّثْتُهُ هَذَا الحَدِيثَ، فَقَالَ: إِنَّ هَذَا لَحَدٌّ بَيْنَ الصَّغِيرِ وَالكَبِيرِ، فَكَتَبَ إِلَى عُمَّالِهِ أَنْ يَفْرِضُوا لِمَنْ كَانَ ابْنَ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً، وَمَنْ كَانَ دُونَ ذَلِكَ فَاجْعَلُوهُ فِي العِيَالِ». [البخاري رقم (٢٦٦٤، ٤٠٩٧)، ومسلم (١٨٦٨) واللفظ له، والترمذي (١٧١١). وجاء في مختار الصحاح ص ٣٩٩: «عيال الرجل: من يعوله وواحد العيال: عيل، كجيد»].

وقد سبق تفصيله في الدروس الفقهية المستفادة من المرحلة الأولى من غزوة أحد.

٤ ـ يُسن استعراض الغلمان وإجازة المطيق منهم للحرب:

يقول د/ الفنيسان: «كانت سُنَّة رسول الله ﷺ أن يستعرض الغلمان في كل غزوة، فيَقبل من يقبل، ويَرد من يرد، وفي غزوة الخندق كان ممن استعرض فأجيز عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما».

[غزوة الأحزاب للفنيسان ٢٢١].

٥ ـ البلوغ شرط في وجوب المشاركة في القتال:

وقد سبق تفصيله في الدروس الفقهية المستفادة من المرحلة الأولى من غزوة أحد.

ويقول د/ بربر: «وهذا الحكم من أعظم الأحكام التي أظهرت معاني الرحمة والإنسانية في هذا الدين العظيم، وكثيرًا ما نسمع اليوم عن منظمات حقوق الإنسان في الغرب، وهي تتكلم عن حقوق الأطفال،

وتدعو إلى منع تجنيدهم قبل سن البلوغ، وكأنها صاحبة السبق إلى إقرار هذا المبدأ، ونسي العرب وعملاؤه دين الرحمة والإنسانية وهو يقر هذا المبدأ قبل ١٤٠٠عامًا، حينها كان الغرب يعيش في القرون الوسطى التي سحقت فيها كل قيم الإنسانية، ومع ذلك تجد أعداء هذه الأمة، ومن سار في ركابهم من أبنائها، يلصقون تهم التطرف والإرهاب، وغيرها من التهم الباطلة بهذا الدين العظيم، فلا حول ولا قوة إلا بالله». [الأحكام الفقهية المستفادة من غزوتي الأحزاب وبني قريظة لبرير ١٣٤-١٣٥].

٦ ـ حكم الشعار في الغزوة:

سبق تفصيل الحديث عنها في الدروس العسكرية المستفادة من المرحلة الثانية من غزوة بدر الكبرى، تحت عنوان: «**أهمية الشارة والشعار في المعارك**».

[وينظر: الأحكام الفقهية المستفادة من غزوتي الأحزاب وبني قريظة لبرير ٢٥٦-٢٥٧].

٧ ـ يجوز للأمير أو القائد أن يتخذ له حرسًا:

يقول د/ الفنيسان: «وجه ذلك أن رسول الله ﷺ نادى عباد بن بشر ﷺ فقال: «**يَا عَبَّادَ ابْنَ بِشْرٍ**»، فَقَالَ عَبَّادٌ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ الله، قَالَ: «**أَمَعَكَ أَحَدٌ؟**» قَالَ: نَعَمْ، أَنَا فِي نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِي كُنَّا حَوْلَ قُبَّتِكَ رَسُولَ الله!

فبعثه يطيف بالخندق وأبقى أصحابه عنده». [غزوة الأحزاب للفنيسان ٢٢٧].

٨ ـ مقتل طليعة المسلمين شهادة:

«الذي يُقتل من المسلمين في مهمة عسكرية كالمرسَلِ في مهمة استخبارية أو استكشافية يموت شهيدًا له أجر الشهداء، حي عند ربه يُرزق». [غزوة الأحزاب لأبي فارس ٩١].

٩ ـ جواز التورية في الكلام أو اللحن:

يقول د/ أبو فارس: «أخذنا هذا من قوله ﷺ للنفر الذين أرسلهم لاستطلاع خبر بني قريظة: «**انْطَلِقُوا حَتَّى تَنْظُرُوا، أَحَقٌّ مَا بَلَغَنَا عَنْ هَؤُلَاءِ القَوْمِ أَمْ لَا؟ فَإِنْ كَانَ حَقًّا فَالحَنُوا لِي لَحْنًا أَعْرِفُهُ**».

واللحن كما مر هو التورية في الكلام إذ يقصد المتكلمُ معنى يتبادر لذهن السامع معنى غيره.

واللحن في الكلام هو العدول بالكلام عن الوجه المعروف لدى الناس إلى وجه لا يعرفه إلا صاحبه، واللحن التورية والألغاز. [الروض الأنف ٣/ ٢٧٨].

والتورية في الكلام أن يقصد المتكلم في كلامه معنى لا يدركه كثير من الناس المخاطبين، بل قد يفهمون معنى غيره، وهو المعنى المتبادر للذهن.

وطريقة إخبار السعدين الرسول ﷺ بحقيقة موقف بني قريظة كانت في غاية التوفيق إذ وريا في كلامهما، فقالا: **عَضَلٌ وَالقَارَةُ**.

ويمكن لكل مسلم أن يسلك هذا الأسلوب في كل عصر ومصر، وهو مشروع ومستحب بشريطة ألا يظلم أحدًا من الناس في كلامه أو يضيع حقًّا من حقوقه».

أقول: إن التورية مشروعة ثبتت مشروعيتها بكتاب الله تعالى، وسنة نبيه محمد ﷺ القولية والفعلية، ولقد عمل بها الصحابة رضوان الله عليهم في حوادث كثيرة، لكن المشروعية ليست على عمومها وإطلاقها، وإنما يقيد جوازها بألا تؤدي إلى ظلم الناس وضياع حقوقهم».

[غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٤٩، ١٥١، الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢/ ٣١-٣٢، وقد سبق تفصيله في الدروس التربوية، والفقهية، والعسكرية من المرحلة الأولى من غزوة بدر الكبرى].

١٠ ـ حكم الفرار من المعارك:

قام المنافقون بالانسحاب من المعسكر المواجه للأحزاب على مشارف الخندق بحجة أنهم بحاجة إلى حماية بيوتهم المكشوفة الواقعة في أطراف المدينة.

وما كان قصد هؤلاء المنافقين حماية بيوتهم، وإنما قصدهم الفرار ثم بث الفزع وروح الهزيمة والتذمر داخل الجيش الصغير الذي أحاط به عدوه من كل مكان».[غزوة الأحزاب لباشميل ١٧١-١٧٢].

وقد سبق تفصيله في الدروس الفقهية المستفادة من المرحلة الثالثة من غزوة بدر الكبرى.

[وينظر للتفصيل أيضاً: الأحكام الفقهية المستفادة من غزوتي الأحزاب وبني قريظة لبربر ١١٠-١٢٨].

١١ ـ حكم الإرجاف في المعركة:

يقول د/ بربر: «**أولًا: تعريف الإرجاف:**

أ- **الإرجاف في اللغة**: من رجف، والرجفان الاضطراب الشديد، ورجف الشيء يرجف رجفًا ورجوفًا ورجفانًا ورجيفًا، وأرجف: خفق واضطرب اضطرابًا شديدًا.

[ينظر: لسان العرب لابن منظور ٩/ ١١٢، والمصباح المنير للفيومي ١/ ٢٢٠].

والإرجاف: الأخبار، وقد أرجفوا في الشيء: أي خاضوا فيه. [لسان العرب لابن منظور ٩/ ١١٣].

وأرجف القوم: إذا خاضوا في الأخبار السيئة، وذكر الفتن، قال الله تعالى: ﴿وَٱلۡمُرۡجِفُونَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ﴾ [الأحزاب:٦٠]، وهم الذين يفترون الأخبار الكاذبة التي يكون معها اضطراب.

[ينظر: لسان العرب لابن منظور ٩/ ١١٣، والمعجم الوسيط ـ مجمع اللغة العربية ١/ ٣٣٢، وتاج العروس للزبيدي ٢٣/ ٣٢٥، والمصباح المنير للفيومي ١/ ٢٢٠].

ب- **الإرجاف في الاصطلاح**: قال ابن عباس رضي الله عنهما: الإرجاف التماس الفتنة، وإشاعة الكذب والباطل؛ للاغتنام به. [تفسير القرطبي ١٤/ ٢٤٦، وتفسير البحر المحيط لأبي حيان ٧/ ٢٤١].

فالإرجاف بث ونشر الأخبار الكاذبة المثبطة والمحبطة، بغرض إحداث الاضطراب، وزعزعة الثقة والأمن والإيمان في نفوس المؤمنين.

والمرجفون هم الذين يخبرون المؤمنين بما يسوؤهم من عدوهم، فيقولون إذا خرجت السرايا: قُتلوا، أو هُزموا، أو العدو قد أتاكم.

[تفسير القرطبي ١٤/ ٢٤٥، والتسهيل لعلوم التنزيل للغرناطي ٣/ ١٤٤، وتفسير ابن كثير ٣/ ٥٢٠].

ثانيًا: حكم الإرجاف وعقوبته:

أ- حكم الإرجاف: قال تعالى: ﴿ ۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ ﴾ [الأحزاب].

أجمع المسلمون على حرمة إيذاء المسلم بقول أو فعل. [ينظر: بدائع الصنائع للكاساني ٧/ ١٧٧، وسبل السلام للصنعاني ٣/ ١٣٩، وشرح الزرقاني ٤/ ٣١٦]؛ وذلك لقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾ ﴾ [الأحزاب].

أي بغير جناية واستحقاق للأذى. [الكشاف للزمخشري ٣/ ٥٦٩].

وقوله ﷺ: «الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ».

[البخاري في الإيمان (١٠)، وفي الرقاق (٦٤٨٤)، ومسلم في الإيمان (٤١)].

والإرجاف حرام شرعًا؛ لأن فيه أذية للمسلمين، والله تعالى يقول: ﴿ ۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ ﴾ [الأحزاب].

فدلت الآية على تحريم الإيذاء بالإرجاف. [تفسير القرطبي ١٤/ ٢٤٦].

قال الشافعي: «غزا رسول الله ﷺ فغزا معه من يُعرف نفاقه، فانخزل عنه يوم أُحُد بثلاثمائة، ثم شهدوا معه الخندق، فتكلموا بما حكى الله ﷻ من قولهم: ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ ﴾ [الأحزاب]، ثم غزا بني المصطلق فشهدها معه منهم عدد، فتكلموا بما حكى الله ﷻ من قولهم: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [المنافقون:٨]، وغير ذلك مما حكى الله من نفاقهم».

[أحكام القرآن للشافعي ٢/ ٢٦، ومعرفة السنن والآثار للبيهقي ٦/ ٥٠٨].

ب- هل يُمنع المرجف من الخروج مع الجيش؟:

لا خلاف بين العلماء في وجوب منع المرجف من الخروج مع الجيش، إن لزم على خروجه فساد في القتال، أو طمع في المسلمين. [ينظر: المهذب للشيرازي ٢/ ٢٣٠، وحاشيتا قليوبي وعميرة على شرح جلال الدين المحلي على منهاج الطالبين ٤/ ٢١٨، وأحكام القرآن للشافعي ٢/ ٢٦، ومعرفة السنن والآثار للبيهقي ٦/ ٥٠٨، وكشف المخدرات لعبد الرحمن الحنبلي ١/ ٣٤٦، والمغني لابن قدامة ٩/ ١٦٦، والكافي في فقه ابن حنبل لابن قدامة ٤/ ٢٦٣، ومطالب أولي النهى للبهوتي ٢/ ٥٣١، وشرح منتهى الإرادات للبهوتي ١/ ٦٣٠].

والأدلة على منع المرجف من الخروج كثيرة، منها:

١- قوله تعالى: ﴿ ۞ وَلَوْ أَرَادُواْ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [التوبة].

وجه الدلالة في الآية: أخبرنا ﷻ أنه كره انبعاثهم فثبطهم إذ كانوا على هذه النية، فكان فيها ما دل على أن الله ﷻ أمر أن يمنع مَنْ عُرف بها عُرفوا به من أن يغزوا مع المسلمين؛ لأنه ضرر عليهم، والخبال: الفساد والنميمة وإيقاع الاختلاف والأراجيف. [أحكام القرآن للشافعي ٢/ ٢٨، وفتح القدير للشوكاني ٢/ ٣٦٦].

٢- ولأن رسول الله ﷺ لم يكن يخرج بهم أبدا، لما نزل عليه قول الله تعالى: ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [التوبة]. [معرفة السنن والآثار للبيهقي ٦/ ٥٠٨].

ولأن هؤلاء مضرة على المسلمين، ولا يؤمنوا على أسرار الجيش، وإن حصل الالتحام فروا وسببوا ارتباكًا للجيش، فمصلحة المسلمين تقتضي منعهم. [المغني لابن قدامة ٩/ ١٦٦].

٣- ولأن المرجف يبث من الأخبار الكاذبة ما يكون سببًا في إضعاف معنويات المسلمين.

ج- عقوبة المرجف:

اختلف العلماء في عقوبة المرجف في قوله تعالى: ﴿ ۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ ﴾ [الأحزاب].

إذا كان مقيمًا على النفاق والإرجاف إلى ثلاثة أقوال:

القول الأول: قال الطبري: الأمر بقتلهم وأخذهم إذا كانوا مقيمين على النفاق والإرجاف. [ينظر: تفسير الطبري ٢٢/ ٤٨، وفتح القدير للشوكاني ٤/ ٣٠٥، والتمهيد لابن عبد البر ١٠/ ١٥٤، وتفسير القرطبي ١٤/ ٢٤٧].

القول الثاني: قال ابن عباس رضي الله عنهما: لنغرينك بهم: لنسلطنك عليهم، ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلًا بالنفي. [أحكام القرآن للجصاص ٥/ ٢٤٥، وفتح القدير للشوكاني ٤/ ٣٠٥].

القول الثالث: قال الشوكاني: الآية دعاء عليهم بأن يؤخذوا ويقتلوا تقتيلًا، وليس حكمًا.

[فتح القدير للشوكاني ٤/ ٣٠٥].

الترجيح: الراجح ـ والله أعلم ـ أن الأمر عائد إلى الإمام، يراعي فيه مصلحة الجماعة المسلمة، فقد تقتضي المصلحة التحذير منهم بدون عقوبة، ويكتفي بالدعاء عليهم إذا لم يتسببوا بقتل مسلم.

وهو ما تعامل به النبي ﷺ مع المنافقين في زمانه، فلم يقتلهم مع أنهم يستحقون القتل، فقد أرجفوا في غزوة الأحزاب والمسلمون في أضيق حال، وفي غيرها من الغزوات، ومع هذا لم يقتلهم ﷺ، وعلل ذلك بقوله ﷺ: «**لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ**».

[البخاري في تفسير القرآن (٤٩٠٧)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٨٤)].

أو النفي في حالة انتفت العلة ـ حديث الناس ـ التي يستخدمها أعداء الإسلام لتشويه صورة الإسلام، فيكون هذا العمل صدًّا لهم عن دين الله تعالى.

أما في حال تسببوا بقتل مسلم، فلا مناص من قتل من تسبب في ذلك.

[الأحكام الفقهية المستفادة من غزوتي الأحزاب وبني قريظة لبرير ١٢٩-١٣٣].

١٢ ـ حكم سفر الواحد بمفرده:

عن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمَ الأَحْزَابِ: «**مَنْ يَأْتِينَا [يَأْتِينِي] بِخَبَرِ الْقَوْمِ؟**»، فَقَالَ الزُّبَيْرُ رضي الله عنه: أَنَا، ثُمَّ قَالَ: «**مَنْ يَأْتِينَا [يَأْتِينِي] بِخَبَرِ الْقَوْمِ؟**»، فَقَالَ الزُّبَيْرُ رضي الله عنه: أَنَا، ثُمَّ قَالَ: «**مَنْ يَأْتِينَا [يَأْتِينِي] بِخَبَرِ الْقَوْمِ؟**»، فَقَالَ الزُّبَيْرُ رضي الله عنه: أَنَا، ثُمَّ قَالَ: «**إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيًّا وَإِنَّ حَوَارِيَّ الزُّبَيْرُ**». [البخاري في المغازي (٤١١٣)، وفي الجهاد (٢٨٤٦)، والترمذي في المناقب (٣٧٤٥)].

يقول د/ برير: « اختلف العلماء في حكم سفر الواحد بمفرده إلى ثلاثة أقوال:

القول الأول: قول المالكية والحنابلة: يكره الوحدة في السفر.

[ينظر: التمهيد لابن عبد البر ٢٠/ ٦، وكشف القناع للبهوتي ١/ ٧٩، ومطالب أولي النهى للرحيباني ١/ ٦٣، وشرح الزرقاني ٤/ ٥٠٠، وعمدة القاري للعيني ١٤/ ٢٤٧، وزاد المعاد لابن القيم ٢/ ٤٩٩].

وقيَّد مالك الكراهة في سفر القصر. [ينظر: شرح الزرقاني ٤/ ٥٠٠].

القول الثاني: قال ابن المنير: يجوز سفر الرجل وحده بلا كراهة للضرورة والمصلحة، والنهي عن السفر وحده إنما هو من حيث لا تدعو الحاجة إلى ذلك.

[ينظر: فتح الباري لابن حجر ٦/ ١٣٨، عمدة القاري للعيني ١٤/ ١٤٢].

القول الثالث: قال مجاهد: يجوز سفر الرجل وحده مطلقًا بلا كراهة. [ينظر: شرح الزرقاني ٤/ ٥٠٠].

أدلة القول الأول: استدل مَن قال بكراهة سفر الواحد بمفرده بالأدلة التالية:

١- عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مَا فِي الوَحْدَةِ مَا أَعْلَمُ، مَا سَارَ رَاكِبٌ بِلَيْلٍ وَحْدَهُ**». [البخاري في الجهاد والسير (٢٩٩٨)].

وجه الدلالة في الحديث: تحذيره ﷺ عن الوحدة في سير الليل، فدل على كراهته.

[ينظر: عمدة القاري للعيني ١٤/ ٢٤٧].

وقد نوقش: لا يوجد في الحديث ما يدل على الكراهة، وغاية ما يدل عليه استحباب الرفقة في سير الليل.

٢- عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: خَرَجَ رَجُلٌ مِنْ خَيْبَرَ فَتَبِعَهُ رَجُلَانِ وَرَجُلٌ يَتْلُوهُمَا يَقُولُ: ارْجِعَا حَتَّى أَدْرَكَهُمَا فَرَدَّهُمَا، ثُمَّ قَالَ: إِنَّ هَذَيْنِ شَيْطَانَانِ، فَاقْرَأْ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ السَّلَامَ، وَأَعْلِمْهُ أَنَّا فِي جَمْعِ صَدَقَاتِنَا، لَوْ كَانَتْ تَصْلُحُ لَهُ لَبَعَثْنَا بِهَا إِلَيْهِ، قَالَ: فَلَمَّا قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ حَدَّثَهُ، «فَنَهَى عِنْدَ ذَلِكَ عَنِ الْخَلْوَةِ». [المستدرك في الجهاد ٢/ ١١١ رقم ٢٤٩٤، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط البخاري، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، ومسند أحمد ٤/ ٣٠٨ رقم ٢٥١٠، وقال الشيخ الأرناؤوط: إسناده حسن، ٤/ ٤٥٢ رقم ٢٧١٩، وقال الشيخ الأرناؤوط: إسناده صحيح].

وجه الدلالة في الحديث: فنهى عن الخلوة أي السفر مفردًا، وحملوا النهي على الكراهة. [فتح الباري لابن حجر ٦/ ٣٤٥].

٣- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**الْوَاحِدُ شَيْطَانٌ، وَالِاثْنَانِ شَيْطَانَانِ، وَالثَّلَاثَةُ رَكْبٌ**».

[المستدرك في الجهاد ٢/ ١١٢ رقم ٢٤٩٦، وقال الذهبي: على شرط مسلم، وَعَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما ـ صحيح ابن خزيمة في المناسك ٤/ ١٥٢ رقم ٢٥٧٠، وقال الشيخ الأعظمي: إسناده حسن، وقال ابن حجر: حسن الإسناد. ينظر: فتح الباري لابن حجر ٦/ ٥٣].

وجه الدلالة في الحديث: مثَّل المسافر الواحد بالشيطان، والاثنين بالشيطانين؛ لأن كلًّا منهما متعرض لذلك، وقيل: سميا بذلك؛ لأن كل واحد من القبيلين يسلك سبيل الشيطان في اختياره الوحدة في السفر. [شرح الزرقاني ٤/ ٥٠٠].

وفي هذا الحديث كراهة الوحدة في السفر. [التمهيد لابن عبد البر ٢٠/ ٦].

أدلة القول الثاني: استدل مَن أجاز سفر الواحد بمفرده بلا كراهة إذا دعت الضرورة أو المصلحة بالأدلة التالية:

١- حديث جابر رضي الله عنه المتقدم، وفيه بعث رسول الله ﷺ الزبير رضي الله عنه إلى بني قريظة وحده، فهو دليل على جواز سفر الرجل وحده للضرورة بلا كراهة. [ينظر: فتح الباري لابن حجر ٦/ ٥٣].

٢- قال ابن المنير: السير لمصلحة الحرب أخص من السفر، والخبر ورد في السفر، فيؤخذ من حديث جابر جواز السفر منفردًا للضرورة والمصلحة التي لا تنتظم إلا بالانفراد، كإرسال الجاسوس والطليعة، والكراهة لما عدا ذلك، ويحتمل أن تكون حالة الجواز مقيدة بالحاجة عند الأمن، وحالة المنع مقيدة بالخوف حيث لا ضرورة، وقد وقع في كتب المغازي بعث كل من: حذيفة، ونعيم بن مسعود، وعبد الله بن أنيس، وخوَّات بن جبير، وعمرو بن أمية، وسالم بن عمير، وبسيسة، في عدة مواطن، وبعضها في الصحيح». [فتح الباري لابن حجر ٦/ ١٣٨].

أدلة القول الثالث: أما مَن أجاز سفر الواحد منفردًا في كل الأحوال بلا كراهة فاستدل بالتالي:

١- حديث جابر ﷺ السابق، فالرسول ﷺ بعث الزبير ﷺ إلى بني قريظة وحده، مع وجود الخوف، فقد ردد النبي ﷺ: «**مَنْ يَأْتِينَا [يَأْتِينِي] بِخَبَرِ الْقَوْمِ؟**» ثلاثًا، ولم يجبه إلا الزبير ﷺ.

٢- وقالوا: حديث أبي هريرة ﷺ السابق الذي فيه أن الواحد شيطان لم يقله النبي ﷺ، ولكن قال عمر ﷺ: «**كُونُوا فِي أَسْفَارِكُمْ ثَلَاثَةً، إِنْ مَاتَ وَاحِدٌ وَلِيَهُ اثْنَانِ، الْوَاحِدُ شَيْطَانٌ، وَالِاثْنَانِ شَيْطَانَانِ**»، يحتاط للمسلمين. [شرح الزرقاني على الموطأ ٤/ ٥٠٠].

وقد نوقش: أن حديث أبي هريرة ﷺ مرفوع إلى النبي ﷺ.

[تنوير الحوالك شرح موطأ مالك للسيوطي ٢/ ٢٤٨، والحديث مرفوع، كما سبق في تخريجه].

الترجيح: الراجح ـ والله أعلم ـ هو جواز سفر الرجل وحده بلا كراهة للضرورة أو المصلحة، والنهي عن السفر وحده، إنما هو حيث لا تدعو الحاجة إلى ذلك جمعًا بين الأدلة.

وقد تغير الحال في هذا الزمان، فقد أصبحت المواصلات مهيأة ولله الحمد، فيستطيع المسافر من خلال الهاتف المحمول الإخبار عن مكانه وما يحدث له، بل وينقل ذلك بالصوت والصورة، وكذلك أصبح السير في السيارات أو القطارات وغيرها من وسائل المواصلات أكثر أمانًا مما كانت عليه المواصلات في الزمن الماضي.

فالعلة من النهي: الاستيحاش؛ لأن الإنسان إذا سار بمفرده أحس بالوحشة.

[شرح الزرقاني على الموطأ ٤/ ٥٠٠].

وقيل: إنما كره ذلك؛ لأن الواحد لو مات في سفره ذلك لم يجد من يقوم عليه، وكذلك الاثنان إذا ماتا أو أحدهما لم يجد من يعينه. [فتح الباري لابن حجر ٦/ ٥٤].

وسواء كانت العلة الوحشة، أو خوف الموت وحيدًا، فمع وجود المواصلات الحديثة انتفت العلتان، والحكم يدور مع علته وجودًا وعدمًا. [ينظر: إعلام الموقعين لابن القيم ٤/ ١٠٥].

لكن الأفضل والأولى ألا يسافر وحيدًا».

[الأحكام الفقهية المستفادة من غزوتي الأحزاب وبني قريظة لبربر ٢١١-٢١٤].

١٣ ـ حكم التثبت من نقض المعاهد للعهد:

يقول د/ بربر: « يجب على المسلمين التثبت من نقض المعاهد للعهد؛ لأن التثبت في الأمور وعدم الاستعجال منهج إسلامي متميز يحفظ على المجتمع تماسكه وتآلفه، ويحميه من الأخطاء والزلات التي يتبعها فساد عريض؛ ولأجل ذلك نبه القرآن الكريم على حكم هذا المنهج العظيم فقال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ٦﴾ [الحجرات].

وقال ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَتَبَيَّنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴿٩٤﴾ ﴾ [النساء].

ففي الآيتين أمر بعدم مباشرة الحرب إلا بعد التبين.

قال الشافعي: «أمر الله من يمضي أمره على أحد من عباده أن يكون مستبينًا قبل أن يمضيه».

[الأم للشافعي ٧/ ٩٤].

وقال الجصاص: «فيه أمر بالتثبت لئلا يصيب بجهالة، فاقتضى النهي عن الإقدام إلا بعد العلم؛ لئلا يصيب القوم بجهالة». [أحكام القرآن للجصاص ٥/ ٢٧٨].

وهو المنهج الذي تعامل به النبي ﷺ مع بني قريظة عندما نقضوا العهد، كما في حديث جابر ﵁ المتقدم، فقد قاله النبي ﷺ عند إرسال الزبير بن العوام ﵁ لكشف خبر بني قريظة، هل نقضوا العهد أم لا؟ [السيرة الحلبية للحلبي ٢/ ٦٥١].

ولم يكتف النبي ﷺ بذلك، بل أراد مزيدًا من الاستيثاق، فبعث سعد بن معاذ ﵁، وهو يومئذ سيد الأوس، وسعد بن عبادة ﵁، وهو يومئذ سيد الخزرج، ومعهما عبد الله بن رواحة، وخوات بن جبير ﵄، قال ﷺ: «**انْطَلِقُوا حَتَّى تَنْظُرُوا، أَحَقٌّ مَا بَلَغَنَا عَنْ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ أَمْ لَا؟ فَإِنْ كَانَ حَقًّا فَالْحَنُوا لِي لَحْنًا** (اللحن: اللغز، وهو أن يخالف ظاهر الكلام معناه) **أَعْرِفُهُ، وَلَا تَفُتُّوا فِي أَعْضَادِ النَّاسِ** (فت في عضده، إذا أضعفه وأوهنه)، **وَإِنْ كَانُوا عَلَى الوَفَاءِ فِيمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ، فَاجْهَرُوا بِهِ لِلنَّاسِ**». [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٢٢].

فبنو قريظة هم حلفاء الأوس، وإذا كان أحد قادرًا على ثنيهم على عزمهم نقض العهد فهما سيدا الأوس والخزرج، فالمهمة مزدوجة، وهي التأكد من صحة الخبر، ومحاولة ثنيهم عن غدرهم، وتحميلهم مغبة هذا الغدر [التربية الجهادية للغضبان ٢/ ١٩٤]».

[الأحكام الفقهية المستفادة من غزوتي الأحزاب وبني قريظة لبربر ٣٠٦-٣٠٧].

١٤ ـ حكم كتمان بعض المعلومات عن الجيش:

يقول د/ بربر: «يشرع لقائد الجيش أن يُخفي من أمره ما أمكن إخفاؤه حتى عن جنوده؛ لئلا يعلم به عدوه. [ينظر: الكافي في فقه ابن حنبل لابن قدامة ٤/ ٢٦٦، والمبدع لابن مفلح ٣/ ٣٣٩، وكشف القناع للبهوتي ٣/ ٦٥، وسبل السلام للصنعاني ٤/ ٤٨، ونيل الأوطار للشوكاني ٨/ ٥٦، وشرح النووي على صحيح مسلم ١٧/ ١٠٠].

فقد كان في إظهار خبر نقض بني قريظة للعهد فت في عضد المسلمين، فأخفاه ﷺ استبقاءً لهم، بل تجاوز ذلك إلى بعث روح الطمأنينة فيهم، حيث كبَّر وبشَّرهم بالنصر.

[زاد المعاد لابن القيم ٣/ ٢٧٢، ودلائل النبوة للبيهقي ٣/ ٤٣٠].

لأن من الأخبار ما يكون صحيحًا، لكنه غير صالح للنشر، ثم ما كان منها صالحًا للنشر لا يصح أن يُنشر بصورة ترعب المسلمين، وتزيد من وجلهم؛ لأن ذلك في الحقيقة استدراج من العدو؛ للوقوع في أسر الحرب الإعلامية التي ما هي إلا طليعة العدو في حربه المتواصلة علينا.

وقد تحلى رسول الله ﷺ بصفة الكتمان في عامة غزواته، وكانت صفة بارزة له في غزواته كلها.
[السيرة النبوية للصلابي ١/ ٣٩٦].

فقد جاء في حديث كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ قَلَّمَا يُرِيدُ غَزْوَةً يَغْزُوهَا إِلاَّ وَرَّى بِغَيْرِهَا ... [البخاري في الجهاد والسير (٢٩٤٨)، ومسلم في التوبة (٢٧٦٩)].

قال النووي: «ينبغي لأمير الجيش إذا أراد غزوة أن يوري بغيرها لئلا يسبقه الجواسيس ونحوهم بالتحذير، إلا إذا كانت سفرة بعيدة فيستحب أن يعرفهم البعد ليتأهبوا» [شرح النووي على مسلم ١٧/ ١٠٠].

وقال ابن الأمير الصنعاني: « وكانت توريته أنه إذا أراد قصد جهة سأل عن طريق جهة أخرى إيهامًا أنه يريدها، وإنما يفعل ذلك؛ لأنه أتم فيما يريده من إصابة العدو، وإتيانهم على غفلة من غير تأهبهم له».
[سبل السلام ٤/ ٤٨].

فعنصر المفاجأة في الحروب يعتبر من أهم العناصر التي تربك العدو، وتؤدي إلى انهزامه، ولا يمكن أن يكون هذا العنصر فاعلًا إلا مع تمام السرية والكتمان من قِبل القيادة، وأخطر ما يفتك بالجيوش هو انكشاف أسرارها وخططها؛ ولذلك عمل الصهاينة، ومعهم الغرب الصليبي على اختراق معظم الجيوش العربية والإسلامية، ومعرفة كل معلوماتها، بينما العرب والمسلمون لا يعرفون عن جيوش أعدائهم شيئًا، ولكنهم بفضل الله تعالى عجزوا عن معرفة أسرار وخطط وقدرات كتائب المقاومة الفلسطينية، فتفاجأوا بقدراتهم في الحروب الأخيرة، وخاصة في معركة العصف المأكول، فقد فاجأتهم بأسلحة جديدة وفاعلة، كالأنفاق، والتسلل والإنزال خلف خطوط العدو، والقدرات الصاروخية الكبيرة، والطائرات بدون طيار المسماة أبابيل، وغيرها، مما أجبر الكيان الصهيوني على وقف العدوان، والرضوخ لشروط المقاومة ». [الأحكام الفقهية المستفادة من غزوتي الأحزاب وبني قريظة لبرير ٢٩٩-٣٠٠].

١٥ ـ مشروعية الشورى وموضوعها وإلزاميتها:

يقول د/ أبو فارس: «ونستنبط من استشارة الرسول ﷺ لسعد بن معاذ وسعد بن عبادة ﷺ ثلاثة أمور:

الأمر الأول: الشورى مشروعة في الإسلام.

الأمر الثاني: موضوع الشورى في الإسلام هو الأمر الاجتهادي.

أما المسائل التي نص عليها في كتاب الله ﷻ أو سنة رسول الله ﷺ، أو أجمعت الأمة عليها فلا مجال للشورى فيها؛ لأن الشورى اجتهاد، ولا اجتهاد في مورد النص.

وهذا هو مدلول سؤال سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة رضي الله عنهما وجواب الرسول ﷺ عليهما، حين قال له: **يَا رَسُولَ اللهِ، أَمْرًا تُحِبُّهُ فَنَصْنَعُهُ، أَمْ شَيْئًا أَمَرَكَ اللهُ بِهِ لَا بُدَّ لَنَا مِنَ العَمَلِ بِهِ، أَمْ شَيْئًا تَصْنَعُهُ لَنَا؟** فقال رسول الله ﷺ: «**لَوْ أُمِرْتُ بِشَيءٍ لَمْ أَسْتَأْمِرْكُمَا فِيهِ، وَلَكِنْ هَذَا رَأْيٌ أَعْرِضُهُ عَلَيْكُمَا**».

[الأموال لأبي عبيد ٢٣٥-٢٣٦].

تأمل معي قوله ﷺ: «**لَوْ أُمِرْتُ بِشَيءٍ لَمْ أَسْتَأْمِرْكُمَا**» أي لو كان الأمر من عند الله ما طلبت رأيكما وشاورتكما، إنما الذي أعرضه هو رأي اجتهادي أريد أن أسمع رأيكما فيه، فلما علما ذلك ذكرا رأيهما فيه، وعارضا ما كان يراه رسول الله ﷺ.

الأمر الثالث: نتيجة الشورى مُلزمة: ونعني بهذا إذا شاور الأمير مجموعة من أهل الحل والعقد، وكان رأيهم بعد تبادل الآراء والأخذ والعطاء قد استقر على أمر والأمير خالف ما استقر رأيهم عليه، فإن عليه أن يلتزم بأمر الأكثرية، وإن خالفت رأيه.

هذا ما حدث فعلًا في غزوة الأحزاب إذ كان الرسول ﷺ يرى أن يعطي غطفان ثلث ثمار المدينة على أن يعودوا عن حصار المدينة، ويخذلوا عن المسلمين، وكتب هذا بالأحرف الأولى، فلما استشار السعدين خالفا رأيه ورأيا ألا يعطوا غطفان حبة تمر، فأخذ الرسول ﷺ برأيهما وترك رأيه قائلًا: أنت وذاك، فأخذ سعد بن معاذ رضي الله عنه الصحيفة، فمحا ما فيها من الكتاب.

ويذكر الأستاذ الشيخ محمود شلتوت رحمه الله أن سعد بن معاذ رضي الله عنه قد مزق الصحيفة، ويعقب على هذا بقوله: (وهذه الحادثة تضع تقليدًا دستوريًا هامًّا، وهو أن الحاكم ـ ولو كان رسولًا معصومًا ـ يجب عليه ألا يستبد بأمر المسلمين، ولا أن يقطع برأي في شأن هام، ولا أن يعقد معاهدة تُلزم المسلمين بأي التزام دون مشورتهم، وأخذ آرائهم، فإن فعل كان للأمة حق إلغاء كل ما استبد به من دونهم، وتمزيق كل معاهدة لم يكن لهم فيها رأي)[1]. [غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٥٩-١٦٠].

ويقول أ/ حوى: «والقضية الثانية هي إلزامية الشورى، فهنا نرى أن رسول الله ﷺ نزل على رأي السعدين وهما ممثِّلا الأنصار، وبعض الروايات تذكر أن هذا النزول كان بعد أن كتب رسول الله ﷺ العقد ولكنه لم يمضه، وكذلك نزل ﷺ على رأي الأكثرية يوم أُحُد، هذا النزول على رأي ممثلين لجهة أو على رأي الأكثرية يجعلنا نقول بإلزامية الشورى للأمير، ولكنها إلزامية تخضع لقواعد فصلناها في

(١) من توجيهات الإسلام ٥٢٢- ٥٢٣، وينظر بحث نتيجة الشورى في النظام السياسي في الإسلام للمؤلف (د/ أبو فارس)، فقد أسهبت فيه بذكر الأدلة على ذلك.

أكثر من مكان في كتبنا، فالشورى ينبغي أن تُعطى لأهلها، وإذا أُعطيت لأهلها فرأي أكثريتهم ملزم في نفي الضرر أو في استجلاب المصلحة، ومن ذلك يعطي الأمير فرصة تعميم الشورى على دائرة أدنى أو أعلى، ولكن يبقى رأي الأكثرية هو الملزم، وكل ذلك على ضوء القواعد الدستورية أو النظامية المتفق عليها بين المسلمين، وإنما نشترط هذا لأن بعض العلماء لا يرى إلزامية الشورى للأمير، فإذا ما وجد شرط الإلزامية لم يعد لأحد متكأ في رفض شورى الأكثرية من أهلها **(فالمسلمون عند شروطهم)**.

[ذكره البخاري معلقًا (٤/ ٤٥١) ٣٧ في الإجارة باب أجر السمسرة، وأبو داود مطولًا (٣/ ٣٠٤)، في الأقضية، باب في الصلح، عن أبي هريرة بلفظ (على شروطهم)].

وعندئذ فللمرشح للإمرة الحق في أن يقبل الإلزامية فيكون أميرًا أو يرفض فلا يكون، وللذين يرفضون إلزامية الشورى نقول: إن رسول الله ﷺ نزل علي رأي الأكثرية يوم أُحُد وهو يعلم أن رأيهم خطأ، وها هو هنا نزل على رأي ممثلي الأنصار وهم أصحاب العلاقة مع أنه كان مقتنعًا بوجهة النظر الأخرى، أليس هذا يدل في حده الأدنى على سنية النزول على رأي الأكثرية صاحبة العلاقة، فإذا كانت المسألة في حدها الأدنى سنة، ألا يحق للمسلمين أن يعتمدوها؟ ألم يشترط الخضر على موسى عليه السلام وهو ـ أي الخضر ـ دونه؟ والتزم موسى، ألا يكفي هذا للقول: بأن المسلمين إذا اشترطوا على أميرهم أن ينزل على شوراهم فلهم ذلك! أليس مصلحة المسلمين في عصرنا تستدعي ذلك، وهل يسع عصرنا إلا هذا؟ على أنه لا مانع أن يفوض المسلمون من شاؤوا في أمر أو حكم فضلًا عن أن يفوضوا أميرهم، وفي حادثة حكم سعد رضي الله عنه في بني قريظة مأنس لمن يرى ذلك». [الأساس في السنة ـ السيرة لحوى ٢/ ٦٨٦-٦٨٧].

وقد سبق تفصيلها في الدروس الفقهية المستفادة من المرحلة الأولى من غزوة بدر الكبرى، وغيرها.

[وينظر: الأحكام الفقهية المستفادة من غزوتي الأحزاب وبني قريظة لبربر ٢٦٩-٢٨٧].

١٦ ـ حكمة الاستشارة في مفاوضات غطفان:

يقول د/ البوطي: «ما هي الحكمة تُرى في استشارته ﷺ لبعض أصحابه في أن يعرض صلحًا على غطفان، قوامه إعطاؤهم ثلث ثمار المدينة على أن ينصرفوا عن تأييد قريش ومن معهم، ويرجعوا عن حرب المسلمين، وما هي الدلالة التشريعية التي تؤخذ من تفكيره هذا؟

أما الحكمة، فهي أن النبي ﷺ كان يريد أن يطمئن إلى مدى ما يتمتع به أصحابه الصادقون من القوة المعنوية والاعتماد على نصر الله وتوفيقه رغم هذا الذي فوجؤوا به من اجتماع أشتات المشركين عليهم في كثرة ساحقة، إلى جانب ما طلعت به بنو قريظة في الوقت نفسه من نقض العهود والمواثيق، وقد كان من عادته ﷺ ـ كما رأيت ـ أنه لم يكن يحب أن يسوق أصحابه إلى الحرب أو مغامرة لا يجدون في أنفسهم شجاعة كافية لخوضها، أو لا يؤمنون بجدواها، وقد كان هذا من أبرز أساليبه التربوية ﷺ لأصحابه،

فمن أجل ذلك عرض على أصحابه هذا الرأي، وأنبأهم أنه ليس تبليغًا من الله تعالى، وإنما هو شيء يبديه لهم كي يكسر عنهم شوكة المشركين، إذا كانوا لا يجدون في أنفسهم طاقة على مقابلتهم.

وأما الدلالة التشريعية في هذه الاستشارة فهي محصورة في مجرد مشروعية مبدأ الشورى في كل ما لا نص فيه، وهي بعد ذلك لا تحمل أي دلالة على جواز صرف المسلمين أعداءهم عن ديارهم إذا ما اقتحموها باقتطاع شيء من أرضهم أو خيراتهم لهم، إذ مما هو متفق عليه في أصول الشريعة الإسلامية أن الذي يُحتج به من تصرفاته ﷺ إنما هو أقواله وأفعاله التي قام بها، ثم لم يَرِد اعتراض عليها من كتاب الله تعالى، فأما ما كان من ذلك في حدود الاستشارة والرأي المجرد فلا يُعتبر دليلًا بحال، إذ الاستشارة أولًا: يمكن أن يكون المقصود منها مجرد استطلاع لما في النفوس كما ذكرنا، أي فهي ممارسة لعمل تربوي بحت، وهي ثانيًا: حتى ولو انتهت بعمل تنفيذي، يمكن أن يَرِد على عقبه اعتراض من كتاب الله تعالى فلا تبقى فيه أي دلالة تشريعية.

على أن علماء السيرة نصُّوا كما قد رأيت على أن النبي ﷺ لم يُبرم صلحًا مع غطفان، ولم تقع شهادة ولا عزيمة على الصلح، وإنما الأمر كان مراوضة لم يتجاوزها.

نقول هذا لأن فئة مجهولة في عصرنا هذا، أخذت تزعم زعمًا شنيعًا في منتهى الغرابة، وهو: أنه يجب على المسلمين أن يدفعوا (الجزية)! إلى غير المسلمين إذا اقتضت الحاجة، مستدلة على ذلك بأنه ﷺ قد استشار أصحابه في غزوة الخندق أن يفعل ذلك!

وبقطع النظر عن هذا الذي أوضحناه من أن مضمون الرأي المعروض على بساط الاستشارة لا يعتبر دليلًا تشريعيًّا، فلسنا ندري ما الصلة بين الجزية وما يمكن أن يتصالح عليه فريقان متحاربان؟

فإن قلت: فهب أن المسلمين اضطروا ـ بسبب من أسباب الضعف ـ إلى الخروج عن بعض أموالهم حفظًا على حياتهم وحذرًا من أن تُستأصل شأفة المسلمين، أفليس لهم أن يفعلوا ذلك؟

فالجواب أن هنالك حالات كثيرة تُستلب فيها أموال المسلمين وتصبح غنائم لأعدائهم، ويستعدي فيها الكافرون على بلاد المسلمين وخيراتهم فيتمكنون فيها ويسيطرون عليها، ومعلوم ـ بالبداهة ـ أن المسلمين لا يخضعون لشيء من ذلك عن طريق الاختيار واتباع الفتوى، وإنما يلجؤون إلى ذلك إلجاءً ويُحملون عليه كرهًا، وهم مع ذلك يتربصون بأعدائهم الفرص السانحة، وأنت خبير أن أحكام الشريعة الإسلامية إنما يُخاطب بها من لم يكن مكرهًا ولا مُلجأً ولا صبيًّا أو مجنونًا.

وإذًا فمن العبث انتزاع هذه الحالة التي هي من وراء حدود التكليف كما يقرَّر على أساسها حكم تكليفي يختار على أساس الرأي والمصلحة والمراوضة». [فقه السيرة للبوطي ٢٣٣-٢٣٤].

ويقول د/ أبو شهبة: «ويرى بعض المؤرخين أن عرض الرسول ﷺ عهد الصلح هذا لم يقصد به العرض حقيقة، وإنما سبرًا لغور الأنصار، وتعرفًا لمبلغ استعدادهم للذود عن المدينة، والتضحية بالنفس في سبيل العقيدة، وقد ظهر له ﷺ أن الأخطار والمخاوف وتكالب عوامل الشر لم تزدهم إلا إيمانًا وصلابة في الدفاع عن دينهم». [السيرة النبوية لأبي شهبة ٢/ ٢٨٥].

١٧ ـ جواز التفاوض مع العدو:

يقول د/ أبو فارس: «ويؤخذ من مقابلة رسول الله ﷺ لقائدي غطفان والتفاوض معهما جواز الاجتماع مع القادة من غير المسلمين والتفاوض معهم حول القتال وغيره، وهذا ليس عيبًا ولا حرامًا كما ترى، وإنما العيب كل العيب والحرام كل الحرام التفريط بحق الأمة والتهاون في مصالحها، وهدر كرامتها وتمريغ سمعتها في الوحل». [غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٥٨].

ويقول أ/ حوى: «وفي قوله: «**إِنِّي قَدْ عَلِمْتُ أَنَّ الْعَرَبَ قَدْ رَمَتْكُمْ عَنْ قَوْسٍ وَاحِدَةٍ**» دليل على أن رسول الله ﷺ كان يستهدف في عمله السياسي ألا يجتمع الأعداء عليه صفًّا واحدًا، وموقفه هنا دليل على أن هذا كان هدفًا له، وهذا يصل بنا إلى عدد من الأمور:

أ ـ أن تحاول الحركة الإسلامية التفتيش عن ثغرات القوى المعادية.

ب ـ أن محاولة التحالف مع بعض الأطراف لا حرج منها، فالهدف الإستراتيجي ـ للقيادة المسلمة ـ حيِّد من تستطيع تحييده، اجعل في جانبك من تستطيع كسبه، فتِّش عن المتعاطفين معك مهما كانت الأسباب، واجعل ثقتك في هذا بالله أولًا وأحكم التوكل عليه، ولا تنس القيادة الفتوى والشورى والمصلحة الآنية والمستقبلية للإسلام والمسلمين». [الأساس في السنة ـ السيرة لحوى ٢/ ٦٨٧،].

١٨ ـ متى يجوز دفع المال لأعداء المسلمين:

يقول د/ أبو فارس: «ومن الأحكام التي تستنبط من هذه الحادثة جواز دفع المسلمين مبلغًا من المال لأعدائهم، إذا كانوا أقوياء ولا قدرة للمسلمين على قتالهم وردهم ودحرهم وقهرهم، شريطة أن يكون ذلك مؤقتًا يزول بزوال هذه الحالة الطارئة.

هذا ويجب على الحاكم المسلم أو القائد أن يعمل ليل نهار لإزالة هذه الحالة، وبأسرع وقت ممكن؛ لأنها هي الاستثناء، وجاءت على سبيل الرخصة، والأصل أن يأخذ المسلمون الجزية من غيرهم إن هم أصروا على ما هم عليه من الدين الذي ورثوه عن آبائهم.

قال السهيلي في الروض الأنف: «وَذَكَرَ مَا هَمَّ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ مُصَالَحَةِ الأَحْزَابِ عَلَى ثُلُثِ تَمْرِ الْمَدِينَةِ، وَفِيهِ مِنَ الْفِقْهِ جَوَازُ إِعْطَاءِ الْمَالِ لِلْعَدُوِّ، إِذَا كَانَ فِيهِ نَظَرٌ لِلْمُسْلِمِينَ وَحِيَاطَةٌ لَهُمْ، وَقَدْ ذَكَرَ أَبُو عُبَيْدٍ هذا

الخَبَرَ، وَأَنَّهُ أَمْرٌ مَعْمُولٌ بِهِ، وَذَكَرَ أَنَّ مُعَاوِيَةَ رضي الله عنه صَالَحَ مَلِكَ الرُّومِ عَلَى الكَفِّ عَنْ ثُغُورِ الشَّامِ بِمَالٍ دَفَعَهُ إِلَيْهِ، قِيلَ: كَانَ مِائَةَ أَلْفِ دِينَارٍ، وَأَخَذَ مِنَ الرُّومِ رُهُنًا، فَغَدَرَتْ الرُّومُ، وَنَقَضَتْ الصُّلحَ، فَلَمْ يَرَ مُعَاوِيَةُ رضي الله عنه قَتْلَ الرَّهَائِنِ، وَأَطْلَقَهُمْ، وَقَالَ: وَفَاءٌ بِغَدْرٍ خَيْرٌ مِنْ غَدْرٍ بِغَدْرٍ[1]، قَالَ: وَهُوَ مَذْهَبُ الأَوْزَاعِيِّ وَأَهْلِ الشَّامِ أَلَّا تُقْتَلَ الرَّهَائِنُ، وَإِنْ غَدَرَ العَدُوُّ». [الروض الأنف ٦/ ٣١٥-٣١٦].

[غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٥٥-١٥٦].

ويقول د/ الرشيد: «ومصالحة النبي ﷺ مع قائدي غطفان تُعد من باب السياسة الشرعية التي تراعي مقتضيات الأحوال، بدليل قوله ﷺ للصحابة: «**فَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَدْفَعُوا إِلَيْهِ عَامَكُمْ هَذَا، حَتَّى تَنْظُرُوا فِي أَمْرِكُمْ بَعْدُ**»، فلو كان هذا الحكم باقيًا لما قيَّده بالعام نفسه، وقال: «**حَتَّى تَنْظُرُوا فِي أَمْرِكُمْ بَعْدُ**».

وقد قرر العلماء جواز دفع مال للعدو إذا كان ذلك يحقق مصلحةً عامة للمسلمين أو يدفع عنهم كيد أعدائهم.

ولا شك في أن عزم النبي ﷺ على عقد صلح مع قبيلة غطفان إنما كان لعذر، وقد وضع الفقهاء قاعدة في هذا الشأن، وهي قولهم: (ما جاء لعذر بطل بزواله).

[ينظر: الأشباه والنظائر للسيوطي ص ٨٤، والأشباه والنظائر لابن نجيم ص ٨٦].

ومما يتفرع عن هذه القاعدة أن ما قام على الضرورة فإنه يزول بزوالها.

[ينظر: الوجيز في القواعد الفقهية ـ د/ محمد البرنو ص ١٤٩].

ففي هذه الغزوة جازت مصالحة الأعداء وذلك بإعطائهم قدرًا معينًا من تمر المدينة؛ دفعًا لكيدهم؛ وذلك لتعذر قتالهم في هذا الظرف لضعف المسلمين وقوة أعدائهم.

أما إذا زال هذا العذر وذلك بأن كان المسلمون في حالة قوة وغلبة يستطيعون معها قتال أعدائهم فإنه يبطل هذا الحكم، ولا يُعطى الكفار شيئًا من أموال المسلمين؛ لأن في هذا التصرف ذلةً وصغارًا على المؤمنين، وفيه ـ أيضًا ـ معونة للكفار على حربهم للإسلام وأهله».

[القيادة العسكرية في عهد الرسول ﷺ للرشيد ٤١٤-٤١٥].

ويقول أ/ حوى: «فلو أن كيان المسلمين في قُطر أو في العالم تعرض لخطر الاستئصال، أو أن أمنهم أصبح في خطر فهل لهم في هذه الحالة أن يعطوا تنازلات مادية ولو بأن يدفعوا مالًا؟ الظاهر من الحديث

---

(١) الذي جاء في كتاب الأموال ص ٢٣٦ ما يلي: قال أبو عبيد: قد فعل مثل ذلك معاوية في إمارته.

قال أبو عبيد: حدثني هشام بن عمار عن الوليد بن مسلم عن صفوان بن عمرو وسعيد بن عبد العزيز: أن الروم صالحت معاوية على أن يؤدي إليهم مالًا، وارتهن معاوية منهم رهنًا، فجعلهم ببعلبك، ثم إن الروم غدرت فأبى معاوية والمسلمون أن يستحلوا قتل ما في أيديهم من رهنهم وخلوا سبيلهم، واستفتحوا بذلك عليهم، وقالوا: وفاء بغدر خير من غدر بغدر، وقال: قال الأوزاعي في مثل ذلك: لا تقتل الرهن بغدرهم.

أن ذلك جائز ولكنه ليس مفروضًا، وقد نص فقهاء الحنفية على هذه المسألة فأجازوا دفع المال للعدو إذا أصبح يهدد الوجود الإسلامي.

والمسألة في عصرنا قد تأخذ طابعًا أكثر تعقيدًا فقد تصبح في خطر خفي أو تتعرض لخطر خفي وَجِهَةٍ ما هي القادرة على الإنقاذ، وهي لا تفعل إلا بشروط، فإذا كانت الشروط مادية بحتة فللمسلمين ذلك، ولهم ألا يفعلوا والفتوى من أهلها، والشورى والمصلحة هي التي تحكم هذه الأمور، وقد تشتبك المصالح وتتعارض مصالح الأمة والأفراد، والحاكم والمحكوم، وكل ذلك ينبغي أن يخضع إلى موازنات عند أهل التقوى لتقرير ما هو المصلحة في النهاية». [الأساس في السنة ـ السيرة لحوى ٢/ ٦٨٥-٦٨٦، وينظر للتفصيل: الأحكام الفقهية المستفادة من غزوة الأحزاب وبني قريظة للعبد اللطيف ١١٦-١١٨، والأحكام الفقهية المستفادة من غزوتي الأحزاب وبني قريظة لبربر ٢٩٦-٢٩٨، والمسائل العقدية المستنبطة من غزوة الخندق لطيب ٢٧٦-٢٩١، وأحكام الصلح بالمال في الفقه الإسلامي ليوسف ١٤٦-١٤٨].

١٩ ـ يجوز للأمير إذا صالح بعض أعدائه أن يُطلع على هذا كبار رجاله وقادته:

يقول د/ الفنيسان: «وذلك أن الرسول ﷺ في الخندق لم يمض اتفاقه مع غطفان حتى أطلع عليه السعدين، وكبار الصحابة ﭫ». [غزوة الأحزاب للفنيسان ٢٢٢-٢٢٣].

٢٠ ـ جواز المبارزة[(١)]:

يقول د/ المدخلي: «وهي ملاقاة الند (بالكسر المثل وبالفتح الطيب) من المشركين أمام الصفوف واحدًا لواحد.

وقد حصل في هذه الغزوة المباركة لقاء هام بين علي ﭬ وبين أعتى أعداء الله عمرو بن عبد ود، حتى إن المؤرخين أثبتوا جميعًا بأنه فارس قريش وأحد شجعانها المبرزين.

والمبارزة جائزة وبالجواز قال الجمهور، وخالف في ذلك الحسن البصري».

[مرويات غزوة الخندق للمدخلي ٤٣٣-٤٣٤].

ويقول د/ الرشيد: «قَسَّم الفقهاء المبارزة من حيث حكمها إلى ثلاثة أقسام:

الأول: المستحبة: وهي ما إذا خرج عِلْجٌ يطلب البراز فإنه يُستحب لِمَنْ يعلم من نفسه القوة والشجاعة أن يبارز؛ لأن في ذلك منافحة عن المسلمين وإظهارًا لقوتهم.

الثاني: المباحة: وهي أن يبتدئ الرجل الشجاع بطلبها، فتُباح في هذه الحالة، ولا تُستحب لأنه لا حاجة إليها، ولا يأمن أن يُغلب فيكسر قلوب المسلمين، إلا أنه طالما كان شجاعًا واثقًا من نفسه أمام خصمه أُبيح له أن يبارز؛ لأنه بحكم الظاهر غالبًا.

---

(١) سبق تفصيل أنواع المبارزة وحكمها في الدروس الفقهية المستفادة من المرحلة الثانية من غزوة بدر الكبرى.

الثالث: المكروهة: وهي أن يبرز الضعيف الذي لا يثق من نفسه، فتُكره له المبارزة؛ لِما فيها من كسر قلوب المسلمين بقتله». [ينظر: المغني لابن قدامة ٩/ ٢١٧، الفروع للشيخ أبي عبد الله محمد بن مفلح ٤/ ٢٨٣ ط دار مصر للطباعة ١٣٨٨هـ، الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف للشيخ أبي الحسن بن سليمان المرداوي، صححه وعلق عليه محمد حامد الفقي ٤/ ١٧٤ ط مطبعة السنة المحمدية ١٣٧٥ هـ]. [القيادة العسكرية في عهد الرسول ﷺ للرشيد ١٣٥، وينظر: الأحكام الفقهية المستفادة من غزوة الأحزاب وبني قريظة للعبد اللطيف ٢٠٩-٢١١، والأحكام الفقهية المستفادة من غزوتي الأحزاب وبني قريظة لبرير ١٧٤ - ١٧٨].

٢١ ـ لا تجوز المعاوضة على جسد الميت الكافر[(١)]:

يقول د/ المدخلي:

أ ـ الكثيرون من أهل المغازي والسير يذكرون بأن الرسول ﷺ لم يأخذ الدية ـ في الكافر الذي قُتل في الخندق ـ بل دفعه إليهم، وقال بأنه خبيث الجثة، وتؤيدهم الآثار التالية:

قال المتقي الهندي وعزاه لابن أبي شيبة: «عن عكرمة أن نوفلًا ـ أو ابن نوفل ـ تردى به فرسه يوم الخندق فقتل، فبعث أبو سفيان إلى النبي ﷺ بديته مائة من الإبل، فأبى النبي ﷺ وقال: «**خُذُوهُ فإِنَّهُ خَبِيثُ الدِّيَةِ خَبِيثُ الـجُثَّةِ**». [كنز العمال ١٠/ ٤٥٥].

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: قتل المسلمون يوم الخندق رجلًا من المشركين فأعطوه بجيفته مالًا، فقال رسول الله ﷺ: «**ادْفَعُوا إِلَيْهِمْ جِيفَتَهُ فَإِنَّهُ خَبِيثُ الدِّيَةِ خَبِيثُ الجُثَّةِ**»، فلم يقبل منهم شيئًا». والحديث ضعيف لوجود نصر بن باب فيه.

قال ابن كثير: «وقد رواه البيهقي من حديث حماد بن سلمة عن حجاج وهو ابن أرطأة عن الحكم عن مقسم عن ابن عباس أن رجلًا من المشركين قتل يوم الأحزاب فبعثوا إلى رسول الله ﷺ أن ابعث إلينا بجسده ونعطيك اثني عشر ألفًا، فقال رسول الله ﷺ: «**لَا خَيْرَ فِي جَسَدِهِ، وَلَا فِي ثَمَنِهِ**».

وقد رواه الترمذي عن ابن عباس: «أن المشركين أرادوا أن يشتروا جسد رجل من المشركين فأبى النبي ﷺ أن يبيعهم». قال الترمذي: «غريب لا نعرفه إلا من حديث الحكم».

[سنن الترمذي ٣/ ١٢٩، وفي الميزان ٣/ ٦١٥ قال: حسنه الترمذي وهو غريب].

ولعل استغراب الترمذي أتى بسبب أبي حمد الزبيري فإنه يخطئ في حديث الثوري والرواية هنا عنه.

أما كلام أهل المغازي في ذلك فهو كما قال البيهقي: «وذكر ابن إسحاق في موضع آخر من هذا الكتاب عقب قتل الزبير لنوفل ـ أن عليًّا طعنه في ترقوته حتى أخرجها من مراقه فمات في الخندق»، إلى أن قال: وبعث المشركون إلى رسول الله ﷺ يشترون جيفته بعشرة آلاف، فقال ﷺ: «**هُوَ لَكُمْ لا نَأْكُلُ ثَمَنَ المَوْتَى**» ا.هـ.

(١) ينظر: سنن البيهقي ٩/ ١٣٣، والسيرة الحلبية ٢/ ٣٢٠.

وقال الديار بكري: «وفي معالم التنزيل: طلب المشركون جيفة نوفل بالثمن، فقال رسول الله ﷺ: «**خُذُوهُ فَإِنَّهُ خَبِيثُ الجِيفَةِ خَبِيثُ الدِّيَةِ**».ا.هـ

ب ـ في مقابل القائلين بعدم جواز بيع جيفة الكافر واعتمادهم على الآثار الواردة جاء عند الحاكم ما يخالف ذلك حيث أورد بسنده حديثًا يدل على الجواز وأخذ الدية.

حيث روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «قُتل رجل من المشركين يوم الخندق فطلبوا أن يواروه، فأبى رسول الله ﷺ حتى أعطوه الدية».

قال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي.

والحديث ضعيف لضعف ابن أبي ليلى، ثم إن الحكم ثبت أنه لم يرو عن مقسم إلا خمسة أحاديث ليس هذا منها قال الذهبي: حسنه الترمذي.

وقال عبد الحق في أحكامه وابن القطان: إسناده ضعيف، ومنقطع لا سماع للحكم من مقسم إلا لخمسة أحاديث ما هذا منها، وضعفاه من جهة ابن أبي ليلى وقول الترمذي أولى.

ثم إن هناك اضطرابًا في الإسناد، فقد جاء عند الترمذي بسند فيه ابن أبي ليلى، وجاء فيه أن الرسول ﷺ رفض ديته، وقال: **إنه خبيث الدية خبيث الجثة**.

وعلى ذلك تبين أن الصحيح هو: عدم جواز بيع جيفة الكافر أو أخذ ديته، قال الحافظ أثناء شرحه لتبويب البخاري حيث قال: (باب طرح جيف المشركين في البئر ولا يؤخذ لهم ثمن) ثم قال: «قَوْلُهُ: (وَلَا يُؤْخَذُ لَـهُمْ ثَمَنٌ) أَشَارَ بِهِ إِلَى حَدِيث اِبْن عَبَّاس «أَنَّ الْمُشْرِكِينَ أَرَادُوا أَنْ يَشْتَرُوا جَسَد رَجُل مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَأَبَى النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَبِيعهُمْ». [فتح الباري ٦/ ٢٨٢ كتاب الجزية].

ثم قال: وذكر ابن إسحاق في المغازي: «أن المشركين سألوا النبي ﷺ أن يبيعهم جسد نوفل بن عبد الله بن المغيرة، وكان اقتحم الخندق، فقال النبي ﷺ: «**لَا حَاجَةَ لَنَا بِثَمَنِهِ وَلَا جَسَدِهِ**».

وبهذا وغيره مما تقدم يتضح أن الرسول ﷺ لم يأخذ مقابل جثة نوفل لا دية ولا ثمنًا، بل إنه أعطاهم، وقال: **إنه خبيث الدية خبيث الجثة**، وفي رواية قال: «**لَعَنَهُ اللهُ وَلَعَنَ دِيَتَهُ**».

وقد جاء في كتب الحديث ما يمنع ذلك فقد عنون البخاري بقوله: باب (طرح جيف المشركين في البئر ولا يؤخذ لهم ثمن) وفي ذلك دليل على أنه لا يجوز بيع جيفة المشرك.

قال الحافظ: «قَوْلُهُ: (وَلَا يُؤْخَذُ لَـهُمْ ثَمَنٌ) أَشَارَ بِهِ إِلَى حَدِيث اِبْن عَبَّاس «أَنَّ الْمُشْرِكِينَ أَرَادُوا أَنْ يَشْتَرُوا جَسَد رَجُل مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَأَبَى النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَبِيعهُمْ». [فتح الباري ٦/ ٢٨٢ كتاب الجزية].

وقال المباركفوري: «فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ لَا يَجُوزُ بَيْعُ جِيفَةِ الْمُشْرِكِ، وَإِنَّمَا لَا يَجُوزُ بَيْعُهَا وَأَخْذُ الثَّمَنِ فِيهَا لِأَنَّهَا مَيْتَةٌ لَا يَجُوزُ تَمَلُّكُهَا وَلَا أَخْذُ عِوَضٍ عَنْهَا، وَقَدْ حَرَّمَ الشَّارِعُ ثَمَنَهَا وَثَمَنَ الْأَصْنَامِ فِي حَدِيثِ جَابِرٍ رضي الله عنه». [تحفة الأحوذي ٥/ ٣٧٦]. [مرويات غزوة الخندق للمدخلي ٣٠٦-٣١٢، ٤٣٤].

ويقول د/ بربر: «وقد كان المسلمون في حروبهم يتركون الكفار ينقلون جثث قتلاهم ليدفنوها حسب طريقتهم في الدفن، فقد قام المشركون يوم أحد بدفن قتلاهم، وتارة يقوم المسلمون أنفسهم بدفن قتلى عدوهم، كما فعلوا في غزوة بدر، حيث قاموا بسحب جثث قتلى عدوهم ودفنها في القليب.

وقد سبق الإسلام الأنظمة الدولية الحديثة التي تدعو إلى الرأفة في الحروب، وإغاثة الجرحى الموجودين في ميدان القتال، والعمل على إخلاء الجرحى والقتلى، ونقلهم إلى أماكن خاصة، وهذه الصورة من المعاني الإنسانية التي راعاه هذا الدين العظيم، فهو يحترم جثث الإنسان، حتى لو كان عدوًّا، ولكن أعداء الإسلام يعملون على تشويه هذا الدين، وأبناءُ الإسلام غافلون عن إبراز مثل هذه المعاني العظيمة.

لكن يجوز للمسلمين مبادلة جثث قتلى العدو بجثث قتلى المسلمين، إذا كان لدى العدو جثث لشهداء المسلمين، أو مبادلتهم بأسرى من المسلمين إن كان لديهم أسرى، وهذا من باب المعاملة بالمثل».

[الأحكام الفقهية المستفادة من غزوتي الأحزاب وبني قريظة لبربر ٢٠٤-٢٠٦، وينظر: الأحكام الفقهية المستفادة من غزوة الأحزاب وبني قريظة للعبد اللطيف ٢٥٦-٢٥٧، والمسائل العقدية المستنبطة من غزوة الخندق لطيب ٢٣١-٢٣٦].

٢٢ ـ مقاييس الإسلام في الحلال والحرام:

يقول أ/ الشامي: «عرضت قريش فداءً مقابل جثة عمرو بن عبد ود، فقال ﷺ: «**ادْفَعُوا إِلَيْهِمْ جِيفَتَهُ، فَإِنَّهُ خَبِيثُ الجِيفَةِ، خَبِيثُ الدِّيَةِ، فلم يقبل منهم شيئًا**». [البداية والنهاية ٤/ ١٠٧].

حدث هذا وأزمة الاقتصاد كما قدمنا، والمسلمون في ضنك من العيش، ومع ذلك فالحلال حلال والحرام حرام، إنها مقاييس الإسلام في الحلال والحرام، فأين هذا من الناس المحسوبين على المسلمين الذين يحاولون إيجاد المبررات لأكل الربا وما شابهه؟». [من معين السيرة للشامي ٣١٨].

٢٣ ـ إذا قتل المسلم أخاه في المعركة خطأ فلا إثم على القاتل، والمقتول شهيد:

أُصيب في غزو الأحزاب: كَعْبُ بْنُ زَيْدٍ مِنْ بَنِي النَّجَّارِ ثُمَّ مِنْ بَنِي دِينَارٍ، أَصَابَهُ سَهْمٌ غَرْبٍ فَقَتَلَهُ. [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٥٣]، ولم يفرده النبي ﷺ عن الشهداء بحكم، فدل على أنه شهيد.

[الأحكام الفقهية المستفادة من غزوتي الأحزاب وبني قريظة لبربر ٤٤-٤٧].

يقول د/ الفنيسان: «وجه ذلك أنه خرجت أيام الخندق طائفة من الأنصار يستطلعون خبر العدو، فقابلتها طائفة من المهاجرين خرجت للغرض نفسه، لم يعرف بعضهم بعضًا، ولا يشكون أن مقابلهم هو العدو، فتقاتلا وكانت بينهم جراحة وقتل، ثم نادى الأنصار بشعارهم «**حم لا يُنْصَرُونَ**»، فكف بعضهم عن بعض فجاؤوا إلى الرسول ﷺ يخبرونه الخبر، فقال: (**جِرَاحُكُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَمَنْ قُتِلَ مِنكُمْ فَإِنَّهُ شَهِيدٌ**)». [غزوة الأحزاب للفنيسان ٢٢٣-٢٢٤، وينظر للتفصيل درس: حُكم من قُتل خطأ من المسلمين في المعركة، في المبحث الرابع من الدروس المستفادة من المرحلة الثالثة من غزوة أحد، وينظر: الأحكام الفقهية المستفادة من غزوتي الأحزاب وبني قريظة لبربر ٤٤-٤٧].

٢٤ ـ يجوز سب المشركين وشتمهم:

خاصة إذا أشغلوا المسلمين عن قُربة من القربات كالصلاة مثلًا، وهذا ما ورد في أحداث الغزوة أَنَّ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ ﷺ جَاءَ يَوْمَ الخَنْدَقِ بَعْدَ مَا غَرَبَتِ الشَّمْسُ جَعَلَ يَسُبُّ كُفَّارَ قُرَيْشٍ.

[غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٦٨].

٢٥ ـ جواز الدعاء على أحياء المشركين وموتاهم بشكل عام:

فقد صح عن النبي ﷺ في أحاديث الغزوة أنه دعا على المشركين بشكل عام فقال: «**مَلأَ اللهُ [اللَّهُمَّ امْلأْ] قُبُورَهُمْ وَبُيُوتَهُمْ نَارًا**». [غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٧٠].

٢٦ ـ السبب في تأخير النبي ﷺ الصلاة ذلك اليوم:

يقول د/ المدخلي: «قال الحافظ ابن حجر: «وَقَدْ اُخْتُلِفَ فِي سَبَبِ تَأْخِيرِ النَّبِيِّ ﷺ الصَّلَاة ذَلِكَ اليَوْمَ؟ فَقِيلَ: كَانَ ذَلِكَ نِسْيَانًا، وَاسْتَبْعَدَ أَنْ يَقَعَ ذَلِكَ مِنَ الجَمِيعِ، وَيُمْكِنُ أَنْ يُسْتَدَلَّ لَهُ بِمَا رَوَاهُ أَحْمَدُ مِنْ حَدِيثِ أَبِي جُمُعَةَ «أَنَّ رَسُول الله ﷺ صَلَّى المَغْرِبَ يَوْمَ الأَحْزَابِ، فَلَمَّا سَلَّمَ قَالَ: **هَل عَلِمَ رَجُلٌ مِنْكُمْ أَنِّي صَلَّيْتُ العَصْرَ؟** قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ الله! فَصَلَّى العَصْرَ، ثُمَّ صَلَّى المَغْرِبَ».

وَفِي صِحَّةِ هَذَا الحَدِيثِ نَظَرٌ؛ لِأَنَّهُ مُخَالِفٌ لِمَا فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ قَوْلِهِ ﷺ لِعُمَر ﷺ: «**وَالله مَا صَلَّيْتُهَا**»، وَيُمْكِنُ الجَمْعُ بَيْنَهُمَا بِتَكَلُّفٍ.

وَقِيلَ: كَانَ عَمْدًا لِكَوْنِهِمْ شَغَلُوهُ فَلَمْ يُمَكِّنُوهُ مِنْ ذَلِكَ، وَهُوَ أَقْرَبُ، لَا سِيَّمَا وَقَدْ وَقَعَ عِنْدَ أَحْمَدَ وَالنَّسَائِيِّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيد ﷺ أَنَّ ذَلِكَ كَانَ قَبْلَ أَنْ يُنْزِلَ اللهُ فِي صَلَاةِ الخَوْفِ: ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ﴾ [البقرة: ٢٣٩]، وَقَدْ اُخْتُلِفَ فِي هَذَا الحُكْمِ هَل نُسِخَ أَمْ لَا كَمَا سَيَأْتِي فِي كِتَابِ صَلَاةِ الخَوْفِ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى. [فتح الباري ٢/ ٦٩].

وكونهم تركوها عمدًا هو الأقرب كما ذكر ذلك الحافظ لأنهم شغلوه ﷺ فلم يمكنوه من ذلك؛ لأنه قد بلغ الضيق والجهد والكرب والخوف بهذه الصفوة المباركة شأوًا بعيدًا إلى درجة أنهم في تلك اللحظات الأخيرة من محنة الغزو المرعب جاؤوا إلى النبي ﷺ وأفصحوا له بصراحة عما يعانونه من شدة الخوف والضيق والكرب، فَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ ﷺ قَالَ: قُلْنَا يَوْمَ الخَنْدَقِ: يَا رَسُولَ الله، هَل مِنْ شَيْءٍ نَقُولُهُ، فَقَدْ بَلَغَتْ القُلُوبُ الحَنَاجِرَ، قَالَ ﷺ: «**نَعَمْ، اللَّهُمَّ اسْتُرْ عَوْرَاتِنَا وَآمِنْ رَوْعَاتِنَا**»، قَالَ: فَضَرَبَ اللهُ ﷻ وُجُوهَ أَعْدَائِهِ بِالرِّيحِ، فَهَزَمَهُمْ اللهُ ﷻ بِالرِّيحِ.

وهذا الحديث رواه أحمد وابن أبي حاتم في تفسيره عن أبيه عن أبي عامر وقد حسنه الألباني.

وخلاصة القول: أن فوات الصلاة أو الصلوات عليهم في تلك الأيام كانت قبل نزول الأمر بصلاة الخوف، وقد صرح بذلك الحافظ وغير واحد، وأن نزولها كان في غزوة ذات الرقاع. (غزوة ذات الرقاع ذكرها ابن سعد قبل الخندق، ولكن الراجح ما رجحه البخاري وبعده الحافظ وصاحب أضواء البيان. قلت: سبق الحديث عن غزوة ذات الرقاع في مجموعة (غزوة أحد)، وعرضت أقوال العلماء في ذلك، وملت إلى الرأي القائل بأنها كانت قبل غزوة الخندق. فلينظر هناك).

وقد نقل الحافظ الاختلاف فيها وأثبت أنها بعد الخندق كما ذكر ذلك ابن عبد البر، ورجح ذلك الشنقيطي حيث قال: «واعلم أن التحقيق أن غزوة ذات الرقاع بعد خيبر وإن جزم جماعة كبيرة من المؤرخين بأن غزوة ذات الرقاع قبل خيبر».

قال: «والدليل على ذلك الحديث الصحيح أن قدوم أبي موسى الأشعري ﷺ على النبي ﷺ حين خيبر مع الحديث الصحيح أن أبا موسى ﷺ شهد غزوة ذات الرقاع».

وقد قال البخاري ﷺ: «باب غزوة ذات الرقاع وهي غزوة محارب خصفة من بني ثعلبة من غطفان فنزل نخلًا وهي بعد خيبر لأن أبا موسى الأشعري ﷺ جاء بعد خيبر».

ثم قال ﷺ: بل التحقيق أن صلاة الخوف ما شرعت إلا بعد الخندق». [أضواء البيان ١/ ٣١٠- ٣١٢].

[مرويات غزوة الخندق للمدخلي ٣٤٣-٣٤٥].

٢٧ ـ الخلاف في الصلاة التي فاتت النبي ﷺ:

يقول د/ أبو فارس: «نلاحظ أن الأخبار المتقدمة جاء في أحدها أنه فاتته ﷺ صلاة العصر، وفي خبر آخر فاتته ﷺ صلاة الظهر والعصر، وفي خبر ثالث فاتته ﷺ صلاة الظهر والعصر والمغرب، وهذه الأخبار يمكن الجمع بينها بأن القتال كان يومًا يشغل المسلمين عن صلاة العصر، ويومًا آخر يشغل عن ثلاث صلوات، ويومًا ثالثًا يشغل عن أربع صلوات، فيستمر القتال طوال اليوم وجزءًا من الليل».

[غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٦٩- ١٧٠].

قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ ﷺ: كُنَّا فِي غَزْوَةٍ، فَحَبَسَنَا الْمُشْرِكُونَ عَنْ صَلَاةِ الظُّهْرِ وَالعَصْرِ وَالمَغْرِبِ وَالعِشَاءِ، فَلَمَّا انْصَرَفَ الْمُشْرِكُونَ أَمَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مُنَادِيًا فَأَقَامَ لِصَلَاةِ الظُّهْرِ فَصَلَّيْنَا، وَأَقَامَ لِصَلَاةِ العَصْرِ فَصَلَّيْنَا، وَأَقَامَ لِصَلَاةِ المَغْرِبِ فَصَلَّيْنَا، وَأَقَامَ لِصَلَاةِ العِشَاءِ فَصَلَّيْنَا، ثُمَّ طَافَ عَلَيْنَا فَقَالَ: «**مَا عَلَى الأَرْضِ عِصَابَةٌ يَذْكُرُونَ اللهَ ﷻ غَيْرُكُمْ**». [النسائي في الأذان (٦٦٣)، وقال الشيخ الألباني: ضعيف].

يقول د/ المدخلي: «وفي هذا دليل على أن الذي فاتهم من الصلوات أربع وهذا لا ينطبق على العشاء لأن وقتها ممتد قال الحافظ: لأن العشاء لم تكن فاتت.

قال: قال اليعمري: من الناس من رجح ما في الصحيحين وصرح بذلك ابن العربي فقال: إن الصحيح أن الصلاة التي شغل عنها رسول الله ﷺ واحدة هي العصر.

قلت: ويؤيده حديث علي في مسلم شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر.

قال: ومنهم من جمع بأن الخندق كانت وقعته أيامًا، فكان ذلك في أوقات مختلفة في تلك الأيام.

قال: وهذا أولى، قلت: ويقربه روايتي أبي سعيد وابن مسعود وليس فيهما تعرض لقصة عمر ﷺ، بل فيهما أن قضاءه وقع بعد خروج وقت المغرب.

وهذا أولى بمعنى أنه إذا لم نرجح ما في الصحيحين فالمصير إلى الجمع أفضل خروجًا من المعارضة».

[فتح الباري ٢/ ٧٠]، [مرويات غزوة الخندق للمدخلي ٣٤٢].

٢٨ ـ الصلاة الوسطى هي صلاة العصر[1]:

يقول د/ المدخلي: «وقد نقل ابن العربي [في أحكام القرآن ١/ ٢٢٥] خلافًا في الصلاة الوسطى وأي صلاة كانت على الآتي:

(١) إنها الظهر، قاله زيد بن ثابت ﷺ.

(٢) إنها العصر، قاله علي ﷺ في إحدى روايتيه.

(٣) إنها المغرب، قاله البراء ﷺ.

(٤) إنها العشاء الآخرة.

(٥) إنها الصبح، قاله ابن عباس وابن عمر وأبو أمامة ﷺ والرواية الصحيحة عن علي ﷺ.

(٦) إنها الجمعة.

(٧) إنها غير معينة.

قال: «وكل قول من هذه الأقوال مستند إلى ما لا يستقل بالدليل.

فأما من قال إنها الظهر فلأنها أول صلاة فُرضت.

وأما من قال إنها العصر فتعلق بحديث علي ﷺ: «**شَغَلُونَا عَنْ صَلَاةِ الوُسْطَى صَلَاةِ العَصْرِ مَلَأَ اللهُ قُبُورَهُمْ وَبُيُوتَهُمْ أَوْ أَجْوَافَهُمْ نَارًا**».

وأما من قال إنها المغرب فلأنها وِتْرٌ بين أشفاع.

وأما من قال إنها الصبح فلأنها في وقت متوسط بين الليل والنهار قاله ابن عباس ومالك، وقال غيرهما هي مشهودة، والعصر وإن كانت مثلها فتزيد الصبح عليها بوجهين:

أحدهما: أنها أثقل الصلوات على المنافقين.

والثاني: أن في الموطأ عن عائشة ﷺ (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وصلاة العصر وقوموا لله قانتين).

(١) ينظر: فتح الباري ٧/ ٤٠٥.

قال: «وهذا يدل على أن الصلاة الوسطى غير صلاة العصر، ويعارض حديث علي ﷺ ويبين أن المراد أنها كانت وسطى بين ما فات وبقي».

وأما من قال إنها الجمعة فلأنها تختص بشروط زائدة وهذا يدل على شرفها وفضلها.

وأما من قال إنها غير معينة فلتعارض الأدلة وعدم الترجيح، وهذا هو الصحيح.

قال: وهذا هو الصحيح، فإن الله خبأها في الصلوات كما خبأ ليلة القدر في رمضان، وخبأ الساعة التي في يوم الجمعة، وخبأ الكبائر في السيئات ليحافظ الخلق على الصلوات، ويقوموا جميع شهر رمضان، ويلزموا الذكر في يوم الجمعة كله، ويجتنبوا جميع الكبائر والسيئات. [أحكام القرآن ١/ ٢٢٥-٢٢٦].

أقول: رحم الله ابن العربي كيف يرجح أن الصلاة الوسطى مبهمة مع صريح الأدلة التي جاءت في الصحيحين وغيرهما وقد صرحت أنها صلاة العصر؛ ولذلك ذكر الحافظ ابن كثير كل الأقوال في ذلك وتبين من خلال ما نقله أنها صلاة العصر. [ينظر: تفسير القرآن العظيم ١/ ٢٩٠- ٢٩١].

وقد جاء التصريح بأن الصلاة الوسطى هي العصر في هذه الغزوة، وقد أخرج الحديث المصرح بتعيين الصلاة الوسطى كل من: البخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه، والدارمي، وعبد بن حميد، وأحمد، ورواه الطبراني عن ابن عباس. [مرويات غزوة الخندق ٣٢٦- ٣٢٩].

ويقول الإمام ابن كثير: «وقد استدل طائفة من العلماء بهذه الأحاديث على كون الصلاة الوسطى هي صلاة العصر، كما هو منصوص عليه، وألزم القاضي الماورديُّ مذهب الشافعي بهذا؛ لصحة الحديث، وقد حررنا ذلك نقلًا واستدلالًا عند قوله تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾﴾ [البقرة]. [البداية والنهاية ٦/ ٥٣].

٢٩ ـ تأخير الصلوات عن أوقاتها لعذر القتال:

يقول أ/ باشميل: «وقد استدل كثير من أئمة الإسلام ـ ومنهم الإمام الأوزاعي ومكحول ـ بهذا الصنيع الذي صنع رسول الله ﷺ على جواز تأخير الصلوات عن أوقاتها لعذر القتال، إلا أن آخرين ـ ومنهم الإمام الشافعي ـ قالوا: إن في ذلك نسخ بما أنزل الله تعالى في صلاة الخوف، والذي به أباح للمحارب أن يصلي ـ أثناء القتال ـ كيفما اتفق له بشرط أن لا يؤثر ذلك في سير القتال لصالح العدو.

وقد أبى كثير من العلماء المحققين التسليم بالنسخ لأن صلاة الخوف قد شرعت قبل معركة الخندق، حيث صلاها المسلمون في غزوة (ذات الرقاع) وفي عسفان، وهما غزوتان قام بهما المسلمون بقيادة النبي ﷺ قبل غزوة الخندق.

وقد تردد الإمام ابن كثير ـ وهو من كبار فقهاء الشافعية ـ في قبول القول بالنسخ قائلًا: وهو (أي القول بالنسخ) مشكل، ثم قال: قال ابن إسحاق.. وجماعة ذهبوا، إلى أن النبي ﷺ صلى صلاة الخوف بعسفان، قد ذكرها ابن إسحاق (وهو إمام المغازي) قبل الخندق وكذلك ذات الرقاع، ذكرها قبل الخندق، فالله أعلم». [غزوة الأحزاب لباشميل ٢١٠].

وقد استدل طائفة من العلماء بهذا الصنيع على جواز تأخير الصلاة لعذر القتال، كما هو مذهب مكحول والأوزاعي...». [البداية والنهاية ٦/ ٥٣].

وقد استفاض د/ محمد خير هيكل في مناقشة هذه المسألة بقوله: «تبحث كتب الفقه كيف تؤدى الصلوات الواجبة في حالة الخوف من العدو فيما يسمى بصلاة الخوف، أو صلاة شدة الخوف.

وليس الغرض هنا تناول هذه المسألة بالبحث، وإنما الغرض هو أن القيادات في الجيش الإسلامي قد تحتاج إلى أن تأمر أفراد هذا الجيش في حالة الحرب، بتأخير الصلوات الواجبة عن مواعيدها المقررة شرعًا، إلى ما بعد الانتهاء من الحرب.. فهل مثل هذا الإجراء أمر سائغ في الشرع؟ وهل يجوز للأفراد من هذا الجيش أن يؤخروا الصلوات عن أوقاتها المحددة بحجة الاشتغال بأمر الحرب، ولو لم تصدر إليهم أوامر بهذا الخصوص؟ أم لابد من أداء تلك الصلوات في الأوقات المرهونة بها، على حسب الإمكان، ولو بالإيماء والإشارة، سواء كان هذا المصلي يطير في الجو، أم يغوص في البحر، أم كان على الأرض يمشي على قدميه، أو يقبع داخل آلته الحربية يقودها، ويقاتل بها.. أو ما شاكل ذلك؟ هذا هو موضوع المطلب الذي بين يدينا، الذي سنوجز معالجته في نقطتين اثنتين هما:

١ـ النقطة الأولى: الآراء الفقهية في هذه المسألة، مع الأدلة.

٢ـ النقطة الثانية: الرأي الذي نرجحه في هذه المسألة.

النقطة الأولى: الآراء الفقهية في هذه المسألة، مع الأدلة:

(١) **رأي الأحناف، وبعض الفقهاء**: ذكر الأحناف بأن أداء الصلاة الواجبة في حالة الاشتغال بأعمال الحرب من مشي، أو ضرب، وما إلى ذلك، مما يسمى بصلاة شدة الخوف ـ تعتبر صلاة باطلة، وعلى هذا، فيجب على المقاتلين إذا اضطروا لشغل الوقت بالأعمال الحربية، أن يؤخروا الصلاة الواجبة في ذلك الوقت إلى ما بعد الانتهاء من الحرب.. هذا ما صرح به الأحناف في كتبهم، وما نقلته عنهم كتب المذاهب الأخرى. [ينظر: بدائع الصنائع ١/ ٢٤٤- ٢٤٥، وفتح القدير ٢/ ١٠٠- ١٠٢، وحاشية ابن عابدين ١/ ٨٨٧، والمجموع للنووي ٤/ ٤٣٣، والمغني لابن قدامة ٢/ ٢٧٠].

ـ ففي كتب الأحناف جاء في البداية والهداية، ما نصه: «ولا يقاتلون في حال الصلاة، فإن فعلوا بطلت صلاتهم، لأنه ﷺ شُغل عن أربع صلوات يوم الخندق [(١)]، ولو جاز مع القتال ـ لما تركها».

[فتح القدير: ٢/ ١٠٠ - ١٠٢].

ـ وفي السير الكبير وشرحه، أيضًا، جاء ما يلي: «وصلاة الخوف إنما تكون إذا كانوا مواقفين للعدو، وأما في حال المسايفة (مفاعلة من الطرفين: أي: الضرب بالسيوف)، والمطاعنة (مفاعلة من الطرفين: أي: الطعن بالرماح)، والرمي، فلا تستقيم الصلاة؛ لأن هذا عمل، ولا تستقيم الصلاة مع الاشتغال بعمل ليس منها، ولكنهم يؤخرون الصلاة إلى أن يفرغوا من ذلك؛ لأن ما يفوتهم من الصلاة يمكنهم تداركه بعد هذا، وما يفوتهم بالاشتغال بالصلاة، والكف عن القتال في هذه الحالة لا يمكنهم تداركه.

والأصل فيه حديث أبي سعيد الخدري ﷺ قال: حبسنا يوم الخندق عن الصلاة إلى هوي (أي: ساعة) من الليل...

ثم قال: وفيه دليل على جواز تأخير الصلاة لشغل القتال».

[شرح السير الكبير ١/ ٢٢٧ - ٢٢٨، وينظر: فتح الباري/ ٤٣٦].

ـ جاء في (المغني) من كتب الحنابلة، ما نصه: (وقال أبو حنيفة، وابن أبي ليلى: لا يصلي مع المسايفة، ولا مع المشي؛ لأن النبي ﷺ لم يصل يوم الخندق، وأخّر الصلاة». [المغني لابن قدامة ٢/ ٢٧٠].

وجاء في المجموع للنووي، من كتب الشافعية، ما نصه: «في مذاهب العلماء في صلاة شدة الخوف: هي جائزة بالإجماع، إلا ما حكاه الشيخ أبو حامد، عن بعض الناس أنها لا تجوز، بل يجب تأخير الصلاة حتى يزول الخوف، كما فعل النبي ﷺ يوم الخندق». [المجموع للنووي ٤/ ٤٣٣].

وبعد، فهذا هو رأي الأحناف، وبعض الفقهاء في مسألة تأخير الصلوات عن أوقاتها إذا اضطر المقاتلون إلى ذلك بسبب اشتغال الوقت بأعمال الحرب.. ودليلهم هو تأخير النبي ﷺ للصلوات المفروضة، أيام الخندق، إلى حصول التمكن من أدائها.

---

(١) الحديث في سنن الدارمي ١/ ٤٣٠ رقم (١٥٢٤) «عن أبي سعيد الخدري ﷺ، قال: حبسنا يوم الخندق حتى ذهب هوى من الليل، حتى كفينا. وذلك قول الله تعالى: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾ [الأحزاب] فدعا النبي ﷺ بلالًا، فأمره فأقام فصلى الظهر، فأحسن كما كان يصليها في وقتها، ثم أمره فأقام العصر، فصلاها، ثم أمره فأقام المغرب فصلاها ثم أمره فأقام العشاء، فصلاها وذلك قبل أن ينزل: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ [البقرة: ٢٣٩]، وبنحوه أخرجه النسائي عن (أبي سعيد) أيضًا ٢/ ١٧، وصححه الألباني، فتح الباري ٢/ ٦٨، وكذا في صحيح مسلم رقم (٦٣١)، وفي موطأ مالك، أن الظهر والعصر هما اللتان جرى تأخيرهما إلى ما بعد المغرب (تنوير الحوالك ١/ ١٤٩). ويقول النووي في هذا الصدد: «طريق الجمع بين هذه الروايات أن وقعة الخندق بقيت أيامًا، فكان هذا في بعض الأيام، وهذا في بعضها». شرح مسلم للنووي ٣/ ٣٢٩.

(٢) **رأي الجمهور**: يرى الجمهور ـ من الفقهاء المالكية والشافعية والحنابلة ـ أنه لا يجوز تأخير الصلوات عن مواعيدها المقررة بسبب الاشتغال بالحرب، بل يجب أن تؤدى في أوقاتها حسب الإمكان، ولو في حالة المشي، والركض، والركوب، وضرب العدو.. يومئ المصلي في الركوع والسجود إيماء، ولا يشترط استقبال القبلة، إذا لم يتيسر له ذلك. وأجاز (المالكية) فيها الكلام أيضًا، بما يحتاج إليه في الحرب، من أمر، ونهي، وتحذير...

ـ وفي هذا الصدد، جاء عند المالكية، ما يلي: «حين المسايفة، أو مناشبة الحرب فتؤخر الصلاة حتى يخاف فوات وقتها، ثم يصلي كيف أمكن مشيًا، وركوبًا، وركضًا، إيماء بالركوع والسجود، إلى القبلة وغيرها، ولا يمنع ما يحتاج إليه من قول وفعل؟».

[القوانين الفقهية ص ٩٨، وينظر: الشرح الكبير للدردير ١/ ٣٩٤، ومنح الجليل ١/ ٤٥٦].

ـ وبنحو ذلك، قال الشافعية، فيما عدا جواز الكلام؛ لأنه لا حاجة إليه، ونصوا على تحريم تأخير الصلاة عن وقتها.

جاء في (المجموع) للنووي بصدد ذلك ما يلي: «يجب أن يصلي صلاة شدة الخوف، سواء التحم القتال أم لا، ولا يجوز تأخيرها عن الوقت، هذا مذهبنا، ومذهب الجمهور». [المجموع للنووي ٤/ ٤٣٣].

ـ وجاء عند الحنابلة بنحو ما جاء عند الشافعية في هذا المسألة [ينظر: المغني لابن قدامة ٢/ ٢٧٠]، إلا أن هناك رواية أخرى عندهم تقول بجواز تأخير الصلاة حال التحام القتال.

[ينظر: الشرح الكبير للمقدسي ٢/ ١٣٩، وزاد المعاد ٣/ ٢٥٣].

ـ وقال ابن حزم في صلاة الخوف: «أما تأخيرها عن وقتها فلا يحل البتة؛ لأنه لم يسمح الله تعالى في تأخيرها، ولا رسوله ﷺ، قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ [البقرة/ ٢٣٩].

[المحلى لابن حزم ٥/ ٣٥].

هذا ما يقال في مذهب الجمهور في هذه المسألة.

والآن، لا بد من معرفة ما يلي:

الأمر الأول: دليل الجمهور على صحة الصلاة مع المشي، والركوب، والقتال والاكتفاء بالإشارة والإيماء، والاتجاه إلى أي جهة حسب الإمكان.

الأمر الثاني: جواب الجمهور على دليل الأحناف في تأخير الصلاة عن أوقاتها بسبب الانشغال بالحرب.

ـ أما بالنسبة للأمر الأول: فقد وردت نصوص شرعية في الترخص بترك بعض أركان الصلاة حال القتال، وقيس عليها غيرها مما يضطر إلى تركه من الأركان.

يقول الله تعالى بصدد الصلاة في حالة الخوف الشديد: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ۖ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾﴾ [البقرة].

جاء في تفسير الطبري: «فإن خفتم من عدو لكم، أيها الناس! تخشونهم على أنفسكم، في حال التقائكم معهم، أن تُصلُّوا قيامًا على أرجلكم بالأرض، قانتين لله(١)، فصلوا رجالًا(٢) مشاة على أرجلكم، وأنتم في حربكم، وقتالكم، وجهاد عدوكم، أو ركبانًا على ظهور دوابكم، فإن ذلك يجزيكم حينئذ من القيام منكم قانتين». [تفسير الطبري ٢/ ٣٥٥].

هذا ما قاله الطبري.. وبنحو ذلك جاء في (روح المعاني) للآلوسي.. وهو ـ أعني: الآلوسي ـ وإن كان من الأحناف إلا أنه جنح في تفسيره لهذه الآية إلى تأييد رأي الشافعية والجمهور، في هذه المسألة. قال ما نصه: «واستدل الشافعي ﷺ بظاهر الآية على وجوب الصلاة حال المسايفة، إن لم يمكن الوقوف، وذهب إمامنا [أي: أبو حنيفة] إلى أن المشي، وكذا القتال يُبطلها، وإذا أدى الأمر إلى ذلك أخَّرها، ثم صلاها آمنًا» ثم يقول: «وأنت تعلم ـ إذا أنصفت ـ أنَّ ظاهر الآية صريحة مع الشافعية».

[روح المعاني للآلوسي ٢/ ١٥٧-١٥٨، سنن ابن ماجه ١/ ٣٩٩ رقم ١٢٥٨].

أي: مع القول بصحة الصلاة حال القتال مع ما يُحتاج إليه من ترك بعض الأركان، والقيام ببعض الأعمال تبعًا للضرورة الحربية.

ـ هذا ومما يدل على أن الآية التي نحن بصددها هي بخصوص الصلاة في شدة الخوف، ما جاء في سنن ابن ماجه: «عن ابن عمر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ، في صلاة الخوف... الحديث إلى أن قال النبي ﷺ: فإن كان خوف أشد من ذلك ـ فرجالًا، أو ركبانًا».

[سنن ابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها (١٢٥٨) وقال الشيخ الألباني: صحيح].

أي: فليصلوا صلاة شدة الخوف، راجلين، أو راكبين.

ـ وفي رواية، عند البخاري لهذا الحديث عن (ابن عمر) أيضًا، عن النبي ﷺ قال: «**وإن كان أكثر من ذلك، فليصلوا قيامًا، وركبانًا**». [صحيح البخاري رقم (٩٤٣) فتح الباري ٢/ ٤٣١].

وفي رواية عند البخاري أيضًا عن ابن عمر، كذلك: «فَإِنْ كَانَ خَوْفٌ هُوَ أَشَدَّ مِنْ ذَلِكَ، صَلَّوْا رِجَالًا، قِيَامًا عَلَى أَقْدَامِهِمْ، أَوْ رُكْبَانًا، مُسْتَقْبِلِي الْقِبْلَةِ، أَوْ غَيْرَ مُسْتَقْبِلِيهَا».

---

(١) إشارة للآية السابقة على هذه الآية، وهي: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾﴾ يقول القرطبي في (الجامع لأحكام القرآن ٣/ ٢١٤): «قيل: إن أصل القنوت في اللغة: الدوام على الشيء، ومن حيث كان أصل القنوت في اللغة الدوام على الشيء جاز أن يُسمى مديم الطاعة قانتًا، وكذلك من أطال القيام والقراءة والدعاء في الصلاة، أو أطال الخشوع والسكوت كل هؤلاء فاعلون للقنوت».

(٢) الرجال: جمع راجل، أو رجل... إذا عدم المركوب، ومشى على قدميه... والرجل الذي هو اسم الجنس يجمع أيضًا على رجال. تفسير القرطبي ٣/ ٢٢٣.

قَالَ مَالِكٌ: قَالَ نَافِعٌ: لاَ أُرَى عَبْدَ الله بْنَ عُمَرَ ذَكَرَ ذَلِكَ إِلَّا عَنْ رَسُولِ الله ﷺ».

[صحيح البخاري رقم (٤٥٣٥) فتح الباري ٨/ ١٩٩].

ـ وفي صحيح ابن خزيمة، جاء هذا الحديث بالجزم في رفعه إلى النبي ﷺ هكذا «قال نافع: إن ابن عمر روى ذلك عن رسول الله ﷺ». [صحيح ابن خزيمة ٢/ ٣٠٦ رقم (١٣٦٦)].

جاء في فتح الباري: «وَالمَعْنَى: أَنَّ الخَوْفَ إِذَا اِشْتَدَّ، وَالعَدُوُّ إِذَا كَثُرَ فَخِيفَ مِنَ الِانْقِسَامِ [أي: إلى طائفتين، طائفة تحرس، وطائفة تصلي أو تتابع الإمام] جَازَتْ الصَّلَاةُ حِينَئِذٍ بِحَسَبِ الإِمْكَانِ، وَجَازَ تَرْكُ مُرَاعَاةِ مَا لَا يُقْدَرُ عَلَيْهِ مِنَ الأَرْكَانِ، فَيَنْتَقِلُ عَنِ القِيَامِ إِلَى الرُّكُوعِ، وَعَنِ الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ إِلَى الإِيمَاءِ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ، وَبِهَذَا قَالَ الجُمْهُورِ». [فتح الباري ٢/ ٤٣٣].

ـ ومن الأحاديث التي تثبت وقوع الصلاة بالإيماء في شدة الخوف ـ ما جاء في سنن أبي داود في قصة الصحابي (عبد الله بن أُنيس ﷺ) الذي كلفه النبي ﷺ بقتل (خالد بن سفيان الهذلي)، المقيم في جهة «عرفات»؛ لأنه كان يجمع الجموع لحرب المسلمين.. ومما جاء في الحديث، قول عبد الله بن أُنيس ﷺ: «...فرأيته [أي: رأيت الهذلي المأمور بقتله] وحضرتْ صلاة العصر... فانطلقت أمشي، وأنا أصلي، أومئ إيماء، نحوه.. ـ إلى أن قال: ـ حتى إذا أمكنني علوتُه بسيفي، حتى برد».

[سنن أبي داود رقم (١٢٤٩)، وهو حديث حسن، وإسناده جيد، كما جاء في (فتح الباري ٢/ ٤٣٧) وتفسير ابن كثير ١/ ٢٩٥. أقول: وهذا الحديث، وإن كان فيه عنعنة (ابن إسحاق): «محمد بن إسحاق عن محمد بن جعفر» إلا أنه في رواية (البيهقي)، قد صرح فيه بالتحديث: «عن محمد بن إسحاق حدثني محمد بن جعفر بن الزبير»، وبذلك زالت شبهة التدليس. ينظر: سنن البيهقي ٣/ ٢٥٦، جامع الأصول الهامش ٥/ ٧٥٠].

أي: تم القضاء عليه.

يقول الشوكاني: معلقًا على حديث (عبد الله بن أنيس ﷺ): «ومثل هذا، من هذا الصحابي المبعوث في هذا الأمر المهم ـ لا يخفى على رسول الله ﷺ.

وفيه دليل على أنه يفعل ما أمكنه، ولو بمجرد الإيماء، وإلى غير القبلة». (١)

---

(١) السيل الجرار للشوكاني ١/ ٣١٤، وقارن بقوله ـ أي: الشوكاني نفسه ـ في نيل الأوطار ٣/ ٣٦٧، ولا يتم الاستدلال على ذلك [أي: جواز الصلاة عند شدة الخوف، بالإيماء] بحديث عبد الله بن أنيس إلا على فرض أن النبي ﷺ قرره على ذلك. وإلا فهو فعل صحابي لا حجة فيه «أقول: وهذا الفرض هو الظاهر، وذلك أن الصحابي لا يفعل ذلك في عهد النبي ﷺ إلا إذا كان مثل هذا الأمر مشروعًا، من قبل. أو يفعله باجتهاده، ثم يسأل عنه النبي ﷺ، وما دام الصحابي أخبر بالقصة، بعد عهد النبي ﷺ على الوجه الذي رواها به، فإن غلبة الظن أن صلاته تلك على نحو ما أداها كانت صلاة مشروعة. هكذا. [عبد الله بن أنيس: روى عن النبي ﷺ، وروى عنه أولاده.. ومات في الشام سنة ٥٤ هـ». الإصابة: ٢/ ٢٧٠، رقم ٤٥٥٠].

ـ ومن الوقائع التي تثبت صلاة المسلمين على عهد الصحابة، في الخوف، وهم في حالة الركوب على الدواب ـ ما جاء في «مصنف ابن أبي شيبة» قال: «كان ثابت بن السمط [١] أو السمط بن ثابت في مسير في خوف، فحضرت الصلاة، فصلوا ركبانًا. فنزل الأشتر [٢]، فقال: [أي: الأمير، ثابت...] ما له؟ قالوا: نزل فصلى، قال: ما له خالف؟ خولف به!». [مصنف ابن أبي شيبة ٢/ ٤٦١].

هذا، وقد عللت كتب الفقه لرأي الجمهور في الصلاة في شدة الخوف، كيفما تيسر، والترخص في ترك ما يترك من الأركان، والقيام بما يقام به من الأعمال التي تلزم للقتال ـ عللت كتب الفقه لهذا الرأي بشدة الحاجة، والضرورة، والقياس على ما جاءت النصوص الشرعية في الترخص به من ذلك».

[ينظر: الشرح الكبير للدردير ١/ ٣٩٤، ومنح الجليل ١/ ٤٥٦، والمجموع للنووي ٤/ ٤٢٦، والمغني لابن قدامة ٢/ ٢٧٠ -٢٧١، والشرح الكبير للمقدسي ٢/ ١٣٨].

هذا ما يتصل بأدلة الجمهور في الصلاة في شدة الخوف كيفما تيسر.

وأما بالنسبة للأمر الثاني: بم أجاب الجمهور على قول الأحناف بأن ترك النبي ﷺ لبعض الصلوات في غزوة الخندق، وقضاءها فيما بعد ـ يدل على جواز تأخير الصلوات عن أوقاتها بسبب الانشغال بالحرب؟

ـ أجاب الجمهور عن ذلك، بقولهم ـ كما في المجموع: «أما قصة الخندق فمنسوخة، فإنها كانت قبل نزول آية الخوف، كما سبق، ويجب أن يصلي صلاة شدة الخوف، سواء التحم القتال أم لا، ولا يجوز تأخيرها عن الوقت. هذا مذهبنا ومذهب الجمهور». [المجموع للنووي ٤/ ٤٣٣].

ـ وبمثل هذا جاء في المغني لابن قدامة، قال: «وأما تأخير الصلاة يوم الخندق، فروى «أبو سعيد» أنه كان قبل نزول صلاة الخوف». [المغني لابن قدامة ٢/ ٢٧١].

هذا، ويعتمد الأحناف فيما ذهبوا إليه من تأخير الصلاة بسبب الحرب على أن النبي ﷺ كان قد صلى الخوف في «غزوة ذات الرقاع»، وهذه كانت قبل «غزوة الخندق»، وبما أن الرسول ﷺ ترك صلاة الخوف في الخندق وأخر الصلاة ـ فإن هذا يدل على أنه إنما ترك صلاة الخوف لأنه لم يكن يستطيع أداءها من غير أن يشتغل بأعمال القتال، مما يدل بالتالي: على عدم صحة الصلاة مع الاشتغال بالحرب، وعليه: فيجب تأخيرها لذلك.

يقول الجصاص ـ من أئمة الأحناف ـ في هذا: «فإن قيل: ما أنكرتَ من أن يكون النبي ﷺ إنما لم يصل يوم الخندق؛ لأنه لم يكن نزلت صلاة الخوف؟ قيل له: قد ذكر «محمد بن إسحاق» و«الواقدي» جميعًا أن

(١) «ثابت بن السمط: قال ابن حبان: هو أخو شرحبيل، صدوق، من الثالثة»، أي: من الطبقة الوسطى من التابعين. [تقريب التهذيب: رقم (٨١٦) ص ١٣٢].

(٢) الأشتر النخعي: (٣٧ هـ) مالك بن الحارث من أنصار علي بن أبي طالب ﷺ. [ينظر: الأعلام للزركلي ٦/ ١٣١].

«غزوة ذات الرقاع» كانت قبل الخندق [(١)]، وقد صلى النبي ﷺ فيها [في ذات الرقاع] صلاة الخوف، فدل ذلك على أن ترك النبي ﷺ صلاة الخوف [أي في الخندق] إنما كان للقتال؛ لأنه يمنع صحتها، وينافيها.

[أحكام القرآن للجصاص ٢/ ١٦٣-١٦٤].

والخلاصة: أن الجمهور يوجب أداء الصلوات في أوقاتها في حالة الحرب، على حسب الإمكان، بينما يرى الأحناف وجوب تأخيرها إلى ما بعد الانتهاء من القتال، إذا حالت الحرب دون أدائها على الوجه المشروع.

ونأتي إلى النقطة الثانية: الرأي الذي نرجحه في هذه المسألة: هل يجوز تأخير الصلاة عن وقتها بسبب الانشغال بالحرب، أم لا يجوز؟

ما نرجحه في هذه المسألة يتوقف على أمور ليست من غرضنا هنا، إلا أنه لابد من الإشارة إلى ما تشتد حاجتنا إليه منها، كما لابد من الترجيح في بعض الأمور المختلف فيها؛ من أجل التوصل في النهاية إلى ما نرجحه في المسألة التي نحن بصددها.. وعلى هذا، نقول:

(١) بصدد الخوف من العدو، هناك نوعان من الصلاة، تؤدى الفريضة على نحوهما:

ـ صلاة تسمى «صلاة الخوف» وهي تؤدي جماعة على أشكال متعددة معينة، جاء تفصيلها في كتب الفقه والحديث، وليس فيها ضرب ولا قتال.. ومنها الصلاة الواردة في سورة النساء في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ﴾ [النساء: ١٠٢].

وهذا النوع من صلاة الخوف قد أقره الجمهور بمن فيهم الأحناف في الجملة، إلا الحسن بن زياد، وأبا يوسف في قوله الآخر عنه (ينظر: بدائع الصنائع ١/ ٢٤٢ هذا، وحجة أبي يوسف: أن صلاة الخوف خاصة بالصلاة جماعة، مع رسول الله ﷺ لقوله تعالى: ﴿فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَوٰةَ﴾ وعلى هذا، فلا تُصلى إذا لم يكن موجودًا)، وإلا المزني من الشافعية. (ينظر: المجموع للنووي ٤/ ٤٠٥، هذا، وحجة المزني أن النبي ﷺ لم يصل في الخندق صلاة الخوف، بل أخر الصلاة، ثم قضاها، على اعتبار أن صلاة الخوف كانت مشروعة قبل ذلك ـ وهذا يدل على نسخ صلاة الخوف، في نظره!).

---

(١) ينظر: سيرة ابن هشام (الروض الأنف: ٣/ ٢٤٦) أقول: قد اختُلف في زمن وقوع «غزوة ذات الرقاع» هل هي قبل الخندق أو بعد ذلك؟ وسبق الترجيح في هذه المسألة. [ينظر: فتح الباري ٧/ ٤١٦- ٤١٧]، وينظر [«فقه السيرة» للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي ص٢٣٥-٢٣٦] هذا ـ ويعتمد القول بتأخير «غزوة ذات الرقاع» على «غزوة الخندق» بأن (أبا موسى الأشعري ﷺ) ذكر أنه قد حضر «غزوة ذات الرقاع» وهو لم يقدم على النبي ﷺ إلا في «خيبر» سنة ٧ هـ، بينما كانت الخندق سنة ٤هـ.

وأجيب: بأن الغزوة التي حضرها هي غزوة أخرى سميت بهذا الاسم أيضًا. أقول: ما دام قد ثبت بسند صحيح، وعند الجميع أن «جابر بن عبد الله» قد حضر «غزوة ذات الرقاع» وأن من أخبار «ذات الرقاع» التي حضرها «جابر» ما يدل ـ كما سبق ـ على أنها قد وقعت قبل «غزوة الخندق» فإنه لابد من أن يصار إلى القول بأن هناك «ذات رقاع أخرى» هي التي حضرها «أبو موسى».. ولا شيء يمنع من ذلك. وبهذا يكون العمل بكل الروايات ما دامت كلها صحيحة. وكما هو مقرر في الأصول: إعمال الدليلين خير من إعمال أحدهما وإهمال الآخر. وينظر: فتح الباري ٧/ ٤١٨، ٤١٩.

ـ وهناك نوع آخر من الصلاة في الحرب يسمى «صلاة شدة الخوف» وهذه الصلاة يسقط فيها من الأركان، ويقع فيها من المشي والضرب والطعان ما يستلزمه قتال العدو، أو الخوف منه.

وعلى هذه الصلاة فسَّر الجمهور قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ﴾ [البقرة: ٢٣٩]. كما ورد ذكر هذه الصلاة في بعض الأحاديث كما تقدم.

وهذه الصلاة في شدة الخوف هي التي أنكرها الأحناف، على نحو ما سبق بيانه. (قال الأحناف: قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ﴾ ليس فيه تصريح بجواز المشي، والقتال؛ لأن الرجال تطلق على المترجلين الواقفين على أرجلهم، وليس بالضرورة أن يكونوا في حالة مشي، وضرب وطعن. ينظر: أحكام القرآن للجصاص ٢/ ١٦٤).

ـ هذا، والراجح: أن صلاة الخوف هي صلاة مشروعة بعد الرسول ﷺ كما كانت في عهده، بدليل استمرار الصحابة على العمل بها في عصرهم بدون نكير. [ينظر: المجموع للنووي ٤/ ٤٠٦].

ـ كما أن الراجح أن صلاة شدة الخوف هي أيضًا مشروعة عملًا بظاهر الآية: ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ﴾ [البقرة: ٢٣٩]، فإن الخوف في هذه الآية مطلق، ولم تقيد بكونه بلا قتال، ولا مشي، وعلى هذا، فهو يصدق على الخوف الذي يقع فيه المشي والقتال، كما يصدق على الخوف الذي لا يقع فيه شيء من ذلك، على حسب حالة الخوف، وعلى حسب ما يضطر معه المصلي إلى أعمال يقوم بها، أو أركان يسقطها.. ثم إن حديث عبد الله بن أُنيس ﷺ: «الذي بعثه النبي ﷺ في مهمة اغتيال «الهذلي» الذي كان في ناحية عرفات ـ يثبت صحة الصلاة المفروضة في شدة الخوف مع المشي، والإيماء.. كما جاء في القصة.

(٢) الذي يبدو أن صلاة الخوف كانت مشروعة قبل غزوة الخندق.. وذلك تبعًا لرأي ابن إسحاق وغيره، في أن «غزوة ذات الرقاع» التي صلى فيها النبي ﷺ صلاة الخوف إنما كانت قبل «غزوة الخندق». وقد ساق «ابن إسحاق» أحداث السيرة، في هذا الصدد، على نحو يؤيد ما ذهب إليه، وهذه مقتطفات مما جاء في سيرته: غَزْوَةُ ذَاتِ الرِّقَاعِ فِي سَنَةِ أَرْبَعٍ، قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: ثُمَّ أَقَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِالمَدِينَةِ بَعْدَ غَزْوَةِ بَنِي النَّضِيرِ شَهْرَ رَبِيعٍ الآخِرِ، وَبَعْضَ جُمَادَى، ثُمَّ غَزَا نَجْدًا يُرِيدُ بَنِي مُحَارِبٍ وَبَنِي ثَعْلَبَةَ مِنْ غَطَفَانَ...

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: حَتَّى نَزَلَ نَخْلًا («نخل... وهو مكان من نجد، من أرض غطفان...». تهذيب الأسماء واللغات للنووي ٣/ ٣٨، وفي فتح الباري: «هو مكان من المدينة على يومين». ٧/ ٤١٨)، وَهِيَ غَزْوَةُ ذَاتِ الرِّقَاعِ.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَلَقِيَ بِهَا جَمْعًا عَظِيمًا مِنْ غَطَفَانَ، فَتَقَارَبَ النَّاسُ، وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمْ حَرْبٌ، وَقَدْ خَافَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، حَتَّى صَلَّى رَسُولُ اللهِ ﷺ بِالنَّاسِ صَلَاةَ الْخَوْفِ، ثُمَّ انْصَرَفَ بِالنَّاسِ.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَحَدَّثَنِي وَهْبُ بْنُ كَيْسَانَ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ ﷺ قَالَ: خَرَجْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَى غَزْوَةِ ذَاتِ الرِّقَاعِ مِنْ نَخْلٍ، عَلَى جَمَلٍ لِي ضَعِيفٍ... [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٠٦].

ثم ذكر جابر ﷺ في هذا الحديث للنبي ﷺ أنه تزوج - بعد استشهاد أبيه في «أُحُد» - امرأة ثيبًا؛ لتقوم على خدمة سبع أخوات له صغار، تركهن أبوه من بعده، معللًا لماذا فضَّل الزواج بامرأة ثيب كبيرة على الزواج بفتاة بكرٍ صغيرة، بأن الثيب الكبيرة ذات التجربة أصلح للعناية بأخواته الصغار من غيرها.

هذا، وبعد ذلك أورد ابن إسحاق أحداث «غزوة الخندق» - ومما جاء فيها حديث تكثير طعام جابر ﷺ.

أقول: من هذا السياق في ترتيب الأحداث الثابتة - يتجلى ترجيح رأي «ابن إسحاق» في أن «غزوة ذات الرقاع» التي وقعت فيها صلاة الخوف - كانت متقدمة على غزوة الخندق.. وخلاصة القول في الوصول إلي هذه النتيجة مما تقدم هو:

- أن «غزوة ذات الرقاع» قد صلى فيها النبي ﷺ صلاة الخوف، وهذا ما لم ينكره أحد.

- ثم إن «جابرًا» كان في هذه الغزوة «ذات الرقاع» حديث عهد بعرس (على حد تعبير «جابر ﷺ» نفسه، كما في بعض روايات البخاري (رقم ٥٠٧٩) فتح الباري ٩/ ١٢١)، في زواجه بامرأة ثيب كبيرة، من أجل العناية بأخواته الصغار السبع اللواتي تركهن له أبوه، بعدما استشهد في «أُحُد».

- ثم في غزوة الخندق، تظهر «زوجة جابر» في الصورة وهي تطبخ طعامًا للنبي ﷺ.. وهذا يدل على تقدم «غزوة ذات الرقاع» التي وقعت فيها «صلاة الخوف»، وكان فيها «جابر» حديث عهد بعرس.. وتأخر «غزوة الخندق» التي صنعت فيها «زوجة جابر» الطعام للنبي ﷺ.

وبناء على ذلك يثبت أن النبي ﷺ قد أخر الصلوات في «غزوة الخندق» في حين كانت «صلاة الخوف» مشروعة، آنئذ، قبل هذه الغزوة.

(٣) أما بالنسبة لصلاة شدة الخوف، التي يجوز فيها التحرك والقتال، والاكتفاء بالإيماء - بدل الركوع والسجود - فلم يرد أن النبي ﷺ صلاها في غزوة الخندق، وقد صرح أبو سعيد الخدري ﷺ - كما تقدم - بأن الآية المتعلقة بها ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ لم تكن قد نزلت بعد.(١)

---

(١) ينبغي أن يذكر هنا أن آية شدة الخوف هي عقب آية ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ وقد ورد أن النبي ﷺ قال في غزوة الخندق: شغلونا عن الصلاة الوسطى، صلاة العصر [صحيح مسلم رقم ٦٢٨] وهذا قد يشير إلى أن آية شدة الخوف، وهي مترتبة على آية الصلاة الوسطى - قد نزلت معها، وأن كليهما قد نزل قبل الخندق، أو أثناء هذه الغزوة على أقل تقدير.. الأمر الذي قد يتعارض مع حديث أبي سعيد الخدري ﷺ بأن آية الخوف ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ لم تكن قد نزلت بعد..

الجواب: إن حديث: شغلونا عن الصلاة الوسطى، صلاة العصر لا يدل بالضرورة على الإشارة إلى آية معروفة، إذ من المحتمل أن يكون الرسول ﷺ قد سماها بذلك في غزوة الخندق، ثم نزل الوحي فيها بعد بهذه التسمية، وبهذا تكون هذه الآية، والتي بعدها ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ لم يكن الوحي قد نزل بهما إلى حين غزوة الخندق. ويحتمل أن آية الصلاة الوسطى كانت وحدها هي التي نزل بها الوحي قبل الخندق، ثم نزلت فيما بعد آية ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ فوضعت عقبها لعلاقتها ==

(٤) جاء في صحيح البخاري ومسلم وغيرهما... عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: نَادَى فِينَا رَسُولُ اللهِ ﷺ - يَوْمَ انْصَرَفَ عَنِ الأَحْزَابِ -: «أَنْ لاَ يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ الظُّهْرَ (في صحيح البخاري أن الصلاة كانت «صلاة العَصر» رقم ٤١١٩ (فتح الباري ٧/ ٤٠٧-٤٠٨)، وينظر الجمع بين الروايتين في فتح الباري ٧/ ٤٠٩، وفي شرح صحيح مسلم للنووي ٧/ ٣٨٥) إِلاَّ فِي بَنِي قُرَيْظَةَ»، فَتَخَوَّفَ نَاسٌ فَوْتَ الْوَقْتِ فَصَلُّوا دُونَ بَنِي قُرَيْظَةَ، وَقَالَ آخَرُونَ: لاَ نُصَلِّي إِلاَّ حَيْثُ أَمَرَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَإِنْ فَاتَنَا الْوَقْتُ! قَالَ: فَمَا عَنَّفَ وَاحِدًا مِنَ الْفَرِيقَيْنِ. [مسلم رقم (١٧٧٠)].

وفي رواية عن الطبراني: «فَاخْتَصَمَ النَّاسُ فِي غَزْوَتِهَا فِي صَلاةِ الْعَصْرِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: صَلُّوا فَإِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَمْ يُرِدْ أَنْ تَتْرُكُوا الصَّلاةَ! وَقَالَ بَعْضُهُمْ: قَدْ عَزَمَ عَلَيْنَا أَنْ لا نُصَلِّيَ الْعَصْرَ حَتَّى نَأْتِيَ بني قُرَيْظَةَ، وَإِنَّمَا نَحْنُ فِي عَزْمَةٍ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَلَيْسَ عَلَيْنَا إِثْمٌ، فَصَلَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمُ الْعَصْرَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، وَطَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ تُصَلِّ حَتَّى أَتَوْا بني قُرَيْظَةَ بَعْدَمَا غَابَتِ الشَّمْسُ، فَصَلَّوْهَا إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، فَلَمْ يُعَنِّفْ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَاحِدَةً مِنَ الطَّائِفَتَيْنِ». [رواه الطبراني في المعجم الكبير ١٩/ ٧٩، ورجاله رجال الصحيح غير أبي هذيل، وهو ثقة (مجمع الزوائد ٦/ ٢٠٤ رقم ١٠١٦٤)، وجاء في المستدرك للحاكم أيضًا بنحو هذا السياق عن عائشة رضي الله عنها، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي ٣/ ٣٥].

قال في فتح الباري: «وَحَاصِلُ مَا وَقَعَ فِي الْقِصَّةِ أَنَّ بَعْضَ الصَّحَابَةِ حَمَلُوا النَّهْيَ عَلَى حَقِيقَتِهِ، وَلَمْ يُبَالُوا بِخُرُوجِ الْوَقْتِ تَرْجِيحًا لِلنَّهْيِ الثَّانِي عَلَى النَّهْيِ الأَوَّلِ: وَهُوَ تَرْكُ تَأْخِيرِ الصَّلاَةِ عَنْ وَقْتِهَا، وَاسْتَدَلُّوا بِجَوَازِ التَّأْخِيرِ لِمَنْ اُشْتُغِلَ بِأَمْرِ الْحَرْبِ بِنَظِيرِ مَا وَقَعَ فِي تِلْكَ الأَيَّامِ بِالْخَنْدَقِ... وَذَلِكَ لِشُغْلِهِمْ بِأَمْرِ الْحَرْبِ، فَجَوَّزُوا أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ عَامًّا فِي كُلِّ شُغْلٍ يَتَعَلَّقُ بِأَمْرِ الْحَرْبِ، وَلاَ سِيَّمَا وَالزَّمَانُ زَمَانُ التَّشْرِيعِ، وَالْبَعْضُ الآخَرُ: حَمَلُوا النَّهْيَ عَلَى غَيْرِ الْحَقِيقَةِ، وَأَنَّهُ كِنَايَةٌ عَنِ الْحَثِّ وَالاسْتِعْجَالِ وَالإِسْرَاعِ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ، وَقَدْ اِسْتَدَلَّ بِهِ الْجُمْهُورُ عَلَى عَدَمِ تَأْثِيمِ مَنِ اجْتَهَدَ؛ لأَنَّهُ ﷺ لَمْ يُعَنِّفْ أَحَدًا مِنَ الطَّائِفَتَيْنِ،... وَأَغْرَبَ اِبْنُ الْمُنَيِّرِ فَادَّعَى أَنَّ الطَّائِفَةَ الَّذِينَ صَلَّوْا الْعَصْرَ لَمَّا أَدْرَكَتْهُمْ فِي الطَّرِيقِ إِنَّمَا صَلَّوْهَا، وَهُمْ عَلَى الدَّوَابِّ... ثم قال ابن حجر: وَدَعْوَى أَنَّهُمْ صَلَّوْا رُكْبَانًا يَحْتَاجُ إِلَى دَلِيلٍ، وَلَمْ أَرَهُ صَرِيحًا فِي شَيْءٍ مِنْ طُرُقِ هَذِهِ الْقِصَّةِ. [فتح الباري ٧/ ٤١٠، وينظر: شرح مسلم للنووي ٧/ ٣٨٥-٣٨٦].

(٥) جاء في صحيح البخاري: «وَقَالَ أَنَسٌ رضي الله عنه: حَضَرْتُ عِنْدَ مُنَاهَضَةِ حِصْنِ (تُسْتَرَ) («أعظم مدينة بخوستان ...». مراصد الاطلاع ١/ ٢٦٣) عِنْدَ إِضَاءَةِ الْفَجْرِ، وَاشْتَدَّ اشْتِعَالُ الْقِتَالِ، فَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَى الصَّلاَةِ، فَلَمْ نُصَلِّ إِلاَّ بَعْدَ ارْتِفَاعِ النَّهَارِ، فَصَلَّيْنَاهَا وَنَحْنُ مَعَ أَبِي مُوسَى رضي الله عنه، فَفُتِحَ لَنَا.

== بها، كما يحتمل أن الآيتين في الصلاة الوسطى، وفي شدة الخوف - نزلتا كلتاهما في غزوة الخندق بعدما تم تأخير الصلوات.. فعبر ﷺ - بناء على ذلك - عن سخطه على الكفار بقوله: شغلونا عن الصلاة الوسطى، وفي الوقت نفسه يصدق قول أبي سعيد الخدري رضي الله عنه بأن آية صلاة شدة الخوف ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ لم تكن قد نزلت قبل تأخير الصلوات. أي: إنها نزلت بعيد التأخير وإن كان نزولها بصدد غزوة الخندق.

وَقَالَ أَنَسٌ ﷺ: وَمَا يَسُرُّنِي بِتِلْكَ الصَّلاَةِ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا. [فتح الباري ٢/ ٤٣٤].

قال في فتح الباري: «وَالَّذِي يَتَبَادَرُ إِلَى الذِّهْنِ مِنْ هَذَا أَنَّ مُرَادَهُ الاِغْتِبَاطُ بِمَا وَقَعَ، فَالْمُرَادُ بِالصَّلاَةِ عَلَى هَذَا هِيَ الْمَقْضِيَّةُ الَّتِي وَقَعَتْ، وَوَجْه اِغْتِبَاطِهِ كَوْنهمْ لَمْ يَشْتَغِلُوا عَنِ الْعِبَادَةِ [أي: صلاة الفجر] إِلَّا بِعِبَادَةٍ أَهَمَّ مِنْهَا عِنْدَهُمْ [أي: الجهاد، في خصوص ذلك الظرف بالذات] [1]، ثُمَّ تَدَارَكُوا مَا فَاتَهُمْ مِنْهَا فَقَضَوْهُ...».

[فتح الباري ٢/ ٤٣٥].

ثم رد ابن حجر على من زعم بأن قصد أنس ﷺ مما قال هو تأسفه على صلاة الفجر التي فاتت عن وقتها بسبب الانشغال بالفتح، وأنه يخالف أبا موسى الأشعري ﷺ في اجتهاده في تأخير الصلاة عن ميعادها لأجل فتح الحصن، أي: كان أنس بن مالك ﷺ يفضل ترك حصار الحصن، والابتعاد عنه لأداء صلاة الفجر في ميعادها، ثم العودة إلى الحصار والقتال.

أقول: رد ابن حجر على ذلك بقوله: «لَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَصَلَّى أَنَسٌ ﷺ وَحْدَهُ وَلَوْ بِالإِيمَاءِ، لَكِنَّهُ وَافَقَ أَبَا مُوسَى ﷺ وَمَنْ مَعَهُ فَكَيْفَ يُعَدُّ مُخَالِفًا؟». [فتح الباري ٢/ ٤٣٦].

أقول: بعد كل ما تقدم، فإننا نرجح ـ في المسألة التي نعالجها ـ ما يلي:

ـ في حالة الحرب، يجوز أداء الصلاة في مواعيدها على نحو صلاة الخوف، أو صلاة شدة الخوف على حسب الحالة التي تعين هذه الصلاة، أو تلك، بما لا يترتب عليه ضرر يلحق بالمسلمين، أو تفويت لمصلحة الجهاد والقتال.

ـ كما يجوز من ناحية أخرى، تأخير الصلوات عن مواعيدها المقررة على أن تُقضى فيما بعد إذا استدعت الضرورة الحربية ذلك.

ـ ويجوز أيضًا للقيادات الإسلامية، في حالة الحرب أن تصدر أمرها للمقاتلين المسلمين بعدم الانشغال عما هم فيه من نحو مواصلة ضرب للعدو، أو مراقبة دائمة لأجهزة معينة تتعلق بأمر الحرب، أو ما شاكل ذلك.. ـ أن لا ينشغلوا عما هم فيه ولو بأداء الصلاة وذلك عملًا بما يدل عليه أمر النبي ﷺ للصحابة بعدم الصلاة إلا في «بني قريظة»، فإن سكوته ﷺ عن بيان مراده من ذلك الأمر: هل هو تأخير الصلاة، فعلًا عن مواعيدها؟ أم هو مجرد الحث والاستعجال، بدون تأخير للصلاة؟ أقول: إن سكوته ﷺ عن بيان مراده، فيما بعد، وقد علم أن بعض الصحابة قد فهم من كلامه تأخير الصلاة فعلًا عن

(١) ما ذكره ابن حجر من تقديم الجهاد على الصلاة بوقتها في الأهمية في ذلك الظرف، قد يشير إلى ما جاء في صحيح مسلم في ترجمة تأخير الصلاة بصدد غزوة بني قريظة، إذ جاء في الترجمة: باب المبادرة إلى الغزو، وتقديم أهم الأمرين المتعارضين!». صحيح مسلم ٣/ ١٣٩١.

ميعادها.. ـ هذا السكوت من النبي ﷺ، في هذه الحالة ـ هو دليل على تقرير مثل هذا الفهم. وبالتالي: فإن لصاحب السلطة أن يأمر بما يقوم على مثل هذا الفهم، إذا دعت الضرورات الحربية إلى ذلك.

هذا، ويتأيد هذا الرأي بما سبق من أن النبي ﷺ أخر بعض الصلوات في الخندق، مع أن صلاة الخوف كانت مشروعة من قبل ـ كما تقدم.

كما يتأيد هذا الرأي أيضًا، بتأخير الصحابة، في عهد الخلافة الراشدة، لصلاة الفجر أثناء حصارهم لحصن «تُستر» إلى أن أتموا الفتح!

وإلى هذا الرأي في جواز تأخير الصلاة عن أوقاتها بسبب الانشغال بالحرب، مال الإمام البخاري.

[ينظر: فتح الباري ٢/ ٤٣٦. وكتاب (الإمام البخاري وصحيحه) للدكتور عبد الغني عبد الخالق ص١٤٦، وتفسير ابن كثير ٢٩٥- ٢٩٦].

هذا، وقد مال بعض المشتغلين في الحقل الإسلامي من الكُتَّاب، والفقهاء المعاصرين، إلى هذا الرأي أيضًا في جواز تأخير الصلاة بسبب الانشغال بالحرب.

يقول الشيخ محمد الغزالي في كتابه «فقه السيرة»: «ومن العلماء من أهدر الوقت المعيَّن للصلاة بعذر القتال، وذلك مذهب البخاري وغيره، وهذا ـ عندي ـ أدنى إلى الصواب، فإنَّ ترتيب الواجبات المنوطة بأعناق العباد من أهم ما يحدِّد رسالة المسلم في الحياة، بل إنه لا يفهم دينه فهمًا صحيحًا إلا إذا فقه هذا الترتيب المطلوب...

وقد رأى رسول الله ﷺ أن مباغتة بني قريظة قبل أن يستكملوا عدتهم ويقووا حصونهم، هو الواجب الأول في تلك الساعة فلا ينبغي أن ينشغل المسلم عنه ولو بالصلاة.

فحدود وقت الصلاة تذوب أمام ضرورات القتال». [فقه السيرة للشيخ الغزالي ص ٣٣٧].

ويقول أ.د/ وهبة الزحيلي في موسوعته الفقهية: «الفقه الإسلامي وأدلته ٢/ ١٣٠» ما يلي: «ومن أخَّر الصلاة عن وقتها لعذر مشروع لا إثم عليه، ومن العذر خوف العدو».

ثم استشهد على ذلك بتأخير النبي ﷺ لبعض الصلوات في غزوة الخندق. [الجهاد والقتال في السياسة الشرعية لهيكل ٢/ ١٣٦٥ - ١٣٨٠، وينظر للتفصيل أيضاً: الأحكام الفقهية المستفادة من غزوة الأحزاب وبني قريظة للعبد اللطيف ٣٦-٥٤، والأحكام الفقهية المستفادة من غزوتي الأحزاب وبني قريظة لبرير ١٧-٢٤].

٣٠ ـ تُقْضَى الصلاة المكتوبة إذا تُركت عمدًا أو سهوًا:

يقول د/ البوطي: «لقد فاتت النبي ﷺ صلاة العصر كما قد رأيت في هذه الموقعة لشدة انشغاله، حتى صلاها قضاء بعدما غربت الشمس، وفي روايات أخرى غير الصحيحين أن الذي فاته أكثر من صلاة واحدة، صلاها تباعًا بعدما خرج وقتها وفرغ لأدائها.

وهذا يدل على مشروعية قضاء الفائتة، ولا ينقض هذه الدلالة ما ذهب إليه البعض من أن تأخير الصلاة لمثل ذلك الانشغال كان جائزًا إذ ذاك ثم نُسخ حينما شُرعت صلاة الخوف للمسلمين رجالًا وركبانًا عند التحام القتال بينهم وبين المشركين، إذ النسخ ـ على فرض صحته ـ ليس واردًا على مشروعية القضاء، وإنما هو وارد على صحة تأخير الصلاة بسبب الانشغال، أي أن نسخ صحة التأخير ليس نسخًا لما كان قد ثبت من مشروعية القضاء أيضًا، بل هي مسكوت عنها، فتبقى على مشروعيتها السابقة، على أن الذي يقتضيه الدليل القطعي هو أن صلاة الخوف شرعت قبل هذه الغزوة كما مر تحقيق ذلك عند الحديث عن غزوة ذات الرقاع.

ومن أدلة هذه المشروعية أيضًا ما ثبت في الصحيحين أن النبي ﷺ قال عند منصرفه إلى المدينة من غزوة الأحزاب: «**أَنْ لَا يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ العَصْرَ (أَوْ الظُّهْرَ) إِلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ**»، فأدرك بعضهم وقت الصلاة في الطريق فقال البعض: لا نصلي حتى نأتيها، وقال بعضهم: بل نصلي، لم يرد منا ذلك، فصلاها الفريق الأول بعد وصولهم إلى بني قريظة قضاء.

وإذا ثبت وجوب قضاء المكتوبة بعد فواتها، فسيان أن يكون السبب نومًا أو إهمالًا أو تركًا متعمدًا، إذ لم يَرِد ـ بعد ثبوت الدليل العام على وجوب قضاء الفائتة عمومًا ـ أي دليل يخصص مشروعية القضاء ببعض أسباب التفويت دون بعضها الآخر، والذين تركوها في طريقهم إلى بني قريظة لم يكونوا نائمين ولا ناسين... فمن الخطأ إذًا أن تخصص مشروعية قضاء الفائتة المكتوبة ـ مع ذلك ـ بما عدا التفويت المتعمد... وهو أشبه ما يكون بمن يخصصها ببعض المكتوبات دون بعض، بدون أي مخصص شرعي، وربما توهم البعض أنه قد ثبت دليل يخصص عموم أدلة مشروعية القضاء وهو المفهوم المخالف لحديث: «**مَنْ نَسِيَ صَلَاةً [أَوْ نَامَ عَنْهَا] فَلْيُصَلِّهَا إِذَا ذَكَرَهَا، لَا كَفَّارَةَ لَـهَا إِلَّا ذَلِكَ**».

[البخاري في مواقيت الصلاة (٥٩٧)، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٦٨٤)، وأبو داود في الصلاة (٤٤٢)، والترمذي في مواقيت الصلاة عن رسول الله ﷺ (١٧٨)، وابن ماجه في الصلاة (٦٩٥، ٦٩٦)].

ولكن هذا وهم لا ينبغي أن يدخل على طالب علم متبصر، فالمقصود بالحديث ليس هو أمر الناسي والنائم بقضاء الصلاة، دون غيرها، ولكن المقصود التركيز على القيد، وهو (إذا ذكرها)، وذلك للتنبيه إلى أنه لا يشترط لمن فاتته صلاة وأراد تداركها أن ينتظر حلول وقتها من اليوم الثاني ثم يؤديها إذ ذاك، بل عليه أن يبادر إلى قضائها بمجرد التذكر، في أي وقت كان، فإذا عرفت أن هذا هو مقصود رسول الله ﷺ كما تدل على ذلك صيغة الحديث نفسها وكما ذكر علماء الحديث ذلك وشرَّاحه، عرفتَ أنه لا دلالة تشريعية تتعلق بالمفهوم المخالف للنوم أو النسيان في الحديث». [فقه السيرة للبوطي ٢٣٥-٢٣٦].

ويقول د/ فيض الله: «ما كان لنا أن نتطرق إلى هذا المبحث لأنه فقهي محض، مرده إلى كتب الفقه المذهبية.

لكن ورد في الصحيح في هذه الغزوة أن النبي ﷺ فاتته صلاة العصر يوم الأحزاب، فقال: «**شَغَلُونَا عَنْ صَلاَةِ الوُسْطَى صَلاَةِ العَصْرِ مَلأَ اللهُ قُبُورَهُمْ وَبُيُوتَهُمْ أَوْ أَجْوَافَهُمْ نَارًا**».

ثم صلاها بين العشاءين، مع العلم بأن صلاة الخوف كانت مشروعة، كما رأينا قبلًا.

والحديث صريح في وجوب قضاء الفائتة بإطلاق، وهو إجماع فقهاء المذاهب الأربعة وغيرهم، لم يشذ إلا داود، الذي قال بعدم قضاء فائتة العمد، جريًا على أصله في الاقتصار على ظاهر النصوص، ومن ذلك حديث: «**مَنْ نَسِيَ صَلاَةً [أَوْ نَامَ عَنْهَا] فَلْيُصَلِّهَا إِذَا ذَكَرَهَا، لاَ كَفَّارَةَ لَـهَا إِلَّا ذَلِكَ**».

وصرَّح المالكية بأن هذه المقالة لم تُنْقَل عن أحد سواه، وأن روايتها عن مالك شاذة؛ وبالغ بعضهم فَكَفَّر من قال بعدم وجوب قضاء الفائتة.

وداود معروف بالجمود، وقد قال بعض المترجمين من العلماء: إن مذهب داود بدعة ظهرت بعد المائتين، وحديث الخندق هذا حُجة عليه، فقد شغلت الحرب النبي ﷺ عن الصلاة، لم يَنَمْ عنها ولم يَنْسَهَا، وقضاها مع ذلك، وهي مما لم يشمله حديثه الذي اعتمد عليه، على أن حديثه هذا ليس فيه ما يدل على الحصر من حيث العربية، لكنه خرج مخرج الغالب، فالشأن في المسلم ألا يترك الصلاة إلا كذلك، نومًا أو نسيانًا.

ومع ذلك فإن التخصيص بالوصف والشرط لا يدل على نفي الحكم عما لم يوجد فيه ذلك الوصف أو الشرط، كما تقرر في الأصول.

ومن اللطيف أن ننص هنا ـ للتوثيق وتجنيب الشذوذ ـ على أن الشافعية ـ رحمهم الله تعالى ـ قالوا بندب قضاء النفل المؤقت، قياسًا على قضاء الفرائض، بجامع التوقيت».

لكن داود خالف الإجماع بإنكاره القياس، الذي هو الاجتهاد في كلام الشافعي، فتورط في مخالفات ومفارقات عجيبة.

فانظر يا أخي، رعاك الله، كم بين التفتح والاجتهاد، وبين التجمد والانغلاق من فرق، في المسلك والأثر؟

وفقني اللهُ وإياك، لاتباع سبيل أهل العلم والاجتهاد، وجنبنا الابتداع، ومشاقة الله والرسول، بمخالفة إجماع المؤمنين، والله ولي التوفيق، وهو حسبنا ونعم الوكيل». [صور وعبر لفيض الله ٢٤٩-٢٥٠].

٣١ ـ السنة قضاء الفوائت مرتَّبة، وأداؤها في جماعة أفضل:

يقول د/ أبو فارس: «تُصلى الصلاة الفائتة قضاء قبل الصلاة التي حضر وقتها، ففي الحديث الصحيح أن الرسول ﷺ صلى العصر قضاء في وقت المغرب ثم صلى صلاة المغرب في وقتها.

فقضاء الصلوات الفائتة يكون على الترتيب، فلو فاتته صلاة الظهر والعصر وحل وقت المغرب فإنه يقضي أولًا صلاة الظهر ثم العصر ثم يصلي المغرب حاضرًا.

وهذا الذي فعله رسول الله ﷺ في غزوة الخندق كما رأيت». [غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٦٩، وينظر للتفصيل في ذلك: الأحكام الفقهية المستفادة من غزوة الأحزاب وبني قريظة للعبد اللطيف ٥٤-٥٨، والأحكام الفقهية المستفادة من غزوتي الأحزاب وبني قريظة لبربر ٢٥-٣٣].

٣٢ ـ من فاتته أكثر من صلاة استحب له أن يؤذن للأولى ويقيم لكل واحدة:

يقول د/ الفنيسان: «دليله حديث عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ: إِنَّ الْمُشْرِكِينَ شَغَلُوا النَّبِيَّ ﷺ عَنْ أَرْبَعِ صَلَوَاتٍ يَوْمَ الْخَنْدَقِ، فَأَمَرَ بِلَالًا فَأَذَّنَ، ثُمَّ أَقَامَ فَصَلَّى الظُّهْرَ، ثُمَّ أَقَامَ فَصَلَّى الْعَصْرَ، ثُمَّ أَقَامَ فَصَلَّى الْمَغْرِبَ، ثُمَّ أَقَامَ فَصَلَّى الْعِشَاءَ. [النسائي في الأذان (٦٦٢)، وقال الشيخ الألباني: صحيح].

هذا الحديث وإن كان في سنده أبو عبيدة بن مسعود، ولم يسمع من أبيه كما قاله الترمذي، فإنه يعضده حديث عمر بن الخطاب عند البخاري في وضوئهم من بطحان، وصلاتهم الفوائت».

[غزوة الأحزاب للفنيسان ٢٢٤].

قلت: وقد سبق حديث أبي سعيد الخدري ﷺ، وهو صحيح، ولفظه: عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ قَالَ: حُبِسْنَا [شَغَلَنَا الْمُشْرِكُونَ] يَوْمَ الْخَنْدَقِ [عَنِ الصَّلَاةِ] حَتَّى ذَهَبَ هَوِيٌّ مِنَ اللَّيْلِ [حَتَّى كَانَ بَعْدَ الْمَغْرِبِ بِهَوِيٍّ مِنَ اللَّيْلِ] حَتَّى كُفِينَا، وَذَلِكَ قَوْلُ اللهِ: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾ [الأحزاب]، قَالَ: فَدَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بِلَالًا فَأَمَرَهُ فَأَقَامَ فَصَلَّى الظُّهْرَ وَأَحْسَنَ كَمَا كَانَ يُصَلِّيهَا فِي وَقْتِهَا، ثُمَّ أَقَامَ لِلْعَصْرِ فَصَلَّاهَا كَذَلِكَ، ثُمَّ أَقَامَ الْمَغْرِبَ فَصَلَّاهَا كَذَلِكَ، ثُمَّ أَقَامَ الْعِشَاءَ فَصَلَّاهَا كَذَلِكَ، [وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يَنْزِلَ فِي الْقِتَالِ مَا نَزَلَ]، وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يَنْزِلَ فِي صَلَاةِ الْخَوْفِ ـ قَالَ حَجَّاجٌ: فِي صَلَاةِ الْخَوْفِ: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ [البقرة: ٢٣٩]. [مسند أحمد ١٧/ ٢٩٣-٢٩٤ رقم ١١١٩٨، ١١١٩٩، ١٨/ ٤٥-٤٦، ١٨٧-١٨٨ رقم ١١٤٦٥، ١١٦٤٤، والنسائي في الأذان (٦٦١)، وقال الشيخان الأرناؤوط والألباني: صحيح].

ويقول د/ المدخلي: «قد اختلف العلماء في ذلك على ما يلي:

١ ـ مالك والشافعي والأوزاعي وأصحابهم قالوا فيمن فاتته صلاة أو صلوات حتى خرج وقتها: إنه يقيم لكل واحدة إقامة ولا يؤذن.

٢ ـ الثوري قال: ليس عليه في الفوائت أذان ولا إقامة.

٣ ـ أبو حنيفة وأصحابه قالوا: من فاتته صلاة واحدة صلاها بأذان وإقامة فإن لم يفعل فصلاته تامة.

٤ ـ قال محمد بن الحسن: إذا فاتته صلوات فإن صلاهن بإقامة إقامة كما فعل النبي ﷺ يوم الخندق فحسن، وإن أذن وأقام لكل صلاة فحسن ولم يذكر خلافًا.

٥ ـ أحمد بن حنبل وأبو ثور وداود بن علي قالوا: يؤذن ويقيم لكل صلاة فاتته على ما روي عن النبي ﷺ إذ نام عن الصلاة، وهذا هو الراجح، ثم عقب قائلًا: حجة من قال: إنه يقيم لكل صلاة فاتته ولا يؤذن لها أن رسول الله ﷺ حبس يوم الخندق عن صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء إلى هوي من الليل ثم أقام لكل صلاة ولم يؤذن.

وروى هذا الخبر عن النبي ﷺ أبو سعيد الخدري وابن مسعود وقد تقدم.

ثم أورد حديث ابن مسعود كما ورد عند الترمذي بنفس السند إلا أنه قال: هكذا قال له هشيم في هذا الحديث، فأذن ثم أقام فصلى الظهر فذكر الأذان للظهر وحدها قال: «وكذلك رواه أبو بكر بن أبي شيبة عن هشيم سواء، وخالفه هشام الدستوائي، فقال فيه: فأمر بلالًا فأقام فصلى الظهر ولم يذكر أذانًا للظهر ولا لغيرها.

ثم ذكر رحمه الله سندًا آخر له ولكنه عن أبي عبيدة وقد ثبت أنه لم يسمع من أبيه وفيه: فأمر رسول الله ﷺ بلالًا فأقام فصلى الظهر، وفي آخره ثم طاف علينا فقال: «**مَا عَلَى الأَرْضِ عِصَابَةٌ يَذْكُرُونَ اللهَ ﷻ غَيْرُكُمْ**» [النسائي في الأذان (٦٦٣)، وضعفه الشيخ الألباني]، إلا أنه لم يصرح عند أحمد بأن ذلك كان يوم الخندق، وعلى كل حال وعلى ضوء ما تقدم فالحديث منقطع. [مرويات غزوة الخندق للمدخلي ٣٤٠-٣٤١، وينظر للتفصيل في ذلك: الأحكام الفقهية المستفادة من غزوة الأحزاب وبني قريظة للعبد اللطيف ٥٩-٦٤، والأحكام الفقهية المستفادة من غزوتي الأحزاب وبني قريظة لبربر ٣٤-٣٩].

٣٣ ـ جواز قضاء الفوائت بوضوء واحد:

يدل على هذه الأحاديث المذكورة في الحكمين السابقين وغيرهما. [ينظر: فتح الباري ٧/ ٤٠٥].

٣٤ ـ حكم الدعاء في المعركة:

يقول د/ بربر: «عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي أَوْفَى رضي الله عنهما قَالَ: دَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمَ الأَحْزَابِ عَلَى الْمُشْرِكِينَ فَقَالَ: «**اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الكِتَابِ، سَرِيعَ الحِسَابِ، [مُجْرِيَ السَّحَابِ]، اللَّهُمَّ اهْزِمِ الأَحْزَابَ، اللَّهُمَّ اهْزِمْهُمْ وَزَلْزِلْهُمْ**». [البخاري في الجهاد والسير (٢٩٣٣)، وفي المغازي (٤١١٥)، وفي الدعوات (٦٣٩٢)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٤٢)، والترمذي في الجهاد (١٦٧٨)، وابن ماجه في الجهاد (٢٧٩٦)، ومسند أحمد ٣١/ ٤٥٣ رقم ١٩١٠٧].

اتفق العلماء على استحباب الدعاء في المعركة. [شرح النووي على مسلم ١٢/ ٤٧].

وذلك لقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾﴾ [البقرة].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ [آل عمران:١٤٧].

ولدعائه ﷺ على الأحزاب، كما سبق في حديث عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنهما.

قال النووي: «فيه استحباب الدعاء عند اللقاء والاستنصار». [شرح النووي على مسلم ١٢/ ٤٧].

وكما كان من دعاء الرسول ﷺ يوم بدر الكبرى وغيرها.

قال ابن القيم: «كان ﷺ إذا لقي عدوه وقف ودعا واستنصر الله ﷻ». [زاد المعاد ٣/ ٩٧].

فالمؤمن دائم الصلة بربه ﷻ، يدعوه دائمًا في السراء والضراء، والشدة والرخاء؛ استجابة لأمره تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر].

وعند لقاء العدو الحاجة ماسة إلى الدعاء واستنصار الله على الأعداء، والاستجابة أقرب وأسرع عند اللقاء، فعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **«ثِنْتَانِ لَا تُرَدَّانِ، أَوْ قَلَّمَا تُرَدَّانِ الدُّعَاءُ عِنْدَ النِّدَاءِ، وَعِنْدَ الْبَأْسِ حِينَ يُلْحِمُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا»**. [أبو داود في الجهاد (٢٥٤٠)، وقال الشيخ الألباني: صحيح].

ولأن الدعاء فيه طمأنينة للنفوس، وهو من أهم عوامل انتصار المسلمين على أعدائهم، فالمسلم يُرجع الأمر كله إلى الله تعالى القوي العزيز الذي بيده ملكوت السماوات والأرض، وعندها يكون قد استجلب النصر من مالكه، قال سبحانه: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾﴾ [آل عمران].

«وهذا السلاح الروحي لا يملكه الجيش المسلم وحده، بل تملكه الأمة كلها؛ ولهذا ينبغي أن تشارك الأمة جيوشها بالدعاء لها بالنصر وتثبيت الأقدام، كما تدعو على أعدائهم، أن يردَّ الله كيدهم في نحورهم، ويعيد سهامهم المسمومة إلى صدورهم، وأن ينزل عليهم بأسه الذي لا يُردُّ عن القوم المجرمين، وهذا مطلوب من الأمة عامة، ومن أئمة مساجدها، وخطبائها جُمَعها خاصة». [فقه الجهاد للقرضاوي ١/ ٦٥٤].

[الأحكام الفقهية المستفادة من غزوتي الأحزاب وبني قريظة لبرير ١٤٢-١٤٤، وينظر للتفصيل: المسائل العقدية المستنبطة من غزوة الخندق لطيب ٢٦٥-٢٧٥].

٣٥ - حكم تمني لقاء العدو:

عَنْ عَبْدِ الله بْنِ أَبِي أَوْفَى رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ فِي بَعْضِ أَيَّامِهِ الَّتِي لَقِيَ فِيهَا [الْعَدُوَّ] انْتَظَرَ حَتَّى مَالَتِ الشَّمْسُ، ثُمَّ قَامَ فِي النَّاسِ خَطِيبًا، قَالَ: **«[يَا] أَيُّهَا النَّاسُ، لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ، وَسَلُوا [وَاسْأَلُوا] الله [تَعَالَى] الْعَافِيَةَ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ»**، ثُمَّ قَالَ: **«اللَّهُمَّ مُنْزِلَ**

الكِتَابِ، وَمُجْرِيَ السَّحَابِ، وَهَازِمَ الأَحْزَابِ اهْزِمْهُمْ وَانْصُرْنَا عَلَيْهِمْ».

[البخاري في الجهاد (٢٩٦٦) ومواضع أخرى، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٤٢)، وأبو داود في الجهاد (٢٦٣١)، ومسند أحمد ٣١/ ٤٦٠ رقم ١٩١١٤].

يقول د/ بربر: «اختلف العلماء في حكم تمني لقاء العدو إلى قولين:

القول الأول: قول ابن دقيق العيد، وابن حجر، والنووي: يكره تمني لقاء العدو. [ينظر: إحكام الأحكام لابن دقيق العيد٤/ ٢٢٤، وفتح الباري لابن حجر ١٣/ ٢٢٤، وشرح النووي على مسلم ١٢/ ٤٥].

القول الثاني: قول ابن مفلح من الحنابلة: يحرم تمني لقاء العدوة.

[ينظر: الفروع وتصحيح الفروع لابن مفلح ٦/ ١٩٥].

فمن ذهب إلى كراهة تمني لقاء العدو، قال: النهي في الحديث السابق يُحمل على الكراهة، والكراهة تكون إذا وقع الشك في المصلحة، أو حصول الضرر، أو أن المرء لا يعلم ما يؤول إليه الأمر، ولما فيه من احتمال المخالفة لما وعد الإنسان من نفسه، وإلا فالقتال فضيلة وطاعة.

[ينظر: إحكام الأحكام لابن دقيق العيد ٤/ ٢٢٤، وشرح النووي على مسلم ١٢/ ٤٦، وفتح الباري لابن حجر ٦/ ١٥٦، وعون المعبود لمحمد آبادي ٧/ ٢١١، ومرقاة المفاتيح لعلي القاري ٧/ ٤٣٩].

ومن ذهب إلى حرمة تمني لقاء العدو، قال: النهي في الحديث ظاهره التحريم [الفروع وتصحيح الفروع لابن مفلح ٦/ ١٩٥]، وإذا صرف النهي إلى غير التحريم صار مؤولًا. [الأصل في النهي: أنه حقيقة في التحريم مجازٌ فيما سواه من الكراهة وغيرها. ينظر: البرهان في أصول الفقه للجويني ١/ ٢٨٠].

وقالوا: إنما النهي عن تمني لقاء العدو؛ لما فيه من صورة الإعجاب والاتكال على النفوس، والوثوق بالقوة، وقلة الاهتمام بالعدو، وكل ذلك يباين الاحتياط والأخذ بالحزم.

[ينظر: الفتاوى الكبرى الفقهية لابن حجر الهيتمي ٤/ ١١، وعمدة القاري للعيني ١٤/ ٢٧٤، وعون المعبود لمحمد آبادي ٧/ ٢١١، وشرح النووي على مسلم ١٢/ ٤٥، وفتح الباري لابن حجر ٦/ ١٥٦].

قال ابن الجوزي: «اعلم أن تمني لقاء العدو يتضمن أمرين:

أحدهما: استدعاء البلاء.

والثاني: ادعاء الصبر.

وما يدري الإنسان كيف يكون صبره على البلاء، والمدَّعي متوكل على قوته، معرض بدعواه عن ملاحظة الأقدار وتصرفها، ومن كان كذلك وُكل إلى دعواه، كما تمنى الذين فاتتهم غزاة بدر فلم يثبتوا يوم أُحُد، وكما أعجبتهم كثرتهم يوم حنين فهزموا، وقد نبه هذا الحديث على أنه لا ينبغي لأحد أن يتمنى البلاء بحال». [كشف المشكل من حديث الصحيحين لابن الجوزي ٣/ ٤٢٩].

الترجيح: الراجح ـ والله أعلم ـ هو قول من قال بكراهة تمني لقاء العدو، بدليل قوله ﷺ في أخر الحديث: «**وَاعْلَمُوا أَنَّ الجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ**»، فهو ترغيب بالقتال [ينظر: عون المعبود لمحمد آبادي ٧/ ٢١١، ومرقاة المفاتيح لعلي القاري ٧/ ٤٣٩]، وقرينة صارفة للنهي من التحريم إلى الكراهة. [صيغة النهي تدل على التحريم وتحتمل غيره من الكراهة والتنزيه، والمختار أن النهي المجرد عن القرينة يقتضي التحريم، فإذا وجدت القرينة صرفته إلى غير التحريم. ينظر: الإبهاج للسبكي ٢/ ٦٧].

ودليل آخر: حديث أَنَسِ بن مَالِكٍ ﷺ قَالَ: غَابَ عَمِّي أَنَسُ بْنُ النَّضْرِ عَنْ قِتَالِ بَدْرٍ، فَقَالَ: **يَا رَسُولَ اللهِ! غِبْتُ عَنْ أَوَّلِ قِتَالٍ قَاتَلْتَ المُشْرِكِينَ، لَئِنْ اللهُ أَشْهَدَنِي قِتَالَ المُشْرِكِينَ لَيَرَيَنَّ اللهُ مَا أَصْنَعُ؟**

[البخاري في الجهاد والسير (٢٨٠٥)، وفي المغازي (٤٠٤٨)، والترمذي في التفسير (٣٢٠١)، ومسند أحمد ٢٠/ ٣٦٦ رقم ١٣٠٨٥، ٢١/ ٢٤٢ رقم ١٣٦٥٨].

فقد اعتذر إلى النبي ﷺ بحسرة على عدم قتاله يوم بدر، وأظهر الشوق لقتال المشركين في معركة قادمة، وأقره النبي ﷺ على ذلك ولم ينكر عليه».

[الأحكام الفقهية المستفادة من غزوتي الأحزاب وبني قريظة لبربر ١٤٥-١٤٧].

٣٦ ـ يسن للأمير أن يتولى قسم الغنيمة بنفسه:

يقول د/ الفنيسان: «وجه هذا أن حيي بن أخطب اليهودي طلب من أبي سفيان عشرين بعيرًا يوقرها تمرًا وشعيرًا وتبنًا، تقوية لقريش، ففعل، وبينما طائفة من الأنصار راجعة من الخندق إلى المدينة لحاجة لهم، فاستاقوها بأحمالها إلى رسول الله ﷺ، فقسمها الرسول ﷺ بينهم وتوسع بها أهل الخندق، ولما بلغ أبا سفيان الخبر قال: إن حييًّا لمشؤوم قطع بنا ما نجد ما نحمل عليه إذا رجعنا». [السيرة الحلبية ٢/ ٣٣٩].

[غزوة الأحزاب للفنيسان ٢٢٦].

٣٧ ـ حكم الخداع والكذب في الحرب:

ويظهر هذا فيما فعله نعيم بن مسعود ﷺ للتفريق بين الأحزاب.

وقد سبق تفصيلها في الدروس العسكرية المستفادة من المرحلة الأولى من غزوة بدر الكبرى.

[وينظر: الأحكام الفقهية المستفادة من غزوتي الأحزاب وبني قريظة لبربر ٢٥٨-٢٦٨، والمسائل العقدية المستنبطة من غزوة الخندق لطيب ٢٣٩-٢٤٤].

٣٨ ـ حكم نشر الشائعات في صفوف العدو:

يقول د/ بربر: « إن خلخلة صفوف العدو، وتفريق وحدتهم من الأمور المهمة في سياسة القتال للوصول إلى هزيمة العدو، وتشتيت شملهم، وما عقدوا العزم عليه؛ لأن الترابط إذا حصل في صفوف العدو كان ذلك خطرًا على المسلمين، وصعب معه الوصول إلى هزيمتهم.

فلابد للمسلمين من إعداد أناس متخصصين في الحرب النفسية؛ ليبثوا في العدو الأفكار والأخبار التي تزلزلهم وترعبهم من المسلمين، وتزرع الإحباط والخذلان في صفوفهم.

[فقه الجهاد للقرضاوي ١/ ٦٤٣].

وهو ما فعله نعيم بن مسعود ﷺ كما سبق في عرض الغزوة.

فتخذيل العدو وبث الفرقة بينهم، مما يؤدي إلى خذلانهم وانهزامهم، أمر مطلوب من قائد الجيش المسلم.

وهو الدور الذي قام به معبد الخزاعي، عندما رأت قريش أن ترجع للقتال بعد غزوة أُحُد، فجاءهم معبد الخزاعي، وكانت خزاعة حلفاء النبي ﷺ، وكان قد رأى حال أصحاب النبي ﷺ وما هم عليه، ولما رأى عزم قريش على الرجوع ليستأصلوا أهل المدينة، احتمله خوف ذلك، وخالص نصحه للنبي ﷺ وأصحابه، على أن خوَّف قريشًا بأن قال لهم: قد تركت محمدًا وأصحابه بحمراء الأسد في جيش عظيم، قد اجتمع له من كان تخلف عنه، وهم قد تحرقوا عليكم، فالنجاء النجاء، فإني أنهاك عن ذلك، قال: فثنى ذلك أبا سفيان ومن معه، وقذف الله في قلوبهم الرعب، ورجعوا إلى مكة خائفين مسرعين، ورجع النبي ﷺ في أصحابه إلى المدينة منصورًا، كما قال الله تعالى: ﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ ١٧٤﴾ [آل عمران]. [فتح الباري لابن حجر ٧/ ٣٧٤، وتفسير القرطبي ٤/ ٢٧٨].

[الأحكام الفقهية المستفادة من غزوتي الأحزاب وبني قريظة لبرير ٣٠١-٣٠٢].

٣٩ - يجوز للمرء أن ينطق بما لا يعتقد إذا كان في ذلك نفع للمسلمين أو ضرر بالكفار:

«وهذا واضح في قصة نعيم بن مسعود ﷺ مع الأحزاب حيث ذهب لكل قبيلة وقال لهم: لقد عرفتم ودي إياكم وفراقي محمدًا، وخاصة ما بيني وبينكم». [غزوة الأحزاب للفنيسان ٢٢٨-٢٢٩، وقد سبق تفصيله بعنوان: جواز الكذب على الأعداء، في الدروس الفقهية المستفادة من المرحلة الثالثة من غزوة أحد]

٤٠ - جواز الحلف من غير استحلاف:

«دليله حديث جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله ﷺ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ ﷺ جَاءَ يَوْمَ الخَنْدَقِ بَعْدَ مَا غَرَبَتِ الشَّمْسُ جَعَلَ يَسُبُّ كُفَّارَ قُرَيْشٍ، قَالَ: يَا رَسُولَ الله، مَا كِدْتُ أَنْ أُصَلِّيَ حَتَّى كَادَتِ الشَّمْسُ أَنْ تَغْرُبَ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَالله مَا صَلَّيْتُهَا...» الحديث. [غزوة الأحزاب للفنيسان ٢٣٥].

٤١ - لا يعدل عن الوضوء إلى التيمم مع وجود الماء:

يقول د/ المدخلي: «أي أن الوضوء قد أوجبه الله ﷻ فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِ﴾ [المائدة: ٦].

قال الحافظ: «وَالوُضُوءُ بِالضَّمِّ هُوَ الفِعْلُ، وَبِالفَتْحِ المَاءُ الَّذِي يُتَوَضَّأُ بِهِ عَلَى الـمَشْهُورِ فِيهِمَا».
[فتح الباري ١/ ٢٣٢].

والوضوء واجب إلا في حالات نادرة.

والرسول ﷺ لم يترك الوضوء حتى في أثناء الحروب؛ ذلك لأنه لما كان في هذه الغزوة وفاتته صلاة العصر كما مر في الأحاديث الصحيحة عمد ﷺ عندئذ إلى بطحان ليتوضأ، وترك التيمم مع أنه في وقت حرب وأوضاع حرجة؛ ولأنه هو المشرّع ﷺ؛ ولوجود الماء قريبًا منه لم يترك الوضوء لما فيه من الأجر العظيم.

قال الحافظ: «وَتَمَسَّكَ بِهَذِهِ الآيَةِ [آية المائدة] مَنْ قَالَ: إِنَّ الوُضُوءَ أَوَّلُ مَا فُرِضَ بِالمَدِينَةِ، فَأَمَّا مَا قَبْلَ ذَلِكَ فَنَقَلَ ابْنُ عَبْدِ البَرِّ اتِّفَاقَ أَهْلِ السِّيَرِ عَلَى أَنَّ غُسْلَ الجَنَابَةِ إِنَّمَا فُرِضَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ بِمَكَّةَ كَمَا فُرِضَتِ الصَّلَاة، وَأَنَّهُ لَمْ يُصَلِّ قَطُّ إِلَّا بِوُضُوءٍ.

قَالَ: وَهَذَا مِمَّا لَا يَجْهَلُهُ عَالِمٌ. وَقَالَ الحَاكِمُ فِي المُسْتَدْرَكِ: وَأَهْلُ السُّنَّةِ بِهِمْ حَاجَةٌ إِلَى دَلِيلِ الرَّدِّ عَلَى مَنْ زَعَمَ أَنَّ الوُضُوءَ لَمْ يَكُنْ قَبْلَ نُزُولِ آيَةِ المَائِدَةِ، ثُمَّ سَاقَ حَدِيثَ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: «دَخَلَتْ فَاطِمَةُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهِيَ تَبْكِي، قَالَتْ: هَؤُلَاءِ المَلَأُ مِنْ قُرَيْشٍ قَدْ تَعَاهَدُوا لِيَقْتُلُوكَ، فَقَالَ: «**ائْتُونِي بِوَضُوءٍ**»، فَتَوَضَّأَ... الحَدِيث».

قُلْتُ: وَهَذَا يَصْلُحُ رَدًّا عَلَى مَنْ أَنْكَرَ وُجُودَ الوُضُوءِ قَبْلَ الهِجْرَةِ، لَا عَلَى مَنْ أَنْكَرَ وُجُوبَهُ حِينَئِذٍ، وَقَدْ جَزَمَ ابْنُ الجَهْمِ المَالِكِيُّ بِأَنَّهُ كَانَ قَبْلَ الهِجْرَةِ مَنْدُوبًا، وَجَزَمَ ابْنُ حَزْمٍ بِأَنَّهُ لَمْ يُشْرَعْ إِلَّا بِالمَدِينَةِ، وَرُدَّ عَلَيْهِمَا بِمَا أَخْرَجَهُ ابْنُ لَهِيعَةَ فِي المَغَازِي الَّتِي يَرْوِيهَا عَنْ أَبِي الأَسْوَدِ يَتِيمِ عُرْوَةَ عَنْهُ أَنَّ جِبْرِيلَ عليه السلام عَلَّمَ النَّبِيَّ ﷺ الوُضُوءَ عِنْدَ نُزُولِهِ عَلَيْهِ بِالوَحْيِ، وَهُوَ مُرْسَلٌ، وَوَصَلَهُ أَحْمَدُ مِنْ طَرِيقِ ابْنِ لَهِيعَةَ أَيْضًا لَكِنْ قَالَ: عَنْ الزُّهْرِيِّ عَنْ عُرْوَةَ عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ عَنْ أَبِيهِ، وَأَخْرَجَهُ ابْنُ مَاجَهْ مِنْ رِوَايَةِ رِشْدِين بْنِ سَعْدٍ عَنْ عَقِيلٍ عَنْ الزُّهْرِيِّ نَحوه، لَكِنْ لَمْ يَذْكُرْ زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ فِي السَّنَدِ، وَأَخْرَجَهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي الأَوْسَطِ مِنْ طَرِيقِ اللَّيْثِ عَنْ عَقِيلٍ مَوْصُولًا، وَلَوْ ثَبَتَ لَكَانَ عَلَى شَرْطِ الصَّحِيحِ، لَكِنَّ المَعْرُوفَ رِوَايَةُ ابْنِ لَهِيعَةَ.
[فتح الباري ٢/ ٢٣٢]. [مرويات غزوة الخندق للمدخلي ٤٣٥-٤٣٦].

٤٢ ـ الاستعانة بالعيون والمراقبين[1]:

وفي إرسال حذيفة رضي الله عنه إلى معسكر الأحزاب «جواز استعمال العيون، وإرسالها للتعرف على حالة الأعداء، ومدى استعدادهم، وكيفية تحركاتهم؛ حتى يكون المسلمون على علم بأعدائهم فيعد المسلمون

---

(١) سبق تفصيله في الدروس الفقهية المستفادة من المرحلة الأولى من غزوة بدر الكبرى.

لكل أمر عدته، ولا ينبغي للمسلمين أن يغفلوا عن تحركات أعدائهم وما يكيدونه للإسلام وأهله».

[مرويات غزوة الخندق للمدخلي ٤٣٩].

ويقول د/ البوطي: «يجوز للإمام أن يستعين في الجهاد وغيره بالعيون والمراقبين، يبثهم بين الأعداء ليكتشف المسلمون خططهم وأحوالهم وليتبينوا ما هم عليه من قوة في العُدة والعَدد، ويجوز اتخاذ مختلف الوسائل لذلك، بشرط ألا تنطوي الوسيلة على الإضرار بمصلحة هي أهم من مصلحة الاطلاع على حال العدو، وربما استلزمت الوسيلة تكتمًا أو نوعًا من المخادعة أو التحايل، وكل ذلك مشروع وحسن من حيث إنه واسطة لابد منها لمصلحة المسلمين وحفظهم».

[فقه السيرة للبوطي ١٧٣، وينظر للتفصيل: المسائل العقدية المستنبطة من غزوة الخندق لطيب ٢٤٥-٢٦٤].

٤٣ ـ جواز لبس الرجل ما يقيه من سهام العدو:

يقول د/ الفنيسان: «دليل هذا قول عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: خَرَجْتُ يَوْمَ الْخَنْدَقِ أَقْفُو آثَارَ النَّاسِ، قَالَتْ: فَسَمِعْتُ وَئِيدَ الأَرْضِ وَرَائِي ـ يَعْنِي حِسَّ الأَرْضِ ـ قَالَتْ: فَالتَفَتُّ فَإِذَا أَنَا بِسَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ وَمَعَهُ ابْنُ أَخِيهِ الحَارِثُ بْنُ أَوْسٍ يَحْمِلُ مِجَنَّهُ (ترسًا)، قَالَتْ: فَجَلَسْتُ إِلَى الأَرْضِ، **فَمَرَّ سَعْدٌ وَعَلَيْهِ دِرْعٌ مِنْ حَدِيدٍ قَدْ خَرَجَتْ مِنْهَا أَطْرَافُهُ**، فَأَنَا أَتَخَوَّفُ عَلَى أَطْرَافِ سَعْدٍ، قَالَتْ: وَكَانَ سَعْدٌ مِنْ أَعْظَمِ النَّاسِ وَأَطْوَلِهِمْ، قَالَتْ: فَمَرَّ وَهُوَ يَرْتَجِزُ وَيَقُولُ:

لَبِّثْ قَلِيلًا يُدْرِكُ الهَيْجَا حَمَل ... مَا أَحْسَنَ المَوْتَ إِذَا حَانَ الأَجَل.

[غزوة الأحزاب للفنيسان ٢٣١].

٤٤ ـ جواز التطبب وعلاج المرضى في المسجد:

يقول د/ الفنيسان: «وذلك أن سعد بن معاذ رضي الله عنه، لما أُصيب في أكحله يوم الخندق، قال الرسول ﷺ: «**اجْعَلُوهُ فِي خَيْمَةِ رُفَيْدَةَ حَتَّى أَعُودَهُ مِنْ قَرِيبٍ**»، وكانت خيمتها رضي الله عنها مضروبة في مسجد الرسول ﷺ تداوي بها الجرحى ممن لم يكن له من يقوم عليه، وإنما وضع سعد رضي الله عنه فيها مع أن قومه يقومون بمداواته، لما علله به الرسول ﷺ بقوله: «**حَتَّى أَعُودَهُ مِنْ قَرِيبٍ**».

فالمسجد في الإسلام علاوة على كونه مكانًا للعبادة، هو مدرسة للتعليم، ودار للرعاية، ومستشفى للعلاج». [غزوة الأحزاب للفنيسان ٢٣١، الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢/ ١٢٦،، وينظر: الأحكام الفقهية المستفادة من غزوة الأحزاب وبني قريظة للعبد اللطيف ٢٥٤-٢٥٥، والأحكام الفقهية المستفادة من غزوة الأحزاب وبني قريظة لبربر ٣٠٣-٣٠٤].

٤٥ ـ جواز النوم في المسجد:

«فلقد كانت خيمة رفيدة الأسلمية في المسجد، وكان ينام فيها سعد بن معاذ رضي الله عنه، وغير سعد رضي الله عنه ممن تعالجه رفيدة رضي الله عنها». [الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢/ ١٢٦].

٤٦ ـ جواز تمريض النساء للرجال:

يقول د/ أبو فارس: «لقد كانت رفيدة الأسلمية ﵂ تعتني بسعد بن معاذ ﵁ في خيمتها، وتقوم على شؤونه على مرأى ومشهد من رسول الله ﷺ، بل إن رسول الله ﷺ هو الذي أمر بأن يكون سعد بن معاذ ﵁ في خيمة رفيدة الأسلمية ﵂.

أقول: إن هذه الكلام لا يؤخذ على إطلاقه، فإذا كانت المرأة طاعنة في السن فلا بأس بذلك، أما إذا كانت شابة، أو المريض شابًّا فلا تعالج الشابة الشاب إلا عند الضرورة، وعدم وجود رجل يعالج رجلًا، وضمن شروط وقيود، بحيث يؤمن جانب كل واحد منهما، ولا تكون خلوة بينهما، ولا ينكشف أحدهما أمام الآخر.

وباختصار: تُراعى الأحكام الشرعية الأخرى من حيث اللباس والزينة والستر والكلام وعدم الخلوة وغيرها، مما لها صلة بهذا الشأن». [الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢/ ١٢٦-١٢٧، وينظر: الأحكام الفقهية المستفادة من غزوة الأحزاب وبني قريظة للعبد اللطيف ١٦٤-١٦٥].

٤٧ ـ جواز العلاج بالكي:

يقول د/ أبو فارس: «وهذا أخذناه من فعل الرسول ﷺ إذ حسم رسول الله ﷺ جرح سعد بن معاذ ﵁ بالنار ثلاث مرات.

وأقول أيضًا: يمكننا أن نعتبر الكي بالكهرباء يقوم بنفس الدور الذي تقوم به النار».

[الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢/ ١٢٧].

ويقول د/ بربر: «الكي: هو إحراق الجلد بحديدة ونحوها، وهو علاج معروف لكثير من الأمراض، وفي المثل: أخر الطب الكي، أو أخر الدواء الكي. [ينظر: لسان العرب لابن منظور ١٥/ ٢٣٥].

لا خلاف بين العلماء على كراهية الكي قبل المرض؛ لأنه ينافي التوكل.

[ينظر: الذخيرة للقرافي ١٣/ ٣٠٨، والمجموع للنووي ٦/ ١٦٣، وحاشية البجيرمي ٣/ ٣١٨، ومغني المحتاج للشربيني ٤/ ٢٠١، والفروع لابن مفلح ٢/ ١٣٦، وشرح العمدة لابن تيمية ١/ ٢٨٩، وفتح الباري لابن حجر ١٠/ ١٥٥، وشرح الزركشي ١/ ١٠٩، وشرح معاني الآثار للطحاوي ٤/ ٣٢٥].

لحديث الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ ﵁، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لَمْ يَتَوَكَّلْ مَنِ اسْتَرْقَى أَوِ اكْتَوَى».

[المستدرك في الرقى والتمائم (٨٢٧٩)، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، ومسند أحمد ٣٠/ ١٤٠ رقم ١٨٢٠٠، وقال الأرناؤوط: إسناده حسن].

واختلفوا في الكي بعد المرض إلى قولين:

القول الأول: ذهب جماهير العلماء من: الحنفية، والمالكية، والشافعية، والحنابلة: إلى جواز الكي بلا كراهة إذا دعت الحاجة إليه، ككي الجرح إذا فسد، والعضو إذا قُطع، فإن كان الكي لأمر محتمل فهو

خلاف الأولى. [ينظر: الفتاوى الهندية للنظام ٥/ ٣٥٦، والتمهيد لابن عبد البر ٢٤/ ٦٥، والذخيرة للقرافي ١٣/ ٣٠٧، والمجموع للنووي ٩/ ٥٨، ومغني المحتاج للشربيني ٤/ ٢٠١، والفروع لابن مفلح ٢/ ١٣٦، وشرح العمدة لابن تيمية ١/ ٢٨٩، وشرح النووي على مسلم ٣/ ٩١، وفتح الباري لابن حجر ١٠/ ١٥٥].

قال ابن عبد البر: «وعليه جمهور العلماء، ما أعلم بينهم خلافًا أنهم لا يرون بأسًا بالكي عند الحاجة إليه... وقد قيل: إن الذي نهي عنه من الكي هو ما يكون منه قبل نزول البلاء حفظًا للصحة، وأما بعد نزول ما يحتاج فيه إلى الكي فلا». [التمهيد لابن عبد البر ٢٤/ ٦٥-٦٦].

القول الثاني: قول عند الحنابلة: يكره الكي مطلقًا، والكراهة هنا للتنزيه وليست للتحريم.

[ينظر: شرح العمدة لابن تيمية ١/ ٢٨٩، والفروع لابن مفلح ٢/ ١٣٦، ونيل الأوطار للشوكاني ٩/ ٩٦].

أدلة القول الأول: استدل من ذهب إلى جواز الكي بلا كراهة إذا دعت الحاجة إليه بالأدلة التالية:

١- عَنْ جَابِرٍ ﷺ قَالَ: «بَعَثَ رَسُولُ الله ﷺ إِلَى أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ ﷺ طَبِيبًا، فَقَطَعَ مِنْهُ عِرْقًا، ثُمَّ كَوَاهُ عَلَيْهِ». [مسلم في السلام (٢٢٠٧)].

٢- وعَنْ جَابِرٍ ﷺ قَالَ: رُمِيَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ ﷺ فِي أَكْحَلِهِ، قَالَ: فَحَسَمَهُ (أي كواه ليقطع دمه، وأصل الحسم القطع) النَّبِيُّ ﷺ بِيَدِهِ بِمِشْقَصٍ (أي حديد طويل غير عريض كنصل السهم)، ثُمَّ وَرِمَتْ، فَحَسَمَهُ الثَّانِيَةَ. [مسلم في السلام (٢٢٠٨)، ومسند أحمد ٢٢/ ٢٤٦ رقم ١٤٣٤٣، ٢٣/ ٣٤٣ رقم ١٥١٤٤].

٣- عَنْ أَنَسٍ ﷺ، «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَوَى أَسْعَدَ بْنَ زُرَارَةَ مِنَ الشَّوْكَةِ (داء كالطاعون، وقيل: الذبحة)».

[الترمذي في الطب (٢٠٥٠)، وقال الشيخ الألباني :صحيح، والمستدرك في معرفة الصحابة ﷺ ٣/ ٢٠٧ رقم ٤٨٥٩، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وصحيح ابن حبان ١٣/ ٤٤٣ رقم (٦٠٨٠)، وقال الشيخ الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط البخاري].

وجه الدلالة في الأحاديث السابقة: فعله ﷺ يدل على جواز الكي بلا كراهة؛ لأنه ﷺ يفعل الأفضل طوال حياته.

٤- عَنْ عَبْدِ الله بنِ مَسْعُودٍ ﷺ، أَنَّ ثَلَاثَةَ نَفَرٍ أَتَوُا النَّبِيَّ ﷺ فَقَالُوا: إِنَّ صَاحِبًا لَنَا مَرِيضٌ فَوُصِفَ لَنَا الْكَيُّ أَفَنَكْوِيهِ؟ فَسَكَتَ ثُمَّ عَادَ، ثُمَّ قَالَ فِي الثَّالِثَةِ: «**اكْوُوهُ إِنْ شِئْتُمْ، وَإِنْ شِئْتُمْ فَارْضِفُوهُ** (هو الشَّيُّ)».

[المستدرك في الرقى والتمائم ٤/ ٤٦٢ رقم ٨٢٨٣، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد على شرط الشيخين، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي].

وجه الدلالة في الحديث: «**اكْوُوهُ إِنْ شِئْتُمْ**»، فأباح لهم الكي.

وحملوا أحاديث النهي عن الكي على ابتداء الكي قبل حدوث العلة، كما يفعله الأعاجم، أو على ما فيه خطر، أو لم يغلب على الظن نفعه. [نيل الأوطار للشوكاني ٩/ ٩٦، وشرح الزركشي ١/ ١٠٩].

أدلة القول الثاني: استدل من قال: يكره الكي مطلقًا بالأدلة التالية:

١- عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**الشِّفَاءُ فِي ثَلَاثَةٍ: فِي شَرْطَةِ مِحْجَمٍ، أَوْ شَرْبَةِ عَسَلٍ، أَوْ كَيَّةٍ بِنَارٍ، وَأَنَا أَنْهَى أُمَّتِي عَنِ الكَيِّ**». [البخاري في الطب (٥٦٨١)].

وجه الدلالة في الحديث: «**وَأَنَا أَنْهَى أُمَّتِي عَنِ الكَيِّ**»، فهو نهي كراهة، وأمر بالأخذ بالأفضل، وهو التوكل على الله. [الذخيرة للقرافي ١٣/ ٣٠٧].

وقد نوقش: «أن رسول الله ﷺ ما زال يرقي نفسه إلى آخر مرض موته، وكوى وأمر بالكي، ولا يترك رسول الله ﷺ الأفضل طول عمره... وهذا الحديث محمول على أن هذه العلاجات من الكي وغيرها، تارة تستعمل مع تعين أسبابها المقتضية لاستعمالها، وتارة مع الشك فيها مع القطع بعدم الحاجة إليها، كما يفعل الترك للكي لتهييج الطبيعة، فهذه الحالة الأخيرة هي المرادة بالحديث؛ لأنه إيلام وعيب حينئذ، فحسن المدح بتركه، أما الحالة الأولى فلا». [الذخيرة للقرافي ١٣/ ٣٠٨].

٢- عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنهما قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «**إِنْ كَانَ فِي شَيْءٍ مِنْ أَدْوِيَتِكُمْ - أَوْ يَكُونُ فِي شَيْءٍ مِنْ أَدْوِيَتِكُمْ - خَيْرٌ فَفِي: شَرْطَةِ مِحْجَمٍ، أَوْ شَرْبَةِ عَسَلٍ، أَوْ لَذْعَةٍ بِنَارٍ تُوَافِقُ الدَّاءَ، وَمَا أُحِبُّ أَنْ أَكْتَوِيَ**». [البخاري في الطب (٥٦٨٣)، ومسلم في السلام (٢٢٠٥)].

وجه الدلالة في الحديث: عدم محبته ﷺ للكي يدل على أن الأولى عدم فعله. [نيل الأوطار ٩/ ٩٦].

وقد نوقش: أن قوله ﷺ: «**وَمَا أُحِبُّ أَنْ أَكْتَوِيَ**»، هو من جنس تركه أكل الضب، مع تقريره أكله على مائدته، واعتذاره بأنه يعافه. [فتح الباري لابن حجر ١٠/ ١٣٩].

٣- عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ، فَجَعَلَ النَّبِيُّ وَالنَّبِيَّانِ يَمُرُّونَ مَعَهُمُ الرَّهْطُ، وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ، حَتَّى رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ، قُلْتُ: مَا هَذَا؟ أُمَّتِي هَذِهِ؟ قِيلَ: بَلْ هَذَا مُوسَى وَقَوْمُهُ، قِيلَ: انْظُرْ إِلَى الأُفُقِ، فَإِذَا سَوَادٌ يَمْلَأُ الأُفُقَ، ثُمَّ قِيلَ لِي: انْظُرْ هَا هُنَا وَهَا هُنَا فِي آفَاقِ السَّمَاءِ، فَإِذَا سَوَادٌ قَدْ مَلَأَ الأُفُقَ، قِيلَ: هَذِهِ أُمَّتُكَ، وَيَدْخُلُ الجَنَّةَ مِنْ هَؤُلَاءِ سَبْعُونَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ**»، ثُمَّ دَخَلَ وَلَمْ يُبَيِّنْ لَهُمْ، فَأَفَاضَ القَوْمُ، وَقَالُوا: نَحْنُ الَّذِينَ آمَنَّا بِاللهِ وَاتَّبَعْنَا رَسُولَهُ، فَنَحْنُ هُمْ، أَوْ أَوْلَادُنَا الَّذِينَ وُلِدُوا فِي الإِسْلَامِ، فَإِنَّا وُلِدْنَا فِي الجَاهِلِيَّةِ، فَبَلَغَ النَّبِيَّ ﷺ فَخَرَجَ، فَقَالَ: «**هُمُ الَّذِينَ لَا يَسْتَرْقُونَ، وَلَا يَتَطَيَّرُونَ، وَلَا يَكْتَوُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**» فَقَالَ عُكَّاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ رضي الله عنه: أَمِنْهُمْ أَنَا يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**نَعَمْ**»، فَقَامَ آخَرُ فَقَالَ: أَمِنْهُمْ أَنَا؟ قَالَ: «**سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ**». [البخاري في الطب (٥٧٠٥)، ومسلم في الإيمان (٢١٨)].

وجه الدلالة في الحديث: الذي يكتوي تفوته فضيلة دخول الجنة مع السبعين ألف بلا حساب أو عذاب؛ لأنه لم يتوكل حق التوكل؛ لأن مَنْ لم يسترق ولم يكتو أشد توكلًا وإخلاصًا منه.

[الاستذكار لابن عبد البر ٨/ ٤١٧].

وقد نوقش: أن معنى لا يكتوون: أي لا يعتقدون أن الشفاء من الكي، كما كان عليه اعتقاد أهل الجاهلية، فالنهي لأجل أنهم يرون أن الشفاء منه، وأما من اعتقد أنه سبب وأن الشافي هو الله فلا بأس به، ولا يناقض التوكل، بل هو كسائر الأدوية. [ينظر: عمدة القاري للعيني ٢١/ ٢٤٥، ومرقاة المفاتيح للقاري ٤/ ٧٢].

٤- عَنْ عِمْرَانِ بْنِ حُصَيْنٍ ﷺ قَالَ: ... وَقَدْ كَانَ يُسَلَّمُ عَلَيَّ، حَتَّى اكْتَوَيْتُ، فَتُرِكْتُ، ثُمَّ تَرَكْتُ الْكَيَّ فَعَادَ.

وجه الدلالة في الأثر: قال النووي: «ومعنى الحديث أن عمران بن الحصين ﷺ كانت به بواسير، فكان يصبر على ألمها، وكانت الملائكة تسلم عليه لفضله وصلاحه، فاكتوى فانقطع سلامهم عليه، ثم ترك الكي فعاد سلامهم عليه». [المجموع للنووي ٦/ ١٦٣، وشرح النووي على مسلم ٨/ ٢٠٦].

وقد نوقش: يحتمل أن الكي الذي كان عمران ﷺ ينهي عنه: هو الكي الذي يفعل قبل حلول البلاء. [شرح معاني الآثار للطحاوي ٤/ ٣٢٤].

٥- أن في ذلك تعذيبًا بالنار، ولا يجوز أن يعذب بالنار إلا رب النار؛ ولأن الكي يبقى منه أثر فاحش، ولما فيه من الألم الشديد والخطر العظيم. [نيل الأوطار للشوكاني ٩/ ٩٥، والدراري المضية للشوكاني ١/ ٣٩٤، وفتح الباري لابن حجر ١٠/ ١٣٨].

وقد نوقش: أن الكي المنهي عنه يُحمل على ما فيه خطر، أو لم يغلب على الظن نفعه، ولو كان تعذيبًا بالنار ما فعله رسول الله ﷺ، ولا أصحابه ﷺ. [شرح الزركشي ١/ ١٠٩].

الترجيح: والراجح ـ والله أعلم ـ هو قول الجمهور، بجواز الكي بلا كراهة إذا دعت الحاجة إليه جمعًا بين الأدلة، فتحمل أحاديث النهي على من اكتوى قبل وقوع المرض، وتُحمل أحاديث الإباحة على من اكتوى لحاجة.

قال الحافظ ابن حجر: «ويؤخذ من الجمع بين كراهته ﷺ للكي وبين استعماله له أنه لا يُترك مطلقًا، ولا يُستعمل مطلقًا، بل يستعمل عند تعينه طريقًا إلى الشفاء، مع مصاحبة اعتقاد أن الشفاء بإذن الله تعالى». [فتح الباري لابن حجر ١٠/ ١٣٨].

وقال الشوكاني: «أحاديث الكي التي في هذا الباب قد تضمنت أربعة أشياء:

أحدها: فعله، ثانيها: عدم محبته، ثالثها: الثناء على من تركه، رابعها: النهي عنه.

ولا تعارض فيها بحمد الله، فإن فعله يدل على جوازه، وعدم محبته لا يدل على المنع منه، والثناء على تاركيه يدل على أن تركه أفضل، والنهي عنه إما على سبيل الاختيار من دون علة، أو عن النوع الذي يحتاج معه إلى كي». [نيل الأوطار للشوكاني ٩/ ٩٦].

[الأحكام الفقهية المستفادة من غزوتي الأحزاب وبني قريظة لبربر ٢١٥-٢٢٠].

٤٨ - جواز أن يتمنى المسلم أن يُقتل شهيداً:

يقول د/ أبو فارس: «ويؤخذ هذا من دعاء سعد بن معاذ ﷺ أن يفجر جرحه وأن يجعل موته فيها إن وضع الحرب بين المسلمين وبين قريش، واستجابة دعائه، وعدم إنكار الرسول ﷺ ذلك عليه، بل أقره ﷺ على ذلك.

وهذا الفقه لا يتعارض مع نهي النبي ﷺ عن تمني الموت في الحديث الذي يرويه أَبُو هُرَيْرَةَ ﷺ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ قَالَ: «**لاَ يَتَمَنَّى أَحَدُكُمُ الْمَوْتَ، وَلاَ يَدْعُ بِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُ، إِنَّهُ إِذَا مَاتَ أَحَدُكُمُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ، وَإِنَّهُ لاَ يَزِيدُ الْمُؤْمِنَ عُمْرُهُ إِلَّا خَيْرًا**».

[مسلم في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار (٢٦٨٢)، ومسند أحمد ١٣/ ٥١٥ رقم ٨١٨٩].

أقول: إن النبي ﷺ نهى عن تمني الموت هنا؛ لأن الباعث على ذلك اليأس، والضر يصيب الإنسان، فلا يصبر عليه.

وهذا المعنى ذكره رسول الله ﷺ حيث قال: «**لَا يَتَمَنَّيَنَّ [يَدْعُوَنَّ] أَحَدٌ مِنْكُمْ الْمَوْتَ لِضُرٍّ نَزَلَ بِهِ، فَإِنْ كَانَ لَا بُدَّ مُتَمَنِّيًا لِلمَوْتِ، فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مَا كَانَتْ الحَيَاةُ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتْ الوَفَاةُ خَيْرًا لِي**».

[البخاري في الدعوات (٦٣٥١)، ومسلم في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار (٢٦٨٠)، وأبو داود في الجنائز (٣١٠٨)، والترمذي في الجنائز (٩٧٠)، والنسائي في الجنائز (١٨٢٠)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٦٥)، ومسند أحمد ١٩/ ٤١، ٧٣ عن أنس بن مالك ﷺ رقم ١١٩٧٩، ١٢٠١٥]. [الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢/ ١٣٠، وغزوة الأحزاب لأبي فارس ١٦٦، وينظر للتفصيل: الأحكام الفقهية المستفادة من غزوتي الأحزاب وبني قريظة لبربر ١٤٨-١٥٢].

٤٩ - من الجهاد في سبيل الله جهاد الكفار باللسان:

يقول د/ الفنيسان: «دليل هذا عند البخاري من حديث البَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ يَوْمَ قُرَيْظَةَ لِحَسَّانَ بْنِ ثَابِتٍ ﷺ: «**اهْجُ الْمُشْرِكِينَ، فَإِنَّ جِبْرِيلَ مَعَكَ**». [البخاري في المغازي (٤١٢٤)].

وعن جَابِرٍ ﷺ قَالَ: لَـمَّا كَانَ يَوْمُ الأَحْزَابِ وَرَدَّ اللهُ الـمُشْرِكِينَ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا، قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**مَنْ يَحْمِي أَعْرَاضَ الْمُسْلِمِينَ؟**» قَالَ كَعْبُ بْنِ مَالِكٍ ﷺ: أَنَا يَا رَسُولَ الله، وَقَالَ ابنُ رَوَاحَةَ: أَنَا يَا رَسُولَ الله، قال ﷺ: «**إِنَّكَ تُحْسِنُ الشِّعْرَ**»، فَقَالَ حَسَّانُ بنُ ثَابِتٍ ﷺ: أَنَا يَا رَسُولَ الله، قال ﷺ: «**نَعَمْ، اهْجُهُمْ أَنْتَ، وَسَيُعِينُكَ عَلَيْهِمْ رُوحُ الْقُدُسِ**». [كنز العمال للمتقي الهندي ٣/ ٨٦٥ رقم ٨٩٦٩، ١٠/ ٤٤٤ رقم ٣٠٠٨٢، وقال السيوطي: (رواه ابن منده، وابن عساكر، ورجاله ثقات)]. [غزوة الأحزاب للفنيسان ٢٢٧].

المبحث الرابع
الدروس السياسية

١ ـ اختيار الرجل الكفء في المهام السياسية [(١)]:

يقول د/ أبو فارس: «وبعبارة شائعة بين الناس نقول: **اختيار الرجل المناسب للمهمة المناسبة، ووضع الرجل المناسب في المكان المناسب**، هذا ما كان يفعله رسول الله ﷺ في كل موقف، وفي كل غزوة، وهذا ما فعله رسول الله ﷺ عندما سمع أن بني قريظة قد نقضت العهد فماذا فعل؟

لقد اختار الزبير بن العوام ﷺ طليعة استكشافية، يستطلع له الخبر، فيراقب حركة بني قريظة، ويرصدها، ويأتيه بها، فينبغي أن يكون متخفيًا بعيدًا عن الأنظار.

وحينما اختار رسول الله ﷺ الوفد الذي سيقابل يهود بني قريظة اختارهم من الأنصار أي من أهل المدينة ليس من بينهم واحد من المهاجرين، إن هذا لم يكن فلتة عارضة، وإنما كان نتيجة تفكير وتقديرًا للأمور، إذ طبيعة كل مهمة من المهمتين تختلف عن الأخرى.

أما الاستكشاف العسكري، فلا بد أن توكل مهمته إلى عسكري متمرس ذكي، خفيف الحركة، دقيق الملاحظة، قادر على جمع المعلومات وتحليلها، وغير معروف ما أمكن لدى العدو حتى لا يكشف أمره، ويعطله عن غرضه الذي جاء من أجله، ولقد قام الزبير بن العوام ﷺ بمهمته خير قيام دون أن يشعر به أحد، إذ كان دقيق الملاحظة والاستنتاج.

فأخبر أن بني قريظة يصلحون حصونهم، ويدربون طرقهم، وقد جمعوا ماشيتهم.

وحينما أراد أن يستوثق من صحة الخبر الذي سمعه عمر بن الخطاب ﷺ أرسل نفرًا من أهل المدينة وعلى رأسهم سيد الأوس سعد بن معاذ، وسيد الخزرج سعد بن عبادة، وسعد بن معاذ كان حليفهم في الجاهلية، وكان بينهم وبينه مودة، ومعاملة وتعاون، وسعد بن عبادة كما تعلم أيضًا معروف عندهم، ومكانته معلومة.

نعم اختيار رسول الله ﷺ الرهط كله من الأنصار ولم يكن من بينهم واحد من المهاجرين؛ لأن هؤلاء الرهط الذين اختارهم رسول الله ﷺ أدرى الناس باليهود، وأقدر الناس على اختيار أسلوب الحديث معهم في هذا الموقف الحرج؛ لأنهم تعاملوا مع اليهود سنين طويلة قبل الإسلام وبعده، ولهم مكانتهم، كما أن مهمتهم محدودة، وواضحة تتلخص في التأكد من صحة الأخبار بشأن نقض بني قريظة للعهد؛

---

(١) سبق تفصيله في الدروس المستفادة من سرية حمزة ﷺ إلى العيص ٢ هـ، تحت عنوان: «**اختيار الرجل المناسب للعمل المناسب**».

ولمكانتهم هذه دخلوا حصون بني قريظة واستقبلهم بنو قريظة فيها، ولربما لاحظوا تغيرًا لأحوالهم من خلال الاطلاع أثناء الدخول والجلوس معهم.

وفي تصوري لو كان الوفد من المهاجرين أو بعضه منهم لما اطمأنوا إليهم، ولما استقبلوهم، ولا أدخلوهم حصونهم، بل ولما أجابوهم بشيء، وأخفوا كل شيء عنهم ولم يكترثوا بهم، ولربما غدروا بهم وآذوهم». [الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢/ ٢٩-٣١].

ويقول الشيخ عرجون: «وفي بعث السعدين ومن معهما لون من الحكمة السياسية، يمثل معلمًا من معالم منهج الرسالة الخالدة التي قصد إليها رسول الله ﷺ في أخذه بني قريظة بغدرهم ونقضهم لعهده ﷺ.

ذلك أنه ﷺ حين بعث حواريه الزبير بن العوام ؓ إلى بني قريظة ليتعرف حالهم ـ فذهب إليهم الزبير ؓ ورجع إلى رسول الله ﷺ يخبره أنهم على أخبث حال يضمرون الغدر وينقضون العهد ـ لم يشك لحظة في صدق خبر الزبير عنهم، ولكنه ﷺ كان على أكمل العلم بما بين الأنصار وطوائف اليهود من روابط جاهلية لم تنفصم عراها، وكانت هذه الروابط تبرز عند مناسباتها في أوقات الأزمات والمحن، وكان بين الأنصار من الأوس والخزرج تنافس، وكان فيهم حمية لهذه الروابط، يكرهون أن تمس من غيرهم، وكثيرًا ما كان يقع التقاول والتصاول بين الحيين من جراء هذه الروابط الجاهلية.

فرأى رسول الله ﷺ أن يحتاط ويجعل أمر بني قريظة في أخذهم بغدرهم قائمًا على أخبار حلفائهم ومواليهم من الأنصار الذين أصبحوا سادة المجتمع المدني، حتى إذا أُخذوا بغدرهم كان أخذهم بأيدي من يرتبطون بهم ويدافعون عنهم.

ولذلك اختار القرظيون تحكيم سعد بن معاذ ؓ في نهاية أمرهم، بعد أن حاصرهم النبي ﷺ حصارًا شديدًا، ولكن سعد بن معاذ ؓ كان رجلًا قوي الإيمان راسخ اليقين، غسل الإيمان قلبه من تلك الروابط الجاهلية، فلم تأخذه فيهم لومة لائم، وحكم فيهم بحكم الله تعالى الذي ارتضاه رسول الله ﷺ والمؤمنون، وقد كان الأوس قوم سعد بن معاذ ؓ يرجون منه أن يحسن إليهم وينقذهم من أسوأ مصير ينتظرهم، فقالوا له: **يَا أَبَا عَمْرٍو، أَحْسِنْ فِي مَوَالِيكَ، فَإِنَّ رَسُولَ الله ﷺ إِنَّمَا وَلَّاكَ ذَلِكَ لِتُحْسِنَ فِيهِمْ، فَلَمَّا أَكْثَرُوا عَلَيْهِ قَالَ ؓ: لَقَدْ آنَ لِسَعْدٍ أَنْ لَا تَأْخُذَهُ فِي الله لَوْمَةُ لَائِمٍ.**

هذه سياسة حكيمة رسمت للمجتمع المسلم جانبًا من جوانب منهج الرسالة الخالدة ليكون دعامة الدعائم الاجتماعية في سياسة المجتمع المسلم في مستقبل حياته». [محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ١٥٦-١٥٧].

٢ ـ اليهود على هدف واحد مهما اختلفت وجهاتهم:

يقول د/ الغضبان: «إننا كثيرًا ما نسمع لدى دعاة القومية عن التفريق بين الصهيونية واليهودية، وأنهم يحاربون الصهيونية، أما اليهودية فلا، بل يعتبرون كثيرًا من اليهود أنصارًا لهم، وهم يحصرون معركتهم مع الصهيونية في فلسطين الأرض المغتصبة، فإذا حُلت مشكلة الأرض، بتحرير أو اعتراف، فلا خلاف بين القوميين واليهود، ودعاة القومية علمانيون ليسوا ضد دين أو تجمع ديني، بل هم ضد دعاة اغتصاب الأرض العربية وتسليمها لليهود، بل يحالفون هذه النماذج كذلك.

لهؤلاء جميعًا نسوق هذا النموذج الحي من انتهاء اليهود إلى معسكر واحد، في النهاية، وقد يكون بعضهم أشد حقدًا من بعض، لكنهم أعداء في النهاية محاربون، وناكثون للعهد ناقضون كذلك، وإن كان المسلمون وهم يتعاهدون أو يتحالفون لا يُعاملون أعداءهم على ضوء تاريخهم فقط، لكنها البلاهة التامة أن يغيب هذا التاريخ الأسود عن الذهن، فلا يُوضع في الحسبان، وبلغت البلاهة ببعض دعاة القومية حدًا أنهم لا يعرفون شيئًا عن تاريخ اليهود مع المسلمين، وحين يدرسونهم في التاريخ، يتحدثون عن تاريخهم في أوربا وروسيا، وأنحاء العالم، أما في أرض العرب، وفي حربهم مع المسلمين فلا، وينسون أو يتناسون أو يتباهلون أن الشوكة اليهودية لم تنتزع من الأرض العربية إلا بالإسلام، وعلى يد رسول الله ﷺ، وانتهى الوجود العسكري أربعة عشر قرنًا من الزمان، ولم يعودوا للظهور إلا عندما غاب الإسلام عن الوجود والحكم، وعادوا يثأرون لقريظة وخيبر.

لقد التقت كلمة اليهود جميعًا النضير وقريظة وقينقاع الذين تبقوا في خيبر على استئصال الوجود الإسلامي، جيَّشوا الجيوش، وحزَّبوا الأحزاب، ووحَّدوا صفهم لحرب المسلمين.

والطبيعة اليهودية هنا تظهر في حالة ضعف أعدائها: ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾﴾ [التوبة]، فهم وافون بالعهود طالما أنهم ضعاف أذلة، وهم ناكثون للعهد حين يجدون الفرصة مواتية للانقضاض، لقد كانوا يقولون: **مَنْ محمد؟ لا عهد بيننا وبين محمد.**

وذلك عندما ذكَّرهم السعدان بحلفهم مع رسول الله ﷺ.

ولم يمر على المسلمين ظرف أسوأ من ظروف الأحزاب يوم الأحزاب، وما كان العهد إلا لذلك اليوم، ومع ذلك نقضوا عهدهم في اللحظة الحاسمة، ورغم وجود بوادر الخير لدى زعيمهم كعب فهو في النهاية يهودي غادر لا يرضيه شيء أكثر من إنهاء الوجود الإسلامي، وتم له من يوافقه على ذلك، إنه الهدف النهائي لليهود والنصارى مهما أظهروا على الطريق من سلام وود: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ

حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [البقرة].

فهم يرفضون المعايشة مع الإسلام فكرًا وواقعًا طالما أنهم قادرون على ذلك».

[المنهج الحركي للسيرة النبوية للغضبان ٢/ ٢٩٩-٣٠١].

٣ ـ الثقة في القيادة:

يقول أ/ حوى: «في كثير من الأحيان تضطر القيادات السياسية والعسكرية لمواقف لابد منها، وفي مثل هذه المواقف لا يفرق بين الخائن والأمين إلا الثقة، فمن وثق قال عن قائده: أمين، ومن لم يثق قال عنه: خائن؛ ولذلك لا يصح بالنسبة للقيادات الإسلامية أن تخدش الثقة، والقيادات الإسلامية في هذه الحالة بين أمرين: إما أن تستقيل، أو تتنزه عن مواطن الشبهات، وما عدا ذلك فإنه خيار صعب وقد يكون فاسدًا، وعلى كل الأحوال فهذا يجعلنا نؤكد على أنه يجب أن تبذل كافة الجهود لتبني الثقة في القيادات على أرقاها، فذلك هو الطريق الوحيد للوصول إلى القرار الحكيم، نقول هذا بمناسبة أن رسول الله ﷺ عرض على غطفان ثلث ثمار المدينة في مقابل أن يتميزوا عن قريش، صحيحٌ أن ذلك لم يُبرم، ولكن هل أثر عرض رسول الله ﷺ على الثقة فيه؟ ترى من يستطيع الآن من القيادات الإسلامية أن يعرض عروضًا ما على الكافرين بسبب ظروف صعبة ثم لا يكون محل تهمة لدى إخوانه؟ هذا الوضع يجب أن تتحرر الحركة الإسلامية منه، يجب أن يكون تقديرها للموقف سليمًا وعلى ضوء ذلك تتخذ قرارها المناسب، كائنًا ما كان ما دام شرعيًا وفيه مصلحة، وعليها أن تربي الصف على الثقة، وعلى القيادات أن تكون جديرة بهذه الثقة». [الأساس في السنة ـ السيرة لحوى ٢/ ٧١٤].

٤ ـ التفاوض مع الأعداء لمصلحة الإسلام:

يقول د/ المجدوب: «وكان مما فعله ﷺ أنْ تفاوض مع غطفان فعرض أن تنسحب من الحِلف مقابل أموال تُدفع لها، وكما هي عادة الرسول ﷺ في كل ما ليس بوحي، قد شاور أصحابه فاعترضوا فأوقف المفاوضات، وإن كان مجرد إجرائها قد أحدث أثرًا سيئًا في نفوس الحلفاء حيث تسرب الشك إلى نفوس زعماء قريش في مدى إخلاص غطفان للهدف الذي جاؤوا من أجله، كما أن غطفان كانت قد ملت من الانتظار دون شن هجوم على المسلمين، في حين أن اليهود ـ كعادتهم ـ ينتظرون أن تبدأ الأحزاب الهجوم، وتتلقى الصدمات الأولى بما تحتمله من خسائر في الأرواح والعتاد، ثم يتحركوا هم ليصولوا ويجولوا في ميدان المعركة التي أوشكت أن تنتهي فيمعنوا قتلًا في المسلمين وسلبًا لأموالهم، وبعد ذلك يتحدثوا عن بطولات مقاتليهم وبلاء جيوشهم». [المستوطنات اليهودية للمجدوب ٩٥-٩٦].

ويقول د/ أبو فارس: «لقد كان تحرك الرسول ﷺ نحو غطفان، ومفاوضتها من أجل الرجوع عن المدينة موفقًا في غاية التوفيق؛ ذلك لأنها أضعف حلقات الحلف، لبداوتها، واعتمادها على الترحال، وضعف قدرتها الاقتصادية، وهي لم تخرج ابتداء من أجل مبدأ فكري تلتزمه وتقاتل عنه، إنما خرجت من أجل مغنم تحصل عليه، إما من يهود خيبر أو من المسلمين إن هي انتصرت عليهم؛ ولهذا فمن السهل عليها أن تترك الأحزاب في أي وقت تحقق فيه هدفها، وهو المال.

إن الرسول ﷺ باتصاله بوفد غطفان، ومفاوضته لهم كان يرمي - والله أعلم - إلى إيجاد شرخ في بناء الأحزاب، وزلزلته، وتمزيق هذه الوحدة، وتصديعها، ثم يترتب على ذلك إضعاف قدرتها على البقاء طويلًا في مواجهة المسلمين.

وهذا المعنى الذي فهمناه من قول رسولنا ﷺ: «**إِنِّي لَـمَّا رَأَيْتُ العَرَبَ قَدْ رَمَتْكُمْ عَنْ قَوْسٍ وَاحِدَةٍ أَرَدْتُ أَنْ أُخَذِّلَ عَنْكُمْ**».

لقد رأى رسول الله ﷺ أن يعطي ثلث ثمار المدينة لقائدي غطفان شريطة الرجوع إلى مضاربها، وعدم القتال، وهذا اجتهاد منه ﷺ وقد لا يتوصل ﷺ في اجتهاد، لا سيما في مجال الحروب إلى ما هو الأفضل والأَوْلى، وإذ رأى رأيًا وظهر أن خلافه هو الأَوْلى رجع إلى الأفضل والأَوْلى.

وقد يختلف الصحابة في أمر اجتهادي مع رسول الله ﷺ، ولا ينكر عليهم ذلك، وليس لهم أن يخالفوه في شيء بعد مماته ﷺ إن اجتهد في مسألة، والوحي سكت عنها ولم ينكرها، فإن السكوت من الوحي عليه يدل على إقراره له، فأصبح وحيًا لا تجوز مخالفته». [غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٥٤-١٥٥].

ويقول د/ قلعجي: «لقد رأينا أن خطة رسول الله ﷺ تهدف إلى تفريق كلمة العدو المهاجم، بالمال، أو بالموادعة، أو بالمكيدة، وهنا رأى ﷺ أن يستخدم سلاح المال مع غطفان، فإن نجحت هذه الوسيلة يكون العدو قد خسر ثلث قوته تقريبًا، وهذا ليس بالأمر الهين، وإذا ما نجحت هذه الطريقة أو طريقة أخرى مع كتلة أخرى من كتل العدو... أمكن لرسول الله ﷺ أن يبرز لقتال الباقي من جيش العدو.

ولكن بعض الصحابة رضي الله عنهم رأى في ذلك بعض الصَّغار؛ ولذلك رفض هذا العرض الذي عرضه رسول الله ﷺ، وإنما عرض رسول الله ﷺ الأمر عليهم لأنهم هم الذين سيتحملون نتائجه، فلما رأى فيهم العزة والتصميم على الشهادة أو النصر صرف النظر عنه، ولكنه لم يفلته قبل أن يستغل نتائجه أحسن استغلال، فأشاع نبأ هذا الاتفاق مع غطفان بين صفوف الأحزاب، فحطم بذلك تماسك قوات الأحزاب وزعزع وحدتها وتماسكها، ولم يكتف بهذا بل أخذ يواصل التفكير في تدبير مكيدة يدبرها للعدو تفرق كلمته، فوجدها في نعيم بن مسعود الأشجعي رضي الله عنه». [قراءة سياسية للسيرة النبوية لقلعجي ١٨١].

ويقول د/ حبيشي: «وأيًّا ما كان الأمر الذي صدر عن النبي ﷺ، فإن مفاوضة غطفان على هذا النحو لو قد حدثت، لكان فيها خير للنبي ﷺ ومن معه، وخير لغطفان.

أما خير هذه المحاولة بالنسبة للنبي ﷺ والمسلمين، فإن أقرب آثارها أنهم سيجلون عن المدينة، فيتنفس المسلمون شيئًا من الصعداء، ويلتفتون إلى قريش شمال الخندق، وإلى بني قريظة جنوبه التفاتة فيها من التمكين من هؤلاء وهؤلاء قدر غير يسير، وأما الخير الذي سيعود على غطفان فهو أنهم سيقبضون ثلث ثمار المدينة دون إجهاد لأمتهم، ودون إراقة دماء من أفرادهم، وهذا أفضل لهم من أن يأخذوا كل ثمار خيبر مع فقدهم لبعض الرجال، وإهلاكهم للخف والحافر، وإجهادهم لما بقي من الرجال.

والشيء العجيب أن إسرائيل ولفنسون ومشرفه (مشرفه هو د/ طه حسين) قد اضطربت بين يديهم العبارات، وجاء نسيج الأسلوب مهلهلًا، وظهر الفصام بين لغة الأداء لديهم، والمعاني التي يريدونها حين زهدوا في قصة نعيم، وعمدوا إلى حديث مصالحة النبي ﷺ وغطفان يحمّلونه ما لا يحتمل، ويشبهونه بما لا يناظره من وقائع تاريخ الرومان.

ولسنا نريد أن نشغل بالك بما يلوي به هؤلاء أعناقه من روايات التاريخ، حتى يحقق أغراضًا قد خطط لها سلفًا». [يراجع: تاريخ اليهود ـ ولفنسون ص١٤٥ وما بعدها]. [رسالة من النبي ﷺ لحبيشي ١٣٤].

٥ ـ أهمية حنكة القيادة السياسية:

يقول الشيخ عرجون: «بيد أن رسول الله ﷺ رأى ازدياد الحصار على أصحابه إلى جانب ما هم فيه من شدة البلاء وتعاظم المحنة، فأراد ﷺ أن يصنع شيئًا يكسر به شوكة الأعداء في تكالبهم ليفرق جموعهم ويشتت تحزبهم، فبعث إلى الأحمق المطاع عُيينة بن حصن الفزاري والحارث بن عوف المري ـ وكانا زعيمي أكبر كتائب الأحزاب بعد قريش وأحابيشها ليطمعهما في غنيمة سهلة يأخذونها ويرجعان بمن معهما من قومهما ومن تبعهما من غيرهم عن الحرب، فراوضهما ﷺ مراوضة مطمعة على أن يعطيهما ثلث ثمار المدينة، فانتفخت أوداجهما، وربما سحرهما فرحًا بهذا العرض الذي أطفأ حرارة عزيمتيهما على الحرب، وأصابهما بالتخاذل عن تحزبهما للحرب وخوض نيرانها، وأظهرا الرضا والفرح بذلك، وكتب بذلك الكتاب ولم يُشهد عليه ولم يوقع عليه، ودار الحوار الذي ذكرناه في عرض الغزوة بين رسول الله ﷺ والسعدين.

نفحات الإيمان تشحذ العزائم: وهذه قصة تمثل واقعة من وقائع أحداث غزوة الخندق، وهي نموذج من نماذج السياسة الحكيمة المحكمة التي أدار رسول الله ﷺ بها الموقف، وقد بلغ ذروة المحنة، وقد أراد ﷺ بهذه السياسة أن يبرز جانبًا من جوانب منهج رسالته في التحرك لفك الأزمات عند استحكامها وتأزماتها لتكون لأجيال المجتمع المسلم درسًا تربويًّا من دروس التربية المنهجية عند اشتداد البلاء.

حكمة هذه السياسة الحكيمة التي أنقذ بها رسول الله ﷺ موقف المجاهدين، وآراء العلماء في معنى (الحرب خدعة): لم يكن يخفى على رسول الله ﷺ أن هؤلاء الأحزاب الذين جمعتهم المطامع المادية، والحرص المسعور، والحقد الأسود الذي أحرق أكباد من جموعهم من أشرار اليهود وأخبث خبائثهم، والذي ملأ قلوب بقايا الغثاء من فُلَّال قريش غيظًا محنقًا على رسول الله ﷺ وعلى مجتمعه المسلم في تركيبه الجديد بعد الهجرة والمؤاخاة الإيمانية والتكافلية بين المهاجرين والأنصار، مما جعل هذا المجتمع قوة يُخشى بأسها ـ أن هذ الجموع التي لم يكن لها هدف موحد في تجميعها وتحزُّبها، ولم يكن بينهم وصائل تربطها في مواقفتها لكتائب المجتمع المسلم في حرب ضارية شرسة إذا أعطت أخذت، وإذا أخذت فلا عوض لما تأخذ ـ سبيلها في كسر شوكتها وتفريق جمعها هو سبيلها في تحزبها، وهي قد تحزبت لتغنم وتنهب وتسلب، فإذا جاءت الغنيمة ربحًا بغير تجارة، وكسبًا بغير عمل، وأخذًا بغير بذل، كان ذلك هو مطلبها الأكثر في مقاصد زعماء من تحزبوا ومجيئهم ليشترك أقوامهم في حرب ضروس تطحن قلوب المجازفين بأنفسهم تحت رحاها ليغنم غيرهم ويبوؤوا هم بالخسران المبين.

فإذا جاءت الغنيمة سهلة لبعض هؤلاء المتحزبين وأُهمل الآخرون فلم يحصلوا على شيء، بل لم يعرض شيء إظهارًا للاستهانة بهم وتحقيرهم وإذلالهم وإضعاف قوتهم مشى الحقد والحسد والشكوك إلى قلوب المحرومين المنبوذين الذين أُهملوا فلم يُعَدُّوا في العير ولا في النفير، وتنابز الحاقدون مع الذين دُعوا إلى لا شيء، ولكن عبث بهم في خداع حربي، والحرب خدعة، يجب على سُوَّاسها أن يكونوا في يقظتهم على أكمل العلم بما يضعف قوة العدو من مسالك السياسة الحكيمة.

قال الزرقاني: وأصل الخداع إبطان أمر وإظهار خلافه، وفيه التحريض على أخذ الحذر في الحرب والندب إلى خداع الكفار وإن من لم يتيقظ لذلك لم يأمن أن ينعكس الأمر عليه.

وقال النووي: اتفقوا على جواز خداع الكفار في الحرب كيفما أمكن إلا أن يكون في نقض عهد أو أمان فلا يجوز.

وقال القاضي أبو بكر بن العربي: ويقع الخداع بالتعريض وبالكمين ونحو ذلك، وفي الحديث الإشارة إلى استعمال الرأي في الحرب، بل الاحتياج إليه آكد من الشجاعة؛ ولذا اقتصر على ما يشير إليه بهذا الحديث.

وقال ابن المنير: معنى الحرب خدعة أن الحرب الجيدة لصاحبها الكاملة في مقصودها إنما هي المخادعة، لا المواجهة، وذلك لخطر المواجهة وحصول الظفر مع المخادعة بغير خطر.

وإذا استولى الحقد والحسد والشكوك على النفوس أذابتها، ومزقت أوصالها فلم تعد تصلح لتجمع يستهدف شيئًا من توافه الأمور في الحياة، بَله حرب ضارية اتخذت لها كل أهبة إلا أهبة الصدق والولاء في الإخلاص بين المتحزبين، إخلاصًا يوحد بينهم وحدة لا تعرفها خدع الحروب.

وفي اتخاذ الأحمق المطاع عيينة بن حصن الفزاري وصاحبه الحارث بن عوف المري حجر الزاوية لهذه السياسة الحكيمة نموذج لما خص به رسول الله ﷺ من العلم بأسرار النفوس الإنسانية وتطلعاتها المختلفة التي تستهويها الخدع الحربية والوعود المادية، فتخلع عليها جلابيب زعامة المتحزبين، وتريهم أنهم هم المقدَّمون في مصائر الأمور.

وعيينة وصاحبه الحارث لم يكونا في واقعهما من ذَيَّاك الطراز الذي تُعصب به الأمور وتُعقد عليه العقد والعهود، ولكنهما كانا طعمة لصيد حذر إن جرى الحديث مع غيرهم كأبي سفيان بن حرب، فإنه كان في دهيه ومعرفته لمواقع المكايد أثقل من أن يستخف فيخدع، وكانت له في المجتمع المسلم تِرات وأحداث أدمت قلوب قريش وهو زعيمها وصاحب كلمتها وقائدها في حروبها بعد (بدر)، فليس من السهل بيعها في سوق النسيان أو التناسي بشيء من متاع زائل لا يغسل بمائه دماء قريش في (بدر).

بيد أن الأحمق المطاع وصاحبه لم يكن لهما في سوابق الأحداث وجود، فهما أسرع في الاستجابة إلى حل عقدة التحزب لينفرط عقد التحزب بين الأحزاب، ولم يكونا يستهدفان من انتظامهما في سلك الأحزاب إلا الحصول على كسب رخيص، فاتُخذا مطية ذلولًا لطبيعتهما وطبيعة موقفهما.

اختيار عيينة وصاحبه الحارث المري كان لونًا من السياسة القيادية لفصم عرى الروابط بين جموع الأحزاب: وقد كان المقصود الحقيقي من الحديث معهما في هذا الإطار، واختيارهما له هو إحداث تخلخل في عواصم التحزب وتمزق في روابط التجمع، وإحلال الشك في هذه العواصم والروابط لتنفصم عراها وتتبدد وسائلها وتتبعثر حشودها الظالمة.

ولم يقصد النبي ﷺ أن يجعل من هذا الحديث والمراوضة مع عيينة والحارث حقيقة مصالحة تجري بينه ﷺ وبينهما، وإنما أراد ﷺ ـ فيما يظهر لنا ـ هذا المعنى الذي أبرزناه ليكون مبعث شك في روابط التحزب التي تربط هذه الحشود المتكالبة على حرب المجتمع المسلم.

وأما بالنسبة لكتائب الجهاد من المجتمع المسلم فقد أراد ﷺ ـ فيما يظهر لنا أيضًا ـ إثارة النخوة الإيمانية فيهم، وشحذ وتجديد قواهم، وتمحيص يقينهم وتثبتهم على الجادة أمام نوازل البلاء والمحن، وكشف حقيقة أعدائهم، وأنهم لم يكونوا في تجمعهم وتحزبهم يستهدفون غاية يقاتلون لتحقيقها، وإنما جاؤوا ليشتروا الدنيا بالآخرة والكفر بالإيمان.

وقد يكون في قول النبي ﷺ وهو يرد على سعد بن معاذ رضي الله عنه في مشاورته: «**بَلْ شَيْءٌ أَصْنَعُهُ لَكُمْ، وَاللهِ مَا أَصْنَعُ ذَلِكَ إِلَّا لِأَنَّنِي رَأَيْتُ العَرَبَ قَدْ رَمَتْكُمْ عَنْ قَوْسٍ وَاحِدَةٍ، وَكَالَبُوكُمْ** (اشتدوا عليكم) **مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَكْسِرَ عَنْكُمْ مِنْ شَوْكَتِهِمْ إِلَى أَمْرٍ مَا**» ما يشير إلى أنه ﷺ أراد أن يتخذ في الموقف بعد أن تعقدت فواصله نوعًا من السياسة التي تمزق شمل المتحزبين، وتفرق جموعهم، وتشتت كلمتهم، فيخفف تكالبهم على المجتمع المسلم، وتُضعف قوة تجمعهم دون أن يجعل لهم سبيلًا إلى مدينته وثمارها أو التحكم في أمر من أمورها.

وفي موقف الصحابة رضي الله عنهم في مشاورتهم وإفصاحهم لرسول الله ﷺ عن قوة عزيمتهم يظهر صدق إيمانهم ورسوخ يقينهم، وثبات أقدامهم؛ لأنهم سألوا رسول الله ﷺ إن كان ما يعرضه عليهم للمشاورة أمرًا من عند الله، فهم مسلِّمون لأمر الله، لا يخالفونه، وإن كان ما يعرضه عليهم أمرًا يحبه ﷺ فيصنعونه محبة فيما يحبه ويرضيه، وإن كان ما يعرضه عليهم أمرًا يريد به ﷺ الرحمة بهم والشفقة عليهم لما يراه قد حل بهم من شديد البلايا وعظيم المحن، فإننا لا نرضى لأنفسنا بتقبله والرضا به، وثارت نخوتهم الإيمانية، ورأى ﷺ قوة عزائمهم، وقال لسعد بن معاذ رضي الله عنه وهو متكلم القوم: «**فأنت وذاك**»، وأسرع سعد إذ رأى الرضا في وجه رسول الله ﷺ إلى الصحيفة فمحا ما فيها من الكتابة، وقال كلمته المعبرة عن صادق إيمانهم وصوارم عزائمهم: «**لِيَجْهَدُوا عَلَيْنَا، وَاللهِ لَا نُعْطِيهِمْ إِلَّا السَّيْفَ، حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ**»، وأقر الله عين رسول الله ﷺ بصدق إيمان أصحابه وقوة عزائمهم».

[محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ١٧٦-١٨٠].

٦ ـ الاستماع للرأي الآخر:

يقول د/ أبو فارس: «نتعلم من رسول الله ﷺ أن نستمع للرأي الذي يخالف رأينا ونعوِّد أنفسنا عليه، كما نعودها على مناقشة ما عندنا وما نسمع ثم نقرر ما نريد لا على سبيل التشهي، ولكن على سبيل معرفة الحق واتباعه، والقادة هم أولى الناس بهذا، فهم مدعوون إلى أن تتسع صدورهم لسماع الرأي المخالف لهم، وأن يفكروا فيه، فلعل فيه الخير والبركة والفلاح، وعليهم ألا يتحرجوا من الأخذ بآراء الآخرين إن وافقت الصواب وإن كانت مخالفة لآرائهم، فالحكمة ضالة المسلم أنى وجدها التقطها».

[غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٥٥].

٧ ـ رأي ونظر في رواية لتأويلها ـ إذا صحت ـ تأويلاً يضعها في إطار السياسة المحكمة:

يقول الشيخ عرجون: «في غمرة هذه الشدائد التي أخذت بخناق المحاصَرين والمحاصِرين جاء نعيم بن مسعود الأشجعي إلى رسول الله ﷺ، وكان نعيم رجلًا نمومًا كما ذكره ابن حجر عن ابن

إسحاق من حديث عائشة ـ قال ابن إسحاق: حدثني يزيد بن رومان عن عروة، عن عائشة رضي الله عنها أن نعيمًا كان رجلًا نمومًا ـ أي ينم الحديث وينقله ـ قال الزرقاني: وكان نعيم رجلًا نمومًا ـ وأن النبي ﷺ قال له: «**إِنَّ اليَهُودَ بَعَثَتْ إِلَيَّ: إِنْ كَانَ يُرْضِيك أَنْ تَأْخُذَ مِنْ قُرَيْشٍ وَغَطَفَانَ رُهُنًا نَدْفَعُهُمْ إِلَيْك فَتَقْتُلُهُمْ فَعَلنَا**»، فرجع نعيم مسرعًا إلى قومه فأخبرهم، فقالوا: **والله ما كذب محمد عليهم، وإنهم لأهل غدر**، وكذلك قال نعيم لقريش فكان ذلك سببًا في خذلانهم ورحيلهم.

هذه الرواية ـ إن صحت ـ فهي من قبيل السياسة الحربية التي يكون فيها الرأي أنفع من الشجاعة والمواجهة، وتدخل تحت معنى حديث (الحرب خدعة).

وكان النبي ﷺ يتطلع إلى كشف الكرب عن أصحابه، فلما جاءه نعيم وكان يعلم من حاله قبل الإسلام أن صدره يضيق بحديث سمعه دون أن يفشيه ويتحدث به، فذكر له النبي ﷺ ما ذكر عن اليهود بأسلوب التعريض والتورية، فأخذ نعيم ما ألقى إليه رسول الله ﷺ من الحديث، فنقله إلى بعض زعماء غطفان وقريش، وبدأ الفشل يسري بين حشود الأحزاب فافترقت كلمتهم وانفرط عقدهم».

[محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ١٨١].

٨ ـ بحث وتحقيق في روايات قصة نعيم بن مسعود رضي الله عنه:

يقول الشيخ عرجون: «قصة نعيم بن مسعود الأشجعي رضي الله عنه في غزوة الأحزاب، وتخذيله لهم عن موافقة المجتمع المسلم بقيادة النبي ﷺ قصة مستفيضة، مشهورة متعالمة، وقع على روايتها إجماع أهل المغازي والسير، وذكرها كثير من المحدثين.

قال ابن حجر في الفتح: وَذَكَرَ أَهْلُ المَغَازِي سَبَبَ رَحِيلِهِمْ، وَأَنَّ نُعَيْمَ بْنَ مَسْعُودٍ الأَشْجَعِيَّ أَلْقَى بَيْنَهُمُ الفِتْنَةَ فَاخْتَلَفُوا، وَذَلِكَ بِأَمْرِ النَّبِيِّ ﷺ لَهُ بِذَلِكَ.

وقد قدمنا أن ابن إسحاق ذكر فيها روايتين، أولاهما من طريق يَزِيدَ بْنِ رُومَانَ عَنْ عُرْوَةَ عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها: «أَنَّ نُعَيمًا كَانَ رَجُلًا نَمُومًا، وَأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لَهُ: «**إِنَّ اليَهُودَ بَعَثَتْ إِلَيَّ إِنْ كَانَ يُرْضِيك أَنْ تَأْخُذَ مِنْ قُرَيْشٍ وَغَطَفَانَ رُهُنًا نَدْفَعُهُمْ إِلَيْك فَتَقْتُلُهُمْ فَعَلنَا**»، فَرَجَعَ نُعَيم مُسْرِعًا إِلَى قَوْمِهِ فَأَخْبَرَهُمْ، فَقَالُوا: **وَالله مَا كَذَبَ مُحَمَّدٌ عَلَيْهِمْ، وَإِنَّهُمْ لَأَهْلُ غَدْرٍ**. وَكَذَلِكَ قَالَ لِقُرَيْش، فَكَانَ ذَلِكَ سَبَبَ خِذْلَانِهِمْ وَرَحِيلِهِمْ». [فتح الباري ٧/ ٤٦٥].

وهذه الرواية ذكرها ابن حجر في الفتح، وهي بأسلوبها التي رُويت به لا يمكن أن تُقبل لتدخل تحت معنى حديث (الحرب خدعة)؛ لأن العلماء ـ كما قدمنا ـ استثنوا من عموم ذلك أمورًا لا يجوز أن يشملها المقصود من الحديث، وذلك بأن يكون الخداع فيه نقض عهد أو أمان، وهذا من قبيل التمثيل والشاهد.

وصريح الكذب أوجب أن يُستثنى من الجواز؛ لأنه مما اتفق عليه العلماء سلفًا وخلفًا أن الأنبياء معصومون عن الكذب لا يقع منهم قط.

ولهذا قلنا بأن هذه الرواية ـ إن صحت ـ وجب أن تكون إنما جاءت بأسلوب المعاريض والتورية، فتصرَّف فيها الرواة بما يُفهم منه أن رسول الله ﷺ قال ذلك بالأسلوب الذي أبعده عن التعريض توهمًا منهم أنه داخل في معنى (الحرب خدعة).

ويدل على تصرُّف الرواة ـ إن صحت الرواية، وأن النبي ﷺ لم يقل ذلك مبتدئًا به نعيمًا رضي الله عنه ـ مجيء هذا الكلام نفسه في الرواية الثانية من روايتي ابن إسحاق، وهي الرواية المشهورة المستفيضة بين أهل العلم، على لسان نعيم في حديثه مع أبي سفيان بن حرب إذ قال له: **إن يهود ندموا على ما صنعوا وأرسلوا إلى محمد: إنا قد ندمنا على ما فعلنا، أيرضيك أن نأخذ من أشراف قريش وغطفان رجالًا تضرب أعناقهم ثم نكون معك على من بقي منهم حتى نستأصلهم**، فأرسل إليهم رسول الله ﷺ: **«نعم»**.

وقد نقد ابن كثير هذه الرواية، فقال: وهذا الذي ذكره ابن إسحاق من قصة نعيم بن مسعود ـ أي في الرواية الثانية ـ أحسن مما ذكره موسى بن عقبة.

وقد أورده عنه البيهقي في الدلائل فإنه قال: وَأَقْبَلَ رَجُلٌ مِنْ أَشْجَعَ يُقَالُ لَهُ: نُعَيْمُ بْنُ مَسْعُودٍ، يُذِيعُ الأَحَادِيثَ، وَقَدْ سَمِعَ الَّذِي أَرْسَلَتْ بِهِ قُرَيْشٌ وَغَطَفَانُ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ، وَالَّذِي رَجَعُوا إِلَيْهِمْ، فَلَمَّا رَآهُ رَسُولُ الله ﷺ أَشَارَ إِلَيْهِ وَذَلِكَ عِشَاءً، فَأَقْبَلَ نُعَيْمُ بْنُ مَسْعُودٍ حَتَّى دَخَلَ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ قُبَّةً لَهُ تُرْكِيَّةً، وَمَعَهُ نَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ: «مَا وَرَاءَكَ؟»، قَالَ: **إِنَّهُ وَالله مَا لَكَ طَاقَةٌ بِالقَوْمِ وَقَدْ تَحَزَّبُوا عَلَيْكَ وَهُمْ مُعَاجِلُوكَ، وَقَدْ بَعَثُوا إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ أَنَّهُ قَدْ طَالَ ثَوَاؤُنَا، وَأَجْدَبَ مَا حَوْلَنَا، وَقَدْ أَحْبَبْنَا أَنْ نُعَاجِلَ مُحَمَّدًا وَأَصْحَابَهُ فَنَسْتَرِيحَ مِنْهُمْ، فَأَرْسَلَتْ إِلَيْهِمْ بَنُو قُرَيْظَةَ أَنْ نِعْمَ مَا رَأَيْتُمْ، فَإِذَا شِئْتُمْ فَابْعَثُوا بِالرَّهْنِ ثُمَّ لَا يَحْبِسُكُمْ إِلَّا أَنْفُسُكُمْ**، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ: **«إِنِّي مُسِرٌّ إِلَيْكَ شَيْئًا فَلَا تَذْكُرْهُ»**، قَالَ: نَعَمْ، قَالَ ﷺ: **«إِنَّهُمْ قَدْ أَرْسَلُوا إِلَيَّ يَدْعُونَنِي إِلَى الصُّلحِ وَأَرُدُّ بَنِي النَّضِيرِ إِلَى دُورِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ»**.
[دلائل النبوة للبيهقي ٣/ ٤٠٤-٤٠٥].

قال ابن كثير: وقد ذكرنا فيما تقدم: أنهم إنما نقضوا العهد على يدي حيي بن أخطب بشرط أن يأتيهم برهائن تكون عندهم توثقة.

قال البيهقي: فَخَرَجَ نُعَيْمٌ مِنْ عِنْدِ رَسُولِ الله ﷺ إِلَى غَطَفَانَ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **«إِنَّ الحَرْبَ خَدْعَةٌ، وَعَسَى اللهُ أَنْ يَصْنَعَ لَنَا»**، فَأَتَى نُعَيْمٌ غَطَفَانَ فَقَالَ: **إِنِّي لَكُمْ نَاصِحٌ، وَإِنِّي قَدِ اطَّلَعْتُ عَلَى غَدْرِ يَهُودَ، تَعْلَمُونَ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ لَمْ يَكْذِبْ قَطُّ، وَإِنِّي سَمِعْتُهُ يُحَدِّثُ أَنَّ بَنِي قُرَيْظَةَ قَدْ صَالَحُوهُ عَلَى أَنْ يَرُدَّ عَلَيْهِمْ إِخْوَانَهُمْ مِنْ بَنِي النَّضِيرِ إِلَى دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَيَدْفَعُونَ إِلَيْهِ الرَّهْنَ**. [دلائل النبوة للبيهقي ٣/ ٤٠٥].

فبادر القوم وأرسلوا إلى بني قريظة عكرمة وجماعة معه، واتفق ذلك ليلة السبت، يطلبون منهم أن يخرجوا للقتال معهم فاعتلت اليهود بالسبت، ثم أيضًا طلبوا الرهن توثقة فأوقع الله بينهم واختلفوا.

ولم يكن ابن كثير في نقده لرواية موسى بن عقبة التي أوردها البيهقي عنه في دلائله صريحًا، ولم يبين الجهة التي كانت بها رواية ابن إسحاق المطولة المفصلة أحسن من رواية موسى بن عقبة، وهي أيضًا رواية ذكرها ابن إسحاق.

ومغازي موسى بن عقبة أوثق عند أئمة هذا الشأن من سيرة ابن إسحاق ومغازيه فيها.

واكتفى ابن كثير بسوقه الرواية على ما فيها مما لا ينبغي أن يسند إلى رسول الله ﷺ من صريح الكذب إدخالًا له تحت قوله ﷺ: «**الحرب خدعة**»، وأنه قال لنعيم بن مسعود: «**إِنِّي مُسِرٌّ إِلَيْكَ شَيْئًا فَلَا تَذْكُرْهُ**»، قَالَ: نَعَمْ، قَالَ ﷺ: «**إِنَّهُمْ قَدْ أَرْسَلُوا إِلَيَّ يَدْعُونَنِي إِلَى الصُّلحِ وَأَرُدُّ بَنِي النَّضِيرِ إِلَى دُورِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ**».

وقد عقَّب ابن كثير على رواية موسى بن عقبة التي أوردها البيهقي بما يُشعر بعدم اطمئنانه إلى قبول هذه الرواية بما جاء فيها من نسبة الكذب إلى رسول الله ﷺ، وهو معصوم عنه بإجماع العلماء من السلف والخلف إلا شراذم لا يُعتد بخلافهم.

فقال في تعقيبه: قلت: وقد يحتمل أن تكون قريظة لما يئسوا من انتظام أمرهم مع قريش وغطفان بعثوا إلى رسول الله ﷺ يريدون منه الصلح على أن يرد بني النضير إلى المدينة.

وهذا الاحتمال واضح جدًّا في إرادة ابن كثير صرف الرواية عن ظاهرها لتبرأ مما نسبته إلى النبي ﷺ مما لا يليق بعصمته في نبوته.

أما الرواية الثانية من روايتي ابن إسحاق، وهي المشهورة بين أهل العلم وأصحاب السير والمغازي والمعتمدة عندهم، وقد ساقها ابن سعد في طبقاته بتصرف غير مخلٍّ، وليس فيها عنده ذكر أن اليهود بعثوا للنبي ﷺ بأنهم ندموا على نقض عهده، ولا أن ذلك كان من نعيم في حديثه مع أبي سفيان بن حرب، وعدم ذكر ذلك أقرب إلى سياق القصة وجوها، وأنسب بترك حرية التصرف في الموقف إلى نعيم بن مسعود يزنه بميزان ما يحتف به من أحوال، وهو صاحبه الذي عرض على النبي ﷺ أن يقوم بما يستطيع تحقيقًا لقول النبي ﷺ حينما عرض عليه نفسه: «**إِنَّمَا أَنْتَ فِينَا رَجُلٌ وَاحِدٌ، فَخَذِّلْ عَنَّا مَا اسْتَطَعْتَ، فَإِنَّمَا الْحَرْبُ خَدْعَةٌ**».

ومن ثم رأينا أن سياق ابن سعد للقصة موجزة خالية من التفاصيل التي تختلف فيها الروايات أقعد وأحكم.

قال ابن سعد: «وكان نعيم بن مسعود الأشجعي ﷺ قد أسلم فحسن إسلامه، فمشى بين قريش وقريظة وغطفان، وأبلغ هؤلاء عن هؤلاء كلامًا، وهؤلاء عن هؤلاء كلامًا، يرى كل حزب منهم أنه

ينصح له، فقبلوا قوله، وخذَّلهم عن رسول الله ﷺ، واستوحش كل حزب من صاحبه، وطلبت قريظة من قريش الرهن حتى يخرجوا فيقاتلوا معهم، فأبت ذلك قريش واتهموهم، واعتلت قريظة عليهم بالسبت، وقالوا: لا نقاتل فيه لأن قومًا منا عدوا في السبت فمسخوا قردة وخنازير، فقال أبو سفيان بن حرب: **ألا أراني أستعين بإخوة القردة والخنازير؟** وبعث الله الريح ليلة السبت ففعلت بالمشركين وتركت، لا تقر لهم بناء ولا قِدْرًا». [محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ١٨٣-١٨٧].

٩ ـ مُثُل وشواهد من منهج الرسالة في قصة نعيم بن مسعود رضي الله عنه:

يقول الشيخ عرجون: «وفي قصة نعيم رضي الله عنه يوم الأحزاب مُثُل وشواهد من منهج الرسالة الخالدة جعلت منها إطارًا لما ينبغي أن يكون عليه المجتمع المسلم إذا تفاقمت به الأزمات، واستحكمت الشدائد، وأحاطت به الكوارث، وقاسيات البلايا والمحن، واكتنفته المآزق، وتملكه الرعب والجزع، واستولى عليه الخوف والهلع، واستحوذ عليه الاضطراب والفزع، وسدت في وجهه أبواب المخارج من المضايق.

وجعلت منه إطارًا لما كشفت عنه الأحداث من محكم السياسة التي تصرفت في دائرتها قيادة هذا المجتمع من حسن التدبير، وإحكام الرأي في كيد الأعداء الذي أُخرج في إبَّانه بعد أن توافرت دواعيه.

وأول ذلك أن تلجأ القيادة الحكيمة إلى الرأي الرصين الحكيم تستشيره وتوقظه ليتحرك في اتجاه النظر في بؤره المجمعة لقوة الأعداء، ومصادرها وعناصر تركيبها حتى تتعرف إلى ما فيها من شروخ يسترها النفاق والدعاوي الكاذبة، فتعمد إلى كشفها وتسليط سياسة تمزيق الروابط بين عناصر تلك القوة التركيبية حتى تتفكك وسائل الترابط الزائفة بين تلك القوة المتورمة في حشود العدو.

وجوب إعداد قوة مخابرات تعمل بمهارة جريئة متثبتة: ويسبق ذلك إعداد العناصر القوامة بما يُطلب منها في شأن تفريق كلمة العدو لتؤدي واجبها دون أن يتنبه لها العدو، مما يوجب أن يؤخذ وهو مستغرق في غفلة الغرور عن تدبير ما يُدبر له.

وإذا دلف إلى القيادة عنصر من عناصر الكيد والمكر بالعدو وجب على القيادة أن تضع هذا العنصر ـ دون شعور منه تحت مخبار التجربة بعيدًا عن جو ما يكلَّفه من عظائم الأحداث.

وإذا أظهرت التجربة صحة الوضع في هذا العنصر الطارئ وجب على القيادة أن تسرع إلى انتهاز الفرصة المتاحة لاستغلالها في سرعة وإتقان، ومباعدة للشك والاسترابة مع اليقظة المتوثبة بالمشاعر المرهفة.

وهذا هو الجانب المنهجي في هذه القصة الذي أقامه رسول الله ﷺ على دعائم السياسة الحكيمة المحكمة التي يجب أن تكون سطرًا في دروس التربية للقادة والدعاة في رسالة الإسلام.

فقد جاءه نعيم بن مسعود ﷺ مسلمًا يكتم إيمانه، وقال للنبي ﷺ: «**يَا رَسُولَ الله، إِنِّي قَـدْ أَسْـلَمْتُ، وَإِنَّ قَوْمِي لَمْ يَعْلَمُوا بِإِسْلَامِي، فَمُرْنِي بِمَا شِئْتَ**»، وكانت الأمور قد بلغت بالمسلمين المدى من الشدائد والمحن والتأزمات، وكان رسول الله ﷺ يترقب الفرج ويستشرفه من آفاق العزة الإلهية، فأسرع إلى توجيه نعيم مثيرًا في نفسه مشاعر الصدق والإخلاص في أن يعمل عملًا يسجله له تاريخ الجهاد الإسلامي، ويرفع به عن المجتمع المسلم آصار الحصار والشدائد، ويدخل على قلب رسول الله ﷺ السرور بتفريج ضائقة أصحابه، وقال له رسول الله ﷺ في توجيهه: «**إِنَّمَا أَنْتَ فِينَا رَجُلٌ وَاحِدٌ**» أي فماذا تستطيع أن تفعل وحدك في تراكم المعضلات والبلايا التي أحاطت بكتائب الجهاد.

وهذا في الحقيقة إغراء يحرك الحمية في نفس نعيم، وقد أشار إليه رسول الله ﷺ إلى ما يستطيع أن يعمله من عمل قد يكون انفراده به مساعدًا على نجاحه فيه فقال له: «**خَذِّل عَنَّا إِنِ اسْتَطَعْتَ**».

حمل نعيم ﷺ هذا التوجيه القيادي من القائد الأعظم رسول الله ﷺ، ومضى به إلى الأحزاب يكيدهم ويمكر بهم ويخادعهم حتى أنجز فيهم ما أراده رسول الله ﷺ، فألقى بينهم بذور الشك، وجعل بأسهم بينهم، مع ما أنزل الله تعالى من آيات غيبية معجزة لنبيه ﷺ، من الريح التي أكفأت قدورهم وهدمت بنيانهم، مع شدة البرد التي أهرأت أجسامهم بصقيعها، فترحلوا مدحورين».

[محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ١٨٧-١٨٩].

١٠ - سِرِّية المداولات:

يقول د/ أبو فارس: «ونستفيد من موقف نعيم بن مسعود ﷺ وحديثه مع بني قريظة وغطفان وقريش أنه كان حريصًا على أن تبقى المداولات سرية ومكتومة جدًّا؛ لأن هذا يساعد على تنفيذ المهمة، أما إشاعة أسرار المداولات فقد يؤدي إلى نتائج ضارة تعصف بكل العمل، وتقضي على كل الجهود المضنية التي بُذلت.

لقد كان نعيم ﷺ يكرر عبارته لبني قريظة وقريش وغطفان: (اكتموا عني)، أي اكتموا خبر مجيئي لكم، وحديثي معكم، واقتراحي عليكم.

وقد أوقع في قلوب المشركين أن كتمان هذا الأمر يحقق مصلحتهم وأن نشر هذا الأمر يفوت عليهم مصالح كثيرة.

نعم لابد أن يستفيد من هذا الدرس الزعماء والقادة وكبار الموظفين، فلا يتحدثون بأسرارهم لمن ليس له علاقة من قريب أو بعيد بأعمالهم، وتصل الأمور إلى حد إفشاء أسرار خطرة جدًّا إلى الأزواج بحيث تصبح الأسرار أحاديث المجالس النسوية». [غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٨٠].

١١ ـ مواقف النبوة في هذه الغزوة تدل على تمتع بالحكمة السامية والسياسة الراشدة:

يقول د/ فيض الله: «كان تصرف النبي ﷺ في مواجهة أحداث هذه الغزوة، بأقواله وأفعاله، في غاية الحكمة، وبُعد النظر، وعمق الفكرة، وإصابة الهدف، وقد كان فيها ـ لذلك ـ دروس وعبر للحاكمين والدعاة والقادة، نذكر منها:

(١) مشاركة النبي ﷺ في الخندق، لم تقتصر على حفر التربة، وفلق الصخر، ونقل التراب، مما يدل على المساواة الفعلية، في المشاقّ والمشاكل والمهام والهموم، بين الراعي والرعية، بل إنها تجاوزت ذلك إلى الحدب الظاهر، والعطف الحاني، والرأفة البالغة بالصحابة المؤمنين، فكان يرتجز معهم قول ابن رواحة، كما أسلفنا ـ وهو يعمل ويحمل، ويمد صوته بآخر القافية، وذلك ليخفف عنهم مشقة العمل، وألم الجوع، وشدة المعاناة.

وتمت كلمة الله في نبيه ﷺ إذ قال: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة].

فهل يحفظ المسؤولون هذا الدرس لمن يتولونهم، فيرأفون بهم، ويحنون عليهم ولا يقسون، ويرحمونهم ولا يظلمون؟

(٢) أثبت حادث الصخرة، إلى جانب وصل المؤمنين بربهم، وربط ثقتهم بالله، في كل حال، وفي حال الكرب المطبق، والبلاء النازل، على التخصيص ـ إطلاع الله نبيه ﷺ على بعض شؤون الغيب، وأحداث الأيام، وتقلبات العالم، ومصير العوالم في المستقبل؛ فأراه أُمَدَ فتوح المسلمين في الشرق والغرب، وفي الشمال والجنوب؛ ورأوا قصور كسرى وبصرى، وأبواب صنعاء، يدخلها الفاتحون المسلمون، وشمول دعوته هذه الآفاق البعيدة، والأمصار العنيدة، والحضارات العتيدة.

وهذا قليل من كثير من المغيبات التي أظهر الله عليها قلب النبي ﷺ كما قال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾﴾ [الجن].

وكما قال في قصة التحريم: ﴿نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٣﴾﴾ [التحريم].

وفي السنة الكثير من ذلك:

(أ) ففي الصحيح عَنْ حُذَيْفَةَ ﷺ قَالَ: لَقَدْ خَطَبَنَا النَّبِيُّ ﷺ خُطْبَةً، مَا تَرَكَ فِيهَا شَيْئًا إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ إِلاَّ ذَكَرَهُ، عَلِمَهُ مَنْ عَلِمَهُ، وَجَهِلَهُ مَنْ جَهِلَهُ، إِنْ كُنْتُ لأَرَى الشَّيْءَ قَدْ نَسِيتُ، فَأَعْرِفُ مَا يَعْرِفُ الرَّجُلُ إِذَا غَابَ عَنْهُ فَرَآهُ فَعَرَفَهُ. [البخاري في القدر (٦٦٠٤)، ومسند أحمد ٣٨/ ٣٠٧-٣٠٨ رقم ٢٣٢٧٤].

(ب) اطلع ﷺ ليلة المعراج على العوالم، والسماوات السبع، ودخلها واحدة فواحدة، ورأى سدرة المنتهى، وعجائبها، وسمع صريف الأقلام، ورأى العرش، والكرسي، وعاين سعتهما، وقال: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ، وَالأَرَضُونَ السَّبْعُ، عِنْدَ الكُرْسِيِ، إِلَّا كَحَلَقَةٍ مُلقَاةٍ فِي فَلَاةٍ، وَإِنَّ فَضْلَ العَرْشِ عَلَى الكُرْسِيِ، كَفَضْلِ الفَلَاةِ عَلَى تِلْكَ الحَلَقَةِ**». [رواه ابن مردويه وابن جرير].

(ج) واطلع على مشارق الأرض ومغاربها، فقال ﷺ: «**إِنَّ اللهَ زَوَى لِيَ الأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا...**».

[مسلم في الفتن وأشراط الساعة (٢٨٨٩)، وأبو داود في الفتن (٤٢٥٢)، والترمذي في الفتن (٢١٧٦)، ومسند أحمد ٢٨/ ٣٣٩ رقم ١٦١١٥، و٣٧/ ٧٨، ١١٨ رقم ٢٢٣٩٥، ٢٢٤٥٢].

وفي حديث آخر: «**مَا مِنْ شَيْءٍ لَمْ أَكُنْ أُرِيتُهُ إِلاَّ رَأَيْتُهُ فِي مَقَامِي حَتَّى الجَنَّةَ وَالنَّارَ...**».

[البخاري في العلم (٨٦)].

(د) وتحدث عن القتلى والفتن قبل وقوعها، فعَنْ أُسَامَةَ ﷺ قَالَ: أَشْرَفَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى أُطُمٍ - مرتفع - مِنْ آطَامِ المَدِينَةِ، فَقَالَ: «**هَل تَرَوْنَ مَا أَرَى؟ إِنِّي لَأَرَى مَوَاقِعَ الفِتَنِ خِلَالَ بُيُوتِكُمْ كَمَوَاقِعِ القَطْرِ**».

[البخاري في فضائل المدينة (١٨٧٨)، ومسلم في الفتن وأشراط الساعة (٢٨٨٥)، ومسند أحمد ٣٦/ ٧٨ رقم ٢١٧٤٨].

وفي آخر: عَنْ عُمَرَ ﷺ قَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يُرِينَا مَصَارِعَ أَهْلِ بَدْرٍ بِالأَمْسِ يَقُولُ: «**هَذَا مَصْرَعُ فُلَانٍ غَدًا إِنْ شَاءَ اللهُ**».

فَقَالَ عُمَرُ ﷺ: فَوَالَّذِي بَعَثَهُ بِالحَقِّ مَا أَخْطَؤُوا الحُدُودَ الَّتِي حَدَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ.

[مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٧٤٠٢)، ومسند أحمد ١/ ٣١٣ رقم ١٨٢].

(هـ) وأخبر عن بعض الرجال وعن أسرارهم بالغيب، فعن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: كُنَّا جُلُوسًا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «**يَطْلُعُ عَلَيْكُمْ الآنَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ**»، فَطَلَعَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ تَنْطِفُ لِحْيَتُهُ مِنْ وُضُوئِهِ، قَدْ تَعَلَّقَ نَعْلَيْهِ فِي يَدِهِ الشِّمَالِ»، وفي بعض الروايات أنه جاء سعد بن مالك ﷺ.

[مسند أحمد ٢٠/ ١٢٤ رقم ١٢٦٩٧، وقال الشيخ الأرناؤوط: إسناده صحيح].

وعَنْ وَابِصَةَ بْنِ مَعْبَدٍ الأَسَدِيِّ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ لِوَابِصَةَ ﷺ: «**جِئْتَ تَسْأَلُ عَنِ البِرِّ وَالإِثْمِ؟**»، قَالَ: قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: فَجَمَعَ أَصَابِعَهُ فَضَرَبَ بِهَا صَدْرَهُ، وَقَالَ: «**اسْتَفْتِ نَفْسَكَ، اسْتَفْتِ قَلْبَكَ يَا وَابِصَةُ - ثَلَاثًا - البِرُّ مَا اطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ، وَاطْمَأَنَّ إِلَيْهِ القَلْبُ، وَالإِثْمُ مَا حَاكَ فِي النَّفْسِ وَتَرَدَّدَ فِي الصَّدْرِ، وَإِنْ أَفْتَاكَ النَّاسُ وَأَفْتَوْكَ**». [الدارمي في البيوع (٢٥٧٥)، ومسند أحمد ٢٩/ ٥٢٣-٥٢٨، ٥٣٢-٥٣٣ رقم ١٧٩٩٩، ١٨٠٠١، ١٨٠٠٦، وقال الشيخان أسد والأرناؤوط: إسناده ضعيف].

وقد أطلت بعض الشيء في هذا الموضوع، وهو إطلاع النبي ﷺ على بعض المغيبات، لأن في نفوس أبنائنا الطلاب، وبعض المسلمين شيئًا منه، فأردت بذلك ترسيخ إيمانهم به، وتزويدهم بحصيلة تمسح كل شك فيه.

ثم، في إعلان النبي ﷺ وهو يفتت الصخرة بمِعْوَلِه، عن هذا الغيب، وما كشف له من أقاليم الأرض، بالطول والعرض، حكمة عظيمة، وسياسة راشدة حكيمة، جاءت في موقعها المناسب، وهي تثبيت قلوب المؤمنين التي هزتها الأحزاب، وتبديد مخاوفهم التي أثارتها السيوف العارضة، والتهديدات المتلاحقة، والجيوش المحدِقة بالمدينة.

ولهذا لم يترك المنافقون هذا الإعلان بلا تعليق مضاد، وتندُّر مُسِف، وإرجاف مخذِّل ـ كما رأينا.

(٣) ينبغي التحقيق عن الأخبار، والتثبت من كل ما يُنقل، وعلى التخصيص في الحروب ـ كما قال القرآن الكريم: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [الحجرات: ٦] وقد قرئ: ﴿فَتَثَبَّتُوا﴾.

وفي غزوة الأحزاب لم يتلق النبي ﷺ خبر نقض بني قريظة عهدهم، بل بعث سعد بن معاذ ﷺ وآخرين معه لاستجلاء موقفهم حقيقة.

ولم يقتصر على ذلك، فإنه أمر الوفد بأن لا يجهروا بقولهم، إن عرفوا منهم الغدر، بل يلغزوا له لغزًا؛ وبيَّن أن الجهر بذلك من شأنه أن يفت في عضد الناس، ويضعفهم، أحوج ما يكونون إلى القوة، ورَباطة الجأش.

وهذا أصل في (الشَّفْرَة) التي تستعمل في الحرب والأسرار في أيامنا.

ثم إنه ﷺ لم ييتئس، أو لم يعلن ابتئاسه من نقض بني قريظة عهدهم، بل قدَّر سنة الله في عاقبة أهل الغدر، ومغبة الغادرين، فتفاءل واستبشر؛ وقد أراه الله من قبل ما يفتح الله لدعوته من الأرض، ويتسلم من مفاتيحها، فرفع صوته قائلًا: **أبشروا بفتح الله ونصره.**

(٤) فكَّر النبي ﷺ أن يُهادن غطفان، بعد أن سئمت طول الحصار غير المجدي، على ثلث ثمار المدينة، مقابل انسحابها عن الأحزاب، فأبى الصحابة أن يعطوهم إلا السيف في نهاية المشورة والمطاف.

وفي هذا العرض درس آخر من دروس تربية الحكام، وأخذهم بمبدأ الشورى، وصرْفهم عن الاستبداد بالرأي، وكان هذا هدي النبي ﷺ في سائر أحواله وأمره.

وفيه أيضًا استعجام عود الصحابة، واختبار مبلغ قوتهم وصلابتهم في المعركة؛ وقد اشتد الخَطْب، والتحمت الجيوش، واسْتُصْعِبَ النصرُ؛ وهذا أيضًا من أساليب التربية الحربية؛ ويؤيده أنه صرح لهم بأن هذا تصرف شخصي منه، وليس بلاغًا من رب العالمين.

والسؤال الذي يثور في هذا الصدد، هو أنه: هل يجوز للمسلمين إذا اقتضت الحاجة أن يتنازلوا للكفار عن بعض أموالهم، حفظًا على حياتهم، أو خوفًا من استئصالهم، بناءً على هذا العرض النبوي على الصحابة؟

والجواب: أن النبي ﷺ قد عرض هذا على الصحابة، وفكر فيه، لكنه لم يفعله؛ والحجة الشرعية في أقواله وأفعاله ﷺ، فلا تقوم به حجة، ونظيره مقاله في حديث آخر: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ آمُرَ بِحَطَبٍ فَيُحْطَبَ، ثُمَّ آمُرَ بِالصَّلَاةِ فَيُؤَذَّنَ لَهَا، ثُمَّ آمُرَ رَجُلًا فَيَؤُمَّ النَّاسَ، ثُمَّ أُخَالِفَ إِلَى رِجَالٍ فَأُحَرِّقَ عَلَيْهِمْ بُيُوتَهُمْ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ يَعْلَمُ أَحَدُهُمْ أَنَّهُ يَجِدُ عَظْمًا سَمِينًا، أَوْ مِرْمَاتَيْنِ حَسَنَتَيْنِ، لَشَهِدَ الْعِشَاءَ».

[البخاري في الأذان (٦٤٤)، وفي الأحكام (٧٢٢٤)، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٦٥١)، وأبو داود في الصلاة (٥٤٨)، والنسائي في الإمامة (٨٤٨)، وابن ماجه في المساجد والجماعات (٧٩١)، والدارمي في الصلاة (١٢٧٤)، ومسند أحمد ١٤/ ٤٧١ رقم ٨٨٩٠، ١٥/ ٢٩٤ رقم ٩٤٨٦، ١٦/ ٥١٠ رقم ١٠٨٧٧].

فقد هَمَّ أن يحرق بيوت تاركي الجماعة، وصرح به لكنه لم يفعله، فلا يجوز تحريق بيوت تاركي الجماعات بإجماع؛ وإنما الحديث لتنظيم صلاة الجماعة، والترهيب من تركها بلا عذر، فكذلك الأمر هنا، لا يجوز ـ في الأحوال العادية ـ ترك المسلمين القتال، وبذل المال للأعداء.

نعم إذا اضطر المسلمون إلى ترك القتال، ومصالحة عدوهم، لكثرة العدو، وقلتهم، وقلة سلاحهم، بحيث إنه لا تكافؤ فيه مطلقًا، وخافوا من استئصال شأفتهم، واستيقنوا أنه لا طاقة لهم بمواجهة عدوهم، جازت لهم مهادنته، بمال أو بغير مال، تخلصًا منه؛ وهذا من باب الضرورات التي يجوز فيها ما لا يجوز في غيرها، فالأصل فيها المنع.

والضرورة كما هو معلوم في علم الأصول، نازلة لا مدفع لها إلا بارتكاب محظور يباح شرعًا لدرئها.

ومع ذلك فقد نَصَّ فقهاء الحنفية على جواز الصبر في هذه الحال؛ لأن فيه بذل النفس ابتغاء مرضاة الله تعالى.

وأدلة هذه المسألة من السنة وواقع الحرب الإسلامية، مبسوطة في كتب الفقه، يراجعها فيها من يشاء».

[صور وعبر لفيض الله ٢٣٥-٢٤١، وينظر للتفصيل: الجوانب التربوية المستنبطة من غزوة الأحزاب لنحاس ٩٣-١٠١].

١٢ ـ دولة ثابتة الدعائم:

يقول د/ عويس: «هذه الهزات الخارجية بعد أُحُد لم تغير من امتداد الدعوة الإسلامية شيئًا! كانت الدعوة تشق طريقها في ليل الحياة الجاهلية كما تشق أشعة الشمس طريقها في الصباح.

لقد كانت قدرًا لابد منه، وإن اعترضته بعض الغيوم.

وفي ظلال الرسول ﷺ كان المسلمون يتفيؤون معاني الأمن والرضا والشعور بالسكينة كلما حزبهم أمر من الأمور.

كان النبي ﷺ واثقًا كل الثقة من وعد ربه وكان يتصرف على هذا الأساس ومع أن العامين اللذين أعقبا أُحُدًا كانا مفعمين بالمتاعب، إلا أن ظلال النبوة الكريمة قد حولت هذه المتاعب إلى معنى جميل يكتنف الحياة في المجتمع الإسلامي الناشئ المجاهد، بل حولت هذه المتاعب إلى نصر حقيقي، وإلى تدعيم أكيد لأركان الدولة الناشئة!

دولة قادرة على الحوار: لقد تم - بإيجاز - تحويل المدينة إلى جزيرة إسلامية خالصة، ليس فيها «جماعة» تقف - كقوة متميزة - ضد الجماعة الإسلامية.

فالقوة المتميزة الداخلية الكبرى كانت تتمثل في اليهود.

ولم يكن خطرهم متمثلًا في وجودهم المتميز فحسب، بل تمثل خطرهم في طبيعتهم المعروفة عبر تاريخهم كله!

ومنذ اللحظة الأولى لدولة المسلمين في المدينة، وعلى الرغم من الصحيفة، فإن اليهود أخذوا يدخلون في حوار غير كريم مع الجماعة الإسلامية الناشئة!

والحوار حق لكل الناس، بشرط أن يقوم على أساس إظهار الحقائق، ويهدف إلى الوصول للحق!

لكن أساليب اليهود - سابقًا ولاحقًا - في الحوار، كانت هدامة، بل كانت أسلوبًا استفزازيًّا إعلاميًّا يعتمد الكذب و«المكيافيلية» الدنيئة.

- لقد أنكروا النصوص المتعلقة بالنبي في التوراة، وتعمدوا إخفاءها، وهذا مخالف لأصول الحوار الكريم الهادف.

إنهم قابلوا أسلوب القرآن الكريم في الحوار، ذلك الأسلوب الذي يبدأ بتكريم الخصم لتهدئة روعه، ولا يضيره أن يعترف بالحق الموجود مع الخصم إن كان معه الحق (القرآن مدح بني إسرائيل حين استحقوا ذلك، وناداهم بيا بني إسرائيل - أي يا أبناء عبد الله ورسوله يعقوب)!

لقد قابلوا هذا الأسلوب - باستثناء بعض أحبارهم المخلصين الذين أسلموا - بالتشهير والتحريف والمعارضة بالباطل، وإنكار ما عندهم بشأن النبي محمد ﷺ وصفاته، بل إنهم - وهم أهل كتاب - كانوا يقفون فكريًّا (وعمليًّا بالطبع) مع الوثنيين المنكرين لكل الأديان!

- بل بلغ الأمر أن قال الحارث بن زيد لهم: هلموا نحتكم إلى توراتكم، فرفضوا، وقد كان بعضهم يتظاهر بالإسلام، ثم يعلن كفره بعد ذلك، ليحط من قدر الإسلام، ويُظهر أنه إنما تركه من علم وخبرة به!

ـ وقد شَطُّوا في عداوتهم الفكرية، واجترائهم على آداب الحوار، فعمدوا إلى استبدال بعض ألفاظ القرآن الكريم بغير ما أنزل الله، لكن الله كشفهم وحفظ كتابه، فحاولوا تغيير المعاني وتحميلها ما لا تحتمل من تأويل، بما يتفق مع أهوائهم المنحرفة!

ـ هذه الحرب الفكرية المتجاوزة لقواعد الحوار العلمي الكريم.

ـ هذه الحرب المصحوبة ـ في الوقت نفسه ـ بتخطيطات وتكتلات سرية، واستفزازات علنية، ومحاولات مستمرة لإثارة الجاهلية القديمة بين الأوس والخزرج.

ـ هذه الحرب اليهودية، ما كان يمكن مهادنتها والعيش معها تحت شعار «حل سلمي عادل» أو «اتفاقية».. أبدًا.

ـ وهؤلاء اليهود الذين حوَّلوا «صحيفة النبي ﷺ» إلى حبر على ورق، ليسوا أهلًا لأية اتفاقية.. بعد ذلك!

فليس أحدكم أكرم خلقًا من الرسول ﷺ.

ولا توجد صحيفة أعدل من صحيفته.

ولم يثبت ـ تاريخيًّا ـ أن اليهود قد غيَّروا جلدتهم.

وأي صلح «حقيقي» يبرمه حاكم مع هؤلاء الخونة هو تعبير عن غفلة وجهالة بأبسط معطيات التاريخ!

ـ ليكن هناك صلح إستراتيجي (تكتيكي مرحلي) معهم.

ـ ليكن في حالة من حالات الهزيمة والخوف والفشل.

ـ لكن الظن بأن اليهود أهل للصلح والسلام العادل الدائم.. هذا الظن أقل من أن يوصف بأردأ التعبيرات الممكنة!

هكذا نتعلم من ظلال النبوة التي لا تمتد إلا فوق أرض الحقيقة، ولا يستظل بها إلا الباحثون عن الحق.. والحق المجرد!

دولة قادرة على الحرب والنصر: وقد انتهى الصراع الداخلي بين اليهود والمسلمين ـ في مرحلته الأولى ـ بإجلاء بني قينقاع ـ كما ذكرنا ـ وهم أبرز العناصر المؤثرة ـ جغرافيًا ـ في داخل المدينة، بعد أن تجرأوا فاعتدوا على كرامة امرأة مسلمة، وبعد أن استفزوا الرسول ﷺ بكلمات تشبه التهديد!

ولم تَحُل هزات «أُحُد» و«يوم الرجيع» و«بئر معونة» التي تلت أُحُدًا، من الاستمرار في إجلاء القوى المناوئة الداخلية، فكان إجلاء بني النضير، خطوة أخرى بعد إجلاء بني قينقاع!

والذي يبدو أن هذه الهزات قد أطمعت يهود بني النضير في المسلمين، فائتمروا على قتل الرسول ﷺ ـ وهو في دارهم ـ وكلَّفوا «عمر بن جحاش» إلقاء حجر على الرسول ﷺ من فوق سطح إحدى دورهم، أثناء وجوده ﷺ بينهم!

لكن الرسول ﷺ تنبه لمكرهم، وانصرف دون أن يعرفوا أنه عرف مؤامراتهم، ثم أرسل إليهم «محمد بن مسلمة الأوسي ﷺ» يخبرهم بنقضهم العهد، ويأمرهم بالخروج من المدينة!

كان الخبر صاعقة وقعت على رؤوس التكتل المعادي للإسلام في داخل المدينة كلها، فجلاء بني النضير يعني رجحان كفة المسلمين، وسيطرتهم تمامًا على المدينة.

ولقد شعر المنافقون بالحبل يقترب من أعناقهم، بعد أن سمعوا الخبر، ولقد حاول عبد الله ابن أُبي بن سلول ـ زعيم النفاق ـ تحريض بني النضير على العصيان، لكن موقف الرسول ﷺ كان أحزم وأسرع، بحيث لم يترك فرصة لالتحام هؤلاء الأعداء، ولقد امتلأت قلوبهم جميعًا بالرعب، حين رأوا المسلمين يستبسلون في حصار بني النضير، ويحرقون بيوتهم، ويقطعون نخيلهم وينكلون بهم أشد تنكيل!

ـ وبدت المدينة، بعد جلاء بني النضير، ومن قبلهم بنو قينقاع، بدت ـ بحق ـ جزيرة إسلامية، للإسلام فيها الكلمة العليا!

ولقد تأكد ـ لدى التكتلات المعادية كلها ـ أن الصراع مع المدينة، بطرق تأليب الجبهة الداخلية أسلوب فاشل، وأنه لابد من أسلوب آخر، يعتمد الوضوح والتجميع والحرب المباشرة التي تضم أطراف التكتل المعادي للإسلام كلها..!

وكانت غزوة الأحزاب أو الخندق، هي التعبير الضخم عن هذا الاتجاه، وبانتصار المسلمين في هذه الموقعة الفاصلة ـ وليس قبل ذلك ـ يمكن أن نقول: إن دولة الإسلام في المدينة، قد تخطت مرحلة الدفاع، وأصبحت ثابتة الأركان، تملك زمام المبادرة!». [في ظلال الرسول ﷺ لعويس ١٣١ - ١٣٦].

١٣ ـ الخندق.. قمة مرحلة الدولة:

يقول د/ عويس: «كانت غزوة الأحزاب غزوة قاسية، انصهرت في بوتقتها المعادن التي أخرجها الإسلام فظهر منها ما كان سليمًا أصيلًا اشتمل عليه الإسلام كل كيانه، وظهر كذلك ما كان مزيفًا لا يملك إلا طلاء خارجيًا، ولم يملك الإسلام عليه كل كيانه بعد.

وفي هذه الغزوة أخرجت الجزيرة العربية ـ بكل أطراف الوجود فيها ـ كل ما ادخرت من حقد، وكل ما أضمرته نحو القوة الإسلامية الناشئة من نوايا الهلاك والتدمير والقضاء الشامل عليها.

اجتمع المشركون المكيون الذين ظهر عندهم النور فطردوه، واجتمع المشركون من سائر الجزيرة الذين رأوا النور يُطرد من بيته الأول، فطاردوه هم كذلك.

واجتمع اليهود، منبع الحقد على التراث النبوي كله.

وأطبقت الحلقة على المسلمين، وزُلزلوا زلزالًا شديدًا.

ومن بين مخالب الظلام استخلص الله شمعة من الشموع التي توهجت فجأة، وكان من قدر الله أن أخرج المسلمين على يدها من بين هذا الظلام الجاهلي المطبق!

وكانت هذه الشمعة هي ذلك الرجل الوثني الذي أسلم في هذه الظروف الكئيبة، هي «نعيم بن مسعود ﷺ».. من غطفان!

وعندما جاء نعيم يعرض على الرسول ﷺ إسلامه، لفت الرسول ﷺ نظره إلى أنه فرد واحد، وإلى أن قيمته تتركز في مدى إعمال فكره فقط، وقال له ـ بالتالي ـ قولته المشهورة: «**إِنَّمَا أَنْتَ فِينَا رَجُلٌ وَاحِدٌ، فَخَذِّلْ عَنَّا إِنِ اسْتَطَعْتَ**».

ونجح نعيم ﷺ بهذه السياسة المناسبة في الإيقاع بين قريش واليهود، وعلَّمنا بنجاحه كيف أن الشمعة الصغيرة قد تبدد ظلام ليل كلوح!.. وتم نصر الله، وحفظ المسلمون قصة نعيم ﷺ، وتجاهلوها في معارك كثيرة بعد ذلك!

إن نعيم بن مسعود ﷺ لم يتقدم لهذا العمل الفدائي، ولم يدخل هذا الدين، في ظروف عادية، يحتمل فيها أية شبهة مصلحية مادية، وما كان أحد يستطيع التكهن بالمستقبل الذي ينتظر هؤلاء الناس، بل إن بعض المسلمين أنفسهم قد أظلمت الدنيا في وجوههم.

إن إيمان نعيم ﷺ إيمان نموذجي يصلح كأبلغ رد على الماديين الجدليين الذين يلتمسون لكل رأي أو فكرة محركًا ماديًّا..!

لقد انضم نعيم ﷺ وهو يعلم أنه إنما ينضم إلى قافلة معرَّضة للإبادة، وأنه سينال نصيبه من هذه الإبادة، لكن فطرة نعيم ﷺ كانت نقية غير مشوهة، وبالتالي، فلم يفهم أن العقيدة تخضع لظروف مادية خارجية تتقلب في النفس والعقل تبعًا لها، إنما هي قضية تغيير النفس والعقل تغييرًا جذريًّا داخليًّا لا يقبل التبعية لعامل خارجي، مادي أو غير مادي!

ولقد بدأ نعيم ﷺ يخدم عقيدته الجديدة ـ في ظل التوجيه الكبير للرسول ﷺ ـ بدراسة الظروف المحيطة بالمعركة دراسة واعية مستوعبة، ولم ينس في الوقت نفسه الإمكانات المتاحة، باعتباره صديقًا لليهود، وباعتباره محل ثقة أهل مكة، كما أنه بالتأكيد قد استفاد من أفكاره السابقة التي يمكن أن يكون قد أثَّر فيها وعيه بأساليب اليهود الذين امتازوا بالتخطيط والدراسة والعمل الواسع الذكي، بالإضافة إلى إفادته من تراث قبيلته «غطفان»!

والذين يعيشون في ظروف الخندق ـ كالمسلمين سابقًا أو لاحقًا ـ مُلزمون في عملهم برسم خريطة لأعدائهم، ووضع كل منهم في مكانه الملائم على الخريطة، مع ملاحظة التمييز بالألوان المختلفة بين الأعداء العقائديين، وبين أعداء الفكر والسياسة والاقتصاد وما إلى ذلك، مع أخذ الإمكانات المتاحة بعين التقدير، مضافًا إلى ذلك ما يقدمه العلم، وما يعطيه التاريخ!

ومن الجدير بالإشارة في نهاية رحلة بناء الرسول ﷺ للدولة، من خلال هذه المعابر التاريخية، التي انتهت بالخندق.

ـ الجدير بالإشارة والتأكيد أن أعداء الإسلام الذين واجهوا المسلمين في الخندق، هم أنفسهم القوالب الفكرية التي يواجهها المسلمون اليوم، إنهم الأحزاب ذاتها.. اليهود... والوثنيون الماديون (الشيوعيون) المتضافرون مع اليهودية.. والمنافقون المتظاهرون بالإسلام، من ذيول التبشير، ورؤساء العشائر القومية وملوك الطوائف المنتشرين في ساحة العالم الإسلامي الفسيح!

إن هؤلاء الأحزاب ـ قدامى ومُحْدَثين ـ هم الجاهلية التي لن تقبل معايشتنا إلا برضوخنا لظلامها وضلالها وضياعها: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة:١٢٠]!

إنهم الجاهلية المحيطة بالخندق.. الخندق الذي لم نصنعه بعد، والذي ما زال فكرة غائمة في ضمير المسلمين المبعثرين، الباحثين عن «سلمان ﷺ» يفكر، وعن «نعيم ﷺ» ينفذ! حتى تسير القافلة الإسلامية المحاصرة باتجاه النصر المأمول، وحتى تُبنى الدولة الإسلامية المرتقبة، في ظلاله ﷺ امتدادًا لدولته الأولى، دولة الهجرة، دولة ما بعد الخندق! ». [في ظلال الرسول ﷺ لعويس ١٣٦-١٣٩].

١٤ ـ الخندق ميلاد حضارة:

يقول د/ عويس: «من الخندق دائمًا تولد الحضارات المبدعة.

ولم توجد حضارة وُلدت قبل معاناة الحمل والوضع والتعرض لمبضع الجراح.

وكانت الفترة التي بدأت بالهجرة، وانتهت بالخندق هي الفترة التي تعرض المسلمون فيها لآلام الحمل كأشد ما تكون المعاناة.

وثمة موقفان واضحا الدلالة على ميلاد الحضارة في الخندق لم يلقيا حقهما من التحليل الكافي، برغم ورودهما في معظم مصادر السيرة الزكية:

أولهما: يرويه سلمان الفارسي ﷺ ـ ودوره في الخندق مشهور ـ عندما غلظت عليه صخرة، وكان رسول الله ﷺ قريبًا منه.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَحُدِّثْتُ عَنْ سَلْمَانَ الفَارِسِيِّ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: ضَرَبْتُ فِي نَاحِيَةٍ مِنَ الخَنْدَقِ، فَغَلُظَتْ عَلَيَّ صَخْرَةٌ، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ قَرِيبٌ مِنِّي؛ فَلَمَّا رَآنِي أَضْرِبُ وَرَأَى شِدَّةَ المَكَانِ عَلَيَّ نَزَلَ فَأَخَذَ المِعْوَلَ مِنْ

يَدِي، فَضَرَبَ بِهِ ضَرْبَةً لَمَعَتْ تَحْتَ المِعْوَلِ بَرْقَةٌ، قَالَ: ثُمَّ ضَرَبَ بِهِ ضَرْبَةً أُخْرَى، فَلَمَعَتْ تَحْتَهُ بَرْقَةٌ أُخْرَى، قَالَ: ثُمَّ ضَرَبَ بِهِ الثَّالِثَةَ فَلَمَعَتْ تَحْتَهُ بَرْقَةٌ أُخْرَى، قَالَ: قُلت: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ الله! مَا هَذَا الَّذِي رَأَيْتُ لَمَعَ تَحْتَ المِعْوَلِ وَأَنْتَ تَضْرِبُ؟ قَالَ ﷺ: «**أَوَقَدْ رَأَيْتَ ذَلِكَ يَا سَلْمَانُ؟**» قَالَ: قُلتُ: نَعَمْ، قَالَ: «**أَمَّا الأَوَّلُ فَإِنَّ اللهَ فَتَحَ عَلَيَّ بِهَا اليَمَنَ، وَأَمَّا الثَّانِيَةُ فَإِنَّ اللهَ فَتَحَ عَلَيَّ بِهَا الشَّامَ وَالمَغْرِبَ، وَأَمَّا الثَّالِثَةُ فَإِنَّ اللهَ فَتَحَ عَلَيَّ بِهَا المَشْرِقَ**».

وثانيهما: تلك القولة القوية الدلالة التي قالها الرسول ﷺ لما انصرف عن الخندق: «**لَنْ تَغْزُوكُمْ قُرَيْشٌ بَعْدَ عَامِكُمْ هَذَا، وَلَكِنَّكُمْ تَغْزُوهُمْ**»، فكان ذلك حتى فتح الله مكة.. وما بعدها.

هكذا في أصعب لحظات الصراع الدموي.. كانت تولد ـ في ظلال النبوة ورؤيتها التاريخية التي لا تخطئ ـ الاستشرافات المستقبلة للحضارة الجديدة الممتدة الواسعة التي ستدين على سعتها وتباينها لفكر وسلوك النبي الكريم ﷺ وللصفوة القادرة، صانعة الخندق وحارسته.

[في ظلال الرسول ﷺ لعويس ١٤٦-١٤٧].

ويقول د/ زين السيد: «إن انتصار الإسلام في غزوة الخندق هو دون شك ميلاد جديد للرسالة المحمدية والأمة الإسلامية والدولة الفتية؛ لأن إيمان الجند بالله كان أمضى من الحسام وأقوى من الحديد، وأحمس من النار؛ لأنه من قوة الله، وفيه الملائكة والروح، ووراءه الأمل والنجاح.

وهكذا انتهت هذه الحرب بطرد الأحزاب المجتمعين خارج الخندق وانتصر المسلمون عليهم بفضل الله أولًا، ثم بما قام بعضهم من التخذيل بين الصفوف مما جعلهم قوة يُخشى بأسها، وشوكة في جانب كل من تسول له نفسه من الأعراب وغيرهم الذين كانوا يهدفون القضاء على الإسلام، والواقع أن المسلمين نالوا شرفًا وفخارًا بصمودهم وبطولاتهم فأصبحوا قوة مرهوبة الجانب يُخشى بأسها ويحسب حسابها.

وفي صبيحة يوم الأحزاب، وقد اطمأن النبي ﷺ إلى انصرافهم إلى بلادهم خائبين خاسرين عاد مع أصحابه إلى المدينة يملأ قلوبهم الفرح والسرور بما منحهم الله من الظفر والنصر المبين وبدأوا دورًا في الحياة جديدًا.

إن غزوة الخندق كانت معركة حاسمة فلو قُدر للأحزاب واليهود الانتصار فيها لتغير بذلك وجه التاريخ الإسلامي، فإن اليهود استطاعوا أن يجمعوا الأحزاب حول المدينة بمعاونة بني قريظة للقضاء على المسلمين، وهذا التجمع فرصة لن تتكرر أبدًا، وفَشَلُ الأحزاب في هذه المرة معناه أنهم لن يجتمعوا بعد هذا أبدًا، وأن اليهود لن يستطيعوا القضاء على المسلمين منفردين بعد عجزهم عليهم مجتمعين، ولهذه النتيجة أثر حاسم في انتشار الإسلام فيما بعد.

لقد انتقل المسلمون من دور الدفاع إلى دور الهجوم في نفس اليوم الذي انتهت فيه غزوة الخندق.

[الرسول القائد ﷺ لمحمود شيت خطاب ٢٢٩ بتلخيص شديد].

وساق النبي ﷺ إلى صحابته بشارة اطمأنت بها نفوسهم واستراحت لها قلوبهم، وهي ما رواه البخاري: «**الآنَ نَغْزُوهُمْ، وَلَا يَغْزُونَنَا، نَحْنُ نَسِيرُ إِلَيْهِمْ**».

فوقع الأمر كما قال النبي ﷺ فلم تغزهم قريش بعد ذلك أبدًا، وكان النبي ﷺ هو الذي يغزوها حتى فتح الله عليه مكة». [دور الحرب النفسية في غزوتي أُحد والأحزاب للسيد ١٧٥-١٧٦].

١٥ ـ حضارة زاحفة:

يقول د/ عويس: «ظهرت المدينة بعد الخندق ـ عملاقًا شب عن طوق الخوف من ضربات الداخل والخارج معًا، وقد بدأت تتجلى للعيون دولة فكرة زاحفة لا مجرد مدينة متناقضة الهوية مع العالم المحيط بها..

لقد سقطت قلاع اليهود الثلاث في داخلها..

ولقد فشل التجمع الجاهلي الذي أحاط بها إحاطة السوار بالمعصم، وأحس المسلمون بدبيب حياة جديدة في أوصالهم.

ولم تبعد الأيام، فقد بدأ شعور الوجود يعتمل في نفوس المسلمين، وبدأت مخيلاتهم ـ وهم الذين كانوا يعيشون في معتقل أسواره اليهود والوثنيون ـ ترنو لزيارة محاضن طفولتهم وأماكن مناسكهم التي أبيحت للناس جميعًا إلا أصحاب الحق الشرعي.

وكان الرسول ﷺ أسبقهم وأصدقهم إحساسًا، فرأى في منامه أنه دخل المسجد الحرام.

وانحسرت من الشعور والوجدان، قبل أن تنحسر على المستوى المادي الإستراتيجي سياسة الدفاع... وبدأت موجة الهجوم والرغبة في الأخذ بالثأر، وإيقاف الجاهلية عند حدودها ـ تأخذ مداها في المستويين النفسي والخارجي للمسلمين.

ولم يمض غير ستة أشهر ـ بعد الخندق ـ حتى بدأ الرسول ﷺ تنفيذ الإستراتيجية الجديدة.

[في ظلال الرسول ﷺ لعويس ١٤٨].

المبحث الخامس
الدروس العسكرية

١ ـ الخطة النبوية:

يقول د/ أبو فارس: «ولما وصل خبر مسير الأحزاب إلى رسول الله ﷺ جمع الصحابة من المهاجرين والأنصار، وأخبرهم بمسير الأحزاب، وتداول معهم الأمر فكان أمامه موقفان: إما أن يخرج ﷺ والمسلمون خارج المدينة لقتال الأحزاب، وإما أن يتحصن في المدينة ويتبع أسلوب القتال الدفاعي في المعركة.

ولقد اختار رسول الله ﷺ الموقف الثاني؛ ذلك لأن قوة الأحزاب ضخمة، وعددهم أضعاف عدد المسلمين، وعدتهم كذلك، فكفتهم راجحة، ولابد أن يعوض رسول الله ﷺ هذا بأن يختار موقعًا حصينًا يأوي إليه ويقاتل منه، ومن المعلوم عسكريًّا أن موقع المدافِع المتحصِّن أقوى من موقف المقاتِل المهاجِم؛ لأن الثاني مكشوف للأول، سهل الإصابة، بخلاف المتحصِّن فإنه غير مكشوف، من الصعب بل من العسير إصابته والقضاء عليه.

وحين استقر رأي رسول الله ﷺ والمسلمين على عدم المصادمة الخارجية والتحصن بالمدينة أشار سلمان الفارسي ﷺ بحفر خندق في الجهة المكشوفة من المدينة، يحول بين العدو وبين دخول المدينة، وفكرة حفر الخندق حول المدن فكرة عسكرية فارسية أخذها سلمان ﷺ عن قومه وأشار على رسول الله ﷺ بها بقوله: «**يَا رَسُولَ الله، إِنَّا إِذْ كُنَّا بِأَرْضِ فَارِسَ إِذَا حُوصِرْنَا خَنْدَقْنَا عَلَيْنَا**».

والذي يزور المدينة يلاحظ أنها محاطة بالجبال الوعرة الشاهقة والمساكن المتلاحقة التي تشكل بمجموعها حصنًا منيعًا يصعب الدخول منه من ثلاث جهات، وهناك الجهة الشمالية مكشوفة يتوقع الهجوم على المدينة منها، فينبغي أن تحصن هذه الجهة.

لقد كان من خطة الرسول ﷺ أن يعسكر أمام جبل سلع ليحمي ظهره، ويحفر الخندق أمامه ليصد هجمات الأحزاب.

وشيء مهم كان يشغل رسول الله ﷺ والمسلمين معه هو أمن النساء والصبيان، فأصدر ﷺ أمرًا بوضعهم في أماكن آمنة.

وإضافة إلى ذلك فقد خصص رسول الله ﷺ فرقة لحراسة المدينة مكونة من ثلاثمائة مقاتل، ثم شكل فرقة أخرى مكونة من مائتين، وظل المسلمون يحرسون الخندق لا تغفل أعينهم عنه لحظة واحدة، بما فيهم رسول الله ﷺ». [غزوة الأحزاب لأبي فارس ٩٥-٩٦].

٢ ـ كيفية وضع الخطة الحربية:

يقول أ/ فرج: «إن قائد جيش المسلمين ﷺ حين ألقى نظرة على الموقف بدأ يضع خطته على أساس الحقائق التالية:

أولًا: بالنسبة للعدو:

١ـ العدو متفوق في العدد والعدة والخيل والإبل.

٢ـ العدو يتخذ خطة الهجوم ويملك حرية الحركة والمناورة.

٣ـ التحالف ينبئ بشدة التصميم على خوض معركة كبيرة وإحراز نصر حاسم.

٤ ـ أنها معركة الثأر من بدر وأُحُد.

ثانيًا: بالنسبة لجيش المسلمين:

١ـ أقل عددًا وعدة.

٢ ـ يتخذ خطة الدفاع، فلا يملك ميزة المبادأة وحرية العمل.

٣- الروح المعنوية لدى المدافعين أقل منها عند المهاجمين، وكلما طال أمد الحصار كان ذلك في غير مصلحة المدافعين.

٤ـ على الرغم من الإيمان الصادق الذي تشربت به نفوس المسلمين إلا أن هناك عددًا من القوم لم يكتمل دينهم ولم تكتمل عقيدتهم ولم يصدق جهادهم.

٥ـ أن المعركة المرتقبة توشك أن تكون ذات أثر خطير؛ ولهذا رأى «القائد» أن يستخدم الحيلة وأن يصرف بعض الحلفاء ـ والحرب خدعة ـ فأراد ذلك حتى يجنب قومه معركة عنيفة ومصيرًا شديدًا.

ولكن «القائد» لم ينفرد باتخاذ القرار وإنما دعا معاونيه ـ أي أركان حربه ـ يستشيرهم فيما عقد عليه العزم، فراجعوه في الرأي وخالفوه في الاتجاه ولكن بأسلوب بلغ الغاية في احترام القائد وتقديس حرية الرأي، وأيضًا فإن «القائد» أرسى الديمقراطية في جيشه وبلغ الغاية في النزول على رأي الجماعة عندما استمع لهم واقتنع بحجتهم ووثق برجاحة فكرهم». [انتصارات عربية خالدة لفرج ٤١-٤٢].

٣ ـ القيادة الحازمة الرشيدة:

يقول ل/ خطاب: «عاجلنا أسلوب القيادة المرتبك عند الأحزاب ويهود، مما كان له أسوأ الأثر في نتيجة معركتهم.

وبقدر ما كانت قيادة الأحزاب واهنة، كانت قيادة المسلمين قوية حازمة رشيدة.

قرّر الرسول ﷺ البقاء في المدينة المنورة، وأمر بحفر الخندق، وانتخب منطقة الحفر في السهول الكائنة شمال المدينة، ووزع أعمال الحفر بالتساوي بين أصحابه، وسيطر على العمل، فلا يستطيع أحد ترك واجبه إلا بأمر منه، حتى أنجز أعمال حفر الخندق قبل وصول المشركين إلى المدينة المنورة.

واشتغل هو بنفسه بالحفر كبقية أصحابه تمامًا، بل استأثر دونهم بالأماكن الصلبة في منطقة حفر الخندق التي لم يستطع أصحابه التغلب عليها، كفلق الصخور القاسية!

ثم قسّم واجبات احتلال الموضع بين أصحابه، بحيث لا يغفل أحد عن شبر من الخندق ليلًا ونهارًا، على الرغم من برودة الطقس؛ وقد كان هو بنفسه لا يترك مقرّه إلا ليقوم بتفتيش الحرّاس والمواضع الدفاعية وليحرض المؤمنين على القتال ويرفع من معنوياتهم.

وأمّن حرسًا قويًّا للذراري الذين تركهم في دور المدينة.

وأهم من ذلك كله سيطرته على أصحابه عندما تأزّم الموقف حين وصلت الأحزاب إلى ضواحي المدينة بقوات متفوقة على المسلمين، وحين نكثت قريظة عهدها، فأصبح الخطر يهدّد المسلمين من داخل المدينة وخارجها». [الرسول القائد ﷺ لخطاب ٢٣٦-٢٣٧].

ويقول د/ الصلابي: «كانت هناك مجموعة من الأنصار تقوم بحراسة النبي ﷺ في كل ليلة على رأسهم عباد بن بشر ﷺ، فالنبي ﷺ هو القائد الأعلى وهو المشرف المباشر على إدارة المعركة، فهو الذي يرسم الخطط ويراقب تنفيذها فهو الذي:

(أ) أمر بحفر الخندق بعد أن تمت المشاورة في ذلك، فاختار مكانًا مناسبًا لذلك، وهي السهول الواقعة شمال المدينة، إذ كانت هي الجهة الوحيدة المكشوفة أمام الأعداء.

(ب) قسّم أعمال حفر الخندق بين الصحابة، كل أربعين ذراعًا لعشرة من الصحابة، ووكل بكل جانب جماعة يحفرون فيه.

(ج) سيطر ﷺ على العمل، فلا يستطيع أحد ترك عمله إلا بإذن منه ﷺ.

(د) قسم ﷺ واجبات احتلال الموضع بنفسه، بحيث تستمر الحراسة على كل شبر من الخندق ليلًا ونهارًا، ثم إنه ﷺ كان يقوم بمهمة الإشراف العام على الجند بتشجيعهم ورفع معنوياتهم.

(هـ) استطاع ﷺ لما يتمتع به من حنكة وبراعة سياسية مستمدة من شخصيته النبوية أن يمسك بزمام الأمور، وينقذ المؤمنين من الموقف الحرج الذي حدث لهم عندما وصلت الأحزاب إلى المدينة، وأصبح الخطر يهدد المدينة وما حولها [ينظر: القيادة العسكرية في عهد الرسول ﷺ للرشيد ص١١].

فقد توحدت قيادة المسلمين تحت زعامته ﷺ، فكان ذلك من أسباب كسب المعركة والفوز بها».

[السيرة النبوية للصلابي ٢/ ٢٦٤].

٤ ـ استخدام مبدأ المفاجأة:

المفاجأة هي: إحداث موقف لا يكون العدو مستعدًّا له، ويكون في الزمان والمكان والخطة.

يقول د/ الفنيسان: «وهو اصطلاح عسكري يُقصد به مباغتة العدو لإجباره على تبديل خطته، وقد فاجأ المسلمون أعداءهم في المكان والزمان والخطة، حيث كانت قريش تتوقع أن يكون ميدان القتال في أُحُد فكان الخندق مفاجأة لهم في المكان والخطة، فلما وقفوا أمام الخندق بُهتوا وقالوا: **وَاللهِ إِنَّ هَذِهِ لَمَكِيدَةٌ مَا كَانَتْ الْعَرَبُ تَكِيدُهَا**.

واستعمل المسلمون عامل الزمان بمفاجأة بني قريظة بسرعة لم يتوقعونها فوهنت عزائمهم وشلت معنوياتهم فاستسلموا». [غزوة الأحزاب للفنيسان ٢٣٨-٢٣٩].

ويقول عميد / فرج: «لقد وقفت كتائب الأحزاب حائرة أمام الخندق لا تدري ماذا تفعل؟!

لقد كانت الصورة في ذهنهم أنهم سيصلون إلى المدينة ثم يكون نزال يستغرق يومًا أو بعض يوم، ثم يعودون، وقد انتهت مهمتهم، وفرغوا من أمر محمد ﷺ وأصحابه ﵃، ولكن وضحت لهم الصورة بكل ملامحها، وتبين لهم أن الأمر ليس كما ظنوا، ومن هنا فقد بدأوا يعيدون تخطيطهم للغد ولما بعد الغد.

ترى ما هو رأي الفكر العسكري الحديث في هذا الموقف؟

قلنا: إن وجود الخندق كان مفاجأة، ومن هنا يبدأ الحديث.

فالمقصود بالمفاجأة اضطرار العدو للقتال في ظروف لا تمكنه من استخدام جميع قواته وموارده التي يتطلبها الموقف، ويقول كلاوزفتن: ليست المفاجأة بالوسيلة الوحيدة للحصول على التفوق العددي فقط، بل تعتبر أيضًا عنصرًا قائمًا بذاته، نظرًا لما لها من التأثير المعنوي الذي يؤدي عند نجاحه إلى إحداث الارتباك في صفوف الأعداء.

والمفاجأة أنواع، أهمها المفاجأة الإستراتيجية، وهى تعني أن القائد الماهر هو الذي يجتهد في أن يضع خصمه في الموضع الذي يصبح فيه مسلوب الإرادة مسيَّرًا ضد رغباته وإرادته، وتقوم هذه المفاجأة على عاملين هما: سرية الخطة، وسرعة إنجازها.

وفي ضوء هذا المعنى نستطيع أن نقول: إن رسول الله ﷺ قد حقق المفاجأة الإستراتيجية حين استجاب إلى الرأي القائل بحفر الخندق، وحين دعا إلى سرعة الحفر، ولقد ساعد المسلمون بصدق جهدهم وصبرهم على تحقيق هذه المفاجأة.

ولقد أسقطت هذه المفاجأة كل تدبير أعدته القوى المضادة، فقد وجدت الأحزاب نفسها في وضع لا يخطر على بالهم، وليس لهم به علم، فارتج الأمر عليهم، وأصبحوا مسلوبي الإرادة أمام نوع جديد من أساليب الحرب، هذا فوق التأثير المعنوي الذي فرضته هذه المفاجأة على نفسياتهم ومشاعرهم.

ومن جانب آخر فإن وجود الخندق يتطلب نوعًا خاصًا من القتال، ولا يمكن لجيش كبير العدد كجيش الأحزاب أن يشترك كله في هذا النوع من القتال؛ لأن القتال في مثل هذا الموقف يتطلب أعدادًا محدودة، تكون مهمتها اجتياز الخندق، ومن هنا يكون رسول الله ﷺ قد حرم الأحزاب من استخدام جميع قواتها، وبالتالي تظل هذا القوات في مواقعها دون واجبات قتالية؛ مما يساعد على تسلل الملل إلى النفوس فتضعف المعنويات وتهبط الرغبة القتالية ويفقد المقاتل حماسة القتال.

زد على ذلك أن القوات القليلة العدد التي قد تستطيع عبور الخندق تكون مع قلة عددها ومع اهتمامها بأن يتم العبور في سلامة وأمن غير معدة للقتال؛ لأنها ستكون هدفًا سهلًا، يتيسر صيده بالنبال والرماح والسهام.

وهكذا تكون قد تحققت كل أساليب النجاح للمسلمين وتأكدت كل أسباب الفشل أمام الأحزاب».

[العبقرية العسكرية في غزوات الرسول ﷺ لفرج ٢٨٣-٢٨٤].

٥ ـ من أهم أسلحة الحرب إعداد المفاجآت التي لا يتوقعها العدو:

يقول د/ فيض الله: «كان السلاح المعروف في الحرب في صدر الإسلام، هو السيف والسهام والنبال والقسي، وما يتصل بها، وكان الاعتماد على الدُّرْبة في استعمالها، والعضلات القوية المفتولة التي تهزها، عند المبارزة.

لكن حفر الخندق الذي اقترحه سلمان الفارسي ﷺ والذي حَصَّنَ المنطقة المكشوفة من المدينة، وأيأس الأحزاب من دخولها، هو المفاجأة التي ما كانوا يُقَدِّرُونَهَا، ولا تخطر ببالهم.

لقد حال الخندق دون الالتقاء والمبارزة الفعلية، إلا بين أفراد، وقهر الأحزاب، وأقعدهم أيامًا طوالًا حول المدينة، لا يجدون السبيل إليها، وعَرَّضهم بذلك لعض الجوع، وعصف الريح، ولسع البرد، فسرى اليأس إلى قلوبهم، فارتدوا على أعقابهم خاسرين.

كانت فكرة الخندق اقتراحًا تقدم به ذلك المسلم الفارسي، وسرعان ما لقي الموافقة والتأييد من المسلمين، ومن سيد المرسلين ﷺ، فانطلقوا يحفرون بقيادته ومساعدته مستبشرين، وهم يغنون ويرتجزون.

وهذا يدل على أن الرسول ﷺ كان في أصحابه أخًا لهم، وواحدًا منهم، يأخذ برأيهم، ويعمل باقتراحهم، ويحسن ما يحسنون، ـ فيما لم يتنزل به وحي ـ فلا استبداد، ولا تسلط، ولا سيطرة ولا تعال.

كما يشير إلى أن الرسول ﷺ والصحابة، يسيرون في درب واحد، ويستهدفون مقصدًا واحدًا، هو نُصرة هذا الدين، وحياة هذه الدعوة، فما لم يتنزل فيه الوحي، يبقى باب الرأي فيه مفتوحًا لجميعهم، في

ميادين الإدارة والسياسة والحرب والسلم وغيرها، يتداولون ويتشاورون ويفكرون ويقترحون، والرأي السليم، الذي يحقق مصلحة الدين، أو مصلحة الدعوة، ولا مصلحة وراءهما، هو الذي يرضى عنه جميعهم، وهو الذي يكبرونه ويقدرونه وينفذونه.

كما يشير أيضًا إلى أن الإسلام لم يقصد إلى التنصيص على كل حادثة، ولا أن يضع حُكْمًا لكل ما يَجِدُّ من الأحوال والظروف، بل وضع القواعد والمبادئ، وترك للمسلمين حرية التفكير والنظر والتأمل، والرجوع إلى أعظم موهبة أنعم الله بها عليهم، بعد الإسلام، وهي العقل، فليفكروا، ولينظروا وليتأملوا، ما وسعهم الأمر، وما لم يتنزل الشرع، وهذا من أوضح الدلائل على أن هذه الشريعة حية خالدة، تلائم مواكب التقدم والمدنية والحضارة، بما شرع لها الخالق، وبما تفيض به قرائح أفكارها، ومن ثم كانت هذه الأمة المسلمة، أمة فريدة نموذجية في تاريخ البشرية، لم يُعرف لها نظير، ولا يُعرف لها نظير...

وانظر بعد ذلك، واحكم وأنت مصيب في حكمك، ما أبسط أولئك الذين يريدون أن يتنزل نص في كل حادثة، وإذا لم يرد النص، تجمد الذهن، وعشي البصر، وانقطع الفكر!».

[صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة لفيض الله ٢٢٦-٢٢٧].

٦ـ فعالية الخندق في الدفاع عن المدينة:

يقول أ/ باشميل: «بعد حفر الخندق أصبحت المدينة كالحصن المنيع الذي لا يمكن الوصول إليها إلا عن طريق المغامرات الانتحارية، وبعد تضحيات باهظة جسيمة.

فقد كانت المدينة ـ بالإضافة إلى الخندق وهو خط الدفاع الرئيس ـ مشبكة بالبنيان ومحاطة بأشجار النخيل الكثيفة ولمسافات بعيدة، وغير النخيل من الزروع الأخرى بالإضافة إلى الحواجز الطبيعية الصعبة الكبرى، وهى الحرات الثلاث التي تكتنف المدينة من جهاتها الثلاث: حرة من الجنوب، وحرة واقم من الشرق، وحرة الوبرة من الغرب.

والحرات في منطقة المدينة تشكل حواجز طبيعية فعالة لا يستطيع أحد ـ راجلًا كان أم راكبًا ـ اجتيازها إلا بصعوبة كبيرة لأنها مزروعة بحجارة سوداء محروقة يكون لها ـ غالبًا ـ رؤوس جارحة كأطراف الآلات الحادة.

وهكذا وبحفر الخندق استطاعت قيادة الجيش الإسلامي أن تعزل جيوش العدو عن مكان تجمع الجيش الإسلامي المدافع عن المدينة عزلًا تامًا، وأن تَحول بينه وبين مداخل المدينة كما يريد؛ لأن هذه المداخل صارت بعد حفر الخندق خلفه ممنوعة به.

فقد حال الخندق بين الجيشين وبين أي التحام جدي شامل، وهذا هو الذي تهدف إليه القيادة الإسلامية، وتكرهه ولا تريد حدوثه قيادة جيوش الأحزاب التي ما حشدت تلك الحشود التي لم تشهد

الجزيرة مثلها إلا لتشتبك مع المسلمين في معركة فاصلة تهدف من ورائها إلى محو الكيان الإسلامي إلى الأبد.

لقد تحصن المسلمون وراء الخندق الواسع العميق الذي يبلغ طوله حوالي اثنين من الكيلومترات، الخندق الذي لا يجرؤ على اقتحامه إلا فارس فذ زاهد في الحياة، أما المشاة فلا سبيل لهم إلى اقتحامه أبدًا.

وقد استفاد الجيش الإسلامي من مناعة جبل سلع الذي جعله خلف ظهره، كما استفاد من وعورة حرة الوبرة لحماية جناحه الأيسر، ووعورة حرة واقم لحماية جناحه الأيمن، والحرة الجنوبية لحماية مؤخرته.

فأمن كليًا من خطر أي التفاف يقوم به العدو، فظهره إلى جبل سلع، ومن ورائه المدينة وأبنيتها المتشابكة ونخيلها المتلاصق مع الحرة وجناحاه محميتان بالحرتين مع جزء من الخندق، أما صدره فقد واجه به جيوش الأحزاب التي صار الخندق فاصلًا بينه وبينها.

وهكذا نجحت خطه الدفاع التي اتبعها المسلمون نجاحًا كاملًا، حيث صاروا بعد تطبيقها وكأنهم في قلعة منيعة يكون الموت مصير من تحدثه نفسه بالاقتراب منها من ناحية الخندق الشمالية التي لا يمكن لجيوش الأحزاب أن تقوم بأي قتال جدي وعلى نطاق واسع كما تريد إلا عن طريقها.

فكان الخندق بحق من أعظم الأعمال الدفاعية التي قام بها المسلمون لإحباط هجوم الأحزاب على المدينة، فقد وجد قادة الأحزاب المكان الذي حددوه ليكون هدف هجومهم الرئيس وهو مداخل المدينة الفسيحة الواقعة بين الحرتين، وجدوا هذا المكان تعسكر فيه جيوش الإسلام رابضة ليوثها وراء الخندق العميق، فتحطمت آمالهم وانهارت خططهم التي رسموها لاقتحام المدينة من الأساس».

[غزوة الأحزاب لباشميل ١٤٢-١٤٣].

ويقول د/ الحميدي: «ولقد كان لهذه الخطة الحربية أثر فعال في نجاح المسلمين في المعركة حيث أبطلوا بذلك مفعول سلاح الفرسان الذي يتفوق به الأعداء على المسلمين، واقتصر القتال على سلاح الرماية الذي لم يستفد منه الكفار كثيرًا لضعف استعدادهم في هذا المجال، ولبعد معسكر المسلمين نسبيًّا عن الخندق، ولقوة الحراسة من المسلمين وشدة انتباههم كما سيأتي».

[التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ١٠٧-١٠٨].

٧ ـ تعبئة جديدة:

يقول ل/ خطاب: «استفاد المسلمون من حفر الخندق للدفاع عن المدينة المنورة، وهذا الأسلوب الجديد من أساليب القتال يدخل في أساليب العرب الحربية لأول مرة في التاريخ.

إنَّ القائد العبقري هو الذي يستخدم أسلوبًا جديدًا أو سلاحًا جديدًا في القتال، والخندق هو الأسلوب الجديد الثاني الذي استخدمه الرسول ﷺ في القتال، بعد أن استخدم أسلوب الصفوف في معركة (بدر) كما رأينا.

لقد أخذ الرسول ﷺ بفكرة حفر الخندق من سلمان الفارسي ﷺ؛ لذلك قال فيه كلمته الخالدة: (سَلمانُ مِنَّا أَهْلَ البَيْتِ)، ليشجِّع على التفكير المفيد ويشيد بالعاملين للمصلحة العامة ويقطع دابر العصبيَّات». [الرسول القائد ﷺ لخطاب ٢٣٧-٢٣٨].

٨ ـ حفر الخندق كان خطة ناجحة لإبطال خطة الأحزاب:

يقول د/ أبو فارس: «استطاع الرسول ﷺ بحفر الخندق أن يعزل قوات العدو عن مكان التجمع الرئيس للقوات المدافعة عن المدينة، وأن تحول بينها وبين اقتحام مداخل المدينة؛ لأن هذه المداخل أصبح من الممكن حراستها بعد حفر الخندق.

وقد أفادت قوات المسلمين من مناعة جبل سلع الذي كان إلى يسارها وإلى الخلف، كما أفادت من وعورة حرة الوبرة لحماية جناحها الأيسر، ومن وعورة حرة واقم لحماية جناحها الأيمن، ومن الحرة الجنوبية وجبل عسير لحماية المؤخرة». [الرسول العربي وفن الحرب ١٩٦]. [غزوة الأحزاب لأبي فارس ٩٧].

٩ ـ أهمية الاستخبارات ودورها في جمع المعلومات:

يقول د/ الفنيسان: «لما قدم الأحزاب، بعث الرسول ﷺ رجلين من الصحابة، هما سليط وسفيان بن عوف ﷺ يستكشفان له خبرهم، فقبضوا عليهما وقُتلا شهيدين، ودُفنا في قبر واحدٍ، ويُطلق عليهما الشهيدان القرينان، كما أرسل الرسول ﷺ حذيفة بن اليمان ﷺ في آخر مدة الحصار، وقبله أرسل الزبير بن العوام ﷺ إلى بني قريظة يستطلع له خبرهم فوجدوهم على شر ما يكونون عليه».

[غزوة الأحزاب للفنيسان ٢٤٢].

ويقول أ/ حوى: «لقد برز لنا في أحداث هذه السنة ومن قبل كان بارزًا وسنرى ذلك دائمًا أن رسول الله ﷺ كانت تأتيه أخبار تحشدات الأعداء في أوائلها، فلم يكن يفاجأ بحادثة ولا تدبير يدبره الأعداء، وهذا يجعلنا أمام أهم قضية في الحرب والسلم، وهي قضية أجهزة المخابرات، إن العالم كله قد أدرك اليوم

أنه بقدر ما يكون جهاز المخابرات قويًا فإن ذلك يعوض عليك أشياء كثيرة ويجنبك أشياء خطيرة، صحيح أن ذلك قد يكلف ولكن مهما كانت التكلفة فالربح أكبر، إنه بالنسبة لأي نظام يشكل جهاز المخابرات عينه التي تكشف الخطأ والخطر فتتلافى الأخطاء وتستأصل الأخطار قبل وقوعها، ومهما يقال بالنسبة لأجهزة المخابرات فالمسألة أخطر وأكبر، وكل ما يمكن أن تحققه أجهزة المخابرات في العالم كان يتحقق لرسول الله ﷺ أحيانًا عن طريق عالم الأسباب وأحيانًا عن طريق الغيب، فكم من مؤامرة كشفها جبريل ؊، ولكن رسول الله ﷺ مع هذا لم يكن ليغفل فذلك تكليفه، ولقد كانت تتجمع عند رسول الله ﷺ المعلومات من مصادر متعددة، سراياه الاستطلاعية، المسلمون المتخفون، المتعاطفون مع المسلمين، المعاهدون، الفراسة واستكشاف ما وراء السطور، المهم أن رسول الله ﷺ ما كان يفاجأ بتآمر داخلي أو تهديد خارجي، وهذا يجعل المسلمين في عصرنا أمام قضية يجب أن يعطوها كامل الاعتبار، مع ملاحظة الضوابط الشرعية». [الأساس في السنة ـ السيرة لحوى ٢/ ٧١٢].

١٠ ـ الخطة الحربية لدى المتحزبين:

يقول الشيخ المسند: «وكانت خطة الأحزاب هي الوصول إلى المدينة مباشرة ودون توقف؛ لأنهم مدلون بقوتهم واثقون من المدد الداخلي موقنون بأن عدد المسلمين قليل إذا قيس بعددهم، وأن عتادهم الحربي لا يُذكر بجانب ما أحضروا من العدة التي بدأ تحضيرها من هزيمتهم... ولذلك لما شاهدهم الرعابيب وقليلو الإيمان تسللوا لواذًا واستأذن طائفة منهم رسول الله ﷺ في العودة، وأشاع بعضهم أنه لا قِبَل لنا بهم والأفضل الرجوع.

ولما وصلوا إلى المدينة يريدون اقتحامها فوجؤوا بالخندق، فسارع بعض الخيالة مقسمين أن يقتحموه فكان المجاهدون من المسلمين يقفون وراءه، فيأتي الفارس فيسقط فيبادر الجندي المسلم إلى ضرب عنق المهاجم، وهكذا كانت بداية سيئة للمشركين وضربة في وجوههم عملت رد فعل سريع لم يكونوا يتوقعونه وخاصة بعد أن تحدى المسلمين الشجاع الفاتك (عمرو بن عبد ود) واقتحم الخندق إلى المسلمين، فأمر رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب ؓ بمبارزته، فأقبل إليه علي ؓ فتجاولا فصرعه علي ؓ أمام أعين الفريقين». [متى ينتصر المسلمون؟ للمسند ٧٠-٧١].

١١ ـ تنظيم القيادة والسيطرة خلال المعركة الدفاعية:

«احتفظ الرسول ﷺ بالقيادة في يده على الدوام، ولم يترك جبهة القتال طوال أيام الحصار ساعة واحدة، تصرف كأي فرد منهم، وشارك جيشه في جميع مشاكله وساعات ضيقه، وهذا يشير كيف أن قيادته كانت في الذروة على الدوام». [النور الخالد محمد ﷺ لكولن ١٠٦].

ويقول عميد/ كاخيا: «كانت قيادة الرسول الكريم ﷺ خلال الحصار الذي دام مدة شهر ثابتة وحكيمة وشجاعة، وكانت سيطرته على قواته مستمرة طيلة هذه المدة الصعبة والأحوال القاسية والحرجة، فقد عالج ﷺ مسألة المنافقين ومسألة تآمر اليهود، ومسألة خوف وجزع المسلمين، ومسألة الإيقاع بين صفوف الأعداء بحكمة وتعقل وهدوء أعصاب، تندر في كثير من عظام القادة العسكريين، وخرج من المعركة ظافرًا منتصرًا مع جيشه المؤمن، وثبت أنه ﷺ كان يتواجد في أكثر الأماكن خطرًا، فكان يقرب مقر قيادته ليلًا على مشارف الخندق حتى ليسمع أحاديث وسمر الأعداء، وينتقل نهارًا إلى الأماكن التي تؤمن الإشراف والمساعدة للمسلمين». [الغزوات النبوية المطهرة لكاخيا ٧٣-٧٤].

١٢ ـ توحيد القيادة أهم عوامل النصر:

يقول د/ الفنيسان: «قاتل المسلمون يوم الأحزاب وكان لهم لواءان، أحدهما للمهاجرين، والآخر للأنصار، غير أن القيادة العامة للجيش كله كانت بيد الرسول ﷺ، وبها استطاع أن يسيطر سيطرة تامة على الموقف.

وكانت جيوش الأحزاب على العكس من هذا، فلم تكن لهم قيادة موحدة، بل كان لكل قبيلة قائد أو أكثر، وحتى القادة لم يستطيعوا أن يتحدوا فيما بينهم بأن يختاروا قائدًا منهم؛ لأن هذا القائد في نظرهم سينال الشرف، وكل قبيلة تريده لنفسها». [غزوة الأحزاب للفنيسان ٢٤٠].

١٣ ـ حسن اختيار حملة الرايات:

يقول د/ أبو فارس: «لقد كان رسول الله ﷺ في اختياره لحملة الرايات في غاية التوفيق، يدل على حسن معرفته لمعادن الرجال وخبرته بذلك، فيعطي القوس لباريها.

فزيد بن حارثة ﷺ بطل من أبطال المسلمين يتصف بشجاعة نادرة لا يهاب الموت يكر ولا يعرف الفرار، وحامل اللواء ينبغي أن يكون كذلك لأن سهام الموت توجه إليه من كل جانب، ولقد ظهر معدن زيد بن حارثة ﷺ بنصاعة في غزوة مؤتة حيث هو الأمير الأول الذي قاد الحفنة المؤمنة القليلة يتصدى بها ويواجه مائتي ألف صليبي حاقد، فيُقبل على الطعان حتى يستشهد.

أما سعد بن عبادة ﷺ فهو زعيم الخزرج وسيدهم وقائدهم، قد ورث الشجاعة كابرًا عن كابر، وحين يرى القوم زعيمهم يستلم الراية ويقاتل لتكون هي العليا تلتف حوله النفوس، وتهفو إليه القلوب، ويفدي بالأرواح والمهج، وتدب الحماسة للقتال، ولا يتأخر متأخر لأن القادة هم القدوة فهم في المقدمة أولًا».

[غزوة الأحزاب لأبي فارس ٩٨-٩٩، وقد سبق تفصيلها في سرية حمزة ﷺ إلى العيص ٢ هـ تحت نفس العنوان].

ويقول ل/ خطاب: «ومن المعلوم أن اللواء يحمله اعتياديًّا أشجع الشجعان؛ لأن الدفاع عنه وإبقاءه مرفوعًا دون أن يهوي إلى الأرض أو يُعفر بالتراب، لا يتم إلا لشجعان مشهود لهم بالشجاعة والإقدام والثبات، وقوة الأعصاب، والألمعية والذكاء». [قادة النبي ﷺ لخطاب ٥٨].

١٤ ـ وضع الأعلام والرايات لعموم قطاعات الجيش (١):

يقول د/ الفنيسان: «مضت سنة الرسول ﷺ أن يعقد الرايات والألوية لقادة الجيش إذا أراد الغزو، وعقد في هذه الغزوة لواءين، أحدهما للأنصار وأعطاه سعد بن عبادة ﷺ، والآخر للمهاجرين وأعطاه زيد بن حارثة ﷺ، وقد كانت للرسول ﷺ راية تدعى «العقاب» سوداء مربعة من نمرة، ولواؤه أبيض [ينظر: عون المعبود ٧/ ٢٥٤، ومجمع الزوائد ٥/ ٣٢١]، واللواء عادة أكبر من الراية، وهو بطول الرمح تصفق به الريح، فإذا طوي على رأس الرمح سمي «علمًا»، وقد اختلط اسم الراية باللواء على كثير من الناس فصار يعبر بأحدهما عن الآخر، وذلك تبعًا لاختلاف عُرْف أهل كل بلد عن الآخر، غير أن بينهما فروقًا منها:

١ ـ اللواء يكون كبيرًا ولونه أبيض، والراية أصغر منه ومختلفة الألوان، فأهل التاريخ والسير يذكرون أن لواء الرسول ﷺ كان أبيض ورايته سوداء، وقيل: إنها كانت خضراء، وقيل: إنها صفراء، فهم لا يذكرون الألوان إلا مع الرايات، ويقولون عن اللواء إنه مكتوب عليه «لا إله إلا الله».

والكتابة على اللون الأبيض أوضح من غيرها من الألوان، لا سيما لتُرى من مكان بعيد.

٢ ـ اللواء هو العلم العام للجيش، ويتمثل مركز القيادة العامة فيه، أما الرايات فهي أعلام صغيرة تدل على القبائل والوحدات التي يتألف منها الجيش. ويؤيد هذا أن قائد الجيش كثيرًا ما يقف على الرايات يحرض أصحابها على القتال ويقول: «**الزموا راياتكم فلا تميلوها**».

٣ ـ ثم ظهر بعد زمن مُسَمَّيَان أخريان لم يعرفا من قبل، هما البيارق والأعلام. فالبيارق جمع بيرق وهي تقابل الرايات، والأعلام يراد بها الألوية. والله أعلم». [غزوة الأحزاب للفنيسان ٢٤٤-٢٤٥].

١٥ ـ كلمة التعارف أو «سر الليل» عامل مهم في انضباط المعسكر (٢):

يقول د/ الفنيسان: «في ليلة من ليالي الخندق قال الرسول ﷺ لصحابته: «**إِنِّي لا أَرَى الْقَوْمَ إِلا مُبَيِّتِيكُمْ اللَّيْلَةَ**» وهذا توقع منه «**شعاركم: حم، لَا يُنْصَرُونَ**».

وبعث مرة إلى بني قريظة سعد بن معاذ وسعد بن عبادة وأسيد بن حضير يستطلعون خبر قريظة، وهل هو صحيح نقضهم العهد؟ «**فَإِنْ كَانَ حَقًّا فَالْحَنُوا لِي لَـحْنًا أَعْرِفُهُ، وَلَا تَفُتُّوا فِي أَعْضَادِ النَّاسِ**»، أي كَنُّوا في كلامكم بما لا يفهمه عامة الناس من المسلمين، حتى لا يصل الضعف والوهن إلى المسلمين، وحتى لا يتسرب الخبر إلى بني قريظة، وذهب الوفد فوجدوهم قد نقضوا عهدهم مع الرسول ﷺ فقالوا: يا رسول الله ﷺ عضل والقارة، أي كغدر عضل والقارة بأصحاب الرجيع».

[غزوة الأحزاب للفنيسان ٢٤٢].

---

(١) سبق تفصيل الحديث عنها في سرية حمزة ﷺ إلى العيص ٢ هـ، تحت عنوان: «**أهمية اتخاذ الألوية والرايات في الإسلام**».

(٢) سبق تفصيل الحديث عنها في الدروس العسكرية المستفادة من المرحلة الثانية من غزوة بدر الكبرى، تحت عنوان: «**أهمية الشارة والشعار في المعارك**».

١٦ ـ تبادل الحراسة وتعاهد الثغرات:

يقول د/ الفنيسان: «تقول عائشة رضي الله عنها وكانت مع الرسول ﷺ في يوم الخندق: «كُنْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ بِالخَنْدَقِ فَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَتَعَاهَدُ ثُغْرَةً مِنَ الجَبَلِ يَخَافُ مِنْهَا فَيَأْتِي فَيَضْطَجِعَ فِي حِجْرِي، ثُمَّ يَقُومُ فَيَتَسَمَّعُ، فَسَمِعَ حِسَّ إِنْسَانٍ عَلَيْهِ الحَدِيدُ، فَانْسَلَّ فِي الجَبَلِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ هَذَا؟»، قَالَ: **أَنَا سَعْدُ، جِئْتُكَ لِتَأْمُرَنِي بِأَمْرِكَ**، فَأَمَرَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ يَبِيتَ فِي تِلْكَ الثُّغْرَةِ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها: فَنَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي حِجْرِي حَتَّى سَمِعْتُ غَطِيطَهُ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها: لا أَنْسَاهَا لِسَعْدٍ. [مجمع الزوائد ٦/ ١٩٦-١٩٧ في المغازي والسير (١٠١٥٢)، وقال الهيثمي: رواه البزار [كشف الأستار عن زوائد البزار ٢/ ٣٣٣ رقم ١٨٠٦] عن شيخه عبد الله بن شبيب وهو ضعيف، وفي الصحيح طرف منه]. [غزوة الأحزاب للفنيسان ٢٤٢-٢٤٣].

١٧ ـ المتابعة الدؤوبة لتنفيذ القرار:

يقول د/ الغضبان: «فليس القائد هو الذي يصدر قراره ويمضي، ولا يدري ما هو واقع هذا القرار في عالم التنفيذ، إنما القائد هو الذي يُمضي وقته ليلًا ونهارًا ساهرًا على تنفيذ قراره.

لقد تمت عملية حفر الخندق بأعلى مستوى من التنفيذ والإنجاز، إلا مكانًا واحدًا ضيقًا، وثلمة كان يمكن أن ينفذ منها العدو، وذلك إما لخلل في التنفيذ، أو لصعوبة في الأرض قاسية حالت دون الاتساع المطلوب، ومنها كان الفوارس يقتحمون الخندق، ويدخلون الأرض الإسلامية، فكيف كان ﷺ يعيش بأعصابه مع هذا الثلمة أو هذه الثغرة؟!

تقول عائشة رضي الله عنها: لَقَدْ رَأَيْتُ لِسَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ لَيْلَةً، وَنَحْنُ بِالخَنْدَقِ لا أَزَالُ أُحِبُّهُ أَبَدًا، قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَخْتَلِفُ إِلَى ثَلْمَةٍ فِي الخَنْدَقِ يَحْرُسُهَا، حَتَّى إِذَا آذَاهُ البَرْدُ جَاءَنِي فَأَدْفَأْتُهُ فِي حِضْنِي، فَإِذَا دَفِئَ خَرَجَ إِلَى تِلْكَ الثَّلْمَةِ يَحْرُسُهَا وَيَقُولُ: «**مَا أَخْشَى أَنْ يُؤْتَى النَّاسُ إِلَّا مِنْهَا**».

فَبَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي حِضْنِي قَدْ دَفِئَ وَهُوَ يَقُولُ: «**لَيْتَ رَجُلًا صَالِحًا يَحْرُسُنِي**»، قَالَتْ: إِلَى أَنْ سَمِعْتُ صَوْتَ السِّلاحِ وَقَعْقَعَةَ الحَدِيدِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ هَذَا؟» فَقَالَ: سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ، قَالَ: «**عَلَيْكَ بِهَذِهِ الثَّلمَةِ فَاحْرُسْهَا**».

قَالَتْ: وَنَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّى سَمِعْتُ غَطِيطَهُ. [المغازي للواقدي ٢/ ٤٦٣].

ورسول الله ﷺ هو بشخصه يحرس الثلمة، ويترك زوجه الحبيب بنت الرابعة عشرة ليمضي إلى محرسه، وعندما سمع صوت قعقعة سعد رضي الله عنه لم يطلب منه أن يحرسه، بل طلب منه أن يمضي إلى تلك الثلمة، فيحرسها، بينما يكون دائمًا هَمُّ قواد الأرض حماية أشخاصهم، والحرس الملكي، والحرس الجمهوري فيه من الأسلحة والعتاد والقوات ما يعادل أو يفوق الجيوش النظامية، في أيامنا المعاصرة.

هذه ليلة عائشة رضي الله عنها، وقد حدثتنا عن سيد ولد آدم ﷺ: لم تذق عيناه النوم حتى اطمأن على تلك الثلمة.

وهذه النوبة الأخرى لأم سلمة ﵂ تحدثنا عما شاهدت في ليلتها في قلب المعركة: عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي بَكْرِ بْنِ حَزْمٍ، قَالَ: قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: كُنْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي الخَنْدَقِ فَلَمْ أُفَارِقْهُ مَقَامَهُ كُلَّهُ، وَكَانَ يَحْرُسُ بِنَفْسِهِ فِي الخَنْدَقِ، وَكُنَّا فِي قُرٍّ شَدِيدٍ، فَإِنِّي لأَنْظُرُ إِلَيْهِ قَامَ فَصَلَّى مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يُصَلِّيَ فِي قُبَّتِهِ، ثُمَّ خَرَجَ فَنَظَرَ سَاعَةً فَأَسْمَعُهُ يَقُولُ: «**هَذِهِ خَيْلُ الْمُشْرِكِينَ تُطِيفُ بِالخَنْدَقِ مَنْ لَـهُمْ؟**» ثُمَّ نَادَى: «**يَا عَبَّادَ بْنَ بِشْرٍ**»، فَقَالَ عَبَّادٌ ﵁: لَبَّيْكَ، قَالَ: «**أَمَعَكَ أَحَدٌ؟**» قَالَ: نَعَمْ أَنَا فِي نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِي كُنَّا حَوْلَ قُبَّتِكَ.

قَالَ: «**فَانْطَلِقْ فِي أَصْحَابِكَ فَأَطِفْ بِالخَنْدَقِ فَهَذِهِ خَيْلٌ مِنْ خَيْلِهِمْ تُطِيفُ بِكُمْ يَطْمَعُونَ أَنْ يُصِيبُوا مِنْكُمْ غِرَّةً، اللَّهُمَّ ادْفَعْ عَنَّا شَرَّهُمْ، وَانْصُرْنَا عَلَيْهِمْ، وَاغْلِبْهُمْ لا يَغْلِبُهُمْ غَيْرُكَ**»، فَخَرَجَ عَبَّادُ بْنُ بِشْرٍ فِي أَصْحَابِهِ، فَإِذَا بِأَبِي سُفْيَانَ فِي خَيْلٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ يُطِيفُونَ بِمَضِيقِ الخَنْدَقِ، وَقَدْ نَذَرَ بِهِمُ الْمُسْلِمُونَ فَرَمَوْهُمْ بِالحِجَارَةِ وَالنَّبْلِ، فَوَقَفْنَا مَعَهُمْ فَرَمَيْنَاهُمْ حَتَّى أَذْلَقْنَاهُمْ (أضعفناهم) بِالرَّمْيِ فَانْكَشَفُوا رَاجِعِينَ إِلَى مَنْزِلِهِمْ، وَرَجَعْتُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَأَجِدُهُ يُصَلِّي فَأَخْبَرْتُهُ.

قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ ﵂: فَنَامَ حَتَّى سَمِعْت غَطِيطَهُ، فَمَا تَحَرَّكَ حَتَّى سَمِعْتُ بِلالاً يُؤَذِّنُ بِالصُّبْحِ وَبَيَاضِ الفَجْرِ، فَخَرَجَ فَصَلَّى بِالـمُسْلِمِينَ، فَكَانَتْ تَقُولُ: يَرْحَمُ اللهُ عَبَّادَ بْنَ بِشْرٍ، فَإِنَّهُ كَانَ أَلْزَمَ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ لِقُبَّةِ رَسُولِ اللهِ يَحْرُسُهَا أَبَدًا. [المغازي للواقدي ٢/ ٤٦٣-٤٦٤].

وهذه ليلة ثانية من ليالي أم سلمة ﵂ تحدثنا فيها عن رسول الله ﷺ كيف أمضى ليله: عَنْ عَبْدِ الوَاحِدِ بْنِ أَبِي عَوْنٍ، عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَتْ: وَاللهِ إِنِّي لَفِي جَوْفِ اللَّيْلِ فِي قُبَّةِ النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ نَائِمٌ إِلَى أَنْ سَمِعْتُ الهَيْعَةَ، وَقَائِلٌ يَقُولُ: يَا خَيْلَ اللهِ، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ جَعَلَ شِعَارَ الْمُهَاجِرِينَ: يَا خَيْلَ اللهِ، فَفَزِعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِصَوْتِهِ فَخَرَجَ مِنَ القُبَّةِ، فَإِذَا نَفَرٌ مِنَ الصَّحَابَةِ عِنْدَ قُبَّتِهِ يَحْرُسُونَهَا، مِنْهُمْ عَبَّادُ بْنُ بِشْرٍ ﵁، فَقَالَ: «**مَا بَالُ النَّاسِ؟**» قَالَ عَبَّادٌ ﵁: يَا رَسُولَ اللهِ هَذَا صَوْتُ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ، اللَّيْلَةَ نَوْبَتُهُ يُنَادِي: يَا خَيْلَ اللهِ! وَالنَّاسُ يَثُوبُونَ إِلَيْهِ، وَهُوَ مِنْ نَاحِيَةِ حُسَيْكَةَ مَا بَيْنَ ذُبَابٍ وَمَسْجِدِ الفَتْحِ.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِعَبَّادِ بْنِ بِشْرٍ ﵁: «**اذْهَبْ فَانْظُرْ، ثُمَّ ارْجِعْ إِلَيَّ إِنْ شَاءَ اللهُ فَأَخْبِرْنِي**»، قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ ﵂: فَقُمْتُ عَلَى بَابِ القُبَّةِ أَسْمَعُ كُلَّ مَا يَتَكَلَّمَانِ بِهِ، قَالَتْ: فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَائِمًا حَتَّى جَاءَهُ عَبَّادُ بْنُ بِشْرٍ ﵁، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! هَذَا عَمْرُو بْنُ عَبْدٍ فِي خَيْلِ الـمُشْرِكِينَ مَعَهُ مَسْعُودُ بْنُ رُخَيْةَ بْنِ نُوَيْرَةَ بْنِ طَرِيفِ بْنِ سُحْمَةَ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ هِلالِ بْنِ خَلاوَةَ بْنِ أَشْجَعَ بْنِ رَيْثِ بْنِ غَطَفَانَ، فِي خَيْلِ غَطَفَانَ، وَالـمُسْلِمُونَ يُرَامُونَهُمْ بِالنَّبْلِ وَالحِجَارَةِ.

قَالَتْ: فَدَخَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَلَبِسَ دِرْعَهُ وَمِغْفَرَهُ وَرَكِبَ فَرَسَهُ وَخَرَجَ مَعَهُ أَصْحَابُهُ حَتَّى أَتَى تِلْكَ الثَّغْرَةَ، فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ رَجَعَ وَهُوَ مَسْرُورٌ، فَقَالَ: «**صَرَفَهُمْ اللهُ وَقَدْ كَثُرَتْ فِيهِمْ الجِرَاحَةُ**».

قَالَتْ: فَنَامَ حَتَّى سَمِعْتُ غَطِيطَهُ، وَسَمِعْتُ هَائِعَةً أُخْرَى، فَفَزِعَ فَوَثَبَ فَصَاحَ: «يَا عَبَّادُ بْنَ بِشْرٍ»، قَالَ: لَبَّيْكَ، قَالَ: «انْظُرْ مَا هَذَا»، فَذَهَبَ ثُمَّ رَجَعَ، فَقَالَ: هَذَا ضِرَارُ بْنُ الخَطَّابِ فِي خَيْلٍ مِنَ الـمُشْرِكِينَ مَعَهُ عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنٍ فِي خَيْلِ غَطَفَانَ عِنْدَ جَبَلِ بَنِي عُبَيْدٍ، وَالـمُسْلِمُونَ يُرَامُونَهُمْ بِالحِجَارَةِ وَالنَّبْلِ، فَعَادَ رَسُولُ الله ﷺ فَلَبِسَ دِرْعَهُ وَرَكِبَ فَرَسَهُ، ثُمَّ خَرَجَ مَعَهُ أَصْحَابُهُ إِلَى تِلْكَ الثَّغْرَةِ، فَلَمْ يَأْتِنَا حَتَّى كَانَ السَّحَرُ فَرَجَعَ وَهُوَ يَقُولُ: «رَجَعُوا مَفْلُولِينَ قَدْ كَثُرَتْ فِيهِمْ الجِرَاحَةُ»، ثُمَّ صَلَّى بِأَصْحَابِهِ الصُّبْحَ وَجَلَسَ، فَكَانَتْ أُمُّ سَلَمَةَ تَقُولُ: قَدْ شَهِدْتُ مَعَهُ مَشَاهِدَ فِيهَا قِتَالٌ وَخَوْفٌ ـ الـمُرَيْسِيعَ، وَخَيْبَرَ، وَكُنَّا بِالحُدَيْبِيَةِ، وَفِي الفَتْحِ، وَحُنَيْنٍ ـ لَمْ يَكُنْ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ أَتْعَبُ لِرَسُولِ الله ﷺ وَلا أَخْوَفُ عِنْدَنَا مِنَ الخَنْدَقِ، وَذَلِكَ أَنَّ المُسْلِمِينَ كَانُوا فِي مِثْلِ الحَرَجَةِ، وَأَنَّ قُرَيْظَةَ لا نَأْمَنُهَا عَلَى الذَّرَارِيِّ، وَالمَدِينَةُ تُحْرَسُ حَتَّى الصَّبَاحِ يُسْمَعُ تَكْبِيرُ المُسْلِمِينَ فِيهَا حَتَّى يُصْبِحُوا خَوْفًا، حَتَّى رَدَّهُمْ اللهُ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا، وَكَفَى اللهُ الـمُؤْمِنِينَ القِتَالَ. [المغازي للواقدي ٢/ ٤٦٦-٤٦٨].

وبقي حال النبي ﷺ ذلك حتى أمكن إصلاح هذه الثغرة.

قال الواقدي: فَحَدَّثَنِي أَيُّوبُ بْنُ النُّعْمَانِ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: كَانَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ ﷺ يَحْرُسُ الخَنْدَقَ فِي أَصْحَابِهِ، فَانْتَهَوْا إِلَى مَكَانٍ مِنَ الخَنْدَقِ تَطْفُرُهُ (طفر: وثب في ارتفاع، وطفر الحائط: وثبه إلى ما وراءه) الخَيْلُ، فَإِذَا طَلِيعَةٌ مِنَ المُشْرِكِينَ مِائَةُ فَارِسٍ أَوْ نَحْوُهَا، عَلَيْهِمْ عَمْرُو بْنُ العَاصِ يُرِيدُونَ أَنْ يُغِيرُوا إِلَى المُسْلِمِينَ، فَقَامَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ ﷺ عَلَيْهَا بِأَصْحَابِهِ، فَرَمَوْهُمْ بِالحِجَارَةِ وَالنَّبْلِ حَتَّى أَجْهَضُوا عَنَّا وَوَلَّوْا.

وَكَانَ فِي الـمُسْلِمِينَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ سَلْمَانُ الفَارِسِيُّ ﷺ، فَقَالَ لأُسَيْدٍ ﷺ: إِنَّ هَذَا مَكَانٌ مِنَ الخَنْدَقِ مُتَقَارِبٌ، وَنَحْنُ نَخَافُ تَطْفُرَهُ خَيْلُهُمْ، وَكَانَ النَّاسُ عَجِلُوا فِي حَفْرِهِ، وَبَادَرُوا فَبَاتُوا يُوَسِّعُونَهُ حَتَّى صَارَ كَهَيْئَةِ الخَنْدَقِ، وَأَمَّنُوا أَنْ تَطْفُرَهُ خَيْلُهُمْ، وَكَانَ المُسْلِمُونَ يَتَنَاوَبُونَ الحِرَاسَةَ، وَكَانُوا فِي قُرٍّ شَدِيدٍ وَجُوعٍ. [المغازي للواقدي ٢/ ٤٦٤-٤٦٥].

وعندها أمكن للنبي القائد ﷺ أن تقرَّ عينه بعد أن سُدَّت تلك الثغرة، ويطمئن إلى سلامة التنفيذ في قراره». [التربية القيادية للغضبان ٤/ ٣٠-٣٣].

١٨ ـ مقارنة بين القوتين [غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٦٣-١٦٥]:

(أ) **من حيث القيادة**: قيادة الأحزاب قيادة غير منسجمة ولا متماسكة، ولا متحدة، فكل قبيلة قيادتها مستقلة عن الأخرى، والتنسيق بينها يكاد يكون منعدمًا.

ويصف الزعيم الركن محمود شيت خطاب قيادة المشركين وصفًا دقيقًا، فيقول: (لم تكن للأحزاب قيادة موحدة، تستطيع السيطرة على جميع القوات المتيسرة، وتوجيهها للعمل الحاسم في الوقت الحاسم.

كان لكل قبيلة قائد، بل عدة قواد، ولم يستطع هؤلاء القادة تنظيم خطة موحدة للهجوم على المسلمين، وقد كان من المستحيل اتفاقهم على قائد منهم، ليسيطر على الجميع؛ لأن هذا القائد سينال شرفًا عظيمًا يمتاز به على الآخرين، ولا يمكن للآخرين أن يقبلوا بهذا الامتياز.

لقد كانت النعرة الجاهلية لا الهدف المشترك هي التي تسيطر على القيادة، ولا يمكن أن تنجح مثل هذه القيادة في أي موقف بأي معركة، حتى ولو كانت لها كل الظروف المواتية ـ كما في غزوة الخندق ـ بالنسبة للأحزاب واليهود.

وكانت الثقة بين الأحزاب أنفسهم من جهة وبينهم وبين اليهود من جهة أخرى واهنة جدًّا، بل لم تكن هناك ثقة على الإطلاق.

قريش تريد القضاء على المسلمين بالإفادة من جهود القبائل واليهود، والقبائل تريد الأسلاب بالدرجة الأولى، من أي مصدر كان، ولو وقعت أموال أحلافهم بني قريظة بأيديهم لأخذوها أيضًا.

واليهود لا يثقون بالجميع ويريدون القضاء على المسلمين بدماء قريش والقبائل الأخرى.

(وهكذا انعدمت الثقة لتفرق الأهداف والمقاصد). [الرسول القائد ﷺ ص ١٥٤ - ١٥٦].

أما القيادة المسلمة وعلى رأسها رسول الله ﷺ فهي قيادة ناجحة لقوتها وحزمها ويقظتها وحذرها الشديد، ولإخلاصها، وهي في نفس الوقت ليست قيادة مستبدة متسلطة تنفرد باتخاذ القرار، بل قيادة شورية، تحرص على أن تستشير أهل الرأي والحكمة والتدبير، ولا تجد غضاضة في الأخذ برأيهم، وإن كان يخالف رأيها.

أما القاعدة فهي تثق بقيادتها الحازمة الرشيدة ثقة مطلقة، وتطيع الأوامر الصادرة عنها دون تردد، وليس لواحد من القاعدة أطماع مادية أو مآرب شخصية يريد تحقيقها، تحمله على الاختلاف مع قيادته، فليس لواحد منهم رغبة في الزعامة ينافس القيادة عليها.

كانت القاعدة بجميع عناصرها منضبطة متعاونة مع القيادة لإنجاحها، ودعمها؛ لأن الهدف واحد للطرفين والمقصد واحد، ويوم أن يتوحد الهدف والمقصد للقيادة والقاعدة تكون فرص النصر كثيرة وإمكانية النصر قريبة.

(ب) **من حيث العدد والعُدَّة**: تذكر كتب السيرة أن جيوش الأحزاب قد بلغت عشرة آلاف[1]

---

(١) وقد ذكر المسعودي ؒ في كتابه مروج الذهب ص ٢١٦، أن عدد الأحزاب أربعة وعشرون ألفًا، وهذا كما ترى مخالف لما عليه جماهير العلماء وكتاب السير والتاريخ، إلا إذا اعتبر الأحزاب جميع أفراد القبائل التي اتفقت على حرب رسول الله ﷺ ويدخل في ذلك الذين خرجوا للقتال والذين لم يخرجوا للقتال.

مقاتل، ومعهم من الجمال ألفان وخمسمائة ومن الخيول ثلاثمائة فرس.

[ينظر: الطبقات الكبرى لابن سعد ٢/ ٦٦، والرسول العربي ﷺ وفن الحرب ص ١٩٣].

أما المسلمون فقد بلغوا ثلاثة آلاف مقاتل، وكان معهم من الخيول ست وثلاثون فرسًا، ذكر ذلك صاحب سمط النجوم العوالي عن ابن سعد في طبقاته».

[سمط النجوم العوالي ٢/ ١٢٧، وينظر: الطبقات الكبرى لابن سعد ٢/ ٧٤].

[غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٦٣-١٦٥].

١٩- دقة موقف المسلمين:

يقول أ/ باشميل: «لقد كان كل شيء مادي يوحي (على نحو ساحق) بأن الغلبة ستكون للأحزاب على المسلمين وأن نهايتهم في (حساب التقدير العسكري المجرد) أمر مفروغ منه؛ وذلك للأسباب الآتية:

(١) **قوة العدو الساحقة المتفوقة في كل شيء مادي:** فقد أطبقت على المدينة عشرة آلاف مقاتل من العرب القرشيين والغطفانيين، مجهزين أحسن تجهيز، وكلهم غيظ وحنق على المسلمين، يساند هذه القوات العسكرية الضخمة رأس المال اليهودي الطاغي، ويخطط لها الفكر الإسرائيلي الماكر الخبيث.

يقابل كل هذه القوات الضخمة في الجانب الآخر (المسلمين) ألف مقاتل فقط (أو ثلاثة آلاف على الأكثر) هم دون هذه القوة في كل شيء مادي سوى الإيمان.

[وهكذا وقف الفريقان أمام الخندق وجهًا لوجه: المسلمون في قلة عددهم وضعف عدتهم، والمشركون في كثرة جموعهم وضخامة استعدادهم، «ولكن شتان بين قوة متماسكة بأمل واحد وإيمان واحد، وبين أناس متفرقين ليست لهم غاية مشتركة تجمع قلوبهم، لقد كان جمع الأحزاب كامل العَدد والعُدد من الناحية المادية، ولكن لم تكن هناك الروابط التي تحملهم على الإخلاص والتعاون في القتال، ولأول لحظة بدا أن أبا سفيان إنما هو قائد الجيش اسمًا لا حقيقة، فقد كان كل من خرج على رأس قوة يرى نفسه أهلًا للقيادة، وأهلًا لأن تكون له الصدارة والرأي الأول».

[صور من حياة الرسول ﷺ للدويدار ٢/ ١٨٣ نقلًا عن محمد القائد ﷺ].

(٢) **نقض اليهود للعهد:** وبالإضافة إلى الخطر المدمر الذي وقف جيش الإسلام بأكمله لمواجهته، والمتمثل في هذه الحشود القرشية والنجدية الهائلة، تعرض هذا الجيش لرجة مزلزلة مخيفة وهي غدر يهود بني قريظة، بنقضهم العهد وانضمامهم -وهم وراء خطوط جيش الإسلام- إلى الغزاة في تلك الساعات الرهيبة الحاسمة.

فقد كانت هناك معاهدة دفاع مشترك بين المسلمين ويهود بني قريظة كان المفروض أن يكون اليهود بموجبها جزءًا من الجيش المدافع عن المدينة.

ولكن اليهود بدلًا من أن يشدوا من أزر حلفائهم المسلمين فيقفوا بجانبهم ضد الغزاة المعتدين، انضموا إلى هؤلاء الغزاة وصاروا - وهم حوالي ألف مقاتل - قوة معادية للجيش الإسلامي تتحفز للانقضاض عليه من الخلف، فكان هذا العمل الشائن من اليهود ضربة موجعة وتهديدًا خطيرًا لا تقل فعاليته عن فعالية القوات الرئيسة الغازية.

لأن التهديد المفاجئ من الخلف لأي جيش - وهو في حالة مواجهة للعدو - قد يكون أشد خطرًا عليه من القوة الرئيسة التي يواجهها.

وفعلًا لقد كان لنقض اليهود العهد وانضمامهم إلى الغزاة أسوأ الأثر بين صفوف جيش المدينة الصغير، حيث تأزمت الحالة، واستحكمت المحنة وتحرج الموقف إلى درجة فكر معها النبي القائد ﷺ في أن يعقد صلحًا منفردًا مع قادة غطفان ينصرفون بموجبه عن المدينة على أن يعطي لهم مقابل ذلك ثلث ثمار المدينة، وذلك سعي من النبي ﷺ لتخفيف الضغط العسكري الخانق الذي يتعرض له جيش الإسلام.

(٣) **عنصر المنافقين والمرجفين الموجودين داخل جيش الإسلام كجزء منه**: فقد كان هذا العنصر من أشد البلايا على جيش الإسلام المدافع عن المدينة، حيث ظهر هذا العنصر الخبيث على حقيقته والمسلمون في أقصى درجات المحنة.

فبعد أن نقض اليهود العهد، وآذنوا المسلمين بالحرب تحركت عوامل الخسة والدناءة المتأصلة في نفوس هؤلاء المنافقين الذين يُظهرون الإسلام ويُبطنون الكفر، فأخذوا - في تلك الساعات الرهيبة التي يجتازها الكيان الإسلامي - ينسحبون من الجيش، على شكل تسلل، واستئذان مشبوه أحيانًا، مُحدثين بذلك تصدعات خطيرة في معنويات الجند المدافع عن المدينة.

ولم يكتف المنافقون بذلك بل راحوا يشيعون روح الهزيمة في الجيش ويعملون - علنًا - على إشاعة الخوف والفزع داخل صفوفه، حتى أخذ عدده يتناقص إلى أن وصل في الليالي الأخيرة من المعركة إلى ثلاثمائة مقاتل (فقط)، الأمر الذي ضاعف من متاعب قيادة المدينة إلى درجة لا مزيد عليها.

[ينظر حديث حذيفة رضي الله عنه في عرض الغزوة].

(٤) **العوز وحالة الفقر مع برودة الطقس وشدة الرياح**: وبالإضافة إلى هذه الأمور الخطيرة المخيفة التي واجهتها قيادة المدينة، كان عام الأحزاب عام مجاعة وجدب بالنسبة للمسلمين، وكان الفصل فصل برد قارس ورياح هوج، وقد روى الثقاة من المؤرخين أن كثيرًا من المسلمين، يمر بهم اليوم واليومان لا يذوقون فيها طعامًا، وأن النبي ﷺ كما روى البخاري كان يربط الحجر على بطنه من شدة الجوع.

بينما كانت جيوش الأحزاب - من الناحية الأخرى - مزودة بكل المؤن الغذائية اللازمة، ويقف - مع هذا - من ورائها اليهود - وهم ملوك المال - يسدون بما لديهم من ثروات طائلة أي نقص يحدث في تموين جيوش الغزاة.

وقد رأينا كيف كان بنو قريظة يرسلون القوافل محملة بالمؤن إلى جيوش الأحزاب، وكيف وقعت إحدى هذه القوافل في أيدي إحدى دوريات جيش المدينة فصادرتها، وكانت عشرين بعيرًا، فخفف الله بأحمالها من ضائقة المسلمين.

كل هذه العوامل والأسباب كانت توحي ـ لأول وهلة وعلى نحو لا يقبل النقاش ـ بأن النصر الساحق سيكون حليف الأحزاب ضد المسلمين، وأن المدينة لابد وأن تصبح في قبضة هذه الجيوش الغازية الضخمة الغامرة.

الأمر الذي غرر ببني قريظة فحملهم على ارتكاب جريمة الخيانة البشعة تلك، إذ نقضوا العهد وانضموا إلى الجيوش الغازية ضد المسلمين ليأخذوا نصيبهم من ثمار النصر الذي لم يكن لديهم أدنى شك (إلا زعيمهم كعب بن أسد) بأنه سيكون حليف الأحزاب». [غزوة الأحزاب لباشميل ٢٥٢-٢٥٥].

٢٠ ـ تنظيم الحيطة القتالية كالاستطلاع والحراسة الإنذارية:

يقول عميد/ كاخيا: «كانت المعلومات عن العدو تَرِد إلى الرسول الكريم ﷺ أولًا بأول، فقد علم بمؤامرة اليهود وتأليبهم قريشًا وغطفان وغيرهم على المسلمين وعلم ببدء تحرك جيش أبي سفيان من مكة، وأرسل السعدين لمعرفة موقف اليهود بعد وصول جيش المشركين إلى شمال المدينة المنورة، وأرسل أيضًا الصحابي حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما للتأكد من عزم القرشيين على الرحيل إلى مكة، وروى حذيفة رضي الله عنه نفسه: أن رسول الله مر على أصحابه في ليلة من ليالي الخندق الباردة وهم ثلاثمائة رجل، حتى أتى عليَّ وما عليَّ جُنة من العدو ولا من البرد، ألا يدل هذا على وجود حراسة إنذارية أو ما يُطلق عليه «مخافر أمامية» في تماس مباشر مع العدو». [الغزوات النبوية المطهرة من وجهة نظر فن الحرب لكاخيا ٧٤].

٢١ ـ التعرف على الأخبار بطريق غير مباشر:

يقول د/ أبو فارس: «إن الطريقة التي استطاع الوفد أن يعرف بها حقيقة موقف بني قريظة من العهد الذي كان بينهم وبين المسلمين كانت طريقة ذكية لبقة، إذ لم يسألوا بني قريظة عن صحة الخبر الذي سمعوه عنهم، وأرسلهم رسول الله ﷺ من أجل أن يتبينوه، بل تجاهلوه ولم يُشعروهم بمعرفته، وطلبوا منهم الموادعة وتجديد الحلف وتوكيده، فما كان ليهود بني قريظة إلا أن يجيبوهم بحقيقة موقفهم، موقف الخيانة والغدر ونقض العهد، بل وإنكار العهد، إذ أنكروا نبوة محمد ورسالته وأن يكون عهد بينهم وبين المسلمين.

أقول: إن القائد الذكي، والوفد العسكري اللبق، يستطيع أن يتعرف على كثير من أخبار عدوه، ومواقفه العسكرية بطرق غير مباشرة دون أن يشعر عدوه بذلك، ولو كان السؤال مباشرًا ربما لامتنع العدو عن الإجابة أو تحفظ فيها.

وهكذا يمكن للمسلم أن يتعرف على كثير من أخبار عدوه بالطريق غير المباشر، فيعرف عنهم دقائق حياتهم.

وإني أُذكِّر القارئ الكريم كيف استطاع الرسول ﷺ أن يعرف عدد جيش المشركين في بدر ومعلومات أخرى عن طريق أسئلة غير مباشرة وجهها للأسيرين، فسألهم كم ينحر القوم من الإبل، فبمعرفة رسول الله ﷺ لكمية الغذاء استطاع أن يقدر عدد الجيش، ولقد سألهما سؤالًا مباشرًا فما وجد جوابًا عندهما». [الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢/ ٣٣-٣٤].

٢٢ - ينبغي أن يُبنى الموقف العسكري وغير العسكري على معلومات دقيقة صحيحة:

يقول د/ أبو فارس: «إن على القائد المسلم أن يفحص الأخبار التي تصله قبل أن يصدر قراره العسكري، فقد تكون هذه الأخبار غير صحيحة ومضللة يهدف العدو منها إيقاعه في شركه، أو استفزازه، أو أي هدف آخر يرسمه العدو ويريد تحقيقه، وقد تكون المعلومات الواردة كذبًا لا أساس لها من الصحة، وكم يكون القرار فاشلًا حينما يتخذ القرار مبنيًّا على تلك المعلومات الكاذبة، فقد يعلن الحرب على قوم ليسوا بمحاربين، ويوسع جبهة القتال بالنسبة له، ومن ثم يوزع جنوده على أكثر من جبهة، وهذا أمر يربكه، ويوسع جبهته بلا موجب يوجبه أو حالة ضرورة تستدعيه.

تأمل كيف فعل رسول الله ﷺ حينما بلغه الخبر، فقبل أن يتخذ قراره العسكري، ويعدل خطته، قام بإرسال الزبير بن العوام رضي الله عنه فجاءه بمعلومات أولية تدل على أن تحركًا غير طبيعي لبني قريظة، وفيه أمارات على أنهم يستعدون للحرب، لم يكتف الرسول ﷺ بالتقرير الذي قدمه الزبير بن العوام رضي الله عنه، بل أرسل نفرًا من الأوس والخزرج ليستوثق من صحة الخبر ودقة المعلومات، فجاءته الأخبار دقيقة موثقة، فبنى بعد ذلك قراره العسكري عليها، إذ تبدل الموقف، فلا بد من تعديل الخطة، إذ كان جميع الجنود يرابطون خلف الخندق لصد الأحزاب، أما وقد فتحت جبهة أخرى فلا بد من إرسال جنود منهم إلى الجبهة الأخرى حتى تقف في وجه بني قريظة، وتحمي النساء والأطفال في المدينة.

ونأخذ من موقف الرسول ﷺ درسًا في غاية الأهمية، وهو عدم التسرع في اتخاذ القرارات، وضرورة الاعتماد على معلومات صحيحة دقيقة وشاملة قبل اتخاذ أي قرار من القرارات سواء كانت إدارية أو سياسية أو عسكرية أو تربوية أو اقتصادية مالية أو أمنية أو غيرها، فإن ما يُبنى على الدقة يكون دقيقًا وصحيحًا ونافعًا، وما يُبنى على المعلومات الكاذبة أو على فقر في المعلومات فسيكتب له الفشل الذريع.

ولا بد أيضًا من دراسة الأخبار والمعلومات وتمحيصها وفحصها وتحليلها ثم البناء على النتائج المدروسة.

إن كثيرًا من خطط التنمية في بلاد المسلمين، والقرارات العسكرية والأمنية والاقتصادية والتربوية يُكتب لها الفشل إما لأنها غير معتمدة على معلومات أصلًا، اتخذت ارتجالًا، أو أنها بنيت على معلومات قليلة وغير كافية، أو أنها بنيت على معلومات خاطئة غير دقيقة، أو على دراسة مبتسرة غير ناضجة، ولا رشيدة، ومن المؤسف حقًّا أن نقول: وأحيانًا ليست مدروسة». [الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢/ ٢٨-٢٩].

٢٣ ـ طريقة نقل المعلومات موفقة:

يقول د/ أبو فارس: «لقد اختار رسول الله ﷺ طريقة لنقل المعلومات العسكرية وتوصيلها في الدقة والسرية والكتمان.

ولقد وفق الوفد في اختيار أسلوب تبليغ رسول الله ﷺ الخبر، إذ ألمحوا إلماحًا فَهِمَ منه رسول الله ﷺ ما أرادوا، إذ كانت العبارة موجزة جدًّا: عضل والقارة، أي: غدروا كغدر عضل والقارة بأصحاب الرجيع خبيب وأصحابه ﷺ.

إن رسول الله ﷺ كان يهدف إلى عدم إشاعة الخبر إن كانت بنو قريظة قد نقضت، فلا ينبغي أن يعلم الجنود بهذا ويصدموا، ولقد حققت هذه الطريقة الهدف المنشود». [الصراع مع اليهود لأبي فارس٢/ ٣١].

٢٤ ـ فقدان المسلمين لمبدأ «السلامة»:

إذ اعتمدوا على بني قريظة، وفي ساعة الحسم، اتضحت خيانتهم وكادت المعركة أن تنقلب وبالًا على المسلمين، فالحذر والحيطة ضرورة لابد من التزامها من أجل سلامة الموقف».

[انتصارات عربية خالدة لفرج ٥١].

٢٥ ـ تقسيم الجنود إلى دوريات للحراسة:

يقول د/ الصلابي: «قسَّم النبي ﷺ أصحابه إلى مجموعات للحراسة ومقاومة كل من يريد أن يخترق الخندق، وقام المسلمون بواجبهم في حراسة الخندق وحراسة نبيهم ﷺ، واستطاعوا أن يصدوا كل هجوم حاول المشركون شنه، وكانوا على أهبة الاستعداد جنودًا وقيادة، حتى إنهم استمروا ذات يوم من السحر إلى جوف من الليل في اليوم الثاني، ويفوت المسلمين الصلواتُ الأربع، ويقضونها لعجزهم عن التوقف لحظة واحدة أثناء الاشتباك المباشر للقتال، واستطاع علي بن أبي طالب ﷺ مع مجموعة من الصحابة أن يصدوا محاولة عكرمة بن أبي جهل، بل تصدى علي ﷺ لبطل قريش عمرو بن عبد ود وقتله». [السيرة النبوية للصلابي ٢/ ٢٦٣-٢٦٤].

٢٦ ـ اليقظة الدائمة للجنود:

يقول د/ أبو فارس: «إن يقظة المسلمين الدائمة وحراستهم للخندق ليل نهار قد فوتت على المشركين ما أرادوا، فردت فرسانهم خائبين، قُتل من قُتل، وهرب من هرب.

وهكذا ينبغي على المسلم ألا يغفل لحظة عن مراقبة عدوه وتحركاته في مجابهته له؛ لأن عدوه يترقب منه ساعة غفلة فيميل عليه ميلة واحدة يستأصل فيها شأفته بعد أن ينهك قوته قال تعالى: ﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً﴾ [النساء: ١٠٢].

ومما يؤسف له أن كثيرًا من حروبنا مع اليهود في المنطقة كانت تعتمد على الغفلة منا والحيلة من أعدائنا، ففي حرب ١٩٦٧م كانت الغفلة حيث كان ضباط الطيران منشغلين في حفلة ساهرة ماجنة حتى الفجر، ثم كان النوم من الساهرين فدُمرت الطائرات وهي جاثمة على أراضي المطارات، وكما يقولون: **حفلتان ودمَّر الطيران.**

والذي نرجوه من كل قلوبنا ألا تتكرر المآسي في حروبنا القادمة مع عدونا، فإنه عدو خبيث لئيم».
[غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٧٢-١٧٣].

٢٧ ـ محافظة القائد على معنويات الجند:

يقول د/ أبو فارس: «لقد حرص رسول الله ﷺ رغم قساوة الظروف وسوئها أن تبقى الروح المعنوية للمقاتلين قوية، لا يُسمعهم خبرًا يؤثر على هذه الروح المعنوية، ولا يسمح لأحد أن يُسمعهم شيئًا يحط من هذه الروح ويضعفها، تأمل قوله ﷺ: «**فَإِنْ كَانَ حَقًّا فَالْحَنُوا لِي لَحْنًا أَعْرِفُهُ، وَلَا تَفُتُّوا فِي أَعْضَادِ النَّاسِ، وَإِنْ كَانُوا عَلَى الوَفَاءِ فِيمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ، فَاجْهَرُوا بِهِ لِلنَّاسِ**».

إن عوامل كسب النصر في القتال كثيرة، وقوة الروح المعنوية من أقوى العوامل لكسب النصر في المعارك رغم قلة العدد والعدة، وإن أخطر شيء في القتال انهيار معنويات المقاتِل، إنه يُهزم من داخله في إرادته وعزمه، ومن ثم ينهزم من الداخل فيعطي سيقانه للريح ويولي هاربًا، أو يرفع يديه ويلقي سلاحه ويستسلم.

والصبر كما نعلم طريق النصر، والشجاعة صبر ساعة». [الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢/ ٣٢].

٢٨ ـ أهمية الجانب المعنوي من المعركة:

يقول د/ الغضبان: «فهؤلاء المحاصَرون الآن بها لا قبل لهم من بني قريظة وغطفان وقريش، قد يشتد عليهم الحصار، ويبادون جميعًا، وقد يتمكن الأحزاب من تجاوز الخندق فينقَضُّون على المسلمين ويبيدونهم عن بكرة أبيهم، فليس عند المسلمين المؤن الكافية من الطعام، وقد يُقضى عليهم جوعًا وعطشًا، كل ذلك يمكن أن يقع، وقد لا يتمكنون من حفر الخندق ويبادرهم المشركون قبل الانتهاء منه، فيكونوا جميعًا أسرى وسبايا وقتلى بأيديهم، كل هذا يمكن أن يقع، وقد بلغ الخوف مبلغه من المسلمين كما قال تعالى بأدق وصف وأروعه: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾ [الأحزاب].

هذه الاحتمالات كلها واردة ويأتي هنا دور القيادة العظمى، التي ترفع المعنويات، وتعالج الرعب والخوف، وتواجه الزلزال الشديد، فإذا القائد المصطفى ﷺ وهم لا يذوقون ذواقًا منذ ثلاثة أيام، وهم يجهدون بالحفر، يستمعون إلى تباشير النصر، ليس الآن فقط، ولكنه النصر الممتد أقصى المشرق والمغرب، حتى ليسقط كسرى وقيصر ـ قادة الدنيا ـ بأيدي المسلمين، وتنهار اليمن والشام والعراق تحت سنابك خيلهم، فأي تعبئة، ورفع للمشاعر تعدل هذه التعبئة، وتعادل هذه الثقة بموعود الله تعالى؟! وهم المحاصَرون من فوقهم ومن أسفل منهم.

ومن المبشّرات التي ترفع الروح المعنوية إلى الأوج، حين بلغ رسول الله ﷺ غدر بني قريظة (فَسَلَّمُوا عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالُوا: **عَضَلٌ وَالقَارَةُ**، أَيْ كَغَدْرِ عَضَلٍ وَالقَارَةِ بِأَصْحَابِ الرَّجِيعِ، خُبَيْبٍ وَأَصْحَابِهِ)، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**اللهُ أَكْبَرُ! أَبْشِرُوا يَا مَعْشَرَ الـمُسْلِمِينَ**».

في الوقت الذي يمكن فيه لقائد آخر أن يسلم بلده، ويعلن استسلامه أمام هذا التظاهر العظيم من أهل الأرض عليه، لكن التكبيرة والبشرى يأتيان في أحلك الظروف وأشد حالات الهول.

ومن المبشرات كذلك والتي رسم بها رسول الله ﷺ خطًا في الأفق البعيد معلنًا فيه انتهاء مرحلة وابتداء مرحلة جديدة، وهي الانتقال منذ الآن من الدفاع للهجوم، ما رواه سليمان بن صرد ﷺ قال: سمعت النبي ﷺ يقول حين أجلى الأحزاب عنه: «**الآنَ نَغْزُوهُمْ، وَلَا يَغْزُونَنَا، نَحْنُ نَسِيرُ إِلَيْهِمْ**».

[التربية القيادية للغضبان ٤/ ٢٦-٢٧].

ويقول أ/ الشامي: «إن الاحتفاظ بالمعنويات في نفوس الأفراد هو أحد أسباب الانتصار، وفي سبيل ذلك اتخذ رسول الله ﷺ الأمرين التاليين:

أ ـ فقد ابتلي المؤمنون بالمنافقين ضمن صفوفهم، وقد كان هؤلاء عوامل تثبيط للمؤمنين، وقد واجه ﷺ هذه المشكلات بإذكاء الإيمان في النفوس، فاستطاع أن يتغلب عليها، وبهذا الصدد وردت الآية الكريمة تبين وضع المؤمنين: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾ [الأحزاب].

ب ـ كما اتخذ ﷺ كل الوسائل التي تهيء الراحة النفسية للصحابة الكرام الذين يتحملون معه عبء المعركة، ولعل أول ما يشغل الفكر الأولاد والنساء؛ ولذا أمر بهم ﷺ فنقلوا إلى أبنية منيعة، وكان ذلك احتياطًا في بدء الأمر قبل أن تنقض قريظة العهد.

وبعد نقضها العهد عُزِّزت المدينة بالدوريات المكثفة وخاصة بالليل، والتي أمرت أن تُظهر التكبير حتى ترتفع بمعنويات النساء والأطفال. [طبقات ابن سعد ٢/ ٦٧].

كما عمل ﷺ على إبعاد كل ما من شأنه أن يفت في عضد المؤمنين ويلاحظ هذا واضحًا في أمره ﷺ للوفد الذي أرسله إلى بني قريظة ليتأكد من نقضهم العهد، بأن يلحنوا إليه لحنًا يعرفه ولا يفتوا في أعضاد المسلمين، إن كانوا غدروا، وإن كانوا على العهد أن يجهروا به أمام الناس. [البداية والنهاية ٤/ ١٠٣].

تلك بعض إجراءات القيادة للحفاظ على الجانب النفسي لدى المسلمين وهم يخوضون معركة غايتها استئصالهم من الوجود الإنساني». [من معين السيرة للشامي ٣١٢].

ويقول د/ أبو فارس: «ويؤخذ من قول رسول الله ﷺ المتقدم حرص النبي ﷺ على رفع معنويات المسلمين، وإبعاد كل ما يؤثِّر في معنوياتهم بضعف أو غيره.

وهذا ما أراده الرسول ﷺ حين قال: **وَلَا تَفُتُّوا فِي أَعْضَادِ النَّاسِ**.

والفت في أعضاد الناس إنما يكون بإشاعة الخبر السيئ فيهم، ولهذا أمر بالتورية إن كان الخبر سيئًا، وبالتصريح إن كان الخبر مفرحًا؛ لأن في ذلك رفعًا لمعنويات المقاتلين، فقال: **وَإِنْ كَانُوا عَلَى الوَفَاءِ فِيمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ، فَاجْهَرُوا بِهِ لِلنَّاسِ**.

وهكذا ينبغي أن يحرص كل قائد على معنويات جنوده بأن تبقى الروح المعنوية عالية؛ فإن لهذه الروح أثرًا في القتال وجلب النصر، ودفع الهزيمة». [غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٤٩-١٥٠].

٢٩ ـ غدر بني قريظة هو الثغرة التي أُتي منها المسلمون:

يقول أ/ دويدار: «ليس من شك في أن العناية الإلهية هي التي أنقذت المسلمين في غزوة الأحزاب، وأنه لولا هذه العناية لكان فناء المسلمين أمرًا واقعًا لا محالة، وكان مصير الدعوة الإسلامية إلى زوال لا شك فيه، وهذا ما كان يخشاه رسول الله ﷺ، وهو يدعو ربه مستغيثًا به إذ يقول: «**اللهم إنك إن تشأ لا تعبد**»، نعم، فلو شاء الله أن ينهزم المسلمون في هذه الغزوة لانتهى أمر الإسلام إلى الزوال، ولفَنِيت هذه الفئة القليلة التي كانت توحد الله وتقيم دينه في الأرض.

وليس من شك في أن غدر بني قريظة كان هو الثغرة الوحيدة التي أُتي منها المسلمون، والتي لولاها لما استطاع المشركون أن يجدوا إلى المسلمين سبيلًا، فقد وقفوا أمام الخندق طويلًا، وطافوا به كثيرًا، وحاولوا غير مرة أن يجدوا فيه منفذًا ينفذون منه إلى المسلمين، ولكن المسلمين كانوا من اليقظة والتمكن بحيث استطاعوا أن يسدوا عليهم كل ثغرة، وأن يردوا إليهم كل محاولة.

ولقد كان من الجائز أن يسأم المشركون هذه الحالة، وأن يملوا الوقوف أمام هذا الخندق، وأن يتملكهم اليأس من الوصول إلى معسكر المسلمين، بعد ما حاولوا وحاولوا فلم يستطيعوا، وكان من الجائز أن يدفعهم اليأس والملل إلى الرجوع إلى ديارهم، دون أن ينالوا أربًا مما كانوا يريدون بالمسلمين.

لكن دخول بني قريظة في زمرة الأحزاب، ونقضهم العهد مع المسلمين، كان ـ ولا شك ـ هو السبب الذي أعاد الأمل قويًّا إلى نفوس المشركين، فَعَلَتْ به روحهم المعنوية، وازداد نشاطهم، واشتد ضغطهم على معسكر المسلمين حتى أرهقوهم، وكان هو العامل الأكبر فيما أصاب المسلمين من زلة وخوف، وما حدث في صفوفهم من خلخلة واضطراب، وما جعل المنافقين والذين في قلوبهم مرض ينتهزونها فرصة، فيخذِّلون بين الناس، ويشيعون اليأس في القلوب، ويقولون كما حكى الله عنهم: ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾ [الأحزاب]، ويتداعون إلى الفرار قائلين: ﴿يَٰٓأَهۡلَ يَثۡرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمۡ فَٱرۡجِعُواْۚ وَيَسۡتَـٔۡذِنُ فَرِيقٞ مِّنۡهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوۡرَةٞ وَمَا هِيَ بِعَوۡرَةٍۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارٗا ﴿١٣﴾﴾ [الأحزاب].

وإن ما وصف القرآن من حال المؤمنين في هذا الظرف العصيب، ليصور بوضوح قوة الهجوم الكاسح من جانب الأحزاب على معسكر المسلمين، إذ جاؤوهم من فوقهم ومن أسفل منهم، ويدل دلالة واضحة على مبلغ الخوف الذي أصاب المسلمين، حتى زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وذهبت الظنون بهم كل مذهب، ﴿هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا ﴿١١﴾﴾ [الأحزاب]».

[صور من حياة الرسول ﷺ لدويدار ٢/ ١٩٢-١٩٣].

٣٠ ـ المحاولات اليهودية لإشغال المسلمين:

يقول د/ أبو خليل: «وحادثة هذا الجاسوس، محاولة من اليهود لإشغال المسلمين بعمل حربي في مؤخرة جيشهم، فأرسلوا هذا الجاسوس بمهمة استطلاعية إلى الآطام التي حلَّت بها النساء المسلمات وأولادهن، وأيقنت بنو قريظة عندما لم يرجع إليهم أنه قتل، وأن المسلمين قد خصصوا جزءًا من قواتهم لحماية الظعن والمؤخرة؛ لذلك عدلوا عن القيام بأي عمل حربي في مؤخرة الجيش الإسلامي، وقبعوا في حصونهم لا يفكرون بالخروج خوفًا ورعبًا وتحسبًا». [غزوة الخندق لأبي خليل ١٠٧-١٠٨].

٣١ ـ يقظة الصحابة رضي الله عنهم لهجوم بني قريظة:

يقول د/ الحميدي: «كان الصحابة رضي الله عنهم في تمام اليقظة والحذر، فكانت فصائلهم تجوب أنحاء المدينة في الليل حتى لم تترك لليهود أية فرصة للإغارة على النساء والذراري ونحوهم.

وهذا مثل للجهود الكبيرة التي كان يبذلها سلمة بن أسلم بن حريش وأصحابه رضي الله عنهم في حراسة المدينة من داخلها.

ونجد أن هؤلاء الأبطال لم يكتفوا برد غارة اليهود بل تبعوهم إلى أحد حصونهم وأرهبوهم وهدموا بئرًا لهم خارج الحصن حتى أصبحوا محصورين في حصونهم لا يستطيعون الخروج».

[التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ١٢١].

٣٢ـ تخطيط محكم:

يقول الشيخ عبيد: «القائد الحكيم دائمًا يتصرف حسبما تمليه الحاجة ويتطلبه الموقف؛ لذلك وزع الرسول ﷺ جنده على:

أ ـ طول الخندق؛ لأنه كان يتوقع الهجوم في كل لحظة؛ لذلك يخشى أن يأخذه المشركون على غِرة ويهاجموه ليلًا أو نهارًا؛ لذلك احتاط للأمر وأقام الحراسة الدائمة على طول الخندق، وقد علَّم أصحابه كلمة السر بحيث يتعارفون بها في ظلمات الليل ولا يقتل بعضهم بعضًا وهذه الكلمة هي: «**حم لا ينصرون**» أرأيت الدقة والتنظيم والمهارة.

ب ـ طائفة أخرى من المسلمين تحرس المدينة خوفًا من أن يقوم يهود بني قريظة بفتح ثغرة للمشركين، فأرسل بجند ليأمنوا هذا الجانب وكانت كلمة سرهم: «**الله أكبر**».

ج ـ فرقة أخرى تحرس النبي ﷺ، مع الإحاطة بأن العرب تنفر من القتل غدرًا وغيلة وتعده دناءة وعارًا، لكن اليهود يعدون الغدر شرفًا وهو يتخوف منهم.

د ـ كان اليهود قدَّموا وعودًا وعهودًا إلى غطفان أن لهم نصف ثمر خيبر، إذًا هؤلاء قوم مأجورون بالمال، فهم يغامرون بالحرب في سبيل الحصول عليه؛ لذلك أرسل ﷺ إلى عيينة بن حصن والحارث بن عوف مَنْ فاوضهما على أن يرجعا بجيشهما ولهم ثلث ثمار المدينة، وقد فرح قادة غطفان بهذا العرض؛ لأنهم لن يخوضوا حربًا وسوف يأخذون ثلث ثمار المدينة، وبعد أن تمت الموافقة على ذلك أرسل ﷺ إلى سعد بن معاذ وسعد بن عبادة باعتبارهما قيادات شعبية لهما مكانة سامية في نفوس الجماهير واستشارهما في ذلك قبل أن يوقِّع على العقد مع غطفان، فقال السعدان ما قالا، تعبيرًا عن رفض إعطائهم إلا السيف.

هذا التخطيط المحكم وهذه الدقة والانضباط على قيم الوفاء لله ﷻ والأدب مع رسول الله ﷺ، كان لكل ذلك ثمرته ونتائجه التي حققت النصر المبين». [غزوة الأحزاب لعبيد ٣١-٣٢].

٣٣ـ الهدف النبوي من إطالة أمد المعركة:

يقول أ/ كولن: «كان الرسول ﷺ يسعى إلى إطالة أمد المعركة ما أمكنه ذلك، ونجح في ذلك، واستفاد من إطالتها فوائد عديدة نستطيع أن نعدد بعضها:

الأولى: كان الوقت مقبلًا على موسم الشتاء، ولم تكن قريش وحلفاؤها قد استعدوا للشتاء، فلو بقوا أكثر لأنهى الشتاء أمرهم، وعندما يفكون الحصار ويذهبون، يذهبون وقد ضعفت قواهم وتداعت.

الثانية: كان العدو مضطرًا إلى العناية بعشرة آلاف من المقاتلين وإطعامهم كل يوم، وكلما زادت المدة وتوالت الأيام دخلوا إلى أزمة مالية أكبر، وعندما اتحد الجوع والظمأ والبرد، أصبح الوضع غير محتمل بالنسبة لهم.

الثالثة: لم يكن من المتوقع أن يستمر الحلف في جبهة العدو طويلًا، هذا الحلف الذي كان حلفًا مصطنعًا قام على أساس واحد، وهو اشتراكهم في عداوة رسول الله ﷺ، وكان مرور كل يوم يُضعف هذا الحلف، بينما كانت جبهة الإسلام تقوى على مر الأيام وتزداد تراصًّا ووحدة.

الرابعة: كان هناك زعماء عديدون في جبهة العدو، ولم يكن أي واحد منهم قادرًا على أن يُسمع كلامه للآخرين ولا أن يجعل الآخرين يطيعونه، كانوا يشبهون الجيوش الصليبية، كان أبو سفيان ـ من الناحية النظرية فقط ـ هو قائد جبهة العدو وجيشه، ولكن هذا كان في الظاهر فقط، وكلما مرت الأيام بدأ الشقاق يدب بين هؤلاء الزعماء والأنداد وتتزايد النزاعات بينهم». [النور الخالد محمد ﷺ لكولن ٢/١٠٣-١٠٤].

٣٤ ـ تحطيم صيغة التحالف بين الأحزاب:

يقول عميد/ فرج: «فرسول الله ﷺ خطا هذه الخطوة لأنه أراد أن يكسر شوكة التحالف، وأن يخفف على المسلمين ما هم فيه من بلاء، ورأى ﷺ أن هذين الهدفين يعدلان في النتيجة ثلث ثمار المدينة.

ولكنه ﷺ لم يشأ ـ وقد كتب صلحًا بذلك ـ أن يقر أمرًا يخص المسلمين جميعًا دون أن يكون لهم رأي، ذلك أن أسلوبه في القيادة كان يفرض الشورى في كل أمر عسكري يتصل بالجماعة، ولم يشأ ﷺ أن يخرج عن هذا الأسلوب أو يحيد عنه، فالأمر شورى، ولا ينفرد به فرد حتى ولو كان هذا الفرد هو رسول الله ﷺ، طالما أن الأمر تُرك للاجتهاد ولم ينزل به وحي، ولعل هذا الأسلوب كان من عوامل تفوق المسلمين ونجاحهم، وقد استخدم هذا الأسلوب في بدر وأحد، وأثبت رجاحته وامتيازه.

وكان موقف سعد ﷺ موقفًا كريمًا يحمل أكثر من معنى:

(١) فهو أولًا يؤكد شجاعة المسلمين الأدبية، فإن أحدهم كان لا يتردد في أن يبدي رأيه في موضوع يحتاج إلى الرأي والمشورة حتى ولو كان يعرف مسبقًا أنه يخالف رأى رسول الله ﷺ.

(٢) وهو ثانيًا يكشف عن جوهر المسلمين وعن حقيقة اتصالهم بالله وبرسوله وبالإسلام، هذا الاتصال الذي يفرضه إيمان عميق وعقيدة راسخة وثقة كبيرة، وهذه عُمَد رئيسة قام عليها البناء الإسلامي.

(٣) وهو ثالثًا يبين ما تمتلئ به روح المسلمين من قدرة على مواجهة المواقف الحرجة بالصبر والصمود والاحتمال، ومن رغبة جياشة في قهر العدو مهما تكتلت قواته أو كثر سلاحه أو تعدد حلفاؤه.

وقبول رسول الله ﷺ الرأي الذي أشار به سعد ﷺ سمة من سمات القيادة، فالقائد الناجح هو الذي يربط بينه وبين جنده رباط الثقة، يعرف قدرهم ويدركون قدره، يحترم رأيهم ويحترمون رأيه.

وأخيرًا ماذا يعني قبول رجلي غطفان ما عرضه عليهما الرسول ﷺ؟

إنهما قبلا العودة والانسلاخ من الحِلف في مقابل ثلث ثمار المدينة، وهذا يؤكد في وضوح أن غطفان خرجت، وليس في داخلها دافع جوهري للخروج، ولا شك في أن هذا الدافع من وجهة النظر الحربية هو

الوقود الذي يشعل النفس عند القتال، وهو المُوتور الذي يحركها في جبهة القتال، واختفاء هذا الدافع يعني أن المحارب فقد ثلثي قدرته على القتال.

لقد كان رسول الله ﷺ مقتنعًا أن حل الموقف يأتي عن طريق فض التحالف الذي جمع بين أعدائه، وجاءته ﷺ الفرصة حين أتاه نعيم بن مسعود ﷺ، وكان قد أسلم دون أن يعرف أحد بإسلامه، وكانت له مودة سابقة مع بني قريظة». [العبقرية العسكرية في غزوات الرسول ﷺ لفرج ٢٩٢-٢٩٤].

٣٥ ـ موقف غطفان في المعركة:

يقول أ/ باشميل: «واللغز العسكري في سير عمليات الأحزاب الحربية هو أن أحدًا من المؤرخين لم يذكر أنه قد كان لقبائل غطفان النجدية ـ التي يشكل رجالها العمود الفقري لهذا الغزو ـ أي عمل حربي بارز ضد المسلمين في هذه الغزوة المقصود بها استئصال شأفة المسلمين وهدم الإسلام.

فقد كان من المفروض أن يشارك قادة غطفان قادة قريش في عمليات الاستفزاز والمناوشة التي قادها أولئك القادة القرشيون بأنفسهم ضد المسلمين على مشارف الخندق، ولكن شيئًا من هذا لم يحدث طيلة أيام الحصار.

وهذا يعني بالتأكيد أن قبائل غطفان طيلة أيام الحصار لم تطلق سهمًا واحدًا ضد جيش المدينة ولم يقم أحد من رجالها بأي عمل حربي ضد المسلمين، فكل الذين جاء ذكرهم في كتب التاريخ أنهم قاتلوا وقاموا بمختلف العمليات الحربية ضد المسلمين طيلة أيام حصار المدينة إنما هم من قريش فقط.

لقد ظهر موقف التكاسل الذي وقفته من معركة الأحزاب، قبائل غطفان النجدية، وهي التي تشكل الأغلبية في حشود هذا الغزو.

فأثناء استعراضنا لجميع أدوار المعركة لم نر لأي من رجال غطفان (قادة وجنودًا) أي نشاط حربي ضد المسلمين في هذه المعركة.

فكل الذين قاموا بقفز الخندق بخيلهم هم من قريش وليس بينهم غطفاني واحد، كما أن كل القادة الذين تولوا بالتناوب عملية إرهاب المسلمين وإزعاجهم بالطواف بكتائبهم حول الخندق ليلًا نهارًا هم من قريش فقط، وليس بينهم قائد غطفاني واحد، كما أن التاريخ لم يذكر أنه كان ضمن جنود هؤلاء القادة القرشيين جندي غطفاني واحد.

فما هو السبب في هذا الموقف المتكاسل الذي وقفته قبائل غطفان في هذه الغزوة الكبيرة؟

الذي يظهر لنا أن هناك سببًا رئيسًا واحدًا، وهو أن قيادة غطفان قد يئست بعد حفر الخندق من احتلال المدينة إلا بعد تضحيات جسيمة باهظة.

وما كانت غطفان تحمل عقيدة صافية تصلها بالله، تستعذب الموت في سبيلها، وتؤمن بأن القتل تحت لوائها شهادة ترتفع بقتلاها إلى درجة الصديقين والشهداء، حتى تخاطر بأرواحها فتقتحم الخندق غير مبالية بما يصيبها من قتل وجرح كما هو الحال عند المسلمين.

بل لم تكن غطفان ـ على ما يظهر ـ تحمل للمسلمين ذلك العداء العقائدي المرير المتأصل الذي تحمله يهود وقريش، وإنما كل رجال غطفان أعراب خلص لا يعرفون للغزوات والحروب معنى، إلا أنها وسيلة فقط للنهب والسلب والحصول على المغنم المادي بأقل خسارة ممكنة، الأمر الذي كان أعراب غطفان يمنُّون النفس بالوصول إليه عندما تحركت جموعهم الغفيرة من مضاربها في صحاري نجد للمشاركة في غزو المدينة.

وحيث إن هذه المكيدة الحربية العظيمة التي ما كان العرب يكيدونها (وهي الخندق) قد جعلت من المستحيل على هؤلاء الأعراب الحصول على المغنم بالطريقة التي ألفوها في حروبهم المكشوفة الخاطفة التي لا تستغرق إلا ساعات قلائل وبصورة مفاجئة، ورأوا أن احتلال المدينة التي يحلمون بغنائمها، لن يكون إذا ما نجحوا فيه إلا بعد مغامرة خطيرة يكلفهم الإقدام عليها مئات القتلى مما يجعل المغنم الذي قد يحصلون عليه يتلاشى في حسابهم المادي أمام هذه التضحيات الجسام التي يبذلونها من الرجال للوصول إلى هذا المغنم المادي، فإنهم آثروا السلامة على المغنم المحفوف بكل هذه المخاطر الجسام.

فمن هنا ـ والله أعلم ـ جاء إحجامهم عن القيام بأي عمل حربي يُعَرِّض أرواحهم للخطر في هذا الغزو الكبير الذي ما شاركوا فيه إلا للحصول على الغنائم والغنائم فقط، وحيث إن هذا أصبح مستحيلًا بعد حفر الخندق، فلا داعي لأن يتعرض هؤلاء الأعراب للقتل والجرح، وهذا أمر يتفق تمامًا مع منطق الأهداف الصغيرة الضيقة المحدودة التي جاء هؤلاء الأعراب لتحقيقها».

[غزوة الأحزاب لباشميل ٢٦٦-٢٦٨].

٣٦ ـ أهمية حرب التخذيل:

يقول د/ الوكيل: «ورأى رسول الله ﷺ أن الأمر قد يشتد أكثر من ذلك، فإن العرب قد رمتهم عن قوس واحدة، ففكر في حيلة يفك بها الحصار عن المسلمين، ومن حق القائد أن يتصرف بكل ما يبعد الأذى والضر عن جنوده، أليست الحرب خدعة؟

بلى، إنه يجوز في الحرب ما لا يجوز في السلم، وقد هداه تفكيره ﷺ أن يشن عليهم حربًا من نوع جديد، لا سلاح فيها، ولا دماء معها، وإنما هي التخذيل والإشاعة.

هذا النوع من الحرب هو ما يسمى اليوم بالحرب الباردة، ولقد ثبتت فعالية تلك الحرب، ونجحت في كثير من الأحيان، وكان وقعها على بعض الجيوش أشد من وقع القنابل، وضررها أفتك من قصف الصواريخ.

والمقصود من هذه الحرب توهين الأعداء، وكسر شوكتهم، وتفريق كلمتهم، وإيقاع العداوة والخلاف بينهم، فإذا استطاع المسلمون أن يفعلوا ذلك بعدوهم فإنهم يضمنون النصر عليهم ـ بإذن الله ـ لأنه ليس أشد على المحاربين من النزاع ووقوع الخلاف، وقد استعمل ﷺ نوعين من هذه الحرب هما: التخذيل والإشاعة.

فأما التخذيل فقد اتبع فيه رسول الله ﷺ أسلوب المفاوضات، وقد اختار لذلك غطفان لأنها الفريق الأقوى، وقد خرج وليس له هدف حقيقي من وراء هذه الحرب، والذين يخرجون للحرب من غير أن يكون لهم هدف يريدون تحقيقه إلا هدفًا ماديًّا لو توفر لهم هذا الهدف المادي فإنهم يرجعون عن الحرب، ويفوزون بهدفهم بغير قتال، وإذا كان هذا الفريق هو أقوى المحاربين، وأكثرهم عددًا فإن توهينه وصرفه عن الحرب يكون من أهم أسباب هزيمة الباقين.

لهذا قصد الرسول ﷺ غطفان، وهم أكثر المحاربين عددًا، ولم يخرجوا إلا طمعًا في الحصول على تمر نخل خيبر، أَمَا وقد طال الحصار، ولم يحقق الحلفاء ما جاؤوا من أجله، بل لم يظهر في الأفق ما يبشر بانتصارهم، فإن ذلك كله يوحي لزعماء غطفان بأنهم سينقلبون من المعركة خائبين دون أن يحصلوا على تمر خيبر أو يفوزوا من الغنيمة بالإياب.

وانتهز الرسول ﷺ تلك الفرصة، فأغرى عيينة بن حصن زعيم غطفان بثلث تمر المدينة على أن يرجع هو وجيشه، ويتركوا القتال، وفكَّر عيينة في الأمر فوافق على المفاوضة، ورضي بما عرضه عليه الرسول ﷺ، أليس رجوعه بثلث تمر المدينة خيرًا من أن يرجع بلا شيء؟

[يقول د/ هيكل: وماذا عسى أن يُمسك غطفان عن أن تعود أدراجها وهي إنما اشتركت في الحرب لأن اليهود وعدتها ـ متى تم النصر ـ ثمارَ سنة كاملة من ثمار مزارع خيبر وحدائقها، وها هي ذي ترى النصر غير ميسور، أو هو على الأقل غير محقق، وهو يحتاج من المشقة في هذا الفصل القارس إلى ما ينسيها الثمار والحدائق!]. [حياة محمد ﷺ لهيكل ٣٤١].

واشترط الرسول ﷺ لإنجاز المفاوضة أن يستشير أصحاب الأمر وأهل الرأي، فبعث إلى سعد بن معاذ زعيم الأوس، وسعد بن عبادة زعيم الخزرج يستشيرها في الصلح؛ وذلك لأن الأمر يتعلق بهما وبقومهما وبلدهما أكثر مما يتعلق بغيرهما، فالأرض أرضهم، والثمرة ثمرتهم، والحرب ستضر بهم أكثر من غيرهم.

استمع السعدان إلى ما عرضه عليهم رسول الله ﷺ في أدب واحترام، ثم كان منهما الموقف الدقيق الواعي حين قالا: **يَا رَسُولَ اللهِ! أَمْرًا تُحِبُّهُ فَنَصْنَعُهُ، أَمْ شَيْئًا أَمَرَكَ اللهُ بِهِ لَا بُدَّ لَنَا مِنَ العَمَلِ بِهِ، أَمْ شَيْئًا تَصْنَعُهُ لَنَا؟**

هكذا كان الموقف العظيم من السعدين العظيمين ﭬ إنه تصوير رائع للجندية الواعية المطيعة، إن كان الصلح شيئًا تحبه القيادة سارعا إليه وصنعاه، وإن كان بأمر من الله فليس لأحد إلا أن يتقبله ويرضاه، وإن كان لمصلحة الجنود فللجنود رأي ينبغي أن يُسمع في هذا المقام.

قال ﷺ: «**بَلْ شَيْءٌ أَصْنَعُهُ لَكُمْ، وَاللهِ مَا أَصْنَعُ ذَلِكَ إِلَّا لِأَنَّنِي رَأَيْتُ العَرَبَ قَدْ رَمَتْكُمْ عَنْ قَوْسٍ وَاحِدَةٍ، وَكَالَبُوكُمْ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَكْسِرَ عَنْكُمْ مِنْ شَوْكَتِهِمْ إِلَى أَمْرٍ مَا**».

وكان الموقف الأكثر روعة، والأدق وعيًا، حين قال سعد بن معاذ ﭬ: **يَا رَسُولَ اللهِ! قَدْ كُنَّا نَحْنُ وَهَؤُلَاءِ القَوْمُ عَلَى الشِّرْكِ بِاللهِ وَعِبَادَةِ الأَوْثَانِ، لَا نَعْبُدُ اللهَ وَلَا نَعْرِفُهُ، وَهُمْ لَا يَطْمَعُونَ أَنْ يَأْكُلُوا مِنْهَا تَمْرَةً إِلَّا قِرًى أَوْ بَيْعًا، أَفَحِينَ أَكْرَمَنَا اللهُ بِالإِسْلَامِ وَهَدَانَا لَهُ، وَأَعَزَّنَا بِكَ وَبِهِ نُعْطِيهِمْ أَمْوَالَنَا، وَاللهِ مَا لَنَا بِهَذَا مِنْ حَاجَةٍ، وَاللهِ لَا نُعْطِيهِمْ إِلَّا السَّيْفَ، حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ.**

ولم يتم الصلح بين المسلمين وغطفان، وارتابت غطفان من عدم إتمام الصلح، وظنوا أن المسلمين رجعوا عن الصلح لأنهم وجدوا القوة التي تغنيهم، ويئست غطفان من أن تجني من وراء خروجها شيئًا فقلقت لهذا المصير، وعزمت على أحد أمرين:

إما أن تخوض معركة فاصلة، أو ترجع من حيث أتت.

وبالقدر الذي أصاب غطفان من اليأس، ضاقت قريش لهذا الموقف المتجمد، إنهم في حالة حرب ولا حرب، وإنهم قد خرجوا من ديارهم لاستئصال المسلمين، ولم يفعلوا شيئًا؛ ولهذا قرر أبو سفيان أن يتخذ موقفًا إيجابيًّا غير هذا الموقف المتخاذل.

وهنا برزت جماعة من جيش أبي سفيان، وقصدت مكانًا ضيقًا من الخندق، وهم عمرو بن عبد ود، وعكرمة بن أبي جهل، وهبيرة بن أبي وهب، وضرار بن الخطاب، وضربوا خيلهم فاقتحمت الخندق، وجالت بهم في السبخة بين الخندق وسلع.

وخرج علي بن أبي طالب ﭬ في جماعة من المسلمين ﭫ وسدوا عليهم الثغرة التي اقتحموا منها، وكان عمرو بن عبد ود قد قاتل يوم بدر حتى أثبتته الجراح، وظل يعالج منها زمنًا طويلًا، حتى إنه لم يشهد معركة أُحُد، فلما كان يوم الخندق خرج مُعْلِمًا ليعرفه من يراه، وطلب من المسلمين المبارزة، فلم يقم له أحد لشجاعته وقدرته القتالية، فبرز له علي بن أبي طالب ﭬ، وأراد الرسول ﷺ أن يخرج له غير علي ﭬ ممن اشتهروا بالبسالة والإقدام، ولكن عليًّا ﭬ أصر على الخروج له، وقتله عليٌّ ﭬ بفضل الله ﻷ.

هدأت الجبهة الشمالية الشرقية على أمل استمرار المفاوضات، وعودة المسلمين إليها، كما كانت الهزيمة التي مني بها مقتحمو الخندق مثبطة لعزيمة قريش عن الدخول في معركة كبيرة، وظلت تتربص ما

ستتمخض عنه الأحداث، وأتيحت للرسول ﷺ فرصة من خلال هذا الهدوء النسبي ليواصل حرب التخذيل، فقد جاء نعيم بن مسعود الغطفاني ﷺ إلى الرسول ﷺ وقال: **يَا رَسُولَ الله، إِنِّي قَدْ أَسْلَمْتُ، وَإِنَّ قَوْمِي لَمْ يَعْلَمُوا بِإِسْلَامِي، فَمُرْنِي بِمَا شِئْتَ**.

فقال ﷺ: **إِنَّمَا أَنْتَ فِينَا رَجُلٌ وَاحِدٌ، فَخَذِّلْ عَنَّا إِنِ اسْتَطَعْتَ، فَإِنَّ الحَرْبَ خَدْعَةٌ**.

وبهذا سنحت الفرصة لرسول الله ﷺ ليشن حرب التخذيل، ولكنها في هذه المرة ستكون بين الفرق المتحالفة على حرب المسلمين جميعًا، واستعمل فيها أسلوب الوقيعة، وبذر الشك في قلب كل فريق من الآخر، حتى إذا تمزقت القلوب المجتمعة، وتنافرت النفوس المؤتلفة، وفقدت الثقة بين الحلفاء، لم يعد هناك خوف من هذه القوات مهما كثر عددها؛ لأن فقد الثقة سيؤدي لا محالة إلى عدم التعاون.

لم يكن هناك شخصية تستطيع القيام بهذا الدور الخطير سوى نعيم بن مسعود ﷺ؛ ذلك لأنها تمتاز بكل الخصائص التي ينبغي توفرها فيمن يقوم بمثل هذا الدور، فهو رجل غطفاني لا يشك أحد في إخلاصه لقومه، وهو كذلك نديم لبني قريظة في الجاهلية، وصديق حميم لقريش، فإذا دخل بين كل فريق من الحلفاء فهو محل ثقتهم، وموضع تقديرهم، وقد وهبه الله من الذكاء ما يؤهله للقيام بالدور الذي دله عليه الرسول ﷺ حين قال له: فخذل عنا إن استطعت.

وقام نعيم ﷺ بالدور الذي أُنيط به خير قيام، وبدأ ببني قريظة، فذكَّرهم بما كان بينه وبينهم في الجاهلية من الإخلاص والمحبة، وأخبرهم بأنه جاءهم ناصحًا أمينًا، وقال: إِنَّ قُرَيْشًا وَغَطَفَانَ لَيْسُوا كَأَنْتُمْ، البَلَدُ بَلَدُكُمْ فِيهِ أَمْوَالُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَنِسَاؤُكُمْ، لَا تَقْدِرُونَ عَلَى أَنْ تَحَوَّلُوا مِنْهُ إِلَى غَيْرِهِ، وَإِنَّ قُرَيْشًا وَغَطَفَانَ قَدْ جَاؤوا لِحَرْبِ مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ، وَقَدْ ظَاهَرْتُمُوهُمْ عَلَيْهِ، وَبَلَدُهُمْ وَأَمْوَالُهُمْ وَنِسَاؤُهُمْ بِغَيْرِهِ، فَلَيْسُوا كَأَنْتُمْ، فَإِنْ رَأَوْا نُهْزَةً (أي فرصة) أَصَابُوهَا، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ لَحِقُوا بِبِلَادِهِمْ وَخَلَّوْا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الرَّجُلِ بِبَلَدِكُمْ، وَلَا طَاقَةَ لَكُمْ بِهِ إِنْ خَلَا بِكُمْ، فَلَا تُقَاتِلُوا مَعَ القَوْمِ حَتَّى تَأْخُذُوا مِنْهُمْ رُهُنًا مِنْ أَشْرَافِهِمْ، يَكُونُونَ بِأَيْدِيكُمْ ثِقَةً لَكُمْ، عَلَى أَنْ تُقَاتِلُوا مَعَهُمْ مُحَمَّدًا حَتَّى تُنَاجِزُوهُ.

فسُرَّت قريظة برأي نعيم ﷺ، وقالوا: لَقَدْ أَشَرْتَ بِالرَّأْيِ.

وتركهم نعيم ﷺ وتوجه نحو معسكر قريش، وذكَّرهم بالود الذي بينه وبينهم، والصداقة القديمة التي تربطهم، ومفارقته لمحمد ﷺ ليظل على دينهم، ثم أخبرهم بأنه سيسر إليهم أمرًا خطيرًا، وطلب منهم كتمانه، فوعدوه بالكتمان.

فقال: تَعْلَمُوا أَنَّ مَعْشَرَ يَهُودَ قَدْ نَدِمُوا عَلَى مَا صَنَعُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ، وَقَدْ أَرْسَلُوا إِلَيْهِ أَنْ قَدْ نَدِمْنَا عَلَى مَا فَعَلْنَا، فَهَل يُرْضِيكَ أَنْ نَأْخُذَ لَكَ مِنَ القَبِيلَتَيْنِ، مِنْ قُرَيْشٍ وَغَطَفَانَ رِجَالًا مِنْ أَشْرَافِهِمْ

فَنُعْطِيكَهُمْ فَتَضْرِبَ أَعْنَاقَهُمْ، ثُمَّ نَكُونَ مَعَكَ عَلَى مَنْ بَقِيَ مِنْهُمْ حَتَّى نَسْتَأْصِلَهُمْ؟ فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ: أَنْ نَعَمْ، فَإِنْ بَعَثَتْ إِلَيْكُمْ يَهُودُ يَلْتَمِسُونَ مِنْكُمْ رُهُنًا مِنْ رِجَالِكُمْ فَلَا تَدْفَعُوا إِلَيْهِمْ مِنْكُمْ رَجُلًا وَاحِدًا.

ثم تركهم يفكرون في هذا المصير المظلم الذي ينتظرهم، وقد اضطربت نفوسهم، وتزلزلت قلوبهم وخرج يقصد غطفان، وذكَّرهم بأنهم أصله وعشيرته، وأحب الناس إليه، وأخبرهم بما أخبر به قريشًا من اتفاق اليهود مع المسلمين، ومحاولة أخذ الرهائن، وحذَّرهم من ذلك.

ونجحت خطة نعيم ﷺ، وبدأ الشك يتسرب إلى نفوس الحلفاء، وأرادت قريش وغطفان أن يتأكدوا من صحة ما أخبرهم به نعيم، فأرسلوا عكرمة بن أبي جهل على رأس نفر من قريش وغطفان إلى بني قريظة يطلبون منهم الدخول في معركة حاسمة ضد محمد ﷺ حتى ينهوا ذلك الموقف المتجمد.

وردت قريظة بأن اليوم سبت، ونحن لا نفعل فيه شيئًا، ولسنا مع ذلك بالذي نقاتل معكم محمدًا حتى تعطونا رهنًا من رجالكم، يكونون بأيدينا دليلًا على صدقكم في مناجزة محمد، فإننا نخشى إن ضرستكم الحرب، واشتد عليكم القتال، أن تنشمروا إلى بلادكم وتتركونا، والرجال في بلدنا، ولا طاقة لنا بذلك منه.

لم تفاجأ قريش وغطفان بهذا الرد من قريظة، ولكنهم اعتبروه دليلًا على صدق نعيم ﷺ وإخلاصه، وأرسلوا إلى بني قريظة: لن نرسل إليكم رجلًا واحدًا من رجالنا، فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا وقاتلوا.

فقالت قريظة: إن الذي حدثكم به نعيم بن مسعود لحق.

وعاد نعيم ﷺ إلى الرسول ﷺ وأخبره بما فعل، وبما أصبح عليه حال الحلفاء، من اختلاف أمرهم، وتفرق جماعتهم، وتخاذلهم عن نصرة بعضهم». [تأملات في سيرة الرسول ﷺ للوكيل ١٨٢-١٨٧].

٣٧ـ تمزيق شمل العدو:

يقول د/ الغضبان: «أصح ما روي في قصة نعيم ﷺ ما أورده الزهري في حديثه عن ابن المسيب: فبينا هم كذلك إذ جاءهم نعيم بن مسعود الأشجعي، وكان يأمنه الفريقان، كان موادعًا لهما، فقال: إني كنت عند عيينة وأبي سفيان إذ جاءهم رسول بني قريظة: أن اثبتوا فإنا سنخالف المسلمين إلى بيضتهم (أي مجتمعهم وموضع سلطانهم، ومستقر دعوتهم)، قال النبي ﷺ: «**فلعلنا أمرناهم بذلك**»، وكان نعيم رجلًا لا يكتم الحديث، فقام بكلمة النبي ﷺ، فجاءه عمر ﷺ فقال: **يا رسول الله إن كان هذا الأمر من الله فامضه، وإن كان رأيًا منك فإن شأن قريش وبني قريظة أهون من أن يكون لأحد عليك فيه مقال**، فقال النبي ﷺ: «**عليَّ الرجل ردوه**»، فردوه فقال: «**انظر الذي ذكرنا لك، فلا تذكره لأحد**» فإنما أغراه، فانطلق حتى أتى

عيينة وأبا سفيان، فقال: هل سمعتم من محمد يقول قولًا إلا كان حقًّا؟ قالا: لا، قال: فإني لما ذكرت له شأن قريظة، قال: فلعلنا أمرناهم بذلك، قال أبو سفيان: سنعلم ذلك إن كان مكرًا، فأرسل إلى بني قريظة، أنكم قد أمرتمونا أن نثبت وأنكم ستخالفون المسلمين إلى بيضتهم فأعطونا بذلك رهينة، فقالوا: إنها دخلت ليلة السبت، وإنا لا نقضي في السبت شيئًا، فقال أبو سفيان: إنكم في مكر من بني قريظة، فارتحلوا، وأرسل الله عليهم الريح وقذف في قلوبهم الرعب، فأطفأت نيرانهم وقطعت أرسان (جمع رَسَن وهو الحبل الذي يقاد به البعير وغيره) خيولهم، وانطلقوا منهزمين من غير قتال، قال: فذلك حين يقول: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾ [الأحزاب]. [المصنف لعبد الرزاق ٥/ ٣٦٨، رقم ٩٧٣٧، هذه الرواية علقها عبد الرزاق عن الزهري فهي ضعيفة، لكن يشهد لبعض ما جاء فيها ما أخرجه البخاري ومسلم].

[مرويات الإمام الزهري في المغازي للعواجي ٥١٨-٥١٩].

(أ) فالرسول ﷺ عرف أعماق نعيم ﵁، وطبيعة شخصيته، والدور المزدوج له، فوجهه إلى ذلك، وحين طلب منه أن يكتم السر، فكأنما أغراه بإفشائه.

أما رواية موسى بن عقبة عن الزهري، فتشير بشكل أوضح إلى عظمة القائد المصطفى ﷺ في زرع الشك والبلبلة في صف الأحزاب واليهود.

«وَأَقْبَلَ رَجُلٌ مِنْ أَشْجَعَ يُقَالُ لَهُ: نُعَيْمُ بْنُ مَسْعُودٍ، يُذِيعُ الأَحَادِيثَ، وَقَدْ سَمِعَ الَّذِي أَرْسَلَتْ بِهِ قُرَيْشٌ وَغَطَفَانُ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ، وَالَّذِي رَجَعُوا إِلَيْهِمْ، فَلَمَّا رَآهُ رَسُولُ الله ﷺ أَشَارَ إِلَيْهِ وَذَلِكَ عِشَاءً، فَأَقْبَلَ نُعَيْمُ بْنُ مَسْعُودٍ حَتَّى دَخَلَ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ قُبَّةٌ لَهُ تُرْكِيَّةٌ، وَمَعَهُ نَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ: «مَا وَرَاءَكَ؟»، قَالَ: **إِنَّهُ وَالله مَا لَكَ طَاقَةٌ بِالقَوْمِ وَقَدْ تَحَزَّبُوا عَلَيْكَ وَهُمْ مُعَاجِلُوكَ، وَقَدْ بَعَثُوا إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ أَنَّهُ قَدْ طَالَ ثَوَاؤُنَا، وَأَجْدَبَ مَا حَوْلَنَا، وَقَدْ أَحْبَبْنَا أَنْ نُعَاجِلَ مُحَمَّدًا وَأَصْحَابَهُ فَنَسْتَرِيحَ مِنْهُمْ، فَأَرْسَلَتْ إِلَيْهِمْ بَنُو قُرَيْظَةَ أَنْ نِعْمَ مَا رَأَيْتُمْ، فَإِذَا شِئْتُمْ فَابْعَثُوا بِالرَّهْنِ ثُمَّ لَا يَحْبِسُكُمْ إِلَّا أَنْفُسُكُمْ**، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ: «**إِنِّي مُسِرٌّ إِلَيْكَ شَيْئًا فَلَا تَذْكُرْهُ**»، قَالَ: نَعَمْ، قَالَ ﷺ: «**إِنَّهُمْ قَدْ أَرْسَلُوا إِلَيَّ يَدْعُونَنِي إِلَى الصُّلحِ وَأَرُدُّ بَنِي النَّضِيرِ إِلَى دُورِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ**».

فَخَرَجَ نُعَيْمٌ مِنْ عِنْدِ رَسُولِ الله ﷺ إِلَى غَطَفَانَ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**إِنَّ الحَرْبَ خَدْعَةٌ، وَعَسَى اللهُ أَنْ يَصْنَعَ لَنَا**». [دلائل النبوة للبيهقي ٣/ ٤٠٤-٤٠٥، وتعددت الروايات وبعضها عن ثقات رغم أنها مرسلة، توضحها رواية الواقدي التي تشير إلى تردد نعيم ﵁ أكثر من مرة إلى رسول الله ﷺ، وأنه كان يرعى الخطة بكل جزئياتها وآثارها، وما ذكره البيهقي في روايته عن رغبة يهود في الصلح، تجليها رواية الواقدي إلى أن نعيمًا هو الذي أقنع اليهود بذلك، ولم يحدث ﷺ فيها إلا عند صدق، ضمن التوجيه النبوي لجزئيات الخطة، وبذلك ينتفي التعارض بين الروايات، حيث إن رسول الله ﷺ كان حريصًا على كتمان إسلام نعيم ﵁؛ حتى لا تتعرض الخطة لخلل].

(ب) وتبدو المحاولة الثانية في تمزيق شمل العدو من القائد الأعظم ﷺ حين عرض ثلث ثمار المدينة على غطفان مقابل انسحابها من المعركة.

(ج) لم يكن هناك همٌّ للقائد الأعظم ﷺ أكبر من فك الحصار، وتفتيت شمل العدو، وتوهين صفِّه، فكانت المحاولة الأولى عن طريق عرض ثلث ثمار المدينة على غطفان، ثم رفض السعدان ذلك، مصممين على الصبر والتضحية، دون تقديم تمرة واحدة للعدو مقابل تراجعه، ثم كانت العملية الثانية، التي زرعت البلبلة والشك في الصف بين اليهود وقريش وغطفان، وأثمرت ثمرتها المرجوة، حيث عجز حيي بن أخطب أن يرأب الصدع، أو يقيد لحمة الصف بين الفريقين، ثم كانت العملية الثالثة العظيمة داخل صف الأحزاب بين قريش وحلفائها ـ غطفان وأسد وسليم ـ كما ذكرت رواية الإمام البيهقي حيث بعث حذيفة إلى داخل صف الأحزاب، وفيها قال حذيفة ﷺ: فَقُلْتُ: وَالله مَا بِي أَنْ أُقْتَلَ، وَلَكِنِّي أَخْشَى أَنْ أُؤْسَرَ، فَقَالَ: «**إِنَّكَ لَنْ تُؤْسَرَ**»، فَقُلْتُ: مُرْنِي يَا رَسُولَ الله بِمَا شِئْتَ، فَقَالَ ﷺ: «**اذْهَبْ حَتَّى تَدْخُلَ بَيْنَ ظَهْرَيِ الْقَوْمِ، فَأْتِ قُرَيْشًا فَقُلْ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، إِنَّمَا يُرِيدُ النَّاسُ إِذَا كَانَ غَدًا أَنْ يَقُولُوا: أَيْنَ قُرَيْشٌ؟ أَيْنَ قَادَةُ النَّاسِ؟ أَيْنَ رُؤُوسُ النَّاسِ؟ فَيُقَدِّمُوكُمْ فَتَصْلَوَا الْقِتَالَ، فَيَكُونُ الْقَتْلُ فِيكُمْ، ثُمَّ ائْتِ بَنِي كِنَانَةَ فَقُلْ: يَا مَعْشَرَ بَنِي كِنَانَةَ، إِنَّمَا يُرِيدُ النَّاسُ إِذَا كَانَ غَدًا أَنْ يَقُولُوا: أَيْنَ بَنُو كِنَانَةَ؟ أَيْنَ رُمَاةُ الْحَدَقِ؟ فَيُقَدِّمُوكُمْ فَتَصْلَوَا الْقِتَالَ، فَيَكُونُ الْقَتْلُ فِيكُمْ، ثُمَّ ائْتِ قَيْسًا فَقُلْ: يَا مَعْشَرَ قَيْسٍ، إِنَّمَا يُرِيدُ النَّاسُ إِذَا كَانَ غَدًا أَنْ يَقُولُوا: أَيْنَ قَيْسٌ؟ أَيْنَ أَحْلَاسُ الْخَيْلِ؟ أَيْنَ الْفُرْسَانُ؟ فَيُقَدِّمُوكُمْ فَتَصْلَوَا الْقِتَالَ، فَيَكُونُ الْقَتْلُ فِيكُمْ**»، وَقَالَ لِي: «**لَا تُحْدِثُ فِي سِلَاحِكَ شَيْئًا حَتَّى تَأْتِيَنِي فَتَرَانِي**». [دلائل النبوة للبيهقي ٣/ ٤٥٤].

وتشير رواية البيهقي الثانية إلى نجاح هذه الخطة تمامًا، فحذيفة ﷺ هو المكلف بالنداء الأول والثاني: «فَلَمَّا دَنَا الصُّبْحُ نَادَى: أَيْنَ قُرَيْشٌ؟ أَيْنَ رُؤُوسُ النَّاسِ؟ فَقَالُوا: أَيْهَاتَ هَذَا الَّذِي أُتِينَا بِهِ الْبَارِحَةَ، أَيْنَ بَنُو كِنَانَةَ؟ وَأَيْنَ الرُّمَاةُ؟ فَقَالُوا: أَيْهَاتَ هَذَا الَّذِي أُتِينَا بِهِ الْبَارِحَةَ، أَيْنَ قَيْسٌ؟ أَيْنَ أَحْلَاسُ الْخَيْلِ؟ أَيْنَ الْفُرْسَانُ؟ فَقَالُوا: أَيْهَاتَ هَذَا الَّذِي أُتِينَا بِهِ الْبَارِحَةَ، فَتَخَاذَلُوا، وَبَعَثَ اللهُ عَلَيْهِمْ تِلْكَ الرِّيحَ». [دلائل النبوة ٣/ ٤٥٤-٤٥٥].

وبذلك لم يدع ﷺ فرصة إلا استثمرها للنفاذ إلى قلب العدو، وتحطيم معنوياته من جهة، وتمزيق صفه من جهة أخرى، وما إرسال حذيفة في هذا الظرف العصيب من الريح إلا ليكون على بينة من أثر الخطط التي بُذلت لتحطيم الحصار المضروب، وكان فعل الريح في الحقيقة أضخم من أي فعل آخر في نفس العدو، جعلت القيادة العليا للجيش التي يمثلها أبو سفيان، تُصر على الرحيل والرعب يملأ قلوبهم جميعًا، خشية أن يلحق بهم محمد وأصحابه، فأي قيادة في هذا الوجود، تعيش خططها، وترعاها، وتقوم

على تنفيذها، وتعيش واقع جنودها مثل هذه القيادة؟! وتصل إلى هذه النتائج العظيمة بأقل قدر ممكن من الخسائر، بسبعة شهداء فقط وبدون قتال». [التربية القيادية للغضبان ٤/ ٣٣-٣٦].

٣٨ ـ الحرب خدعة [(١)]:

يقول ل/ خطاب: «رأينا أثر الإشاعات التي بثَّها نُعَيم بن مسعود ﷺ في تفريق كلمة الأحزاب، ولا يمكن نجاح الأحزاب أو غيرهم إلا بجمع الكلمة، فلما تفرقت كلمتهم، كان نصيبهم الإخفاق.

إن الحرب الحديثة تعتمد على بث الإشاعات المثيرة لتصديع الصفوف وبلبلة الأفكار، وقسم بث الإشاعات من أهم أقسام شُعب الاستخبارات في تشكيلات الجيوش، وهي أسلوب من أشد أساليب الحرب النفسية فتكًا.

وبقدر ما كانت الإشاعة تعمل عملها في صفوف الأحزاب، فإن الإشاعة لم يكن لها أي أثر في صفوف المسلمين.

حاول المنافقون أن يبثوا سموم إشاعاتهم لتحطيم معنويات المسلمين، ولكن محاولتهم فشلت.

وعندما أرسل الرسول ﷺ أصحابه لمعرفة موقف بني قريظة، وعاد هؤلاء إليه بعد أن تأكدوا من صحة إشاعة نكث بني قريظة بعهودها، حرصوا على أن يخبروا الرسول ﷺ بهذا الخبر بأسلوب من الكلام لا يفهمه غير الرسول ﷺ نفسه، فقد أخبروه بالرمز دون الإفصاح حتى لا يؤثر هذا الخبر في معنويات المسلمين.

لقد عرف المسلمون أثر الإشاعة في المعنويات قبل أربعة عشر قرنًا». [الرسول القائد ﷺ لخطاب ٢٣٨].

ويقول د/ الفنيسان: «جاء في الأثر: (**لست بالخب، ولا الخب يخدعني**) [(٢)] أي ليس من خلقي ولا شيمتي الخداع، أو أن أبدأ به غيري، وعندي من الفطنة والحذر ما يسد طريق المخادع إن أرادني.

وقد تبين هذا واضحًا جليًّا في قصة نعيم بن مسعود ﷺ مع قادة الأحزاب، فقد يفعل الفردُ برأيه ما لا تفعله الجماعة بعدتها..». [غزوة الأحزاب للفنيسان ٢٢٨].

ويقول د/ أبو خليل: «جاء في كتاب (المجتنى): يرى أن المماكرة في الحرب أنفع من المكاثرة والإقدام من غير علم، ومنه قول بعض الحكماء: «نفاذ الرأي في الحرب، أنفع من الطعن والضرب».

[المجتنى لأبي بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي ص ٢٣ ـ ط دار الفكر ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م].

---

(١) سبق تفصيل هذا الدرس في الدروس العسكرية من المرحلة الأولى من غزوة بدر الكبرى.

(٢) قول لعمر بن الخطاب ﷺ، وأصله ثابت في حديث أبي هريرة ﷺ: **«المؤمن غر كريم، والفاجر خب لئيم»** أخرجه الحاكم في المستدرك ١/ ٤٣.

وقال الإمام النووي: «اتفقوا على جواز خداع الكفار في الحرب كيفما أمكن إلا أن يكون فيه نقض عهد، أو أمان، فلا يجوز».

وفي عبارة «الحرب خدعة» إشارة لطيفة إلى مكر العدو، وفيها تحذير من خداعه أيضًا، وأنه لا ينبغي التهاون به، فقد يلجأ إلى الخداع، فإن لم يتيقظ لذلك لم يأمن المسلم أن ينعكس الأمر عليه.

وفي الحديث أيضًا إشارة إلى استعمال الرأي في الحرب، بل استخدام الرأي يسبق الشجاعة؛ فلذا قصر الحرب على الخدعة في قوله ﷺ:

«الحرب خدعة»، فهو كقوله ﷺ: «الحج عرفة».

«الحرب خدعة»: أي ينقضي أمرها بالمخادعة.

نصت المادة ٢٤ من اتفاقية الحرب البرية لسنة (١٩٠٧) على أنه يجوز للدول المحاربة أن تلجأ في الحرب إلى الخدع بشرط ألا تصل إلى درجة الغدر والخيانة أو الإخلال بواجباتها [(١)].

وهذا النص الدولي المعمول به حاليًا، خُلُق إسلامي راعاه الإسلام منذ أيامه الأولى».

[غزوة الخندق لأبي خليل ١٢٤- ١٢٦، وينظر للتفصيل: الأحكام الفقهية المستفادة من غزوة الأحزاب وبني قريظة للعبد اللطيف ١٠٧-١١٥].

---

(١) راجع: الحرب في القانون الدولي العام، للعميد بشير مراد، ص ١١٣، ط ١٩٧٣، ومن الحيل والخدع المشروعة في الحروب:

- المناورات والحشد الكاذب لاجتذاب قوات العدو إلى مكان ما. وتركيز الجهد على قواته في اتجاه آخر لحمله على تغيير مراكز قواته، أو مفاجأته بغير ما يتوقع.
- التظاهر بالانسحاب واستدراج العدو إلى حيث يمكن القضاء عليه.
- مفاجأة العدو بالهجوم ليلًا أو في أنواء صعبة أو في مواقع لا يتوقع الهجوم منها.
- بث الألغام في طريق تقدمه.
- التخفي والاستتار عن أنظار العدو وأخذه على حين غرة.
- تضليله بإيصال معلومات كاذبة معينة لحمله على تغيير مراكز قواته أو مفاجأته.
- تكوين طابور خامس في بلاد العدو والاستعانة به لتفسيخ الجبهة الداخلية للعدو عن طريق إثارة الفتن وبث الشائعات وروح التفرقة لتشتيت جهده وبعثرة قواه.
- الحرب النفسية، وهي أساليب تؤدي إلى إضعاف ثقة الخصم بنفسه، وتوهين عزيمته، وحل روحه المعنوية، وإضعاف إرادة القتال لديه.
- السعي للحصول على المعلومات عن قوات العدو وحجمها وخططها بواسطة كافة وسائل الاستعلام بما فيها الجاسوسية.

٣٩ ـ ما يُخدع العدو بمثل ما يفرق صفّه ويشتت شمله:

يقول د/ فيض الله: «لما أصر المسلمون على مواجهة الأحزاب، ورفضوا مصالحة غطفان على ثلث ثمار المدينة، استمسكوا بالأصل، وهو العزيمة، فاستعدوا بذلك ـ لمقارعة السلاح، ولبذل الأرواح، وباعوا أنفسهم في سبيل الله؛ وكانوا في ذلك جادين، وكانوا صادقين، وكانوا منسجمين مع عقد البيعة الذي صوره القرآن الكريم بقوله: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ﴾ [التوبة: ١١١] أتم ما يكون الانسجام.

فرضي الله ـ تعالى ـ عن موقفهم، وبارك لهم فيه، وحفظ عليهم أرواحهم، وسخر لهم جنوده الذي لا يعلمها إلا هو، لتدافع عنهم، وتخدمهم، وتصرف كيد العدو عنهم:

تَأَخَّرْتُ أَسْتَبْقِي الحَيَاةَ فَلَمْ أَجِدْ … لِنَفْسِي حَياةً مِثْلَ أَنْ أَتَقَدَّمَا

فقذف إلى النبي ﷺ بنعيم بن مسعود الأشجعي الغطفاني، وكان صديقًا لقريش ولليهود، يتمتع بسمعة بارزة مطبقة فيهما، وقد عرض على النبي ﷺ نفسه ليستخدمه فيما يشاء، فاستقل فرديته في هذه الجيوش المتلاطمة، لكنه لم يهدر فعاليته، فلعله يصنع شيئًا، وهو في موقفه ذلك بحاجة إلى أي شيء، وقال له تلك الكلمة الغالية الكبيرة الجامعة: «**إِنَّمَا أَنْتَ فِينَا رَجُلٌ وَاحِدٌ، فَخَذِّلْ عَنَّا إِنِ اسْتَطَعْتَ، فَإِنَّ الحَرْبَ خَدْعَةٌ**».

ومعنى التخذيل هنا، حمل العدو على الفشل، وترك القتال، والإغراء بالقعود عن الحرب، وحب السلامة.

ومعنى أن الحرب خدعة، أنها تقوم على إظهار غير ما نخفيه للعدو، وإلحاق المكروه به من حيث لا يعلمه؛ معناه أن الحرب الكاملة الحقة والحرب الجيدة المفيدة، هي التي تقوم على المخادعة لا المواجهة، وذلك لخطر المواجهة، وحصول المقصود والظفر مع المخادعة من غير خطر.

وفي هاتين الجملتين شحنات هائلة ثمينة من الأسلحة المعنوية الفتاكة، التي تغني عن الكثير من أسلحة الحديد الثقيلة، والتي تفعل في العدو أكثر مما تفعله الذرة في أيامنا؛ إنها تعصف بالقوى، وتُذَوِّبُ الجيوش، وتدك الجبال، وتذر الديار بلاقع.

أرأيت إلى توجيه كلام من عل، أَسْتَمَعْتَ إلى كلام رسول الله ﷺ القائد، وفيه العزة ـ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ـ وفيه الإشارة البليغة إلى التكليف الواجب، والتوجيه السديد، والعمل المثمر؟

الحرب خدعة، من جوامع الكلم، التي أوتيها سيدنا رسول الله ﷺ والتي كان بسببها في المحل الأول، من فصحاء العرب، كما قال: «**أنا أفصح العرب، بيد أني من قريش**».

[هكذا رواه القاضي عياض في الشفاء].

ويروى: «**أنا أعربكم، أنا من قريش**». [رواه ابن سعد مرسلًا].

وهكذا استعان النبي ﷺ في حربه، حتى في طاقة الفرد الواحد.

وهكذا أحسن النبي ﷺ توجيهه إلى ما ينبغي أن يفعله في هذا الظرف العصيب المربك.

وهكذا أيضًا، وصَّاه أن يكتم عن قومه إسلامَه، كيلا يتسرب إلى قومه الشك في مهمته التي يقوم بها.

وهكذا نجحت هذه الخدعة التي قام بها ذلك الفرد الواحد، الذي سخره الله للمسلمين في أحلك الأوقات.

وتعتبر هذه الخديعة تطبيقًا كاملًا للحديث المذكور، إذ ضرب بها بين قلوب بني قريظة وبين قلوب قريش، حتى تشكك كل فريق في نوايا الفريق الآخر، واحترس كلٌّ من صاحبه، فكان ذلك سببًا في تفتيت الأحزاب، وتفشيل اتحادها ضد المسلمين؛ وكانت المماكرة المسلمة خيرًا من المكاثرة الكافرة.

وسنرى ـ في فتح مكة ـ إن شاء الله تعالى ـ كيف أن رسولَ الله ﷺ نفسَه عمد إلى حيلةٍ، رَدَعَ بها أبا سفيان، وخدعه؛ ذلك أنه أمر العباس بحبس أبي سفيان في مضيق الوادي عند خطم الجبل، حتى تمر به جنود المسلمين، وكان كذلك، فكانت تمر به القبائل قبيلة فقبيلة فيراها، فيقول: مَنْ هؤلاءِ يا عباس؟ حتى قال أخيرًا: ما لأحدٍ بهؤلاء قِبَلٌ ولا طاقة؛ والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملكُ ابنِ أخيك الغداةَ عظيمًا، فقال العباس: إنها النبوة، فقال أبو سفيان: فَنِعِمَّ إذن.

ومن هذا القبيل أنه ﷺ كان إذا أراد غزوة ورَّى بغيرها، وأنه لم يحل الكذب إلا في ثلاث، منها الحرب، وفي حديث ابن أبي حاتم عن النواس بن سمعان ﷺ قال: بعث النبي ﷺ سرية، فقال: «**تهافتوا في الكذب تهافت الفراش في النار، إن كل كذب مكتوب إلا أن يكذب الرجل في الحرب، فإن الحرب خدعة**».

وفي هذا قال ابن العربي: «الكذب في الحرب من المستثنى الجائز بالنص، رفقًا بالمسلمين؛ لحاجتهم إليه».

ولعل هذا أيضًا من مشمولات القوة في الحرب والسلاح الذي أمر به القرآن الكريم بقوله: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ﴾ [الأنفال: ٦٠].

وإذًا، فلا حرج على المسلمين في اللجوء إلى الحيلة والخديعة في قتال عدوهم، وعلى التخصيص إذا كان العدو يستخدم سلاح الشائعات والأراجيف الكاذبة، والأنباء المُزَوَّرَةِ، بقصد بلبلة الأفكار، وإضعاف الروح المعنوية في المسلمين، مستعينًا على ذلك بالصحف والإذاعات، والمنشورات والبرقيات وغيرها.

ومن هنا يعرف أهل الحق كيف يساير الإسلام الزمن، ويحالف القوة، وأسباب الانتصار، المادية والمعنوية؛ ويعرفون ما في الإسلام من قدرة على مواجهة كل ما يطالعهم به العدو، من مَكِنَات وقدرات، واكتشافات واختراعات». [صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة لفيض الله ٢٤١-٢٤٤].

٤٠ ـ أهمية بَثِّ الإشاعات في صفوف الأعداء لِلنَّيْلِ من معنوياتهم:

يقول د/ الرشيد: «تعتمد الحروب على الخداع والتضليل، ومن ذلك بثُّ الإشاعات والأراجيف في صفوف الأعداء، وفي غزوة الأحزاب تكالب على المسلمين عدَّةُ طوائف، من قبائل العرب واليهود، الذين يقيمون في المدينة وما جاورها.

وقد أدرك النبي ﷺ أن المسلمين لا قِبَلَ لهم بهذه الجموع الكثيرة، التي تفوقهم في العدد والعُدَّة، فلابد إذًا من الأخذ بأسلوبٍ سِرِّيٍّ، لتفريق جموع الأحزاب، وكسر صيغة التحالف الذي عُقِدَ للقضاء على المسلمين.

فتجلى هذا الأسلوب في التخذيل بين صفوف مختلف طوائف الأحزاب، حيث هَيَّأَ الله لهذا الأمرِ شخصيةً فَذَّةً، وَضَعَتْ إمكاناتها تحت تصرف الرسول ﷺ، ذلك هو (نعيم الغطفاني رضي الله عنه) الذي كان حديثَ عَهْدٍ بإسلام، وقد كتمه عن الأعداء فاستطاع بذلك أن يُثَبِّطَ قومًا عن قومٍ، وأن يُوقِعَ بينهم شرًّا، حتى كانت كلُّ فئةٍ ترى أنه ينصح لها، وبهذا اندفع كيدُ الأحزاب عن المؤمنين.

[ينظر: غزوة الأحزاب للشيخ باشميل ص ٢٤٨-٢٥٠].

وفيما فعله (نعيم رضي الله عنه) دلالةٌ واضحةٌ على أن بَثَّ الإشاعات والأراجيف بين صفوف الأعداء، يؤثرُ ما لا يؤثره جيشٌ كبيرٌ، مع عدم تعريض الجند للخطر، وبذل الأموال الكثيرة في تجهيزهم للقتال».

[القيادة العسكرية في عهد الرسول ﷺ للرشيد ٤٧٦-٤٧٧].

ويقول د/ الفنيسان: «الإشاعة التي قام بها نعيم بن مسعود رضي الله عنه على تفريق قوى الأحزاب بأمر الرسول ﷺ، كان لها أثر بالغ في انتصار المسلمين على أعدائهم، والحرب الحديثة تعتمد على بث الإشاعات لتصديع الصفوف وبلبلة الأفكار، وقسم بث الإشاعات من أهم أقسام شعب الاستخبارات في تشكيلات الجيوش، وبقدر ما كانت الإشاعة تعمل عملها في صفوف الأحزاب فإن الإشاعة لم يكن لها أثر في صفوف المسلمين، حاول المنافقون أن يبثوا سموم إشاعتهم لتحطيم معنويات المسلمين، ولكن محاولاتهم فشلت» [الرسول القائد ﷺ لخطاب ١٥٧].

[غزوة الأحزاب للفنيسان ٢٣٩، وينظر درس: حكم نشر الشائعات في صفوف العلو، من الدروس الفقهية].

٤١ ـ الأسس التي ساعدت في نجاح مهمة نعيم رضي الله عنه:

يقول عميد / فرج: «لقد اعتمدتْ مهمة نُعيم رضي الله عنه على أسس ساعدت في نجاحها:

(١) منها أنه أخفى إسلامه على كافة الأطراف، فوثق كل طرف فيما قَدَّمَهُ له من نُصْحٍ.

(٢) ومنها أنه ذكَّر بني قريظة بما آل إليه أمر بني قينقاع وبني النضير، وبصَّرَهم بالمستقبل الذي ينتظرهم إذا هم بقوا على حربهم لمحمد ﷺ، ولاشك في أن هذا كان له أثر في تغيير تفكيرهم وقلبِ مُخَطَّطَاتِهِم العُدْوانية.

(٣) ومنها أنه نجح في إقناع الأطراف بأن يكتم كلُّ طرفٍ ما قاله له، وفي استمرار هذا الكتمان نجاح لمهمته، فلو أن أمره انكشف لدى أي طرف من الأطراف لفشلت مهمته.

ولقد حقق نعيم ﷺ بجولته مع بني قريظة ونجاحه في تخذيلها هدفين كان لهما أثر كبير على الجبهة الإسلامية:

(١) فبنو قريظة يسكنون المدينة، ودخولهم في الخلف يشكل خطرًا على المسلمين، وقد أصبح هؤلاء بعد انسحاب بني قريظة في أمان، فقد اطمأنوا إلى أن هؤلاء لن يقوموا بعمل عسكري ضدهم، فأمنوا لذلك ألا تأتيهم طعنة من خلف وهم مشغولون بمواجهة خصمهم الرئيس من أمام.

(٢) وبجانب ذلك فإن المسلمين قد اطمأنوا إلى أن بني قريظة ستستمر في إمدادهم بالمؤن التي يتطلبها الموقف، وهم في أشد الحاجة إليها؛ لانشغالهم بمهمة المواجهة عن توفير احتياجاتهم منها، والجيوش كما قال نابليون تسير على بطونها، وبدون هذه الإمدادات تضعف القدرة على المواجهة والقتال.

وهكذا فَقَدَ التحالف قوته وتفرقت جماعاته وانعدمت الثقة وتوترت الأعصاب وسئمت النفوس طول المقام». [العبقرية العسكرية في غزوات الرسول ﷺ لفرج ٢٩٥-٢٩٦].

٤٢ ـ عدم إظهار الهوية في معسكر الأعداء:

يقول د/ أبو فارس: «عدم شيوع إسلام نعيم ﷺ وكتمانه حقق مصلحة عامة للمسلمين، في أحلك الظروف، وهذه فائدة من فوائد الكتمان.

ويستفاد من هذا أن الذي تُوكل له أعمال خاصة في معسكر العدو ينبغي أن يكون غير معروف بهويته واتجاهه عند عدوه حتى لا تَحول هذه المعرفة بينه وبين تحقيق مصلحة المسلمين، ولا يعني بحال أن يكتم الناس إسلامهم، فهذا تفكير خطير يؤدي إلى موت الجماعة وضمور الدعوة في نفوس الناس، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [فُصِّلَت]».

[غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٧٨].

٤٣ ـ لابد من الالتجاء إلى الله بصدق في الحروب واستنزال النصر من عنده مع إعداد القوة:

يقول د/ فيض الله: «أفرغ المسلمون جهدهم في حرب الأحزاب، فحفروا الخندق، واستعدوا للمواجهة، مع قلة العدد والعدة، وركنوا إلى الحيلة والخديعة في الحرب، وهي السلاح المُجْدِي الثاني بعد

الخندق؛ ومع ذلك، فقد كانوا في كرب ظاهر، وموقف عصيب، وصفه القرآن الكريم بقوله: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾﴾ [الأحزاب].

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ قَالَ: قُلْنَا يَوْمَ الْخَنْدَقِ: يَا رَسُولَ الله، هَلْ مِنْ شَيْءٍ نَقُولُهُ، فَقَدْ بَلَغَتْ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ، قَالَ ﷺ: «**نَعَمْ، اللَّهُمَّ اسْتُرْ عَوْرَاتِنَا، وَآمِنْ رَوْعَاتِنَا**»، قَالَ: فَضَرَبَ اللهُ ﷻ وُجُوهَ أَعْدَائِهِ بِالرِّيحِ، فَهَزَمَهُمْ اللهُ ﷻ بِالرِّيحِ. [مسند أحمد ١٧/ ٢٧ رقم ١٠٩٩٦، وقال الشيخ الأرناؤوط: إسناده ضعيف].

وعَنْ عَبْدِ الله بْنِ أَبِي أَوْفَى رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ فِي بَعْضِ أَيَّامِهِ الَّتِي لَقِيَ فِيهَا [العَدُوَّ] انْتَظَرَ حَتَّى مَالَتْ الشَّمْسُ، ثُمَّ قَامَ فِي النَّاسِ خَطِيبًا، قَالَ: «**[يَا] أَيُّهَا النَّاسُ، لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ، وَسَلُوا [وَاسْأَلُوا] اللهَ [تَعَالَى] الْعَافِيَةَ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ**»، ثُمَّ قَالَ: «**اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الْكِتَابِ، وَمُجْرِيَ السَّحَابِ، وَهَازِمَ الْأَحْزَابِ اهْزِمْهُمْ وَانْصُرْنَا عَلَيْهِمْ**».

[البخاري في الجهاد (٢٩٦٦)، ومواضع أخرى، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٤٢)، وأبو داود في الجهاد (٢٦٣١)، ومسند أحمد ٣١/ ٤٦٠ رقم ١٩١١٤].

وهذا الحديث يشير ـ وفي هذا الظرف أيضًا على التخصيص ـ إلى أن الحرب في الإسلام ضرورة لا هدف، وحين تقع هذه الضرورة لابد للمسلم من الصبر في ميادين القتال؛ لأنها من ساحات الجنان.

أما النصر، فهو من عند الله، فالله الذي نزَّل الكتب هداية للعالمين، وأجرى السُّحُب سُقيًا للناس، وإنماءً للزرع وإملاءً للضرع، وهزم أحزاب الكفار الذين كذبوا الرسل، هو القادر وحده على أن يهزمَهم اليومَ، وينصرَنا عليهم.

فالحديث يشير إلى ما نحن بصدده، وهو أن القوة والصبر في المعارك، لا يُحتِّمان النصرَ؛ لأنه منحةٌ من الله، فينبغي التضرع به إليه، واستنزاله من لَدُنْهُ.

وقد علَّمَنَا هذا الحديثُ أدبَ تقديمِ صفاتِ الله تعالى، وأسمائه، بين يدي دعواتنا، فهو أدعى للإجابة.

فالدعاء المخلص، والاتجاه الصادق، واستنزاف الطاقة المادية، هو كل ما وَسِع المسلمين فعله، في هذه الغزوة، وبقى بعد هذا أن تتدخل العناية الإلهية، فتنصر المُعْتَدَى عليه، وتهزم المعتدِي الظالم، وكذلك كان.

أرسل الله الريح الهوجاء العاصفة، فاقتلعت الخيام، وأَكْفَأَتْ القدور، وشلت الأعمال، وزلزلت الرجال، حتى استيأس زعيم الكفار أبو سفيان من النصر، في هذا الجو المُكْفَهِرّ، وقال كلمته يُرحل بها جنوده، ولم يحس المسلمون بهذه الريح، فكانت عليهم بردًا ورخاءً.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾﴾، ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ۚ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾ [الأحزاب]. [صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة لفيض الله ٢٤٧-٢٤٨].

٤٤ ـ تقديم أسلوب الترغيب والتشجيع على أسلوب الأمر:

يقول د/ الرشيد: «يُعَدُّ أسلوبُ الترغيب والتشجيع ذا أثرٍ فعَّالٍ على النفس، فتستجيب ـ بعد مشيئة الله ـ لما طُلِبَ منها.

وقد عَلَّمَ النبي ﷺ أمته بسنَّتِه القولية والفعلية أسلوب التعامل الناجح، إذ كان يبدأ أولًا بأسلوب الترغيب والتشجيع، فإن لم يُجْدِ هذا الأسلوبُ أخذهم بالأمر الجازم.

وفي هذه الغزوة طَبَّقَ النبي ﷺ هذا الأسلوب عندما بعث حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما ليأتيه بخبر الأعداء وماذا فعلوا ليلًا، فقال أولًا: «**أَلَا رَجُلٌ يَأْتِينَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللهُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ**».

فهذه دعوةٌ محبَّبَةٌ إلى كل واحدٍ من الصحابة، إذ إنهم أصلًا لم يخرجوا إلا طلبًا لرضوان الله وجنته، وعندما لم يُجْدِ هذا الأسلوب بعد أن كرره ثلاثَ مراتٍ، لجأ ﷺ إلى الأسلوب الثاني، وهو: «الأمر الجازم»، فَعَيَّنَ واحدًا بنفسه، فقال: «**قم يا حذيفةُ فائتنا بخبر القوم**»، فلما عيَّنه بنفسه لم يكن بُدٌّ من امتثاله.

وقد قرر العسكريون أن القيادة الناجحة هي التي توجه جنودها إلى أهدافها عن طريق الترغيب والتشجيع، ولا تلجأ إلى الأمر والحزم إلا عند الضرورة». [ينظر: المدخل إلى العقيدة والإستراتيجية العسكرية الإسلامية لمحفوظ ص ٢٩١ وما بعدها]. [القيادة العسكرية في عهد الرسول ﷺ للرشيد ٤٧٧-٤٧٨].

٤٥ ـ إذا دعا الأمير أحداً بعينه وجب أن يجيبه لوقته، وإن كان به عذر بيَّنه:

يقول د/ الفنيسان: «وجه هذا ما كان من النبي ﷺ من تعيينه حذيفة رضي الله عنه وتكليفه بمهمة الدخول بين الأحزاب ليأتيه بخبرهم». [غزوة الأحزاب للفنيسان ٢٢٩].

٤٦ ـ على الجنود تنفيذ أمر القائد بدقة متناهية:

يقول د/ فيض الله: «أراد النبي ﷺ أن يتعرف على أثر فعلة نعيم بن مسعود رضي الله عنه، في صفوف العدو، فانتدب ـ كما قد رأينا ـ حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما، وإزاء هذه المهمة، أوصاه بهذه التوصية الحكيمة المطلقة، غير محدد له مهمته، وقال: «**يَا حُذَيْفَةُ! فَاذْهَبْ فَادْخُل فِي الْقَوْمِ، فَانْظُرْ مَا يَفْعَلُونَ، وَلَا تُحْدِثَنَّ شَيْئًا حَتَّى تَأْتِيَنَا**».

حدود المهمة أن يذهب ويشهد ما يصنع القوم، وما يتحدثون، ثم يرجع فيصف للنبي ﷺ ما رأى وما سَمِعَ.

ثم نهاه عن تجاوز هذه المهمة، فلا يُحْدِثُ حَدَثًا، ولا يفعل فعلًا، حتى يعود.

وقد اندس حذيفة رضي الله عنه في القوم، وعاين اضطرابهم، وسمع كلام أبي سفيان زعيمهم، وكان قريبًا منه، بحيث إنه كان يراه ويسمعه؛ وكم حدَّثته نفسه، أن يسدد إليه سهمًا فيقتله، ويقضي على حملته، ويريح المسلمين منه؛ لكنه ذَكَرَ نهي النبي ﷺ وقوله: «**وَلَا تُحْدِثَنَّ شَيْئًا**»، فأمسك...

فهذا أصل في الأوامر العسكرية، التي يُلقيها الرؤساء إلى جنودهم، فإنه ينبغي التزامها، وتنفيذها بكل احتراس ودقة وأمانة، دون تزيُّد ولا تنقص؛ عَرف هذا الأصل العام المسلمون في فجر الإسلام، وطبقوه في حروبهم وغزواتهم، والتزموه كأحسن ما يكون الالتزام.

ولو قد فتح للمأمورين باب الاستصلاح، حيال الأوامر الصادرة إليهم، وإمكان التصرف بما تقضي به الظروف، أو تفرضه الأحوال والملابسات الخاصة حياله، لأدى ذلك إلى تعطيل الأوامر، وأصبحت بمثابة شيء لا معنى له، ولا وجود له؛ ولأصبح العمل مُفَوَّضًا إلى الجنود، كما لو لم يكن لهم قادة؛ وبذلك تَعُمُّ الفوضى، وتسوء الحال.

وهذا مما ينطوي تحت قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾[الأحزاب]». [صور وعبر لفيض الله ٢٤٥-٢٤٦].

ويقول د/ أبو فارس: «إن القارئ الكريم يلاحظ الانضباط العسكري الدقيق الذي كان يتمتع به حذيفة بن اليمان ﷺ، لقد كان باستطاعته أن يقتل أبا سفيان رأس الأحزاب، فلقد كان تحت رمية سهمه، وحدثته نفسه بذلك، ووضع سهمه في كبد قوسه ثم ذكر قول الرسول ﷺ: «**وَلَا تُحْدِثَنَّ شَيْئًا حَتَّى تَأْتِيَنَا**» فأمسك عن ذلك.

وقد يقع في روع بعض الشباب المتحمس حماسة زائدة حبذا لو تخلص حذيفة ﷺ من أبي سفيان، قائد الأحزاب وموجههم، وهذا مكسب عظيم لا يفوت وقد لا تواتي فرصة مثل هذه الفرصة.

لكننا نقول لهذا وأمثاله: إن الخير كل الخير، والرشد كل الرشد، والسداد كل السداد في تنفيذ أمر رسول الله ﷺ كما أمر دون زيادة أو نقصان.

ثم من يدري العواقب التي تترتب على قتل أبي سفيان؟ وهل هذه العواقب تكون لمصلحة المسلمين؟

أقول: لعل الأحزاب لو قُتل قائدها أبو سفيان، خاصة قريشًا، تستشيط غضبًا فتؤجج نار الحرب من جديد، وتثير روح الانتقام والثأر من المسلمين، وتُحكم الحصار على المسلمين، وتشدد في ذلك، والمسلمون بقيادة رسول الله ﷺ في أمس الحاجة لفك الحصار؛ لأنه قد بلغ منه الجهد، وساءت أحوالهم، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت، لقد زاغت الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر.

ولقد نبه النبي ﷺ إلى خطورة إحداث أي قتل في هذه المهمة الاستطلاعية بقوله ﷺ لحذيفة ﷺ: «**اذْهَبْ فَأْتِنِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ وَلَا تَذْعَرْهُمْ عَلَيَّ**».

قال الإمام النووي ﷺ في شرحه لهذه العبارة من الحديث: (لا تفزعهم عليَّ، ولا تحركهم، وقيل معناه: لا تنفرهم، وهو قريب من المعنى الأول) [شرح النووي على مسلم ١٢/ ١٤٥]».

[غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٩٣-١٩٤].

ويقول د/ الغضبان: «وفي طبيعة الالتزام المطلوب، وهو يرى هدفًا ثمينًا يمكن تحقيقه، أبو سفيان بن حرب قائد الأحزاب كلها، يضرم النار ويتدفأ عليها، ويضع سهمه في قوسه، وقبل لحظة الرمي للقضاء عليه وقتله، تذكر قول رسول الله ﷺ له قبل وداعه: «**لَا تُحْدِثَنَّ شَيْئًا حَتَّى تَأْتِيَنِي**»، وبذلك انقطعت كل الدوافع في داخله، في قتل قائد العدو، ولم تتمكن كل الرغبات الجامعة في التغيظ الشديد على أبي سفيان، وفي كسب الشهرة الكبرى بقتل قائد العدو، أمام الكلمة الحاسمة: «**لَا تُحْدِثَنَّ شَيْئًا**»، وأصبح الالتزام هو أعظم الدوافع جميعًا، والتي يستجيب لها المسلم، وحذيفة ﷺ لا ينسى في حياته ذلك الموقف المؤثر، يوم أخذ المشركون منه ومن أبيه عهدًا ألا يكون عونًا لرسول الله ﷺ في بدر [١]، وكيف طلب منه المصطفى ﷺ الوفاء بعهده ولو مع المشركين، يدرك مدى التربية على الالتزام في الدرس الذي شهده من نبيه، فيدع كل اجتهاداته جانبًا لينفذ الأمر المحدد». [التربية القيادية للغضبان ٤/ ٨٤].

٤٧ ـ الحنكة والدهاء وضبط الأعصاب من صفات رجل الاستخبارات في الحرب:

يقول د/ الفنيسان: «يظهر هذا من تصرف حذيفة ﷺ لما وصل إلى معسكر قريش وسمع أبا سفيان، يقول: «اخْذَرُوا الجَوَاسِيسَ وَالعُيُونَ، وَلْيَنْظُرْ كُلُّ رَجُلٍ جَلِيسَهُ، قَالَ: فَالتَفَتُّ إِلَى عَمْرِو بْنِ العَاصِ، فَقُلْتُ: مَنْ أَنتَ؟ وَهُوَ عَنْ يَمِينِي، فَقَالَ: عَمْرُو بْنُ العَاصِ، وَالتَفَتُّ إِلَى مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ، فَقُلْتُ: مَنْ أَنتَ؟ فَقَالَ: مُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ.

فقد أبعد التهمة عن نفسه لما سارع بسؤال جلسائه، فتبين أنهما زعيمان من زعمائهم، وضبط أعصابه وهو يرى عدوه أمامه وبين يديه ومعه سلاحه، وفي مكنته أن يقتله ولكنه لم يفعل.

إن هذا الموقف وأمثاله يدل على حنكة حذيفة ﷺ ودهائه، كما يدل على قدرة الرسول ﷺ القيادية والإدارية في اختياره الرجل المناسب للعمل المناسب». [غزوة الأحزاب للفنيسان ٢٤٣-٢٤٤].

ويقول د/ الغضبان: «ومثل هذا الرسول الذي يطلب منه ﷺ أن يكون جاسوسًا في قلب جيش العدو، لابد أن يملك من المؤهلات، والطاقات في سرعة البديهة، وحسن التصرف ما ينقذه من أي أزمة تواجهه، ولم يكن اختيار الصدِّيق ﷺ له اعتباطًا، بل كان عن خبرة به، وبإمكانياته حين رشحه لرسول الله ﷺ أن يقوم بهذه المهمة، والاختبار الصعب الذي مر به، وأثبت به كفاءته هو عندما شعرت قيادة العدو به، فأصدرت أمرًا مباشرًا: ليأخذ كل امرئ منكم بيد جليسه، وفي لفظ: فلينظر من جليسه. وفي رواية

---

(١) عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ اليَمَانِ ﷺ قَالَ: مَا مَنَعَنِي أَنْ أَشْهَدَ بَدْرًا إِلَّا أَنِّي خَرَجْتُ أَنَا وَأَبِي حُسَيْلٍ، فَأَخَذَنَا كُفَّارُ قُرَيْشٍ، فَقَالُوا: إِنَّكُمْ تُرِيدُونَ مُحَمَّدًا، قُلْنَا: مَا نُرِيدُهُ، مَا نُرِيدُ إِلَّا المَدِينَةَ، فَأَخَذُوا مِنَّا عَهْدَ اللهِ وَمِيثَاقَهُ لَنَنْصَرِفَنَّ إِلَى المَدِينَةِ، وَلَا نُقَاتِلُ مَعَهُ، فَأَتَيْنَا رَسُولَ اللهِ ﷺ فَأَخْبَرْنَاهُ الخَبَرَ، فَقَالَ: «**انْصَرِفَا، نَفِي بِعَهْدِهِمْ، وَنَسْتَعِينُ اللهَ عَلَيْهِمْ**». مسلم في الجهاد والسير (١٧٨٧)، ومسند أحمد ٣٨/ ٣٧٨ رقم ٢٣٣٥٥، ومستدرك الحاكم في معرفة الصحابة ﷺ (٤٩٠٨).

الواقدي: أن أبا سفيان قال: احذروا الجواسيس والعيون، ولينظر كل رجل إلى جليسه، في هذه اللحظة الخطرة التي تكوِّن المنعطف الحاد في نجاح المهمة أو فشلها، وفي كشف الجاسوس أو خفائه، تبدو سرعة البديهة في التصرف المناسب، وقد كان حذيفة على هذا المستوى العالي من الكفاءة يقول: فضربت بيدي على يد الذي عن يميني فأخذت بيده فقلت: من أنت؟ قال: معاوية بن أبي سفيان، ثم ضربت بيدي على يد الذي عن شمالي فقلت: من أنت؟ قال: عمرو بن العاص، فعلت ذلك خشية أن يفطن بي فبدرتهم بالمسألة». [التربية القيادية للغضبان ٤/ ٨٤].

ويقول د/ الوكيل: «إن مبادرة حذيفة ﷺ بسؤال جيرانه قبل أن يسألوه تدل على عبقرية فذة وأعصاب قوية، ولعل هذا هو السبب في اختيار الرسول ﷺ له ليقوم بهذه المهمة الخطيرة».
[تأملات في سيرة الرسول ﷺ للوكيل ١٨٨].

٤٨ ـ للمرأة أن تدافع عن نفسها إن لم تجد من يدافع عنها:

يقول د/ زيدان: «ذكرنا في الأحداث التي وقعت أثناء حصار المدينة من قِبَل المشركين، حادث قيام صفية بنت عبد المطلب ﷺ بقتل اليهودي من بني قريظة الذي كان يدور حول الحصن الذي وُضعت فيه النساء والذراري وليس له من رجال يحمونه؛ لأنهم ذهبوا إلى القتال، فاضطرت صفية أن تُرِي اليهود أن في الحصن قوة تحميه لا كما قد يظنون أنه خلو ممن يدافع عنه، فبدأته بضربه بعمود نزلت به من الحصن فقتلته، فكان ذلك رادعًا لليهود من التحرش بهذا الحصن لظنهم أن فيه قوة كافية تحميه.

ووجه الدلالة بهذا الحادث أن على الدعاة تفهيم نساء المسلمين أن عليهن واجب الدفاع عن أنفسهن ولو بالقتال إذا عدمن المدافع عنهن من الرجال، وأنه لا يجوز لهن الاستسلام أبدًا، وقد ذكرنا أيضًا أن نسوة مؤمنات كن يخرجن للجهاد مع المسلمين في غزواتهم، ومنها في غزوة أُحُد، وكيف أنهن قاتلن فعلًا ضد العدو بالسيف والرمح عندما اضطررن إلى ذلك.

وعلى هذا فلا مانع من تدريب النساء المسلمات على استعمال بعض الأسلحة الضرورية للدفاع عن النفس كالبندقية والرشاشة، ورمي القنبلة على المهاجِم ونحو ذلك، وأن يكون اشتراكهن في الحرب في الخطوط الخلفية ويقمن بما يقدرن عليه عادة ويحتاج الجنود من طبخ ونحوه مع حملهن السلاح الحقيقي الذي تدربن عليه للدفاع به عن أنفسهن عند الحاجة.

فعلى الدعاة تبيين هذه الحقائق للناس حتى يكونوا على علم بها، وتعرف النساء حدود الشرع في حمل المرأة السلاح واشتراكها مع الرجل في الحرب». [المستفاد من قصص القرآن لزيدان ٢/ ٢٦١].

٤٩ ـ فكرة جيدة يمكن العمل بها:

يقول د/ أبو فارس: «إن الشيء الذي فطن إليه أبو سفيان من أن نفرًا من المسلمين قد يدخلون في صفوف الأحزاب، ويكشفون أسرارهم، ويُلحقون الأضرار بهم، فما عليهم إلا أن يتنبهوا ويحذروا وجودهم بينهم.

واقترح طريقة ناجحة كل النجاح لو اتبعت في معرفة الغرباء على جيوش الأحزاب، وهي أن يتعرف كل إنسان على جاره، وبهذا يستطيع الجيش أن يتعرف على الغريب الذي دخل فيه بسهولة ويسر.

ويمكن للقائد المسلم أن يستفيد من طريقة أبي سفيان هذه في حروبه مع أعدائه إن خشي تسربًا إلى جيشه من جنود العدو فقد يموهون أنفسهم، أو يجدون ساعة غفلة من حارس فيدخلون معسكر المسلمين في جنح الظلام، ويحصلون على معلومات تضر بجيش المسلمين كله وقد تؤدي إلى تدميره».
[غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٩٥].

٥٠ ـ تأثير الجو «الطقس» على العمليات الحربية:

يقول د/ الفنيسان: «وافق حصار جيوش الأحزاب للمدينة فصل الشتاء، وكان شديدًا قارسًا فيه صواعق رعدية وعواصف رملية ورياح هوجاء مظلمة لا يستقيم معها بناء ولا تُوقد فيها نار، وفي هذا الجو الشاتي تُرابط جيوش الأحزاب في العراء وليس لديها من وسائل التدفئة أو الإعاشة ما يسد حاجاتها، وعلاوة على هذا فإن الأعراب في طبيعتهم أهل تنقل وارتحال، ويكرهون البقاء واللبث في مكان واحد مدة طويلة.

ولهذه الأسباب مجتمعة وغيرها انهزم الأحزاب». [غزوة الأحزاب للفنيسان ٢٣٩-٢٤٠].

٥١ ـ غزوة الأحزاب أو الحرب الباردة:

يقول م/ أبو راس: «فرغ رسول الله ﷺ من حفر الخندق هو وأصحابه، الذين وزعهم ـ رضوان الله عليهم ـ في أماكنهم متجهة تجاه المحاصرين الذين هالهم ما رأوا وقالوا قولتهم المشهورة: «**وَاللهِ إِنَّ هَذِهِ لَمَكِيدَةٌ مَا كَانَتْ العَرَبُ تَكِيدُهَا**» وضاق صدر الكفار من استمرار هذا الحصار إذ إنهم ما تعودوا في حروبهم كلها أن يقفوا على هذا النحو، الأمر الذي دفع بعمرو بن عبد ود، وعكرمة بن أبي جهل، وضرار بن الخطاب إلى أن يتيمموا مكانًا ضيقًا من الخندق حيث ضربوا خيلهم حتى اقتحمته.. فأسرع المسلمون بعد أن أحسوا بالخطر، ليسدوا هذه الثغرة وكان على رأسهم علي بن أبي طالب ـ كرم الله وجهه ـ الذي قال لعمرو بن عبد ود وكان فارس العرب: يَا عَمْرُو! إِنَّكَ قَدْ كُنْتَ عَاهَدْتَ اللهَ أَلَّا يَدْعُوكَ رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ إِلَى إِحْدَى خَلَّتَيْنِ إِلَّا أَخَذْتَهَا مِنْهُ، قَالَ لَهُ: أَجَل، قَالَ لَهُ عَلِيٌّ ﷺ: فَإِنِّي أَدْعُوكَ إِلَى اللهِ، وَإِلَى رَسُولِهِ،

وَإِلَى الإِسْلَامِ، قَالَ: لَا حَاجَةَ لِي بِذَلِكَ، قَالَ: فَإِنِّي أَدْعُوكَ إِلَى النِّزَالِ، فَقَالَ لَهُ: لِمَ يَا ابْنَ أَخِي؟ فَوَاللهِ مَا أُحِبُّ أَنْ أَقْتُلَكَ، قَالَ لَهُ عَلِيٌّ ﷺ: لَكِنِّي وَاللهِ أُحِبُّ أَنْ أَقْتُلَكَ، فَحَمِيَ عَمْرٌو عِنْدَ ذَلِكَ، فَاقْتَحَمَ عَنْ فَرَسِهِ فَعَقَرَهُ وَضَرَبَ وَجْهَهُ (١)، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى عَلِيٍّ ﷺ، فَتَنَازَلَا وَتَجَاوَلَا، فَقَتَلَهُ عَلِيٌّ ﷺ.

فكبر علي ـ كرم الله وجهه ـ تكبيرة كبر على أثرها المسلمون إذ عرفوا أنه ـ أي علي ﷺ ـ قد قتل عمرو بن عبد ود، وخرجت على إثر هذه النتيجة الحاسمة خيل المشركين من الخندق منهزمة.

وكان يهود بني قريظة إلى هذه اللحظة محافظين على عهدهم مع رسول الله ﷺ، ولم يكن هذا الحفاظ على العهد نتيجة لحبهم للحفاظ على العهود ولكنهم كانوا يخافون مغبة نكث العهود، وقد رأوا ما حل ببني قينقاع وبني النضير وليس أدل على أن اليهود لا يحافظون على عهودهم إلا إذا كانوا يخافون من خصومهم من أنهم ـ أي يهود بني قريظة ـ نقضوا العهد منذ اللحظة التي جاء فيها حيي بن أخطب إلى كعب بن أسد سيد قريظة وقرع عليه بابه، وكان كعب قد أغلق أبواب الحصون عند قدوم الأحزاب، وأخذ حيي بن أخطب يصرخ بكعب ويقول له: وَيْحَكَ يَا كَعْبُ! افْتَحْ لِي، قَالَ: وَيْحَكَ يَا حُيَيُّ! إِنَّكَ امْرُؤٌ مَشْؤُومٌ، وَإِنِّي قَدْ عَاهَدْتُ مُحَمَّدًا، فَلَسْتُ بِنَاقِضٍ مَا بَيْنِي وَبَيْنَهُ، وَلَمْ أَرَ مِنْهُ إِلَّا وَفَاءً وَصِدْقًا.

قال حيي: وَيْحَكَ افْتَحْ لِي أُكَلِّمْكَ، قَالَ: مَا أَنَا بِفَاعِلٍ!

فقال حيي: وَاللهِ إِنْ أَغْلَقْتَ دُونِي الحِصْنَ إِلَّا تَخَوَّفْتَ عَلَى جَشِيشَتِكَ (٢) أَنْ آكُلَ مَعَكَ مِنْهَا، فَأَحْفَظَ (أغضب) الرَّجُلَ، فَفَتَحَ لَهُ....

إلا أن حييًّا استطاع أن يقنع جمهور بني قريظة بوجهة نظره، وأن يزين لهم الأمر فأعلنوا انضمامهم إلى المشركين وذلك بإحضارهم الصحيفة التي كتب فيها الميثاق فمزقها، فلما بعث النبي ﷺ بعض رجاله وعلى رأسهم سعد بن معاذ ﷺ ليستجلوا موقف قريظة بإزاء عدوان الأحزاب: قالوا: من رسول الله؟ لا عهد بيننا وبين محمد، فلما حاول سعد بن معاذ ﷺ أن يذكِّرهم بعقدهم تصامُّوا عنه، فلما خوفهم عقبى الغدر وذكر لهم مصير بني النضير قالوا له: أكلت أير أبيك!

وهكذا التزمت بنو قريظة العهد عندما كانت تخاف مغبة الغدر فلما أمنت ذلك بظنهم أن الأحزاب لن ينسحبوا، وأنهم ما جاؤوا إلا لاستئصال الإسلام من جذوره تنكروا لعهدهم وعادوا إلى طبيعتهم.

(١) هذا من تقاليد العرب المرعية ـ حتى في الجاهلية ـ وهو أنه ـ وقت المبارزة ولكي يتم التكافؤ ـ لابد من أن ينزل الفارس من على فرسه ليبارز خصمه راجلًا مثله.

(٢) الجشيشة: طعام يُصنع من البر يطحن غليظًا، ثم تجعل في القدور ويُلقى عليه لحم أو تمر أو تطبخ. النهاية لابن الأثير ١/ ٢٧٣، وهو الذي تقول له العامة: «دشيش» بالدال، والصواب بالجيم.

لقد وجم المسلمون حين عاد سعد وأصحابه يحملون أنباء الغدر اليهودي الممقوت، وتقنَّع رسول الله ﷺ بثوبه فاضطجع ومكث طويلًا حتى اشتد على الناس البلاء، ثم غلبته روح الأمل فنهض يقول: «**أَبْشِرُوا يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ بِنَصْرِ اللهِ وَعَوْنِهِ**» وفكر ﷺ أن يرد عن المدينة بعض القبائل بإعطائها ثلث ثمار المدينة على أن تعود عن المدينة، ولكن سادة الأوس والخزرج قالوا: **وَاللهِ مَا لَنَا بِهَذَا مِنْ حَاجَةٍ، وَاللهِ لَا نُعْطِيهِمْ إِلَّا السَّيْفَ، حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ**.

وطال الحصار وبلغت القلوب الحناجر، قال موسى بن عقبة: «وأحاط المشركون بالمسلمين حين جعلوهم في مثل الحصين من كتائبهم فحاصروهم قريبًا من عشرين ليلة، وأخذوا بكل ناحية حتى لا يدري هل احتلوا البلد أم لا؟ قال: ووجهوا نحو منزل رسول الله ﷺ كتيبة غليظة فقاتلها المسلمون يومًا إلى الليل، فلما حانت صلاة العصر دنت الكتيبة من المنزل فلم يقدر النبي ﷺ ولا أحد من أصحابه أن يصلوا الصلاة على نحو ما أرادوا، وانكفأت الكتيبة المشركة مع الليل، فزعموا أن رسول الله ﷺ قال: «**شغلونا عن الصلاة ملأ الله بطونهم وقلوبهم نارًا**».

نعم إن غزوة الخندق لم تكن غزوة عادية، ولا معركة عادية فلم يتجاوز القتلى عدد أصابع اليد الواحدة، إنها غزوة ولكن من نوع آخر، إنها معركة ولكن ذات نكهة مغايرة لما مر من غزوات، إنها معركة يطلقون عليها في أيامنا هذه «الحرب الباردة» إذ إنها حرب أعصاب، لقد جاء المسلمون إلى رسول الله ﷺ يسألونه ماذا يدعون بهم، وقد بلغت قلوبهم حناجرهم، فقال ﷺ: «**قولوا: اللَّهُمَّ اسْتُرْ عَوْرَاتِنَا، وَآمِنْ رَوْعَاتِنَا**».

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي أَوْفَى رضي الله عنهما قَالَ: دَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمَ الأَحْزَابِ عَلَى الْمُشْرِكِينَ فَقَالَ: «**اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الكِتَابِ، سَرِيعَ الحِسَابِ، [مُجْرِيَ السَّحَابِ]، اللَّهُمَّ اهْزِمْ الأَحْزَابَ، اللَّهُمَّ اهْزِمْهُمْ وَزَلْزِلْهُمْ**».

لقد بذل المسلمون بقيادة قائدهم وقدوتهم غاية وسعهم، للدفاع عن رسالتهم وعن مبادئهم ومنطلقاتهم، فدعاؤهم ودعاء قائدهم ﷺ لم يكن دعاء الكسلان ولا دعاء العاجز الخامل الذي ينتظر النصر ولما يقدم أسباب النصر!

ومن هنا بدأت يد الحق ﷻ تعمل، وأخذت الأجواء بالتغير على نحو لا يدرك الناس كنهها، لقد ضاق الأعراب النازلون بالعراء ذرعًا لهذا المقام الغريب.. ثم هبت الرياح حتى كادت تطير بالخيام المنتشرة على جانب الخندق في الآفاق..

وشاء الحق ﷻ أن يُسلم في هذه الأجواء المكفهرة نعيم بن مسعود، فأوصاه الرسول ﷺ أن يكتم إسلامه ورده على المشركين يوقع بينهم.

وقد أفلح نعيم بن مسعود ﷺ في فصم عرى التحالف بين الأحزاب، ليدب القنوط والتخاذل في صفوف المهاجمين.

وفي ليلة شاتية أرسل رسول الله ﷺ حذيفة بن اليمان ﷺ ليستطلع الأمر في جيوش الأحزاب، ورجع حذيفة ﷺ إلى النبي ﷺ يقص عليه ما رأى، وطلع النهار فإذا ظاهر المدينة خلاء ارتحلت الأحزاب وانفك الحصار، ليسجل الإيمان على صفحات التاريخ، بحروف من نور، نصرًا جديدًا لا يقل شأنًا عن النصر الذي سجله المسلمون في بدر الكبرى، وهتف رسول الله ﷺ يقول: «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ، أَعَزَّ جُنْدَهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ، وَغَلَبَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ، فَلَا شَيْءَ بَعْدَهُ**»، وقال ﷺ مبشرًا أصحابه مطمئنًا لهم: «**الآنَ نَغْزُوهُمْ، وَلَا يَغْزُونَنَا**».

إن معركة الأحزاب ملحمة خالدة، فيها من الدروس والعبر ما لو وقف مسلمو هذه الأيام وقفة صادقة مع ربهم ورسولهم وإسلامهم، ومع أنفسهم، فما أشبه اليوم بالبارحة، حصار من أمم الشرك على اختلافهم، عبدة المادة في المعسكر الغربي، عبدة الطواغيت في المعسكر الشرقي، عبدة الأوثان والأبقار وكل ما يُعبد من دون الله في باقي المجتمعات الجاهلية الرعناء تقف صفًّا واحدًا في مواجهة هذه الأمة الإسلامية جنبًا إلى جنب مع اليهود الذين تساندوا جميعًا وأحكموا مؤامراتهم ليزرعوا اليهود في فلسطين، ليكونوا كالكلب المسعور، وهذا ما أقرته لجنة كامبل باثرمان عام ١٩٠٧م: «**إن الخطر الذي يهدد الوحدة يكمن في البحر المتوسط الذي يقيم على شواطئه شعب واحد يتميز بكل مقومات الوحدة والترابط، ويجب أن تعمل الدول الاستعمارية على تجزئته وتفككه، وإقامة حاجز بشري قوي وغريب يمكن للاستعمار أن يستخدمه أداة في تحقيق أغراضه**».

لقد كان للمسلمين ـ رضوان الله عليهم ـ قائد مؤمن بالله ﷻ وصلت ثقته بربه حدًّا جعله يرى قصور المدائن والحيرة وصنعاء.

قائد مؤمن بالله ﷻ يعلم علمًا يقينًا بأن رحلة الصعود في الآفاق محفوفة بالمخاطر، تتطلب كل جهد وتضحية، تتطلب صبرًا ونفسًا طويلًا، تتطلب نظرة أبعد مما يظهر على سطح الواقع.

فالواقع يقول ـ كما يقول أهل هذا الزمان ـ إن المسلمين وقعوا بين فكي (كماشة)! الأحزاب من أعلاهم واليهود ـ الذين أخذوا يضيقون بحصون المسلمين الذين وضعوا فيها أهليهم وذراريهم ـ من أسفلهم، ومع ذلك لم يهن الرسول ﷺ، ولم يهن أصحابه، وحاشا له ولأصحابه هذا، فكيف الهوان وهم خير القرون الذين امتلأت قلوبهم إيمانًا بالله رب العالمين، ولم ينهار المجتمع المسلم ولم يتخل عن مبادئه وأهدافه، بل ظل رابط الجأش، قدَّم كل ما في وسعه أن يقدمه وترك النتائج على الله ﷻ القادر على كل

شيء، نعم لقد كان للمسلمين قائد مؤمن، ولكن أنَّى لهم بمثله هذه الأيام، بعد أن نسي قادة المسلمين في هذا الزمان الله ﷻ فأنساهم الحقُّ أنفسَهم، قادة يصورهم الشاعر أعظم تصوير وهو يقول:

أَشْبَاهُ مَمْلَكَةٍ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا   كَالهِرِّ يَحْكِي انْتِفَاخًا صَوْلَةَ الأَسَدِ

قادة خلت قلوبهم من الإيمان الحقيقي إذ لا يملؤها إلا الخوف والوجل، إما من البيت الأبيض جلله الله بالسواد، أو من البيت الأحمر دمره الله على ساكنيه، وكلما كلمهم المخلصون بوجوب النهوض للسير بالأمة نحو المعالي، قالوا: وماذا عن أميركا؟ وماذا عن روسيا؟ وماذا؟ وماذا؟ حتى إنهم ألغوا شريعة الله مخافة غضب الشرق أو الغرب عليهم!

وكان المجتمع المسلم مجتمعًا يتسابق رجاله إلى الشهادة في سبيل الله، فإيمانه إيمان حق بالله وبرسوله، إيمان اختلط بكل ذرة في أجسامهم الطاهرة، إيمان ملك عليهم كل شيء فما عادوا يبالون بأي شيء، وما عادوا يبخلون على هذه الدعوة بأي شيء.

ولم يقتصر دور الشجاعة والإقدام والاستعداد على الرجال دون النساء، بل لقد كانت النساء على مستوى من هذا كله لا يقل عن مستوى الرجال، فلقد قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: إِنَّ عَائِشَةَ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ كَانَتْ فِي حِصْنِ بَنِي حَارِثَةَ يَوْمَ الخَنْدَقِ، وَكَانَ مِنْ أَحْرَزِ حُصُونِ المَدِينَةِ. قَالَ: وَكَانَتْ أُمُّ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ ﷺ مَعَهَا فِي الحِصْنِ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ: وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يُضْرَبَ عَلَيْنَا الحِجَابُ، فَمَرَّ سَعْدٌ وَعَلَيْهِ دِرْعٌ لَهُ مُقَلَّصَةٌ (قصيرة)، قَدْ خَرَجَتْ مِنْهَا ذِرَاعُهُ كُلُّهَا، وَفِي يَدِهِ حَرْبَتُهُ يَرْقُلُ بِهَا وَيَقُولُ:

لَبِّثْ قَلِيلًا يَشْهَدِ الهَيْجَا حَمَل   لَا بَأْسَ بِالمَوْتِ إِذَا حَانَ الأَجَل

قَالَ: فَقَالَتْ لَهُ أُمُّهُ: الحَقْ أَيْ بُنَيَّ، فَقَدْ وَاللهِ أَخَّرْتَ؛ قَالَتْ عَائِشَةُ: فَقُلْتُ لَهَا: يَا أُمَّ سَعْدٍ وَاللهِ لَوَدِدْتُ أَنَّ دِرْعَ سَعْدٍ كَانَتْ أَسْبَغَ مِمَّا هِيَ، قَالَتْ: وَخِفْتُ عَلَيْهِ حَيْثُ أَصَابَ السَّهْمُ مِنْهُ، فَرُمِيَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ بِسَهْمٍ فَقَطَعَ مِنْهُ الأَكْحَلَ.

وكأن هذه الإصابة كانت أمل سعد الذي تحقق فلقد أخذ يدعو الله ﷻ ويقول: «**اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ أَبْقَيْتَ مِنْ حَرْبِ قُرَيْشٍ شَيْئًا فَأَبْقِنِي لَهَا، فَإِنَّهُ لَا قَوْمَ أَحَبَّ إِلَيَّ أَنْ أُجَاهِدَهُمْ مِنْ قَوْمٍ آذَوْا رَسُولَكَ وَكَذَّبُوهُ وَأَخْرَجُوهُ، اللَّهُمَّ وَإِنْ كُنْتَ قَدْ وَضَعْتَ الحَرْبَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ فَاجْعَلْهُ لِي شَهَادَةً، وَلَا تُمِتْنِي حَتَّى تُقِرَّ عَيْنَيَّ مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ**».

نعم لقد كان لرباطة جأش المرأة في هذه المعركة دور كبير، فالواقع يقول: إن الحصار قد يُسفر عن موت محقق، ولكن الإيمان الذي سيطر على عواطف الأمهات يجعلهن يحثثن فلذات الأكباد بالإسراع لا إلى الفرار، ولكن بالإسراع إلى الجهاد والاستشهاد «الحَقْ أَيْ بُنَيَّ، فَقَدْ وَاللهِ أَخَّرْتَ».

فأين أين المسلمات اللاتي أصبحن - إلا من رحم الله ﷻ - مثبطات للهمم مفسدات للرجال أبناء وأزواجًا وأشقاءً!

نعم.. فإن الحصار المضروب على الأمة في هذا العالم والعصر يحتاج إلى قيادات مؤمنة حق الإيمان ترى من نفسها جزءًا لا يتجزأ من جنود الله ﷻ الذين لا يعلم عددهم إلا الله ﷻ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١].

يحتاج إلى شعوب ترغم قادتها - إن أبوا - على الركون إلى ركن الله الشديد وحده، شعوب نساؤها ورجالها يتسابقون إلى الشهادة، شعوب تتمسك بالحق وتنشط له من اللحظة التي تقول فيها: «لا إله إلا الله محمد رسول الله» كما فعل نعيم بن مسعود ﷺ.

فإذا ما توفر فينا هذا: إيمان حقيقي، إخلاص حقيقي، عمل حقيقي، فثقوا كل الثقة أن جنود الله المنتشرة في هذا الكون ما نعلم منها وما لا نعلم، ستتعامل معنا تعاملًا إيجابيًا بنَّاء ليسير النصر في ركابنا كما سار في ركاب السلف الصالح.

أما إن كنا نرى أن هذه الدنيا بما فيها من طواغيت ومتاع أكبر في نفوسنا من الله وما عند الله.

أما إن كنا نُحجم عن كل مواقع البذل والعطاء بما نُرضي به أنفسنا من حُجج واهية، فاعلموا أنه اشتداد الحصار وأنه تجرع الذل والعار والموت البطيء الذليل الذليل.

فهل نخرج من عزلتنا؟! وهل نبادر إلى ربنا بالتوبة النصوح؟! وهل نعمل بجد وإخلاص لنكون على مستوى العالم والعصر الذي نعيش فيه؟ أسئلة كثيرة نطرحها على المسلمين فهل من مدكر؟!».

[تأملات حركية في سيرة المصطفى ﷺ لأبي راس ٢٤٤-٢٥٣].

٥٢ - نتيجة المعركة:

يقول د/ أبو فارس: «لقد كانت نتيجة هذه المعركة بعد الحصار الطويل الشديد بهزيمة الأحزاب وانسحابهم، وقد خلفوا في أرض المعركة ثلاثة قتلى أو أربعة من بينهم أشجعهم وأكثرهم فروسية عمرو بن عبد ود العامري. واستشهد من المسلمين ستة أشخاص.

نعم لقد كانت نتيجة هذه المعركة نصرًا للمسلمين وهزيمة للمشركين، كما أخبر بذلك خاتم النبيين ورسول رب العالمين وسيد المرسلين، بل سيد ولد آدم في العالمين فقد روى الإمام البخاري ﷺ في صحيحه بإسناده عن أبي هريرة ﷺ: أن رسول الله ﷺ كان يقول: «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ، أَعَزَّ جُنْدَهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ، وَغَلَبَ الأَحْزَابَ وَحْدَهُ، فَلَا شَيْءَ بَعْدَهُ**».

بل ظلت هذه النتيجة تتكرر على لسان الرسول ﷺ في مناسبات كثيرة، فكلما قفل من غزوة من الغزوات أو عاد من حج أو عمرة، ذكر ذلك على سبيل الشكر.

(إن معركة الأحزاب لم تكن معركة خسائر، بل كانت معركة أعصاب، لم يَجْرِ فيها قتال مرير، إلا أنها كانت من أحسم المعارك في تاريخ الإسلام، تمخضت عن تخاذل المشركين، وأفادت أن أية قوة من قوات العرب لا تستطيع استئصال القوة الصغيرة التي تنمو في المدينة؛ لأن العرب لم تكن تستطيع أن تأتي بجمع أقوى مما أتت به في الأحزاب، ولذلك قال رسول الله ﷺ حين أجلي الله الأحزاب: **(الآنَ نَغْزُوهُمْ، وَلَا يَغْزُونَنَا، نَحْنُ نَسِيرُ إِلَيْهِمْ)**». [غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٩٦-١٩٧].

٥٣ ـ أسباب فشل الأحزاب (١):

(١) **قيادة غير موحدة**: لم تكن للأحزاب قيادة موحدة تستطيع السيطرة على جميع القوات المتجمعة وتوجيهها للعمل الحاسم في الوقت الحاسم.

كان لكل قبيلة قائد بل عدَّة قواد، ولم يستطع هؤلاء القادة تنظيم خطة موحدة للهجوم على المسلمين.

وقد كان من المستحيل اتفاقهم على قائد منهم ليسيطر على الجميع؛ لأن هذا القائد سينال شرفًا عظيمًا يتميَّز به على الآخرين، ولا يمكن للآخرين أن يرضوا بهذا الامتياز.

لقد كانت النعرة الجاهلية لا الهدف المشترك هي التي تسيطر على القيادة، ولا يمكن أن تنجح مثل هذه القيادة في أي موقف بأي معركة حتى ولو كانت لها كل الظروف المواتية لها كما كانت الظروف في غزوة الخندق بالنسبة للأحزاب ويهود.

(٢) **المباغتة بالخندق**: لقد كان حفر الخندق مباغتة تامة للأحزاب، فلم تكن العرب تعرف هذا الأسلوب، كما لم تكن تعرف أسلوب القتال المناسب لاجتياز الخندق والتغلب على المدافعين عنه.

لذلك بقي القتال (مُسْتَكِنًّا) طول مدة الحصار، عدا محاولات قليلة قام بها المشركون لمحاولة اجتياز الخندق باءت كلها بالفشل الذريع.

(٣) **الطقس**: كان موسم القتال شتاء، وكان الأعراب في العراء يعيشون في غير مواطنهم التي يستفيدون فيها من موادهم المتيسرة للتدفئة وللإعاشة وللسكنى؛ لذلك لم يستطيعوا البقاء لحصار المدينة مدة طويلة.

(٤) **انعدام الثقة**: كانت الثقة بين الأحزاب أنفسهم من جهة وبينهم وبين يهود من جهة أخرى واهنة جدًّا، بل لم تكن هناك ثقة بينهم على الإطلاق، قريش تريد القضاء على المسلمين بالإفادة من جهود

(١) الرسول القائد ﷺ لخطاب ٢٣٤-٢٣٦.

القبائل الأخرى، ويهود والقبائل الأخرى تريد الأسلاب بالدرجة الأولى من أي مصدر كان، ولو وقعت أموال أحلافهم بني قريظة بيدهم لأخذوها أيضًا.

ويهود لا يثقون في الجميع ويريدون القضاء على المسلمين بدماء قريش والقبائل الأخرى.

وهكذا انعدمت الثقة بينهم لتفرق الأهداف والمقاصد والمصالح والرغبات.

(٥) **الصبر على الحصار**: يحتاج الصبر على الحصار المديد إلى قوات مدربة لها أهداف معلومة وقيادة مسيطرة.

أما القبائل فلا صبر لها على الحصار المديد؛ لأنها اعتادت التنقل بين فترة وأخرى، كما أنها لا تطيق صبرًا على فراق وطنها وأهلها مدة طويلة.

لذلك تذمَّر الأعراب من طول مدَّة الحصار ـ على قصرها ـ وآثروا الارتحال على البقاء».

[الرسول القائد ﷺ لخطاب ٢٣٤-٢٣٦].

ويقول أ/ باشميل: «فما هي إذن الأسباب التي حالت دون تحقيق هذا النصر الذي توفرت للأحزاب كل أسبابه المادية؟ وما هي الأسباب التي جعلت هذا النصر المتوقع يتحول إلى هزيمة منكرة، حيث مني هذا الغزو الكبير بذلك الفشل الذريع الذي يعتبر على الإطلاق أعظم فشل يصاب به اليهود والمشركون في تاريخ الصراع بين الإسلام وأعدائه في الجزيرة العربية؟

الأسباب الرئيسة: يمكننا تلخيص الأسباب الرئيسة التي حالت دون تحقيق ذلك النصر وأدت إلى ذلك الفشل الذريع، كما يلي:

السبب الأول.. حفر الخندق: فقد كان نجاح قيادة المدينة في حفر هذا الخندق كخط أول للدفاع عن المدينة، مكيدة عسكرية فوجئت بها قيادة الأحزاب، بل وصعقت لها؛ لأن نجاح المسلمين في حفر الخندق قبل وصول جيوش الأحزاب نسف خطتهم المرسومة لاحتلال المدينة من الأساس.

لقد كانت قيادة الأحزاب ـ عندما وضعت نصب عينيها احتلال المدينة كهدف أساسي للغزو ـ تعتمد ـ لتحقيق هذا الهدف ـ على تلك الحشود الكبيرة التي جمعتها والتي بلغت إزاءها نسبة قوة المسلمين واحدًا لعشرة، وكانت تقصد من وراء هذا العدد الغامر إلى التغلب على الشجاعة الفائقة التي تميز بها المسلمون، وذلك عن طريق الالتحام معهم في معركة فاصلة، التي مهما كانت شجاعة المسلمين فيها فإن عامل التفوق العددي إلى الدرجة التي وصلت إليها جيوش الأحزاب يكون له أثره الذي لا يُستهان به في كسب المعركة، وقديمًا قالوا: الكثرة تغلب الشجاعة.

ولكن قيام المسلمين بحفر الخندق نسف خطة الأحزاب وقلبها رأسًا على عقب، إذ حال هذا الخندق بين جيوش الأحزاب الهائجة المتدفقة وبين الالتحام مع عسكر الإسلام في معركة فاصلة كما تريد قيادة الأحزاب وكما هي الخطة المرسومة للمعركة.

فقد جمَّد وجود الخندق نشاط تلك الآلاف المؤلفة من جيوش الأحزاب وشل حركتها، حيث لم تستطع مقاتلة المسلمين إلا عن طريق تسللية انتحارية عبر الخندق، وهذا العمل (مهما تكرر) لا يؤدي إلى النتيجة المرجوة من الغزو.

وقد جربت قيادة الأحزاب عملية القفز ـ عبر الخندق ـ بالخيل لعلها تستطيع ـ إن نجحت ـ أن تقيم معابر واسعة تمر منها مشاة الأحزاب تحت حماية سلاح الفرسان القرشي إلى ناحية المسلمين، ولكن هذه التجربة باءت بالفشل، إذ كان مصير الفرسان الذين قاموا بها إما القتل وإما الفرار، إلى حيث أتوا، وهكذا ظلت قيادة الأحزاب حائرة لا تدري ماذا تصنع إزاء هذه المكيدة الحربية التي لجأ إليها المسلمون فَشَلُّوا بها حركة جيوش الأحزاب وعطلوها عن الحركة كما تريد.

التذمر في صفوف الأحزاب: وقد نتج عن تجميد جيوش الأحزاب وعدم قدرتها على القيام بعمل حاسم في معركة فاصلة بسبب الخندق تذمر داخل جيوش الأحزاب؛ لأن جُلَّ هذه الجيوش الإعراب من البدو الذين ألفوا في حروبهم دائمًا المعارك الخاطفة التي لا تزيد على يوم أو بعض يوم، وما كانوا يعرفون المرابطة أمام الخنادق كل هذه المدة التي رابطوها حول المدينة.

ولهذا فقد ثقل عليهم التجمد وراء الخندق دونما قتال فملوا المرابطة على غير جدوى، الأمر الذي لاحظته قيادة الأحزاب، فأخذت تشعر بالحرج، وصارت نتيجة لذلك تفكر في الانسحاب، ولكن التزامها لبنى قريظة بعدم فك الحصار عن المدينة إلا بعد القضاء على المسلمين جعلها تتريث لأنها كانت تخشى اللوم إن هي خلت بين اليهود وبين المسلمين الذين سيحاسبونهم حسابًا عسيرًا على غدرهم وخيانتهم دونما شك.

ولهذا فإن قيادة الأحزاب لم تتردد في الانسحاب وترك اليهود وشأنهم عندما حدث ما يبرر ذلك ولو في الظاهر، وهو إحجام اليهود عن المشاركة في الهجوم على المسلمين إلا بعد الحصول على رهائن من رجالات الأحزاب يحتجزونها عندهم حتى يتم القضاء على المسلمين.

وهكذا فإن نجاح المسلمين في إقامة الخندق كخط دفاع أول لصد الغزاة عن المدينة كان من أكبر العوامل التي أدت إلى فشل الغزو، بل هو أكبر هذه العوامل إذا ما نظرنا إلى الأمر من الزاوية العسكرية المجردة.

السبب الثاني.. خديعة نعيم بن مسعود ﷺ: مما لا جدال فيه أن إحداث الفُرقة والشقاق في صفوف أي جيش محارب هو من أكبر الأسلحة التي تؤتي ثمارها لصالح خصوم هذا الجيش.

وقد تفعل الفُرقة والشقاق بالعدو ما لم تفعله جيوش جرارة مزودة بأحدث الأسلحة وأقواها؛ ولهذا فإن النبي القائد ﷺ ـ وهو ذو الخبرة الواسعة والباع الطويل في السياسة العسكرية ـ طلب من نعيم بن

مسعود ﷺ ـ وكان معروفًا بالدهاء والمكر بين العرب ـ أن يستخدم هذا السلاح ـ سلاح الفُرقة والشقاق ـ ضد الأعداء المتحالفين في هذا الغزو المخيف، إذ قال له عندما أعلن إسلامه سرًّا ودون أن يعلم به أحد من قومه: «**إنما أنت فينا رجل واحد فخذل عنا ما استطعت، فإن الحرب خدعة**».

وقد نجح نعيم بن مسعود ﷺ في استخدام سلاح الفُرقة والشقاق ضد الأعداء نجاحًا كاملًا، إذ استطاع أن يحطم بهذا السلاح وحدة الأحزاب وينسف اتحادهم مع اليهود من الأساس، كما هو مفصل فيما مضى من هذا الكتاب.

فكان هذا النجاح عاملًا مهمًّا في تعجيل فك الحصار عن المدينة وإنهاء ذلك الغزو الكبير بانسحاب جيوش الأحزاب الجرارة على تلك الصورة المخزية.

فإقناع نعيم بن مسعود ﷺ يهود بني قريظة بعدم التعاون مع الأحزاب إلا بعد الحصول على الرهائن منهم، فتح الطريق أمام قريش وغطفان للتعجيل بالانسحاب، وحفظ لهم ماء الوجه، إذا اتخذوا من عدم التعاون هذا مبررًا لانسحابهم وترك اليهود وحدهم يلقون مصيرهم على أيدي المسلمين، الأمر الذي كانت قيادة الأحزاب تتحرج من فعله، قبل أن ترفض قريظة التعاون معهم.

وقد سمعنا فيما مضى من هذا الكتاب كيف حمَّل أبو سفيان قائد عام جيوش الأحزاب بني قريظة مسؤولية ما حدث إذ قال (وهو يأمر بالانسحاب): إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام، وأخلفتنا بنو قريظة وبلغنا عنهم الذي نكره.

السبب الثالث: العقيدة: وبالإضافة إلى العاملين الحاسمين في فشل الغزو من وجهة النظر العسكرية المجردة، فإن هناك ـ من الناحية المعنوية ـ عاملًا مهمًّا (وقد يكون أهم العوامل) في إحباط هذا الغزو الخطير، وهو العقيدة.

فقد كانت العقيدة عند المسلمين الصادقين هي السلاح الرئيس الذي يعتمدون عليه في كل المعارك؛ ولهذا فإن العقيدة ـ عند المسلمين تأتي في المقام الأول بين العوامل والدواعي التي تجعلهم يصمدون ويثبتون، حيث يكون الفرار أو الاستسلام في حساب المقاييس العسكرية المادية أمرًا لا مناص منه، بل ولا لوم على فاعليه.

وما يمكن أن نقوله بالتفصيل عن العقيدة وأثرها في نفوس المسلمين وإسهامها بدرجة أولى ممتازة في انتصارات المسلمين الحاسمة، قد قلناه مفصلًا في ختام كل من كتابينا (غزوة بدر الكبرى، وغزوة أحد) تحت هذا العنوان (نظرة.. وتحليل) فليرجع إليه من يريد.

إلا أن العقيدة في معركة الأحزاب قد كان دورها ـ بالنسبة للمسلمين ـ أهم الأدوار على الإطلاق، حيث كانت هي السلاح الرئيس بل والوحيد في مواجهة الغزو وإحباطه.

فقد كان سلاح العدو الفعال الوحيد في هذه الغزوة هو الإرجاف والإرهاب والترويع والتخويف والخيانة والغدر والنكث والإرهاق، وهو سلاح مفزع مخيف حقًّا بالنسبة لألف مقاتل تناقصوا حتى لم يبق منهم في آخر ليلة من ليالي هذا الغزو إلا ثلاثمائة مقاتل، يحيط بهم أحد عشر ألف مقاتل من كل جانب، سلاح مخيف رهيب حقًّا، لا يقف في وجهه إلا سلاح رباطة الجأش وقوة الأعصاب، والاحتفاظ برجاحة العقل وهدوء النفس وثبات الجنان والثقة بنصر الله تعالى.

وهذه العوامل ذات الأثر الحاسم في مقاومة ذلك السلاح الرهيب المخيف الذي تنخلع له القلوب، لا تتوفر إلا لمن يحمل مثل تلك العقيدة الصافية السامية، عقيدة الإسلام، التي جعلت سيد الأوس الشاب سعد بن معاذ ﷺ يقول للنبي ﷺ ـ عندما حاول عقد صلح منفرد مع قبائل غطفان، مقابل ثلث ثمار المدينة (رحمة بجيشه الصغير المحصور): **وَاللهِ لَا نُعْطِيهِمْ إِلَّا السَّيْفَ، حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ**.

لقد قال هذا الشاب السيد المؤمن هذه الكلمة الخالدة التي رفض بها الصلح مع غطفان، قالها والمسلمون في أعلى درجات الكرب والضيق قد أخذت المحنة بتلابيبهم وطَوَّقتهم الرزايا والخطوب وأحاطتهم من كل جانب.

رفض سيد الأنصار الشاب فكرة عقد الصلح المنفرد مع غطفان على تلك الصورة، مع أن هذه الفكرة التي استشار النبي ﷺ الأنصار للموافقة عليها، هي في عُرف السياسة العسكرية فكرة صائبة لا غبار عليها يلجأ إليها القادة العسكريون ويستخدمونها لتخفيف مؤونة الحرب على جيوشهم حتى اليوم.

لأن تشتيت شمل العدو وإضعاف قوته وتفريق كلمته بأية وسيلة لا يغيب عن بال أي قائد عسكري مسؤول في كل الحروب بلا استثناء، ولكن قوة العقيدة الراسخة البناءة التي جاء بها هذا النبي الكريم ﷺ جعلت قادة الأنصار ـ وهم العمود الفقري لجيش المدينة ـ يستأذنون نبيهم في رفض فكرة الصلح هذه والاستمرار في المقاومة مهما كانت النتائج.

الخواء العقائدي عند الأحزاب: وإذا كان موقف سعد بن معاذ وقادة الأنصار ﷺ قد أوضح لنا الصورة الجلية الواضحة عن فعالية سلاح العقيدة في جيش الإسلام الصغير، ومتانة هذه العقيدة وصلابتها إلى الحد الذي جعل المؤمنين بها يقفون ذلك الموقف الرائع، فإن مجيء قادة غطفان ـ وهم العمود الفقري لجيوش الأحزاب ـ إلى مقر القيادة النبوية سرًّا ومد يدهم ـ من وراء ظهر قريش ـ لعقد صلح منفرد مع المسلمين مقابل ثلث ثمار المدينة، يعطينا الدليل القاطع على الخواء العقائدي الكامل داخل جيوش الأحزاب العظيمة، وأن هذه الآلاف المؤلفة، قد جاءت يسودها التفكك لأنها ليست لها رابطة موحدة تجمعها على عقيدة راسخة صادقة تصلها بالله، فتستعذب الموت في سبيلها، كما هو الحال عند المسلمين.

وإنما جاءت هذه الآلاف تحدوها أهداف رخيصة محدودة ضيقة، أهداف لا يمكن أن تكون أساسًا لنضال أو قاعدة لكفاح، أهداف لحمتها وسداها الحصول على ما يمكن الحصول عليه من المغانم المادية بأية طريقة كانت، ثم العودة بسرعة إلى خيامها ومسارحها.

مقارنة بين الأحزاب والمسلمين: وبالمقارنة بين هذه الأهداف الرخيصة المحدودة التي جاءت الأحزاب تقاتل في سبيلها، وبين تلك العقيدة الشماء التي يقاتل المسلمون في سبيلها، والتي وقفت (في ظل رايتها) تلك القلة المؤمنة لتواجه تلك الحشود الهائلة، يتضح الفارق العظيم، ويتضح أي سلاح فعال سلاح العقيدة هو، عندما تكون عقيدة بناءة سليمة.

إنه لولا العقيدة التي تسلح بها المسلمون في تلك الظروف الرهيبة المزلزلة، ما استطاعوا أن يثبتوا أمام تلك الحشود الهائلة التي بلغت عشرة أضعاف المسلمين، ذلك الثبات الذي ظل (على مر العصور) مضرب الأمثال.

لقد كان باستطاعة جيوش الأحزاب الجرارة ـ لولا الخواء العقائدي الذي يسيطر عليها ـ أن تسجل على جيش المدينة الصغير، نصرًا حاسمًا حتى مع وجود الخندق؛ لأن الخندق لا يمكن أن يحول بينها وبين اقتحام المدينة على أية صورة من الصور، لا سيما وأنها تمتاز على المسلمين بذلك التفوق الساحق في العدد.

حقيق، أن اقتحام الخندق لاحتلال المدينة يتطلب تضحيات لا يُستهان بها، وما كانت جيوش الأحزاب لتبخل بمئات من القتلى لاقتحام المدينة، لو كان باعث غزوها على مستوى الباعث العقائدي الذي وقف المسلمون في ظله يدافعون عن المدينة ذلك الدفاع الرائع.

ولكن لما كان الباعث الحقيقي لحشد هذه الجيوش حول المدينة هو ذلك الباعث المادي الضحل الرخيص، المتمثل في التمكن من السلب والنهب فحسب، فإنه من البديهي أن تُحجم هذه الجيوش عن الإقدام على مثل هذا العمل الذي يتطلب الإقدام عليه بذل المهج والأرواح بسخاء كبير.

ولو كان الأمر على العكس، وكان المسلمون هم الذين جاؤوا يقودون تلك الجيوش الجرارة التي جاء بها الأحزاب، لما وقف الخندق حائلًا بينهم وبين احتلال المدينة، بل لاقتحموه في لحظات، كما حدث منهم ومن أبنائهم مرات ومرات في الشام والعراق عندما كان الفرس والرومان يخندقون على أنفسهم، وهم أقوى سلاحًا وأكثر عددًا من المسلمين». [غزوة الأحزاب لباشميل ٢٥٥-٢٦٤].

٥٤ ـ حصيلة الغزو العكسية:

يقول أ/ باشميل: «اتضح فيما مضى من هذا الكتاب أن المخطط الذي خرج به زعماء اليهود من خيبر والذي بموجبه تم تحشيد تلك الجيوش الجرارة من قريش وغطفان يهدف ـ في الدرجة الأولى ـ إلى إبادة المسلمين إبادة كاملة وهدم كيان الإسلام من الأساس، يشاطرهم في ذلك زعماء قريش وقادة غطفان.

ولكن ما هي النتائج التي جناها قادة اليهود وقريش وغطفان كحصيلة لهذا الغزو الكبير المنظم المخيف؟

النتائج كانت ـ بالتأكيد ـ عكسية مائة في المائة، وهي تتلخص فيما يلي:

(١) لقد منيت جيوش الأحزاب بهزيمة شنعاء لم تمن بمثلها قريش وغطفان واليهود في تاريخهم الطويل السابق واللاحق.

فقد جنى الأحزاب ـ كثمرة لهذا الغزو الكبير ـ تلك الهزيمة المنكرة وذلك الفشل الذريع، بدلًا من خضد شوكة المسلمين وهدم سلطانهم ونسف كيانهم.

فانحدرت هذه الهزيمة بسمعة قريش وغطفان العسكرية إلى درجة لم يستطع معها أي من هذه القبائل ـ وهي أقوى قبائل الجزيرة على الإطلاق ـ مجرد التفكير في غزو المسلمين، فكانت لذلك غزوة الأحزاب هذه آخر عملية غزو تقوم بها الوثنية العربية ضد الإسلام في جزيرة العرب.

سمعة المسلمين بعد غزوة الأحزاب: بينما ارتفعت ـ من ناحية أخرى ـ سمعة المسلمين العسكرية ـ بعد هذه المعركة ـ حتى بلغت الذروة، الأمر الذي جعلهم ـ حتى سقوط آخر معقل لليهودية والوثنية في جزيرة العرب ـ أسياد الموقف، يغزون ولا يقدر أحد على غزوهم.

(٢) أما حصيلة اليهود من هذا الغزو الذي هو من صنعهم ونتيجة تفكيرهم، فقد كانت خسارة أفدح من خسارة الوثنيين في نجد والحجاز.

فإن هؤلاء القرشيين والنجديين إذا كانوا قد خسروا هيبتهم العسكرية فلزموا الهدوء والسكينة حتى دخلوا فيما دخل فيه العرب من اعتناق الإسلام بعد فتح مكة من قِبَل قوات المسلمين، فإن اليهود لم تبق لهم أية هيبة عسكرية حتى يخسروها، ولكن حصتهم من ثمرة هذا الغزو الذي أثاروا عواصفه، كانت تصفية العنصر اليهودي في يثرب، بإبادة كل رجال يهود بني قريظة في المدينة، وهم ثمانمائة مقاتل، وسبي نسائهم وذراريهم وهي النكبة المروعة التي كان اليهود قد أعدوا العدة ـ بالاتفاق مع الأحزاب ـ لإنزالها بالمسلمين.

ولم تتوقف نكبة هؤلاء اليهود المجرمين على محو ما تبقى لهم من كيان في يثرب، كحصيلة لأعمالهم الشريرة، بل امتدت هذه النكبة إلى موطن الإجرام ووكر التآمر (خيبر) التي رُسم فيها مخطط ذلك الغزو الرهيب.

فقد كانت حملة الأحزاب المخيفة درسًا وَعَتْه قيادة المدينة، وأيقنت على أثره أن لا مناص من ضرب قواعد العدوان في خيبر، والتي إن لم تُضرب وتُحطم سيظل الكيان الإسلامي عُرضة لخطر التآمر والعدوان في كل لحظة.

لا سيما وأن اليهود يملكون من المال الوفير المكنوز ـ والمال ذو سلطان قاهر ـ ما يمكنهم من إثارة أية حرب يريدون إثارتها ضد المسلمين؛ ولهذا قامت المدينة ـ بقيادة النبي الأعظم ﷺ بعملية غزو واسعة ضد اليهود في خيبر حتى سقطت في أيدي المسلمين، وسقط كل قادتها وزعمائها قتلى في المعركة.

وبسقوط خيبر تمت تصفية آخر معقل لليهود في الجزيرة العربية، ولم يقم لليهود بعدها أي سلطان في الجزيرة العربية حتى اليوم، ولن يقوم إلى يوم القيامة إن شاء الله». [غزوة الأحزاب لباشميل ٢٦٤-٢٦٦].

٥٥ ـ حصاد المعركة:

يقول د/ الوكيل: «لم تكن غزوة الخندق غزوة عسكرية بالمعنى المتعارف عليه عند إطلاق كلمة معركة؛ لأنه لم يكن فيها لقاء بين الجيشين، ولا مواجهة من الفريقين، وإنما كانت مناوشات بالنبل وذلك لحيلولة الخندق بين القوتين رغم طول الحصار الذي استمر قريبًا من شهر. [ابن هشام ٣/ ١٣٣].

وما حصل من القتال بالسيوف كان مغامرة من بعض فرسان قريش استطالوا الوقوف فتهيؤوا لخوض معركة، ولكنهم باؤوا بالفشل عندما قتل علي بن أبي طالب ﷺ زعيمهم عمرو بن عبد ود، وكانت هناك محاولة أخرى لعبور الخندق من نوفل بن عبد الله بن المغيرة، ولكنه سقط أثناء المحاولة ورماه المسلمون بالحجارة، وظل يصرخ ويستغيث حتى نزل إليه الزبير بن العوام ﷺ فقتله.

وكان أشد ما لقي المسلمون يوم الخندق استمرار الرمي في يوم من الأيام طوال النهار، ومن كل جوانب الخندق، حتى إن الرسول ﷺ وأصحابه ﷺ لم يُصلوا الظهر ولا العصر ولا المغرب ولا العشاء حتى توقف الرمي، وحينئذ صلوها، وقال ﷺ: **«مَلأَ اللهُ [اللَّهُمَّ امْلأْ] قُبُورَهُمْ وَبُيُوتَهُمْ نَارًا كَمَا حَبَسُونَا وَشَغَلُونَا عَنِ الصَّلَاةِ الْوُسْطَى [صَلَاةِ الْوُسْطَى] حَتَّى غَابَتْ [آبَتْ] الشَّمْسُ»**.

واستشهد من المسلمين ستة نفر، وقتل من المشركين ثلاثة، كما استشهد يوم بني قريظة رجلان، وقتل منهم سبعمائة أو تسعمائة. [ابن هشام ٣/ ١٤٦، ١٥٥-١٥٦].

وتلك نتيجة عكسية تمامًا لما كان متوقعًا، فإن تصميم قريش على استئصال المسلمين، وإعدادهم لكل ما يلزم لذلك من السلاح والتموين لا يتصور مطلقًا أن يكون حصاد ذلك كله ثمانية شهداء.

وكانت هناك فرصة ضيعها المشركون، وتلك هي اقتحام الخندق، لقد كان المتوقع بعد اقتحام عمرو بن عبد ود ومن كان معه أن يزداد عدد المقتحمين حتى يقتحم الجيش كله، وهناك تدور معركة حامية قد يصلون فيها إلى غايتهم، ولكن ما الذي منع أبا سفيان من أمر الجيش بالاقتحام بعدما رأى أن الاقتحام ممكن، ولو أن أبا سفيان فعل، واقتحم المشركون الخندق، من يدري ماذا كانت ستكون النهاية؟

أغلب الظن أن سرعة المسلمين، وخفة حركتهم، ونهضتهم الفورية لسد الثغرة التي اقتحم منها المشركون، وقتل علي ﷺ الخاطف لشيخ فرسانهم ابن عبد ود، كل ذلك كان السبب الرئيس في عدم اقتحام الخندق، وكفهم عن تكرار المغامرة التي لم يهنأ بها فاعلوها، بل فروا هاربين من الموت الذي لحق بزعيمهم.

وعاد المشركون بخيبة أمل لم يتوقعها أحد، ماذا يقولون لمن ساندوهم وأمدوهم بما يحتاجون، وبأي شيء يسترون فشلهم، ويعللون عودتهم خائبين؟

أيقولون: اشتد البرد وعصفت الريح، فسيقولون: هو عليكم وعلى المسلمين.

أم يقولون: خذلتنا بنو قريظة، وسيردون عليهم: أو لم يكف عشرة آلاف للقضاء على ثلاثة آلاف، إنه الخزي الذي لا تقبل عنه علة، وأقبح منه التماس العذر.

وأحس المسلمون بأنهم في كنف الله، يحيطهم بعنايته، ويكلؤهم برعايته، وإلا فمن ذا الذي رد عدوهم؟». [تأملات في سيرة الرسول ﷺ للوكيل ١٩٧-١٩٨].

٥٦ـ مقارنة وتحليل:

يقول د/ الوكيل: «كانت الغزوة مفاجئة للمسلمين، فقد عَلِموا بأخبار ذلك التجمع الرهيب، وهم جالسون في المدينة، وكانت المفاجأة عندما علم المسلمون بتحالف اليهود مع المشركين، فبين الفريقين بون شاسع في العقيدة، فهؤلاء أهل أصنام ووثنية، وأولئك أهل توحيد، وفي الأخلاق فاليهود جبناء غدارون، والمشركون شجعان صرحاء، فكيف التقى هؤلاء بأولئك؟ وما الأسس التي جمعت بينهم؟

فبرغم ما بين الفريقين من عداوة عقدية إلا أن هناك عاملًا مشتركًا جمع بينهما في هذا التحالف البغيض، ذلك هو اجتثاث العقيدة، واستئصال القيادة، وتدمير الدولة التي أصبحت خطرًا يهدد الفريقين معًا، وكان ذلك العامل الذي يتلخص في بغض الفريقين للإسلام كافيًا في أن يجمع بين النقيضين، ويؤلف بين المتنافرين.

وعلى إثر وصول أخبار هذا التحالف إلى المدينة اجتمع الرسول ﷺ مع كبار الصحابة، وبحثوا الأمر على طريقة الشورى، وكانت نتيجة البحث والدراسة أن مواجهة هذه الحشود الضخمة مستحيلة، وعلى المسلمين أن يسلكوا سبلًا تحميهم من هذا العدوان الغاشم فهم وإن كانوا يوقنون أن قوة الله ﷻ تؤيدهم وأن عونه ﷻ سيكون معهم، إلا أنهم يؤمنون بوجوب اتخاذ الأسباب، ويعتقدون أن الاحتياط والحذر أمر يفرضه عليهم الإسلام.

لهذا تبنى المجتمعون اقتراح سلمان ﷺ بحفر الخندق، وبدأوا العمل على الفور وجعلوا الخندق بينهم وبين عدوهم، وتحمل المسلمون كثيرًا من المشقات، فالجوع يهد قوتهم، والبرد يرعد أجسامهم، وخوف

العدو يزلزل نفوسهم، ولكنهم مع ذلك لم يهنوا، ولم يستسلموا، ولقد صور القرآن الكريم حال المسلمين صورة حية ترتجف من هولها فرائص الصناديد، وتطيش لفظاعتها أحلام المغاوير، وذلك حين يقول ـ جل من قائل: ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ ﴾ [الأحزاب].

وبرغم ذلك صمد المسلمون، بل ورفض السعدان الصلح الذي أوشك أن يعقده الرسول ﷺ مع غطفان لمجرد ما يوحي به من الضعف في مثل هذا الموقف، وقالا: لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم.

وهذه الكلمة في مثل هذا الموقف لا تعبر إلا عن روح معنوية عالية، وصبر على الشدائد نادر.

لم يكن هذا الصمود أمام هذا الزحف الرهيب، ولم يكن هذا التحدي لهذا التحالف العنيد إلا ثمرة طيبة لعقيدة راسخة، وإيمان بالله لا يتزعزع، وثقة في وعده لا يتطرق إليها شك.

إن أية جماعة لا تكون وثيقة الصلة بالله ﷻ، عميقة الإيمان بالحق الذي هي عليه لا يمكن أن تصمد أمام هذا الزحف المخيف، ولا تستطيع الثبات في مثل هذه الظروف السيئة في وجه هذه الجموع الحاشدة التي زلزلت بمسيرها السهل والحزن، وأرعبت بتحالفها القاصي والداني، وإن ثبات المسلمين رغم ضعفهم وقوة عدوهم، وإن صبرهم على الشدائد، وتمسكهم بعقيدتهم رغم كل هذه التحديات من خصومهم لأكبر دليل على أنهم لا ينشدون إلا الحق، ولا يبتغون إلا نصرته.

وأما العدو فقد نجح في عقد تحالف مع قبائل مختلفة موتورة في عقيدتها الضالة الفاسدة، وقد خرجوا جميعًا في عزم أكيد على استئصال المسلمين ليقضوا بذلك على الإسلام، وصمموا على عدم مغادرة المدينة، وفك الحصار عنها حتى تستسلم، وتُسلم لهم محمدًا ﷺ.

ونجح اليهود كذلك في تجميع عشرة آلاف محارب، وواجههم المسلمون بثلاثة آلاف فقط، وكانت إمكانات العدو الاقتصادية جيدة، وحين بدأ تموين الجيش يتناقص أمدهم بنو قريظة بما يحتاجون إليه من التموين لهم ولماشيتهم، في الوقت الذي كان المسلمون يعصبون الحجارة على بطونهم من شدة الجوع.

واستطاع العدو أن يُحدث ثلمة في المدينة بإقناع بني قريظة بنقض العهد، وكان وقع ذلك أليمًا على نفوس المؤمنين، ولكن القيادة رفعت معنوياتهم بتبشيرهم بنصر الله وعونه، عندئذ تماسك المسلمون، وسدوا الثغرة، فأرسلوا قوات لحراسة المنطقة حتى لا يأتي العدو من قِبَلها، ولما استعان المشركون بالحلفاء الجدد لتموين جيوشهم، وقف المسلمون لهذه الإمدادات بالمرصاد، فقطعوا عليها الطريق، واستولوا على بعض قوافل التموين.

ونتيجة حتمية لهذه الظروف التي مر بها المسلمون ظهر في المحاربين منطقان: منطق الإيمان بالحق، والثبات على العقيدة، وذلكم هو منطق المؤمنين، مما يدل على أن الفتنة لم تنل من قلوبهم، وأن الحصار لم يوهن نفوسهم، وأن الخوف والفزع لم يخرج عن نطاق الخوف الفطري في النفس البشرية؛ ولهذا لم يزدد المؤمنون أمام خطورة الموقف إلا إيمانًا وتسليمًا: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾ [الأحزاب].

والمنطق الآخر منطق المنافقين الذين انخلعت قلوبهم لهول الموقف، وضاقت صدورهم لشدة الفزع فقالوا كما قال عنهم القرآن الكريم: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾ [الأحزاب]». [تأملات في سيرة الرسول ﷺ للوكيل ١٩٥-١٩٧].

٥٧ - آثار المعركة:

يقول د/ الوكيل: «حققت هذه المعركة آثارًا عظيمة في اتجاهات ثلاثة:

أما الأول: فكان في المدينة المنورة، عاصمة الإسلام ومقر حكمه، وكان أثرها على النحو التالي: كان انتصار المسلمين ملفتًا للنظر حيث لم يتحقق نتيجة اصطدام عسكري تحطمت على أثره قوة المشركين، وإنما كان في الحقيقة انتصارًا سياسيًّا رائعًا تحطمت على أثره روابط الاتحاد، وانهارت معاهدة التحالف وكان ذلك بشن حرب التخذيل التي أعلنها رسول الله ﷺ حينما فاوض غطفان فكسر حدتهم، ثم بالدور الخطير الذي قام به نعيم بن مسعود ﵁، فقد أوهن الثقة التي كانت تربطهم، فانهزموا نفسيًّا ومعنويًّا ففروا من الميدان.

كان هذا الانتصار تدعيمًا لقوة المسلمين، وقضاء على خصومهم، وردعًا للمتربصين، فلم يعد لليهود أثر في المدينة يذكر، ولم يبق منهم فيها سوى فلول عاشت إلى جوار المسلمين وفي حمايتهم.

بالقضاء على قوة اليهود تخلص المسلمون من أكبر عدو لهم، كان يعيش بينهم، وكانت لديه القدرة على إنزال الضرر بهم، كما لم يعد للقبائل التي كانت تنتظر عونهم، ولا للمنافقين الذين كانوا يعتمدون عليهم ظهير يستعينون به على إيذاء المسلمين، فكفوا عن عداوتهم، ودخل كثير منهم في الإسلام، وانخذل المنافقون فأظهروا ولاءهم للمسلمين، وانحازوا إلى الجماعة المنتصرة شأنهم في كل زمان ومكان.

وأما الأثر الثاني: فكان في مكة عاصمة الشرك يومئذ، ومحضن قيادته، فقد تركت تلك الهزيمة في نفوس المشركين أثرًا لا ينمحي، فجيوشهم غير قادرة على تحقيق أي نصر على المسلمين، وفقدت ثقتها ببقية القبائل، فلم تعد تطمئن إلى مواثيقهم، ولا إلى مساعدتهم، وكيف تطمئن وقد رأت غطفان تفاوض المسلمين لتخذلهم، وهؤلاء اليهود قد غدروا بهم في أحرج الأوقات، وأما حيي بن أخطب فقد كان كذابًا حال ضد عدو متحد.

والواقع أننا لو نظرنا إلى كلتا الجبهتين لرأينا اختلافًا بيِّنًا، يمكن من خلاله الحكم الصادق على كل جبهة منهما.

فبينما ترى الجبهة الإسلامية في غاية من الاتحاد والتماسك هدفهم محدد، وغايتهم واضحة، يلتفون حول قيادتهم في إخلاص، ويبذلون ما يملكون لتسديدها في سخاء، ترى جبهة الحلفاء في تفكك وانحلال لم تجمعهم غاية واحدة، ولم توحدهم قيادة حازمة، ولم يتفقوا على هدف محدد.

فلكل جماعة منهم قيادة، وإن كانوا في ظاهرهم تحت قيادة أبي سفيان إلا أنهم في الحقيقة كانوا تحت قيادات مختلفة، ولم يكن هناك استعداد للخضوع لرأي واحد منهم، وكذلك كانت الغاية مختلفة عند كل فريق من الحلفاء.

فأما قريش فغايتها القضاء على الإسلام في شخص محمد ﷺ ووزيريه، وكانت الدوافع لذلك هو الثأر الذي لم يهدأ بعد في نفوسهم، وقد خرجوا متحمسين لتحقيق هذا الغرض.

وأما اليهود فقد كانت غايتهم إعادة سيطرتهم على المدينة التي أُخرجوا منها مرغمين، فلم يكن من مصلحتهم تمكين تلك القبائل المحاصرة لها من دخولها والسيطرة عليها، ولعل هذا هو السبب في إلحاح حيي بن أخطب على كعب بن أسد للانضمام إلى المحاربين حتى يمكن تكوين قوة من اليهود تتصدى للمشركين بعد الانتصار، وتحول بينهم وبين السيطرة على المدينة.

وأما غطفان فلم يكن لها في تلك الحرب ناقة ولا جمل، وإنما أخرجهم الطمع في الحصول على تمر خيبر لمدة سنة حسبما وعدهم اليهود، ولهذا لم يكن لهم حماس المقاتلين الموتورين، ولا هِمَّة المحاربين أصحاب الثأر، ولما لوَّح لهم الرسول ﷺ بثلث تمر المدينة هرعوا إليه واستجابوا للمفاوضة، وسال لعابهم، ووافقوا على العودة، وكأن لم يكن بينهم وبين اليهود عهد ولا ميثاق.

وهكذا اختلفت الغايات كما اختلفت الأسباب الداعية لهذا التحالف؛ ولذلك فإننا نستطيع أن نقول: إن هذا التحالف منذ وجوده كان يحمل أسباب فشله، ويحمل دواعي تحلله وانهياره، وكان ذلك من أهم أسباب انسحاب الحلفاء دون أن يحققوا ما تحالفوا من أجله.

ولو أضفنا إلى ذلك العوامل الطبيعية التي سخرها الله ﷻ لنصرة المسلمين كالبرد الشديد والريح العاصفة والمطر الغزير لتحققت بذلك كل أسباب الهزيمة التي منوا بها، وردتهم على أعقابهم خاسرين.

وأما الأثر الثالث: فكان في أنحاء الجزيرة المختلفة، حيث كان انتصار المسلمين على هذا النحو ذا اتجاهين مختلفين، فقد اعتقدت العرب أن المسلمين أصبحوا قوة لا تُغلب، وسيطر عليهم الخوف والفزع، فعزَّ النصير، وذل العدو.

وفي الاتجاه الآخر ظن يهود خيبر أنهم لو دخلوا في معركة مع المسلمين لانتصروا عليهم؛ لأن العرب لم يدخلوا المعركة، ولم يخوضوا حربًا، وإنما انهزموا باختلافهم وتفرقهم.

ولهذا أخذوا يجمعون اليهود، ويدربون الجنود، استعدادًا لخوض المعركة الفاصلة مع المسلمين، وقد اجتمع لديهم عشرة آلاف مقاتل». [تأملات في سيرة الرسول ﷺ للوكيل ١٩٨-٢٠٠].

٥٨ ـ أهمية هذه الغزوة فيما بعدها من أحداث:

يقول د/ أبو فارس: «تعتبر هذه الغزوة في تاريخ الحروب العسكرية النبوية فاصلة بين مرحلتين: مرحلة الدفاع، ومرحلة الهجوم، فقد كانت هذه الغزوة آخر وقعة تشن منها قريش حربًا هجومية على أرض المسلمين، ويقف فيها النبي ﷺ والمسلمون موقف المدافع عن المدينة وأهلها.

ولقد أعلن رسول الله ﷺ عن هذا التحول بقوله ﷺ: «**الآنَ نَغْزُوهُمْ، وَلَا يَغْزُونَنَا، نَحْنُ نَسِيرُ إِلَيْهِمْ**».

والمتتبع لسيرة رسول الله ﷺ في غزواته، يجد بالفعل أنها آخر غزوة وقف فيها موقف الدفاع، وبعدها تحول إلى مهاجمة عدوه عربيًّا مشركًا كان أو يهوديًّا أو صليبيًّا.

فها هو ذا رسول الله ﷺ بعد سنة تقريبًا من غزوة الأحزاب يغزو الحديبية وهي تقع على بعد تسعة أميال من مكة المكرمة، ويرابط فيها ويأخذ البيعة من أصحابه على قتال أهل مكة، وفي العام السابع من الهجرة يدخل هو وأصحابه مكة معتمرين ويمكثون فيها ثلاثة أيام رغم أنف المشركين، وبعد هذا بعام يتوجه رسول الله ﷺ ومعه عشرة آلاف مقاتل إلى أعتى قلاع الشرك مكة فيدخلها فاتحًا، ويحطم الأصنام مرددًا قوله تعالى: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ ﴾ [الإسراء].

أما اليهود فبعد غزوة الأحزاب مباشرة توجه الرسول ﷺ إلى بني قريظة وحاصرهم، وشدد عليهم في الحصار، حتى استسلموا لحكم سعد رضي الله عنه فحكم عليهم بقتل المحاربين وسبي الذراري والنساء وغنم الأموال، وبذلك فقد طهر المدينة من رجس يهود بني قريظة.

وفي العام السابع من الهجرة قاد بنفسه جيشًا إلى حصون خيبر اليهودية، فدكها، وقتل صناديدها.

حقًّا إن غزوة الأحزاب كانت معركة فاصلة، كان ثمرتها أن يئس كل معسكر يعادي الإسلام من الوقوف في وجهه، لقد حاولت معسكرات الكفر مجتمعة أن تستأصل شأفة المسلمين، فباءت بالفشل، وحصدت الصاب والعلقم، ورجعت بِخُفَّيْ حنين، فكيف إن تفرقت وانفرد كل معسكر عن حليفه، لقد عجزوا عن تحقيق هدفهم مجتمعين، فهم أشد عجزًا عن ذلك وهم متفرقون، بل لقد استولى اليأس على قلوبهم وعلى نفوسهم وهم ينتظرون مصيرهم المحتوم على يد رسول الله ﷺ.

وأخيرًا فإننا نؤكد قول من قال: (لقد بلغت قوة المسلمين بقيادة رسول الله ﷺ بعد غزوة الأحزاب قمة نضجها وتعاظمها، وكانت دلائل هذا التعاظم:

أولًا: إن المدينة أصبحت خالصة من الجيوب المضادة، والقوى المعادية، فهي قاعدة متينة وأمينة، تُمكن الرسول ﷺ من الانطلاق إلى خارجها، والضرب في عمق العدو.

ثانيًا: تقهقر قريش وفقدانها القدرة على تكوين أي حلف جديد ليضرب الرسول ﷺ، والتراجع عن الهجوم إلى الدفاع.

ثالثًا: تنامي القوة الذاتية للمؤمنين في المدينة فيما يظهر من تماسك اجتماعي، وطاعة تامة لرسول الله ﷺ، وقدرات دبلوماسية وعسكرية قادرة على السيطرة على الظروف وتوجيهها وفقًا لحاجات الدعوة والدولة الجديدة). [ينظر: محاضرات في التاريخ العربي ـ د/ نزار عبد اللطيف الحديثي ص ١١١ ـ نشر مؤسسة دار الكتب للطباعة والنشر ـ جامعة الموصل ـ مطبعة جامعة بغداد سنة ١٩٧٩، وينظر: حياة الرسول المصطفى ﷺ ٢/ ٤٨١].

ولابد من الإشارة هنا إلى أنه وإن كان قد أصبح من المسلَّم أن قوة الرسول ﷺ بعد غزوة الخندق هي الأقوى، فإن الرسول ﷺ لم يترك الأحداث في المنطقة دون رصد ومراقبة، بل ظل يرصد أحداث المنطقة رصدًا دقيقًا عن طريق بث العيون في كل مكان، ويتخذ الإجراء المناسب وفق ما لديه من معلومات دقيقة مرصودة من جهاز الرصد النبوي القوي الأمين». [المرجع السابق، ص ١١١].

[غزوة الأحزاب لأبي فارس ٨٧-٨٩].

٥٩ ـ المبادأة بالغزو بعد الأحزاب:

يقول ل/ خطاب: «غزوة (الخندق) هي المعركة الحاسمة الثانية بعد معركة (بدر) الكبرى، فلو نجح المشركون ويهود في هذه المعركة لتغيرت وجهة التاريخ الإسلامي.

لقد استطاع يهود أن يجمعوا الأحزاب حول المدينة المنورة، وعاونهم يهود بني قريظة بعد وصولهم إلى المدينة، للقضاء على المسلمين ماديًا ومعنويًا، وهذا التجمع فرصة لا تعود أبدًا خاصة إذا أخفقت هذه الأحزاب.

إن معنى إخفاق الأحزاب ويهود بعد هذا التجمع الهائل، أنهم لن يجتمعوا مرة أخرى، وأنهم لا يستطيعون القضاء على المسلمين بعد ذلك منفردين بعد أن عجزوا عن القضاء عليهم مجتمعين، ولهذه النتيجة أثر حاسم في انتشار الإسلام فيما بعد.

لقد انتقل المسلمون من دور الدفاع إلى دور الهجوم في اليوم الذي انتهت به غزوة الخندق؛ لذلك قال الرسول ﷺ لأصحابه بعد انسحاب الأحزاب: «**الآنَ نَغْزُوهُمْ، وَلَا يَغْزُونَنَا**».

وانتقلت المبادأة إلى يد المسلمين بعد هذه الغزوة، ولم يتركوها حتى شمل الإسلام شبه الجزيرة العربية كلها، وارتفعت راية الإسلام شرقًا وغربًا فوق كل راية.

قال تعالى: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ۚ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾ [الأحزاب]». [الرسول القائد ﷺ لخطاب ٢٣٩].

ويقول د/ الوكيل: «لم يكد رسول الله ﷺ يستريح من عناء ليال طوال قضاها مع أصحابه محاصرين بين الخندق وسلع، والعدو يهدد ويزمجر، لم يكد رسول الله ﷺ يمتع عينيه برؤية الوادي خاليًا من جيش الشرك، ويزيل عن نفسه شبح تلك الحرب المدمرة، وقد سره انخذال الحلفاء وانصرافهم حتى قال: «**الآنَ نَغْزُوهُمْ، وَلَا يَغْزُونَنَا، نَحْنُ نَسِيرُ إِلَيْهِمْ**».

وهذا التعبير مع وقته يدل على عبقرية عسكرية، وفهم عميق لنفسية القوم، وما آلت إليه حالهم؛ وذلك لأن انصرافهم من غير أن يحققوا هدفهم بعد أن جمعوا هذه الجموع الهائلة، واستعدوا هذا الاستعداد العظيم، وقد أحاطوا بالمدينة من كل جانب يدل على أنهم لن يفكروا في العودة إلى مثل هذا العمل أبدًا.

فمتى يتأتى لهم أن يجمعوا هذا العدد الوفير مرة أخرى؟ ومن ذا الذي يستطيع أن يجمعهم، وقد رأوا ما يصرفهم عن التجمع حتى ولو كان ممكنًا؟ وكيف ينالون من رسول الله ﷺ وقد حيل بينهم وبينه؟ إذن هو ممنوع ولن تستطيع قوة مهما كانت أن تنال منه، فكيف يجرؤون على غزوه؟

لهذا قطع ﷺ بأن المشركين لن يغزوا المسلمين بعد ذلك أبدًا، وبشَّر بأن المسلمين هم الذين سيغزونهم في عقر دارهم». [تأملات في سيرة الرسول ﷺ للوكيل ١٨٨-١٨٩].

٦٠ ـ الرسول ﷺ ينتزع المبادأة من يد أعدائه (١):

يقول ل/ محفوظ: «قال رسول الله ﷺ حين أجلى الله تعالى عنه الأحزاب: «**الآنَ نَغْزُوهُمْ، وَلَا يَغْزُونَنَا، نَحْنُ نَسِيرُ إِلَيْهِمْ**».

قرار خطير ونقطة تحول تاريخية: هذا الحديث الشريف قرار خطير في تاريخ الإسلام يستحق أن نقف أمامه بكثير من التأمل والتدبر لما ينطوي عليه وما يترتب عليه من دروس تنفع المسلمين وتنير لهم الطريق للخروج من واقعهم الأليم: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ۚ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [هود]، ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾ [النساء].

(١) مجلة الأمة القطرية ٣٩/ ١١-١٣، والعسكرية في الإسلام لمحفوظ ١١٦-١٢٦.

فلقد كان هذا القرار نقطة تحول بارزة في صراع المسلمين مع أعدائهم في عصر النبوة انتقلت فيها المبادأة [1] إلى أيديهم لأول مرة في تاريخ هذا الصراع، وترتب على هذا الانتقال آثار بعيدة المدى، فطوال الفترة التي قضوها في المدينة من يوم الهجرة إلى ما قبل غزوة الخندق، كانوا يتلقون هجمات أعدائهم ويواجهونها «بمعارك دفاعية» كان أبرزها غزوة بدر في السنة الثانية للهجرة، وأُحُد في السنة الثالثة، ثم كانت غزوة الخندق في السنة الخامسة التي واجهوا فيها هجوم قريش والقبائل العربية واليهود، فقرار الرسول القائد ﷺ بعد غزوة الخندق (الأحزاب): «**الآنَ نَغْزُوهُمْ، وَلَا يَغْزُونَنَا، نَحْنُ نَسِيرُ إِلَيْهِمْ**»، معناه أن يتحول المسلمون من الدفاع إلى الهجوم، وأن يسيروا إلى أعدائهم بدلًا من البقاء انتظارًا لضرباتهم، وبعبارة أخرى فإن معنى القرار أن يتحول المسلمون من حالة رد الفعل إلى الفعل.

ولابد هنا من أن نصحح ما في بعض الأذهان من خطأ في فهم معنى الهجوم على أنه يعني العُدوان أو الاغتصاب، فالهجوم شكل من أشكال العمليات الحربية تتحرك فيه القوة إلى العدو وتوجه ضربتها إليه في مواقعه، وطبيعة الحرب تجعل الهجوم شكلًا من الأشكال الضرورية لتحقيق الأهداف حتى في إطار العمليات الدفاعية، ومن الأقوال الشهيرة في هذا المجال «**الهجوم خير وسيلة للدفاع**»، فليس من صواب الرأي أن نعتبر الهجوم مرادفًا للعُدوان أو منطويًا على نواياه، ولقد أوضح لنا الرسول القائد ﷺ هذا المعنى وأكده في معارك عصر النبوة، فكل الغزوات والسرايا التي تحرك فيها المسلمون إلى عدوهم ليوجِّهوا إليه ضرباتهم هي عمليات هجومية تمت في إطار إستراتيجية دفاعية تستهدف الدفاع عن الدعوة وحرية التدين، ولم يكن العدوان أو الاغتصاب أو القهر هدفًا من أهدافها، وإنما كانت أهدافها حقًّا وعدلًا ودفعًا للاعتداء وإعلاء لكلمة الله.

أسس هذا التحول التاريخي: وخطورة هذا القرار التاريخي وما ترتب على تنفيذه من نتائج تدعونا إلى محاولة تقصي الأسس التي بُني عليها فإن تنفيذ هذا القرار ينطوي على مواجهة تحديات كبيرة أهمها أن المسلمين في عملياتهم المقبلة ضد قريش سوف يتركون المدينة قاعدتهم الرئيسة ويسيرون أربعمائة كيلومتر في أرض أقل ما يُقال فيها إنها أرض غير صديقة، ثم يتجهون إلى مكة قاعدة قريش الرئيسة بكل ما فيها من قوة بشرية بأكبر حشد وبكل ما فيها من حوافز معنوية لأهلها للدفاع عنها في معركة تعد معركة مصير بالنسبة إليهم.

---

(١) **المبادأة** (أو المبادرة) معناها باختصار حرية العمل، والذي يملك المبادأة يحرم خصمه من حرية العمل، ويحصر أعماله في نطاق رد الفعل، وإحراز المبادأة من أهم عوامل النصر والنجاح في الحرب والسياسة على حد سواء.

وليس من شك في أن الرسول ﷺ كان مدركًا لحجم هذه التحديات التي لم يسبق أن واجه المسلمون مثلها، ومع ذلك كان مطمئنًا إلى اتخاذ قراره بكل ما له من عواقب ونتائج.

والواقع أن مما يعين على استخلاص أسس ذلك القرار استقراء تطور الأحداث خلال السنوات الخمس الأولى للهجرة.

فشل قريش في تحقيق أهدافها: ففي خلال تلك الفترة كانت قريش تملك زمام المبادأة لكنها لم تستطع تحقيق هدفها الأساسي وهو القضاء على الإسلام أو القضاء على المسلمين في موطنهم الجديد، لقد قاتلت المسلمين في عدة معارك أهمها بدر وأحد والخندق بلا جدوى.

حتى في تلك الغزوة الأخيرة (الخندق) التي أرادت لها أن تكون «فاصلة» فحشدت لها كل ما أمكنها من قوى أخرى إلى جانب قوتها متمثلة في القبائل العربية واليهود لم تُجْدها شيئًا، والذي يُتصور أن قريشًا إزاء هذا الفشل سوف تضعف عزيمتها ويفتر استعدادها للعودة إلى التجربة مرة أخرى.

وهنا تظهر عبقرية الرسول ﷺ في فهمه لطبائع البشر وفراسته في «رصد ملامح الضعف» في قوة خصمه، وسرعته الفائقة في اتخاذ القرار الصحيح في الوقت الملائم تمامًا لتوجيه «الضربة القاضية»: «**الآنَ نَغْزُوهُمْ، وَلَا يَغْزُونَنَا، نَحْنُ نَسِيرُ إِلَيْهِمْ**»!

الضغط الاقتصادي على قريش: وخلال تلك الفترة نجح المسلمون في فرض الحصار الاقتصادي على قريش بالسيطرة على طريق التجارة إلى الشام ثم على طريق العراق الذي تحولت إليه، فبعد أن أصبح طريق الشام محفوفًا بالمخاطر تحولت قريش إلى طريق العراق فقد قال صفوان بن أمية: «إن محمدًا ﷺ وأصحابه قد عوروا علينا متجرنا فما ندري كيف نصنع بأصحابه وهم لا يبرحون الساحل وأهل الساحل قد وادعوهم ودخل عامتهم معه، فما ندري أين نسلك، وإن أقمنا في دارنا هذه أكلنا رؤوس أموالنا فلم يكن لها من بقاء، وإنما حياتنا بمكة على التجارة إلى الشام في الصيف وإلى الحبشة في الشتاء»، فأشار عليه الأسود بن عبد المطلب أن يتخذ طريق العراق ففعل، وتجهز من البضائع والفضة بما قيمته مائة ألف درهم، غير أن الرسول ﷺ بعث زيد بن حارثة ﷺ في مائة راكب فاستولى على القافلة وهي في طريقها عند ماء يقال له: (القَرَدة) من مياه نجد، وهكذا لم يعد أمام قريش إلا التجارة مع الحبشة، وكان لذلك أسوأ الأثر على حياتها الاقتصادية.

فلابد وأن يكون لهذا الضغط الاقتصادي أثر كبير في عودة قريش إلى أن «تعيد النظر في موقفها» ضد المسلمين، فيكون الضغط العسكري الذي يتحقق بعد انتزاع المبادأة، «دافعًا» لها أكثر وأكثر في هذا الاتجاه.

تأمين قاعدة المدينة: لقد أصبحت المدينة خلال تلك الفترة «قاعدة أمينة» يستطيع الرسول ﷺ أن «يتركها» خلفه، ويبعد عنها ما شاء من مسافات، «ويغيب» عنها ما شاء من زمن ثم «يعود» إليها ليجدها ـ كما تركها ـ صلبة قوية أمينة.

والواقع أن تأمين المدينة المنورة كقاعدة للإسلام، بدأ منذ اللحظة الأولى لوصول المسلمين إليها بعد الهجرة، فكان أول ما عمد إليه الرسول القائد ﷺ «إقامة جبهة داخلية صلبة»، وذلك بجمع صفوف المسلمين وتوحيد جبهتهم وإيجاد رابطة قوية بينهم (توحيد صف الأنصار من أوس وخزرج، والمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار)، ثم بتنظيم الحياة الاجتماعية والاقتصادية والعسكرية لكافة سكان المدينة من المسلمين والمشركين واليهود بمقتضى ميثاق المدينة، كل ذلك تأمين للقاعدة «من الداخل».

ثم كان تأمين المدينة «من الخارج» بعقد المعاهدات والاتفاقات مع مختلف القبائل العربية، فهذه الاتفاقات ـ فضلًا عن أنها كفلت حرية الدعوة ـ فقد كفلت حسن الجوار والمعاملة، وهو ينطوي على تأمين كبير للمدينة لأنه يحرم قريشًا من الاعتماد على هذه القبائل أو محالفتها أو اتخاذها «قاعدة» للعدوان على المدينة.

كفاءة أجهزة المعلومات والأمن: وثبت خلال تلك الفترة أن للمسلمين أجهزة للمعلومات والأمن على درجة عالية من الكفاءة تتمثل في أمرين، الأمر الأول شبكة من العيون والأرصاد منتشرة في أنحاء شبه الجزيرة العربية؛ لإبلاغ الرسول ﷺ بالمعلومات عن نوايا أعدائه وحركاتهم، فقد علم ﷺ من عمه العباس رضي الله عنه في مكة بتجهيز قريش لمهاجمته قبل غزوة أحد وغزوة الخندق.

وكان الدليل الناصع على كفاءة أجهزة المعلومات هذه أن المسلمين «لم يؤخذوا على غِرَّة أبدًا» فشكلت بذلك مصدر أمن مستمر يكون له دور فعال في تأمين حركة المسلمين وحرمان أعدائهم من مباغتتهم.

ثم نضيف إلى أجهزة المعلومات، جهاز الأمن الذي نجح في المحافظة على أسرار المسلمين وحرمان العدو من كشفها، وواقعة منع رسالة حاطب بن أبي بلتعة من أن تصل إلى قريش قبل غزوة الفتح خير ما يُذكر دليلًا على ذلك، هذا إلى ما كان لدى المسلمين من وعي الأمن والمحافظة على الأسرار.

تنفيذ القرار: لقد كان فتح مكة بطبيعة الحال هو قمة الأعمال التنفيذية لقرار انتزاع المبادأة، باعتبار أن مكة هي الهدف الرئيس، لكن فتح مكة لم يقع إلا في رمضان من السنة الثامنة للهجرة أي بعد صدور القرار بسنوات ثلاث تقريبًا، فما هو السر في هذا؟

الواقع أن دراسة أحداث تلك الفترة من بعد الخندق إلى ما قبل الفتح تكشف عن مخطط بالغ الدقة والإحكام مهد الطريق تمامًا لسير المسلمين إلى هدفهم الرئيس مكة، كما تبرز لنا درسًا عظيمًا يعلِّم المسلمين أن يبتعدوا عن العمل المتسرع أو غير المخطط، وأن تكون خطواتهم نحو أهدافهم محسوبة بكل الدقة والإحكام.

فإنه يلفت نظر الباحث المدقق أن الغالبية العظمى لسرايا القتال بُعثت خلال تلك الفترة (أكثر من ثلاثة أرباع مجموع عدد السرايا)، كما أن الرسول ﷺ قاد في تلك الفترة خمس غزوات هي غزوة بني قريظة، وبني لحيان، وذي قرد، والحديبية، وخيبر.

توطيد الأمن في المنطقة الشمالية: أما بَعث هذا العدد الكبير من السرايا فكان لتأمين المنطقة الشمالية حتى حدود الشام، والعراق، والسيطرة على القبائل العربية في تلك المنطقة مثل هوازن، وبني كلاب، وبني مرة، وبني عوال، وبني عبد بن ثعلبة، وغطفان، وبني سليم، وبني الملوح، وجهينة، والقبائل التي عاونت الروم ضد المسلمين.

القضاء على اليهود عسكريًّا: وأما الغزوات فقد قضى الرسول ﷺ على اليهود عسكريًّا بغزوهم في بني قريظة وخيبر.

لقد فتح اليهود - بنقضهم العهد - «جبهة ثانية» ضد المسلمين كان عليهم أن يواجهوها بالردع الذي تستحقه، وكانت غزوة خيبر ضربتهم القاضية، إذ كانت المعقل الرئيس لليهود في شبه الجزيرة، وكان بها سبعة حصون تكتنفها البساتين، وكان أهلها أقوياء مسلحين استماتوا في الدفاع إذ كانوا يعلمون علم اليقين أن اندحارهم معناه القضاء الأخير على بني إسرائيل في شبه الجزيرة.

وهكذا أمِن الرسول القائد ﷺ - بسقوط خيبر - بأس اليهود وآمن بأنهم لن تقوم لهم بعد ذلك قائمة، وبأنه يستطيع بعد ذلك أن يتحرك جنوبًا نحو هدفه الرئيس.

زيادة قوة الجيش ورفع كفاءته القتالية: ولقد أتاحت غزوة الحديبية قيام هدنة أتاحت للمسلمين أن يزيدوا من حجم الجيش إلى درجة لم يكونوا بالغيها من قبل، يؤكد ذلك مقارنة قوة الجيش في غزوة الخندق بقوته في الفتح، ففي الخندق كانت القوة ثلاثة آلاف، وفي الفتح كانت عشرة آلاف، وتلك قفزة كبيرة في زمن قصير نسبيًّا.

وارتفعت كفاءة الجيش القتالية إلى أقصى حد، بعد أن بلغ رصيده من عمليات القتال منذ بدأ الصراع في السنة الثانية للهجرة إلى ما قبل الفتح قرابة ستين عملية، قاد منها الرسول ﷺ أربعًا وعشرين غزوة، وقاد أصحابه ما بقي منها، ومارس المسلمون في هذه العمليات كل أشكال القتال من دفاع وهجوم

ومطاردة وإغارات، وقتال في القرى، وحصار المواقع الحصينة، وغيرها، كما أصبح للجيش عدد كبير من القادة الأكفاء القادرين على قيادة العملية المستقلة.

إضعاف إرادة قريش القتالية: وأُصيبت إرادة قريش القتالية بالضعف نتيجة لعدة عوامل نذكر منها:

(١) تجريدها من الحلفاء خاصة اليهود بعد القضاء عليهم عسكريًّا.

(٢) انفتاح المجال أمام الرسول ﷺ ـ بعد الحديبية ـ لمحالفة القبائل التي لم تكن مطمئنة إلى محالفته لقوة قريش لوجود الكعبة في مكة مما أضعف شوكة قريش.

(٣) انتشار الإسلام جعل جانبًا من قريش يدين بالإسلام وجانبًا آخر باقيًا على الشرك، فأصبح من المستحيل أن تجتمع كلمتها على حرب المسلمين.

أغلى الدروس: وهكذا أصدر الرسول ﷺ قراره التاريخي بانتزاع المبادأة ـ في الوقت المناسب ـ من يد أعدائه، وانتقل بالمسلمين من نطاق رد الفعل في غير اندفاع أو مجازفة، بل بتخطيط سليم، وخطوات محسوبة، واضعًا في اعتباره كل العوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية، ثم سار نحو هدفه الرئيس، فحققه على أكمل ما يكون التحقيق، وجنى ثمرة الأخذ بالأسباب والإعداد والاستعداد، واثقًا ـ منذ البداية ـ من معية الله، شاكرًا لربه ومسبحًا بحمده على النصر والفتح ورؤية الناس يدخلون في دين الله أفواجًا.. ا.هـ.

المبحث السادس
الدروس الدعوية

١ - إرجاع الأمور إلى أولي الأمر فيما يخص الجماعة:

يقول د/ أبو فارس: «أخذناه من موقف عمر بن الخطاب ﷺ، إذ حينما سمع خبر نقض بني قريظة العهد الذي بينها وبين رسول الله ﷺ سارع من فوره وجاء إلى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر، ثم انتظر الأمر، دون أن يخبر أحدًا من صحابة رسول الله ﷺ بما سمع؛ ذلك لأن إشاعة الخبر يضر بالروح المعنوية التي يتمتع بها الجندي المسلم، ويؤثر على قدرته في القتال، وثباته في مواجهة التحديات الجسام، فلا تتماسك الصفوف ولا تتراص.

إن القيادة وحدها هي أقدر جهة على تحليل الموقف، بعد دراسته وفحصه، ومن ثم اتخاذ القرار المناسب الذي يحقق المصلحة العامة للمسلمين، ويدفع المفسدة عنهم، فجاء عمر ﷺ إلى القائد ليخبره الخبر.

وهذا الموقف من عمر بن الخطاب ﷺ، ينبغي أن يتعلم منه الدعاة إلى الله، فإذا سمعوا أخبارًا مؤذية، أو تشوه الصورة الحقيقية، أو تشيع الفاحشة في الذين آمنوا، ألا يحدثوا بها أحدًا، وأن يئدوها، وإذا كان لخبر من الأخبار أهمية، يتعلق بأمن الجماعة المسلمة عليهم أيضًا ألا يشيعوه، بل يبادروا على الفور بإيصاله للقيادة المسلمة، التي تقوم بدورها بدراسته واتخاذ القرار المناسب.

ولقد عاب القرآن الكريم على نفر من المسلمين في عهده ﷺ تسرعهم ونشرهم لبعض الأخبار التي سمعوها، فأرشدهم الرب تبارك وتعالى إلى الطريق السليم، فقال سبحانه: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ﴾[النساء: ٨٣].

وموقف عمر بن الخطاب ﷺ كان ردًّا إلى الرسول ﷺ ولي الأمر ليتخذ التدابير اللازمة بهذا الخصوص». [الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢/ ٢٧-٢٨].

٢ - دفع أراجيف وتثبيط المنافقين:

يقول أ/ ياقوت: «ولكن خبر الخيانة اليهودية انتشر بين الناس انتشار النار في الهشيم؛ ليمحص الله المؤمنين ويكشف ضغائن المنافقين، فظهر على إثر ذلك المثبطون والمتشائمون والجبناء الذين يزيدون في تسعير الفتنة وتأجيج الأزمة، والمائقون والمرجفون الذين يصيدون في الماء العكر، وهؤلاء جميعًا قال الله فيهم: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ ﴾ [الأحزاب]، ﴿ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَاۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ

إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ ۚ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ [الأحزاب].

قال الحارث المخزومي:

إِنَّ الْوُشَاةَ قَلِيلٌ إِنْ أَطَعْتَهُمْ ... لَا يَرْقُبُونَ بِنَا إِلًّا وَلَا ذِمَمَا

إن على المسلم في مثل هذه النوازل أن يدفع هذه الأراجيف ولا يدعها تفت في النفوس، وعليه أن ينف الوشاية والشائعات، وأن يذب عن أعراض المجاهدين خاصة قيادة المسلمين وإمامهم، ولا يَلِجّ في شيء مُلتَبس حتى يتبين له الصواب فيه، وتَسْتَوضحَ له الحقيقة... وعليه أن يسهم في كل ما هو من شأنه تثبيت الناس وتشجيع المقاتلين، واستنفار الهمم، والتشمير للمجد، والذود عن حياض سيد المرسلين ﷺ:

فَمَنْ يَحْمِي حِمَى الإِسْلَامِ أَمْ مَنْ ... يَذُبُّ عَنِ الْمَكَارِمِ أَوْ يَذُودُ؟

[السيرة النبوية لياقوت ٢٤١-٢٤٢].

٣ ـ انتهاز الفرصة للدعوة إلى الله:

يقول د/ أبو فارس: «قضية تبليغ الدعوة إلى الله ﷻ حية في نفس علي ﷺ، لا يغفل عنها مهما كانت الظروف والأحوال، إنها فرصة أن يُنقذ عمرو بن عبد ود من النار، فيدعوه إلى التوحيد وهكذا ينبغي ألا يغفل الداعية عن تبليغ دعوته تحت أي ظرف، وفي أي زمان، وقدوته في ذلك رسولنا محمد ﷺ، وصاحبه علي بن أبي طالب ﷺ، وقبل ذلك يوسف ؑ إذ اغتنم وجوده في السجن فأخذ يبشر بدعوته بين السجناء: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾﴾ [يوسف]».

[غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٧٣].

٤ ـ المعنى الحقيقي للبطولة:

في مبارزة علي ﷺ عمرو بن عبد ود العامري يقول أ/ ياقوت: «ذاك الإمام السيد الضرغام في إحدى صولاته، إنه مشهد يُحيي البطولة الحقة في النفوس، بعدما زاغ الناس بمفهوم البطولة إلى ساحات الملاعب والمراقص، فصار (البطل) هو اللاعب الذي يركل الكُرة في الشِّباك، وصار (رأس الحربة) و(المُهاجم) الذي سقط مخ رأسه إلى مخ ساقه؛ فالكل ينظر إلى موضع قدمه لا إلى موضع عقله، فذلك هو البطل المزعوم، ومثله بطل الفيلم وبطل التمثيلية وبطل المسرحية... وكثر هؤلاء الأبطال في ميادين الخلاعة والخلابة ممن تُرسم له التصاوير على الملابس، وأكياس البطاطس المقلي، وعُلب الحلوى... وهؤلاء الأبطال الباطلون إذا تدبرتَ أمرهم تجدهم في أخلاقهم من السَّفلة والحشوة، وطغام الفَسَقة، ورعاع الناس، يحاربون كل فضيلة، ويمحقون في نفوس الناس كل قيمة كريمة.

نحن في مسيس الحاجة لإحياء معاني البطولة الإسلامية، والشجاعة الحربية، والأعمال الخيرية في شتى ميادين الحياة،، فهذه هي البطولة التي تَبني ولا تهدم، وليست كتلك البطولة المزيفة التي تحرك الغرائز». [السيرة النبوية لياقوت ٤٣٣-٤٣٤].

٥ ـ رجوع الأمير عن رأيه إذا ظهر الصواب في غيره:

يقول د/ زيدان: «ذكرنا ميل النبي ﷺ إلى التعاقد مع غطفان على إعطائهم جزءًا من ثمار المدينة على أن يرحلوا ويخرجوا من تحالفهم مع قريش في حصارهم للمدينة، وتقول بعض الروايات: إن النبي ﷺ كلمهم في ذلك ولكن لم يبرم العقد معهم، فاستشار السعدين: سعد بن معاذ وسعد بن عبادة على ما بدا له ﷺ من ميل إلى مصالحة غطفان فأجاباه بما ذكرناه من قبل وخلاصته أنهما قالا: إن كان هناك أمر من الله أو هوى من نفسك نحو مصالحتهم فنحن على السمع والطاعة، وإن كان ذلك تصنعه لمصلحتنا فنحن لا نرى إعطاءهم ذلك، فأخذ برأيهما ولم يبرم الصفقة مع غطفان.

فعلى قادة الجماعة المسلمة جماعة الدعاة أن لا يترددوا في الرجوع عن رأيهم إذا ظهر عدم صوابه وعدم رغبة من يتعلق بهم هذا الرأي الذي رؤي لمصلحتهم». [المستفاد من قصص القرآن لزيدان ٢/ ٢٦١-٢٦٢].

٦ ـ الخوف قد يصيب الداعية، ولكن إيمانه يحميه من الاستسلام:

يقول د/ زيدان: «قلنا إن المؤمنين أصابهم الخوف والفزع وزُلزلوا وفقدوا الثبات في أثناء الحصار، وهذا شيء طبيعي؛ لأنهم بشر لم يخرجوا عن بشريتهم، وقد أشار القرآن الكريم إلى حالتهم فقال تعالى: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ (١٠) هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا (١١)﴾ [الأحزاب].

لقد كانوا أناسًا من البشر، وللبشر طاقة لا يكلفهم الله ما فوقها، وعلى الرغم من ثقتهم بنصر الله في النهاية، وبشارة الرسول ﷺ لهم بفتوح اليمن والشام والمغرب والمشرق، على الرغم من هذا كله فإن الهول الذي كان حاضرًا يواجههم كان يزلزلهم ويزعجهم ويكرب أنفسهم، ولكن كان إلى جانب الزلزلة وزوغان الأبصار وكرب الأنفاس، كان إلى جانب هذا كله الصلة التي لا تنقطع بالله، ومن ثم اتخذ المؤمنون من شعورهم بالزلزلة سببًا في انتظار النصر مستحضرين في أذهانهم قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ (٢١٤)﴾ [البقرة].

ومن ثم قالوا لما رأوا الأحزاب: ﴿هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا (٢٢)﴾ [الأحزاب].

فعلى جماعة الدعاة أن لا يستغربوا من الهزة التي تصيب الدعاة إذا فاجأتهم صعاب وشدائد وتجمُّع للأعداء مما يبعث الخوف والفزع في نفوسهم، فهذا شيء ممكن الحدوث ولا يدل على زوال الإيمان من نفوسهم أو الشك في دعوتهم، وإنما هو الشعور الذي ينتاب الإنسان باعتباره إنسانًا، ولكن سرعان ما يعود المؤمن بفضل إيمانه إلى حالته المستقرة واستحضاره ما وعد الله المؤمنين.

فعلى قيادة الجماعة المسلمة أن لا تدهشها هذه الهزة والزلزلة التي تصيب أفرادها عند الشدائد الشديدة، ولكن لا يجوز لها أن تستسلم أو تيأس لما تراه وإنما عليها أن تذكرهم بوعد الله وتكون هي القدوة الملموسة في الثبات حتى يثبتوا معها». [المستفاد من قصص القرآن لزيدان ٢/ ٢٦٢-٢٦٣].

٧ـ الحذر من المنافقين:

يقول أ/ كولن: «وضع ﷺ المنافقين تحت مراقبة دقيقة بحيث لم يمكنهم من إلحاق أي أذى أو سوء مع أنهم كانوا يرغبون في ذلك، وهذا يدل على فطنته ﷺ في اتخاذ التدابير الضرورية في درء الأضرار ومنعها». [النور الخالد محمد ﷺ لكولن ٢/ ١٠٣].

ويقول د/ زيدان: «على جماعة الدعاة أن تعلم يقينًا إمكان تسلل بعض المنافقين في صفوف الجماعة، فليسوا هم بأفضل من جماعة المسلمين الأوَل وقد تسلل بعض المنافقين في صفوفها مع وجود النبي ﷺ وتنزل الوحي بفضحهم وبيان خبايا نفوسهم، وإذا كان هذا حدث في عصر النبي ﷺ وبين صفوف المؤمنين من صحابة رسول الله ﷺ فحدوثه الآن وبين صفوف الجماعة المسلمة أقرب احتمالًا وأيسر وقوعًا، فعلى قيادة جماعة الدعاة، وعلى الدعاة أنفسهم، أن يرصدوا المتصفين بصفات المنافقين التي ذكرها القرآن، ومنها ما ذكره عنهم بصدد معركة الأحزاب حتى يحذرهم المؤمنون ولا يتأثروا بإرجافهم ودعاياتهم وتخذيلهم المؤمنين، فمن صفاتهم:

استبعادهم النصر لدعوة الإسلام ولدعاته، وإشاعة اليأس في النفوس، وأن لا جدوى من الدعوة ومن العمل للإسلام.

وأنهم في وقت الشدائد يفرون، وفي وقت الرخاء يدَّعون لأنفسهم الدعاوى الباطلة من الشجاعة والإقدام والحرص على الدعوة ومصلحتها.

فعلى الجماعة المسلمة أن ترصد المنافقين من خلال ما يبدو منهم من صفات وأقوال، وأن تحذِّر المؤمنين والدعاة من أعضائها حتى لا يتأثروا بإرجافهم وأقوالهم، وقد ذكرنا الآيات التي نزلت في معركة الخندق والمتعلقة بالمنافقين وبيان موقفهم من تلك المعركة، وما كانوا يقولونه ويحرضون غيرهم عليه، فعلى الدعاة وجماعتهم أن يرجعوا إلى ما قلناه بشأن تلك الآيات التي فضحت المنافقين وبينت خبايا

نفوسهم، فالوحي قد انقطع ولا سبيل لمعرفة المنافقين اليوم ثم الحذر منهم إلا من خلال ما يظهر من أقوالهم وأفعالهم وصفاتهم التي بينها القرآن ومن ذلك آيات سورة الأحزاب والتي ذكرناها.

وليحذر الدعاة أسلوبهم في تنقيص الدعاة واختلاق العيوب لهم أو تكبيرها وإشاعة سوء الظن فيهم». [المستفاد من قصص القرآن لزيدان ٢/ ٢٦٣].

٨ ـ إخفاء صلة بعض الدعاة بالجماعة:

يقول د/ زيدان: «وقد يكون من المفيد للجماعة المسلمة، جماعة الدعاة، عدم إظهار بعضهم، وإخفاء صلتهم بالجماعة، حتى يمكن الإفادة منهم في بعض الأوقات، كما استفاد المسلمون من نعيم ابن مسعود ﷺ حيث إنه أسلم ولم يعلم به قومه، وجاء إلى النبي ﷺ وأخبره بإسلامه وعدم علم قومه بذلك، فقال له النبي ﷺ: «**إِنَّمَا أَنْتَ فِينَا رَجُلٌ وَاحِدٌ، فَخَذِّلْ عَنَّا إِنِ اسْتَطَعْتَ، فَإِنَّ الحَرْبَ خَدْعَةٌ**»، فعلى الجماعة المسلمة أن تضع في منهاجها عدم إظهار بعض دعاتها للناس، وعدم إظهار صلتهم بها، حتى يمكن أن يقوم بمثل ما قام به نعيم بن مسعود ﷺ عند الحاجة إلى ذلك، فإن الدعاة إلى الله الآن في حالة حرب في أكثر البلاد حيث يستبيح الحاكمون في هذه البلاد إيذاءهم بل وقتلهم، فعليهم أن يأخذوا الحذر وما يدفع عنهم الشر، ومن ذلك إخفاء بعض دعاتها للغرض الذي ذكرناه، ولغرض آخر، وهو أن يكون الصف الثاني للدعاة إذا سقط الصف الأول أو أُزيح أو أُبعد أو لم يستطع العمل كان في الثاني عوض وبدل عنهم».

[المستفاد من قصص القرآن لزيدان ٢/ ٢٦٣-٢٦٤].

٩ ـ التعرف على أحوال أعداء الدعوة:

يقول د/ زيدان: «ذكرنا إرسال النبي ﷺ حذيفة بن اليمان ﷺ إلى جيش المشركين للوقوف على أحوالهم وما هم عازمون عليه، وأمره أن لا يُحدث شيئًا حتى يرجع، وأنه لم يقتل أبا سفيان وقد أمكنه ذلك تنفيذًا لوصية رسول الله ﷺ إليه لا يُحدث شيئًا حتى يرجع، وأن حذيفة ﷺ كان سريع البديهة يوم قال أبو سفيان لجيشه: فليسأل كل جليسه عن هويته خوفًا من اندساس الغرباء في جيشه، فبادر حذيفة ﷺ بسؤال جليسه قائلًا له: من أنت؟ فأجابه: أنا فلان.

وهكذا تخلص حذيفة ﷺ من أن يبدأه جليسه بهذا السؤال، فعلى أمير الجماعة المسلمة، أن يختار الكفء للعمل الخطير القادر عليه، وأن يكون ذا مقدرة عالية لحسن التخلص من الأمور المحرجة، وأن يلتزم التزامًا كاملًا بما تأمره به الجماعة، أو يأمره أميرها عند إناطة العمل به بحيث لا يسوغ له مخالفته وإن بدا له أن هذه المخالفة نافعة، كما حصل من حذيفة ﷺ، فقد قال: سنحت لي الفرصة لقتل أبي سفيان ولكني لم أفعل لأمر رسول الله ﷺ ألا أُحدث أي شيء حتى أرجع؛ لأن مهمته كانت رصد ما عند العدو ومعرفة أحواله وما يتكلمون به، وهذا ما حصل عليه حذيفة ﷺ ولم يتصرف أكثر مما أُمر به.

وهكذا ينبغي أن يروض الدعاة وغيرهم من أعضاء الجماعة المسلمة أنفسهم إذا كُلف أحدهم بعمل معين كاستكشاف أحوال خصوم الدعوة أو غير ذلك من الأمور، أن يلتزموا بأوامر جماعتهم».

[المستفاد من قصص القرآن لزيدان ٢/ ٢٥٩-٢٦٠].

١٠ ـ ذكاء الداعية وسرعة التصرف، والخروج من المأزق:

يقول د/ أبو فارس: «لقد سمع حذيفة ﷺ قول أبي سفيان: (وليأخذ كل رجل منكم بيد جليسه)، أي يتعرف عليه، وفي السيرة الحلبية: (ليتعرف كل منكم على جليسه، واحذروا الجواسيس والعيون)، وهنا بادر على الفور بسؤال مَنْ على يمينه ومَنْ على شماله حتى لا يُعرف.

ومن الجدير بالذكر أنه كان بين دهاتين من دهاة العرب، إنهما معاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص رضي الله عنهما، فقد أسلما بعد ذلك.

وهذا يدل على دهاء حذيفة ﷺ وسرعة خاطره وقدرته على التخلص من المآزق الحرجة بأبسط السبل وأيسرها.

ويمكن للداعية المسلم أن يستفيد من طريقة حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما في هذا الشأن ويستخدمها كلما دعت الحاجة إليها، ومطلوب منه أن يبحث عن وسائل وطرق غيرها قد يستخدمها لخدعة العدو والتمويه عليه». [غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٩٥-١٩٦].

١١ ـ لا ينبغي لجماعة الدعاة تمني لقاء العدو:

يقول د/ زيدان: «لقد ذكرنا تذكير الله ﷻ عباده المسلمين بنعمته عليهم بكف المشركين عنهم ورجوعهم إلى ديارهم خائبين قال تعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾ [الأحزاب] فهذه الآية تُشعر بتذكير الله تعالى عباده المسلمين بنعمته عليهم بكف المشركين عنهم، ذلك أن معنى قوله تعالى: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ أي فلم يحوجونهم إلى مبارزة أعدائهم ومنازلتهم وقتالهم ليجلوهم عن المدينة، بل تولى الله وحده كفاية ذلك، وعلى هذا فلا ينبغي لجماعة الدعاة تعمد مواجهة أعداء الدعوة وتعريض أعضائها الدعاة إلى بطش أعدائهم؛ لأن المطلوب القيام بالدعوة إلى الله، وليس المطلوب مصادمة أعداء الدعوة الأقوياء، فإن هذا الصنيع يؤذن بوقوع الجماعة بالرياء وطلب السمعة عند الناس، ليقولوا إن جماعة الدعاة أوذيت في سبيل الله، وفي وصية رسول الله ﷺ لأسامة بن زيد رضي الله عنهما وقد أمّره على جيش المسلمين الذي أرسله لإرهاب الروم، قال ﷺ له: «**لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ عَدُوِّكُمْ، فَإِنَّكُمْ لا تَدْرُونَ عَسَى أَنْ تُبْتَلَوْا بِهِمْ، وَلَكِنْ قُولُوا: اللَّهُمَّ اكْفِنَاهُمْ وَاكْفُفْ عَنَّا بَأْسَهُمْ**». [سنن الإمام سعيد بن منصور ـ القسم الثاني من المجلد الثالث ص ٢٠٤ رقم ٢٥١٩ تح الأعظمي].

ولكن لا يعني ما أقول أن على الدعاة وجماعتهم القعود وعدم القيام بالدعوة إلى الله، وإنما الذي أعنيه بكل تأكيد عدم تعمدهم لقاء الخصوم والدخول معهم في حرب ولهم مندوحة من ذلك، أي يمكنهم أن يدعوا إلى الله، وأن يتجنبوا المخاصمة مع أعداء الدعوة لا سيما إذا كانت الدولة هي ـ لسوء فهمها مقاصد الدعوة ـ خصم الدعاة وجماعتهم، ففي هذه الحالة ينبغي لجماعة الدعاة عدم تصعيد الخصام مع الدولة، مع المضي في متطلبات الدعوة بهدوء مع تحمل شيء من شطط الدولة وبغيها، أما هذا الكلام قد لا ينفع المتحمسين من أعضاء الجماعة المسلمة، جماعة الدعاة، فيندفعون إلى مخاصمة الدولة دون ضرورة ولا حاجة إلى هذه المخاصمة فيقعون ويوقعون جماعتهم في أذى شديد لا طاقة لهم به ولا ضرورة تدعو إليه، فلتحذر الجماعة وأعضاؤها والمنتسبون إليها من الدعاة والأنصار ما قلناه وليدعوا الله أن ينجيهم من كيد أعدائهم ولا يحملوا أنفسهم على مواجهتهم، ولكن إذا واجههم عدوهم فليصبروا وليثبتوا ولا يستسلموا، بل عليهم أن يصدقوا الله في جهادهم ولا يضعفوا أمام عدوهم». [المستفاد لزيدان ٢/ ٢٦٥].

١٢ ـ الحرب الإعلامية تواكب الحرب العسكرية:

يقول د/ الغضبان: «لقد وجدنا الحرب الإعلامية للمسلمين تواكب الحرب العسكرية، وكانت هي التي تمثل لسان الناطق الرسمي بنتائج الحرب والمعارك عند العرب، فمن ديوان الأشعار يتعرف العرب على الأحداث، ولم يكن هذا الأمر كذلك بالنسبة للمسلمين، إذ كان القرآن الكريم بالنسبة لهم هو مصدر التلقي والحُكم على الأحداث، ولم يكونوا يعيرون التفاتًا فيما بينهم للشعر بعد أن صار الوحي هو موطن التربية بالنسبة لهم.

لقد كان الشعر للرد على العدو الذي لا يؤمن بالقرآن الكريم، واستطاع الشعراء المسلمون أن يخوضوا معارك الشعر كلها دون حرج أو تلجلج من أي ميدان، تكلموا بقيم العرب، وطرحوا مفاهيم الإسلام من خلال الشعر، ولم يتركوا مثلبة عربية يطعن منها الأعداء إلا وردُّوها عليهم.

وما أحوج الحركة الإسلامية اليوم التي تخوض معركتها العسكرية أن تعطي الجانب الإعلامي حقه، وطبيعة الحرب العالمية اليوم حرب إعلامية، فالمعسكران يبتعدان ما استطاعا عن الصدام والمواجهة العسكرية، لكن حربهم المستمرة اليومية تنطلق من وسائل الإعلام.

وإن ثقة الناس بإعلام الحركة يعني ثقة الناس بها، فهم يحكمون على الحركة الجهادية من خلال إذاعتها ومجلاتها ونشراتها، وإذا كان الشعر وحده أيام الرسالة هو الوسيلة الإعلامية الأكبر ـ إن لم تكن الأوحد ـ فوضعنا اليوم يختلف كثيرًا عن سالفه.

إن وسائل الإعلام اليوم تسد الأفق، ولا يأخذ الشعر إلا حيزًا محدودًا جدًّا منها، فهناك الموعظة، والخطبة، والمقالة، والأقصوصة، والقصة، والتعليق السياسي، والتحليل الإخباري، والمادة الإخبارية، والأناشيد الحماسية، كل هذه ذات أثر خطير في الواقع الإعلامي.

إضافة إلى وسائل البث الإعلامي، من إذاعة وتلفاز وجريدة ومجلة وكتاب وتسجيل سمعي وبصري، كلها غدت تتحكم في قلوب البشر وعقولهم وتفكيرهم، وتوجه قناعاتهم وتبني عقائدهم.

إن المعركة من الخطورة والدقة والأهمية ما يجعل الحكم على نجاح المعركة من خلال نجاح إعلامها والثقة به والتعامل معه، وأملنا كبير أن توجه الحركة الإسلامية طاقاتها لتكوين الاختصاصيين المبدعين في هذا الفن، ويملكون مقود الفكر والعاطفة؛ ليحققوا القاعدة الأساس التي يقوم عليها صرح البناء الجهادي، فيكون كما قال الله ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [إبراهيم]، إنها مواصفات واضحة للكلمة الطيبة، إنها من الأصالة والصدق ضاربة جذورها في الأرض، فلا يزعزعها كل بهرج الدنيا وزخرفها، وهي من جهة ثانية منتشرة في كل صقع، وطالت فروعها الباسقة حتى عمت الأرض وامتدت للسماء، وهي من جهة ثالثة مثمرة ترعاها عناية الله، تحقق أهدافها التي قامت من أجلها، كاملة، ويكون ثمرها مذاقًا لكل قارئ أو راءٍ أو سامع، وفقدان أيٍّ من هذه المواصفات الثلاثة يعني أننا لم نصل إلى الكلمة الطيبة التي نريد».

[المنهج الحركي للسيرة النبوية للغضبان ٢/ ٣٦٨-٣٧٠].

المبحث السابع
حديث القرآن عن غزوة الأحزاب (١)

يقول أ/ باشميل: «وقد تحدث القرآن الكريم عن معركة الأحزاب، وتناول مراحل هذه المعركة في عدة آيات من سورة الأحزاب بلغت سبع عشرة آية، تبدأ بالآية التاسعة من سورة الأحزاب، وتنتهي بالآية الخامسة والعشرين من نفس السورة.

وأول ما تحدث عنه القرآن هو نزول البلاء على المسلمين بوصول قوات الأحزاب، وإنعام الله تعالى على المسلمين بدحر هذه القوات وتسليط العوامل الطبيعية عليهم وإزعاجهم بجنود من عند الله لم يرها أحد، مما أدى إلى إجبارهم على الرحيل عن المدينة وفك الحصار عنها، فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ ﴾ [الأحزاب].

ويعنى القرآن الكريم بالجنود الذين جاؤوا لحرب المسلمين، قريشًا وغطفان وبني قريظة، أما الجنود الذين أشار القرآن إلى أن الله أرسلهم لإزعاج الأحزاب، فقد ذكر كثير من أهل التفسير أنهم الملائكة، ولم يثبت أن الملائكة قاتلوا الأحزاب، ولكنهم أرسلوا للإزعاج وللتضييق.

قال الإمام الشوكاني في (فتح القدير ٤/ ٢٥٦): قال المفسرون: بعث الله عليهم الملائكة فقلعت الأوتاد، وقطعت أطناب الفساطيط، وأطفأت النيران، وأكفأت القدور، وجالت الخيل بعضها في بعض، وأرسل الله عليهم الرعب، وكثر تكبير الملائكة في جوانب العسكر، تخويفًا للأحزاب، حتى كان سيد كل قوم يقول لقومه: يا بني فلان هلم إليَّ، فإذا اجتمعوا قال لهم: النجاءَ النجاءَ. ا. هـ.

وقد جاء هذا التأييد الإلهي للتضييق على الأحزاب، وإزعاجهم بعد أن محص الله المؤمنين وصهرهم في مختبر المحن والمصائب التي أخذت بخناقهم وأحاطتهم من كل جانب، فصمدوا لها وأثبتوا (عمليًّا) أنهم بإيمانهم ـ أكبر من هذه المصائب والنكبات، فقرروا مقاومة الغزو حتى النصر أو الفناء، ومن هنا جاءهم النصر المفاجئ من عند الله جزاء صبرهم وثباتهم وإيمانهم ويقينهم.

حديث القرآن عن تدهور الحالة:

وتحدث القرآن الكريم عن تدهور الحالة بين المسلمين، وانتشار الخوف والرعب والفزع بين صفوفهم نتيجة إطباق جيوش الأحزاب عليهم (بمساعدة يهود المدينة) من كل ناحية وإحكام الحصار

---

(١) ينظر في ذلك: غزوة الأحزاب لباشميل ٢٤١ – ٢٥٠، محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ١٥٧ – ١٦٨، ١٧٠، السيرة النبوية العطرة لشقرة ٣٨٦– ٣٩٨، في ظلال القرآن لسيد قطب ٢٨١٩، ٢٨٣٦ – ٢٨٤٥.

عليهم بشكل مخيف رهيب، فقال تعالى: ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ ﴾ [الأحزاب].

حديث القرآن عن المنافقين:

كما تحدث القرآن الكريم عن مواقف التخريب والإرجاف التي اتخذها المنافقون الموجودون في جيش المدينة، والتي بها ساهموا في مضاعفة الكرب والبلاء النازل بالنبي ﷺ وصحبه ﭫ، فقال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ ﴾ [الأحزاب].

وذلك أن بعض المنافقين، وقفوا في تلك الساعات الحاسمة التي عَمَّ فيها الخوف والرعب بين المسلمين، وقف هؤلاء المنافقون يسخرون من وعد الله ورسوله المؤمنين بالنصر، فقالوا: كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر وأحدنا الآن لا يستطيع الذهاب إلى الغائط (خوفًا).. ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورًا.

وتحدث كذلك عن طائفة المنافقين الذين ـ عندما اشتد الكرب واستحكمت حلقات البلاء ـ انطلقوا يشيعون روح الهزيمة والفرار بين الجند، بدافع الرغبة في نشر الفُرقة والتخاذل داخل صفوف الجيش الإسلامي، فقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ ﴾ [الأحزاب].

ويستمر القرآن الكريم في التنديد بهؤلاء المنافقين الذين سلكوا ذلك المسلك الشائن يوم الأحزاب، فيقول: ﴿ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ﴾ [الأحزاب].

ويتحدث القرآن عن طبيعة المنافقين الخبيثة المخربة، طبيعة القعود عن الجهاد، وطبيعة تحريض الغير على الانفضاض من حول النبي ﷺ والانضمام إلى صفوف هؤلاء المنافقين المعوقين، كما يصور حالة الجبن والخور المتأصلة في نفوسهم، عندما تكون الحرب، مع الانتفاش وسلاطة اللسان والتشدق بقارص الكلام في حالة الأمن، فيقول: ﴿ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ ﴾ [الأحزاب].

ويتحدث القرآن كيف كان الفزع والفشل مسيطرًا على قلوب المنافقين ومزيلًا لرشدهم وصوابهم - حتى بعد انصراف جيوش الأحزاب - إلى درجة أنهم كانوا يعتقدون أن هذه الجيوش لا تزال في معسكراتها حول المدينة، بالرغم من أنها قد انسحبت نهائيًّا.

وكيف أن هؤلاء المنافقين المحسوبين على المسلمين بالرغم من تسللهم من صفوف الجيش ساعة الشدة والروع، وهروبهم من الميدان وبُعدهم عن خطر القتال، كانوا لشدة جبنهم يتمنون أنهم من أعراب البادية وأن لا علاقة تربطهم بالمدينة، التي كانت الهدف الأول للغزو، وكيف أنهم كانوا يسألون في فزع وقلق - كما يسأل الجبان الرعديد الذي يحسب كل شيء تحرك هو ضده - عن أخبار نتيجة القتال الدائر بين المسلمين والأحزاب، فقال تعالى: ﴿ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ ﴾ [الأحزاب].

حديث القرآن عن مواقف المسلمين المشرِّفة:

ثم ينتقل القرآن من الحديث عن الصورة الكالحة الرديئة البغيضة التي كان عليها المنافقون منذ نشوب معركة الأحزاب حتى نهايتها، إلى الحديث عن الصورة الوضيئة المشرقة الرائعة التي ظهر فيها النبي الأعظم ﷺ والصفوة من أصحابه يوم أن حاقت بهم المحن وتحالفت ضدهم البلايا وتقاطرت عليهم الرزايا، فصمدوا في وجهها وثبتوا أمام زعازعها ثبوت الرواسي، والتي بدلًا من أن تكون هذه المحن والبلايا لهم مصدر اضطراب وتضعضع وانهيار، كانت مصدرًا للطمأنينة والثقة والإيمان واليقين والاستبشار بنصر الله.

وقد بدأ السياق بذكر الرسول الأعظم ﷺ وهو القدوة الكاملة في الشجاعة والثبات والإيمان وقيادة الأمم إلى شاطئ النصر والظفر عندما تضطرب الأحوال وتتقاطر المحن والرزايا، فقال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ [الأحزاب]، ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ ﴾ [الأحزاب].

ويتحدث القرآن هنا عن هذا النموذج من الرجال الذين - لصلتهم الوثيقة الصادقة بالسماء - لم يزدهم ذلك الكرب الذي نزل بهم - والزلزال المخيف الذي أصابهم في غزوة الأحزاب إلا صلابة في إيمانهم وصدقًا فيما عاهدوا الله عليه من الصبر والثبات والتضحية في سبيله حتى الموت، عكس ذلك النموذج الفج الهلوع المهزوز الجبان فريق المنافقين الذي لا يقف عند عهد ولا يوفي بميثاق، فقال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأحزاب].

وبعضهم يرى أن هذه الآيات نزلت في أنس بن النضر ﷺ وأصحابه الذين ثبتوا مع رسول الله ﷺ في معركة أُحُد، فقد روى الإمام أحمد بسنده قَالَ أَنَسُ بنُ مَالِكٍ ﷺ: عَمِّي ـ قَالَ هَاشِمٌ: أَنَسُ بْنُ النَّضْرِ ـ سُمِّيتُ بِهِ، لَمْ يَشْهَدْ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ يَوْمَ بَدْرٍ، قَالَ: فَشَقَّ عَلَيْهِ، وَقَالَ: فِي أَوَّلِ مَشْهَدٍ شَهِدَهُ رَسُولُ الله ﷺ غِبْتُ عَنْهُ! لَئِنْ أَرَانِي اللهُ مَشْهَدًا فِيمَا بَعْدُ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ لَيَرَيَنَّ اللهُ مَا أَصْنَعُ، قَالَ: فَهَابَ أَنْ يَقُولَ غَيْرَهَا، قَالَ: فَشَهِدَ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ، قَالَ: فَاسْتَقْبَلَ سَعْدَ بْنَ مُعَاذٍ ﷺ، قَالَ: فَقَالَ لَهُ أَنَسٌ: يَا أَبَا عَمْرٍو أَيْنَ؟ وَاهًا لِرِيحِ الجَنَّةِ أَجِدُهُ دُونَ أُحُدٍ، قَالَ: فَقَاتَلَهُمْ حَتَّى قُتِلَ، فَوُجِدَ فِي جَسَدِهِ بِضْعٌ وَثَمَانُونَ مِنْ ضَرْبَةٍ وَطَعْنَةٍ وَرَمْيَةٍ، قَالَ: فَقَالَتْ أُخْتُهُ عَمَّتِي الرُّبَيِّعُ بِنْتُ النَّضْرِ: فَمَا عَرَفْتُ أَخِي إِلَّا بِبَنَانِهِ، وَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾، قَالَ: فَكَانُوا يَرَوْنَ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِيهِ وَفِي أَصْحَابِهِ.

[مسند أحمد ٢٠/ ٣١٨ رقم ١٣٠١٥، وقال الشيخ الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم].

وعلى أي كان الأمر فإن هذه الآية ينطبق ما جاء فيها من وصف على ذلك النوع من الرجال الأبرار الذين ثبتوا بجانب نبيهم في كل المواقف ووفوا بعهدهم الذي عاهدوا الله عليه سواء أنس بن النضر وأصحابه من أبطال أحد، أم الصفوة المختارة من صحابة محمد ﷺ، الذين ثبتوا معه في معركة الأحزاب.

الابتلاء والاختبار:

ثم يعقب القرآن الكريم على تلك المشاهد المختلفة والصور المتباينة التي واكبت معركة الأحزاب بأن ما شاهده الناس من أهوال وكروب ومحن إنما هو للابتلاء والاختبار؛ لكي يظهر الصادق على حقيقته (كما هو)، فينال جزاءه الطيب عند الله، ويتبين المنافق الكاذب ويظهر أمام الناس (كما هو)؛ لكي ينال ما يستحق من عذاب ونكال، فقال تعالى معقبًا على ذكر تلك الأحداث: ﴿لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾﴾ [الأحزاب].

ثم يختم الحديث عن هذا الحدث الضخم الرهيب (غزوة الأحزاب) بأن الله دائمًا مع المؤمنين الصادقين الصابرين لا يسلمهم لعدوهم ولا يمكنه منهم ـ ما داموا على صلة وثيقة بالله وعلى يقين بصدق وعده ـ بل ينصرهم على هذا العدو مهما كانت قوته وجبروته، كما حدث للنبي ﷺ في غزوة الأحزاب المزلزلة هذه، فقال تعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾ [الأحزاب].

كما تحدث القرآن الكريم عن تكاسل المنافقين وأعمالهم التخريبية أثناء حفر الخندق، وكيف أنهم كانوا يتركون العمل في الخندق دونما استئذان من النبي القائد ﷺ، فندد القرآن الكريم بعملية التسلل التي

كانوا يقومون بها تهربًا من المشاركة الفعالة في حفر الخندق الذي قررت قيادة المدينة أن يكون خط الدفاع الرئيس عن العاصمة، كما أثنى ـ في الوقت نفسه ـ على المؤمنين الذين لا يتركون العمل في الحفر إلا عندما تدعو الحاجة الماسة الضرورية، والذين لا يتركون العمل ـ مع هذا ـ إلا بعد أخذ إذن خاص من النبي القائد ﷺ، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾ [النور].

ثم وجه تحذيره للمنافقين فقال جل وعلا: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [النور]». [غزوة الأحزاب لباشميل ٢٤١-٢٤٩].

ويقول الشيخ عرجون: «ونزلت حشود الأحزاب وجموعهم منازلها من ميدان المعركة، محيطين بكتائب المجاهدين، إذ جاؤوهم من فوقهم ومن أسفل منهم، واشتد البلاء، وعظم الخطب، وزاغت الأبصار، وضاقت مجاري الأنفاس وبلغت القلوب الحناجر، وتناوحت الظنون والأوهام، وطفت التخيلات والشكوك، وظن ضعفة الإيمان بالله الظنونا، واستولت وساوس الشيطان على العقول والقلوب والأفكار، ونجم النفاق واستشرى الظلام وكثرت الأراجيف الفاجرة، وانتشرت منها الأكاذيب الماكرة حتى أخذت المحنة بالحلاقيم، وتعاظم البلاء واشتدت المحن، وزلزل المجاهدون زلزالًا شديدًا أساخ أقدامهم، وأيبس أعصابهم وشل حركاتهم، وكانوا كما ذكَّرهم الله تعالى بمواقف محن السابقين من المؤمنين في قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ [البقرة].

قال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن قتادة قال: نزلت هذه الآية في يوم الأحزاب أصاب النبي ﷺ يومئذ وأصحابه بلاء وحصر».

المنافقون يستولي عليهم الرعب والفزع فيكشف قناع قلوبهم عن الجبن والهلع:

ولم يقو المنافقون على مداراة وتغطية ما نزل بهم من الرعب والهلع والجبن والفزع، مما جعلهم يتسللون في خفية وتدسس فرارًا أن يصيبهم من الكوارث ما يقصم ظهورهم، وكان أمثلهم طريقة في النفاق من يستأذن النبي ﷺ متعللين بالأكاذيب الفاجرة، يقولون إن بيوتنا عورة، أي مكشوفة للعدو، وقد كذبوا بما قالوا وفجروا فيما زعموا، وقد رد الله عليهم كذبهم وفجورهم، فقال: ﴿وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ﴾ [الأحزاب: ١٣] ولكنهم لجبنهم وتزايل مفاصلهم من هول ما رأوا وما عاينوا من الشدائد والأزمات

زعموا ما زعموا من الكذب، وهم في مداخل أنفسهم لا يريدون إلا فرارًا، لينجوا بزعمهم من البلاء والمحن القواصم.

أبلغ أسلوب تصويري لمشاهد ووقائع هذه القصة كما هو مبين هنا في تفسيرها:

وفي ذلك كله نزل قدر كبير من صدر سورة الأحزاب بدأه الله تعالى بأشرف وأحب نداء للمؤمنين، ممتنًا بنعمه وفضله عليهم، ومذكِّرًا لهم بإحسانه في تفريج ضوائقهم فيما سبق لهم من المحن التمحيصية لتطهرهم من شوائب الخوف، وتثبت قلوبهم وتربط على أفئدتهم بروابط الإيمان، فقال جل شأنه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ ﴾ [الأحزاب].

ثم ذكر عز شأنه مواقع جنود الأعداء في إحاطتهم بكتائب المجاهدين فقال: ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ ﴾ يعني غطفان ومن تبعها من أهل نجد بقيادة الأحمق المطاع عيينة بن حصن الفزاري، ثم قال تعالى: ﴿وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ وهم قريش وأحابيشها ومن ضوى إليهم من كنانة وأهل تهامة، بقيادة أبي سفيان صخر بن حرب بعد قتل صناديدها في بدر.

ثم قال تعالى يذكر شدة البلاء وعظيم المحنة، ويصف ما أصاب المجاهدين في موقعهم من ميدان المعركة: ﴿ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ ﴾ وزيغ الأبصار تحيُّرها وعدم تثبتها مما ترى؛ لأنها مالت عن سننها وأضلت طريقها إلى ما تريد إبصاره، فلم تُثبت مما ترى شيئًا لشدة الهول الذي نزل بأصحابه فأفسد رؤيتها.

ومعنى بلوغ القلوب الحناجر التي هي مدخل الطعام والشراب: أنها اضطربت واهتزت روابطها وكثر وجيبها، وكأنها تحولت عن مكانها لتضايقه عن حركات اضطرابها لتخرج إلى ما يسعها وهو كناية عن بلوغ الشدة أقصى غايتها.

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾﴾ [الأحزاب] إخبار عن اختلاف الأحوال أمام النوازل والكوارث التي لا يُستطاع دفعها، فأهل التثبت كانت ظنونهم أن هذا الذي نزل بهم إنما هو ابتلاء من الله تعالى ليميز به الخبيث من الطيب، كما قال تعالى: ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾[آل عمران: ١٧٩] حتى يصفي المجتمع المسلم من غلث الضعف.

وأما ضعفاء المؤمنين الذين لم يخالط الإيمان بشاشة قلوبهم، فظنهم بالله أنهم حينما رأوا ما نزل من البلاء تحيروا، واهتزت عزائمهم، ووهنت دعائم إيمانهم، وملكهم الخوف والرعب، فجسم لهم خيالهم الصغير كبيرًا، وأراهم ما لم يروا، وأنزلهم الشيطان منازل حيرته ووسوسته وضلالاته.

وأما المنافقون على القول بدخولهم في عموم النداء نظرًا لظاهر حالهم من إظهار الإسلام ومداخلتهم لمجتمعه، مع إبطانهم الكفر وتدسسهم مع أهله، فظنُّهم بالله ما حكاه الله عنهم من التكذيب لوعد الله في قوله: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ ﴾ [الأحزاب] وقد أخذوا معهم في هذا الظن السيء من الذين استعبد الخوف والرعب والفزع نفوسهم، فكانوا على بعض أخلاق المنافقين في طبائعهم المهزوزة، وقد وسمهم الله بمرض القلوب، وهم الذين مس الإيمان قلوبهم ولكنه لم يستقر فيها استقرارًا ثابتًا يعصمه عن التأثر ببعض خلال المنافقين.

وقد عقب الله تعالى ما ذكره من أحوال المجاهدين في موقفهم أمام جموع أعدائهم بتصوير إجمالي لابتلائهم وزلزلة أقدامهم في قوله تعالى: ﴿ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ ﴾ [الأحزاب] ومعناه أن الخوف بلغ منهم مبلغًا عظيمًا أزعجهم وأفزعهم، وذهب بأمنهم وثباتهم وذهلوا عن النظر في معمعة الموقف، ولم يكن لهم إلا ترقب العواقب التي توحي بها هذه الشدائد والأزمات التي لم يعرفوا لهم مخرجًا منها، لتعمية معالمها عليهم لشدة ما لحقهم من الفزع.

وصف المنافقين بالهلع والجبن والتدسس:

ثم قال الله تعالى يحكي شيئًا من تدسس النفاق والمنافقين في جبنهم وعدم تماسكهم أمام شدائد الأحداث: ﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ ﴾ [الأحزاب].

وهذا تذكير للنبي ﷺ بحال هؤلاء المنافقين الجبناء، فكأن الله تبارك وتعالى يقول: واذكر يا محمد قول طائفة من المنافقين لغيرها من طوائفهم: ﴿يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ﴾ وهذا النداء يرجع بهم إلى جذور كفرهم، فهم لم يقولوا يا أهل المدينة ـ وهو الاسم الإسلامي الذي سُمِّيت به بعد هجرة النبي ﷺ إليها، واتخذها دارًا له ولمجتمعه المسلم، وجعل منها قلعة لكتائبه وحصنًا للمجاهدين ـ كراهية في الإسلام وأهله، ولكنهم قالوا: ﴿يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ﴾ فرارًا من اسم المدينة الذي يوحي بالاستقرار والتجمع المطمئن الآمن إلى التثريب واللوم والتقريع؛ ولهذا قالوا لإخوانهم المنافقين: ﴿لَا مُقَامَ لَكُمْ﴾ أي مع هذه الشدائد المرعبات المزعجات وتوالي المحن والبلايا، فارجعوا إلى بيوتكم لتأمنوا عواقب هذه المزعجات متعللين بالكذب والبهتان في قولهم: ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾، وقد أكذبهم الله في قولهم فقال ردًّا عليهم: ﴿وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ﴾ ولكنهم لجبنهم لا يريدون من هذا الكذب إلا الفرار عن مواقع البأس والشدة.

ثم بيَّن تعالى أن الجبن طبيعة النفاق والمنافقين، وأن ما هم عليه من الرعب والانزعاج ليس قاصرًا على وجودهم في ميادين المعارك، ولكنه ملازم لهم لا يفارقهم، فقال: ﴿ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم ﴾ [الأحزاب:١٤]

أي: بيوتهم ﴿مِّنۡ أَقۡطَارِهَا﴾ من جميع جوانبها وأكنافها، وانثالت على أهليهم وذراريهم جموع الأعداء ناهبين لأموالهم، سابين لنسائهم وأطفالهم، ثم سئلوا عند ذلك الرجوع إلى صريح الكفر لأسرعوا إلى إجابة ما يُطلب منهم فَرَقًا من هؤلاء المهاجمين لبيوتهم.

قال الزمخشري: والمعنى أنهم يتعللون بإعوار بيوتهم ويتمحَّلون ليفروا عن نصرة رسول الله ﷺ والمؤمنين ومصافة الأحزاب الذين ملؤهم رعبًا وهولًا، وهؤلاء الأحزاب كما هم لو كبسوا عليهم أرضهم وديارهم وعُرض عليهم الكفر، وقيل كونوا على المسلمين لسارعوا إليه، وما تعللوا بشيء، ما ذلك إلا لمقتهم الإسلام وشدة بغضهم لأهله وحبهم الكفر وتهالكهم على مصانعة أهله، والارتماء في أحضانهم.

خصائص المنافقين مستمدة من خصائص معلميهم اليهود:

ثم بيّن تعالى أن المنافقين غُدْر لا عهد لهم، بل هم ـ كمعلميهم من أخابث اليهود ـ مجبولون على الخيانة والغدر ونقض العهود لا يستمسكون بعقد ولا يوفون بوعد، كما وصفهم رسول الله ﷺ، وقد بلاهم، وعلم مداخل فجورهم فقال ﷺ: **«أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا، أَوْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْ أَرْبَعَةٍ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ، حَتَّى يَدَعَهَا: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ»**. [البخاري في المظالم (٢٤٥٩)].

فقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَانُواْ عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلۡأَدۡبَٰرَ﴾ [الأحزاب: ١٥] وقالوا: لئن أشهدنا الله قتالًا لنقاتلن، وقد كذبوا وأخلفوا الله ورسوله ما وعدوه.

ثم بيّن الله تعالى للمنافقين أن الفرار لا ينجي من قدر الله، وأن قدر الله تعالى واقع لا مفر منه عند حلول أجله في مناسباته، ولو نجاكم أيها المنافقون الفرار من الحتف أو القتل لكانت هذه النجاة مسطَّرة في علم الله يجري بها قدره، ولا تعدو أن تكون متعة قليلة جرى بها قلم الغيب، تنقضي فينقضي عمر من عاشها.

ومما ينسب إلى علي ﷺ في هذا المعنى قوله:

أَيُّ يَوْمٍ مِنَ المَوْتِ أَفِرُّ ... يَوْمٌ لَمْ يُقْدَرْ أَوْ يَوْمٌ قُدِرْ

يَوْمٌ لَمْ يُقْدَرْ لا أَرْهَبُهُ ... وَمِنَ المَقْدُورِ لا يَنْجُو الحَذِرْ

ثم زجر الله تعالى المنافقين مقرِّعًا لهم، فأمر نبيه محمدًا ﷺ أن يبلغهم أن سنة الله تعالى في مجريات أقداره ونفاذ إرادته لا تتخلف، فقال له ﷺ: قل يا محمد لهؤلاء المنافقين: من ذا الذي يعصمكم ـ أي يمنعكم من الله ـ إن أراد بكم سوءًا من ألوان عذابه وأذاقكم بأسه، أو أراد بكم رحمة في الدنيا يستدرجكم

بها لتزدادوا رجسًا على رجسكم، فتكونوا أحقَّاء بإنزال أسوأ العقاب بكم وإحلالكم أشد العذاب؟! والاستفهام إنكاري مصحوب بالتقريع، ومعنى الكلام: لا أحد يمنعكم من نزول ما أراد الله بكم إنزاله من بأسه ومقته، ولا أحد يمنعكم ويحول بينكم وبين ما أراد الله بكم من رحمة تصيبكم في الدنيا لتزدادوا بها آثامًا وقد عدمتم الولي والناصر الذي يجيركم من عذاب الله، فلا تجدونه لو طلبتموه بكل ما في استطاعتكم من سيئ المكر وخبيث التدبير، ثم أخبرهم الله تعالى أن علمه المحيط لا يند عنه سوء مقصدكم في تثبيطكم عزائم المؤمنين من أقربائكم عن الخروج مع رسول الله ﷺ لمقاتلة أعدائه وأعداء رسالته من طوائف الأحزاب المهاجمين لهم، وتدعون أقرباءكم إلى أن يكونوا معكم لتباعدوهم عن الجهاد لإعلاء كلمة الله مع رسوله ﷺ، وإذا افتضح نفاقكم لم تخرجوا لتقاتلوا إلا قتالًا قليلًا لتدفعوا به قالة السوء عنكم.

خسة المنافقين في الشح والطمع:

ثم وصف الله تعالى هؤلاء المنافقين في مجال البذل والإنفاق في الحرب، ووصمهم بأنهم ضموا إلى الجبن البخل، فقال تعالى: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾ [الأحزاب: ١٩] في وقت الحرب أضناء بما في أيديهم يقبضونها عن الإنفاق في سبيل الله، فإذا جاءهم طلب البذل والإنفاق ضاقت أنفاسهم، وعراهم ما يعرو الموتى، ونظروا إلى رسول الله ﷺ بأعين حائرة زائغة كنظر الذي تغشَّاه الموت ونزلت به أسبابه وهو يعالج سكراته وشدائده فلا يرى أمامه إلا أشباحًا لا يميزها، فإذا ذهبت الشدة وانتهت المعركة وحيزت الغنائم هب المنافقون في حرص البخلاء الأشحة على المال، وانتقل بهم شحهم من الخور والرعب إلى المطالبة بنصيب من الغنائم في فجور وقحة، يطلقون عليكم ألسنتهم بالسوء والبذاء لتوفروا لهم ما يطلبون من الغنائم، ويدَّعون زورًا وكذبًا أنهم قاتلوا معكم وبمكانهم منكم في القتال غلبتم أعداءكم وغنمتم أموالهم.

ثم أكد ما جُبلوا عليه من البخل والشح تأكيدًا محا وجودهم من سجل الرجاء في أن يصدر منهم فعل من أفعال الخير، فقال تعالى: ﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ﴾[الأحزاب: ١٩] وتعليق (أشحة) بحرف الاستعلاء (على) دون حرف (الباء) التي تفيد الإلصاق بالخير ولزومه لهم؛ لأنه أُريد بالكلام تجريدهم من كل رغبة في الخير، ومعناه أنهم بلغوا من البخل على المؤمنين أنهم يكرهون أن يكون الخير ظلَّة يستظلون بها، ولكنهم لشدة كراهيتهم له يجعلونه تحت أقدامهم يستعلون عليه، نافرين منه نفرة تباعد بينهم وبينه، فلا هم يعرفونه ولا هو من خلائقهم وسجاياهم، فهم أشحة بالخير ولو على أنفسهم، فكانوا بذلك مفارقين بطبيعة وجودهم لأهل الإيمان؛ لأن الإيمان أصل أصول الخير، لم يسامتهم مسامتة تجعل لهم منه أي نصيب، ولو كان لهم منه ذرة لحبط وهلك وباد كما يبيد الظل إذا واجهته أشعة الشمس، بما يقترفونه من تدسس خبيث ونفاق معرق أصيل فيهم يملأ جوانحهم وعقولهم، ويستولي على مشاعرهم.

ما حلَّ بالمنافقين من الفزع والرعب أزاغ مداركهم بما أفسد تصورهم للواقع أمامهم:

ثم ذكر الله تعالى بعض تعللاتهم الباطنة التي يخدعون بها أنفسهم نتيجة للخوف والرعب والجبن من كل ما امتلأت به قلوبهم واستحوذ على إحساساتهم، حتى إنهم يتوهمون الواقع المشهود غير واقع ولا موجود لشدة ذهولهم وزيغ أبصارهم وضلال بصائرهم وفساد عقولهم واضطراب تفكيرهم.

فالهزيمة النكراء التي نزلت بأوليائهم من طواغيت الشرك وعبيد الوثنية المتحزِّبين على رسول الله ﷺ وعلى مجتمعه المسلم، والتي فرَّقت جموعهم ومزَّقت تحزبهم وشتتت شملهم، وأطلقت أسواقهم للفرار مدبرين لا يلوون على شيء ـ يتوهمونها تحفزًا للكرة وتوثبًا للرجعة لمهاجمة المجاهدين، فقال تعالى في تصوير هذا الموقف: ﴿ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ﴾ [الأحزاب: ٢٠] مدحورين منهزمين، وهذا حسبان باطل أملاه الهلع الذي أُصيبوا به من جراء تبدد آمالهم في أحزاب الكفر وحشود الشرك والطغيان، ولكن الواقع صك عقولهم وأراهم الحقيقة معاينة، وأن الأحزاب قد انهزموا هزيمة كشفت سوءات غرورهم بقواهم المادية التي ذهبت هباء مع أضاليل الشيطان وأباطيله، والمنافقون يرون في دخائل أنفسهم جبنهم وخورهم وزيغ أبصارهم وضلال بصائرهم.

فإن رجع الأحزاب ـ وما هم بفاعلين لأنهم أصيبوا بها حل عواصم تحزبهم ـ تمنى المنافقون لهول ما حل بهم من الخوف والرعب أن لا يشهدوا مرة أخرى ما شهدوه من قبل، وودوا لو أنهم أتيح لهم مهرب إلى بوادي الأعراب، يتسقطون أخبار المجاهدين ويسألون عن أنبائهم وتعرف أحوالهم.

ثم فضحهم الله وكشف سرهم مبيِّنًا أن هذا السؤال سؤال نفاق خبيث، يودون من ورائه أن يسمعوا شيئًا يسرهم وقوعه للمجاهدين، وأنهم لو كانوا موجودين بين صفوف المسلمين لم يتخلوا عن جبنهم، ولو اضطروا أن يباشروا القتال مع المجاهدين لم يقاتلوا إلا قتالًا ضعيفًا يدارون به نفاقهم، فهو قتال تعلَّة ورياء ونفاق يراؤون به المسلمين، وهم يُبطنون وراء هذا القتال الضعيف أفجر الكفر والخداع، مما لا يخدع أحدًا من المسلمين؛ لأن صدق الإيمان وإخلاصه لا يكون بالمظاهر الكاذبة الخادعة والحركات المنافقة، وإنما يكون بالتأسي برسول الله ﷺ في صدق جهاده وقوة صبره على لأواء الحياة وشظفها وشدة أزماتها، وتحمُّل أشد البلاء في سبيل نشر رسالته لإعلاء كلمة الله ومجاهدته شراذم الكفر وفئات النفاق والغلظة عليهم ليعلموا أن ليس في قلوب المؤمنين هوادة لهم ولا مداراة لمخازيهم، ولن يتحقق هذا التأسي برسول الله ﷺ إلا لمن صفا قلبه، واستنار بنور الهداية فؤاده، واستوى في الإخلاص للإسلام باطنه وظاهره، وهذا الاستواء في الإخلاص لا يكون إلا بمعرفة حق رسول الله ﷺ على كل مؤمن برسالته والإيمان بأنه ﷺ المحفوظ بتوفيق الله ﷻ وتسديده بوحيه، فلا يُخدع بنفاق المنافقين.

وهذا معنى تأكيد التأسي برجاء اليوم الآخر، والإيمان بمجيئه لتوفية كل عامل جزاء عمله، وأمارة ذلك أن يذكر العبد الله ذكرًا قلبيًّا، يغسل درن النفاق، وذكرًا لسانيًّا يتطابق مع الذكر القلبي؛ ليكون ذلك عنوانًا على إخلاص الإيمان وصدق اليقين.

الله تعالى يثني على المؤمنين وهم على أهبة القتال:

ثم أثنى الله تعالى على المؤمنين وهم على أهبة خوض المعركة والدخول في معمعانها ثناء جميلًا، وذلك بإعلان ما وعدهم الله ورسوله، وصدق الله ورسوله في وعدهما بالنصر على حشود الأحزاب وكثرة عددهم وتوافر عُددهم المادية وتكالبهم على استئصال المجتمع المسلم، فقال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ﴾ [الأحزاب: ٢٢] على ما وصفهم رسول الله ﷺ لأصحابه في كثرتهم الهائلة، وضخامة حشودهم، ووفرة عدتهم للهجوم على كتائب المجاهدين، وتعطشهم لسفك دمائهم، قال المؤمنون في صدق وإخلاص وطمأنينة وتسليم: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾[الأحزاب: ٢٢] أي هذا الذي نراه مشاهدة بأعين أبصارنا من حشود الأحزاب وكثرتهم هو الذي وعدنا الله ورسوله ﴿وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾[الأحزاب: ٢٢] في تبشير المؤمنين المجاهدين بالنصر على هذه الجموع الخاوية قلوبها من الإيمان كما نصرنا ربنا تبارك وتعالى في (بدر) على حشود الفجور من المشركين، ولم تزدهم رؤيتهم لحشود الأحزاب، وكثرة عددهم ووفرة عدتهم إلا إيمانًا بالله ورسوله، وتسليمًا لأمرهما، وتصديقًا لوعدهما، وتبشيرًا بنصر الله.

ثم ذكر الله تعالى ذِكْرًا خاصًّا شأن صفوة من المؤمنين الذين كانوا في ثباتهم قد بلغوا مبلغًا عاينوا فيه صدق موعود الله، وكانوا عاهدوا الله تعالى على الصبر والثبات، فقال جل شأنه: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣] من الثبات في قتال الجهاد في سبيل إعلاء كلمة الله، فأوفوا بما عاهدوا، فمنهم من استشهد ومضى إلى ما أعده الله للشهداء من جزيل النعيم، ومنهم من بذل طاقته وجهده، فلم يُبْق منها شيئًا ولكن الله تعالى أبقاهم إلى آجالهم ليكونوا غصصًا في حلاقيم فجَّار الكفار وعبيد الوثنية، وهم على ثباتهم وقوة إيمانهم وصدق إخلاصهم، لم يبدِّلوا عهودهم مع الله، ولكنهم ظلوا في قوة إيمانهم وصوارم عزائمهم وصادق إخلاصهم.

ثم ذكر تعالى ما هو كالسبب في اتصاف الفريقين: خلص المؤمنين، وشراذم المنافقين بما اتصف به كل منهما فقال: ﴿لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾[الأحزاب: ٢٤].

قال الزمخشري في تفسيرها: وفيه تعريض بمن بدَّلوا من أهل النفاق ومرضى القلوب، جعل المنافقين كأنهم قصدوا عاقبة السوء وأرادوها بتبديلهم، كما قصد الصادقون عاقبة الصدق بوفائهم ـ بما عاهدوا الله عليه ـ لأن كلا الفريقين مسوق إلى عاقبته من الثواب والعقاب، فكأنهما استويا في طلبهما والسعي لتحصيلهما.

ختم الآيات بذكر هزيمة الأحزاب وما كان من عاقبة غدر اليهود:

ثم أجملت الآيات في خواتيمها ما كان من هزيمة الأحزاب وصرف القتال عن المؤمنين بما وقع من معجزة إرسال الريح العاصفة على حشودهم في منازلهم لا تتعداها، وما أرسل معها من جند غيب الله تعالى تأييدًا لرسوله ﷺ، فصنعت بهم ما أفزعهم بالرعب وملأ قلوبهم بالخوف، وأطلقوا سيقانهم وركائبهم فرارًا من هول ما نزل بهم فقال تعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرٗا﴾ [الأحزاب: ٢٥] أي: لم يصيبوا من المعركة إلا أنهم رُدُّوا على أعقابهم، والغيظ يهرئ قلوبهم ويحرق أكبادهم، تسوقهم الهزيمة بسياطها ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَ﴾ [الأحزاب: ٢٥] أي: صرف الله عن المؤمنين بما أمدهم به من معجزة الريح القاصفة ومن جند الغيب القتالَ وأعفاهم من شدائده، ولم يحمّلهم آصاره وأعباءه رحمة بهم، ثم جاءت فاصلة الآيات بأجل ما يناسبها من نعوت جلاله وقهره فقال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزٗا ٢٥﴾ [الأحزاب].

ثم ذكر الله تعالى شيئًا من غدر يهود بني قريظة ووخيم عواقبه عليهم في مظاهرتهم لأهل الشرك من الأحزاب الذين قاموا بتحزيبهم وتحريضهم على قتال رسول الله ﷺ وقتال أصحابه حتى يستأصلوهم، فقال: ﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمۡ ﴾ [الأحزاب: ٢٦] وكان حيي بن أخطب ـ لعنه الله ـ بعد أن فرغ من تحزيب الأحزاب ذهب إلى إخوة القردة والخنازير، وهم معاهدون للنبي ﷺ فلم يزل حيي برئيسهم كعب بن أسد يروضه على نقض العهد فنقضه وانضم إلى جموع الأحزاب.

والصياصي هي الحصون التي يتحصن بها الخائفون من هجمات أعدائهم، وزاد الله تعالى هؤلاء الغدرة بلاء فوق إنزالهم صاغرين أذلاء من حصونهم فألقى في قلوبهم الرعب، فلم تنفعهم صياصيهم وحصونهم، واستسلموا راغمين، وكانت أموالهم وأرضهم طعمة لرسول الله ﷺ لم يجر عليها تخميس؛ ولهذا لما قال عمر ﷺ: ما تخمس كما خمست يوم بدر؟ قال رسول الله ﷺ: «**لا، إنما جعلت هذه لي طعمة دون الناس**»، فقال عمر ﷺ: رضينا بما صنع الله ورسوله.

وقد راش رسول الله ﷺ من هذه الأموال التي جعلها الله له خالصة المهاجرين خاصة ليستقلوا بأنفسهم ومعاشهم عن إخوانهم الأنصار الذين شاركوهم أموالهم وديارهم، بل آثروهم على أنفسهم.

وأريد بقوله تعالى: ﴿وَأَرۡضٗا لَّمۡ تَطَـُٔوهَا﴾ [الأحزاب: ٢٧] تبشير المؤمنين بأن الله تعالى سيتحفهم بنفحات عطاياه ويفتح عليهم بلادًا وممالك لم تطأ أرضها أقدامهم، روي عن عكرمة أن المراد بها كل أرض تُفتح على المسلمين إلى يوم القيامة، ثم ختم الله تعالى الآية بما يبعث في النفوس طمأنينة الإيمان بأن وعد الله حق وأنه آت لا ريب فيه، فقال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٗا ٢٧﴾ [الأحزاب]، ويدخل في ذلك فتح ما يُفتح

من البلاد والممالك إعزازًا لدينه وتعظيمًا لنبيه ﷺ ونشرًا لدعوته وتيسيرًا لتبليغ رسالته، وتحقيقًا لبشرى أمته بظهور دينها على الدين كله، كما قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [التوبة].

وإنما أطلنا رشاء البحث في تفسير هذه الآيات لأنها جمعت امتنان الله على عباده المؤمنين بنعمة الصبر والنصر في قصة الأحزاب، إلى تعقيب ذلك بذكر أعداء دينه، وأعداء نبيه ﷺ وأعداء مجتمعه الذين تحزبوا وتجمعوا من فجاج الأرض لمهاجمة المجاهدين في ديارهم ليعوقوا سير رسالة الإسلام.

وجود المنافق الكفري في طوائف وأمم وشعوب موزعون في الأرض يريدون ليطفؤوا نور الله بنفاقهم: وهؤلاء الطوائف الذين كانوا في سابق التاريخ يقفون من الإسلام مواقف العداء قد تركوا ميراثهم في ذلك لربائبهم وتلاميذهم من الملاحدة والزنادقة والصليبية المتعصبة والشيوعية الفاجرة، واليهود الغادرين، والمنافقين الذين يَظهرون في إطار العلم الاستشراقي، ومن أخذ عنهم من شباب الإسلام الجغرافي.

وكل أولئك داخل فيمن ذكرته الآيات التي جاءت في صدر سورة الأحزاب لمناسبة الحديث عن غزوتها، التي كانت في الماضي آخر غزوات الهجوم الكفور على المجتمع المسلم، وقد شمر وارثو ضلالاتهم في أقطار الأرض ليقفوا من الإسلام اليوم مواقف غابريهم من أهل الكفر والضلال في شتى صوره وأشكاله، والكفر كله ملة واحدة، وشره النفاق.

وقد فسرنا هذه الآيات تفسيرًا قبسناه من سياق القرآن في موضوع الآيات الخاصة بالأحزاب ومن ذكر معهم، ولم نحاول التكثير والتطويل بذكر روايات أصحاب السير والمغازي والمحدثين؛ لأننا قصدنا أن نبرز ما في الآيات من معالم منهج الرسالة الخالدة، والمتأمل في هذه الآيات على ضوء تفسيرنا لها يرى أنها أتت على أحداث غزوة الأحزاب التي كانت ثانية الغزوات الإسلامية في شدة الأزمات ونزول البلاء وزلزلة الأقدام بعد غزوة (أحد).

وقد أجملت الآيات القرآنية التي فسرناها خلاصة لباب الحياة من جميع جوانبها سلبًا وإيجابًا في قوله تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ [الأحزاب]، فذكرت أهل الإيمان الذين يرون في حياة رسول الله ﷺ غذاء روحيًّا وماديًّا، يجريان بقدر متفاوت في تكييف الحياة فيأخذون من هذا ويقبسون من ذاك ما يقيم بنيان مجتمعهم على أسس متوازية بين حاجة الروح وحاجة الجسد.

وذكرت الذين لا يرجون الله واليوم والآخر من فجرة الكفار والمشركين وخبثاء أهل الكتاب الذين نبذوا ما أنزل الله من الحق والهدى وراء أظهرهم واتبعوا الباطل ونصروه، وقالوا للذين كفروا هؤلاء في

شركهم ووثنيتهم أهدى سبيلًا من الذين آمنوا بالله ونصروا دينه، وحملوا لواء رسالته؛ ليضحكوا منهم ويحملوهم على أن يقفوا معهم في حروبهم الظالمة المظلمة لمهاجمة المجتمع المسلم؛ ليصدوا مسيرة الرسالة حتى لا تصل إلى القلوب والعقول، وهي تحمل لواء الهداية والحق والإخاء المتواسي لتعيش الحياة كلها في أمن وسلام وتراحم.

ذكرت الآيات الكريمة هذا كله صراحة وتضمينًا ليكون المجتمع المسلم على ذِكر منه حتى لا يُخدع عن منهجه لتستقيم له الحياة، وليعلم أن حياة الدعاة إلى الله لا تعرف الترف والتنعم، وإنما هي حياة كفاح ونضال وصبر على شدائد المحن وكوارث البلاء، فلا تهزهم أعاصير الأحداث، ولا تخيفهم قوى الأرض وما في أيديها من أسلحة الدمار والفناء.

لأن المؤمن في هذه الحياة متحفز للقاء الله تعالى، وليعلم ولاة أمور المسلمين أنهم أحق الناس بالتأسي برسول الله ﷺ، وقد حذر الله تعالى الحائدين عن التأسي به ﷺ في قوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾[النور]». [محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ١٥٧-١٦٨، ١٧٠].

ويقول أ/ سيد قطب: «يتناول الشوط الثاني ـ من سورة الأحزاب ـ بيان نعمة الله على المؤمنين، إذ رد عنهم كيد الأحزاب والمهاجمين، ثم يأخذ في تصوير وقعتي الأحزاب وبني قريظة تصويرًا حيًّا، في مشاهد متعاقبة، ترسم المشاعر الباطنة، والحركات الظاهرة، والحوار بين الجماعات والأفراد، وفي خلال رسم المعركة وتطوراتها تجيء التوجيهات في موضعها المناسب، وتجيء التعقيبات على الأحداث مقررة للمنهج القرآني في إنشاء القيم الثابتة التي يقررها للحياة، من خلال ما وقع فعلًا، وما جاش في الأخلاد والضمائر.

وطريقة القرآن الدائمة في مثل هذه الوقائع التي يتخذ منها وسيلة لبناء النفوس، وتقرير القيم، ووضع الموازين وإنشاء التصورات التي يريد لها أن تسود.. طريقة القرآن في مثل هذه الوقائع أن يرسم الحركة التي وقعت، ويرسم معها المشاعر الظاهرة والباطنة، ويسلط عليها الأضواء التي تكشف زواياها وخباياها، ثم يقول للمؤمنين حُكمه على ما وقع، ونقده لما فيه من خطأ وانحراف، وثناءه على ما فيه من صواب واستقامة، وتوجيهه لتدارك الخطأ والانحراف، وتنمية الصواب والاستقامة، وربط هذا كله بقدر الله وإرادته وعلمه ونهجه المستقيم، وبفطرة النفس، ونواميس الوجود.

وهكذا نجد وصف المعركة يبدأ بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾﴾، ويتوسطها قوله: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾، وبقوله: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ

وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾»، ويختمها بقوله: «لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾».

وهذا إلى جانب عرض تصورات المؤمنين الصادقين للموقف، وتصورات المنافقين والذين في قلوبهم مرض عرضًا يكشف عن القيم الصحيحة والزائفة من خلال تلك التصورات: «وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾»، «وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾» ثم تجيء العاقبة بالقول الفصل والخبر اليقين: «وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾».

يبدأ السياق القرآني الحديث عن حادث الأحزاب بتذكير المؤمنين بنعمة الله عليهم أن رد عنهم الجيش الذي همَّ أن يستأصلهم، لولا عون الله وتدبيره اللطيف، ومن ثم يُجمل في الآية الأولى طبيعة ذلك الحادث، وبدءه ونهايته، قبل تفصيله وعرض مواقفه؛ لتبرز نعمة الله التي يذكرهم بها، ويطلب إليهم أن يتذكروها؛ وليظهر أن الله الذي يأمر المؤمنين باتباع وحيه، والتوكل عليه وحده، وعدم طاعة الكافرين والمنافقين، هو الذي يحمي القائمين على دعوته ومنهجه، من عدوان الكافرين والمنافقين: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾».

وهكذا يرسم في هذه البداءة المجملة بدء المعركة وختامها، والعناصر الحاسمة فيها.. مجيء جنود الأعداء، وإرسال ريح الله وجنوده التي لم يرها المؤمنون، ونصر الله المرتبط بعلم الله بهم، وبصره بعملهم.

ثم يأخذ بعد هذا الإجمال في التفصيل والتصوير: «إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾».

إنها صورة الهول الذي روَّع المدينة، والكرب الذي شملها، والذي لم ينج منه أحد من أهلها، وقد أطبق عليها المشركون من قريش وغطفان واليهود من بني قريظة من كل جانب، من أعلاها ومن أسفلها، فلم يختلف الشعور بالكرب والهول في قلب عن قلب، وإنما الذي اختلف هو استجابة تلك القلوب، وظنها بالله، وسلوكها في الشدة، وتصوراتها للقيم والأسباب والنتائج، ومن ثم كان الابتلاء كاملًا والامتحان دقيقًا، والتمييز بين المؤمنين والمنافقين حاسمًا لا تردد فيه.

وننظر اليوم فنرى الموقف بكل سماته، وكل انفعالاته، وكل خلجاته، وكل حركاته، ماثلًا أمامنا كأننا نراه من خلال هذا النص القصير.

نتظر فنرى الموقف من خارجه: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾، ثم ننظر فنرى أثـر الموقـف في النفـوس: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ وهـو تعبـير مصـوِّر لحالـة الخـوف والكربـة والضيق، يرسمها بملامح الوجوه وحركات القلوب.

﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾﴾ ولا يفصِّل هذه الظنون، ويدعها مجملة ترسم حالة الاضـطراب في المشـاعر والخوالج، وذهابها كل مذهب، واختلاف التصورات في شتى القلوب.

ثم تزيد سمات الموقف بروزًا، وتزيد خصائص الهول فيه وضـوحًا: ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾، والهول الذي يزلزل المؤمنين لابد أن يكون هولًا مروعًا رعيبًا.

قال مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ ﷺ: كَانَ لَيْلُنَا بِالخَنْدَقِ نَهَارًا حَتَّى فَرَّجَهُ اللهُ.

وكان المشركون يتناوبون بينهم، فيغدو أبو سفيان بن حرب في أصحابه يومًا، ويغدو خالد بـن الوليـد يومًا، ويغدو عمرو بن العاص يومًا، ويغدو هبيرة بن أبي وهب يومًا، ويغدو عكرمـة بـن أبي جهـل يومًـا، ويغدو ضرار بن الخطاب يومًا، حتى عظم البلاء وخاف الناس خوفًا شديدًا.

ويصور حال المسلمين ما رواه المقريزي في إمتاع الأسماع، قال: ثم وافى المشركون سحرًا، وعبأ رسـول الله ﷺ أصحابه فقاتلوا يومهم إلى هوي من الليل، ومـا يقـدر رسـول الله ﷺ ولا أحـد مـن المسـلمين أن يزولوا من موضعهم، وما قدر رسول الله ﷺ على صلاة ظهـر ولا عصر ولا مغـرب ولا عشـاء، فجعـل أصحابه يقولون: يا رسول الله ما صلينا! فيقول: ولا أنا والله ما صليت! حتى كشف الله المشركين، ورجـع كل من الفريقين إلى منزله، وقام أسيد بن حضير ﷺ في مائتين على شفير الخندق، فكرَّت خيل للمشـركين يطلبون غِرة - وعليها خالد بن الوليد - فناوشهم ساعة، فزرق وحشـيُّ الطفيـلَ بـن الـنعمان بـن خنسـاء الأنصاري السلمي بمزراق، فقتله كما قتل حمزة ﷺ بأحد.

وقال رسول الله ﷺ يومئذ: «**شَغَلُونَا عَنْ صَلَاةِ الوُسْطَى صَلَاةِ العَصْـرِ مَـلأَ اللهُ قُبُـورَهُمْ وَبُيُـوتَهُمْ أَوْ أَجْوَافَهُمْ نَارًا**». [مسند أحمد ٢/ ٣٠٤ عن علي ﷺ رقم ١٠٣٦، وقال الشيخ الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم رجاله ثقات رجال الشيخين غير شتير بن شكل فمن رجال مسلم].

وخرجت طليعتان للمسلمين ليلًا فالتقتا - ولا يشعر بعضـهم بـبعض، ولا يظنـون إلا أنهـم العـدو - فكانت بينهم جراحة وقتْل، ثم نادوا بشعار الإسلام! (حم. لا ينصرون) فكف بعضهم عن بعض، فقـال رسول الله ﷺ: «**جِرَاحُكُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَمَنْ قُتِلَ مِنكُمْ فَإِنَّهُ شَهِيدٌ**»..

ولقد كان أشد الكرب على المسلمين، وهم محصورون بالمشـركين داخـل الخنـدق، ذلـك الـذي كـان يجيئهم من انتقاض بني قريظة عليهم من خلفهـم، فلـم يكونـوا يـأمنون في أيـة لحظـة أن يـنقض علـيهم

المشركون من الخندق، وأن تميل عليهم يهود، وهم قلة بين هذه الجموع، التي جاءت بنية استئصالهم في معركة حاسمة أخيرة.

ذلك كله إلى ما كان من كيد المنافقين والمرجفين في المدينة وبين الصفوف: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾.

فقد وجد هؤلاء في الكرب المزلزل، والشدة الآخذة بالخناق فرصة للكشف عن خبيئة نفوسهم وهم آمنون من أن يلومهم أحد، وفرصة للتوهين والتخذيل وبث الشك والريبة في وعد الله ووعد رسوله، وهم مطمئنون أن يأخذهم أحد بما يقولون، فالواقع بظاهره يصدقهم في التوهين والتشكيك، وهم مع هذا منطقيون مع أنفسهم ومشاعرهم، فالهول قد أزاح عنهم ذلك الستار الرقيق من التجمُّل، وروَّع نفوسهم ترويعًا لا يثبت له إيمانهم المهلهل! فجهروا بحقيقة ما يشعرون غير مبقين ولا متجملين!

ومثل هؤلاء المنافقين والمرجفين قائمون في كل جماعة، وموقفهم في الشدة هو موقف إخوانهم هؤلاء، فهم نموذج مكرر في الأجيال والجماعات على مدار الزمان!

﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟﴾.

فهم يحرِّضون أهل المدينة على ترك الصفوف، والعودة إلى بيوتهم، بحجة أن إقامتهم أمام الخندق مرابطين هكذا، لا موضع لها ولا محل، وبيوتهم معرضة للخطر من ورائهم، وهي دعوة خبيثة تأتي النفوس من الثغرة الضعيفة فيها، ثغرة الخوف على النساء والذراري، والخطر محدق والهول جامح، والظنون لا تثبت ولا تستقر!

﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ﴾

يستأذنون بحجة أن بيوتهم مكشوفة للعدو، متروكة بلا حماية.

وهنا يكشف القرآن عن الحقيقة، ويجردهم من العذر والحجة: ﴿وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ﴾

ويضبطهم متلبسين بالكذب والاحتيال والجبن والفرار: ﴿إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾﴾.

وقد رُوي أن بني حارثة بعثت بأوس بن قيظي إلى رسول الله ﷺ يقولون: ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ﴾، وليس دار من دور الأنصار مثل دورنا، ليس بيننا وبين غطفان أحد يردهم عنا، فأْذن لنا فلنرجع إلى دورنا، فنمنع ذرارينا ونساءنا، فأذن لهم ﷺ، فبلغ سعد بن معاذ رضي الله عنه ذلك فقال: يا رسول الله لا تأذن لهم، إنا والله ما أصابنا وإياهم شدة إلا صنعوا هكذا.. فردهم..

فهكذا كان أولئك الذين يجبههم القرآن بأنهم: ﴿إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾﴾.

نقض المنافقين العهد ونشاطهم عند الفتنة: ويقف السياق عند هذه اللقطة الفنية المصورة لموقف البلبلة والفزع والمراوغة، يقف ليرسم صورة نفسية لهؤلاء المنافقين والذين في قلوبهم مرض، صورة نفسية داخلية لوهن العقيدة، وخور القلب، والاستعداد للانسلاخ من الصف بمجرد مصادفة غير مبقين على شيء، ولا متجملين لشيء: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾﴾.

ذلك كان شأنهم والأعداء بعدُ خارج المدينة، ولم تقتحم عليهم بعد، ومهما يكن الكرب والفزع، فالخطر المتوقع غير الخطر الواقع، فأما لو وقع واقتحمت عليهم المدينة من أطرافها ﴿ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ﴾ وطُلبت إليهم الردة عن دينهم ﴿لَآتَوْهَا﴾ سراعًا غير متلبثين، ولا مترددين ﴿إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾﴾ من الوقت، أو إلا قليلًا منهم يتلبثون شيئًا ما قبل أن يستجيبوا ويستسلموا ويرتدوا كفارًا! فهي عقيدة واهنة لا تثبت، وهو جبن غامر لا يملكون معه مقاومة!

هكذا يكشفهم القرآن، ويقف نفوسهم عارية من كل ستار، ثم يصمهم بعد هذا بنقض العهد وخلف الوعد. ومع من؟ مع الله الذي عاهدوه من قبل على غير هذا، ثم لم يرعوا مع الله عهدًا: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿١٥﴾﴾.

قال ابن هشام من رواية ابن إسحاق في السيرة: هم بنو حارثة، وهم الذين هموا أن يفشلوا يوم أُحُد مع بني سلمة حين همتا بالفشل يومها، ثم عاهدوا الله ألا يعودوا لمثلها أبدًا، فذكر لهم الذي أعطوا من أنفسهم.

فأما يوم أُحُد فقد تداركهم الله برحمته ورعايته، وثبتهم، وعصمهم من عواقب الفشل، وكان ذلك درسًا من دروس التربية في أوائل العهد بالجهاد، فأما اليوم، وبعد الزمن الطويل، والتجربة الكافية، فالقرآن يواجههم هذه المواجهة العنيفة.

الفرار لا يدفع أمر الله ولا يطيل العمر:

وعند هذا المقطع ـ وهم أمام العهد المنقوض ابتغاء النجاة من الخطر والأمان من الفزع ـ يقرر القرآن إحدى القيم الباقية التي يقررها في أوانها، ويصحح التصور الذي يدعوهم إلى نقض العهد والفرار: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾.

إن قدر الله هو المسيطر على الأحداث والمصائر، يدفعها في الطريق المرسوم، وينتهي بها إلى النهاية المحتومة، والموت أو القتل قَدَرٌ لا مفر من لقائه، في موعده، لا يُستقدم لحظة ولا يُستأخر، ولن ينفع

الفرار في دفع القدر المحتوم عن فار، فإذا فروا فإنهم ملاقون حتفهم المكتوب، في موعده القريب، وكل موعد في الدنيا قريب، وكل متاع فيها قليل، ولا عاصم من الله ولا من يحول دون نفاذ مشيئته، سواء أراد بهم سوءًا أم أراد بهم رحمة، ولا مولى لهم ولا نصير، من دون الله، يحميهم ويمنعهم من قدر الله.

فالاستسلام الاستسلام، والطاعة الطاعة، والوفاء الوفاء بالعهد مع الله، في السراء والضراء، ورجع الأمر إليه، والتوكل الكامل عليه، ثم يفعل الله ما يشاء.

صور منفرة للمنافقين وأفعال مرذولة لهم: ثم يستطرد إلى تقرير علم الله بالمعوِّقين، الذين يَقعدون عن الجهاد ويدعون غيرهم إلى القعود، ويقولون لهم: ﴿لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا﴾ ويرسم لهم صورة نفسية مبدعة، وهي ـ على صدقها ـ تثير الضحك والسخرية من هذا النموذج المكرور في الناس، صورة للجبن والانزواء، والفزع والهلع، في ساعة الشدة، والانتفاش وسلاطة اللسان عند الرخاء، والشح على الخير والضن ببذل أي جهد فيه، والجزع والاضطراب عند توهم الخطر من بعيد.. والتعبير القرآني يرسم هذه الصورة في لمسات فنية مبدعة لا سبيل إلى استبدالها أو ترجمتها في غير سياقها المعجز: ﴿۞ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ ۚ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا ۖ وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾﴾.

ويبدأ هذا النص بتقرير علم الله المؤكد بالمعوقين الذين يسعون بالتخذيل في صفوف الجماعة المسلمة، الذين يدعون إخوانهم إلى القعود ﴿وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾﴾ ولا يشهدون الجهاد إلا لمامًا، فهم مكشوفون لعلم الله، ومكرهم مكشوف.

ثم تأخذ الريشة المعجزة في رسم سمات هذا النموذج:

﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾ ففي نفوسهم كزازة على المسلمين، كزازة بالجهد، وكزازة بالمال، وكزازة في العواطف والمشاعر على السواء.

﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ وهي صورة شاخصة، واضحة الملامح، متحركة الجوارح، وهي في الوقت ذاته مُضحكة، تثير السخرية من هذا الصنف الجبان، الذين تنطق أوصاله وجوارحه في لحظة الخوف بالجبن المرتعش الخوار!

وأشد إثارة للسخرية صورتهم بعد أن يذهب الخوف ويجيء الأمن:

﴿فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾.

فخرجوا من الجحور، وارتفعت أصواتهم بعد الارتعاش، وانتفخت أوداجهم بالعظمة، ونفشوا بعد الانزواء، وادعوا في غير حياء، ما شاء لهم الادعاء، من البلاء في القتال والفضل في الأعمال، والشجاعة والاستبسال..

ثم هم: ﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ﴾ فلا يبذلون للخير شيئًا من طاقتهم وجهدهم وأموالهم وأنفسهم، مع كل ذلك الادعاء العريض وكل ذلك التبجح وطول اللسان!

وهذا النموذج من الناس لا ينقطع في جيل ولا في قبيل، فهو موجود دائمًا، وهو شجاع فصيح بارز حيثما كان هناك أمن ورخاء، وهو جبان صامت منزو حيثما كان هناك شدة وخوف، وهو شحيح بخيل على الخير وأهل الخير، لا ينالهم منهم إلا سلاطة اللسان!

﴿أُولَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾.

فهذه هي العلة الأولى، العلة أن قلوبهم لم تخالطها بشاشة الإيمان، ولم تهتد بنوره، ولم تسلك منهجه ﴿فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ ولم ينجحوا لأن عنصر النجاح الأصيل ليس هناك.

﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾﴾ وليس هنالك عسير على الله، وكان أمر الله مفعولًا.

فأما يوم الأحزاب فيمضي النص في تصويرهم صورة مضحكة زرية:

﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟﴾ فهم ما يزالون يرتعشون، ويتخاذلون، ويخذِّلون! ويأبون أن يصدقوا أن الأحزاب قد ذهبت، وأنه قد ذهب الخوف، وجاء الأمان!

﴿وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ﴾.

يا للسخرية! ويا للتصوير الزري! ويا للصورة المضحكة! وإن يأت الأحزاب يود هؤلاء الجبناء لو أنهم لم يكونوا من أهل المدينة يومًا من الأيام، ويتمنون أن لو كانوا من أعراب البادية، لا يشاركون أهل المدينة في حياة ولا في مصير، ولا يعلمون ـ حتى ـ ما يجري عند أهلها، إنما هم يجهلونه، ويسألون عنه سؤال الغريب عن الغريب !مبالغة في البعد والانفصال، والنجاة من الأهوال!

يتمنون هذه الأمنيات المضحكة، مع أنهم قاعدون، بعيدون عن المعركة، لا يتعرضون لها مباشرة، إنما هو الخوف من بعيد! والفزع والهلع من بعيد! ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾﴾.

وبهذا الخط ينتهي رسم الصورة، صورة ذلك النموذج الذي كان عائشًا في الجماعة الإسلامية الناشئة في المدينة، والذي ما يزال يتكرر في كل جيل وكل قبيل، بنفس الملامح، وذات السمات، ينتهي رسم الصورة وقد تركت في النفوس الاحتقار لهذا النموذج، والسخرية منه، والابتعاد عنه، وهوانه على الله وعلى الناس.

الاقتداء الحسن بالرسول ﷺ: ذلك كان حال المنافقين والذين في قلوبهم مرض والمرجفين في الصفوف، وتلك كانت صورتهم الرديئة، ولكن الهول والكرب والشدة والضيق لم تحوِّل الناس جميعًا إلى هذه الصورة الرديئة، كانت هنالك صورة وضيئة في وسط الظلام، مطمئنة في وسط الزلزال، واثقة بالله، راضية بقضاء الله، مستيقنة من نصر الله، بعد كل ما كان من خوف وبلبلة واضطراب.

ويبدأ السياق هذه الصورة الوضيئة برسول الله ﷺ: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ وقد كان رسول الله ﷺ على الرغم من الهول المرعب والضيق المجهد، مثابة الأمان للمسلمين، ومصدر الثقة والرجاء والاطمئنان، وإن دراسة موقفه ﷺ في هذا الحادث الضخم لمما يرسم لقادة الجماعات والحركات طريقهم، وفيه أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر، وتطلب نفسه القدوة الطيبة، ويذكر الله ولا ينساه.

ويحسن أن نلم بلمحات من هذا الموقف على سبيل المثال، إذ كنا لا نملك هنا أن نتناوله بالتفصيل.

خرج رسول الله ﷺ يعمل في الخندق مع المسلمين يضرب بالفأس، يجرف التراب بالمسحاة، ويحمل التراب في المكتل، ويرفع صوته مع المرتجزين، وهم يرفعون أصواتهم بالرجز في أثناء العمل، فيشاركهم الترجيع! وقد كانوا يتغنون بأغان ساذجة من وحي الحوادث الجارية: كان هناك رجل من المسلمين اسمه جعيل، فكره رسول الله ﷺ اسمه، وسماه عمرًا، فراح العاملون في الخندق يغنون جماعة بهذا الرجز الساذج:

سَمَّاهُ مِنْ بَعْدِ جُعَيْلٍ عَمْرًا   وَكَانَ لِلبَائِسِ يَوْمًا ظَهْرًا

فإذا مروا في ترجيعهم بكلمة «عمرو»، قال رسول الله ﷺ: «عمرا»، وإذا مروا بكلمة «ظهر» قال رسول الله ﷺ: «ظهرا».

ولنا أن نتصور هذا الجو الذي يعمل فيه المسلمون، والرسول ﷺ بينهم، يضرب بالفأس، ويجرف بالمسحاة، ويحمل في المكتل، ويرجِّع معهم هذا الغناء، ولنا أن نتصور أية طاقة يطلقها هذا الجو في أرواحهم، وأي ينبوع يتفجر في كيانهم بالرضا والحماسة والثقة والاعتزاز.

وكان زيد بن ثابت ؓ فيمن ينقل التراب، فقال ﷺ: «**أما إنه نعم الغلام!**» وغلبته عيناه فنام في الخندق، وكان القر شديدًا، فأخذ عمارة بن حزم سلاحه، وهو لا يشعر، فلما قام فزع، فقال رسول الله ﷺ: «**يا أبا رقاد! نمت حتى ذهب سلاحك!**»، ثم قال: «**من له علم بسلاح هذا الغلام**»؟ فقال عمارة: يا رسول الله، هو عندي، فقال: «**فرده عليه**»، ونهى أن يروَّع المسلم ويؤخذ متاعه لاعبًا!

وهو حادث كذلك يصور يقظة العين والقلب، لكل من في الصف، صغيرًا أو كبيرًا، كما يصور روح الدعابة الحلوة الحانية الكريمة: «**يَا أَبَا رُقَادٍ! نِمْتَ حَتَّى ذَهَبَ سِلاحُكَ!**» ويصور في النهاية ذلك الجو الذي كان المسلمون يعيشون فيه في كنف نبيهم، في أحرج الظروف.

ثم كانت روحه ﷺ تستشرف النصر من بعيد، وتراه رأي العين في ومضات الصخور على ضرب المعاول، فيحدِّث بها المسلمين، ويبث فيهم الثقة واليقين.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَحُدِّثْتُ عَنْ سَلْمَانَ الفَارِسِيِّ رضي الله عنه، أَنَّهُ قَالَ: ضَرَبْتُ فِي نَاحِيَةٍ مِنَ الخَنْدَقِ، فَغَلُظَتْ عَلَيَّ صَخْرَةٌ، وَرَسُولُ الله ﷺ قَرِيبٌ مِنِّي؛ فَلَمَّا رَآنِي أَضْرِبُ وَرَأَى شِدَّةَ المَكَانِ عَلَيَّ نَزَلَ فَأَخَذَ المِعْوَلَ مِنْ يَدِي، فَضَرَبَ بِهِ ضَرْبَةً لَمَعَتْ تَحْتَ المِعْوَلِ بَرْقَةٌ، قَالَ: ثُمَّ ضَرَبَ بِهِ ضَرْبَةً أُخْرَى، فَلَمَعَتْ تَحْتَهُ بَرْقَةٌ أُخْرَى، قَالَ: ثُمَّ ضَرَبَ بِهِ الثَّالِثَةَ فَلَمَعَتْ تَحْتَهُ بَرْقَةٌ أُخْرَى، قَالَ: قُلْت: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ الله! مَا هَذَا الَّذِي رَأَيْتُ لَمَعَ تَحْتَ المِعْوَلِ وَأَنْتَ تَضْرِبُ؟ قَالَ ﷺ: «**أَوَقَدْ رَأَيْتَ ذَلِكَ يَا سَلْمَانُ؟**»، قَالَ: قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: «**أَمَّا الأَوَّلُ فَإِنَّ اللهَ فَتَحَ عَلَيَّ بِهَا اليَمَنَ، وَأَمَّا الثَّانِيَةُ فَإِنَّ اللهَ فَتَحَ عَلَيَّ بِهَا الشَّامَ وَالمَغْرِبَ، وَأَمَّا الثَّالِثَةُ فَإِنَّ اللهَ فَتَحَ عَلَيَّ بِهَا المَشْرِقَ**».

وجاء في «إمتاع الأسماع للمقريزي» أن هذا الحادث وقع لعمر بن الخطاب بحضور سلمان رضي الله عنهما.

ولنا أن نتصور اليوم كيف يقع مثل هذا القول في القلوب، والخطر محدق بها محيط.

ولنا أن نضيف إلى تلك الصور الوضيئة صورة حذيفة رضي الله عنه عائدًا من استطلاع خبر الأحزاب وقد أخذه القر الشديد ورسول الله ﷺ قائم يصلي في ثوب لإحدى أزواجه، فإذا هو في صلاته واتصاله بربه، لا يترك حذيفة رضي الله عنه يرتعش حتى ينتهي من صلاته بل يأخذه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ بين رجليه، ويلقي عليه طرف الثوب ليدفئه في حنو، ويمضي في صلاته حتى ينتهي، فينبئه حذيفة رضي الله عنه النبأ، ويلقي إليه بالبشرى التي عرفها قلبه ﷺ فبعث حذيفة رضي الله عنه يبصر أخبارها!

أما أخبار شجاعته ﷺ في الهول، وثباته ويقينه، فهي بارزة في القصة كلها، ولا حاجة بنا إلى نقلها، فهي مستفيضة معروفة.

وصدق الله العظيم: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾.

ثناء على الصحابة رضي الله عنهم لصدقهم الجهادي وهزيمة الأحزاب: ثم تأتي صورة الإيمان الواثق المطمئن، وصورة المؤمنين المشرقة الوضيئة، في مواجهة الهول، وفي لقاء الخطر، الخطر الذي يزلزل القلوب المؤمنة، فتتخذ من هذا الزلزال مادة للطمأنينة والثقة والاستبشار واليقين: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾.

لقد كان الهول الذي واجهه المسلمون في هذا الحادث من الضخامة، وكان الكرب الذي واجهوه من الشدة، وكان الفزع الذي لقوه من العنف، بحيث زلزلهم زلزالًا شديدًا، كما قال عنهم أصدق القائلين: ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾.

لقد كانوا ناسًا من البشر، وللبشر طاقة، لا يكلفهم الله ما فوقها، وعلى الرغم من ثقتهم بنصر الله في النهاية، وبشارة الرسول ﷺ لهم، تلك البشارة التي تتجاوز الموقف كله إلى فتوح اليمن والشام والمغرب والمشرق، على الرغم من هذا كله، فإن الهول الذي كان حاضرًا يواجههم كان يزلزلهم ويزعجهم ويكرب أنفاسهم.

ومما يصور هذه الحالة أبلغ تصوير خبر حذيفة ﷺ والرسول ﷺ يحس حالة أصحابه، ويرى نفوسهم من داخلها، فيقول: «**مَنْ رَجُلٌ يَقُومُ فَيَنْظُرَ لَنَا مَا فَعَلَ الْقَوْمُ ثُمَّ يَرْجِعُ، يَشْرِطُ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ الرَّجْعَةَ، أَسْأَلُ اللهَ أَنْ يَكُونَ رَفِيقِي فِي الْجَنَّةِ**».. ومع هذا الشرط بالرجعة، ومع الدعاء المضمون بالرفقة مع رسول الله ﷺ في الجنة، فإن أحدًا لا يلبي النداء، فإذا عَيَّن بالاسم حذيفة ﷺ قال: فَلَمْ يَكُنْ لِي بُدٌّ مِنَ الْقِيَامِ حِينَ دَعَانِي!

ألا إن هذا لا يقع إلا في أقصى درجات الزلزلة.

ولكن كان إلى جانب الزلزلة، وزوغان الأبصار، وكرب الأنفاس، كان إلى جانب هذا كله الصلة التي لا تنقطع بالله، والإدراك الذي لا يضل عن سنن الله، والثقة التي لا تتزعزع بثبات هذه السنن، وتحقق أواخرها متى تحققت أوائلها، ومن ثم اتخذ المؤمنون من شعورهم بالزلزلة سببًا في انتظار النصر، ذلك أنهم صَدَّقوا قول الله سبحانه من قبل: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ [البقرة].

ومن ثم قالوا: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾.

﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ هذا الهول، وهذا الكرب، وهذه الزلزلة، وهذا الضيق، وَعَدَنا عليه النصر، فلا بد أن يجيء النصر: ﴿وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ صدق الله ورسوله في الأمارة وصدق الله ورسوله في دلالتها، ومن ثم اطمأنت قلوبهم لنصر الله ووعد الله: ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾.

لقد كانوا ناسًا من البشر، لا يملكون أن يتخلصوا من مشاعر البشر، وضعف البشر، وليس مطلوبًا منهم أن يتجاوزوا حدود جنسهم البشري، ولا أن يخرجوا من إطار هذا الجنس، ويفقدوا خصائصه ومميزاته؛ فلهذا خلقهم الله، خلقهم ليبقوا بشرًا، ولا يتحولوا جنسًا آخر، لا ملائكة ولا شياطين، ولا بهيمة ولا حجرًا، كانوا ناسًا من البشر يفزعون، ويضيقون بالشدة، ويزلزلون للخطر الذي يتجاوز الطاقة، ولكنهم كانوا ـ مع هذا ـ مرتبطين بالعروة الوثقى التي تشدهم إلى الله، وتمنعهم من السقوط، وتجدد فيهم الأمل، وتحرسهم من القنوط، وكانوا بهذا وذاك نموذجًا فريدًا في تاريخ البشرية لم يُعرف له نظير.

وعلينا أن ندرك هذا لندرك ذلك النموذج الفريد في تاريخ العصور، علينا أن ندرك أنهم كانوا بشرًا، لم يتخلوا عن طبيعة البشر، بما فيها من قوة وضعف، وأن منشأ امتيازهم أنهم بلغوا في بشريتهم هذه أعلى قمة مهيأة لبني الإنسان، في الاحتفاظ بخصائص البشر في الأرض مع الاستمساك بعروة السماء.

وحين نرانا ضعفنا مرة، أو زُلزلنا مرة، أو فزعنا مرة، أو ضقنا مرة بالهول والخطر والشدة والضيق، فعلينا ألا نيأس من أنفسنا، وألا نهلع ونحسب أننا هلكنا، أو أننا لم نعد نصلح لشيء عظيم أبدًا! ولكن علينا في الوقت ذاته ألا نقف إلى جوار ضعفنا لأنه من فطرتنا البشرية! ونُصِرُّ عليه لأنه يقع لمن هم خير منا! هنالك العروة الوثقى، عروة السماء، وعلينا أن نستمسك بها لننهض من الكبوة، ونسترد الثقة والطمأنينة، ونتخذ من الزلزال بشيرًا بالنصر، فنثبت ونستقر، ونقوى ونطمئن، ونسير في الطريق.

وهذا هو التوازن الذي صاغ ذلك النموذج الفريد في صدر الإسلام، النموذج الذي يذكر عنه القرآن الكريم مواقفه الماضية وحسن بلائه وجهاده، وثباته على عهده مع الله، فمنهم من لقيه، ومنهم من ينتظر أن يلقاه: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾.

هذا في مقابل ذلك النموذج الكريه، نموذج الذين عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار، ثم ولم يوفوا بعهد الله: ﴿وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾﴾.

روى الإمام أحمد بسنده... قَالَ أَنَسُ بنُ مَالِكٍ رضي الله عنه: عَمِّي - قَالَ هَاشِمٌ: أَنَسُ بْنُ النَّضْرِ - سُمِّيتُ بِهِ، لَمْ يَشْهَدْ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ يَوْمَ بَدْرٍ، قَالَ: فَشَقَّ عَلَيْهِ، وَقَالَ: فِي أَوَّلِ مَشْهَدٍ شَهِدَهُ رَسُولُ الله ﷺ غِبْتُ عَنْهُ! لَئِنْ أَرَانِي اللهُ مَشْهَدًا فِيمَا بَعْدُ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ لَيَرَيَنَّ اللهُ مَا أَصْنَعُ، قَالَ: فَهَابَ أَنْ يَقُولَ غَيْرَهَا، قَالَ: فَشَهِدَ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ، قَالَ: فَاسْتَقْبَلَ سَعْدَ بْنَ مُعَاذٍ رضي الله عنه، قَالَ: فَقَالَ لَهُ أَنَسٌ: يَا أَبَا عَمْرٍو أَيْنَ؟ قَالَ: وَاهًا لِرِيحِ الجَنَّةِ أَجِدُهُ دُونَ أُحُدٍ، قَالَ: فَقَاتَلَهُمْ حَتَّى قُتِلَ، فَوُجِدَ فِي جَسَدِهِ بِضْعٌ وَثَمَانُونَ مِنْ ضَرْبَةٍ وَطَعْنَةٍ وَرَمْيَةٍ، قَالَ: فَقَالَتْ أُخْتُهُ عَمَّتِي الرُّبَيِّعُ بِنْتُ النَّضْرِ: فَمَا عَرَفْتُ أَخِي إِلَّا بِبَنَانِهِ، وَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾، قَالَ: فَكَانُوا يَرَوْنَ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِيهِ وَفِي أَصْحَابِهِ. [ورواه مسلم والترمذي والنسائي من حديث سليمان بن المغيرة].

وهذه الصورة الوضيئة لهذا النموذج من المؤمنين تذكر هنا تكملة لصورة الإيمان، في مقابل صورة النفاق والضعف ونقض العهد من ذلك الفريق؛ لتتم المقابلة في معرض التربية بالأحداث وبالقرآن.

ويعقب عليها ببيان حكمة الابتلاء، وعاقبة النقض والوفاء، وتفويض الأمر في هذا كله لمشيئة الله: ﴿لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾﴾.

ومثل هذا التعقيب يتخلل تصوير الحوادث والمشاهد؛ ليرد الأمر كله إلى الله، ويكشف عن حكمة الأحداث والوقائع، فليس شيء منها عبثًا ولا مصادفة، إنما تقع وفق حكمة مقدرة، وتدبير قاصد، وتنتهي إلى ما شاء الله من العواقب، وفيها تتجلى رحمة الله بعباده، ورحمته ومغفرته أقرب وأكبر: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾﴾.

ويختم الحديث عن الحدث الضخم بعاقبته التي تصدق ظن المؤمنين بربهم، وضلال المنافقين والمرجفين وخطأ تصوراتهم، وتثبت القيم الإيمانية بالنهاية الواقعية: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾.

وقد بدأت المعركة، وسارت في طريقها، وانتهت إلى نهايتها، وزمامها في يد الله، يصرِّفها كيف يشاء، وأثبت النص القرآني هذه الحقيقة بطريقة تعبيره، فأسند إلى الله تعالى إسنادًا مباشرًا كل ما تم من الأحداث والعواقب، تقريرًا لهذه الحقيقة، وتثبيتًا لها في القلوب، وإيضاحًا للتصور الإسلامي الصحيح».

[في ظلال القرآن لقطب ٢٨١٩، ٢٨٣٦-٢٨٤٥ باختصار].

ويقول أ/ شقرة: «غزوة الأحزاب من أعظم الغزوات خطورة، وأشدها تأثيرًا في حياة الرسول ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم، فقد رقيت هذه الغزوة فوق الغزوات، وأدلت عليها جميعًا بما كان لها من حظوة السماء، وظلت تخطُر على التاريخ تُباهي الغزوات والمعارك التي وقعت فوق أطباق الثرى، وكان الفوز فيها للحق وأهله.

إن غزوة الأحزاب نمط فريد في تاريخ الحروب، فإن الثمرة الطيبة التي جناها المسلمون فيها تدلَّت بأغصانها من السماء، وأدنَتها من أيديهم يدُ الله، فرأوا فيها معجزة النصر، وانتصار المعجزة.

تحدث القرآن عن غزوة الأحزاب في سبع عشرة آية من سورة الأحزاب، من قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ الآيات إلى قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾ [الأحزاب: ٩-٢٥].

والقرآن حين يتحدث عن الغزوات لا يتحدث عنها بطريقة واحدة، فهو تارة يغفل ذكر الأسباب والمقدمات، وتارة يهتم بالنتائج والنهايات وتارة يفصِّل في مجريات أحداث الغزوة، وتارةً يقرن بين المقدِّمات والنهايات والأحداث في نسق واحد مؤتلف، وكل واحدة من هذه تحكمها طبيعة الغزوة، ومكانتها، وأثرُها في الواقع الإسلامي العام.

وغزوة الأحزاب جمعت بين أولئك جميعًا، فقد تحدثت الآيات القرآنية عن مقدماتها، ونهايتها، ومجرياتها في إيجاز بليغ، لا يمكن للعقل وحده أن يعمل في تصويرها من غير أن يكون للإيمان الدور الأظهر والأمثل في تكوين الصورة واكتمالها عنها.

وتبدأ هذه الآيات بتذكير المؤمنين بالنعمة العظيمة التي أصابوها في هذه الغزوة، وهذه البداية تعجيلُ النهاية التي انتهت الغزوة إليها، وهي نهاية سارة جميلة ولا شك، فإن كلمة: ﴿نِعۡمَةَ﴾ لا تكون إلا في التبشير بشيء، والتعجيل بذكر النهاية وضع للنهاية موضع البداية، ووضع للبداية موضع النهاية، لو ذُكرت النهاية بغير هذه الكلمة لم يكن للتعبير القرآني ذلك الوقع المؤثر على النفوس.

إذًا فالتعبير القرآني هو الذي يجعل للشيء الذي يعرضه التأثير القائم على النفوس، ولا يكون للمعنى ذلك التأثير القائم إلا إذا كان منسجمًا مع الصورة اللفظية التي تحتويه.

ومما زاد في قوة تأثير هذه النهاية وجمالها أن جاءت مقترنة ببداية الغزوة، ولم تأت مقترنة بنهايتها، ولم يفصل بين البداية ومجريات الغزوة إلا بحرف الفاء فقط، وأما مجرياتها فقد جاءت في ست كلمات فقط، وهي: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ﴾ [الأحزاب:٩]، فأي إعجاز هذا الذي رسم غزوة بكاملها بمقدماتها، ومجرياتها، ونهايتها، في ثلاث عشرة كلمة وهي: ﴿ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ﴾، ثم ترك للعقل وحده أن يتملى تفاصيلها الدقيقة؟!، إنه إعجاز القرآن، كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وكان لليهود دور خطير في هذه الغزوة، لم يأت ذكره في الحديث عنها، إذ اكتُفي عنه بذكره في الحديث عن غزوة بني قريظة التي جاء ذكرها عقيب غزوة الأحزاب مباشرة، فأغنى عن ذكره في غزوة الأحزاب.

وحين يتحدث القرآن عن غزوة من الغزوات، فإنه يُعنى عناية كبيرة بإظهار الأحوال والانفعالات النفسية التي تنشأ عن هذه الغزوة أو تلك؛ لأن سَوْقَ الأحداث وتفصيلها ليس هو الذي يُعنى به القرآنُ، فهو يريد أن يبرز العبرة، والعبرةُ لا تكون مؤثرة قوية إلا إذا سيقت من خلال تلك الأحوال والانفعالات النفسية.

وإذا أردنا أن ندخلَ في تفاصيل غزوة الأحزاب، فإننا نكاد نشاهدها ونلمسها من قريب، حتى لكأنها قد وقعت حين نقرؤها حروفًا وكلمات.

فقوله تعالى: ﴿إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ﴾ لا نعرف منه كيف جاءت، حتى إذا قرأنا قوله تعالى: ﴿إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ﴾ [الأحزاب: ١٠]، عرفنا أن هذه الجنود أحكمت الحصار على المدينة إحكامًا شديدًا، وهذا ما وقع فعلًا فقد تواردت على المدينة أحزابُ المشركين من منافذها التي تنتهي إلى داخلها، وإن كان يمكنُ أن يلقوا شدة في ذلك.

ويؤكد هذا ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ١٠﴾، وليس أدل على التعبير عن الفزع الذي ملأ نفوس المسلمين يوم الأحزاب من مثل قوله:

﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾، فلم تعد الأبصار قادرة على تركيز نظرها في شيء، ولا على استيعاب شيء مما يقع نظرُها عليه، فإن الذهن لا يلم بشيء أبدًا إلا إذا كان في حالة استقرار وسكينة، وأين الاستقرار والسكينة في أذهان المسلمين يوم الأحزاب؟ وقد قفزت الأرواح إلى الحناجر فهي تكاد تخرج من أقطار النفوس، ولا تجد أيسر من الحناجر فتقفز إليها، ولكن هذا لا يقدِّرها على النجاة من الموت الذي فزعت منه وخافت، فتستقر في الحناجر مضطربة فزعة، فلا هي قادرة على الخروج منها -إذ ليس ذلك إليها وإنما لخالقها وحده- ولا هي قادرة على العودة إلى حيث كانت، فقد أوثقها الفزع والخوف بالحناجر، فهي إذًا بين الحياة وبين الموت، بين الرجاء في النجاة، وبين الخوف من الهلاك.

إنه الهول الذي أحاط بالمسلمين من كل جانب، ولفهم لفًّا عنيفًا أضحوا معه عاجزين عن التدبر والتفكير، بل أخرج الكثيرين منهم عن الظن السَّوي في الله ﷻ، فربما ظنوا في أنفسهم أن الله قد تخلى عن المسلمين فليس بناصرهم، وربما ظنوا أن المشركين سوف يستأصلون شأفة المسلمين، والرسول ﷺ أولهم، وربما ظنوا أن الإسلام ليس الدين الحق الذي يستأهل أهله النصر، فهم مقهورون بعجزهم، وكل هذه الظنون لا تعدو دائرة المنافقين أو نفرًا وَهَنوا لما أصابهم فلحقوا بالمنافقين في بعض ظنونهم، وأمسكوا على هذه الظنون ألسنتهم، وحبسوها في صدورهم، حتى يكون أمر من الأمر بنصر المسلمين أو بهزيمتهم، وإن كانت الهزيمة أقرب وأدنى إلى ظنهم.

وتضطرب القلوب في الحناجر اضطرابًا شديدًا يؤثر على الأجسام تأثيرًا قويًّا حتى إنه ليظهر في حركات لا إرادية، في جيئة وذهاب، وفي صعود ونزول، وفي سَنة ويقظة، وفي جوع وشبع، وفي ري وظمأ، وهذا أشد ما لقي المسلمون من بلاء في هذه الغزوة، وذلك قوله: ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾.

وحين يبلغ الأمر بجند -وهم محاصرون- هذا المبلغ فإن ذلك مؤذن بنهاية مفجعة، لا يُنتظر لهم بعدها رجاء في نجاة منها، وهي اهتمامُ كل فرد منهم بشأن نفسه، لا يعنيه أحد ممن حوله أبدًا؛ لأنه وهو ينتظر هذه النهاية المفجعة لا يقوى على استجماع تفكيره المشتت في أرجاء نفسه الفزعة المضطربة، فهو بذلك لا يمكنه أن يحدد جبهة ينجو منها إذا وطئته أقدام الغزاة المحاصِرين، فكيف يمكنه أن يفكر في شأن غيره، وشأنه هو نفسه لا يمسك منه بشيء؟! وحين يصبح الجند على مثل هذه الحال، فإن ذلك واضع فيهم التفرق والتشتت لا محالة.

ولكن الله سبحانه الذي يعلم من نفوس هؤلاء المسلمين ما لا يعلمون هم منها -وهو الذي أنزل بهم هذه الشدة ابتلاء لهم واختبارًا- لم يكن ليدعهم لمثل هذه النهاية، أو لآثارها، فيدركهم بنصره، ويكلأهم

بعين رعايته، ويرسل على المشركين والأحزاب ريحًا وجنودًا لم يروها، قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [الأحزاب: ٩].

ويكون للمنافقين دور يتفق مع طبيعتهم المنحرفة الخبيثة، فلا يجدون في أنفسهم خفة إلا لكلمة سوء، ولا توجهًا لقلوبهم إلا نحو الشر والإفساد، ويرون من واقع المسلمين الفزع المضطرب ما يمكّن لما يريدون، أو هكذا كانوا يظنون، فيُلقون بِدِلاء ألسنتهم في آبار الفتنة، ويرفعون الأقنعة عن وجوههم الكالحة، وتصعد الكلمات النتنة من قلوبهم فلا تستقر حتى على ألسنتهم من استعجال لا تطيق معه صبرًا على الانتظار والإبطاء فقالت فئة منهم: ﴿مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾، وقالت فئة أخرى: ﴿يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا﴾ [الأحزاب: ١٣]، وتأتي فئة ثالثة لم تملك أن تواري كلمتها بلطف الاعتذار فتقول في تعليل استئذانها: ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾، فيعجّل الله بافتضاحهم فيقول: ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾﴾ والفرار هنا ليس في ظني من خوف، فالمنافقون ضامنون أن لا يوقع المشركون ولا اليهود بهم شرًّا، إن انتصروا ـ بل إنه زيادة في إضعاف صف المسلمين ـ وقد علموا ما حاق بهم، ونزل في قلوبهم من فزع واضطراب.

وإذا كان هذا هو الدور الذي لعبه المنافقون في غزوة الأحزاب فهو الدور الذي يُنتظر أن يلعبوه في كل زمان، فالأمة حينئذ مندوبة لكف يد المنافقين، وكشف وجوههم للناس جميعًا، وتعريتهم تحت الشمس حتى يراهم كل أحد فلا يخفون عليه، ثم لا يكون لهم قدرة على التحرك بين المؤمنين بفسادهم وشرهم.

والمنافقون لا يطول لبثهم أمام الاختبار، فهم سرعان ما يستجيبون لدعاة الشر والفتنة، ولا يتورعون من إعلان حقيقة ما تكنه صدورهم، ويبدون ما كانوا يخفون من قبل: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾﴾.

وإذا انكشفت عورات المنافقين، وبدا ما كانوا يخفونه، فما ينبغي أن يُصدَّقوا في قول أو عهد؛ لأن معدن النفاق واحد في كل زمان ومكان، ومعدن الشيء لا يتغير، وإن تغيرت ألوانه وظواهره، هذه حقيقة ثابتة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿١٥﴾﴾.

وصدقُ العهد أو تخلفه لا يظهر إلا تحت منظار التجربة، والبطء في ظهور حقيقة العهد أو السرعة فيه يكون تبعًا لجسامة التجربة أو صغرها، وقد كانت التجربة في غزوة الأحزاب جسيمة ضخمة؛ لذا ما لبث عهد المنافقين أن بدا تخلفه في لواذهم ببيوتهم، وفرارهم من أرض القتال، وتبريرهم ذلك بأن بيوتهم مكشوفة للأعداء فهم يريدون حمايتها والدفاع عنها، وربما داخلهم ريب أن المشركين إن دخلوا المدينة فلا يفرقون بين المؤمنين والمنافقين في القتل والإيذاء فليأخذوا الحيطة إذًا لأنفسهم، وليمتنعوا في بيوتهم، فإذا

دخل المشركون المدينة علموا أنهم لم يقاتلوهم، ولم يصدوهم عن دخولها، فنجوا من سيوفهم وأسلحتهم، ونالوا منهم خيرًا.

لكن مع كل ما مَنُّوا به أنفسهم من النجاة، وأخذِهم الحيطة لأنفسهم، فإن شيئًا مما فعلوا لن يرد عنهم الموت، ولن يدفع عنهم الهلاك؛ لأن الأسباب ليس لها حساب في تدبير الله وتقديره، فهي معطلة إذا أراد الله سبحانه شيئًا، قال تعالى: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾.

ولم يقف دور المنافقين في غزوة الأحزاب عند هذا الحد، بل تجاوزه إلى التخذيل والتشكيك، فقالوا لإخوانهم الذين بينهم وبينهم مودة: هلم إلينا، وانعموا بالظلال والثمار، ولا تشقُّوا على أنفسكم بالخروج للقتال لئلا يصيبكم القتال والجراح، ثم لا تصيبوا حظًّا من النصر.

ثم إنهم مع قعودهم عن القتال، وتخذيلهم إخوانهم عن المشاركة في الجهاد، حين رأوهم قد عادوا بالعافية والنصر، لم يمنعهم الحياء أن ينسِبوا لأنفسهم شيئًا مما عاد به إخوانهم، فأطلقوا لألسنتهم العنان في ادِّعاء الشجاعة والنجدة، ورفعوا عقائرهم المنكرة بمطالبة المجاهدين مقاسمتهم ما غنموه.

وجرَّأهم على ما قالوا ورفعوا به أصواتهم ظنُّهم أن الأحزاب التي أحاطت بالمدينة لا زالت في مواقعها لم تبرحها، ولو أنهم أيقنوا أن هذه الأحزاب تستهدفهم بقتالها، لآثروا السلامة بالبقاء في البادية، بعيدًا عن مواطن الخوف والفزع، يلوذون بجبنهم وشحهم بها، يرقبون ما يجري على أرض المعركة، لا يرجون إلا هزيمتكم والظَّفر بكم، ليبدوا لكم الشماتة والفرح بما أصابكم، ولم يكن للمنافقين رجاء إلا هذا، لتعود لهم السيادة على أرض المدينة بعد أن يئسوا اليأس كله من عودتها إليهم، فجاءت غزوة الأحزاب لتحيي فيهم هذا الرجاء من جديد، ويحذر الله نبيه والمؤمنين أن يكون للمنافقين دور في القتال؛ لأنهم لو قاتلوا لن يصبروا في القتال إلا قليلًا، ثم ينهزموا ويفروا، وفي فرارهم وهزيمتهم إضعاف لمعنويات المجاهدين، وهذا شر ما يُصاب به المجاهدون في أثناء القتال، قال تعالى: ﴿ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾﴾.

ومن خلال الفزع والخوف والشدة المطبقة على المؤمنين ببأسها، والتخذيل والتشكيك تبرز الصورة الرائعة المشرقة للقيادة المقتدرة بإذن ربها، صورة الرسول ﷺ وهو يحمل همَّ أمته في غزوة الأحزاب

وبعدها إلى قيام الساعة، ومصير الأرض التي لو قُدِّر للأحزاب أن تستولي عليها لضاقت عليهم الأرض كلها برحبتها، فلا يراه أصحابه إلا يقظًا متحركًا لا تأخذه عنهم غفلة، ولا تستميله من دونهم راحة، ولا يتخير لنفسه مستراحًا آمنًا ولا مستردًّا هنيئًا، فيستذكرون به وعدًا أُنزل عليهم من قبل، رأوه ماثلًا أمامهم في شخصه ﷺ، يقينًا يبعث بشذى الإيمان وروح الجنان، فيصوِّبون إليه عيونهم، فيزيدهم إيمانًا بالله ورسوله، وتسليمًا لكل ما قد يأتيهم به الوحي من أمر ونهي، ويظنون أن النصر منهم قريب، وإن تمالأت عليهم تلك الأحزاب الكاثرة، قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ ﴾.

وإذا كان المنافقون قد أخلوا مكانهم، وأعملوا ألسنتهم في التخذيل والتشكيك، وهم يرجون أن يصيبوا من صف المسلمين صدعًا يدخلون منه إليهم فيفرِّقوهم، فإن رجالًا حول محمد ﷺ آلَوْا على أنفسهم أن يظلوا ماضين على أمر الله، لا يضرهم تخذيل مخذِّل، مقيمين على العهد، لا يضعفهم تشكيك مشكِّك، حتى يلقوا ربهم سبحانه في موت أو شهادة، وهم المعنيون في قوله سبحانه: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ ﴾.

وبهؤلاء الرجال كان النصر الذي أنزله الله ﷻ على المؤمنين في غزوة الأحزاب؛ لأن النصر لا يكون منحة للعاجزين القاعدين الخوَّارين، بل للأقوياء القائمين المثابرين.

وإذا كان قد أصاب المسلمين في غزوة الأحزاب الفزع والخوف، فليس يعني هذا أن إيمانهم قد وهن في صدورهم، فإن في جبلة الإنسان الضعف الذي لا يقوى على مغالبته بنفسه أحيانًا، إلا إذا كان له روافد من قوة تأتيه من خارج نفسه، والذي أحاط بالمسلمين يوم الأحزاب من الأعداد البشرية الكاثرة، ووفرة السلاح والشوكة، والإحساس النفسي أن الجزيرة قد ألقت إليهم بثقلها، وانبجست من أرجائها عيون الشر، تدفع به نحو المدينة لتغمرها وتغرقها، كل ذلك كشف عن الضعف البشري.

لكن هذا الضعف لم يلبث أن انخنس في أعماقهم خوفًا وفرقًا من وَقْدَة عزيمة الإيمان التي توهجت أن تحرقه ثم لا يكون له وجود فيهم، واستطاعت فئة ممن صدقت في إيمانها ودينها أن تعيد إلى المؤمنين الثقة الإيمانية، فكانت هذه الفئة هي الوقدة المتوهجة التي أقصت عن نفوس المؤمنين الضعف بصدقها، فنالت أجرها من الله سبحانه جزاء وفاقًا: ﴿ لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ ﴾ [الأحزاب: ٢٤].

أما المنافقون فإن لهم شأنًا آخر، فمن مات على نفاقه فمآله عذاب النار، ومن تاب ونزع من نفاقه فباب الله مفتوح يدخل منه إليه، ليغرف من معين رحمته: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ ﴾ [الأحزاب]. [السيرة النبوية العطرة في الآيات القرآنية المسطرة لشقرة ٣٨٦-٣٩٨].

المبحث الثامن
موازنة بين غزوة الأحزاب وحرب التتار
عند شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله

توطئة:

يقول د/ الفنيسان: «لماذا وازن ابن تيمية بين هذه الغزوة وبين أحداث عصره؟

لأن فقه شيخ الإسلام يأبى عليه أن ينظر إلى الغزوة في القرآن نظرة تاريخية مجردة عن العبرة والاتعاظ.

إنها ذُكرت لتكون نبراسًا للزمن كله والأحداث المتجددة، والله يخاطب المؤمنين أن يذكروا نعمة الله عليهم، وأن يعرفوا أسباب نصره، وأن يتبعوا سبيل المؤمنين الصادقين الذي يثبتون في الشدائد، ويثقون في وعد الله في جميع الأحوال، ولا تزيدهم المحن والأراجيف من حولهم إلا إيمانًا وتسليمًا.

إن شيخ الإسلام عالم مجاهد ينشد الإسلام واقعًا في حياة المسلمين، ويقرأ القرآن لأحداث عصره وزمنه، يصلح به ما فسد، ويقوِّم ما اعوج، وما كان القرآن لجيل دون جيل، وما كانت آياته إلا بشيرًا ونذيرًا لقوم يعلمون، فالقرآن شامل لأحداث الزمان والمكان، فما من قضية تَجِدُّ أو حادثة تحدث إلا وفي القرآن لها علاج وحُكْم.

وإذا ما تليت آياته على حادثةٍ نزلت اليوم، فكأنها الآية إنما نزلت فيها بعينها، وهذا سر من أسرار إعجاز القرآن الكريم». [غزوة الأحزاب للفنيسان ٢٥٣].

وإن الناظر اليوم يجد أن الأحزاب قد تحزبت من جديد على الإسلام والمسلمين، والتقى الفرقاء من اليهود والنصارى والملحدين على حرب الإسلام والمسلمين، يبغون استئصاله كما أراد الأحزاب بالأمس، ومن هنا تأتي أهمية هذه الرسالة لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله لتعيد الحادثة القرآنية كأنها تتنزل بين يدي أحداث العصر الجارية، ولتبين للمسلمين أن هذه الأحزاب المعاصرة ليست أول الأحزاب ولا آخرها، وإنما هو الصراع الدائم بين الحق والباطل، والنتيجة النهائية فيما سبق معروفة، وهي نصر الله لجنده المؤمنين الموحدين، وخذلانه للأحزاب المتألبين، وهي نفس النتيجة التي سنراها قريبًا للأحزاب المعاصرة، فإن هذا من سنن الله تعالى في خلقه، ولكن حين تصبح الأمة المسلمة أهلًا لهذا النصر وهذا التمكين: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ١٧٣﴾ [الصافات].

وندعو الله أن نرى هذا النصر قريبًا إن شاء الله.

كَتَبَ شَيْخُ الإِسْلَامِ أَحْمَدُ بْنُ تيمية ـ قَدَّسَ اللهُ رُوحَهُ ـ لَـمَّا قَدِمَ العَـدُوُّ مِـنَ التَّتَـارِ سَـنَةَ تِسْـعٍ وَتِسْـعِينَ وَسِتِّمِائَةٍ (٦٩٩هـ) إِلَى حَلَبَ، وَانْصَرَفَ عَسْكَرُ مِصْرَ، وَبَقِيَ عَسْكَرُ الشَّامِ.(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِلَى مَنْ يَصِلُ إِلَيْهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ: أَحْسَنَ اللهُ إِلَـيْهِمْ فِي الـدُّنْيَا وَالآخِـرَةِ، وَأَسْبَغَ عَلَـيْهِمْ نِعَمَـهُ بَاطِنَةً وَظَاهِرَةً، وَنَصَرَهُمْ نَصْرًا عَزِيزًا، وَفَتَحَ عَلَيْهِمْ فَتْحًا كَبِيرًا، وَجَعَـلَ لَـهُمْ مِـنْ لَدُنْـه سُـلطَانًا نَصِـيرًا، وَجَعَلَـهُمْ مُعْتَصِمِينَ بِحَبْلِهِ المَتِينِ مُهْتَدِينَ إِلَى صِرَاطِهِ الْمُسْتَقِيمِ.

سَلَامٌ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ.

فَإِنَّا نَحْمَدُ إِلَيْكُمُ اللهَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَهُوَ لِلحَمْدِ أَهْلٌ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَنَسْـأَلُهُ أَنْ يُصَـلِّيَ عَلَى صَفْوَتِهِ مِنْ خَلِيقَتِهِ وَخِيرَتِهِ مِنْ بَرِّيَّتِهِ مُحَمَّدٍ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا.

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ اللهَ ﷻ بَعَثَ مُحَمَّدًا ﷺ بِالْهُدَى وَدِينِ الحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَـلَى الـدِّينِ كُلِّـهِ وَكَفَـى بِـالله شَـهِيدًا وَجَعَلَهُ خَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَسَيِّدَ وَلَدِ آدَمَ مِنَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ وَجَعَلَ كِتَابَهُ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَيْهِ مُهَيْمِنًا عَلَى مَا بَيْنَ يَدَيْـهِ مِنَ الكُتُبِ وَمُصَدِّقًا لَهَا، وَجَعَلَ أُمَّتَهُ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ: يَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَـرِ؛ فَهُـمْ يُوفُونَ سَبْعِينَ فِرْقَةً هُمْ خَيْرُهَا وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللهِ، وَقَدْ أَكْمَلَ لَـهُمْ دِينَهُمْ وَأَتَـمَّ عَلَـيْهِمْ نِعْمَتَـهُ وَرَضِيَ لَـهُمُ الإِسْلَامَ دِينًا.

فَلَيْسَ دِينٌ أَفْضَلَ مِنْ دِينِهِمْ الَّذِي جَاءَ بِهِ رَسُولُهُمْ، لَا كِتَابٌ أَفْضَلَ مِنْ كِتَابِهِمْ، لَا أُمَّةٌ خَيْرًا مِنْ أُمَّتِهِمْ، بَل كِتَابُنَا وَنَبِيُّنَا وَدِينُنَا وَأُمَّتُنَا أَفْضَلُ مِنْ كُلِّ كِتَابٍ وَدِينٍ وَنَبِيٍّ وَأُمَّةٍ.

فَاشْكُرُوا اللهَ عَلَى مَا أَنْعَمَ بِـهِ عَلَـيْكُمْ: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [النمل]، وَاحْفَظُوا هَذِهِ الَّتِي بِهَا تَنَالُونَ نَعِيمَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَاحْذَرُوا أَنْ تَكُونُوا مِمَّنْ بَدَّلَ نِعْمَةَ اللهِ كُفْـرًا فَتُعْرِضُـونَ عَنْ حِفْظِ هَذِهِ النِّعْمَةِ وَرِعَايَتِهَا فَيَحِيقُ بِكُمْ مَا حَاقَ بِمَنْ انْقَلَبَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَاشْـتَغَلَ بِـمَا لَا يَنْفَعُـهُ مِـنْ أَمْرِ الدُّنْيَا عَمَّا لَا بُدَّ لَهُ مِنْهُ مِنْ مَصْلَحَةِ دِينِهِ وَدُنْيَاهُ فَخَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ.

فَقَدْ سَمِعْتُمْ مَا نَعَتَ اللهُ بِهِ الشَّاكِرِينَ وَالْمُنْقَلِبِينَ حَيْثُ يَقُولُ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [آل عمران].

أَنْزَلَ اللهُ سُبْحَانَهُ هَذِهِ الآيَةَ وَمَا قَبْلَهَا وَمَا بَعْدَهَا فِي غَزْوَةِ أُحُـدٍ لَـمَّا انْكَسَرَ الْمُسْـلِمُونَ مَـعَ النَّبِـيِّ ﷺ، وَقُتِلَ جَمَاعَةٌ مِنْ خِيَارِ الأُمَّةِ، وَثَبَتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَعَ طَائِفَةٍ يَسِيرَةٍ حَتَّى خَلَصَ إِلَيْهِ العَدُوُّ فَكَسَرُوا رَبَاعِيَتَـهُ

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ٢٨/ ٢٢٦-٢٣٣ ط دار الوفاء، وص ٤١٠ وما بعدها من الطبعات الأخرى.

وَشَجُّوا وَجْهَهُ وَهَشَّمُوا البَيْضَةَ عَلَى رَأْسِهِ، وَقُتِلَ وَجُرِحَ دُونَهُ طَائِفَةٌ مِنْ خِيَارِ أَصْحَابِهِ لِذَبِّهِمْ عَنْهُ، وَنَعَقَ الشَّيْطَانُ فِيهِمْ: أَنَّ مُحَمَّدًا قَدْ قُتِلَ، فَزَلْزَلَ ذَلِكَ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ حَتَّى انْهَزَمَ طَائِفَةٌ وَثَبَّتَ اللهُ آخَرِينَ حَتَّى ثَبَتُوا.

وَكَذَلِكَ لَـمَّا قُبِضَ النَّبِيُّ ﷺ فَتَزَلْزَلَتْ القُلُوبُ وَاضْطَرَبَ حَبْلُ الدِّينِ وَغَشِيَتْ الذِّلَّةُ مَنْ شَاءَ اللهُ مِنَ النَّاسِ حَتَّى خَرَجَ عَلَيْهِمُ الصِّدِّيقُ ﵁ فَقَالَ: مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللهَ فَإِنَّ اللهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ، وَقَرَأَ قَوْلَهُ: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾، فَكَأَنَّ النَّاسَ لَمْ يَسْمَعُوهَا حَتَّى تَلَاهَا الصِّدِّيقُ ﵁، فَلَا يُوجَدُ مِنَ النَّاسِ إِلَّا مَنْ يَتْلُوهَا.

وَارْتَدَّ بِسَبَبِ مَوْتِ الرَّسُولِ ﷺ وَلَـمَّا حَصَلَ لَـهُمْ مِنَ الضَّعْفِ جَمَاعَاتٌ مِنَ النَّاسِ:

قَوْمٌ ارْتَدُّوا عَنِ الدِّينِ بِالكُلِّيَّةِ.

وَقَوْمٌ ارْتَدُّوا عَنْ بَعْضِهِ فَقَالُوا: نُصَلِّي وَلَا نُزَكِّي.

وَقَوْمٌ ارْتَدُّوا عَنْ إِخْلَاصِ الدِّينِ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ، فَآمَنُوا مَعَ مُحَمَّدٍ بِقَوْمٍ مِنَ النَّبِيِّينَ الكَذَّابِينَ كمسيلمة الكَذَّابِ وطليحة الأسدي وَغَيْرِهِمَا فَقَامَ إِلَى جِهَادِهِمُ الشَّاكِرُونَ الَّذِينَ ثَبَتُوا عَلَى الدِّينِ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنَ المُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَالطُّلَقَاءِ وَالأَعْرَابِ وَمَنْ اتَّبَعَهُمْ بِإِحْسَانٍ، الَّذِينَ قَالَ اللهُ ﷻ فِيهِمْ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ [المائدة: ٥٤]، هُمْ أُولَئِكَ الَّذِينَ جَاهَدُوا المُنْقَلِبِينَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ الَّذِينَ لَمْ يَضُرُّوا اللهَ شَيْئًا.

وَمَا أَنْزَلَ اللهُ فِي القُرْآنِ مِنْ آيَةٍ إِلَّا وَقَدْ عَمِلَ بِهَا قَوْمٌ وَسَيَعْمَلُ بِهَا آخَرُونَ.

فَمَنْ كَانَ مِنَ الشَّاكِرِينَ الثَّابِتِينَ عَلَى الدِّينِ الَّذِينَ يُحِبُّهُمْ اللهُ ﷻ وَرَسُولُهُ؛ فَإِنَّهُ يُجَاهِدُ المُنْقَلِبِينَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ، الَّذِينَ يَخْرُجُونَ عَنِ الدِّينِ وَيَأْخُذُونَ بَعْضَهُ وَيَدَعُونَ بَعْضَهُ كَحَالِ هَؤُلَاءِ القَوْمِ المُجْرِمِينَ المُفْسِدِينَ الَّذِينَ خَرَجُوا عَلَى أَهْلِ الإِسْلَامِ وَتَكَلَّمَ بَعْضُهُمْ بِالشَّهَادَتَيْنِ وَتَسَمَّى بِالإِسْلَامِ مِنْ غَيْرِ التِزَامِ شَرِيعَتِهِ؛ فَإِنَّ عَسْكَرَهُمْ مُشْتَمِلٌ عَلَى أَرْبَعِ طَوَائِفَ:

كَافِرَةٌ بَاقِيَةٌ عَلَى كُفْرِهَا: مِنَ الكرجِ وَالأَرْمَنِ وَالمَغُولِ.

وَطَائِفَةٌ كَانَتْ مُسْلِمَةً فَارْتَدَتْ عَنِ الإِسْلَامِ وَانْقَلَبَتْ عَلَى عَقِبَيْهَا: مِنَ العَرَبِ وَالفُرْسِ وَالرُّومِ وَغَيْرِهِمْ.

وَهَؤُلَاءِ أَعْظَمُ جُرْمًا عِنْدَ اللهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ وَالمُؤْمِنِينَ مِنَ الكَافِرِ الأَصْلِيِّ مِنْ وُجُوهٍ كَثِيرَةٍ: فَإِنَّ هَؤُلَاءِ يَجِبُ قَتْلُهُمْ حَتْمًا مَا لَمْ يَرْجِعُوا إِلَى مَا خَرَجُوا عَنْهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يُعْقَدَ لَـهُمْ ذِمَّةٌ وَلَا هُدْنَةٌ وَلَا أَمَانٌ وَلَا يُطْلَقُ

أَسِيرُهُمْ وَلَا يُفَادَى بِمَالٍ وَلَا رِجَالٍ وَلَا تُؤْكَلُ ذَبَائِحُهُمْ وَلَا تُنْكَحُ نِسَاؤُهُمْ وَلَا يُسْتَرَقُّونَ؛ مَعَ بَقَائِهِمْ عَلَى الرِّدَّةِ بِالاتِّفَاقِ. وَيُقْتَلُ مَنْ قَاتَلَ مِنْهُمْ وَمَنْ لَمْ يُقَاتِلْ؛ كَالشَّيْخِ الهَرِمِ وَالأَعْمَى وَالزَّمِنِ بِاتِّفَاقِ العُلَمَاءِ. وَكَذَا نِسَاؤُهُمْ عِنْدَ الجُمْهُورِ.

وَالكَافِرُ الأَصْلِيُّ يَجُوزُ أَنْ يُعْقَدَ لَهُ أَمَانٌ وَهُدْنَةٌ وَيَجُوزُ المَنُّ عَلَيْهِ وَالمُفَادَاةُ بِهِ إِذَا كَانَ أَسِيرًا عِنْدَ الجُمْهُورِ، وَيَجُوزُ إِذَا كَانَ كِتَابِيًّا أَنْ يُعْقَدَ لَهُ ذِمَّةٌ وَيُؤْكَلُ طَعَامُهُمْ وَتُنْكَحُ نِسَاؤُهُمْ وَلَا تُقْتَلُ نِسَاؤُهُمْ إِلَّا أَنْ يُقَاتِلْنَ بِقَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ بِاتِّفَاقِ العُلَمَاءِ، وَكَذَلِكَ لَا يُقْتَلُ مِنْهُمْ إِلَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ القِتَالِ عِنْدَ جُمْهُورِ العُلَمَاءِ كَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ السُّنَّةُ.

فَالكَافِرُ المُرْتَدُّ أَسْوَأُ حَالًا فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا مِنَ الكَافِرِ المُسْتَمِرِّ عَلَى كُفْرِهِ.

وَهَؤُلَاءِ القَوْمُ فِيهِمْ مِنَ المُرْتَدَّةِ مَا لَا يُحْصِي عَدَدَهُمْ إِلَّا اللهُ، فَهَذَانِ صِنْفَانِ.

وَفِيهِمْ أَيْضًا مَنْ كَانَ كَافِرًا فَانْتَسَبَ إِلَى الإِسْلَامِ وَلَمْ يَلْتَزِمْ شَرَائِعَهُ؛ مِنْ إِقَامَةِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ وَحَجِّ البَيْتِ وَالكَفِّ عَنْ دِمَاءِ المُسْلِمِينَ وَأَمْوَالِهِمْ وَالتِزَامِ الجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ وَضَرْبِ الجِزْيَةِ عَلَى اليَهُودِ وَالنَّصَارَى وَغَيْرِ ذَلِكَ.

وَهَؤُلَاءِ يَجِبُ قِتَالُهُمْ بِإِجْمَاعِ المُسْلِمِينَ كَمَا قَاتَلَ الصِّدِّيقُ ﷺ مَانِعِي الزَّكَاةِ؛ بَلْ هَؤُلَاءِ شَرٌّ مِنْهُمْ مِنْ وُجُوهٍ، وَكَمَا قَاتَلَ الصَّحَابَةُ أَيْضًا مَعَ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ عَلِيٍّ ﷺ الخَوَارِجَ بِأَمْرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ حَيْثُ قَالَ ﷺ فِي وَصْفِهِمْ: «**تُحَقِّرُونَ صَلَاتَكُمْ مَعَ صَلَاتِهِمْ وَصِيَامَكُمْ مَعَ صِيَامِهِمْ، يَقْرَؤُونَ القُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ يَمْرُقُونَ مِنَ الإِسْلَامِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، أَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ فَإِنَّ فِي قَتْلِهِمْ أَجْرًا عِنْدَ اللهِ لِمَنْ قَتَلَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ**».

وَقَالَ: «**لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ مَاذَا لَهُمْ عَلَى لِسَانِ مُحَمَّدٍ لَنَكَلُوا عَنِ العَمَلِ**».

وَقَالَ: «**هُمْ شَرُّ الخَلْقِ وَالخَلِيقَةِ شَرُّ قَتْلَى تَحْتَ أَدِيمِ السَّمَاءِ خَيْرُ قَتْلَى مَنْ قَتَلُوهُ**».

فَهَؤُلَاءِ مَعَ كَثْرَةِ صِيَامِهِمْ وَصَلَاتِهِمْ وَقِرَاءَتِهِمْ أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِقِتَالِهِمْ وَقَاتَلَهُمْ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ عَلِيٌّ ﷺ وَسَائِرُ الصَّحَابَةِ الَّذِينَ مَعَهُ، وَلَمْ يَخْتَلِفْ أَحَدٌ فِي قِتَالِهِمْ كَمَا اخْتَلَفُوا فِي قِتَالِ أَهْلِ البَصْرَةِ وَالشَّامِ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يُقَاتِلُونَ المُسْلِمِينَ، فَإِنَّ هَؤُلَاءِ شَرٌّ مِنْ أُولَئِكَ مِنْ غَيْرِ وَجْهٍ وَإِنْ لَمْ يَكُونُوا مِثْلَهُمْ فِي الاعْتِقَادِ؛ فَإِنَّ مَعَهُمْ مَنْ يُوَافِقُ رَأْيُهُ فِي المُسْلِمِينَ رَأْيَ الخَوَارِجِ. فَهَذِهِ ثَلَاثَةُ أَصْنَافٍ.

وَفِيهِمْ صِنْفٌ رَابِعٌ شَرٌّ مِنْ هَؤُلَاءِ، وَهُمْ قَوْمٌ ارْتَدُّوا عَنْ شَرَائِعِ الإِسْلَامِ وَبَقُوا مُسْتَمْسِكِينَ بِالانْتِسَابِ إِلَيْهِ، فَهَؤُلَاءِ الكُفَّارُ المُرْتَدُّونَ وَالدَّاخِلُونَ فِيهِ مِنْ غَيْرِ التِزَامٍ لِشَرَائِعِهِ وَالمُرْتَدُّونَ عَنْ شَرَائِعِهِ لَا عَنْ سِمَتِهِ: كُلُّهُمْ يَجِبُ قِتَالُهُمْ بِإِجْمَاعِ المُسْلِمِينَ حَتَّى يَلْتَزِمُوا شَرَائِعَ الإِسْلَامِ وَحَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ للهِ وَحَتَّى تَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ - الَّتِي هِيَ كِتَابُهُ وَمَا فِيهِ مِنْ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ وَخَبَرِهِ - هِيَ العُلْيَا.

هَذَا إِذَا كَانُوا قَاطِنِينَ فِي أَرْضِهِمْ فَكَيْفَ إِذَا اسْتَوْلَوْا عَلَى أَرَاضِي الإِسْلَامِ: مِنَ العِرَاقِ وَخُرَاسَانَ وَالجَزِيرَةِ وَالرُّومِ، فَكَيْفَ إِذَا قَصَدُوكُمْ وَصَالُوا عَلَيْكُمْ بَغْيًا وَعُدْوَانًا: ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ [التوبة].

وَاعْلَمُوا ـ أَصْلَحَكُمُ اللهُ ـ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَدْ ثَبَتَ عَنْهُ مِنْ وُجُوهٍ كَثِيرَةٍ أَنَّهُ قَالَ: **«لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الحَقِّ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ وَلَا مَنْ خَالَفَهُمْ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ»**، وَثَبَتَ أَنَّهُمْ بِالشَّامِ.

فَهَذِهِ الفِتْنَةُ قَدْ تُفَرِّقُ النَّاسَ فِيهَا ثَلَاثَ فِرَقٍ:

الطَّائِفَةُ المَنْصُورَةُ: وَهُمُ المُجَاهِدُونَ لِهَؤُلَاءِ القَوْمِ المُفْسِدِينَ.

وَالطَّائِفَةُ المُخَالِفَةُ: وَهُمْ هَؤُلَاءِ القَوْمُ وَمَنْ تَحَيَّزَ إِلَيْهِمْ مِنْ خِبَالَةِ المُنْتَسِبِينَ إِلَى الإِسْلَامِ.

وَالطَّائِفَةُ المُخَذِّلَةُ: وَهُمُ القَاعِدُونَ عَنْ جِهَادِهِمْ؛ وَإِنْ كَانُوا صَحِيحِي الإِسْلَامِ.

فَلْيَنْظُرِ الرَّجُلُ أَيَكُونُ مِنَ الطَّائِفَةِ المَنْصُورَةِ، أَمْ مِنَ الخَاذِلَةِ، أَمْ مِنَ المُخَالِفَةِ؟ فَمَا بَقِيَ قِسْمٌ رَابِعٌ.

وَاعْلَمُوا أَنَّ الجِهَادَ فِيهِ خَيْرُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَفِي تَرْكِهِ خَسَارَةُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾ [التوبة: ٥٢].

يَعْنِي: إِمَّا النَّصْرُ وَالظَّفَرُ وَإِمَّا الشَّهَادَةُ وَالجَنَّةُ فَمَنْ عَاشَ مِنَ المُجَاهِدِينَ كَانَ كَرِيمًا لَهُ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَحُسْنُ ثَوَابِ الآخِرَةِ. وَمَنْ مَاتَ مِنْهُمْ أَوْ قُتِلَ فَإِلَى الجَنَّةِ.

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«يُعْطَى الشَّهِيدُ سِتُّ خِصَالٍ: يُغْفَرُ لَهُ بِأَوَّلِ قَطْرَةٍ مِنْ دَمِهِ، وَيُرَى مَقْعَدُهُ مِنَ الجَنَّةِ، وَيُكْسَى حُلَّةً مِنَ الإِيمَانِ، وَيُزَوَّجُ ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِنَ الحُورِ العِينِ، وَيُوقَى فِتْنَةَ القَبْرِ، وَيُؤَمَّنُ مِنَ الفَزَعِ الأَكْبَرِ»** رَوَاهُ أَهْلُ السُّنَنِ.

وَقَالَ ﷺ: **«إِنَّ فِي الجَنَّةِ لَمِائَةَ دَرَجَةٍ، مَا بَيْنَ الدَّرَجَةِ إِلَى الدَّرَجَةِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، أَعَدَّهَا اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ»**.

فَهَذَا ارْتِفَاعُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ فِي الجَنَّةِ لِأَهْلِ الجِهَادِ.

وَقَالَ ﷺ: **«مَثَلُ المُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللهِ مَثَلُ الصَّائِمِ القَائِمِ القَانِتِ الَّذِي لَا يَفْتُرُ مِنْ صَلَاةٍ وَلَا صِيَامٍ»**.

وَقَالَ رَجُلٌ: أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ يَعْدِلُ الجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللهِ؟ قَالَ: لَا تَسْتَطِيعُهُ. قَالَ: أَخْبِرْنِي بِهِ؟ قَالَ: **هَلْ تَسْتَطِيعُ إِذَا خَرَجَ المُجَاهِدُ أَنْ تَصُومَ لَا تُفْطِرُ وَتَقُومَ لَا تَفْتُرُ؟** قَالَ: لَا. قَالَ: **فَذَلِكَ الَّذِي يَعْدِلُ الجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللهِ.**

وَهَذِهِ الأَحَادِيثُ فِي الصَّحِيحَيْنِ وَغَيْرِهِمَا.

وَكَذَلِكَ اتَّفَقَ العُلَمَاءُ ـ فِيمَا أَعْلَمُ ـ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ فِي التَّطَوُّعَاتِ أَفْضَلُ مِنَ الجِهَادِ، فَهُوَ أَفْضَلُ مِنَ الحَجِّ وَأَفْضَلُ مِنَ الصَّوْمِ التَّطَوُّعِ وَأَفْضَلُ مِنَ الصَّلَاةِ التَّطَوُّعِ.

وَالمُرَابَطَةُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَفْضَلُ مِنَ المُجَاوَرَةِ بِمَكَّةَ وَالمَدِينَةِ وَبَيْتِ المَقْدِسِ حَتَّى قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ ﷺ: لَأَنْ أُرَابِطَ لَيْلَةً فِي سَبِيلِ اللهِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أُوَافِقَ لَيْلَةَ القَدْرِ عِنْدَ الحَجَرِ الأَسْوَدِ.

فَقَدْ اخْتَارَ الرِّبَاطَ لَيْلَةً عَلَى العِبَادَةِ فِي أَفْضَلِ اللَّيَالِي عِنْدَ أَفْضَلِ البِقَاعِ؛ وَلِهَذَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ يُقِيمُونَ بِالمَدِينَةِ دُونَ مَكَّةَ؛ لِمَعَانٍ مِنْهَا أَنَّهُمْ كَانُوا مُرَابِطِينَ بِالمَدِينَةِ، فَإِنَّ الرِّبَاطَ هُوَ المَقَامُ بِمَكَانٍ يُخِيفُهُ العَدُوُّ وَيُخِيفُ العَدُوَّ، فَمَنْ أَقَامَ فِيهِ بِنِيَّةِ دَفْعِ العَدُوِّ فَهُوَ مُرَابِطٌ وَالأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ.

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**رِبَاطُ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ اللهِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ يَوْمٍ فِيمَا سِوَاهُ مِنَ المَنَازِلِ**». رَوَاهُ أَهْلُ السُّنَنِ وَصَحَّحُوهُ.

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ: «عَنْ سَلْمَانَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**رِبَاطُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ فِي سَبِيلِ اللهِ خَيْرٌ مِنْ صِيَامِ شَهْرٍ وَقِيَامِهِ، وَمَنْ مَاتَ مُرَابِطًا أُجْرِيَ عَلَيْهِ عَمَلُهُ، وَأُجْرِيَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ مِنَ الجَنَّةِ، وَأَمِنَ الفَتَّانَ**»، يَعْنِي مُنْكَرًا وَنَكِيرًا. فَهَذَا فِي الرِّبَاطِ فَكَيْفَ الجِهَادُ.

وَقَالَ ﷺ: «**لَا يَجْتَمِعُ غُبَارٌ فِي سَبِيلِ اللهِ وَدُخَانُ جَهَنَّمَ فِي وَجْهِ عَبْدٍ أَبَدًا**».

وَقَالَ ﷺ: «**مَنْ اغْبَرَّتْ قَدَمَاهُ فِي سَبِيلِ اللهِ حَرَّمَهُمَا اللهُ عَلَى النَّارِ**».

فَهَذَا فِي الغُبَارِ الَّذِي يُصِيبُ الوَجْهَ وَالرِّجْلَ فَكَيْفَ بِمَا هُوَ أَشَقُّ مِنْهُ؛ كَالثَّلْجِ وَالبَرْدِ وَالوَحْلِ؛ وَلِهَذَا عَابَ اللهُ ﷻ المُنَافِقِينَ الَّذِينَ يَتَعَلَّلُونَ بِالعَوَائِقِ كَالحَرِّ وَالبَرْدِ، فَقَالَ ﷻ: ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾﴾ [التوبة].

وَهَكَذَا الَّذِينَ يَقُولُونَ: لَا تَنْفِرُوا فِي البَرْدِ، فَيُقَالُ: نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ بَرْدًا.

كَمَا أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**اشْتَكَتْ النَّارُ إِلَى رَبِّهَا فَقَالَتْ: رَبِّي أَكَلَ بَعْضِي بَعْضًا فَأْذَنْ لَهَا بِنَفَسَيْنِ: نَفَسٍ فِي الشِّتَاءِ وَنَفَسٍ فِي الصَّيْفِ، فَأَشَدُّ مَا تَجِدُونَ مِنَ الحَرِّ وَالبَرْدِ فَهُوَ مِنْ زَمْهَرِيرِ جَهَنَّمَ، فَالمُؤْمِنُ يَدْفَعُ بِصَبْرِهِ عَلَى الحَرِّ وَالبَرْدِ فِي سَبِيلِ اللهِ حَرَّ جَهَنَّمَ وَبَرْدَهَا، وَالمُنَافِقُ يَفِرُّ مِنْ حَرِّ الدُّنْيَا وَبَرْدِهَا حَتَّى يَقَعَ فِي حَرِّ جَهَنَّمَ وَزَمْهَرِيرِهَا**».

وَاعْلَمُوا ـ أَصْلَحَكُمُ اللهُ ـ أَنَّ النُّصْرَةَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ، وَأَنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ.

وَهَؤُلَاءِ القَوْمُ مَقْهُورُونَ مَقْمُوعُونَ، وَاللهُ ﷻ نَاصِرُنَا عَلَيْهِمْ وَمُنْتَقِمٌ لَنَا مِنْهُمْ وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ العَلِيِّ العَظِيمِ.

فَأَبْشِرُوا بِنَصْرِ اللهِ تَعَالَى وَبِحُسْنِ عَاقِبَتِهِ: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ [آل عمران]. وَهَذَا أَمْرٌ قَدْ تَيَقَّنَّاهُ وَتَحَقَّقْنَاهُ، وَالحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ ۖ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ ۖ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ [الصف].

وَاعْلَمُوا - أَصْلَحَكُمُ اللهُ - أَنَّ مِنْ أَعْظَمِ النِّعَمِ عَلَى مَنْ أَرَادَ اللهُ بِهِ خَيْرًا أَنْ أَحْيَاهُ إِلَى هَذَا الوَقْتِ الَّذِي يُجَدِّدُ اللهُ فِيهِ الدِّينَ وَيُحْيِي فِيهِ شِعَارَ المُسْلِمِينَ وَأَحْوَالَ المُؤْمِنِينَ وَالمُجَاهِدِينَ حَتَّى يَكُونَ شَبِيهًا بِالسَّابِقِينَ الأَوَّلِينَ مِنَ المُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ.

فَمَنْ قَامَ فِي هَذَا الوَقْتِ بِذَلِكَ كَانَ مِنَ التَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ، الَّذِينَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ، وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الفَوْزُ العَظِيمُ.

فَيَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَشْكُرُوا اللهَ تَعَالَى عَلَى هَذِهِ المِحْنَةِ الَّتِي حَقِيقَتُهَا مِنْحَةٌ كَرِيمَةٌ مِنَ اللهِ، وَهَذِهِ الفِتْنَةُ الَّتِي فِي بَاطِنِهَا نِعْمَةٌ جَسِيمَةٌ حَتَّى وَاللهِ لَوْ كَانَ السَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ المُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ - كَأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ وَعَلِيٍّ وَغَيْرِهِمْ رضي الله عنهم - حَاضِرِينَ فِي هَذَا الزَّمَانِ لَكَانَ مِنْ أَفْضَلِ أَعْمَالِهِمْ جِهَادُ هَؤُلَاءِ القَوْمِ المُجْرِمِينَ.

وَلَا يَفُوتُ مِثْلُ هَذِهِ الغُزَاةِ إِلَّا مَنْ خَسِرَتْ تِجَارَتُهُ وَسَفَّهَ نَفْسَهُ وَحُرِمَ حَظًّا عَظِيمًا مِنَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ؛ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مِمَّنْ عَذَّرَ اللهُ تَعَالَى كَالمَرِيضِ وَالفَقِيرِ وَالأَعْمَى وَغَيْرِهِمْ، وَإِلَّا فَمَنْ كَانَ لَهُ مَالٌ وَهُوَ عَاجِزٌ بِبَدَنِهِ فَلْيَغْزُ بِمَالِهِ، فَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**مَنْ جَهَّزَ غَازِيًا فَقَدْ غَزَا وَمَنْ خَلَفَهُ فِي أَهْلِهِ بِخَيْرٍ فَقَدْ غَزَا**»، وَمَنْ كَانَ قَادِرًا بِبَدَنِهِ وَهُوَ فَقِيرٌ فَلْيَأْخُذْ مِنْ أَمْوَالِ المُسْلِمِينَ مَا يَتَجَهَّزُ بِهِ سَوَاءٌ كَانَ المَأْخُوذُ زَكَاةً أَوْ صِلَةً أَوْ مِنْ بَيْتِ المَالِ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ؛ حَتَّى لَوْ كَانَ الرَّجُلُ قَدْ حَصَلَ بِيَدِهِ مَالٌ حَرَامٌ وَقَدْ تَعَذَّرَ رَدُّهُ إِلَى أَصْحَابِهِ لِجَهْلِهِ بِهِمْ وَنَحْوِ ذَلِكَ، أَوْ كَانَ بِيَدِهِ وَدَائِعُ أَوْ رُهُونٌ أَوْ عَوَارٍ قَدْ تَعَذَّرَ مَعْرِفَةُ أَصْحَابِهَا فَلْيُنْفِقْهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَإِنَّ ذَلِكَ مَصْرِفُهَا.

وَمَنْ كَانَ كَثِيرَ الذُّنُوبِ فَأَعْظَمُ دَوَائِهِ الجِهَادُ؛ فَإِنَّ اللهَ عز وجل يَغْفِرُ ذُنُوبَهُ كَمَا أَخْبَرَ اللهُ فِي كِتَابِهِ بِقَوْلِهِ عز وجل: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾.

وَمَنْ أَرَادَ التَّخَلُّصَ مِنَ الحَرَامِ وَالتَّوْبَةَ وَلَا يُمْكِنُ رَدُّهُ إِلَى أَصْحَابِهِ فَلْيُنْفِقْهُ فِي سَبِيلِ اللهِ عَنْ أَصْحَابِهِ، فَإِنَّ ذَلِكَ طَرِيقٌ حَسَنَةٌ إِلَى خَلَاصِهِ مَعَ مَا يَحْصُلُ لَهُ مِنْ أَجْرِ الجِهَادِ.

وَكَذَلِكَ مَنْ أَرَادَ أَنْ يُكَفِّرَ اللهُ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ فِي دَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ وَحَمِيَّتِهَا فَعَلَيْهِ بِالجِهَادِ؛ فَإِنَّ الَّذِينَ يَتَعَصَّبُونَ لِلقَبَائِلِ وَغَيْرِ القَبَائِلِ ـ مِثْلَ قَيْسٍ وَيُمَنٍّ وَهِلَالٍ وَأَسَدٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ ـ كُلُّ هَؤُلَاءِ إِذَا قُتِلُوا فَإِنَّ القَاتِلَ وَالمَقْتُولَ فِي النَّارِ كَذَلِكَ صَحَّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**إِذَا التَقَى المُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَالقَاتِلُ وَالمَقْتُولُ فِي النَّارِ**. قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ هَذَا القَاتِلُ فَمَا بَالُ المَقْتُولِ؟ قَالَ: **إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ أَخِيهِ**». أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ.

وَقَالَ ﷺ: «**مَنْ قُتِلَ تَحْتَ رَايَةٍ عِمِّيَّةٍ: يَغْضَبُ لِعَصَبِيَّةٍ وَيَدْعُو لِعَصَبِيَّةٍ، فَهُوَ فِي النَّارِ**». رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وَقَالَ ﷺ: «**مَنْ تَعَزَّى بِعَزَاءِ أَهْلِ الجَاهِلِيَّةِ فَأَعِضُّوهُ بِهَنِّ أَبِيهِ وَلَا تَكْنُوا**»، فَسَمِعَ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ رَجُلًا يَقُولُ: يَا لِفُلَانٍ، فَقَالَ: اعْضَضْ أَيْرَ أَبِيك، فَقَالَ: يَا أَبَا المُنْذِرِ؛ مَا كُنْتَ فَاحِشًا، فَقَالَ: بِهَذَا أَمَرَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ. رَوَاهُ أَحْمَد فِي مُسْنَدِهِ.

وَمَعْنَى قَوْلِهِ: «**مَنْ تَعَزَّى بِعَزَاءِ الجَاهِلِيَّةِ**» يَعْنِي: يَعْتَزِي بِعِزْوَاتِهِمْ وَهِيَ الانْتِسَابُ إِلَيْهِمْ فِي الدَّعْوَةِ مِثْلَ قَوْلِهِ: يَا لِقَيْسٍ يَا ليمن وَيَا لِهِلَالٍ وَيَا لِأَسَدٍ، فَمَنْ تَعَصَّبَ لِأَهْلِ بَلْدَتِهِ أَوْ مَذْهَبِهِ أَوْ طَرِيقَتِهِ أَوْ قَرَابَتِهِ أَوْ لِأَصْدِقَائِهِ دُونَ غَيْرِهِمْ كَانَتْ فِيهِ شُعْبَةٌ مِنَ الجَاهِلِيَّةِ حَتَّى يَكُونَ المُؤْمِنُونَ كَمَا أَمَرَهُمُ اللهُ تَعَالَى مُعْتَصِمِينَ بِحَبْلِهِ وَكِتَابِهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ، فَإِنَّ كِتَابَهُمْ وَاحِدٌ، وَدِينَهُمْ وَاحِدٌ، وَنَبِيَّهُمْ وَاحِدٌ، وَرَبَّهُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الحَمْدُ فِي الأُولَى وَالآخِرَةِ وَلَهُ الحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١٠٥﴾ يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ﴾ [آل عمران].

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ﭬ: تَبْيَضُّ وُجُوهُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ، وَتَسْوَدُّ وُجُوهُ أَهْلِ الفُرْقَةِ وَالبِدْعَةِ.

فَاللهَ، اللهَ، عَلَيْكُمْ بِالجَمَاعَةِ والائتلاف عَلَى طَاعَةِ اللهِ وَرَسُولِهِ وَالجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ؛ يَجْمَعِ اللهُ قُلُوبَكُمْ وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَحْصُل لَكُمْ خَيْرُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ.

أَعَانَنَا اللهُ وَإِيَّاكُمْ عَلَى طَاعَتِهِ وَعِبَادَتِهِ وَصَرَفَ عَنَّا وَعَنْكُمْ سَبِيلَ مَعْصِيَتِهِ، وَآتَانَا وَإِيَّاكُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَوَقَانَا عَذَابَ النَّارِ، وَجَعَلَنَا وَإِيَّاكُمْ مِمَّنْ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُ جَنَّاتِ النَّعِيمِ، إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَهُوَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ الوَكِيلُ.

وَالحَمْدُ للهِ وَحْدَهُ، وَصَلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدِنَا وَنَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ.

وَقَالَ قَدَّسَ اللهُ رُوحَهُ(١):

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِلَى مَنْ يَصِلُ إِلَيْهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ.

سَلَامٌ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ؛ فَإِنَّا نَحْمَدُ إِلَيْكُمْ اللهَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَهُوَ لِلْحَمْدِ أَهْلٌ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

وَنَسْأَلُهُ أَنْ يُصَلِّيَ عَلَى صَفْوَتِهِ مِنْ خَلِيقَتِهِ وَخِيَرَتِهِ مِنْ بَرِيَّتِهِ مُحَمَّدٍ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا.

أَمَّا بَعْدُ: فَقَدْ صَدَقَ اللهُ وَعْدَهُ وَنَصَرَ عَبْدَهُ وَأَعَزَّ جُنْدَهُ وَهَزَمَ الأَحْزَابَ وَحْدَهُ ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾ [الأحزاب]، وَاللهُ تَعَالَى يُحَقِّقُ لَنَا التَّمَامَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾ [الأحزاب].

فَإِنَّ هَذِهِ الْفِتْنَةَ الَّتِي ابْتُلِيَ بِهَا الْمُسْلِمُونَ مَعَ هَذَا الْعَدُوِّ الْمُفْسِدِ الْخَارِجِ عَنْ شَرِيعَةِ الإِسْلَامِ: قَدْ جَرَى فِيهَا شَبِيهٌ بِمَا جَرَى لِلْمُسْلِمِينَ مَعَ عَدُوِّهِمْ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي الْمَغَازِي الَّتِي أَنْزَلَ اللهُ فِيهَا كُتُبَهُ وَابْتَلَى بِهَا نَبِيَّهُ وَالْمُؤْمِنِينَ: مِمَّا هُوَ أُسْوَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ؛ فَإِنَّ نُصُوصَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ اللَّذَيْنِ هُمَا دَعْوَةُ مُحَمَّدٍ ﷺ يَتَنَاوَلَانِ عُمُومَ الْخَلْقِ بِالْعُمُومِ اللَّفْظِيِّ وَالْمَعْنَوِيِّ أَوْ بِالْعُمُومِ الْمَعْنَوِيِّ.

وَعُهُودُ اللهِ فِي كِتَابِهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ تَنَالُ آخِرَ هَذِهِ الأُمَّةِ كَمَا نَالَتْ أَوَّلَهَا، وَإِنَّمَا قَصَّ اللهُ عَلَيْنَا قَصَصَ مَنْ قَبْلَنَا مِنَ الأُمَمِ لِتَكُونَ عِبْرَةً لَنَا، فَنُشَبِّهُ حَالَنَا بِحَالِهِمْ وَنَقِيسُ أَوَاخِرَ الأُمَمِ بِأَوَائِلِهَا، فَيَكُونُ لِلْمُؤْمِنِ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ شَبَهٌ بِمَا كَانَ لِلْمُؤْمِنِ مِنَ الْمُتَقَدِّمِينَ، وَيَكُونُ لِلْكَافِرِ وَالْمُنَافِقِ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ شَبَهٌ بِمَا كَانَ لِلْكَافِرِ وَالْمُنَافِقِ مِنَ الْمُتَقَدِّمِينَ كَمَا قَالَ تَعَالَى لَـمَّا قَصَّ قِصَّةَ يُوسُفَ ﵇ مُفَصَّلَةً وَأَجْمَلَ قَصَصَ الأَنْبِيَاءِ، ثُمَّ قَالَ: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثًا﴾ [يوسف: ١١١]، أَيْ هَذِهِ الْقَصَصُ الْمَذْكُورَةُ فِي الْكِتَابِ لَيْسَتْ بِمَنْزِلَةِ مَا يُفْتَرَى مِنَ الْقَصَصِ الْمَكْذُوبَةِ كَنَحْوِ مَا يُذْكَرُ فِي الْحُرُوبِ مِنَ السِّيَرِ الْمَكْذُوبَةِ.

وَقَالَ تَعَالَى لَـمَّا ذَكَرَ قِصَّةَ فِرْعَوْنَ: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْآخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ [النازعات].

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ٢٨ / ٢٣٤-٢٥٦ ط دار الوفاء، وص ٤٢٤ وما بعدها من الطبعات الأخرى.

وَقَالَ فِي سِيرَةِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ مَعَ أَعْدَائِهِ بِبَدْرٍ وَغَيْرِهَا: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾﴾ [آل عمران].

وَقَالَ تَعَالَى فِي مُحَاصَرَتِهِ لِبَنِي النَّضِيرِ: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾﴾ [الحشر].

فَأَمَرَنَا أَنْ نَعْتَبِرَ بِأَحْوَالِ الْمُتَقَدِّمِينَ عَلَيْنَا مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَمِمَّنْ قَبْلَهَا مِنَ الْأُمَمِ.

وَذَكَرَ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ: أَنَّ سُنَّتَهُ فِي ذَلِكَ سُنَّةٌ مُطَّرِدَةٌ وَعَادَتَهُ مُسْتَمِرَّةٌ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِي ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ [الأحزاب].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفتح].

وَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّ دَأْبَ الكَافِرِينَ مِنَ الْمُسْتَأْخِرِينَ كَدَأْبِ الكَافِرِينَ مِنَ الْمُسْتَقْدِمِينَ.

فَيَنْبَغِي لِلْعُقَلَاءِ أَنْ يَعْتَبِرُوا بِسُنَّةِ اللهِ وَأَيَّامِهِ فِي عِبَادِهِ، وَدَأْبِ الْأُمَمِ وَعَادَاتِهِمْ لَا سِيَّمَا فِي مِثْلِ هَذِهِ الحَادِثَةِ العَظِيمَةِ الَّتِي طَبَّقَ الخَافِقَيْنِ خَبَرُهَا، وَاسْتَطَارَ فِي جَمِيعِ دِيَارِ الإِسْلَامِ شَرَرُهَا، وَأَطْلَعَ فِيهَا النِّفَاقُ نَاصِيَةَ رَأْسِهِ، وَكَشَّرَ فِيهَا الكُفْرُ عَنْ أَنْيَابِهِ وَأَضْرَاسِهِ، وَكَادَ فِيهِ عَمُودُ الكِتَابِ أَنْ يُجْتَثَّ وَيُخْتَرَمَ، وَحَبْلُ الإِيمَانِ أَنْ يَنْقَطِعَ وَيَصْطَلِمَ، وَعُقْرُ دَارِ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَحِلَّ بِهَا البَوَارُ، وَأَنْ يَزُولَ هَذَا الدِّينُ بِاسْتِيلَاءِ الفَجَرَةِ التَّتَارِ، وَظَنَّ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنَّ مَا وَعَدَهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا، وَأَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ حِزْبُ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِهِمْ، وَظَنُّوا ظَنَّ السَّوْءِ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا، وَنَزَلَتْ فِتْنَةٌ تَرَكَتِ الحَلِيمَ فِيهَا حَيْرَانَ، وَأَنْزَلَتِ الرَّجُلَ الصَّاحِيَ مَنْزِلَةَ السَّكْرَانِ، وَتَرَكَتِ الرَّجُلَ اللَّبِيبَ لِكَثْرَةِ الوَسْوَاسِ لَيْسَ بِالنَّائِمِ وَلَا اليَقْظَانِ، وَتَنَاكَرَتْ فِيهَا قُلُوبُ المَعَارِفِ وَالإِخْوَانِ حَتَّى بَقِيَ لِلرَّجُلِ بِنَفْسِهِ شُغْلٌ عَنْ أَنْ يُغِيثَ اللَّهْفَانَ.

وَمَيَّزَ اللهُ فِيهَا أَهْلَ البَصَائِرِ وَالإِيقَانَ مِنَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَوْ نِفَاقٌ وَضَعْفُ إِيمَانٍ، وَرَفَعَ بِهَا أَقْوَامًا إِلَى الدَّرَجَاتِ العَالِيَةِ، كَمَا خَفَضَ بِهَا أَقْوَامًا إِلَى المَنَازِلِ الهَاوِيَةِ، وَكَفَّرَ بِهَا عَنْ آخَرِينَ أَعْمَالَهُمُ الخَاطِئَةَ، وَحَدَثَ مِنْ أَنْوَاعِ البَلْوَى مَا جَعَلَهَا قِيَامَةً مُخْتَصَرَةً مِنَ القِيَامَةِ الكُبْرَى.

فَإِنَّ النَّاسَ تَفَرَّقُوا فِيهَا مَا بَيْنَ شَقِيٍّ وَسَعِيدٍ، كَمَا يَتَفَرَّقُونَ كَذَلِكَ فِي الْيَوْمِ الْمَوْعُودِ، وَفَرَّ الرَّجُلُ فِيهَا مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ؛ إِذْ كَانَ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ شَأْنٌ يُغْنِيهِ.

وَكَانَ مِنَ النَّاسِ مَنْ أَقْصَى هِمَّتِهِ النَّجَاةُ بِنَفْسِهِ لَا يَلْوِي عَلَى مَالِهِ وَلَا وَلَدِهِ وَلَا عُرْسِهِ، كَمَا أَنَّ مِنْهُمْ مَنْ فِيهِ قُوَّةٌ عَلَى تَخْلِيصِ الأَهْلِ وَالْمَالِ.

وَآخر فِيهِ زِيَادَةُ مَعُونَةٍ لِمَنْ هُوَ مِنْهُ بِبَالٍ.

وَآخَرُ مَنْزِلَتُهُ مَنْزِلَةُ الشَّفِيعِ الْمُطَاعِ.

وَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللهِ فِي الْمَنْفَعَةِ وَالدِّفَاعِ، وَلَمْ تَنْفَعْ الْمَنْفَعَةُ الْخَالِصَةُ مِنَ الشَّكْوَى إِلَّا الإِيمَانَ وَالْعَمَلَ الصَّالِحَ وَالْبِرَّ وَالتَّقْوَى، وَبُلِيَتْ فِيهَا السَّرَائِرُ، وَظَهَرَتْ الْخَبَايَا الَّتِي كَانَتْ تُكِنُّهَا الضَّمَائِرُ، وَتَبَيَّنَ أَنَّ الْبَهْرَجَ مِنَ الأَقْوَالِ وَالأَعْمَالِ يَخُونُ صَاحِبَهُ أَحْوَجَ مَا كَانَ إِلَيْهِ فِي الْمَآلِ، وَذَمَّ سَادَتَهُ وَكُبَرَاءَهُ مَنْ أَطَاعَهُمْ فَأَضَلُّوهُ السَّبِيلَا، كَمَا حَمِدَ رَبَّهُ مَنْ صَدَقَ فِي إِيمَانِهِ فَاتَّخَذَ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا، وَبَانَ صِدْقُ مَا جَاءَتْ بِهِ الآثَارُ النَّبَوِيَّةُ مِنَ الإِخْبَارِ بِمَا يَكُونُ، وَوَاطَأَتْهَا قُلُوبُ الَّذِينَ هُمْ فِي هَذِهِ الأُمَّةِ مُحَدَّثُونَ كَمَا تَوَاطَأَتْ عَلَيْهِ الْمُبَشِّرَاتُ الَّتِي أُرِيهَا الْمُؤْمِنُونَ وَتَبَيَّنَ فِيهَا الطَّائِفَةُ الْمَنْصُورَةُ الظَّاهِرَةُ عَلَى الدِّينِ الَّذِينَ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ وَلَا مَنْ خَذَلَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، حَيْثُ تَحَزَّبَتْ النَّاسُ ثَلَاثَةَ أَحْزَابٍ:

حِزْبٌ مُجْتَهِدٌ فِي نَصْرِ الدِّينِ، وَآخَرُ خَاذِلٌ لَهُ، وَآخَرُ خَارِجٌ عَنْ شَرِيعَةِ الإِسْلَامِ.

وَانْقَسَمَ النَّاسُ مَا بَيْنَ مَأْجُورٍ وَمَعْذُورٍ، وَآخَرُ قَدْ غَرَّهُ بِاللهِ الْغَرُورُ، وَكَانَ هَذَا الامْتِحَانُ تَمْيِيزًا مِنَ اللهِ وَتَقْسِيمًا: ﴿لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾﴾ [الأحزاب].

وَوَجْهُ الاعْتِبَارِ فِي هَذِهِ الْحَادِثَةِ الْعَظِيمَةِ: أَنَّ اللهَ تَعَالَى بَعَثَ مُحَمَّدًا ﷺ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ، وَشَرَعَ لَهُ الْجِهَادَ إِبَاحَةً لَهُ أَوَّلًا ثُمَّ إِيجَابًا لَهُ ثَانِيًا لَـمَّا هَاجَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ وَصَارَ لَهُ فِيهَا أَنْصَارٌ يَنْصُرُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ، فَغَزَا بِنَفْسِهِ ﷺ مُدَّةَ مَقَامِهِ بِدَارِ الْهِجْرَةِ وَهُوَ نَحْوُ عَشْرِ سِنِينَ: بِضْعًا وَعِشْرِينَ غَزْوَةً، أَوَّلُهَا غَزْوَةُ بَدْرٍ[1] وَآخِرُهَا غَزْوَةُ تَبُوكَ، أَنْزَلَ اللهُ فِي أَوَّلِ مَغَازِيهِ «سُورَةَ الأَنْفَالِ» وَفِي آخِرِهَا «سُورَةَ بَرَاءَةَ».

وَجَمَعَ بَيْنَهُمَا فِي الْمُصْحَفِ؛ لِتَشَابُهِ أَوَّلِ الأَمْرِ وَآخِرِهِ كَمَا قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عُثْمَانُ ﷺ لَـمَّا سُئِلَ عَنِ الْقِرَانِ بَيْنَ السُّورَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ فَصْلٍ بِالْبَسْمَلَةِ.

وَكَانَ الْقِتَالُ مِنْهَا فِي تِسْعِ غَزَوَاتٍ. فَأَوَّلُ غَزَوَاتِ الْقِتَالِ: بَدْرٌ وَآخِرُهَا حُنَيْنٌ وَالطَّائِفُ. وَأَنْزَلَ اللهُ فِيهَا مَلَائِكَتَهُ كَمَا أَخْبَرَ بِهِ الْقُرْآنُ وَلِهَذَا صَارَ النَّاسُ يَجْمَعُونَ بَيْنَهُمَا فِي الْقَوْلِ وَإِنْ تَبَاعَدَ مَا بَيْنَ الْغَزْوَتَيْنِ مَكَانًا

(١) بحسب أولية الغزوات الكبرى، وإلا فأول غزواته ﷺ هي غزوة الأبواء (ودان) ١٢ صفر ٢ هـ.

وَزَمَانًا؛ فَإِنَّ بَدْرًا كَانَتْ فِي رَمَضَانَ فِي السَّنَةِ الثَّانِيَةِ مِنَ الهِجْرَةِ مَا بَيْنَ المَدِينَةِ وَمَكَّةَ شَامِيَّ مَكَّةَ، وَغَزْوَةُ حُنَيْنَ فِي آخِرِ شَوَّالَ مِنَ السَّنَةِ الثَّامِنَةِ، وحُنَيْنٌ وَادٍ قَرِيبٌ مِنَ الطَّائِفِ شَرْقِيَّ مَكَّةَ، ثُمَّ قَسَمَ النَّبِيُّ ﷺ غَنَائِمَهَا بِالجِعْرَانَةِ وَاعْتَمَرَ مِنَ الجِعْرَانَةِ، ثُمَّ حَاصَرَ الطَّائِفَ، فَلَمْ يُقَاتِلهُ أَهْلُ الطَّائِفِ زَحْفًا وَصُفُوفًا وَإِنَّمَا قَاتَلُوهُ مِنْ وَرَاءِ جِدَارٍ، فَآخِرُ غَزْوَةٍ كَانَ فِيهَا القِتَالُ زَحْفًا وَاصْطِفَافًا: هِيَ غَزْوَةُ حُنَيْنَ.

وَكَانَتْ غَزْوَةُ بَدْرٍ أَوَّلَ غَزْوَةٍ ظَهَرَ فِيهَا المُسْلِمُونَ عَلَى صَنَادِيدِ الكُفَّارِ، وَقَتَلَ اللهُ أَشْرَافَهُمْ وَأَسَرَ رُؤوسَهُمْ مَعَ قِلَّةِ المُسْلِمِينَ وَضَعْفِهِمْ؛ فَإِنَّهُمْ كَانُوا ثَلَاثَمِائَةٍ وَبِضْعَةَ عَشَرَ لَيْسَ مَعَهُمْ إِلَّا فَرَسَانِ وَكَانَ يَعْتَقِبُ الاِثْنَانِ وَالثَّلَاثَةُ عَلَى البَعِيرِ الوَاحِدِ، وَكَانَ عَدُوُّهُمْ بِقَدْرِهِمْ أَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثِ مَرَّاتٍ فِي قُوَّةٍ وَعِدَّةٍ وَهَيْئَةٍ وَخُيَلَاءَ.

فَلَـمَّا كَانَ مِنَ العَامِ المُقْبِلِ غَزَا الكُفَّارُ المَدِينَةَ وَفِيهَا النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ فِي نَحْوٍ مِنْ رُبُعِ الكُفَّارِ وَتَرَكُوا عِيَالَهُمْ بِالمَدِينَةِ، ثُمَّ يَنْقُلُوهُمْ إِلَى مَوْضِعٍ آخَرَ.

وَكَانَتْ أَوَّلَا الكَرَّةُ لِلمُسْلِمِينَ عَلَيْهِمْ ثُمَّ صَارَتْ لِلكُفَّارِ، فَانْهَزَمَ عَامَّةُ عَسْكَرِ المُسْلِمِينَ إِلَّا نَفَرًا قَلِيلًا حَوْلَ النَّبِيِّ ﷺ مِنْهُمْ مَنْ قُتِلَ وَمِنْهُمْ مَنْ جُرِحَ، وَحَرَصُوا عَلَى قَتْلِ النَّبِيِّ ﷺ حَتَّى كَسَرُوا رَبَاعِيَتَهُ وَشَجُّوا جَبِينَهُ وَهَشَّمُوا البَيْضَةَ عَلَى رَأْسِهِ، وَأَنْزَلَ اللهُ فِيهَا شَطْرًا مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَـٰعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ [آل عمران: ١٢١] وَقَالَ فِيهَا: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾﴾ [آل عمران].

وَقَالَ فِيهَا: ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَـٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾﴾ [آل عمران].

وَقَالَ فِيهَا: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَـٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾﴾ [آل عمران].

وَكَانَ الشَّيْطَانُ قَدْ نَعَقَ فِي النَّاسِ: أَنَّ مُحَمَّدًا قَدْ قُتِلَ، فَمِنْهُمْ مَنْ تَزَلْزَلَ لِذَلِكَ فَهَرَبَ، وَمِنْهُمْ مَنْ ثَبَتَ فَقَاتَلَ، فَقَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [آل عمران].

وَكَانَ هَذَا مَثَلَ حَالِ المُسْلِمِينَ لَـمَّا انْكَسَرُوا فِي العَامِ المَاضِي، وَكَانَتْ هَزِيمَةُ المُسْلِمِينَ فِي العَامِ المَاضِي بِذُنُوبٍ ظَاهِرَةٍ وَخَطَايَا وَاضِحَةٍ: مِنْ فَسَادِ النِّيَّاتِ وَالفَخْرِ وَالخُيَلَاءِ وَالظُّلْمِ وَالفَوَاحِشِ وَالإِعْرَاضِ عَنْ

حُكْمِ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَعَنِ المُحَافَظَةِ عَلَى فَرَائِضِ اللهِ وَالبَغْيِ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ المُسْلِمِينَ الَّذِينَ بِأَرْضِ الجَزِيرَةِ وَالرُّومِ، وَكَانَ عَدُوُّهُمْ فِي أَوَّلِ الأَمْرِ رَاضِيًا مِنْهُمْ بِالمُوَادَعَةِ وَالمُسَالَمَةِ شَارِعًا فِي الدُّخُولِ فِي الإِسْلَامِ.

وَكَانَ مُبْتَدِئًا فِي الإِيمَانِ وَالأَمَانِ وَكَانُوا هُمْ قَدْ أَعْرَضُوا عَنْ كَثِيرٍ مِنْ أَحْكَامِ الإِيمَانِ، فَكَانَ مِنْ حِكْمَةِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ بِالمُؤْمِنِينَ أَنْ ابْتَلَاهُمْ بِمَا ابْتَلَاهُمْ بِهِ لِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيُنِيبُوا إِلَى رَبِّهِمْ وَلِيَظْهَرَ مِنْ عَدُوِّهِمْ مَا ظَهَرَ مِنْهُ مِنَ البَغْيِ وَالمَكْرِ وَالنَّكْثِ وَالخُرُوجِ عَنْ شَرَائِعِ الإِسْلَامِ، فَيَقُومُ بِهِمْ مَا يَسْتَوْجِبُونَ بِهِ النَّصْرَ وَبِعَدُوِّهِمْ مَا يَسْتَوْجِبُ بِهِ الانْتِقَامَ، فَقَدْ كَانَ فِي نُفُوسِ كَثِيرٍ مِنْ مُقَاتِلَةِ المُسْلِمِينَ وَرَعِيَّتِهِمْ مِنَ الشَّرِّ الكَبِيرِ مَا لَوْ يَقْتَرِنُ بِهِ ظَفَرٌ بِعَدُوِّهِمْ - الَّذِي هُوَ عَلَى الحَالِ المَذْكُورَةِ - لَأَوْجَبَ لَهُمْ ذَلِكَ مِنْ فَسَادِ الدِّينِ وَالدُّنْيَا مَا لَا يُوصَفُ، كَمَا أَنَّ نَصْرَ اللهِ لِلْمُسْلِمِينَ يَوْمَ بَدْرٍ كَانَ رَحْمَةً وَنِعْمَةً وَهَزِيمَتُهُمْ يَوْمَ أُحُدٍ كَانَ نِعْمَةً وَرَحْمَةً عَلَى المُؤْمِنِينَ؛ فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**لَا يَقْضِي اللهُ لِلْمُؤْمِنِ قَضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ فَشَكَرَ اللهَ كَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ فَصَبَرَ كَانَ خَيْرًا لَهُ**».

فَلَمَّا كَانَتْ حَادِثَةُ المُسْلِمِينَ عَامَ أَوَّلٍ شَبِيهَةً بِأُحُدٍ، وَكَانَ بَعْدَ أُحُدٍ بِأَكْثَرَ مِنْ سَنَةٍ - وَقِيلَ بِسَنَتَيْنِ - قَدْ ابْتُلِيَ المُسْلِمُونَ عَامَ الخَنْدَقِ، كَذَلِكَ فِي هَذَا العَامِ ابْتُلِيَ المُؤْمِنُونَ بِعَدُوِّهِمْ كَنَحْوِ مَا ابْتُلِيَ المُسْلِمُونَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ عَامَ الخَنْدَقِ وَهِيَ غَزْوَةُ الأَحْزَابِ الَّتِي أَنْزَلَ اللهُ فِيهَا «سُورَةَ الأَحْزَابِ»، وَهِيَ سُورَةٌ تَضَمَّنَتْ ذِكْرَ هَذِهِ الغُزَاةِ الَّتِي نَصَرَ اللهُ فِيهَا عَبْدَهُ ﷺ وَأَعَزَّ فِيهَا جُنْدَهُ المُؤْمِنِينَ وَهَزَمَ الأَحْزَابَ - الَّذِينَ تَحَزَّبُوا عَلَيْهِ - وَحْدَهُ بِغَيْرِ قِتَالٍ؛ بَلْ بِثَبَاتِ المُؤْمِنِينَ بِإِزَاءِ عَدُوِّهِمْ، ذَكَرَ فِيهَا خَصَائِصَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَحُقُوقَهُ وَحُرْمَتَهُ وَحُرْمَةَ أَهْلِ بَيْتِهِ لَمَّا كَانَ هُوَ القَلْبُ الَّذِي نَصَرَهُ اللهُ فِيهَا بِغَيْرِ قِتَالٍ، كَمَا كَانَ ذَلِكَ فِي غَزْوَتِنَا هَذِهِ سَوَاءً.

وَظَهَرَ فِيهَا سِرُّ تَأْيِيدِ الدِّينِ كَمَا ظَهَرَ فِي غَزْوَةِ الخَنْدَقِ.

وَانْقَسَمَ النَّاسُ فِيهَا كَانْقِسَامِهِمْ عَامَ الخَنْدَقِ.

وَذَلِكَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى مُنْذُ بَعَثَ مُحَمَّدًا ﷺ وَأَعَزَّهُ بِالهِجْرَةِ وَالنُّصْرَةِ صَارَ النَّاسُ ثَلَاثَةَ أَقْسَامٍ:

قِسْمًا مُؤْمِنِينَ: وَهُمُ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا.

وَقِسْمًا كُفَّارًا: وَهُمُ الَّذِينَ أَظْهَرُوا الكُفْرَ بِهِ.

وَقِسْمًا مُنَافِقِينَ: وَهُمُ الَّذِينَ آمَنُوا ظَاهِرًا لَا بَاطِنًا.

وَلِهَذَا افْتَتَحَ «سُورَةَ البَقَرَةِ» بِأَرْبَعِ آيَاتٍ فِي صِفَةِ المُؤْمِنِينَ، وَآيَتَيْنِ فِي صِفَةِ الكَافِرِينَ، وَثَلَاثَ عَشْرَةَ آيَةً فِي صِفَةِ المُنَافِقِينَ، وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الإِيمَانِ وَالكُفْرِ وَالنِّفَاقِ لَهُ دَعَائِمُ وَشُعَبٌ.

كَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ دَلَائِلُ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَكَمَا فَسَّرَهُ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ﷺ فِي الحَدِيثِ المَأْثُورِ عَنْهُ فِي الإِيمَانِ وَدَعَائِمِهِ وَشُعَبِهِ.

فَمِنَ النِّفَاقِ مَا هُوَ أَكْبَرُ وَيَكُونُ صَاحِبُهُ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنْ النَّارِ؛ كَنِفَاقِ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي وَغَيْرِهِ؛ بِأَنْ يُظْهِرَ تَكْذِيبَ الرَّسُولِ ﷺ أَوْ جُحُودَ بَعْضِ مَا جَاءَ بِهِ أَوْ بُغْضَهُ أَوْ عَدَمَ اعْتِقَادِ وُجُوبِ اتِّبَاعِهِ أَوْ المَسَرَّةَ بِانْخِفَاضِ دِينِهِ أَوْ المُسَاءَةَ بِظُهُورِ دِينِهِ.

وَنَحْوِ ذَلِكَ: مِمَّا لَا يَكُونُ صَاحِبُهُ إِلَّا عدوًّا لله وَرَسُولِهِ. وَهَذَا القَدْرُ كَانَ مَوْجُودًا فِي زَمَنِ رَسُولِ الله ﷺ وَمَا زَالَ بَعْدَهُ؛ بَل هُوَ بَعْدَهُ أَكْثَرُ مِنْهُ عَلَى عَهْدِهِ؛ لِكَوْنِ مُوجِبَاتِ الإِيمَانِ عَلَى عَهْدِهِ أَقْوَى، فَإِذَا كَانَتْ مَعَ قُوَّتِهَا وَكَانَ النِّفَاقُ مَعَهَا مَوْجُودًا فَوُجُودُهُ فِيمَا دُونَ ذَلِكَ أَوْلَى، وَكَمَا أَنَّهُ ﷺ كَانَ يَعْلَمُ بَعْضَ المُنَافِقِينَ وَلَا يَعْلَمُ بَعْضَهُمْ كَمَا بَيَّنَهُ قَوْلُهُ: ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ﴾ [التوبة: ١٠١] كَذَلِكَ خُلَفَاؤُهُ بَعْدَهُ وَوَرَثَتُهُ: قَدْ يَعْلَمُونَ بَعْضَ المُنَافِقِينَ وَلَا يَعْلَمُونَ بَعْضَهُمْ.

وَفِي المُنْتَسِبِينَ إِلَى الإِسْلَامِ مِنْ عَامَّةِ الطَّوَائِفِ مُنَافِقُونَ كَثِيرُونَ فِي الخَاصَّةِ وَالعَامَّةِ، وَيُسَمَّوْنَ «الزَّنَادِقَةَ».

وَقَدْ اخْتَلَفَ العُلَمَاءُ فِي قَبُولِ تَوْبَتِهِمْ فِي الظَّاهِرِ لِكَوْنِ ذَلِكَ لَا يُعْلَمُ إِذْ هُمْ دَائِمًا يُظْهِرُونَ الإِسْلَامَ.

وَهَؤُلَاءِ يَكْثُرُونَ فِي المُتَفَلْسِفَةِ: مِنَ المُنَجِّمِينَ وَنَحْوِهِمْ، ثُمَّ فِي الأَطِبَّاءِ، ثُمَّ فِي الكُتَّابِ أَقَلُّ مِنْ ذَلِكَ، وَيُوجَدُونَ فِي المُتَصَوِّفَةِ وَالمُتَفَقِّهَةِ وَفِي المُقَاتِلَةِ وَالأُمَرَاءِ وَفِي العَامَّةِ أَيْضًا، وَلَكِنْ يُوجَدُونَ كَثِيرًا فِي نِحَلِ أَهْلِ البِدَعِ؛ لَا سِيَّمَا الرَّافِضَةُ، فَفِيهِمْ مِنَ الزَّنَادِقَةِ وَالمُنَافِقِينَ مَا لَيْسَ فِي أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ النِّحَلِ؛ وَلِهَذَا كَانَتْ الخُرَّمِيَّةُ وَالبَاطِنِيَّةُ وَالقَرَامِطَةُ والإِسْمَاعِيلِيَّةُ وَالنُّصَيْرِيَّةُ وَنَحْوُهُمْ مِنَ المُنَافِقِينَ الزَّنَادِقَةِ: مُنْتَسِبَةٍ إِلَى الرَّافِضَةِ.

وَهَؤُلَاءِ المُنَافِقُونَ فِي هَذِهِ الأَوْقَاتِ لِكَثِيرٍ مِنْهُمْ مَيْلٌ إِلَى دَوْلَةِ هَؤُلَاءِ التَّتَارِ؛ لِكَوْنِهِمْ لَا يُلْزِمُونَهُمْ شَرِيعَةَ الإِسْلَامِ؛ بَل يَتْرُكُونَهُمْ وَمَا هُمْ عَلَيْهِ، وَبَعْضُهُمْ إِنَّمَا يَنْفِرُونَ عَنِ التَّتَارِ لِفَسَادِ سِيرَتِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَاسْتِيلَائِهِمْ عَلَى الأَمْوَالِ وَاجْتِرَائِهِمْ عَلَى الدِّمَاءِ وَالسَّبْيِ؛ لَا لِأَجْلِ الدِّينِ. فَهَذَا ضَرْبُ النِّفَاقِ الأَكْبَرِ.

وَأَمَّا النِّفَاقُ الأَصْغَرُ: فَهُوَ النِّفَاقُ فِي الأَعْمَالِ وَنَحْوِهَا: مِثْلَ أَنْ يَكْذِبَ إِذَا حَدَّثَ وَيُخْلِفَ إِذَا وَعَدَ وَيَخُونَ إِذَا اُؤْتُمِنَ أَوْ يَفْجُرَ إِذَا خَاصَمَ، فَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: **«آيَةُ المُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اُؤْتُمِنَ خَانَ»**، وَفِي رِوَايَةٍ صَحِيحَةٍ: **«وَإِنْ صَلَّى وَصَامَ، وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ»**، وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: **«أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ»**.

وَمِنْ هَذَا البَابِ: الإِعْرَاضُ عَنِ الجِهَادِ، فَإِنَّهُ مِنْ خِصَالِ المُنَافِقِينَ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ، وَلَمْ يُحَدِّثْ نَفْسَهُ بِالغَزْوِ مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنْ نِفَاقٍ»**. رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وَقَدْ أَنْزَلَ اللهُ «سُورَةَ بَرَاءَةَ» الَّتِي تُسَمَّى الفَاضِحَةَ؛ لِأَنَّهَا فَضَحَتِ المُنَافِقِينَ. أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﵄ قَالَ: هِيَ الفَاضِحَةُ مَا زَالَتْ تَنْزِلُ (وَمِنْهُمْ وَمِنْهُمْ) حَتَّى ظَنُّوا أَنْ لَا يَبْقَى أَحَدٌ إِلَّا ذُكِرَ فِيهَا.

وَعَنِ المِقْدَادِ بْنِ الأَسْوَدِ ﵁ قَالَ: هِيَ «سُورَةُ البُحُوثِ» لِأَنَّهَا بَحَثَتْ عَنْ سَرَائِرِ المُنَافِقِينَ.

وَعَنْ قتادة قَالَ: هِيَ المُثِيرَةُ؛ لِأَنَّهَا أَثَارَتْ مَخَازِي المُنَافِقِينَ.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﵄ قَالَ: هِيَ المُبَعْثِرَةُ. وَالبَعْثَرَةُ وَالإِثَارَةُ مُتَقَارِبَانِ.

وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ ﵄: أَنَّهَا المُقَشْقِشَةُ؛ لِأَنَّهَا تُبْرِئُ مِنْ مَرَضِ النِّفَاقِ. يُقَالُ: تَقَشْقَشَ المَرِيضُ إِذَا بَرَأَ، قَالَ الأَصْمَعِيُّ: وَكَانَ يُقَالُ لِسُورَتَيْ الإِخْلَاصِ: المُقَشْقِشَتَانِ؛ لِأَنَّهُمَا يُبَرِّئَانِ مِنَ النِّفَاقِ.

وَهَذِهِ السُّورَةُ نَزَلَتْ فِي آخِرِ مَغَازِي النَّبِيِّ ﷺ غَزْوَةِ تَبُوكَ عَامَ تِسْعٍ مِنَ الهِجْرَةِ وَقَدْ عَزَّ الإِسْلَامُ وَظَهَرَ، فَكَشَفَ اللهُ فِيهَا أَحْوَالَ المُنَافِقِينَ وَوَصَفَهُمْ فِيهَا بِالجُبْنِ وَتَرْكِ الجِهَادِ، وَوَصَفَهُمْ بِالبُخْلِ عَنِ النَّفَقَةِ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالشُّحِّ عَلَى المَالِ، وَهَذَانِ دَاءَانِ عَظِيمَانِ: الجُبْنُ وَالبُخْلُ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«شَرُّ مَا فِي المَرْءِ: شُحٌّ هَالِعٌ، وَجُبْنٌ خَالِعٌ»**. حَدِيثٌ صَحِيحٌ؛ وَلِهَذَا قَدْ يَكُونَانِ مِنَ الكَبَائِرِ المُوجِبَةِ لِلنَّارِ كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٠].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾﴾ [الأنفال].

وَأَمَّا وَصْفُهُمْ بِالجُبْنِ وَالفَزَعِ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [التوبة].

فَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّهُمْ وَإِنْ حَلَفُوا إِنَّهُمْ مِنَ المُؤْمِنِينَ فَمَا هُمْ مِنْهُمْ؛ وَلَكِنْ يَفْزَعُونَ مِنَ العَدُوِّ، فـ ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا﴾ يَلْجَؤُونَ إِلَيْهِ مِنَ المَعَاقِلِ وَالحُصُونِ الَّتِي يَفِرُّ إِلَيْهَا مَنْ يَتْرُكُ الجِهَادَ أَوْ ﴿مَغَٰرَٰتٍ﴾ وَهِيَ جَمْعُ مَغَارَةٍ، وَمَغَارَاتٌ سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِأَنَّ الدَّاخِلَ يَغُورُ فِيهَا أَيْ يَسْتَتِرُ؛ كَمَا يَغُورُ المَاءُ ﴿أَوْ مُدَّخَلًا﴾ وَهُوَ الَّذِي يَتَكَلَّفُ الدُّخُولَ إِلَيْهِ إِمَّا لِضِيقِ بَابِهِ أَوْ لِغَيْرِ ذَلِكَ، أَيْ مَكَانًا يَدْخُلُونَ إِلَيْهِ، وَلَوْ كَانَ الدُّخُولُ بِكُلْفَةٍ وَمَشَقَّةٍ، ﴿لَّوَلَّوْا۟﴾ عَنِ الجِهَادِ ﴿إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾﴾ أَيْ يُسْرِعُونَ إِسْرَاعًا لَا يَرُدُّهُمْ شَيْءٌ كَالفَرَسِ الجَمُوحِ الَّذِي إِذَا حَمَلَ لَا يَرُدُّهُ اللِّجَامُ.

وَهَذَا وَصْفٌ مُنْطَبِقٌ عَلَى أَقْوَامٍ كَثِيرِينَ فِي حَادِثَتِنَا وَفِيمَا قَبْلَهَا مِنَ الحَوَادِثِ وَبَعْدَهَا.

وَكَذَلِكَ قَالَ فِي سُورَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ: ﴿فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾﴾ [محمد] أَيْ فَبُعْدًا لَهُمْ ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾﴾ [محمد].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحُجُرات] فَحَصَرَ الْمُؤْمِنِينَ فِيمَنْ آمَنَ وَجَاهَدَ.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [التوبة].

فَهَذَا إِخْبَارٌ مِنَ اللهِ بِأَنَّ الْمُؤْمِنَ لَا يَسْتَأْذِنُ الرَّسُولَ ﷺ فِي تَرْكِ الْجِهَادِ؛ وَإِنَّمَا يَسْتَأْذِنُهُ الَّذِي لَا يُؤْمِنُ فَكَيْفَ بِالتَّارِكِ مِنْ غَيْرِ اسْتِئْذَانٍ، وَمَنْ تَدَبَّرَ الْقُرْآنَ وَجَدَ نَظَائِرَ هَذَا مُتَضَافِرَةً عَلَى هَذَا الْمَعْنَى.

وَقَالَ فِي وَصْفِهِمْ بِالشُّحِّ: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [التوبة].

فَهَذِهِ حَالُ مَنْ أَنْفَقَ كَارِهًا فَكَيْفَ بِمَنْ تَرَكَ النَّفَقَةَ رَأْسًا وَقَالَ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [التوبة].

وَقَالَ: ﴿۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [التوبة].

وَقَالَ فِي السُّورَةِ: ﴿۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [التوبة].

فَانْتَظَمَتْ هَذِهِ الْآيَةُ حَالَ مَنْ أَخَذَ الْمَالَ بِغَيْرِ حَقِّهِ أَوْ مَنَعَهُ مِنْ مُسْتَحِقِّهِ مِنْ جَمِيعِ النَّاسِ؛ فَإِنَّ الْأَحْبَارَ هُمُ الْعُلَمَاءُ وَالرُّهْبَانُ هُمُ الْعِبَادُ.

وَقَدْ أَخْبَرَ أَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ - أَيْ يُعْرِضُونَ وَيَمْنَعُونَ، يُقَالُ: صَدَّ عَنِ الْحَقِّ صُدُودًا وَصَدَّ غَيْرَهُ صَدًّا، وَهَذَا يَنْدَرِجُ فِيهِ مَا يُؤْكَلُ بِالْبَاطِلِ: مِنْ وَقْفٍ أَوْ عَطِيَّةٍ عَلَى الدِّينِ كَالصَّلَاةِ وَالنُّذُورِ الَّتِي تُنْذَرُ لِأَهْلِ الدِّينِ وَمِنَ الْأَمْوَالِ الْمُشْتَرَكَةِ كَأَمْوَالِ بَيْتِ الْمَالِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، فَهَذَا فِيمَنْ يَأْكُلُ الْمَالَ بِالْبَاطِلِ بِشُبْهَةِ دِينٍ، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾

فَهَذَا يَنْدَرِجُ فِيهِ مَنْ كَنَزَ الْمَالَ عَنِ النَّفَقَةِ الْوَاجِبَةِ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَالْجِهَادُ أَحَقُّ الْأَعْمَالِ بِاسْمِ سَبِيلِ اللهِ سَوَاءٌ كَانَ مَلِكًا أَوْ مُقَدَّمًا أَوْ غَنِيًّا أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ.

وَإِذَا دَخَلَ فِي هَذَا مَا كُنِزَ مِنَ الْمَالِ الْمَوْرُوثِ وَالْمَكْسُوبِ فَمَا كُنِزَ مِنَ الْأَمْوَالِ الْمُشْتَرَكَةِ الَّتِي يَسْتَحِقُّهَا عُمُومُ الْأُمَّةِ ـ وَمُسْتَحَقُّهَا: مَصَالِحُهُمْ ـ أَوْلَى وَأَحْرَى.

فَصْلٌ: فَإِذَا تَبَيَّنَ بَعْضُ مَعْنَى الْمُؤْمِنِ وَالْمُنَافِقِ، فَإِذَا قَرَأَ الْإِنْسَانُ «سُورَةَ الْأَحْزَابِ» وَعَرَفَ مِنَ الْمَنْقُولَاتِ فِي الْحَدِيثِ وَالتَّفْسِيرِ وَالْفِقْهِ وَالْمَغَازِي: كَيْفَ كَانَتْ صِفَةُ الْوَاقِعَةِ الَّتِي نَزَلَ بِهَا الْقُرْآنُ ثُمَّ اعْتَبَرَ هَذِهِ الْحَادِثَةَ بِتِلْكَ: وَجَدَ مِصْدَاقَ مَا ذَكَرْنَا، وَأَنَّ النَّاسَ انْقَسَمُوا فِي هَذِهِ الْحَادِثَةِ إِلَى الْأَقْسَامِ الثَّلَاثَةِ، كَمَا انْقَسَمُوا فِي تِلْكَ، وَتَبَيَّنَ لَهُ كَثِيرٌ مِنَ الْمُتَشَابِهَاتِ.

افْتَتَحَ اللهُ السُّورَةَ بِقَوْلِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١] وَذَكَرَ فِي أَثْنَائِهَا قَوْلَهُ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [الأحزاب]، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾﴾ [الأحزاب].

فَأَمَرَهُ بِاتِّبَاعِ مَا أَوْحَى إِلَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ ـ الَّتِي هِيَ سُنَّتُهُ ـ وَبِأَنْ يَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ، فَبِالْأُولَى يُحَقِّقُ قَوْلَهُ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، وَبِالثَّانِيَةِ يُحَقِّقُ قَوْلَهُ: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفاتحة]، وَمِثْلُ ذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، وَقَوْلُهُ: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾﴾ [الشورى].

وهذا وَإِنْ كَانَ مَأْمُورًا بِهِ فِي جَمِيعِ الدِّينِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ فِي الْجِهَادِ أَوْكَدُ؛ لِأَنَّهُ يَحْتَاجُ إِلَى أَنْ يُجَاهِدَ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ؛ وَذَلِكَ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِتَأْيِيدٍ قَوِيٍّ مِنَ اللهِ؛ وَلِهَذَا كَانَ الْجِهَادُ سَنَامَ الْعَمَلِ وَانْتَظَمَ سَنَامُ جَمِيعِ الْأَحْوَالِ الشَّرِيفَةِ، فَفِيهِ سَنَامُ الْمَحَبَّةِ كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤].

وَفِيهِ سَنَامُ التَّوَكُّلِ وَسَنَامُ الصَّبْرِ؛ فَإِنَّ الْمُجَاهِدَ أَحْوَجُ النَّاسِ إِلَى الصَّبْرِ وَالتَّوَكُّلِ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [النحل].

وَقَالَ: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ [الأعراف]؛ وَلِهَذَا كَانَ الصَّبْرُ وَالْيَقِينُ ـ اللَّذَيْنِ هُمَا أَصْلُ التَّوَكُّلِ ـ يُوجِبَانِ الْإِمَامَةَ فِي الدِّينِ كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة].

وَلِهَذَا كَانَ الجِهَادُ مُوجِبًا لِلهِدَايَةِ الَّتِي هِيَ مُحِيطَةٌ بِأَبْوَابِ العِلْمِ، كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [العنكبوت]، فَجَعَلَ لِمَنْ جَاهَدَ فِيهِ هِدَايَةَ جَمِيعِ سُبُلِهِ تَعَالَى؛ وَلِهَذَا قَالَ الإِمَامَانِ عَبْدُ اللهِ بْنُ المُبَارَكِ وَأَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ وَغَيْرُهُمَا: إِذَا اخْتَلَفَ النَّاسُ فِي شَيْءٍ فَانْظُرُوا مَاذَا عَلَيْهِ أَهْلُ الثُّغْرِ فَإِنَّ الحَقَّ مَعَهُمْ؛ لِأَنَّ اللهَ يَقُولُ: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾.

وَفِي الجِهَادِ أَيْضًا: حَقِيقَةُ الزُّهْدِ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الدَّارِ الدُّنْيَا.

وَفِيهِ أَيْضًا: حَقِيقَةُ الإِخْلَاصِ، فَإِنَّ الكَلَامَ فِيمَنْ جَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللهِ لَا فِي سَبِيلِ الرِّيَاسَةِ وَلَا فِي سَبِيلِ المَالِ وَلَا فِي سَبِيلِ الحَمِيَّةِ، وَهَذَا لَا يَكُونُ إِلَّا لِمَنْ قَاتَلَ لِيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ للهِ؛ وَلِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ العُلْيَا.

وَأَعْظَمُ مَرَاتِبِ الإِخْلَاصِ: تَسْلِيمُ النَّفْسِ وَالمَالِ لِلمَعْبُودِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿۞ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ۚ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ [التوبة: ١١١] ... وَ(الجَنَّةُ اسْمٌ لِلدَّارِ الَّتِي حَوَتْ كُلَّ نَعِيمٍ)، أَعْلَاهُ النَّظَرُ إِلَى اللهِ إِلَى مَا دُونَ ذَلِكَ مِمَّا تَشْتَهِيهِ الأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ مِمَّا قَدْ نَعْرِفُهُ وَقَدْ لَا نَعْرِفُهُ كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى فِيمَا رَوَاهُ عَنْهُ رَسُولُهُ ﷺ: «**أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ**».

فَقَدْ تَبَيَّنَ بَعْضُ أَسْبَابِ افْتِتَاحِ هَذِهِ السُّورَةِ بِهَذَا، ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى قَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾﴾ [الأحزاب].

كَانَ مُخْتَصَرُ القِصَّةِ: أَنَّ المُسْلِمِينَ تَحَزَّبَ عَلَيْهِمْ عَامَّةُ المُشْرِكِينَ الَّذِينَ حَوْلَهُمْ وَجَاؤُوا بِجُمُوعِهِمْ إِلَى المَدِينَةِ لِيَسْتَأْصِلُوا المُؤْمِنِينَ، فَاجْتَمَعَتْ قُرَيْشٌ وَحُلَفَاؤُهَا مِنْ بَنِي أَسَدٍ وَأَشْجَعَ وَفَزَارَةَ وَغَيْرِهِمْ مِنْ قَبَائِلِ نَجْدٍ، وَاجْتَمَعَتْ أَيْضًا اليَهُودُ: مِنْ قُرَيْظَةَ وَالنَّضِيرِ، فَإِنَّ بَنِي النَّضِيرِ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ قَدْ أَجْلَاهُمْ قَبْلَ ذَلِكَ كَمَا ذَكَرَهُ اللهُ تَعَالَى فِي «سُورَةِ الحَشْرِ».

فَجَاؤُوا فِي الأَحْزَابِ إِلَى قُرَيْظَةَ ـ وَهُم مُعَاهِدُونَ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَمُجَاوِرُونَ لَهُ قَرِيبًا مِنَ المَدِينَةِ ـ فَلَمْ يَزَالُوا بِهِمْ حَتَّى نَقَضَتْ قُرَيْظَةُ العَهْدَ وَدَخَلُوا فِي الأَحْزَابِ، فَاجْتَمَعَتْ هَذِهِ الأَحْزَابُ العَظِيمَةُ وَهُمْ بِقَدْرِ المُسْلِمِينَ مَرَّاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ، فَرَفَعَ النَّبِيُّ ﷺ الذُّرِّيَّةَ مِنَ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ فِي آطَامِ المَدِينَةِ وَهِيَ مِثْلُ الجَوَاسِقِ وَلَمْ يَنْقُلْهُمْ إِلَى مَوَاضِعَ أُخَرَ، وَجَعَلَ ظَهْرَهُمْ إِلَى سَلْعٍ ـ وَهُوَ الجَبَلُ القَرِيبُ مِنَ المَدِينَةِ مِنْ نَاحِيَةِ الغَرْبِ وَالشَّامِ ـ وَجَعَلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ العَدُوِّ خَنْدَقًا، وَالعَدُوُّ قَدْ أَحَاطَ بِهِمْ مِنَ العَالِيَةِ وَالسَّافِلَةِ، وَكَانَ عَدُوًّا شَدِيدَ العَدَاوَةِ لَوْ تَمَكَّنَ مِنَ المُؤْمِنِينَ لَكَانَتْ نِكَايَتُهُ فِيهِمْ أَعْظَمَ النِّكَايَاتِ.

وَفِي هَذِهِ الحَادِثَةِ ـ حروب التتار ـ تَحَزَّبَ هَذَا العَدُوُّ مِنْ مَغُولٍ وَغَيْرِهِمْ مِنْ أَنْوَاعِ التُّرْكِ وَمِنْ فُرْسٍ وَمُسْتَعْرِبَةٍ وَنَحْوِهِمْ مِنْ أَجْنَاسِ المُرْتَدَّةِ وَمِنْ نَصَارَى الأَرْمَنِ وَغَيْرِهِمْ.

وَنَزَلَ هَذَا العَدُوُّ بِجَانِبِ دِيَارِ الْمُسْلِمِينَ وَهُوَ بَيْنَ الإِقْدَامِ وَالإِحْجَامِ مَعَ قِلَّةِ مَنْ بِإِزَائِهِم مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَمَقْصُودُهُمُ الاسْتِيلَاءُ عَلَى الدَّارِ وَاصْطِلَامُ أَهْلِهَا.

كَمَا نَزَلَ أُولَئِكَ بِنَوَاحِي المَدِينَةِ بِإِزَاءِ الْمُسْلِمِينَ، وَدَامَ الحِصَارُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ عَامَ الخَنْدَقِ ـ عَلَى مَا قِيلَ ـ بِضْعًا وَعِشْرِينَ لَيْلَةً. وَقِيلَ: عِشْرِينَ لَيْلَةً.

وَهَذَا العَدُوُّ ـ التتار ـ عَبَرَ الفُرَاتَ سَابِعَ عَشَرَ رَبِيعِ الآخِرِ وَكَانَ أَوَّلُ انْصِرَافِهِ رَاجِعًا عَنْ حَلَبَ لَـمَّا رَجَعَ مُقَدَّمُهُمْ الكَبِيرُ قَازَانُ بِمَنْ مَعَهُ: يَوْمَ الاثْنَيْنِ حَادِي أَوْ ثَانِي عَشَرَ جُمَادَى الأُولَى يَوْمَ دَخَلَ العَسْكَرُ عَسْكَرُ الْمُسْلِمِينَ إِلَى مِصْرَ المَحْرُوسَةِ، وَاجْتَمَعَ بِهِمُ الدَّاعِي وَخَاطَبَهُمْ فِي هَذِهِ القَضِيَّةِ.

وَكَانَ اللهُ ﷻ لَـمَّا أَلْقَى فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ مَا أَلْقَى مِنَ الاهْتِمَامِ وَالعَزْمِ: أَلْقَى اللهُ فِي قُلُوبِ عَدُوِّهِمُ الرَّوْعَ وَالانْصِرَافَ.

وَكَانَ عَامَ الخَنْدَقِ بَرْدٌ شَدِيدٌ وَرِيحٌ شَدِيدَةٌ مُنْكَرَةٌ بِهَا صَرَفَ اللهُ الأَحْزَابَ عَنِ المَدِينَةِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾.

وَهَكَذَا هَذَا العَامُ أَكْثَرَ اللهُ فِيهِ الثَّلْجَ وَالمَطَرَ وَالبَرْدَ عَلَى خِلَافِ أَكْثَرِ العَادَاتِ، حَتَّى كَرِهَ أَكْثَرُ النَّاسِ ذَلِكَ، وَكُنَّا نَقُولُ لَهُمْ: لَا تَكْرَهُوا ذَلِكَ؛ فَإِنَّ للهِ فِيهِ حِكْمَةً وَرَحْمَةً.

وَكَانَ ذَلِكَ مِنْ أَعْظَمِ الأَسْبَابِ الَّتِي صَرَفَ اللهُ بِهِ العَدُوَّ؛ فَإِنَّهُ كَثُرَ عَلَيْهِمُ الثَّلْجُ وَالمَطَرُ وَالبَرْدُ حَتَّى هَلَكَ مِنْ خَيْلِهِمْ مَا شَاءَ اللهُ، وَهَلَكَ أَيْضًا مِنْهُمْ مَنْ شَاءَ اللهُ، وَظَهَرَ فِيهِمْ وَفِي بَقِيَّةِ خَيْلِهِمْ مِنَ الضَّعْفِ وَالعَجْزِ بِسَبَبِ البَرْدِ وَالجُوعِ مَا رَأَوْا أَنَّهُمْ لَا طَاقَةَ لَهُمْ مَعَهُ بِقِتَالٍ، حَتَّى بَلَغَنِي عَنْ بَعْضِ كِبَارِ الْمُقَدَّمِينَ فِي أَرْضِ الشَّامِ أَنَّهُ قَالَ: لَا بَيَّضَ اللهُ وُجُوهَنَا: أَعَدُوُّنَا فِي الثَّلْجِ إِلَى شَعَرِهِ وَنَحْنُ قُعُودٌ لَا نَأْخُذُهُمْ؟ وَحَتَّى عَلِمُوا أَنَّهُمْ كَانُوا صَيْدًا لِلْمُسْلِمِينَ لَوْ يَصْطَادُونَهُمْ؛ لَكِنْ فِي تَأْخِيرِ اللهِ اصْطِيَادَهُمْ حِكْمَةٌ عَظِيمَةٌ.

وَقَالَ اللهُ فِي شَأْنِ الأَحْزَابِ: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ۝١٠ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ۝١١﴾ [الأحزاب].

وَهَكَذَا هَذَا العَامُ، جَاءَ العَدُوُّ مِنْ نَاحِيَتِي عُلُوِّ الشَّامِ وَهُوَ شَمَالُ الفُرَاتِ، وَهُوَ قِبْلِيُّ الفُرَاتِ، فَزَاغَتِ الأَبْصَارُ زَيْغًا عَظِيمًا وَبَلَغَتِ القُلُوبُ الحَنَاجِرَ؛ لِعِظَمِ البَلَاءِ؛ لَا سِيَّمَا لَـمَّا اسْتَفَاضَ الخَبَرُ بِانْصِرَافِ العَسْكَرِ إِلَى مِصْرَ وَتَقَرُّبِ العَدُوِّ وَتَوَجُّهِهِ إِلَى دِمَشْقَ، وَظَنَّ النَّاسُ بِاللهِ الظُّنُونَا:

هَذَا يَظُنُّ أَنَّهُ لَا يَقِفُ قُدَّامَهُمْ أَحَدٌ مِنْ جُنْدِ الشَّامِ حَتَّى يَصْطَلِمُوا أَهْلَ الشَّامِ.

وَهَذَا يَظُنُّ أَنَّهُمْ لَوْ وَقَفُوا لَكَسَرُوهُمْ كَسْرَةً وَأَحَاطُوا بِهِمْ إِحَاطَةَ الهَالَةِ بِالقَمَرِ.

وَهَذَا يَظُنُّ أَنَّ أَرْضَ الشَّامِ مَا بَقِيَتْ تُسْكَنُ وَلَا بَقِيَتْ تَكُونُ تَحْتَ مَمْلَكَةِ الإِسْلَامِ.

وَهَذَا يَظُنُّ أَنَّهُمْ يَأْخُذُونَهَا ثُمَّ يَذْهَبُونَ إِلَى مِصْرَ فَيَسْتَوْلُونَ عَلَيْهَا فَلَا يَقِفُ قُدَّامَهُمْ أَحَدٌ فَيُحَدِّثُ نَفْسَهُ بِالفِرَارِ إِلَى اليَمَنِ وَنَحْوِهَا.

وَهَذَا ـ إِذَا أَحْسَنَ ظَنَّهُ ـ قَالَ: إِنَّهُمْ يَمْلِكُونَهَا العَامَ كَمَا مَلَكُوهَا عَامَ هُولَاكُو سَنَةَ سَبْعٍ وَخَمْسِينَ، ثُمَّ قَدْ يَخْرُجُ العَسْكَرُ مِنْ مِصْرَ فَيَسْتَنْقِذُهَا مِنْهُمْ كَمَا خَرَجَ ذَلِكَ العَامَ، وَهَذَا ظَنُّ خِيَارِهِمْ.

وَهَذَا يَظُنُّ أَنَّ مَا أَخْبَرَهُ بِهِ أَهْلُ الآثَارِ النَّبَوِيَّةِ وَأَهْلُ التَّحْدِيثِ وَالمُبَشِّرَاتُ أَمَانِي كَاذِبَةٌ وَخُرَافَاتٌ لَاغِيَةٌ.

وَهَذَا قَدْ اسْتَوْلَى عَلَيْهِ الرُّعْبُ وَالفَزَعُ حَتَّى يَمُرَّ الظَّنُّ بِفُؤَادِهِ مَرَّ السَّحَابِ لَيْسَ لَهُ عَقْلٌ يَتَفَهَّمُ وَلَا لِسَانٌ يَتَكَلَّمُ.

وَهَذَا قَدْ تَعَارَضَتْ عِنْدَهُ الأَمَارَاتُ وَتَقَابَلَتْ عِنْدَهُ الإِرَادَاتُ؛ لَا سِيَّمَا وَهُوَ لَا يُفَرِّقُ مِنَ المُبَشِّرَاتِ بَيْنَ الصَّادِقِ وَالكَاذِبِ، وَلَا يُمَيِّزُ فِي التَّحْدِيثِ بَيْنَ المُخْطِئِ وَالصَّائِبِ، وَلَا يَعْرِفُ النُّصُوصَ الأَثَرِيَّةَ مَعْرِفَةَ العُلَمَاءِ؛ بَلْ إِمَّا أَنْ يَكُونَ جَاهِلًا بِهَا وَقَدْ سَمِعَهَا سَمَاعَ العِبَرِ ثُمَّ قَدْ لَا يَتَفَطَّنُ لِوُجُوهِ دَلَالَتِهَا الخَفِيَّةِ وَلَا يَهْتَدِي لِدَفْعِ مَا يَتَخَيَّلُ أَنَّهُ مُعَارِضٌ لَهَا فِي بَادِئِ الرَّوِيَّةِ، فَلِذَلِكَ اسْتَوْلَتْ الحِيرَةُ عَلَى مَنْ كَانَ مُتَّسِمًا بِالِاهْتِدَاءِ وَتَرَاجَمَتْ بِهِ الآرَاءُ تَرَاجُمَ الصِّبْيَانِ بِالحَصْبَاءِ ﴿هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا ۝١١﴾، ابْتَلَاهُمُ اللهُ بِهَذَا الِابْتِلَاءِ الَّذِي يُكَفِّرُ بِهِ خَطِيئَاتِهِمْ وَيَرْفَعُ بِهِ دَرَجَاتِهِمْ وَزُلْزِلُوا بِمَا يَحْصُلُ لَهُمْ مِنَ الرَّجَفَاتِ مَا اسْتَوْجَبُوا بِهِ أَعْلَى الدَّرَجَاتِ.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورٗا ۝١٢﴾ [الأحزاب].

وَهَكَذَا قَالُوا فِي هَذِهِ الفِتْنَةِ فِيمَا وَعَدَهُمْ أَهْلُ الوِرَاثَةِ النَّبَوِيَّةِ وَالخِلَافَةِ الرِّسَالِيَّةِ، وَحِزْبُ اللهِ المُحَدَّثُونَ عَنْهُ، حَتَّى حَصَلَ لِهَؤُلَاءِ التَّأَسِّي بِرَسُولِ اللهِ ﷺ كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ﴾ [الأحزاب: ٢١].

فَأَمَّا المُنَافِقُونَ فَقَدْ مَضَى التَّنْبِيهُ عَلَيْهِمْ.

وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَقَدْ تَكَرَّرَ ذِكْرُهُمْ فِي هَذِهِ السُّورَةِ، فَذَكَرُوا هُنَا وَفِي قَوْلِهِ: ﴿۞ لَّئِن لَّمۡ يَنتَهِ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡمُرۡجِفُونَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ﴾ [الأحزاب: ٦٠]، وَفِي قَوْلِهِ: ﴿فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ﴾ [الأحزاب: ٣٢]، وَذَكَرَ اللهُ مَرَضَ القَلْبِ فِي مَوَاضِعَ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡ﴾ [الأنفال: ٤٩]، وَالمَرَضُ فِي القَلْبِ كَالمَرَضِ فِي الجَسَدِ فَكَمَا أَنَّ هَذَا هُوَ إِحَالَةٌ عَنِ الصِّحَّةِ وَالِاعْتِدَالِ مِنْ غَيْرِ مَوْتٍ فَكَذَلِكَ قَدْ يَكُونُ فِي القَلْبِ مَرَضٌ يُحِيلُهُ عَنِ الصِّحَّةِ وَالِاعْتِدَالِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَمُوتَ القَلْبُ سَوَاءٌ أَفْسَدَ إِحْسَاسَ القَلْبِ وَإِدْرَاكَهُ أَوْ أَفْسَدَ عَمَلَهُ وَحَرَكَتَهُ، وَذَلِكَ ـ كَمَا فَسَّرُوهُ ـ: هُوَ مِنْ ضَعْفِ الإِيمَانِ؛ إِمَّا بِضَعْفِ عِلْمِ القَلْبِ وَاعْتِقَادِهِ وَإِمَّا بِضَعْفِ عَمَلِهِ وَحَرَكَتِهِ، فَيَدْخُلُ فِيهِ مَنْ

ضَعُفَ تَصْدِيقُهُ وَمَنْ غَلَبَ عَلَيْهِ الجُبْنُ وَالفَزَعُ؛ فَإِنَّ أَدْوَاءَ القَلْبِ مِنَ الشَّهْوَةِ المُحَرَّمَةِ وَالحَسَدِ وَالجُبْنِ وَالبُخْلِ وَغَيْرِ ذَلِكَ كُلُّهَا أَمْرَاضٌ، وَكَذَلِكَ الجَهْلُ وَالشُّكُوكُ وَالشُّبُهَاتُ الَّتِي فِيهِ.

وَعَلَى هَذَا فَقَوْلُ: ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ هُوَ إِرَادَةُ الفُجُورِ وَشَهْوَةُ الزِّنَا كَمَا فَسَّرُوهُ بِهِ. وَمِنْهُ قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ: «**وَأَيُّ دَاءٍ أَدْوَأُ مِنَ البُخْلِ؟**».

وَقَدْ جَعَلَ اللهُ تَعَالَى كِتَابَهُ شِفَاءً لِمَا فِي الصُّدُورِ وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّمَا شِفَاءُ العِيِّ السُّؤَالُ**».

وَكَانَ يَقُولُ ﷺ فِي دُعَائِهِ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ مُنْكَرَاتِ الأَخْلَاقِ وَالأَهْوَاءِ وَالأَدْوَاءِ**».

وَلَنْ يَخَافَ الرَّجُلُ غَيْرَ اللهِ إِلَّا لِمَرَضٍ فِي قَلْبِهِ، كَمَا ذَكَرُوا أَنَّ رَجُلًا شَكَا إِلَى أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ خَوْفَهُ مِنْ بَعْضِ الوُلَاةِ فَقَالَ: لَوْ صَحَحْتَ لَمْ تَخَفْ أَحَدًا، أَيْ خَوْفُكَ مِنْ أَجْلِ زَوَالِ الصِّحَّةِ مِنْ قَلْبِكَ؛ وَلِهَذَا أَوْجَبَ اللهُ عَلَى عِبَادِهِ أَنْ لَا يَخَافُوا حِزْبَ الشَّيْطَانِ؛ بَلْ لَا يَخَافُونَ غَيْرَهُ تَعَالَى فَقَالَ: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران] أَيْ يُخَوِّفُكُمْ أَوْلِيَاءَهُ. وَقَالَ لِعُمُومِ بَنِي إِسْرَائِيلَ تَنْبِيهًا لَنَا: ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾﴾ [البقرة]، وَقَالَ: ﴿فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾ [المائدة: ٤٤]، وَقَالَ: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى﴾ [البقرة: ١٥٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ﴾ [المائدة: ٣]، وَقَالَ: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [التوبة: ١٨]، وَقَالَ: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٩]، وَقَالَ: ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ﴾ [التوبة: ١٣]، فَدَلَّتْ هَذِهِ الآيَةُ ـ وَهِيَ قَوْله تَعَالَى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [الأحزاب: ١٢] ـ عَلَى أَنَّ المَرَضَ وَالنِّفَاقَ فِي القَلْبِ يُوجِبُ الرَّيْبَ فِي الأَنْبَاءِ الصَّادِقَةِ الَّتِي تُوجِبُ أَمْنَ الإِنْسَانِ: مِنَ الخَوْفِ حَتَّى يَظُنُّوا أَنَّهَا كَانَتْ غُرُورًا لَهُمْ كَمَا وَقَعَ فِي حَادِثَتِنَا هَذِهِ سَوَاءً.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُواْ﴾ [الأحزاب: ١٣]، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ قَدْ عَسْكَرَ بِالمُسْلِمِينَ عِنْدَ سَلْعٍ وَجَعَلَ الخَنْدَقَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ العَدُوِّ، فَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ: لَا مُقَامَ لَكُمْ هُنَا؛ لِكَثْرَةِ العَدُوِّ، فَارْجِعُوا إِلَى المَدِينَةِ، وَقِيلَ: لَا مُقَامَ لَكُمْ عَلَى دِينِ مُحَمَّدٍ فَارْجِعُوا إِلَى دِينِ الشِّرْكِ، وَقِيلَ: لَا مُقَامَ لَكُمْ عَلَى القِتَالِ فَارْجِعُوا إِلَى الاِسْتِئْمَانِ وَالاِسْتِجَارَةِ بِهِمْ.

وَهَكَذَا لَـمَّا قَدِمَ هَذَا العَدُوُّ كَانَ مِنَ المُنَافِقِينَ مَنْ قَالَ: مَا بَقِيَتْ الدَّوْلَةُ الإِسْلَامِيَّةُ تَقُومُ فَيَنْبَغِي الدُّخُولُ فِي دَوْلَةِ التَّتَارِ.

وَقَالَ بَعْضُ الخَاصَّةِ: مَا بَقِيَتْ أَرْضُ الشَّامِ تُسْكَنُ؛ بَلْ نَنْتَقِلُ عَنْهَا إِمَّا إِلَى الحِجَازِ وَالْيَمَنِ وَإِمَّا إِلَى مِصْرَ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بَلِ المَصْلَحَةُ الاِسْتِسْلَامُ لِهَؤُلَاءِ كَمَا قَدْ اسْتَسْلَمَ لَهُمْ أَهْلُ العِرَاقِ وَالدُّخُولُ تَحْتَ حُكْمِهِمْ. فَهَذِهِ المَقَالَاتُ الثَّلَاثُ قَدْ قِيلَتْ فِي هَذِهِ النَّازِلَةِ، كَمَا قِيلَتْ فِي تِلْكَ.

وَهَكَذَا قَالَ طَائِفَةٌ مِنَ المُنَافِقِينَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ لِأَهْلِ دِمَشْقَ خَاصَّةً وَالشَّامِ عَامَّةً: لَا مُقَامَ لَكُمْ بِهَذِهِ الأَرْضِ، وَنَفْيُ المَقَامِ بِهَا أَبْلَغُ مِنْ نَفْيِ المُقَامِ، وَإِنْ كَانَتْ قَدْ قُرِئَتْ بِالضَّمِّ أَيْضًا، فَإِنَّ مَنْ لَمْ يَقْدِرْ أَنْ يَقُومَ بِالمَكَانِ فَكَيْفَ يُقِيمُ بِهِ؟

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَيَسْتَـْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾﴾ [الأحزاب]، وَكَانَ قَوْمٌ مِنْ هَؤُلَاءِ المَذْمُومِينَ يَقُولُونَ - وَالنَّاسُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ عِنْدَ سلع دَاخِلِ الخَنْدَقِ وَالنِّسَاءُ وَالصِّبْيَانُ فِي آطَامِ المَدِينَةِ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ، أَيْ: مَكْشُوفَةٌ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ العَدُوِّ حَائِلٌ.

وَأَصْلُ العَوْرَةِ: الخَالِي الَّذِي يَحْتَاجُ إِلَى حِفْظٍ وَسِتْرٍ. يُقَالُ: اعْوَرَّ مَجْلِسُكَ إِذَا ذَهَبَ سِتْرُهُ أَوْ سَقَطَ جِدَارُهُ. وَمِنْهُ عَوْرَةُ العَدُوِّ.

وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَالحَسَنُ: أَيْ ضَائِعَةٌ تُخْشَى عَلَيْهَا السُّرَّاقُ.

وَقَالَ قتادة: قَالُوا: بُيُوتُنَا مِمَّا يَلِي العَدُوَّ فَلَا نَأْمَنُ عَلَى أَهْلِنَا فَأْذَنْ لَنَا أَنْ نَذْهَبَ إِلَيْهَا لِحِفْظِ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ﴾ لِأَنَّ اللهَ يَحْفَظُهَا ﴿إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾﴾ فَهُمْ يَقْصِدُونَ الفِرَارَ مِنَ الجِهَادِ وَيَحْتَجُّونَ بِحُجَّةِ العَائِلَةِ.

وَهَكَذَا أَصَابَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فِي هَذِهِ الغَزَاةِ، صَارُوا يَفِرُّونَ مِنَ الثَّغْرِ إِلَى المَعَاقِلِ وَالحُصُونِ وَإِلَى الأَمَاكِنِ البَعِيدَةِ كَمِصْرَ، وَيَقُولُونَ: مَا مَقْصُودُنَا إِلَّا حِفْظَ العِيَالِ وَمَا يُمْكِنُ إِرْسَالُهُمْ مَعَ غَيْرِنَا، وَهُمْ يَكْذِبُونَ فِي ذَلِكَ، فَقَدْ كَانَ يُمْكِنُهُمْ جَعْلُهُمْ فِي حِصْنِ دِمَشْقَ لَوْ دَنَا العَدُوُّ، كَمَا فَعَلَ المُسْلِمُونَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَقَدْ كَانَ يُمْكِنُهُمْ إِرْسَالُهُمْ وَالمُقَامُ لِلجِهَادِ، فَكَيْفَ بِمَنْ فَرَّ بَعْدَ إِرْسَالِ عِيَالِهِ؟

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَـَٔاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾﴾ [الأحزاب]، فَأَخْبَرَ أَنَّهُ لَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمُ المَدِينَةُ مِنْ جَوَانِبِهَا ثُمَّ طَلَبَتْ مِنْهُمُ الفِتْنَةَ - وَهِيَ الاِفْتِتَانُ عَنِ الدِّينِ بِالكُفْرِ أَوِ النِّفَاقِ - لَأَعْطُوا الفِتْنَةَ، وَلَجَاؤُوهَا مِنْ غَيْرِ تَوَقُّفٍ.

وَهَذِهِ حَالُ أَقْوَامٍ لَوْ دَخَلَ عَلَيْهِمْ هَذَا العَدُوُّ المُنَافِقُ المُجْرِمُ، ثُمَّ طَلَبَ مِنْهُمْ مُوَافَقَتَهُ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ الخُرُوجِ عَنْ شَرِيعَةِ الإِسْلَامِ - وَتِلْكَ فِتْنَةٌ عَظِيمَةٌ - لَكَانُوا مَعَهُ عَلَى ذَلِكَ، كَمَا سَاعَدَهُمْ فِي العَامِ المَاضِي

أَقْوَامٌ بِأَنْوَاعٍ مِنَ الفِتْنَةِ فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا مَا بَيْنَ تَرْكِ وَاجِبَاتٍ وَفِعْلِ مُحَرَّمَاتٍ إِمَّا فِي حَقِّ اللهِ وَإِمَّا فِي حَقِّ العِبَادِ، كَتَرْكِ الصَّلَاةِ، وَشُرْبِ الخُمُورِ، وَسَبِّ السَّلَفِ، وَسَبِّ جُنُودِ المُسْلِمِينَ وَالتَّجَسُّسِ لَهُمْ عَلَى المُسْلِمِينَ وَدَلَالَتِهِمْ عَلَى أَمْوَالِ المُسْلِمِينَ وَحَرِيمِهِمْ، وَأَخْذِ أَمْوَالِ النَّاسِ وَتَعْذِيبِهِمْ وَتَقْوِيَةِ دَوْلَتِهِمْ المَلْعُونَةِ، وَإِرْجَافِ قُلُوبِ المُسْلِمِينَ مِنْهُمْ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ الفِتْنَةِ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الأحزاب].

هَذِهِ حَالُ أَقْوَامٍ عَاهَدُوا ثُمَّ نَكَثُوا قَدِيمًا وَحَدِيثًا فِي هَذِهِ الغَزْوَةِ، فَإِنَّ فِي العَامِ المَاضِي وَفِي هَذَا العَامِ: فِي أَوَّلِ الأَمْرِ كَانَ مِنْ أَصْنَافِ النَّاسِ مَنْ عَاهَدَ عَلَى أَنْ يُقَاتِلَ وَلَا يَفِرَّ ثُمَّ فَرَّ مُنْهَزِمًا لَـمَّا اشْتَدَّ الأَمْرُ.

ثُمَّ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾﴾ [الأحزاب]، فَأَخْبَرَ اللهُ أَنَّ الفِرَارَ لَا يَنْفَعُ لَا مِنَ المَوْتِ وَلَا مِنَ القَتْلِ، فَالفِرَارُ مِنَ المَوْتِ كَالفِرَارِ مِنَ الطَّاعُونِ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلَا تَخْرُجُوا فِرَارًا مِنْهُ**»، وَالفِرَارُ مِنَ القَتْلِ كَالفِرَارِ مِنْ الجِهَادِ، وَحَرْفُ «لَنْ» يَنْفِي الفِعْلَ فِي الزَّمَنِ المُسْتَقْبَلِ، وَالفِعْلُ نَكِرَةٌ، وَالنَّكِرَةُ فِي سِيَاقِ النَّفْيِ تَعُمُّ جَمِيعَ أَفْرَادِهَا، فَاقْتَضَى ذَلِكَ: أَنَّ الفِرَارَ مِنَ المَوْتِ أَوْ القَتْلِ لَيْسَ فِيهِ مَنْفَعَةٌ أَبَدًا، وَهَذَا خَبَرُ اللهِ الصَّادِقِ، فَمَنْ اعْتَقَدَ أَنَّ ذَلِكَ يَنْفَعُهُ فَقَدْ كَذَّبَ اللهَ فِي خَبَرِهِ، وَالتَّجْرِبَةُ تَدُلُّ عَلَى مِثْلِ مَا دَلَّ عَلَيْهِ القُرْآنُ، فَإِنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ فَرُّوا فِي هَذَا العَامِ لَمْ يَنْفَعْهُمْ فِرَارُهُمْ؛ بَلْ خَسِرُوا الدِّينَ وَالدُّنْيَا وَتَفَاوَتُوا فِي المَصَائِبِ، وَالمُرَابِطُونَ الثَّابِتُونَ نَفَعَهُمْ ذَلِكَ فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا، حَتَّى المَوْتُ الَّذِي فَرُّوا مِنْهُ كَثُرَ فِيهِمْ، وَقَلَّ فِي المُقِيمِينَ، فَمَا مَنَعَ الهَرَبُ مَنْ شَاءَ اللهُ، وَالطَّالِبُونَ لِلعَدُوِّ وَالمُعَاقِبُونَ لَهُ لَمْ يَمُتْ مِنْهُمْ أَحَدٌ وَلَا قُتِلَ؛ بَلِ المَوْتُ قَلَّ فِي البَلَدِ مِنْ حِينِ خَرَجَ الفَارُّونَ، وَهَكَذَا سُنَّةُ اللهِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾﴾ يَقُولُ: لَوْ كَانَ الفِرَارُ يَنْفَعُكُمْ لَمْ يَنْفَعْكُمْ إِلَّا حَيَاةً قَلِيلَةً ثُمَّ تَمُوتُونَ، فَإِنَّ المَوْتَ لَا بُدَّ مِنْهُ، وَقَدْ حُكِيَ عَنْ بَعْضِ الحَمْقَى أَنَّهُ قَالَ: فَنَحْنُ نُرِيدُ ذَلِكَ القَلِيلَ، وَهَذَا جَهْلٌ مِنْهُ بِمَعْنَى الآيَةِ، فَإِنَّ اللهَ لَمْ يَقُلْ: إِنَّهُمْ يُمَتَّعُونَ بِالفِرَارِ قَلِيلًا، لَكِنَّهُ ذَكَرَ أَنَّهُ لَا مَنْفَعَةَ فِيهِ أَبَدًا، ثُمَّ ذَكَرَ جَوَابًا ثَانِيًا، أَنَّهُ لَوْ كَانَ يَنْفَعُ لَمْ يَكُنْ فِيهِ إِلَّا مَتَاعٌ قَلِيلٌ، ثُمَّ ذَكَرَ جَوَابًا ثَالِثًا وَهُوَ أَنَّ الفَارَّ يَأْتِيهِ مَا قُضِيَ لَهُ مِنَ المَضَرَّةِ وَيَأْتِي الثَّابِتُ مَا قُضِيَ لَهُ مِنَ المَسَرَّةِ، فَقَالَ: ﴿قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾ [الأحزاب]، وَنَظِيرُهُ: قَوْلُهُ فِي سِيَاقِ آيَاتِ الجِهَادِ: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ الآيَةَ [النساء: ٧٨]، وَقَوْلُهُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ ۗ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾﴾ [آل عمران].

فَمَضْمُونُ الأَمْرِ: أَنَّ المَنَايَا مَحْتُومَةٌ فَكَمْ مَنْ حَضَرَ الصُّفُوفَ فَسَلِمَ، وَكَمْ مِمَّنْ فَرَّ مِنَ المَنِيَّةِ فَصَادَفَتْهُ، كَمَا قَالَ خَالِدُ بْنُ الوَلِيدِ ﷺ ـ لَمَّا احْتُضِرَ ـ: **لَقَدْ حَضَرْتُ كَذَا وَكَذَا صَفًّا وَأَنَّ بِبَدَنِي بِضْعًا وَثَمَانِينَ مَا بَيْنَ ضَرْبَةٍ بِسَيْفٍ وَطَعْنَةٍ بِرُمْحٍ وَرَمْيَةٍ بِسَهْمٍ، وَهَا أَنَا ذَا أَمُوتُ عَلَى فِرَاشِي كَمَا يَمُوتُ البَعِيرُ، فَلَا نَامَتْ أَعْيُنُ الجُبَنَاءِ.**

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ﴾ [الأحزاب: ١٨].

قَالَ العُلَمَاءُ: كَانَ مِنَ المُنَافِقِينَ مَنْ يَرْجِعُ مِنَ الخَنْدَقِ فَيَدْخُلُ المَدِينَةَ، فَإِذَا جَاءَهُمْ أَحَدٌ قَالُوا لَهُ: وَيْحَكَ اجْلِسْ فَلَا تَخْرُجْ، وَيَكْتُبُونَ بِذَلِكَ إِلَى إِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ بِالعَسْكَرِ: أَنْ ائْتُونَا بِالمَدِينَةِ فَإِنَّا نَنْتَظِرُكُمْ، يُثَبِّطُونَهُمْ عَنِ القِتَالِ، وَكَانُوا لَا يَأْتُونَ العَسْكَرَ إِلَّا أَلَّا يَجِدُوا بُدًّا، فَيَأْتُونَ العَسْكَرَ لِيَرَى النَّاسُ وُجُوهَهُمْ، فَإِذَا غَفَلَ عَنْهُمْ عَادُوا إِلَى المَدِينَةِ، فَانْصَرَفَ بَعْضُهُمْ مِنْ عِنْدِ النَّبِيِّ ﷺ فَوَجَدَ أَخَاهُ لِأَبِيهِ وَأُمِّهِ وَعِنْدَهُ شِوَاءٌ وَنَبِيذٌ، فَقَالَ: أَنْتَ هَهُنَا وَرَسُولُ اللهِ ﷺ بَيْنَ الرِّمَاحِ وَالسُّيُوفِ؟ فَقَالَ: هَلُمَّ إِلَيَّ فَقَدْ أُحِيطَ بِكَ وَبِصَاحِبِكَ.

فَوَصَفَ المُثَبِّطِينَ عَنِ الجِهَادِ ـ وَهُمْ صِنْفَانِ ـ بِأَنَّهُمْ إِمَّا أَنْ يَكُونُوا فِي بَلَدِ الغُزَاةِ أَوْ فِي غَيْرِهِ، فَإِنْ كَانُوا فِيهِ عَوَّقُوهُمْ عَنِ الجِهَادِ بِالقَوْلِ أَوْ بِالعَمَلِ أَوْ بِهِمَا، وَإِنْ كَانُوا فِي غَيْرِهِ رَاسَلُوهُمْ أَوْ كَاتَبُوهُمْ: بِأَنْ يَخْرُجُوا إِلَيْهِمْ مِنْ بَلَدِ الغُزَاةِ لِيَكُونُوا مَعَهُمْ بِالحُصُونِ أَوْ بِالبُعْدِ، كَمَا جَرَى فِي هَذِهِ الغَزَاةِ، فَإِنَّ أَقْوَامًا فِي العَسْكَرِ وَالمَدِينَةِ وَغَيْرِهِمَا صَارُوا يُعَوِّقُونَ مَنْ أَرَادَ الغَزْوَ وَأَقْوَامًا بُعِثُوا مِنَ المَعَاقِلِ وَالحُصُونِ وَغَيْرِهَا إِلَى إِخْوَانِهِمْ: هَلُمَّ إِلَيْنَا، قَالَ اللهُ تَعَالَى فِيهِمْ: ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾ [الأحزاب]، أَيْ بُخَلَاءَ عَلَيْكُمْ بِالقِتَالِ مَعَكُمْ وَالنَّفَقَةِ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: بُخَلَاءُ عَلَيْكُمْ بِالخَيْرِ وَالظَّفَرِ وَالغَنِيمَةِ.

وَهَذِهِ حَالُ مَنْ بَخِلَ عَلَى المُؤْمِنِينَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ أَوْ شَحَّ عَلَيْهِمْ بِفَضْلِ اللهِ: مِنْ نَصْرِهِ وَرِزْقِهِ الَّذِي يُجْرِيهِ بِفِعْلِ غَيْرِهِ، فَإِنَّ أَقْوَامًا يَشُحُّونَ بِمَعْرُوفِهِمْ، وَأَقْوَامًا يَشُحُّونَ بِمَعْرُوفِ اللهِ وَفَضْلِهِ، وَهُمُ الحُسَّادُ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ﴾ [الأحزاب: ١٩] مِنْ شِدَّةِ الرُّعْبِ الَّذِي فِي قُلُوبِهِمْ يُشْبِهُونَ المُغْمَى عَلَيْهِ وَقْتَ النَّزْعِ، فَإِنَّهُ يَخَافُ وَيَذْهَلُ عَقْلُهُ وَيَشْخَصُ بَصَرُهُ وَلَا يَطْرِفُ، فَكَذَلِكَ هَؤُلَاءِ؛ لِأَنَّهُمْ يَخَافُونَ القَتْلَ، ﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ [الأحزاب: ١٩]، وَيُقَالُ فِي اللُّغَةِ: «صَلَقُوكُمْ» وَهُوَ رَفْعُ الصَّوْتِ بِالكَلَامِ المُؤْذِي، وَمِنْهُ «الصَّالِقَةُ» وَهِيَ الَّتِي تَرْفَعُ صَوْتَهَا بِالمُصِيبَةِ، يُقَالُ: صَلَقَهُ وَسَلَقَهُ ـ وَقَدْ قَرَأَ طَائِفَةٌ مِنَ السَّلَفِ بِهَا؛ لَكِنَّهَا خَارِجَةٌ عَنِ المُصْحَفِ ـ إِذَا خَاطَبَهُ خِطَابًا شَدِيدًا قَوِيًّا، وَيُقَالُ: خَطِيبٌ مِسْلَاقٌ: إِذَا كَانَ بَلِيغًا فِي خُطْبَتِهِ؛ لَكِنَّ الشِّدَّةَ هُنَا فِي الشَّرِّ لَا فِي الخَيْرِ، كَمَا قَالَ: ﴿ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ﴾ [الأحزاب: ١٩]، وَهَذَا السَّلْقُ بِالأَلْسِنَةِ الحَادَّةِ يَكُونُ بِوُجُوهٍ: تَارَةً يَقُولُ المُنَافِقُونَ لِلْمُؤْمِنِينَ: هَذَا الَّذِي جَرَى عَلَيْنَا بِشُؤْمِكُمْ؛ فَإِنَّكُمْ أَنْتُمُ الَّذِينَ دَعَوْتُمُ النَّاسَ إِلَى هَذَا الدِّينِ وَقَاتَلْتُمْ عَلَيْهِ وَخَالَفْتُمُوهُمْ؛ فَإِنَّ هَذِهِ مَقَالَةُ المُنَافِقِينَ لِلْمُؤْمِنِينَ مِنَ الصَّحَابَةِ.

وَتَارَةً يَقُولُونَ: أَنْتُمْ الَّذِينَ أَشَرْتُمْ عَلَيْنَا بِالْمُقَامِ هُنَا وَالثَّبَاتِ بِهَذَا الثَّغْرِ إِلَى هَذَا الوَقْتِ وَإِلَّا فَلَوْ كُنَّا سَافَرْنَا قَبْلَ هَذَا لَمَا أَصَابَنَا هَذَا.

وَتَارَةً يَقُولُونَ ـ أَنْتُمْ مَعَ قِلَّتِكُمْ وَضَعْفِكُمْ ـ تُرِيدُونَ أَنْ تَكْسِرُوا العَدُوَّ وَقَدْ غَرَّكُمْ دِينُكُمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾ [الأنفال].

وَتَارَةً يَقُولُونَ: أَنْتُمْ مَجَانِينُ لَا عقل لَكُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تُهْلِكُوا أَنْفُسَكُمْ وَالنَّاسُ مَعَكُمْ.

وَتَارَةً يَقُولُونَ أَنْوَاعًا مِنْ الكَلَامِ المُؤْذِي الشَّدِيدِ، وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ أَشِحَّةٌ عَلَى الخَيْرِ أَيْ حُرَّاصٌ عَلَى الغَنِيمَةِ وَالمَالِ الَّذِي قَدْ حَصَلَ لَكُمْ.

قَالَ قتادة: إِنْ كَانَ وَقْتَ قِسْمَةِ الغَنِيمَةِ بَسَطُوا أَلْسِنَتَهُمْ فِيكُمْ، يَقُولُونَ: أَعْطُونَا فَلَسْتُمْ بِأَحَقَّ بِهَا مِنَّا، فَأَمَّا عِنْدَ البَأْسِ فَأَجْبَنُ قَوْمٍ وَأَخْذَلُهُمْ لِلحَقِّ، وَأَمَّا عِنْدَ الغَنِيمَةِ فَأَشَحُّ قَوْمٍ، وَقِيلَ: أَشِحَّةٌ عَلَى الخَيْرِ أَيْ بُخَلَاءُ بِهِ لَا يَنْفَعُونَ لَا بِنُفُوسِهِمْ وَلَا بِأَمْوَالِهِمْ، وَأَصْلُ الشُّحِّ: شِدَّةُ الحِرْصِ الَّذِي يَتَوَلَّدُ عَنْهُ البُخْلُ، وَالظُّلْمُ: مَنْ مَنَعَ الحَقَّ وَأَخَذَ البَاطِلَ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِيَّاكُمْ وَالشُّحَّ؛ فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، أَمَرَهُمْ بِالبُخْلِ فَبَخِلُوا، وَأَمَرَهُمْ بِالظُّلْمِ فَظَلَمُوا، وَأَمَرَهُمْ بِالقَطِيعَةِ فَقَطَعُوا**؟» فَهَؤُلَاءِ أَشِحَّاءُ عَلَى إِخْوَانِهِمْ، أَيْ بُخَلَاءُ عَلَيْهِمْ وَأَشِحَّاءُ عَلَى الخَيْرِ أَيْ حُرَّاصٌ عَلَيْهِ، فَلَا يُنْفِقُونَهُ، كَمَا قَالَ: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾﴾ [العاديات]، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾﴾ [الأحزاب].

فَوَصَفَهُمْ بِثَلَاثَةِ أَوْصَافٍ:

أَحَدُهَا: أَنَّهُمْ لِفَرْطِ خَوْفِهِمْ يَحْسَبُونَ الأَحْزَابَ لَمْ يَنْصَرِفُوا عَنِ البَلَدِ، وَهَذِهِ حَالُ الجَبَانِ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ، فَإِنَّ قَلْبَهُ يُبَادِرُ إِلَى تَصْدِيقِ الخَبَرِ المُخَوِّفِ وَتَكْذِيبِ خَبَرِ الأَمْنِ.

الوَصْفُ الثَّانِي: أَنَّ الأَحْزَابَ إِذَا جَاؤُوا تَمَنَّوْا أَنْ لَا يَكُونُوا بَيْنَكُمْ؛ بَلْ يَكُونُونَ فِي البَادِيَةِ بَيْنَ الأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ: إِيش خَبَرُ المَدِينَةِ؟ وإِيش جَرَى لِلنَّاسِ؟

وَالوَصْفُ الثَّالِثُ: أَنَّ الأَحْزَابَ إِذَا أَتَوْا وَهُمْ فِيكُمْ لَمْ يُقَاتِلُوا إِلَّا قَلِيلًا.

وَهَذِهِ الصِّفَاتُ الثَّلَاثُ مُنْطَبِقَةٌ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ فِي هَذِهِ الغَزْوَةِ كَمَا يَعْرِفُونَهُ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَيَعْرِفُهُ مِنْهُمْ مَنْ خَبَرَهُمْ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب]، فَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّ الَّذِينَ يُبْتَلَوْنَ بِالعَدُوِّ كَمَا ابْتُلِيَ رَسُولُ الله ﷺ فَلَهُمْ فِيهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ حَيْثُ

أَصَابَهُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَهُ، فَلْيَتَأَسَّوْا بِهِ فِي التَّوَكُّلِ وَالصَّبْرِ، وَلَا يَظُنُّونَ أَنَّ هَذِهِ نِقَمٌ لِصَاحِبِهَا وَإِهَانَةٌ لَهُ، فَإِنَّهُ لَوْ كَانَ كَذَلِكَ مَا ابْتُلِيَ بِهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ خَيْرُ الخَلَائِقِ؛ بَلْ بِهَا يُنَالُ الدَّرَجَاتُ العَالِيَةُ، وَبِهَا يُكَفِّرُ اللهُ الخَطَايَا لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَاليَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا، وَإِلَّا فَقَدْ يُبْتَلَى بِذَلِكَ مَنْ لَيْسَ كَذَلِكَ فَيَكُونُ فِي حَقِّهِ عَذَابًا. كَالكُفَّارِ وَالمُنَافِقِينَ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾ [الأحزاب].

قَالَ العُلَمَاءُ: كَانَ اللهُ قَدْ أَنْزَلَ فِي سُورَةِ البَقَرَةِ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ [البقرة].

فَبَيَّنَ اللهُ سُبْحَانَهُ ـ مُنْكِرًا عَلَى مَنْ حَسِبَ خِلَافَ ذَلِكَ ـ أَنَّهُمْ لَا يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يُبْتَلَوْا مِثْلَ هَذِهِ الأُمَمِ قَبْلَهُمْ بِـ «البَأْسَاءِ» وَهِيَ الحَاجَةُ وَالفَاقَةُ، وَ«الضَّرَّاءُ» وَهِيَ الوَجَعُ وَالمَرَضُ، وَ«الزِّلْزَالُ»، وَهِيَ زَلْزَلَةُ العَدُوِّ، فَلَمَّا جَاءَ الأَحْزَابُ عَامَ الخَنْدَقِ فَرَأَوْهُمْ، قَالُوا: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ وَعَلِمُوا أَنَّ اللهَ قَدْ ابْتَلَاهُمْ بِالزِّلْزَالِ، وَأَتَاهُمْ مِثْلَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا لِحُكْمِ اللهِ وَأَمْرِهِ، وَهَذِهِ حَالُ أَقْوَامٍ فِي هَذِهِ الغَزْوَةِ قَالُوا ذَلِكَ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾ [الأحزاب: ٢٣]، أَيْ عَهْدَهُ الَّذِي عَاهَدَ اللهَ عَلَيْهِ فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ أَوْ عَاشَ، وَ«النَّحْبُ» النَّذْرُ وَالعَهْدُ، وَأَصْلُهُ مِنَ النَّحِيبِ، وَهُوَ الصَّوْتُ، وَمِنْهُ: الِانْتِحَابُ فِي البُكَاءِ وَهُوَ الصَّوْتُ الَّذِي تَكَلَّمَ بِهِ فِي العَهْدِ، ثُمَّ لَـمَّا كَانَ عَهْدُهُمْ هُوَ نَذْرُهُمْ الصِّدْقُ فِي اللِّقَاءِ ـ وَمَنْ صَدَقَ فِي اللِّقَاءِ فَقَدْ يُقْتَلُ ـ صَارَ يُفْهَمُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾ أَنَّهُ اسْتُشْهِدَ، لَا سِيَّمَا إِذَا كَانَ النَّحْبُ: نَذْرُ الصِّدْقِ فِي جَمِيعِ المَوَاطِنِ؛ فَإِنَّهُ لَا يَقْضِيهِ إِلَّا بِالمَوْتِ، وَقَضَاءُ النَّحْبِ هُوَ الوَفَاءُ بِالعَهْدِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾ أَيْ أَكْمَلَ الوَفَاءَ، وَذَلِكَ لِمَنْ كَانَ عَهْدُهُ مُطْلَقًا: بِالمَوْتِ أَوْ القَتْلِ، ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ [الأحزاب: ٢٣] قَضَاءَهُ إِذَا كَانَ قَدْ وَفَى البَعْضَ فَهُوَ يَنْتَظِرُ تَمَامَ العَهْدِ، وَأَصْلُ القَضَاءِ: الإِتْمَامُ وَالإِكْمَالُ، ﴿لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾﴾ [الأحزاب] بَيَّنَ اللهُ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ أَتَى بِالأَحْزَابِ لِيَجْزِيَ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ حَيْثُ صَدَقُوا فِي إِيمَانِهِمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحُجُرات].

فَحَصَرَ الإِيمَانَ فِي الْمُؤْمِنِينَ الْمُجَاهِدِينَ وَأَخْبَرَ أَنَّهُمْ هُمُ الصَّادِقُونَ فِي قَوْلِهِمْ: آمَنَّا؛ لَا مَنْ قَالَ كَمَا قَالَتِ الأَعْرَابُ: آمَنَّا وَالإِيمَانُ لَمْ يَدْخُلْ فِي قُلُوبِهِمْ؛ بَلِ انْقَادُوا وَاسْتَسْلَمُوا.

وَأَمَّا الْمُنَافِقُونَ فَهُمْ بَيْنَ أَمْرَيْنِ: إِمَّا أَنْ يُعَذِّبَهُمْ وَإِمَّا أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ. فَهَذَا حَالُ النَّاسِ فِي الْخَنْدَقِ وَفِي هَذِهِ الْغَزَاةِ.

وَأَيْضًا فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى ابْتَلَى النَّاسَ بِهَذِهِ الْفِتْنَةِ لِيَجْزِيَ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ، وَهُمُ الثَّابِتُونَ الصَّابِرُونَ لِيَنْصُرُوا اللهَ وَرَسُولَهُ، وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ، وَنَحْنُ نَرْجُو مِنَ اللهِ أَنْ يَتُوبَ عَلَى خَلْقٍ كَثِيرٍ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمَذْمُومِينَ؛ فَإِنَّ مِنْهُمْ مَنْ نَدِمَ، وَاللهُ سُبْحَانَهُ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ، وَقَدْ فَتَحَ اللهُ لِلتَّوْبَةِ بَابًا مِنْ قِبَلِ الْمَغْرِبِ عَرْضُهُ أَرْبَعُونَ سَنَةً، لَا يُغْلِقُهُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا.

وَقَدْ ذَكَرَ أَهْلُ الْمَغَازِي - مِنْهُمْ ابْنُ إِسْحَاقَ - أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ فِي الْخَنْدَقِ: «**الآنَ نَغْزُوهُمْ وَلَا يَغْزُونَا**» فَمَا غَزَتْ قُرَيْشٌ وَلَا غطفان وَلَا الْيَهُودُ الْمُسْلِمِينَ بَعْدَهَا؛ بَلْ غَزَاهُمُ الْمُسْلِمُونَ: فَفَتَحُوا خَيْبَرَ ثُمَّ فَتَحُوا مَكَّةَ.

كَذَلِكَ - إِنْ شَاءَ اللهُ - هَؤُلَاءِ الأَحْزَابُ مِنَ الْمَغُولِ وَأَصْنَافِ التُّرْكِ وَمِنَ الْفُرْسِ والمستعربة وَالنَّصَارَى وَنَحْوِهِمْ مِنْ أَصْنَافِ الْخَارِجِينَ عَنْ شَرِيعَةِ الإِسْلَامِ: الآنَ نَغْزُوهُمْ وَلَا يَغْزُونَا.

وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ خَالَطَ قُلُوبَهُمْ مَرَضٌ أَوْ نِفَاقٌ بِأَنْ يُنِيبُوا إِلَى رَبِّهِمْ وَيَحْسُنَ ظَنُّهُمْ بِالإِسْلَامِ وَتَقْوَى عَزِيمَتُهُمْ عَلَى جِهَادِ عَدُوِّهِمْ، فَقَدْ أَرَاهُمُ اللهُ مِنَ الآيَاتِ مَا فِيهِ عِبْرَةٌ لِأُولِي الأَبْصَارِ كَمَا قَالَ: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾ [الأحزاب].

فَإِنَّ اللهَ صَرَفَ الأَحْزَابَ عَامَ الْخَنْدَقِ بِمَا أَرْسَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ رِيحِ الصَّبَا: رِيحٌ شَدِيدَةٌ بَارِدَةٌ، وَبِمَا فَرَّقَ بِهِ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ حَتَّى شَتَّتَ شَمْلَهُمْ وَلَمْ يَنَالُوا خَيْرًا، إِذْ كَانَ هَمُّهُمْ فَتْحَ الْمَدِينَةِ وَالِاسْتِيلَاءَ عَلَيْهَا وَعَلَى الرَّسُولِ وَالصَّحَابَةِ كَمَا كَانَ هَمُّ هَذَا الْعَدُوِّ فَتْحَ الشَّامِ وَالِاسْتِيلَاءَ عَلَى مَنْ بِهَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَرَدَّهُمُ اللهُ بِغَيْظِهِمْ حَيْثُ أَصَابَهُمْ مِنَ الثَّلْجِ الْعَظِيمِ وَالْبَرْدِ الشَّدِيدِ وَالرِّيحِ الْعَاصِفِ وَالْجُوعِ الْمُزْعِجِ مَا اللهُ بِهِ عَلِيمٌ.

وَقَدْ كَانَ بَعْضُ النَّاسِ يَكْرَهُ تِلْكَ الثُّلُوجَ وَالأَمْطَارَ الْعَظِيمَةَ الَّتِي وَقَعَتْ فِي هَذَا الْعَامِ حَتَّى طَلَبُوا الِاسْتِصْحَاءَ غَيْرَ مَرَّةٍ، وَكُنَّا نَقُولُ لَهُمْ: هَذَا فِيهِ خِيَرَةٌ عَظِيمَةٌ. وَفِيهِ لِلهِ حِكْمَةٌ وَسِرٌّ فَلَا تَكْرَهُوهُ، فَكَانَ مِنْ حِكْمَتِهِ: أَنَّهُ فِيمَا قِيلَ: أَصَابَ قَازَانَ وَجُنُودَهُ حَتَّى أَهْلَكَهُمْ وَهُوَ كَانَ فِيمَا قِيلَ: سَبَبُ رَحِيلِهِمْ، وَابْتُلِيَ بِهِ الْمُسْلِمُونَ لِيَتَبَيَّنَ مَنْ يَصْبِرُ عَلَى أَمْرِ اللهِ وَحُكْمِهِ مِمَّنْ يَفِرُّ عَنْ طَاعَتِهِ وَجِهَادِ عَدُوِّهِ، وَكَانَ مَبْدَأُ رَحِيلِ قَازَانَ فِيمَنْ مَعَهُ مِنْ أَرْضِ الشَّامِ وَأَرَاضِي حَلَبَ: يَوْمَ الِاثْنَيْنِ حَادِيَ عَشَرَ جُمَادَى الأُولَى يَوْمَ دَخَلَتْ مِصْرَ عُقَيْبَ الْعَسْكَرِ وَاجْتَمَعَتْ بِالسُّلْطَانِ وَأُمَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ وَأَلْقَى اللهُ فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الِاهْتِمَامِ بِالْجِهَادِ مَا أَلْقَاهُ.

فَلَـمَّا ثَبَّتَ اللهُ قُلُوبَ الْمُسْلِمِينَ صَرَفَ العَدُوَّ جَزَاءً مِنْهُ وَبَيَانًا أَنَّ النِّيَّةَ الخَالِصَةَ وَالهِمَّةَ الصَّادِقَةَ يَنْصُرُ اللهُ بِهَا وَإِنْ لَمْ يَقَعِ الفِعْلُ وَإِنْ تَبَاعَدَتْ الدِّيَارُ، وَذَكَرَ أَنَّ اللهَ فَرَّقَ بَيْنَ قُلُوبِ هَؤُلَاءِ المَغُولِ وَالكَرَجِ وَأَلْقَى بَيْنَهُمْ تَبَاغُضًا وَتَعَادِيًا كَمَا أَلْقَى سُبْحَانَهُ عَامَ الأَحْزَابِ بَيْنَ قُرَيْشٍ وغطفان وَبَيْنَ اليَهُودِ.

كَمَا ذَكَرَ ذَلِكَ أَهْلُ المَغَازِي، فَإِنَّهُ لَمْ يَتَّسِعْ هَذَا المَكَانُ لِأَنْ نَصِفَ فِيهِ قِصَّةَ الخَنْدَقِ، بَل مَنْ طَالَعَهَا عَلِمَ صِحَّةَ ذَلِكَ كَمَا ذَكَرَهُ أَهْلُ المَغَازِي، مِثْلَ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ وَالزُّهْرِيِّ وَمُوسَى بْنِ عُقْبَةَ وَسَعِيدِ بْنِ يَحْيَى الأُمَوِيِّ وَمُحَمَّدِ بْنِ عَائِذٍ وَمُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ والواقدي وَغَيْرِهِمْ.

ثُمَّ تَبَقَّى بِالشَّامِ مِنْهُمْ بَقَايَا سَارَ إِلَيْهِمْ مِنْ عَسْكَرِ دِمَشْقَ أَكْثَرُهُمْ مُضَافًا إِلَى عَسْكَرِ حَمَاةَ وَحَلَبَ وَمَا هُنَالِكَ، وَثَبَتَ الْمُسْلِمُونَ بِإِزَائِهِمْ، وَكَانُوا أَكْثَرَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ بِكَثِيرٍ؛ لَكِنْ فِي ضَعْفٍ شَدِيدٍ وَتَقَرَّبُوا إِلَى حَمَاةَ وَأَذَلَّهُمْ اللهُ تَعَالَى فَلَمْ يَقْدَمُوا عَلَى الْمُسْلِمِينَ قَطُّ، وَصَارَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مَنْ يُرِيدُ الإِقْدَامَ عَلَيْهِمْ فَلَمْ يُوَافِقْهُ غَيْرُهُ فَجَرَتْ مُنَاوَشَاتٌ صِغَارٌ كَمَا جَرَى فِي غَزْوَةِ الخَنْدَقِ حَيْثُ قَتَلَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ﷺ فِيهَا عَمْرو بْنَ عَبْدِ وُدٍّ العَامِرِيَّ لَـمَّا اقْتَحَمَ الخَنْدَقَ هُوَ وَنَفَرٌ قَلِيلٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ.

كَذَلِكَ صَارَ يَتَقَرَّبُ بَعْضُ العَدُوِّ فَيَكْسِرُهُمُ الْمُسْلِمُونَ مَعَ كَوْنِ العَدُوِّ الْمُتَقَرِّبِ أَضْعَافَ مَنْ قَدْ سَرَى إِلَيْهِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَمَا مِنْ مَرَّةٍ إِلَّا وَقَدْ كَانَ الْمُسْلِمُونَ مستظهرين عَلَيْهِمْ، وَسَاقَ الْمُسْلِمُونَ خَلْفَهُمْ فِي آخِرِ النَّوْبَاتِ فَلَمْ يُدْرِكُوهُمْ إِلَّا عِنْدَ عُبُورِ الفُرَاتِ، وَبَعْضُهُمْ فِي جَزِيرَةٍ فِيهَا، فَرَأَوْا أَوَائِلَ الْمُسْلِمِينَ فَهَرَبُوا مِنْهُمْ وَخَالَطُوهُمْ؛ وَأَصَابَ الْمُسْلِمُونَ بَعْضَهُمْ، وَقِيلَ: إِنَّهُ غَرِقَ بَعْضُهُمْ.

وَكَانَ عُبُورُهُمْ وَخُلُوُّ الشَّامِ مِنْهُمْ فِي أَوَائِلِ رَجَبٍ بَعْدَ أَنْ جَرَى - مَا بَيْنَ عُبُورِ قَازَانَ أَوَّلًا وَهَذَا العُبُورُ - رَجَفَاتٌ وَوَقَعَاتٌ صِغَارٌ وَعَزَمْنَا عَلَى الذَّهَابِ إِلَى حَمَاةَ غَيْرَ مَرَّةٍ لِأَجْلِ الغَزَاةِ؛ لَـمَّا بَلَغَنَا أَنَّ الْمُسْلِمِينَ يُرِيدُونَ غَزْوَ الَّذِينَ بَقُوا، وَثَبَتَ بِإِزَائِهِمْ الْمُقَدَّمُ الَّذِي بِحَمَاةٍ وَمَنْ مَعَهُمْ مِنَ العَسْكَرِ وَمَنْ أَتَاهُ مِنْ دِمَشْقَ وَعَزَمُوا عَلَى لِقَائِهِمْ وَنَالُوا أَجْرًا عَظِيمًا.

وَقَدْ قِيلَ: إِنَّهُمْ كَانُوا عِدَّةَ كمانات؛ إِمَّا ثَلَاثَةٌ أَوْ أَرْبَعَةٌ، فَكَانَ مِنَ الْمُقَدَّرِ: أَنَّهُ إِذَا عَزَمَ الأَمْرُ وَصَدَقَ الْمُؤْمِنُونَ اللهَ يُلْقِي فِي قُلُوبِ عَدُوِّهِمُ الرُّعْبَ فَيَهْرُبُونَ، لَكِنْ أَصَابُوا مِنْ البُلَيْدَاتِ بِالشَّمَالِ مِثْلَ «تِيزِينِ» وَ«الفَوْعَةَ» وَ«مَعَرَّةِ مِصْرَيْنِ» وَغَيْرِهَا مَا لَمْ يَكُونُوا وَطِؤُوهُ فِي العَامِ المَاضِي.

وَقِيلَ: إِنَّ كَثِيرًا مِنْ تِلْكَ البِلَادِ كَانَ فِيهِمْ مَيْلٌ إِلَيْهِمْ؛ بِسَبَبِ الرَّفْضِ وَأَنَّ عِنْدَ بَعْضِهِمْ فَرَامِينَ مِنْهُمْ؛ لَكِنَّ هَؤُلَاءِ ظَلَمَةٌ وَمَنْ أَعَانَ ظَالِمًا بُلِيَ بِهِ، وَاللهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ۝١٢٩﴾ [الأنعام]، وَقَدْ ظَاهَرُوهُمْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ: الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ مِنْ أَهْلِ «سِيسَ» وَالإِفْرَنْجِ.

فَنَحْنُ نَرْجُو مِنَ الله أَنْ يُنْزِلَهُمْ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَهِيَ الحُصُونُ ـ وَيُقَالُ لِلقُرُونِ: الصَّيَاصِي ـ وَيَقْذِفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ، وَقَدْ فَتَحَ اللهُ تِلْكَ البِلَادَ، وَنَغْزُوهُمْ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى فَنَفْتَحُ أَرْضَ العِرَاقِ وَغَيْرَهَا وَتَعْلُو كَلِمَةُ الله وَيَظْهَرُ دِينُهُ؛ فَإِنَّ هَذِهِ الحَادِثَةَ كَانَ فِيهَا أُمُورٌ عَظِيمَةٌ جَازَتْ حَدَّ القِيَاسِ، وَخَرَجَتْ عَنْ سُنَنِ العَادَةِ، وَظَهَرَ لِكُلِّ ذِي عَقْلٍ مِنْ تَأْيِيدِ الله لِهَذَا الدِّينِ وَعِنَايَتِهِ بِهَذِهِ الأُمَّةِ وَحِفْظِهِ لِلأَرْضِ الَّتِي بَارَكَ فِيهَا لِلعَالَمِينَ ـ بَعْدَ أَنْ كَادَ الإِسْلَامُ أَنْ يَنْثَلِمَ وَكَرَّ العَدُوُّ كَرَّةً فَلَمْ يَلْوِ عَنْ..(١) وَخُذِلَ النَّاصِرُونَ فَلَمْ يَلْوُوا عَلَى.. وَتَحَيَّرَ السَّائِرُونَ فَلَمْ يَدْرُوا مَنْ..وَلَا إِلَى..وَانْقَطَعَتْ الأَسْبَابُ الظَّاهِرَةُ. وَأَهْطَعَتِ الأَحْزَابُ القَاهِرَةَ، وَانْصَرَفَتِ الفِئَةُ النَّاصِرَةُ وَتَخَاذَلَتْ القُلُوبُ المُتَنَاصِرَةُ وَثَبَتَتِ الفِئَةُ النَّاصِرَةُ وَأَيْقَنَتْ بِالنَّصْرِ القُلُوبُ الطَّاهِرَةُ وَاسْتَنْجَزَتْ مِنَ الله وَعْدَهُ العِصَابَةُ المَنْصُورَةُ الظَّاهِرَةُ، فَفَتَحَ اللهُ أَبْوَابَ سَمَوَاتِهِ لِجُنُودِهِ القَاهِرَةِ، وَأَظْهَرَ عَلَى الحَقِّ آيَاتِهِ البَاهِرَةَ، وَأَقَامَ عَمُودَ الكِتَابِ بَعْدَ مَيْلِهِ، وَثَبَتَ لِوَاءُ الدِّينِ بِقُوَّتِهِ وَحَوْلِهِ، وَأَرْغَمَ مَعَاطِسَ أَهْلِ الكُفْرِ وَالنِّفَاقِ، وَجَعَلَ ذَلِكَ آيَةً لِلمُؤْمِنِينَ إِلَى يَوْمِ التلاق. فَاللهُ يُتِمُّ هَذِهِ النِّعْمَةَ بِجَمْعِ قُلُوبِ أَهْلِ الإِيمَانِ عَلَى جِهَادِ أَهْلِ الطُّغْيَانِ وَيَجْعَلُ هَذِهِ المِنَّةَ الجَسِيمَةَ مَبْدًا لِكُلِّ مِنْحَةٍ كَرِيمَةٍ وَأَسَاسًا لِإِقَامَةِ الدَّعْوَةِ النَّبَوِيَّةِ القَوِيمَةِ وَيَشْفِي صُدُورَ المُؤْمِنِينَ مِنْ أَعَادِيهِمْ، وَيُمَكِّنُهُمْ مِنْ دَانِيهِمْ وَقَاصِيهِمْ.

وَالحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِينَ وَصَلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا.

قَالَ الشَّيْخُ ﷺ: كَتَبْتُ أَوَّلَ هَذَا الكِتَابِ بَعْدَ رَحِيلِ قَازَانَ وَجُنُودِهِ لَـمَّا رَجَعْتُ مِنْ مِصْرَ فِي جُمَادَى الآخِرَةِ وَأَشَاعُوا أَنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ أَحَدٌ، ثُمَّ لَـمَّا بَقِيَتْ تِلْكَ الطَّائِفَةُ اشْتَغَلْنَا بِالِاهْتِمَامِ بِجِهَادِهِمْ وَقَصْدَ الذَّهَابِ إِلَى إِخْوَانِنَا بِحَمَاةٍ وَتَحْرِيضِ الأُمَرَاءِ عَلَى ذَلِكَ حَتَّى جَاءَنَا الخَبَرُ بِانْصِرَافِ المُتَبَقِّينَ مِنْهُمْ. فَكَتَبْتُهُ فِي رَجَبٍ وَاللهُ أَعْلَمُ.

وَالحَمْدُ لله وَحْدَهُ.

وَصَلَّى اللهُ عَلَى أَشْرَفِ الخَلْقِ مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا إِلَى يَوْمِ الدِّينِ. ا. هـ.

---

(١) سقط بالأصل، وكذلك مكان النقط فيما يلي.